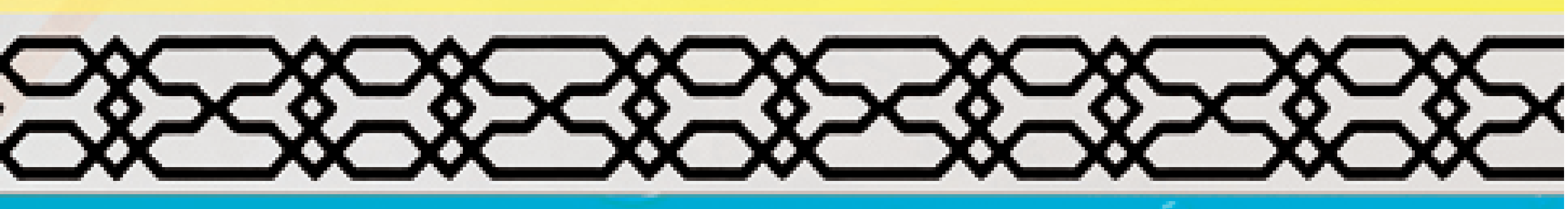
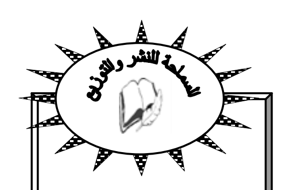
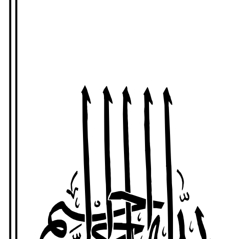
ثُلاثِيّاتُ السُّلُوكِ



الشيخُ الدُّكْتُورُ
جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِلِ اليَاسِين

ثـلاثيـات السلــوك







بطاقة الكتاب

الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

اسم الكتاب: ثلاثيات السلوك

اسم المؤلف : جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

الصف والإخراج: مركز بدور للثقافة والترجمة

الناشـــر: السماحة للنشر والتوزيع

عدد الصفحـات :

مقاس الكتـاب : ١٧ × ٢٤

عـدد المـلازم :

رقـم الإيـداع : ١٥٤٣ / ٢٠١٢

شركة
السماحة للنشر والتوزيع
الكويت
ت/٩٩٥٥٧٤٧١
الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦
ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

ثلاثيات السلوك

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مُهَلهِل الياسِين

الطبعة الأولى
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

تطلب منشوراتنا

في الكويت من : شركة السماحة للنشر والتوزيع

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

في مصر من : مؤسسة شروق للترجمة والتوزيع

المنصورة/ شارع جيهان– أمام مستشفى الطوارئ–ت: ٠٥٠ /٢٢٥٢٨٦٠

سلسلة بيت الدعوة

رقم السلسلة (١٤) الرقم الفني (١٤)

الإهْدَاءُ نَثْراً

إِلَى وَالِدَتِي مُنِيرَةَ الَّتِي لها مَن اسمْها نَصيبٌ، فقدْ أنارتْ لِي طريقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ .

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فهِيَ التَّي علمَّتَنِي كيفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَى الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِها - رَحِمَهَا اللهُ - بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أمّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الحَالَتَيْنِ، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الحَيَاةِ وَالمَمَاتِ.

ولَسْتُ أَعرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ - فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ - خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي - رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأَسْأَلُ الله - سُبْحَانَهُ - أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى

بِالإيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أحداً وَلا شَيْئاً، حَتَّى الأرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحّي بِصِحَّتِها وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أعرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَى وَالِدَتِي أُهْدِي ثَوَابَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلّي أُؤَدّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلادَتِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَى سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى أَوْلادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى كُلّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي الـمَشْرِقِ وَالـمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَذَا الإهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ أَلاَّ يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الشَّيخُ الدّكتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين

الإهْدَاءُ شعْراً

أمَّـــاهُ كُنْــتِ مُنِيـــرَةً وَمَنَـــارَةً   عُلْيَـا وَصَـــرْحاً ثابـتَ الأَرْكَـانِ

قَـدْ كُنْـتِ مَدْرَسَـةً تُعِـدُّ نُفُوسَنَـا   لِصَنَائِعِ الـمَعْـرُوفِ وَالإِحْسَانِ

قَــدْ كُنْــتِ لِلأَيْتَــامِ أُمَّــاً بَــرَّةً   وَالـجَارِ والمِسكِينِ أرأْفَ حَـانِ

أَرْضَعْتِنَا الأَخْلاق شَـهْدَاً سَلْسَلاً   تَــدْنُو ثِمَــارُ قُطُـوفِهَــا لِلْجَـانِي

عَلَّمْتِنَــا الـصَّبْرَ الـجَـمِيلَ خَـلِيقَةً   والقَولَ للحُسْنَى وكَفَّ لِسَـانِ

* * *

أبَتَــاهُ قَــدْ رَبَّيْتَنِـــي وَأَحَـطْتَنِي   برِعَـايَــةٍ فِــي غِبْطَــةٍ وَأَمَـــانِ

وَفَّـرْتَ أَسْـبَابَ الـسَّعَـادَةِ وَالهَنَـا   فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَى الأَقْرَانِ

فَجَـزَاكَ رَبُّ العَـرْشِ خَـيْرَ جَزَائِـهِ   وَأُسْــكِنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَــانِ

* * *

نَوَّرْتَ **يَا بَدْرَ** الدُّجَا سُبُلَ العُلا   بالفَــضْـلِ لاَ فَــظٍّ وَلاَ مَنَّـــانِ

كَـمْ ذَا تُقَابِـلُ بِالـسُّـرورِ تَـدَلُّلِي   بمَـحَبَّــةٍ وَبرَأْفَـــةٍ وَحَنَـــانِ

أَحْبَبْتَنِـــي قَـرَّبْتَنِـــي رَبَّيْتَنِـــي   بالعِــزِّ فِي ثِقَــةٍ وَفِــي اطْمِئْنَـانِ

* * *

أرَفيقَتِـي كُنْـتِ الـشُّعَـاعَ إِذا دَجَـا   لَيْـلُ الـحَيَـاةِ بـمُظْـلِمِ الحِـدْثَانِ

قَـدْ كُنْـتِ خَـيْرَ شَرِيكَــةٍ وَمُعِينَــةٍ   فِي الـبِرِّ عِنْــدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـوَانِ

الـصَّبْرُ فِيـكِ مَـعَ الوَفَـاءِ سَـجِيَّةٌ   بتَعَـاقُبِ الأَفْــرَاحِ وَالأَحْــزَانِ

* * *

يَـا حَبَّـذَا **أَفْـلاذ أكْبَـادٍ** بِـهَـا كَـمُلَ الـمُـرَادُ وَقَـرَّتِ العَيْنَـانِ

فَاحْفَـظْ **مُعَاذاً** وَاحْفَظَـنَّ **مُهَلْهِلاً** أَمَـدَ الزَّمَـانِ **وَعَابِـدَ الـرَّحْمَنِ**

لا زَالَ **عَبْدُ الله** فِي حِفْظٍ وَلاَ زَالُـوا جَمِيعـاً غُـرَّةَ الفِتْيَـانِ

وَلْتَـحْظَ **عَـائِشَـةٌ وَفَاطِـمَةٌ** بـِهَا قَـدْ شَـاءَتَا مِـنْ بُغْيَـةٍ وَأَمَـانِ

وَاحْفَظْ هَيَـا **وَمُنِيـرَةً** يَـا رَبَّنَـا مِـنْ مُبْطِـنِ البَغْـضَاءِ وَالـشَّنَآنِ

***

يَا رَبِّ لاَ زَالَ الـجَمِيـعُ بِنـعْمَةٍ وَقِـهِمْ شُرُورَ الـحَاسِـدِ المِعْيَـانِ

صَلَّى الإِلـهُ عَـلَى **النَّبِيِّ مُحَـمَّدٍ** وَالآلِ وَالأَصْحَـابِ كُلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

مقدمة الكتاب

الحمد لله ناشر الأمم ومنشر الرمم ، بارئ النسيم ومبرئ السقم ، مخرج الخلائق بلطف صنعه إلى الوجود من العدم، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة خالصة بوفاء الذمم ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعوث بجوامع الكلم ، صلى الله عليه صلاة دائمة باقية ما لمعت البروق وهمعت الديم ، وعلى آله وصحبه أولي الفضل والكرم .

أما بعد:

إن السلوك الصحيح وتزكية النفوس من أعظم أمور الدين، وأجل خصاله، حيث اهتم سلفنا الصالح بالسلوك الشرعي علماً وعملاً، فالسلوك الظاهر ملازم للإيمان الباطن، وصلاح الظاهر ناشئ عن صلاح الباطن، وكذا العكس.

ومع شدة الحاجة إلى فقه السلوك علماً وعملاً ، رغبت أن أسهم في خدمة هذا الجانب ، بكتابة هذه الكلمات التي سميتها (**ثلاثيات السلوك**).

والتي جاءت بأسلوبٍ بديعٍ ، وإيجَازٍ وَبَسْطٍ ، أَجْمَعُ فِيهِ بَيْنَ تَحْقِيقِ الْفُقَهَاءِ وَتَرْقِيقِ الْأُدَبَاءِ، مُسْتَشْهِدًا مِنْ كِتَابِ الله- جَلَّ اسْمُهُ - بِمَا يَقْتَضِيهِ، وَمِنْ سُنَنِ رَسُولِ الله- صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ- بِمَا يُضَاهِيهِ، ثُمَّ مُتْبِعًا ذَلِكَ بِأَمْثَالِ الحُكَمَاءِ، وَآدَابِ الْبُلَغَاءِ، وَأَقْوَالِ الشُّعَرَاءِ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ تَرْتَاحُ إِلَى الْفُنُونِ المُخْتَلِفَةِ وَتَسْأَمُ مِنْ الْفَنِّ الْوَاحِدِ.

وَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: «إِنَّ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ، فَاهْدُوا إليهَا طرائفَ الحِكْمَةِ».

وَجَعَلْت مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الكتاب في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: (**أصيلين يا هلي**): وفيه أتناول ما ينطق بـه أهـلي اليـوم مـن كلمات، وأرجع لأصالتها في اللغة العربية، ثم أدخل مـن معناهـا اللغـوي إلى معناها الأخلاقي والسلوكي.

الفصل الثاني: (**قديم المساجد**): وفيه أتناول قـديم مـساجدنا الأثريـة في الكويت تاريخاً وتأسيساً، ثم أعرج لأدخل لأحد مساجدها، وألقي به بعـض المواعظ والرقائق.

الفصل الثالث: (**أهل الطيب**): وفيه أتناول الأمثـال الكويتيـة بـشيء مـن التفصيل، ثم أعقب على ما تهدف إليه هذه الأمثال، وما تشير إليه من السلوك الخلقي أو العمل الفاضل.

فـإن أصـبت فمـن الله، وإن أخطـأت فمـن نفـسي، وأسـأل الله التوفيـق والسداد.



الفصل الأول

أصيلين يا هلي

مقدمة

الحمدُ لله عَلَى نِعَمِهِ الظَّاهِرَة وَالْبَاطِنَةِ ، وَلا نُحْصِي نِعَمَهُ وَلا نَسْتَطِيعُ الْوَفَاءَ بِشُكْرِهِ، وَالصَّلاةُ وَالسّلامُ عَلَى سَيِّدِ الشَّاكِرِينَ وَإِمَامِ المُتَّقِينَ سَيِّدِنا محمد ﷺ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ إِلى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فإن تعدد اللهجات كان موجوداً عند العرب من أيام الجاهلية، حيث كانت هناك لهجة لكل قبيلة من القبائل، وقد استمر الوضع هكذا بعد مجيء الإسلام، ويُرجح أن العامية الحديثة بدأت مع الفتوحات الإسلامية، حيث إن المسلمين الجدد في بلاد الأعاجم (والتي أصبح العديد منها اليوم من البلدان العربية) بدؤوا بتعلم العربية لكنهم- وبشكل طبيعي- لم يَستطيعوا تحدثها كما يتحدثها العرب بالضبط، وبالتالي فقد حرّفت قليلاً، وفي ذلك الوقت لم يَكن الفرق واضحاً كثيراً، لكن بالتدريج حرفت العربية وتغيرت صفاتها الصوتية وتركيب الجمل فيها..إلخ، حتى تحوّلت إلى اللهجات العامية الحديثة.

وإن اللهجة الكويتية اليوم هي من اللهجات العامية التي استحدثت عبر الزمن، إلا أنها تمتاز بميزات وخصائص كثيرة هي من أساسيات اللغة العربية الفصيحة مثل: التصغير، والتخفيف، وإن أكثر من ٨٥٪ من المفردات الكويتية ذات أصول فصيحة.

ومن هذا المنطلق كان هذا الفصل الذي سأتناول فيه ثلاثين كلمة نتداولها في لهجتنا الكويتية، ثم أبين أصالتها في اللغة العربية، ومن ثم أذكر ما ترمز له تلك الكلمة من الأخلاق والمعاني والفضائل وَالتَّوْجِيهِ الإِسْلامِيِّ لَهَا التي يستفيد منها كل ذي لب وعقل، وَقَدْ سَمَّيْتُ هَذَا الفصل: (**أَصِيلِين يَا هَلِي**).

الكلمة ١: حرَّة

كُنْ حليماً

نبْدَأُ اليَوْمَ مَعَ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِنَا وَهِيَ قَولُنَا: (**حرَّة**) نَقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: (**فِيني حَرّةٌ عَلَى فُلان**)، (**وَأَنَا مُحْتَرٌّ مِنْ فُلانٍ**) وَنَعْنِي بِذَلِكَ مَا نُحِسُّه وَمَا نَشْعُرُ بِهِ مِنَ الغضَبِ، وَالأَلَمِ، وَالغَيْظِ الشَّدِيدِ.

هَذِهِ الْكَلِمَةُ أَصِيلَةٌ، وَلَهَا جُذُورٌ فِي كَلامِ العَرَبِ، وَبِالمَعْنَى الَّذِي نَسْتَخْدِمُهُ نَحْنُ.

قَالَ أَحْمَدُ بنُ فَارِسٍ فِي مَقَايِيسِ اللُّغَةِ: (الحَرِيرُ) وَهُوَ المحرُورُ الَّذِي تَدَاخَلَه غَيْظٌ مِنْ أَمْرٍ نَزَلَ، وَالحَرَّةُ: أَرْضٌ ذَاتُ حِجَارَةٍ سَودَاءَ، وَالعَرَبُ كَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَى الأَرْضِ المحترِقَةِ: حَرَّة، وَمِنْهَا مَنْطِقَةُ الحَرَّةِ بِجِوَارِ المدِينَةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلام. وجَاءَ فِي الحَدِيثِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ المدِينَةِ عِشَاءً، وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَى أُحُدٍ فَقَالَ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ**» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله قَالَ: «**مَا أُحِبُّ أَنَّ أُحُدًا ذَاكَ عِنْدِي ذَهَب أُمْسِي ثَالِثَةً**»[1].

قالَ الفرَزْدَق وهو يَصَف نساءً تمَّ أَسْرُهُنَّ:

خَرجْنَ حَرِيراتٍ وأبديْنَ مجِلَداً ... ودَارَتْ عَلَيهِنَّ المُكَتَّبَةُ الصُّفرُ

وَالمرَادُ بِالحَرِيرَاتِ يَعْنِي: حَزِينَاتٍ غَاضِبَاتٍ مُتَأَلـمَاتٍ مِمَّا وَقَعَ بِهِنَّ مِنَ الأَسْرِ.

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ لا بدَّ أَنْ نَقِفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ الهَامَّةِ، وَالَّتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عُنْوانِ: «**كُنْ حَليماً**».

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٨٨)، ومسلم (٩٤).

أَخِي الْقَارِئ الْكَرِيم: إنَّ الـحِلمَ وَكَبْحَ الغَضَبِ هُـوَ زِينَـةُ الأَخْـلَاقِ، وإنَّ هَذهِ الـحَرَّةَ التِي تَثُورُ فِي الـصُّدُورِ، وتَمْتَلِـئُ بِهَـا النُفُـوسُ، مَـا هِـيَ إلا ثَـورةُ غَضَبٍ، افْتَعَلَهَا الشَّيْطَانُ لِيُوجِدَ العَدَاوةَ وَالبَغْضاءَ بَينَ الأَحِبَّةِ وَالخِلانِ. فَـإِذَا غَلَبَ عَلَيْكَ الطَّبْعُ البَشَرِيُّ، وَثَارَتْ فِيكَ قُوى الشَّرِّ، فإِيَّاكَ أَنْ تُعْطِي نَفْسكَ هَواهَا، وَتَدَعَ الغَضَبَ يَتَمَكَّنُ مِنْكَ، فَيَكُونَ الآمرَ والنَّـاهِيَ لَـكَ، بـلْ جَاهِـدْ نَفْسَكَ عَلَى كَبْحِ الغَضَبِ، فأَفْضَلُ مَا يُعطَى الرَّجُلُ مِنَ الأَخْـلاقِ وَالفَـضَائِلِ، الـحِلمُ، وَضَبْطُ النَّفْسِ، وَالرِّفْقُ، وَالأَنَـاةُ، وَضَـبْطُ الأَعْـصَابِ وَهُـدُوؤهَا، فَذَلِكَ دَلِيلُ نُضْجِ العَقْلِ، وَاكْتِمَـالِ الرُّشدِ، وَقُوةِ الشَّخْصِيةِ وَالإِرَادَةِ.

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ الـمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الغَضَبِ، وَالـحِلمِ عِندَ الـجَهْلِ وَالعَفْوِ عِنْدَ الإِسَـاءَةِ، قَـالَ تَعَـالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(١).

وكَمْ مِنْ غَضَبٍ أَوْقعَ صَاحبَه فِي الـمَعْصِيَة، فَهُنَاكَ مَنْ جَـرَّه الغَـضَبُ إِلى القَتْلِ، وَآخَرُ جَرَّهُ إِلى الطَّلَاقِ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الـمَهالكِ .

ونَبِيُّنَا ﷺ لنَاَّ كيفَ نَتحَكَّمُ فِي انْفِعَالاتِنَا وَغَضَبِنَا، فقد جَـاءَ فِي الـحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَـإِنْ ذَهَـبَ عَنْـهُ الْغَـضَبُ وَإِلا فَلْيَـضْطَجِعْ**»(٢)، فالقَـائِمُ متهيـئٌ للانْتِقَـامِ وَأَقْـرَبُ إِلَيْـهِ، وَالجَـالِسُ وَالمضطَجِعُ أَبْعَدُ عنْهُ.

وَجَاءَ فِي حَدَيثٍ آخَرَ قَولُه ﷺ: «**إِنَّ الغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُم فلْيَتوضَّأ**»(٣).

---

(١) فصلت : ٣٤.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٨٢)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٨٤)، وضعفه الألباني.

وسَأَخْتِمُ كلامي بِهَذِهِ البِشَارةِ التِي أَخْبَرَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ لـمَنْ كَظَمَ غيْظَهُ، وَكَبَحَهُ وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الحدِيثِ قَولُهُ ﷺ: «**مَنْ كَظَمَ غيظاً، وَهُوَ يَسْتطيعُ أَنْ يُنفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ يومَ القِيَامةِ عَلَى رُؤُوسِ الخلائِقِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ أَيَّ الحورِ شَاءَ**»(١).

أَيُّ كَرَمٍ، وَإِحْسَانٍ هَذَا!! فَمَا أَجْمَلَ العَفوَ عِنْدَ الـمَقْدِرَةِ، وَمَا أَجْمَلَ الـحِلْمَ والصَّفْحَ بَدَلاً مِنَ الغَضَبِ وَالثَّأْرِ!

وإِنَّ كَمَالَ العِلْمِ وَالعَقْلِ فِي الـحِلْمِ، يَقُولُ الإِمَامُ الغَزَالِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى: «أَقَلُّ النَّاسِ غَضَباً أَعْقَلُهُمْ، كُلَّمَا كَبُرَ عَقْلُكَ قَلَّ غَضَبُكَ».

وَأَمَّا الرَّجلُ الحلِيمُ حَقًّا هُوَ مَنْ إِذَا حلقَ فِي آفَاقِ دُنْيا النَّاسِ اتَّسَعَ صدْرُهُ، وامْتَدَّ حِلْمُهُ، وعَذرَ النَّاسَ والْتَمَسَ المبرِّرَاتِ لأَغْلاطِهِمْ، وَفَعَلَ مَا كَانَ يَفْعَلُ الأَحنَفُ بْنُ قَيسٍ - رَحِمَهُ اللهُ - حِينَ قَالَ: «مَا آذَانِي أَحَدٌ إلا أَخَذْتُ فِي أَمْرِهِ بِإِحْدى ثَلاثٍ: إِنْ كَانَ فَوْقِي عَرَفْتُ لَهُ فَضْلَهُ، وَإِنْ كَانَ مِثْلِي تفَضَّلْتُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ دُونِي أَكْرَمْتُ نَفْسِي عَنْه».

اللَّهُمَ اهْدِنَا إِلَى أَحْسَنِ الأَخْلاقِ، فَإِنَّهُ لا يَهْدِي إِلَى أَحْسَنِهَا إِلا أَنتْ، وَاصْرِفْ عنَّا سَيِّئَهَا، فَإِنَّهُ لا يَصْرِفُ سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ.

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧)، وحسنه الألباني.

الكلمة ٢: بطران

بِالشُّكْرِ تَزْدَادُ النِّعَمُ

نقفُ مَعَ كَلِمَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كَلِمَاتِنَا الأَصِيلَةِ وَهِيَ: (بَطْران).

وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ نَقُولُهَا فِي لَهْجَتِنا لِمَنْ لا يَرْضَى بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَلِمَنْ أَسَاءَ اسْتِخْدَامَ النِّعْمَةِ ، وَتَكَبَّرَ عَلَى مَا أَعْطَاهُ اللهُ فَنَقُولُ لَهُ : (**بَطْرانٍ**).

وَلَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي كَلامِ الْعَرَبِ بِهَذِهِ الْمَعَانِي :

قَالَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ (مَادَّةُ بَطَرَ): الْبَطَرُ: الطُّغْيَانُ عِنْدَ النِّعْمَةِ، وَطُولِ الْغِنَى. قَالَ: وَمِن مَعَانِيهِ : الْتَكَبُّرُ عَلَى نِعَمِهِ.

قَالَ الحُصَيْنُ بنُ الحُمَامِ المِرِّيِّ :

دَفَعْنَاكُمْ بالحِلمِ حَتَّى بَطِرْتُمُ وَبِالْكَفِّ حَتَّى كَانَ رَفْعُ الأَصَابِعِ

بَطِرْتُم بِمَعْنَى: تَعَالَيْتُمْ وَتَكَبَّرْتُمْ .

وَمِنْهُ قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾[1]، أي: تكبرت عليها.

أخي القارئ الكريم: وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَوِيةِ لِهَذِهِ الكَلِمَةِلا بدُ أَنَ نْقفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الهَامَّةِ وَالَّتِي نَضَعُها تَحْتَ عُنْوانِ: (**بِالشُّكْرِ تَزْدَادُ النِّعَمُ**).

إنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَنَّ عَلَى الإِنْسَانِ بِنَعَمٍ لا تُعَدُّ وَلا تُحْصَى، وسَخَّرَ لَهُ مِنَ خَيْرَاتِ السَّمَاءِ وَمِنْ خَيْرَاتِ الأَرْضِ، وَخَلَقَهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ مِنْ عَطَايَاهُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.. أَمْنٌ فِي الأَوْطَانِ، وَصِحَّةٌ فِي الأَبْدَانِ، وَوَفْرَةٌ فِي الأَمْوَالِ، وَرَاحَةٌ فِي كَلِ مُتَطَلَّبَاتِ الحَيَاةِ،مخترُعَاتٌ بَاهِرَةٌ، قَرَّبتْ

---

(١) القصص: ٥٨.

لَنَا كُلَّ بَعِيدٍ، وَوَفَّرَتْ كُلَّ جَدِيدٍ فأكَلْنا أَصْنَافَ المَلَذَّاتِ وَنَلْبَسُ أَفْخَرَ الثِّيابِ، وَنَرْكَبُ المَرَاكِبَ الْفَخْمَةَ الـمُرِيحَةَ، وَنَسْكُنُ القُصُورَ الـمَشِيدَةَ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(١).

وَالنَّاسُ أَمَامَ هَذِهِ النِّعَمِ العَظِيمَةِ صِنْفَانِ: إِمَّا شَاكِراً، وإِمَّا كَفُوراً.

ولَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ الله فِي الحَيَاةِ أَنْ يَسْلُبَ اللهُ النِّعْمَةَ مِمَّنْ طَغَى وَأَفْسَدَ وَتَرَكَ شُكرَهَا، قَالَ الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾(٢).

أَيُّهَا الأَحِبَّةُ القراء: وَهَكَذَا عِقَابُ اللهِ لِكلِّ مَنْ قَابَلَ نِعَمهُ بِالبَطَرِ وَعَدَمِ شُكْرِ المنْعِمِ عَلَيْهَا، وَرَبُّنَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي كِتَابِهِ، وَعَدَ الشَّاكِرَ بِالزِّيادَةِ وَالكَافِرَ بِالعَذَابِ الشَّدِيدِ فَقَالَ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(٣).

ولَعَلَّ سَائِلاً يَسْأَلُ كَيفَ نَشْكُرُ نِعَمَ الله وَنَكُونُ مِنَ الشَّاكِرِينَ؟

وللجواب نقول إنه يَنْبَغِي أن نُحَقِّقَ فِينَا ثَلاثَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الشُّكْرِ:

١- شُكْرُ القَلْبِ.

٢- شُكْرُ اللِّسَانِ.

٣- شُكْرُ الجَوَارِحِ.

أَوَّلاً: شُكْرُ القَلْبِ: وَهُوَ الرِّضَا وَالقَنَاعَةُ بِعَطَاءِ اللهِ وَنِعمِهِ.. ولِلْأَسَفِ

---

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) النحل: ١١٢.

(٣) إبراهيم: ٧.

هُنَاكَ أُنَاسٌ - دَائِمَاً - مُتَذَمِّرونَ وَغَيْرُ رَاضِيْنَ عَمَّا أَعْطَاهُمُ اللهُ - أَعَاذَنَا اللهُ وإياكم مِنْ ذَلِكَ.

ثَانِيَاً: شُكْرُ اللِّسَانِ: وَهُوَ أَنْ يَلْهَجَ اللِّسَانُ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَالثَّنَاءِ عَلَى المُنْعِمِ دَائِمَاً ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١] وَسَيِّدُنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ إِذَا أَكَلَ الأَكْلَةَ أَنْ يَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، وَإِذَا شَرِبَ الشَّرْبَةَ أَنْ يَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»[٢]، وأَلْسِنَتُنَا لا يَنْبَغِي أن تَفْتُرَ عَنْ شُكْرِ اللهِ وَحَمْدِهِ عِنْدَ كُلِّ نِعْمَةٍ، صَغِيرَةً كَانَتْ أَمْ كَبِيرَةً.

ثَالِثاً: شُكرُ الجوارِح : وَهَذَا النَّوْعُ سَأُوَضِّحُهُ لكُمْ مِنْ خِلالِ حَادِثَةٍ حَصلَت فِي بَيْتِ رَسُولِ الله ﷺ: فَرَسُولُنَا ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ الشَّرِيفَتَانِ، فَقَالَتْ له السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: لِمَ تَصْنعُ هَذَا يا رَسُولَ الله وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لك مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكونَ عَبدَاً شَكُوراً؟**»[٣].

أخي القارئ الكريم: هَذَا الحَدِيثُ يُعَلِّمُنَا أَنَّ العِبَادَةَ هِيَ شُكْرٌ للهِ - تَعَالَى - فَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَحْضِرَ المُؤْمِنُ عِنْدَ العِبَادَاتِ أَنَّهُ يشْكُرُ اللهَ - تعالى - عَلَى نِعَمِهِ الكَثِيرَةِ، وَاللهُ - تَعَالى - يَقُولُ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[٤]، وَفِي هَذِهِ الآيةِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عِبَادةَ العَمَلِ هِيَ مِنَ الشُّكْرِ للهِ - تَعَالَى.

فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ مَالاً فَشُكْرُهُ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ: أَنْ يُنْفِقَ فِي وُجُوهِ الخَيْرِ، وَأَنْ يُؤَدِّيَ زَكَاةَ المَالِ..، وَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ عِلْمَاً، فَشُكْرُ هَذِهِ النِّعْمَةِ أَنْ يُعلِّمَهُ لِلنَّاسِ..، وَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ صِحَّةً وَعَافِيَةً، فَعَلَيْهِ أَنْ يُسَخِّرَهَا فِي طَاعَةِ اللهِ - تَعَالَى، وَمَنْ

(١) الضحى: ١١.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٤)، عن أنس رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) عن عائشة – رضي الله عنها.

(٤) سبأ: ١٣.

أَعْطَـاهُ اللهُ جَاهـاً، فَـشُكْرُ هَـذِهِ النِّعْمَـةِ أَنْ يَقْـضِيَ مَـصَالِحَ النَّـاسِ، وَيـحُلَّ مَشَاكِلَهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نعمَتِهِ على عَبدِهِ**»(١).

وَقَبْلَ أَنْ أَخْتِمَ كلامي هَذَا أُريدُ أَنْ أُنَبِّهَ نَفْسِي وَأُنَبِّهَ إِخْوانِي وَأَخَواتِي القراء **إِلى أَحدِ أَكْبَرِ الأَسْبَابِ الَّتِي تَجْعَلُنَا أَحْيَاناً نَغْفُلُ عَنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ وَنَتَبَطَّرُ عَلَيْهَا** وَهُوَ: أَنَّنَا أَلِفْنَا النِّعَمَ حَتَّى أَصْبَحْنَا لا نَشْعُرُ بأَنَّها نِعَـمٌ، وَهَـذَا خَطَـرٌ كَبِـيرٌ..!! كانَ يَوُسفُ -عَلَيْهِ السَّلامُ- يُكْثِرُ مِنَ الصَّوْمِ، فَقِيلَ لَـهُ: أَتَـصُومُ وَأَنْـتَ عَـلَى خَزَائِنِ مِصْرَ؟ فَقَالَ: حَتَّى لا أَنْسَى الفَقِيرَ!! نَعَـمْ، إِذَا أَرَدْنَـا أَنْ نَـشْعُرَ بـالنِّعَمِ الَّتِي عِنْدَنَا فَلْنَنْظُرْ إلى المحْرومِينَ.. زُورُوا المشَافِي، حتى تُدْرِكُوا نِعْمَةَ الصِّحَةِ.. انظـروا إلى الجِيَـاعِ لِتَعْرِفُـوا نِعْمَـةَ الطَّعَـامِ وَالـشَّرَابِ.. ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾(٢).

اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنَا مِنَ الـمُتبَطِّرِينَ عَلَى نِعَمِكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الشَّاكِرِينَ، وَكُنْ لَنَا عَوْناً وَمُعِيناً وَهَادِياً وَنَصِيراً.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨١٩) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) إبراهيم: ٣٤.

الكلمة ٣ : خم

الْقَلْبُ النظيف

أَعَزائِي القراء كَلِمَتُنا هِيَ (**خَمْ**).

نَقُولُ فِي العَامِّيةِ: خَمَّ البَيْتَ أَوِ المَكَانَ: كَنَسَه، والخُمامُ: الكُنَاسَـةُ وَالقُمامَـةُ.

وَنَقُولُ فِي العَامِّيةِ أَيْضَاً: رِجَالٌ خَمَّةٌ: أَيْ لا قِيمَةَ لَهُمْ وَلا وَزْنَ.

إِنَّ كَلِمَةَ (**خَمْ**) جاءَتْ فِي كَلامِ العَرَبِ:

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي لِسَانِ العَرَبِ: خَمَّ البَيْتَ وَالبِئْرَ يَخُمُّهُما خَمًّا، واخْتَمَّهُمَا: كَنَسَهُمَا. وَالخُمامَةُ: القُمامَةُ وَالكُنَاسَةُ، وَالمِخَمَّةُ: المِكْنَسَة.

وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلرَّجُلِ الطَّيِّبِ الَّذِي نَظَّفَ قَلْبَـهُ وَكَنَـسَهُ مِـنَ الغِـلِّ وَالحَـسَدِ وَصَفَّى سَرِيرَتَهُ: (هَذَا مَخْمُومُ القَلْبِ).

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ الـمُوجَزِ عَلَى الـمَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِـهَذِهِ الكَلِمَةِ، لابُدَّ مِنْ أَنْ نقفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ المهمةِ وَالتِـي نَـضَعُهَا تَحْـتَ عِنْـوانِ: (**الْقَلْبُ النَّظِيفُ**).

عِنْدَما نَسْمَعُ كَلِمَةَ النَّظَافَةِ فَإِنَّ أَذْهَانَنَـا تَـذْهَبُ مُبَـاشَرةً إِلَى نَظافَـةِ المكَـانِ وَالثَوبِ وَالـجَسَدِ، غَيْرَ أَنَّنِي اليَوْمَ سَأَتَحَدَّثُ عَنْ نَـوعٍ آخَـرَ مِـنَ النَّظَافَـةِ، أَلا وَهُـوَ نَظَافَـةُ القَلْـبِ وَطَهَارَتُـهُ مِـنْ أَوْسَـاخِهِ: كـ(الحِقْـدِ والحَـسَدِ والكِـبْرِ والكَرَاهِيةِ) كُـلُّ هَـذِهِ أَوْسَـاخٌ يَنْبَغِـي أنَ نُنَظِّـفَ قُلُوبَنَـا مِنْهَـا ، فَالــمُؤْمِنُ الـحَرِيصُ عَلَى دِينِهِ، يَسْعَى دَائِمَاً إِلَى نَظَافَةِ قَلْبِهِ مِـنَ الغِـلِّ وَالحَـسَدِ وَالــحِقْدِ وَغَيْرِها مِنْ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، وَيَتَفَقَّدُ قلبَهُ فِي كُلِّ حِينٍ، وَيَتَعَهَّـدُهُ بَيْنَ الفَـترَةِ والفَترَةِ، فَيَسْقِيهِ مِنْ نَبْعِ الإِيمَانِ، وَيَجْلُوهُ وَيُنَظِّفُهُ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الـحَدِيثِ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ ﷺ:

«كُلُّ مَخْمُومِ القَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ»، فَقَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ القَلْبِ؟ قَالَ: «هُو التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لا إِثْمَ فِيهِ وَلا غِلَّ وَلا حَسَدَ»(١).

وروَى الإِمَامُ أَحْمَدُ- رَحِمَهُ اللهُ- مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ»(٢).

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاءِ المؤْمِنِينَ لِرَبِّهِم سُؤَالهُم لَهُ- سُبْحَانَه وَتَعَالَى- أَنْ يَجْعَلَ قُلُوبَهُم طَاهِرَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾(٣).

أَخِي القارئ الكريم: إِنَّ سَلامَةَ القَلْبِ وَطَهَارَتَهُ وَتَخْلِيَتَهُ مِنَ الأَخْلاقِ القَيِّمةِ هِي مَن الأعمالِ العظِيمةِ التي ترفَعُ صُاحبِهَا إلى مصَافِّ أهلِ الكَمَالِ.

وَالرَّجُلُ الكَبِيرُ فِي نَفْسِهِ، العَظِيمُ فِي صِفَاتِهِ وَأَخْلاقِهِ، لا يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ الحِقْدَ وَلا الغِلَّ وَلا الكِبْرَ، وَلا يُضْمِرُ الشَّرَّ أَوِ العَدَاوةَ للآخَرِينَ. وَرَحِمَ اللهُ القَائِلَ:

لا يَحْمِلُ الحِقْدَ مَنْ تَعْلُو بِه الرُّتَبُ ... وَلا يَنَالُ العُلا مَنْ طَبعُهُ الغَضَبُ

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَجَعَلَ قَلبَه سَلِيماً، وَلِسَانَهُ صَادِقاً، وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً، وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً»(٤).

وَفِي الحَدِيثِ الذي أَخْرَجَهُ الإِمَامُ أحمدُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِمَنْ حَولَهُ: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»، فَلَمَّا قَامَ الرجل، تَبِعَهُ عَبدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنُ العَاصِ وطَلَبَ منهُ أن يَبيتَ عندَهُ، وَبَاتَ عِنْدَهُ ثَلاثَ لَيالٍ، وَيَقُولُ عَبْدُ اللهِ بنُ عمروٍ: وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ (أَيْ أَسْتَقِلَّهُ) ، قُلْتُ: يا عَبْدَ الله، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦)، عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٨٤١).
(٣) الحشر: ١٠.
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٧)، وضعفه الألباني.

أَهْلِ الجنَّةِ»، فطَلَعْتَ أَنْتَ، فَأَرَدْتُ أَنْ آويَ إِلَيْك، لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَبِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: مَا هُو إِلا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لا أَجِدُ فِي نَفْسِي لأَحَدٍ مِنَ الـمُسْلِمِينَ غِشاً، وَلا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ. قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَهَذِهِ التِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ التِي لا تُطَاقُ[1].

ومن المعروف لدينا أنَّ القَلْبَ مَلِكٌ وَالأَعْضَاءَ جُنُودُهُ؛ وَإِذَا صَلَحَ القَلْبُ، صَلَحَتِ الرَّعِيَّةُ، وَإِذَا فَسَدَ، فَسَدَتْ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**إِنَّ فِي الجسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسدَ الجسَدُ كلُّه، أَلا وَهِيَ القَلْبُ**»[2].

فَهَلْ فَتَّشْتَ أَخِي الـحَبِيبَ القارئ فِي قَلْبِكَ، وَقَلَّبْتَ بِدَاخِلِهِ لِتَنْظُرَ مَاذَا فِيهِ ومَنْ يَسْكُنُهُ؟

ولا شَكَّ أَنَّنَا نُدْرِكُ أَنَّ سَعَادَتَنَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ -بَعْدَ الإِيمَانِ- فِي سَلامَةِ صُدُورِنَا. **فَتَعَالَ أَخِي الـحَبِيبَ القارئ نَحْرِصُ سَوِيًّا عَلَى نَظَافَةِ سَرَائِرِنَا.. باتِّبَاعِ الوَسَائِلِ الآتِيَةِ:**

أَوَّلاً: يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ مَنْ مُلِئَ قَلْبُهُ بِالـحِقْدِ وَالـحَسَدِ وَالكَرَاهِيَةِ أَنَّ الضَّرَرَ سَيَعُودُ عَلَيْهِ هماً وَغماً وَإِثْماًوقَدَ وْصَفَ أَحَدُهُمْ ضَرَرَ الـحَسَدِ عَلَى صَاحِبِهِ فَقَالَ:

للهِ دَرُّ الـحَسَدِ مَا أَعْدَلَهُ   بَدَأَ بِقَلْبِ صَاحِبِهِ فَقَتَلَه

ثَانِياً: إِشْغَالُ الْقَلْبِ بِذِكْرِ اللهِ .. مِنْ تِلاوةٍ لِلْقُرْآنِ العَظِيمِ، وَتَسْبيحٍ لِلْعَلِيِّ القَدِيرِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٦)، وصحح شعيب الأرناؤوط إسناده على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير – رضي الله عنهما.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[١] وَلا يترُكُ القَلْبُ فَارِغاً فَيُصْبِحُ مَسْكَنًا لِلِهَوى .

ثالثاً: زِرَاعَةُ الخشْيةِ مِنَ اللهِ فِي الْقَلبِ، فَالقَلْبُ الَّذِي تَدْخُلُهُ الـخَشْيَةُ لا تَدْخُلُهُ الظُّلْمَةُ!!

رابعاً : الـحِرْصُ عَلَى صَلَواتِ الـجَمَاعَةِ.. فَإِنَّ الصَّلاةَ نُورٌ .

خامساً: لا تَحْرِمْ نَفْسَكَ مِنَ الدُّعَاءِ لِقَلْبِكَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[٢].

اللَّهُمَ يَا ذَا الـجَلالِ وَالإِكْرَامِ: طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنَ النِّفَاقِ، وَأَعْمَالَنَا مِنَ الرِّيَاءِ، وَأَلْسِنَتَنَا مِنَ الكَذِبِ، وَتَقَبَّلْ مِنَّا صَالِحَ أَعْمَالِنَا إِنَّكَ السَّمِيعُ المجِيبُ، اللَّهُمَ آمِين.

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني.

الكلمة ٤: فازع

كُنْ عوناً لأخيك

اليومَ نقفُ مَعَ كَلِمَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ أَصِيلِينْ يَا هَلِي: كَلِمَةُ (فَازَع).

نقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: (فُلانٌ يَفْزَعُ لِفُلانٍ)، أَيْ: يَهُبُّ لِنَجْدَتِهِ وَمُسَاعَدَتِهِ، **وَفِي لُغَةِ العَرَبِ**: الفَزَعُ وَالإِفْزَاعُ: الإِغَاثَةُ، يُقَالُ: فَزَعْتُ إِلَيْهِ فَأَفْزَعَنِي، أَيْ: لَجَأْتُ إِلَيْهِ مِنَ الفَزَعِ فَأَغَاثَنِي، وَفَزَّعَ عَنْهُ، أَيْ كَشَفَ عَنْهُ الخوفَ. قَالَ الحَقُّ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فِي سُورَةِ سَبَأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾[1] أَيْ كُشِفَ عَنْهُمُ الخَوفُ. **قَال زُهَيرٌ**:

إِذَا فَزِعُوا طَارُوا إِلى مُسْتَغِيثِهِمْ طوالَ الرِّمَاحِ لا ضِعَافٌ وَلا عُزْلُ

أَيْ: إِذَا اسْتَغَاثَهُمْ أَحَدٌ أَسْرَعُوا إِلَى نَجْدَتِهِ.

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَويةِ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ، لا بُدَّ أَنْ نقفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الهَامَّةِ وَالَّتِي نَضَعُها تَحْتَ عُنْوانِ: (كُنْ عَوناً لأَخِيكَ).

أَيُّهَا الإِخْوةُ وَالأَخَواتُ القراء: لابُدَّ لنا أَنْ نَفْزَعَ لإِخْوَانِنا: «**وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»[2].

ولقدَ خلقَ اللهُ عِبَادَه مُتَفَاوِتِينَ فِي الشَّرَفِ وَالجَاهِ، وَالعِلْمِ وَالعِبَادَةِ، وَسَخَّرَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ؛ لِيَتَحَقَّقَ الاستِخْلافُ وَتُعَمَّرَ الأَرْضُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[3].

---

(١) سبأ: ٢٣.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الأنعام: ١٦٥.

فَفِي شَكْوى الفَقِير ابْتَلاءٌ لِلْغَنِيِّ، وَفِي انْكِسَارِ الضَّعِيفِ امْتِحَانٌ لِلْقَوِيِّ، وَفِي تَوجُّعِ المرِيضِ حِكْمَةٌ لِلصَّحِيحِ، **وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ السُّنَّةِ الكَونِيَّةِ جَاءَتْ السُّنَّةُ الشَرْعِيَةُ بِالحَثِّ عَلَى التَّعَاوُنِ بَيْنَ النَّاسِ**، وَقَضَاءِ حَوائِجِهِمْ، وَالسَّعْيِ فِي تَفْرِيجِ كُرُوبِهِمُ، وَبَذْلِ الشَّفَاعَةِ الحَسَنَةِ لَهُمْ، تَحْقِيقًا لِدَوامِ المودَّةِ، وَبَقَاءِ الأُلْفَةِ، وَإِظْهَارِ الأُخُوةِ. وَالدِّينُ الحَقُّ: هُوَ ذُلُّ العِبَادَةِ وَحُسْنُ المعَامَلةِ، **قَالَ ابْنُ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ**: «قَدْ دَلَّ العَقْلُ وَالنَّقْلُ وَالفِطْرَةُ وَتَجَارِبُ الأُمَمِ عَلَى اخْتِلافِ أَجْنَاسِها وَمِلَلِهَا وَنِحَلِهَا، عَلَى أَنَّ التَقَرُّبَ إِلَى رَبِّ العَالَمِينَ بِالبِرِّ وَالإِحْسَانِ إِلى خَلْقِهِ، مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبابِ الجَالِبَةِ لِكُلِّ خَيرٍ، فَمَا اسْتُجْلبتْ نِعَمُ اللهِ واسْتُدْفِعَتْ نِقَمُهُ بِمِثْلِ طَاعَتِه وَالإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِه».

وَنفْعُ النَّاسِ وَالسَّعْيُ فِي كَشْفِ كُرُوبِهِمُ مِنْ سُنَنِ الأَنْبِياءِ وَالرُّسُلِ، فَالكَرِيمُ يوسُفُ - عَلَيْهِ السَلامُ - مَعَ مَا فَعَلَهُ إِخْوَتُهُ جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ، وَلَمْ يَبْخَسْهُمْ شَيئًا مِنْهُ. وَخَدِيجَةُ - رَضِي اللهُ عَنْهَا - تَقُولُ فِي وَصْفِ نَبِيِّنَا مُحَمَدٍ ﷺ: «إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتُكْسِبُ المعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوائِبِ الحَقِّ»[(١)]. وَكَانَ سَيدُنا مُحَمدٌ ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنْ حَاجَةٍ لَمْ يَرُدَّ السَائِلَ عَنْ حَاجَتِهِ، يَقُولُ جَابِرٌ رضي الله عنه: مَا سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: لا[(٢)].

وَالدُّنْيَا أَقَلُّ مِنْ أَن يُردَّ طَالِبُهَا

إِنَّ خِدْمَةَ النَّاسِ وَمُسَايَرَةَ المسْتَضْعَفِينَ دَلِيلٌ عَلَى طِيبِ المنْبَتِ، وَنَقَاءِ الأَصْلِ، وَصَفَاءِ القَلْبِ، وَحُسْنِ السَّرِيرَةِ. وَرَبُّنَا يَرْحَمُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ، وَللهِ أَقْوامٌ يوفقهم لتحقيق مَنَافِعِ العِبَادِ.

وَإِنَّ نُبَلاءَ الإِسْلامِ وَأَعْلامَ الأُمةِ شَأْنُهُمْ قَضَاءُ الحَوائِجِ، يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ -

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) عن عائشة - رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري (٢٢٩٦)، ومسلم (٢٣١٤).

رَحِمَهُ اللهُ: «كَانَ شَيخُ الإِسْلامِ يَسْعَى سَعيًا شَدِيدًا لِقَضَاءِ حَوائِجِ النَّاسِ». بِهَذَا جَاءَ الدِّينُ؛ عِلْمٌ وَعَمَلٌ، عِبَادَةٌ وَمُعَامَلَةٌ.

وَأَمَا جَزَاءُ مَنْ يُفَرِّجُ عَنِ العِبَادِ كُرُبَاتِهِمُ فَجَزاءٌ عَظِيمٌ وَمِنْ ذَلِكَ:

أولاً: تَفْرِيجُ كُرُبَاتِهِ وَكَفُّ غُمُومِه فِي الآخِرَةِ، يَقُولُ الـمُصْطَفَى ﷺ: **«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُربِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُربِ يَومِ القِيَامَةِ»**(١).

ثانياً: السَّاعِي لِقَضَاءِ الـحَوَائِجِ مَوْعُودٌ بِالإِعَانَةِ، مُؤَيدٌ بِالتَّوْفِيقِ، **«وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»**(٢).

ثالثاً: فِي خِدْمَةِ النَّاسِ بَرَكَةٌ فِي الوَقْتِ وَالعَمَلِ، وَتَيْسِيرُ مَا تَعَسَّر مِنَ الأُمُورِ، يَقولُ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَن يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»**(٣).

رابعاً: بِبَذْلِ الـمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ تَحْسُنُ الـخَاتِمَةُ، وتصُرْفُ مِيتَةُ السُّوءِ، يَقُولُ- عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: **«صَنَائِعُ المعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ وَالآفَاتِ والهلَكاتِ، وَأَهْلُ المعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ المعْرُوفِ فِي الآخِرَةِ»**(٤).

خامساً: اسْتِفَادَتُكَ فِي العَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ بِدُعَائِهِم لَكَ، جَاءَ فِي الـحَدِيثِ: قَولُهُ ﷺ: **«رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّه»**(٥).. بِدَعْوَةٍ صَالـحَةٍ مِنْهُم مُسْتَجَابةٍ تَسْعَدُ أَحْوالُكَ.

إِنَّ بَذْلَ المعْرُوفِ أَفْضَلُ المبَرَّاتِ، وَالـسَّعْيَ فِي شُـؤُونِ النَّـاسِ زَكـاةُ أَهْـلِ المروءاتِ، **وَإِنَّ مِنَ الـمَصَائِبِ عِنْـدَ ذَوي الهِمَـمِ عَـدَمَ قَـصْدِ النَّـاسِ لــهُمْ فِي حَوائِجِهِمْ**. يَقُولُ ابْنُ عَبَاسٍ: «ثَلاثَةٌ لا أُكَافِئُهُمْ: رَجُلٌ بَدَأَنِي بِالسَّلامِ، وَرَجُـلٌ

(١-٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٦١) (٨٠٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٩٥).

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٢٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَسَّعَ لِي فِي الـمَجْلِسِ، وَرَجُلٌ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي الـمَشْيِ إِلَيَّ إِرَادَةَ التَّسْلِيمِ عَلَيَّ، فَأَمَّا الرَّابِعُ فَلا يُكَافِئُهُ عَنِّي إِلا اللهُ» قِيلَ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: «رَجُلٌ نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ فَبَاتَ لَيْلَتَهُ يُفَكِّرُ بِمَنْ يُنْزِلُهُ، ثُمَّ رَآنِي أَهْلاً لِـحَاجَتِهِ فَأَنْزَلَـهَا بِي».

ولَنْ يَبْقَى لِلإِنْسَانِ إِلا عَمَلُهُ، وَالمَرْءُ حَيٌّ بِسَجَايَاهُ وَإِنْ كَانَ مَعَ أَهْلِ القُبُورِ فِي لَـحْدِهِ، فَالمُوَفَّقُ مَنْ فَرَّجَ الكُرَبَ لتُفَرَّجَ عَنْهُ الكُرَبُ يومَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ.

اللَّهُمَّ وَفِقْنَا لِـمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى. وَصَلِّ اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَدٍ وَعَلَى آلِه وَصَـحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

الكلمة ٥: طل

كُنْ بَنّاءً ولا تَكُنْ هدّاماً

إِخْوَانِي وَأَخَواتِي القراء الكِرَامَ... كَلِمَتُنَا هِيَ (**طَلْ**).

نَقُولُ فِي لَـهْجَتِنَا الكُوَيْتِيَّةِ لِـمَنْ نُرِيدُ أَنْ نُنْكِـرَ حَقَّـهُ أَوْ لا نَرْغَـبَ بِتَحْقِيـقِ رَغْبَتِهِ: (**طَلْ**)، وَكَذَلِكَ نَقُولُهَا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُبيِّنَ عَدَمَ قُدْرَةِ الشَّخْصِ عَلَى تَحْقِيقِ هَدَفِهِ، كَأَنْ يَقُولَ لَنَا قَائِلٌ: إِنَّهُ سَوفَ يَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا، فَنَقُولَ لَهُ - لِنُبيِّنَ عَجْزَهُ عَنْ تَحْقِيقِ مَا قَالَ وَنُفَشِّلَهُ فِي الوُصُولِ لِـهَدَفِهِ: (**طَلْ مَا تَقْدِرْ**).

وَكَلِمَةُ (**طَلْ**) وَرَدَتْ فِي القُرآنِ الكَـرِيمِ قَـالَ تَعـالَى: ﴿فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]، وفِي العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى كَذلَكَ. **قَالَ فِي لِسَانِ العَرَبِ**: طَلَّهُ حَقَّهُ يَطُلُّهُ: نقَصَهُ إِيَّاهُ وأَبْطَلَهُ، وَطَلَّ بَنُو فُلانٍ فُلاناً حَقَّهُ: إِذَا مَنَعُوهُ إِيَّاهُ وَحَبَسُوهُ عِنْهُ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

دِماؤُهُمُ لَيْسَ لَهَا طَالِبٌ مَطْلُولَةٌ مِثْلَ دَمِ العُذْرَه

أَيُّهَا الإِخْوَةُ وَالأَخَواتُ القراء: بَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجَزِ عَلَى الـمَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِـهَذِهِ الكَلِمَةِ لابدَّ مِنْ أنْ نَقِفَ مَعَ أَبْعَادِهَـا الأَخْلاقِيَّـةِ وَالاجْتِمَاعِيَّـةِ المهمـةِ وَالتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عِنْوانِ: (**كُنْ بَنَّاءً وَلا تَكُنْ هَدَّاماً**).

إِنَّ النَّاسَ مِنْ حَوْلِنَا -عَامَّةً- وَأَبْنَاءَنَا -خَاصَّةً- يَمْلُكُونَ إِمْكَانَاتٍ هَائِلَـةً لِلتَّعَلُّمِ وَالإِبْدَاعِ وَالابْتِكَارِ، حَيْثُ يَرَى بَعْضُ عُلَـمَاءِ الـنَّفْسِ أَنَّ أَيَّ إِنْـسَانٍ إِذَا استَنْفَرَ نِصفَ طَاقَاتِهِ العَقْلِيَّةِ، يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ عِـشْرِينَ لُغَـةً، وَأَنْ يَجْمَـعَ بَـيْنَ عَشْرِ جَامِعَاتٍ!.

فَكُلُّ وَاحِدٍ مِمَّنْ حَوْلَنَا أَوْ مِنْ أَبْنَائِنَـا يَنْطَـوِي عَـلَى مَنْطِقَـةٍ إِبْدَاعِيَّـةٍ وَافِـرَةٍ

---

(١) البقرة: ٢٦٥.

الخُصُوبَةِ، تَنْتَظِرُ مَنْ يَـزْرَعُ فِيهَـا فَـسَائِلَ الخَـيْرِ وَالفِكْـرِ وَالإِبْـدَاعِ بِالتَـشْجِيعِ وَالدَّعْمِ وَالمسَانَدَةِ.

وإِنَّ المرْآةَ تَعْجَزُ عَنْ رُؤْيَةِ نَفْسِهَا، وَإِنَّ الْوَرْدَةَ تَعْجَزُ عَنِ اسْتِنْشَاقِ عِطْرِهَا، وَكَذَلِكَ أَبْنَاؤُنَا فَإِنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ تَلَمُّسِ طَاقَاتِهِمْ، وَعَلَيْنَا أَنْ نُسَاعِدَهُمْ فِي العُثُورِ عَلَى هَذِهِ الطَّاقَاتِ لِتَحْدِيدِ هُوِيَّتِهَا بِدِقَّةٍ وَتَشْجِيعِهِمْ عَلَى تَنْمِيَتِهَا، وَمِنْ ثَمَّ إِطْلاقِهَا إِلى أَعْلَى مُسْتَوَيَاتِ النَّجَاحِ، لا تَدْمِيرَهَا بِتَفْشِيلِهِمْ وَالاسْتِهْزَاءِ بِأَفْكَارِهِمْ وَطُمُوحَاتِهِمْ، فَتَشْجِيعُ أَوْلاَدِنَا وَإِثَارَةُ اهْتِمَامِهِمْ يَلْعَبُ دَوْرًا هَاماً فِي نَجَاحِهِمْ، وَتَحْفِيزِهِمْ لِلإِنْجَازِ.

وَهَذَا أَخِي القارئ المؤمن هُوَ مَنْهَجُ نَبِيِّنَا ﷺ فِي كَشْفِ الإِمْكَانَاتِ الكَامِنَـةِ لَدَى الآخَرِينَ وَتَحْفِيزِهِمْ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَـمَّا أَبْصَرَ مَلامِحَ الذَّكَاءِ الـمُتَوَقِّدِ عِنْدَ زَيْدِ بنِ ثَابِتٍ مِنْ خِلالِ حِفْظِهِ الـمُتْقَنِ لِسُوَرٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ، حَـضَّهُ عَـلَى تَعَلُّمِ اللُّغَةِ العِبْرِيَّةِ وَاللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ. وَبِهَذَا تَمَيَّزَ زَيْدٌ فِي أَرْبَعَةِ عُلُومٍ: التَّرْجَمَةِ، وَالقِراءَاتِ، وَعِلْمِ الفَرَائِضِ، وَكِتَابَةِ الوَحْيِ وَالرَّسَائِلِ النَّبَوِيَّةِ، **وَلَمْ يَقُلْ لَهُ** ﷺ: **طَل أَوْ أَنْتَ لَنْ تُفْلِحَ أَبَداً.**

وَاقرأ معي أَخِي الحبيبَ ثَنَاء النَّبِيِّ ﷺ عَلَى المتَفَوِّقِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَتَقْوِيمِهِ لإِنْجَازِهِمْ لِيُثِيرَ عَبْقَرِيَّةَ الاهْتِمَامِ عِنْدَ الآخَرِينَ، فَقَدْ جَاءَ أَنَّ الـمُشْرِكِينَ أَغَارُوا عَلَى لِقَاحِ المدِينَةِ فَلَحِقَ أَبُـو قَتَـادَةَ (مَـسْعَدَةَ) وَكَـانَ مَـسْعَدَةُ رَئِيسَ جَـيْشِ المشْرِكِينَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ فَقَتَلَهُ، وَأَخَذَ سَلَبَهُ. وَبَادَرَ سَـلَمَةُ بـنُ الأَكْـوَعِ فَحَـبَسَ بَعْضَ المشْرِكِينَ رَمْيًا بِالـحِجَارَةِ مِنْ قِبَلِ الـجَبَلِ حَتَّى لَحِقَتْهُمْ خَيْلُ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَثْنَاءِ رُجُوعِهِمْ مِنَ هَـذِهِ الغَـزْوَةِ مُثْنِيـاً عَـلَى بَطَلَيْهَـا: «**خَـيْرُ فُرْسَانِنَا ـ** يَعْنِي فِي ذَلِكَ اليَوْمِ ـ **أَبُو قَتَادَةَ، وَخَيْرُ رَجَّالَتِنَا فِي ذَلِكَ اليومِ سَلَمَةُ بنُ الأَكْوَعِ**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٠٧) عن سلمة رضي الله عنه .

وَكَانَ مِنْ ثَنَائِهِ ﷺ عَلَى الـمُتَفَوِّقِينَ إِطْلاقُ الأَلْقَابِ عَلَيْهِمْ، فَأَبُو عُبَيْدَةَ يُلَقِّبُهُ (أَمِين الأُمَّةِ)، وَابْنُ مَسْعُودٍ يَصِفُهُ (غُلامٌ مُعَلَّمٌ)، وَالزُّبَيْرُ يُنَادِيهِ بِـ (حَوَارِيّ الرَّسُولِ) وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ.

وَإِنَّ مِنْ سِيرَةِ حَبِيبِنَا ﷺ فِي تَشْجِيعِ الأَطْفَالِ وَالأَبْنَاءِ الابْتِسَامَ، وَالجَائِزَةَ، وَمَسَحَ الرَّأْسِ، وَحَتَّى قَرْصُ الأُذُنِ بِتَحَبُّبٍ، فَقَدْ فَعَلَ هَذَا مَعَ زَيْدِ بنِ أَرْقَمَ قَائِلاً: «**وَفَتْ أُذُنُكَ يَا غُلامُ**»[1].

يَقُولُ الدُّكْتُورُ هِشَامُ الطَّالِب: «تَذَكَّرُوا أَيُّهَا الآبَاءُ أَنَّ الدَّمَ الصِّحيَّ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَبْنَاؤُكُمْ هُوَ التَّقْدِيرُ وَالتَّشْجِيعُ، فَلاَ تَحْرِمُوهُمْ مِنْهُ، فَقَدْ يُصَابُونَ بِفَقْرِ الدَّمِ».

إِنَّ كُلَّ ابْنٍ مِنْ أَبْنَائِنَا مَكْتُوبٌ عَلَى جَبِينِهِ هَذِهِ الكَلِمَةَ: (**افْهَمُونِي وَشَجِّعُونِي**)، وَلَكِنْ مَاذَا نَصْنَعُ وَكثِيرٌ مِنَ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ جَاهِلُونَ فِي قِرَاءَةِ الأَطْفَالِ؟!

فَإِذَا أَبْصَرَ ابْنَهُ يَسْعَى للابْتِكَارِ وَالإِبْدَاعِ أَوْ التَّفَوُّقِ يُحطِّمُ أَحْلامَهُ، وَيُسَفِّهُ رَأْيَهُ، وَيُكَسِّرُ مِنْ مَجَادِيفِهِ، بِقَوْلِهِ لَهُ: طَلْ مَا تِقْدَرْ . فَيَا أَسَفى عَلَى غُصْنٍ أَخَضَرَ كَانَ لِلثَّمَرِ، فَقُلْنَا لَهُ: كُنْ لِلْحطَبِ!

أَبْنَاؤُنَا يَبْحَثُونَ عَمَّنْ يُقَدِّرُهُمْ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ وَيُشَجِّعُهُمْ وَإِذَا وَجَدُوهُ تَمَسَّكُوا بِهِ وَأَحَبُّوهُ حُبًّا شَدِيدًا، **فَلِمَ لا نَكُونُ نَحْنُ مَنْ يُشَجِّعُونَهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ؟!**

اللَّهُمَّ اهْدِنَا وَاهْدِ أَبْنَاءَنَا لِـمَا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ، إِنَّكَ نِعْمَ الـمَوْلَى وَنِعْمَ المجِيبُ.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٨٣٠٤).

الكلمة ٦: طرثوث

مَصَادِرُ الْقُوَّةِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ

إننا نقفُ مَعْ كَلِمَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كَلِمَاتِنَا الأَصِيلَةِ وَهِيَ: كَلِمَةُ (طَرْثُوثُ).

[وَالْطَّرْثُوثُ] فِي الْعَامِّيَّةِ: هُوَ نَبَاتٌ صَحراوِيٌّ مِنَ الْفِطْرِيَّاتِ مِنْ جِنْسِ الْكَمَأَةِ، إلا أَنَّهُ مُسْتَطِيلُ الْشَّكْلِ بِطُولِ شِبْرٍ أَوْ أَطْوَلُ قَلِيلاً.

وَفِي لُغَةِ الْعَرَبِ: الْطَّرْثُوثُ: نَبْتٌ رَمْلِيٌّ يُؤْكَلُ، طَوِيلٌ مُسْتَدِقٌّ كَالْفِطرِ يَضْرِبُ إِلى الحُمْرَةِ، يَنْبُتُ عَلَى طُوْلِ ذِرَاعٍ، لا وَرَقَ لَهُ، وَهُوَ ضَرْبَانِ: فَمِنْهُ حُلْوٌ وَهُوَ الأَحْمَرُ، وَمِنْهُ مُرٌّ وَهُوَ الأَبْيَضُ. قَالَ الشَّاعِرُ:

أَرْضٌ عَنِ الخَيْرِ وَالسُّلْطَانِ نَائِيَةٌ   فَالأَطْيَبَانِ بِهَا الطَّرْثُوثُ وَالْضَّرَبُ

أَيُّهَا الإِخْوَةُ الأحبة القراء: بَعْدَ هَذَا الْمُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى الْمَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، لابدُ لَنَا أنَ نَقِفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الاجْتِمَاعِيَّةِ الْهَامَّةِ وَالَّتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عُنوانَ: (**مَصَادِرُ الْقُوَّةِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ**).

لِلإِنْسَانِ فِي الحَيَاةِ آمَالٌ عرِيضةٌ، وأَهدَافٌ قَرِيبَةٌ وَبَعِيدَةٌ، وَلَكِنَّ الطَّرِيقَ إِلَيْهَا شَائِكٌ وَطَوِيلٌ، وَالْعَقَبَاتُ مُتَنَوِّعَةٌ، وَالمعوِّقَاتُ كَثِيرةٌ، بَعْضُهَا مِنَ الطَّبِيعَةِ وَسُنَنِ اللهِ فِيهَا، وَبَعْضُهَا مِنَ الْبَشَرِ أَنْفُسِهِمْ، فَلا حَرَجَ أَنْ يَظَلَّ الإِنْسَانُ فِي جِهَادٍ دَائِبٍ، وَعَمَلٍ مُتَواصِلٍ، لِيَتَغَلَّبَ عَلَى الآلَامِ وَالمُعَوِّقَاتِ لِيُحَقِّقَ الأَهْدَافَ وَالآمَالَ.

وَمَا أَشَدَّ حَاجَةَ الإِنْسَانِ إِلى قُوَّةٍ تَسْنُدُ ظَهْرَهُ، وَتَشُدُّ أَزْرَهُ، وَتَأْخُذُ بِيَدِهِ، وَتُذَلِّلُ لَهُ الْعَقَبَاتِ، وَتَقْهَرُ أَمَامَهُ الصِّعَابَ وتنيرُ لَهُ الطريقَ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْقُوَّةُ المَنْشُودَةُ إِلا فِي ظِلالِ الْعَقِيدةِ، وَرِحَابِ الإِيمَانِ بِالله - عَزَّ وَجَلَّ.

والمؤْمِنُ (لَيْسَ طَرْثُوثاً) لَيْسَ ضَعِيفًا، لا أَصْلَ لِمَنْبَتِهِ.. وَلَيْس وَحِيدًا؛ بَلِ المُؤْمِنُ قَوِيٌّ، وَلَوْ كَانَ مَهِيضَ الجَنَاحِ، كَثِيرٌ وَلَوْ كَانَ فَرْدَاً فِي كُلِّ سَاحٍ. فَهُوَ

قَوِيٌّ بعَقِيدَتِهِ قَوِيٌّ بِإِخْوَانِهِ.

والمسْلِمُ قَوِيٌّ بِالله، لأَنَّهُ يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ مِنَ اللهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ الـذي يُـؤْمِنُ بِـهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ، وَأَنَّهُ نَاصِرُ المؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ وَلِيُّهُمْ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾(١).

.. الـمُؤْمِنُ لَيْسَ طَرْثُوثاً.. بَلْ قَوِيٌّ بِالله..

إِنَّهُ قَـوِيٌّ وَإِنْ لَمْ يَكُـنْ فِي يَدَيْـهِ سِـلاحٌ، غَنِـيٌّ وَإِنْ لَمْ تَمُـجْ خَزَائِنُـهُ بِالْفِـضَّةِ وَالذَّهَبِ، عَزِيزٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَرَاءَهُ عَشِيرَةٌ وَأَتْبَاعٌ، رَاسِخٌ وَإِنْ اضْطَرَبَتْ سَـفِينَةُ الـحَيَاةِ، وَأَحَاطَ بِهَا الـمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ.

وَهَذِهِ الْقُـوَّةُ فِي الْفَـرْدِ مَـصْدَرٌ لِقُـوَّةِ المجْتَمَـعِ كُلِّـه، وَمَـا أَسْـعَدَ المجْتَمَـعَ بِالأَقْوِيَاءِ الرَّاسِـخِينَ مِـنْ أَبْنَائِـهِ، وَمَـا أَشْـقَاهُ بِالـضُّعَفَاءِ المهَازِيـلِ، الَّـذِينَ لا يَنْصُرُونَ صَدِيقاً، وَلا يُخِيفُونَ عَدُوًّا، وَلا تَقُومُ بِهِمْ نَهْضَةٌ، ولا تَرْتَفِعُ بِهِمْ رَايَةٌ.

إن الـمُسْلِمَ لَيْسَ وَحِيداً؛ بَـلْ كُـلُّ المسْلِمينَ إِخْوَانُـهُ: يُعِينُونَـهُ إِذَا شَـهِدَ، وَيَـحْفَظُونَهُ إِذَا غَـابَ، وَيُواسُـونَهُ عِنْـدَ الـشِّدَّةِ، وَيُؤْنِـسُونَهُ عِنْـدَ الْوَحْـشَةِ، وَيَأْخُذُونَ بِيَدِهِ إِذَا عَثَرَ، وَيَسْنَدُونَهُ إِذَا خَارَتْ قُـوَاهُ، فَهُـوَ حِـينَ يَعْمَـلُ يُحِـسُّ بِمُشَارَكَتِهِمْ، وَحِينَ يُجَاهِدُ يَضْرِبُ بِقُوَّتِهِم، إِذَا حَارَبَ ومعه جَـيْشٌ مِـنْ أَلْـفِ مُؤْمِنٍ شَعَرَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ يُقَاتِلُ بِقُوَّةِ أَلْفٍ لا بِشَخْـصِهِ وَحْـدَهُ، وَشَـعَرَ أَنَّ هَؤْلاءِ الأَلْفَ يَعِيشُونَ فِي نَفْسِهِ - كَمَا يَعِيشُ هُوَ فِي أَنْفُسِهِمْ - حُبًّا لَهُمْ، وَحِرْصاً عَلَيْهِمْ، وَضَناً بِهِمْ، فَإِذَا ضَرَبْتَ الأَلْفَ فِي الأَلْفِ كَانَ المجْمُوعُ الـمَعْنَوِيُّ أَلْفَ أَلْفِ رَجُلٍ فِي الـحَقِيقَةِ، وَإِنْ كَانُوا أَلْفاً وَاحِدَةً فِي لُغَةِ الإِحْصَاءِ وَالتِّعْدَادِ. وَقَدْ شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ قُوَّةَ الـمُؤْمِنِ بِإِخْوَانِهِ الـمُؤْمِنِينَ بِاللَّبِنَةِ فِي الْبِنَاءِ الـمَتِينِ، فَقَـالَ

---

(١) محمد: ١١.

ﷺ: «المؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً»(١).

اللَّبِنَةُ وَحْدَهَا ضَعِيفَةٌ مَقْدُورٌ عَلَيْهَا، وَلَكِنَّهَا دَاخِلَ الْبُنْيَانِ أَصْبَحَتْ مُرْتَبِطَةً بِهِ ارْتِبَاطاً لا يَنْفَصِلُ، أَصْبَحَتْ جُزْءاً مِنَ (الْكُلِّ) الْكَبِيرِ، لا يَسْهُلُ كَسْرُهَا، أَوْ زَحْزَحَتُهَا عَنْ مَوْضِعِهَا؛ فَإِنَّ قُوَّتَهَا هِيَ قُوَّةُ الْبُنْيَانِ كُلِّهِ الَّذِي يَشُدُّهَا إِلَيْهِ.

أَنْتَ قَوِيٌّ بِإِخْوَانِكَ، فَلا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي قُوَّتِهِ مَا دَامَ آخِذاً بِرُفْقَةِ الخَيْرِ وَالجُلَسَاءِ الصَّالِحِينَ «فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ»(٢).

فَالمؤْمِنُ فِي كُلِّ حَالٍ وَمَهْمَا بَلَغَ يَظَلُّ مُحْتَاجاً لإِخْوَانِهِ، وَاللهُ - تَعَالَى - يُوصِينَا بِصُحْبَةِ أَهْلِ الصِّدْقِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٣). فَلا رَهْبَانِيَّةَ فِي الإسلام، وقد قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَمْ يَكْتُبْ عَلَيْنَا الرَّهْبَانِيَّةَ، إِنَّمَا رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله»(٤).

فالمسْلِمُ فِي لِقَاءٍ مُسْتَمِرٍّ مَعَ إِخْوَانِهِ؛ فَهُوَ يَشْهَدُ مَعَهُمُ الصَّلَوَاتِ، وَيَدْفَعُ إِلى فُقَرَائِهِمُ الزَّكَوَاتِ، وَيُفَطِّرُ الصَّائِمِينَ، وَيَلْتَقِي بِالمسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ الْعَالَمِ فِي فَرضِ الحَجِّ؛ بَلْ عِبَادَتُنَا يَغْلِبُ عَلَيْهَا طَابَعُ المشَارَكَةِ وَالاجْتِمَاعِ، لا الْعُزْلَةِ وَالانْفِرَادِ.

وَمَنْ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِمَّنْ لا يُخَالِطُهُمْ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ.

اللَّهُمْ إِنَّا ضِعَافٌ فَقَوِّ فِي رِضَاكَ ضَعْفَنَا، وَخُذْ إِلى الخَيْرِ بِنَوَاصِينَا، وَاجْعَلِ الإِسْلامَ مُنْتَهَى رِضَانَا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٦)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، وحسنه الألباني.

(٣) التوبة: ١١٩ .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٥٧) (١٦٥٢)، وابن حبان (٢/ ٧٦)، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٣٣): (صحيح لغيره).

الكلمة ٧: انحاش

فَفِرُّوا إلى الله

إننا نقفُ مَعَ كَلِمَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كَلِمَاتِنَا الأَصِيلَةِ، إنَّهَا: كَلِمَةُ (انْحَاشَ).

نَقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: «فُلانٌ ينحَاشُ» أَيْ: يَفِرُّ وَيَهْرُبُ. وَبِمَعْنًى قَرِيبٍ مِن هَذَا وَرَدَتْ فِي اللُّغَةِ الفُصْحَى، قَالَ فِي لِسَانِ العَرَبِ: وَالتَحْوِيشُ: التَّحْوِيلُ. وَتَحَوَّشَ القَومُ عَنِّي: تَنَحَّوْا. وانْحَاشَ عَنْهُ: أَي نَفَرَ. والحُواشَةُ: مَا يُسْتَحْيا مِنْهُ. وَعَنِ ابْنِ الأَعْرَابِيِّ: وَمَا يَنْحَاشُ لِشَيءٍ أَيْ مَا يَكْتَرِثُ لَهُ. وَفُلانٌ مَا يَنْحَاشُ مِنْ فُلانٍ أَيْ مَا يَكْتَرِثُ لَهُ.

وَيُقَالُ: زَجَرَ الذئبَ وغيرَه فما انْحَاشَ لزَجْرِهِ.

قَال ذُو الرُّمَّةِ يَصِفُ بيضةَ نَعَامَةٍ:

وبَيْضاءَ لا تَنْحَاشُ منّا وأُمُّها   إذَا مَا رَأَتْنا زِيلَ مِنْهَا زَوِيلُهَا

أَيُّهَا الإِخْوَةُ وَالأَخَواتُ القراء: بَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجَزِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ لابدَّ أَنْ نَقِفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ المهمةِ وَالتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عِنْوانِ: (**فَفِرُّوا إِلى الله**) .

إِنَّ كُلَّ شَيءٍ إِذَا خِفْنَا مِنْهُ نَهْرُبُ مِنْهُ، إِلا اللهَ فَإِنَّنَا إِذَا خِفْنَا مِنْهُ هَرَبْنَا إِلَيْهِ، فَالمسْلِمُ يَفِرُّ إِليهِ رَاجِياً اسْتِشْعَارَ الأَمْنِ فِي كَنَفِهِ -تَعَالَى، طَامِعاً فِي رَحْمَتِهِ وَجُودِهِ.

وَاللهُ – تَعَالى – يَدْعُونَا أَنْ نَفِرَّ إِلَيْهِ لا مِنْهُ .. قَالَ – تَعَالَى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[1].

وَالَّذِي يَظُنُّ أَنَهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفِرَّ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – وَأَنْ يَفلِتَ مِنْ قَبْضَتِهِ فَهُوَ

(١) الذاريات: ٥٠ .

جاهَلٍ أحمَقَ ، فَإِنَّ الـمَرْجِعَ إِلَيْهِ، وَالـمَصِيرَ إِلَيْهِ قَالَ تَعالَى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[1].

ولَقَدْ بَيَّنَ لَنَا سَلَفُنَا الصَّالـحُ- رِضْـوَانُ الله عَلَـيْهِمْ- مَعْنَـى الفِـرَارِ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِرُّوا إِلى اللهِ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ.

وَقَالَ الجُنَيدُ: الشَّيْطَانُ دَاعٍ إِلى البَاطِلِ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ يَمْنَعْكُمْ مِنْهُ.

وتكمن حَقِيقَة الفِرَارِ إِلَى اللهِ – سُبْحَانَهُ – فيما يلي:

الفِرَارُ إِلى اللهِ فِرَارٌ مِنَ الـجَهْلِ إِلى العِلْمِ .. وَمِنَ الشِّرْكِ إِلى التَّوْحِيد.

الفِرَارُ إِلى اللهِ فِرَارٌ مِنَ الـخَلْقِ إِلى الـخَالِقِ .. وَمِنَ الأَرْضِ إِلى السَّمَاءِ.

الفِرَارُ إِلى اللهِ فِرَارٌ مِـنْ ذُلِّ الـشَهْوَةِ وَمَرَارَتِهَـا .. إِلَى عِـزِّ الطَّاعَـةِ وَحَـلاوَةِ الإِيمَانِ.

الفِرَارُ إِلى اللهِ فِرَارٌ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ الظَّاهِرَةِ وَالـخَفِيَّةِ التِي تَقْطَعُكَ عَنِ اللهِ- جَلَّ جَلالُهُ .. وَتَصْرِفُكَ عَنْ بَابِهِ إِلَى مِـحْرَابِ الصَّلاةِ وَمُـجَاهَدَةِ النَّفْسِ.

الفِرَارُ إِلى اللهِ- جَلَّ جَلالُهُ - فِرَارٌ مِنْ صُحْبَةِ سُوءٍ تَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَولاكَ، إِلى صُحْبَةِ خَيْرٍ تُعِينُكَ عَلَى مَزِيدٍ مِنَ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ لِتَنَالَ رِضَاهُ.

الفِرَارُ إِلى اللهِ شَوْقٌ إِلى الـجَنَّةِ ، وَطَلَبٌ حَثِيثٌ لـهَا..وخَـوفٌ مِـنَ النَّـارِ وَفَزَعٌ مِنْهَا.

أَيُّهَا الإِخْوَةُ وَالأَخَواتُ القراء: لـِمَاذَا الفِرَارُ إِلى اللهِ ؟

أولاً: لأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا..كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ:

---

(١) القيامة: ٧ – ١٣ .

«إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»(١).

ثانياً: تَفِرُّ إِلَيْهِ لِيَحْفَظَكَ مِنْ عَدُوِّكَ إِبْلِيسَ.

ثالثاً: تَفِرُّ إِلَيْه لِيَكُونَ عَوْناً لَكَ عَلَى الدُّنْيَا وَمَفَاتِنِهَا وَشَهَوَاتِهَا ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

وإِذَا حَقَّقْنَا الفِرَارَ الصَّادِقَ إِلَيْهِ فَعِنْدَهَا سَنَجْنِي الثَّمَرَاتِ الكبيرةَ ومنها: رَاحَةُ القَلْبِ، وَقُرَّةُ العَيْنِ، وَسَكِينَةُ النَّفْسِ، وَنَعِيمٌ يَتَجَدَّدُ، وَقُوَّةٌ لا تُغْلَبُ.

وَهَؤُلاءِ هُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَمَا فَرُّوا إِلى اللهِ، غَيَّرُوا وَجْهَ الأَرْضِ حَتَّى عَمَّهَا التَّوْحِيدُ وَالعَدْلُ بَعْدَ أَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا الشِّرْكُ وَالظُّلْمُ.

لَقَدْ كَانَ الفِرَارُ إِلى اللهِ - تَعَالَى - هُوَ مَصْدَرُ القُوَّةِ وَالعِزَّةِ وَالـمَنْعَةِ التِي كَانَ يَعِيشُهَا المسْلِمُونَ الأَوَّلُونَ، ثُمَّ تَغَيَّرَ الـحَالُ وضَعُفَ المسْلِمُونَ، وَصَارَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَفِرُّونَ إِلَى عَدُوِّ اللهِ وَعَدُوِّ المسْلِمِينَ، مُسَارَعَةً فِيهِمْ، والتِماساً لِلقُوَّةِ وَالعِزَّةِ مِنْهُمْ، وَقَدْ نَهَى اللهُ - تَعَالَى - المؤْمِنِينَ عَنْ هَذَا المسْلَكِ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾(٣).

وَمِنْ فَضْلِ الكَرِيمِ الرَّحِيمِ عَلَيْنَا أَنَّهُ مَهَّدَ لَنَا - بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ طرِيقَ الفِرَارِ إِلَيْهِ، فَأَنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفِرَّ إِلَى اللهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِكَ، فَأَنْتَ بِخُرُوجِكَ لِلْكَسْبِ لِتُعِفَّ نَفْسَكَ وَأَهْلَكَ عَنِ الحَرَامِ تَفِرُّ إِلى اللهِ، وبِقِيَامِكَ لِلصَّلاةِ تَفِرُّ إِلى اللهِ، وبصيامِكَ إيماناً واحتساباً تفِرُّ إلى الله، وبذِكْرِكَ للهِ تَفِرُّ إلى اللهِ، وبِقِرَاءَتِكَ لِلقُرْآنِ تَفِرُّ إلى اللهِ، وبالصَّدَقَةِ تَفِرُّ إلى اللهِ، وبِأَمْرِكَ بِالمعْرُوفِ وَنَهْيِكَ عَنِ المنْكَرِ تَفِرُّ إِلَى اللهِ بتقويم بيتِكَ لأَوْلادِكَ وَبُنَيَّاتِكَ عَلَى هَدْيِ الشَرِيعَةِ تَفِرُّ إِلى اللهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) التغابن: ١٥.

(٣) الممتحنة: ١.

إِذَا عَلِمَ اللهُ - تَعَالَى مِن عَبْدِهِ صِدقَ الفرارِ إليهِ أعانَهُ ووفقَهُ ولم يتركهُ وحدَهُ، واسْتَمِعوا معي إلى وعدِ مَنْ لا يُخْلِفُ الميعادَ يومَ أنْ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

(١) العنكبوت: ٦٩.

الكلمة ٨: نفاضة

المَرَضُ مُكَفِّرٌ لِلذنُوبِ

كَلِمَتُنَا هِي: (**نَفَّاضَة**).

وَالنَّفَّاضَة فِي لَـهْجَتِنَا الكُوَيْتِيَّةِ نُطْلِقُهَا عَلَى رِعْشَةِ المَرِيضِ المصَابِ بِالحُمَّى. وَقَدْ وَرَدَتْ كَلِمَةُ (**نَفَّاضَة**) فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَى.

قَالَ الزبيَّدِيُّ فِي كتاب تاجِ العَرُوسِ: وَمِنَ المجَازِ (**النَّافِضُ**): حُمَّى الرِّعْدَةِ، ويُقَالُ: نَفَضَتْهُ وأَخَذَتْهُ حُمَّى بِنَافِضٍ.

وَفِي حَدِيثِ الإِفْكِ: «فأَخَذَتْهَا ـ أَيْ السَّيِّدَة عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ حُمَّى بِنَافِضٍ»[1] . أَيْ بِرِعْدَةٍ شَدِيدَةٍ كَأَنَّهَا نَفَضَتْهَا: أَيْ حَرَّكَتْهَا.

قَالَ طَهْمَانُ بنُ عَمْرٍو الْكِلابِيُّ:

وَمَاؤُكُمَا الْعَذْبُ الَّذِي لَوْ شَرِبْتُهُ وَبِي نَافِضُ الحُمَّى إِذاً لَشَفَانِي

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجَزِ عَلَى المعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ، لابُدَّ مِنْ أَنْ نقفَ مَع أَبْعَادِهَا الْـهَامَّة، وَالتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عِنْوانِ: (**المَرَضُ مُكَفِّرٌ لِلذُّنُوبِ**).

إِنَّ الابْتِلاءَ وَالاخْتِبَارَ بِالأَسْقَامِ وَالأَمْرَاضِ وَالحُمَّى مِنْ سُنَّةِ اللهِ – تَعَالَى– المَاضِيَةِ، وَمِنْ مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، لِيُمَحِّصَ بِهَا إِيمَانَنَا وَيَخْتَبِرَ بِهَا أَمْرَنَا: أَنَصْبِرُ أَمْ نَكْفُرُ.

قَالَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[2] ، أَيْ: فِي مُكَابَدَةٍ وَمُعَانَاةٍ مُنْذُ مَوْلِدِهِ فِي دَارٍ كُلُّهَا بَلاءٌ وَعَنَاءٌ وَكَدَرٌ، وَصَفَهَا أَبُو الحَسَنِ التُّهَامِيُّ فَأَجَادَ فِي قَوْلِهِ:

جُبِلَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْواً مِنَ الآلامِ وَالأَكْدَارِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٤٣) عن أم رومان – رضي الله عنها.

(٢) البلد: ٤.

وَاعْلَمْ **أَخِي القارئ الـحَبِيبَ**، أَنَّهُ مَا يُصِيبُكَ مِنْ شَيءٍ، إِنْ كَـانَ يَـسُرُّكَ، فَهُـوَ نِعْمَةٌ بَيِّنَةٌ، وَإِنْ كَانَ يَسُوؤُكَ فَهُوَ نِعْمَةٌ؛ **مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ يُكَفِّرُ خَطَايَاكَ وَتُثَابُ عَلَيْهِ.**

وَصَدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذْ يَقُولُ: «**عَجَباً لأَمْرِ الـمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّـهُ خَـيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَـانَ خَـيْراً لَـهُ؛ وَلا يَكُونُ ذَلِكَ إِلا لِلْمُؤْمِنِ**»[١].

إِنَّ الأَمْرَاضَ وَالأَسْقَامَ وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ مَرَارَةٍ وَثِقَلٍ عَلَيْنَا، إِلا أَنَّ الْبَارِيَ - جَلَّ شَأْنُهُ، جَعَلَ لَنَا فِيهَا حِكْمَةً وَفَوَائِدَ كَثِيرَةً، يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ- رحمه الله تعالى- فِي كِتَابِهِ (شِفَاءُ الْعلِيلِ): أَنَّهُ أَحْصَى مَا لِلأَمْرَاضِ مِنْ فَوَائِدَ وَحِكَمٍ، فَزَادَتْ عَلَى مِائَةِ فَائِدَةٍ**!!**

وَيَقُولُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ يَحْيَى: (إِنَّ المَرَضَ تَهْذِيبٌ لِلْنَّفْسِ، وَتَصْفِيَةٌ لَـهَا مِـنَ الشَّرِّ، وَإِنَّ مَا يَعْقُبُهُ مِنَ اللَّذَّةِ وَالمسَرَّةِ فِي الآخِرةِ أَضْعَافُ مَـا يَـحْـصُلُ بِـهِ مِـنَ الألمِ، وبهِ يعْرَفُ الصَّبْرُ وَيُسْتَخْرَجُ بِهِ الشُّكْرُ، وَمِنْ خِلالِهِ يَتَجَلَّى انْتِظَارُ المرِيضِ لِلْفَرَجِ، وَأَنَّ اللهَ يُخْرِجُ بِهِ مِنَ الْعَبْدِ الكِبْرَ وَالْعُجْبَ وَالْفَخْرَ).

وإِذَا ابْتَلاكَ اللهُ - تَعَالَى - بِمَرَضٍ أَوْ سَقَمٍ فَهُوَ هِبَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَـةٌ، لِيُكَفِّـرَ بِهَا خَطَايَاكَ أَو يَرْفَعَ بِهَا دَرَجَاتِكَ، قَالَ ﷺ: «**مَـا مِـنْ مُـسْلِمٍ يُـصِيبُهُ أَذًى مِـنْ مَرَضٍ فَمَـا سِوَاهُ، إِلا حَطَّ اللهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ كَمَـا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**»[٢].

وَقَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ هَذِهِ الأَمْرَاضَ الَّتِي تُصِيبُنَا مَا لَنَا بِهَـا؟ قَالَ ﷺ: «**كَفَّارَاتٌ**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٤٨)، ومسلم (٢٥٧١) عن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنـه، وقـال الألبـاني في صـحيح الترغيـب (٣٤٣٣): (حسن صحيح).

ولقد عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرِيضاً مِنْ وَعَكٍ - هيَ الـحُمَّى - كَانَت بِهِ فَقَالَ: «**أَبْشِرْ، فَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ: هِيَ نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَى عَبْدِي المؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا؛ لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ فِي الآخِرَةِ**»[١].

ومِنْ هُنَا يَنْبَغِي أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ مَا نُبْتَلَى بِهِ مِنْ أَمْرَاضٍ تُصِيبُ أَجْسَادَنَا مَا هِيَ إلا مِنَحٌ مِنَ الـجَلِيلِ لِيُكَفِّرَ بِهَا السَّيِّئَاتِ وَيَرْفَعَ بِهَا الدَّرَجَاتِ، فَقَدْ دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ فَقَالَ: «**مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ تُزَفْزِفِينَ - أَيْ تَتَحَرَّكِينَ وَتَرْتَعِدِينَ؟**»، قَالَتْ: الـحُمَّى، لا بَارَكَ اللهُ فِيهَا. فَقَالَ ﷺ: «**لا تَسُبِّي الـحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الحدِيدِ**»[٢].

أَعِزَّائِي القراء الْكِرَامَ: لا تَظُنُّوا مِمَّا سَبَقَ مِنْ كَلامِي أَنَّ المرَضَ مَطْلَبٌ لِذَاتِهِ، كَلا.. بَلْ إِنَّ الْعَافِيَةَ هِيَ المطْلُوبَةُ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**سَلُوا اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْراً مِنَ الْعَافِيَةِ**»[٣].

وَلَكِنْ إِذَا أَصَابَنَا المرَضُ فَيَنْبَغِي عَلَى المسْلِمِ أَنْ يُقَابِلَهُ بِالصَّبْرِ وَالاحْتِسَابِ وَالرِّضَى والصبرَّ يَتُحَقَقَّ بِثَلاثَةِ أُمُورٍ:

حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الجَزَعِ وَالسَّخَطِ. وَحَبْسُ اللِّسَانِ عَنِ الشَّكْوَى لِلْخَلْقِ. وَحَبْسُ الـجَوَارِحِ عَنْ فِعْلِ مَا يُنَافِي الصَّبْرَ.

وَأَخِيراً تَذَكَّرْ أَخِي الـحبِيبَ.. أَنَّ الصِّحَّةَ تَاجٌ فَوْقَ رُؤُوسِ الأَصِحَّاءِ، لا يَرَاهُ إِلا المرْضَى، وَأَنَّ الصِّحَّةَ وَالْعَافِيَةَ، نِعْمَةٌ مَغْبُونٌ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَأَنَّ الأَمْرَاضَ وَالأَسْقَامَ أَدْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ انْتِشَارَ النَّارِ فِي يَابِسِ الحطَبِ، لا يَنْفَكُّ مِنْهَا عَصْرٌ، وَلا يَسْتَقِلُّ عَنْهَا مِصْرٌ، وَلا يَسْلَمُ مِنْهَا بَشَرٌ. قَالَ الشَّاعِرُ:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٨٨)، وابن ماجه (٣٤٧٠)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٥) عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٥٨) عن رفاعة رضي الله عنه ، وقال الألباني: (حسن صحيح).

ثَمـانِيَةٌ لا بُدَّ مِنْهَا عَلَى الْفَتَـى   وَلابُدَّ أَنْ تَجْرِي عَلَيْهِ الثَّمـانِيَه

سُرُورٌ وَهَمٌّ وَاجْتِمـاعٌ وَفُرْقَةٌ   وَيُسْرٌ وَعُسْرٌ ثُمَّ سُقْمٌ وَعَافِيَه

اللَّهُمَّ يَا ذَا الجلالِ وَالإِكْرَامِ: إِنَّا نَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالـمُعَافَاةَ الدَّائِمَةَ.

الكلمة ٩: بلتع

إن منَ الْبَيَانِ لَسِحْراً

إِنَّ مِنْ أَخطَرِ الآفَاتِ لَقْلَقَةَ اللِّسَانِ، وَالْقِيلَ وَالْقَالَ، أَعاذَنِي اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ حَصَائِدِ الأَلْسُنِ الَّتِي تَكُبُّ صَاحِبَهَا فِي النِّيرَانِ، وَمَع نِعْمَةِ اللِّسَانِ وَخَاصِّيَّةِ الْكَلامِ فِي الإِنْسَانِ يَتَجَدَّدُ بِكُمُ اللِّقَاءُ ـ **أَحِبَّائِي القراء** ـ مَعَ كَلِمَاتِنَا الأَصِيلَةِ، وَالْكَلِمَةُ الَّتِي اختَرْنَاهَا لَكُمْ الْيَوْمَ هِيَ (**بَلْتَعُ**).

نَقُولُ فِي اللَّهْجَةِ الْكُوَيْتِيَّةِ: (**فُلانٌ مُبَلْتَعٌ**)، أَيْ مُتَمَكِّنٌ مِنَ الْكَلامِ وَالـجَدَلِ، وَلا يُهْزَمُ فِي النِّقَاشِ.

وَهِيَ فِي الْفُصْحَى كَذَلِكَ، فَقَدْ قَالَ الأَصْمَعِيُّ: الـمُتَبَلْتِعُ والبَلْتَعَانِيُّ: الَّذِي يَظَرَّفُ وَيَتَكَيَّسُ، وَهُوَ الَّذِي يتبَلْتَعُ فِي كلامِهِ، أي يَتظَرَّفُ ويَتَحَذْلَقُ وَلَيْسَ عِنْدَهُ شَيءٌ، وَرَجُلٌ بَلْتَعٌ ومُتَبَلْتِعٌ وبَلْتَعِيٌّ وبَلْتَعَانِيٌّ حاذِقٌ ظَرِيفٌ مُتَكَلِّمٌ، وهوَ الْبَيِّنُ الْفَصِيحُ.

قَالَ ابْنُ سِيدَه فِي الـمُحْكَمِ وَالـمُحِيطِ الأَعْظَمِ: التَّبَلْتُعُ: إِعْجابُ الرَّجُلِ بِنفْسِهِ وتَصَلُّفُهُ، وأَنْشَدَ لِرَاعٍ يَذُمُّ نَفْسَهُ ويُعَجِّزُهَا بَعْدَ أَنْ شَاخَ وَهَرِمَ:

ارْعَوا فَإِنِّ رِعيَتِي لنَ تَنفَعَا لا خيرَ في الشيخِ وإنْ تبَلْتَعَا

وَمَعْنَى ارْعَوا: انْظُرُوا أَمْرِي لِما يَصِيرُ.

أَحْبَابِي القراء الْكِرَامَ: وَبَعْدَ هَذَا الـمُرُورِ الموجزِ عَلَى المعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِـهَذِهِ الكَلِمَةِ لابدَّ مِن أَنْ نَقِفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ الـمُهمةِ وَالتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عِنْوانِ: (**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً**).

اللِّسَانُ صَغِيرٌ حَجْمُهُ، عَظِيمٌ أَثَرُهُ. وَجَمِيلٌ أَنْ تَكُونَ -أَخِي القارئ- بَيِّنَ الكَلامِ، فَصِيحَ اللِّسانِ، تَعْلمُ لُغَةَ القُرْآنِ، وَتُجِيدُ فَنَّ الـخِطَابِ وَحُسْنَهُ.

فَالإِسْلامُ عَلَّمَنَا أَهَمِّيَّةَ الكَلِمَةِ الـمَنْطُوقَةِ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَإِقَامَةِ الـحُجَّةِ. قَالَ -تَعَالَى - مُمْتَناً عَلَيْنَا بِنِعْمَةِ البَيَانِ: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾(١).

وَقَدْ حَثَّ نَبِيُّنَا ﷺ عَلَى البَيَانِ وَحُسنِ الكَلام، فَعَنِ ابْـنِ عُمَـرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَدِمَ رَجُلانِ مِنَ المشْرِقِ، فَخَطَبَا، فَعَجِبَ النَّـاسُ لِبَيَـانِهِمَا، فَقَـالَ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ البيانِ لَسِحْراً**»(٢).

لَقَدْ كَانَ مِنْ فُصَحَاءِ العَرَبِ الأحنفُ بنُ قَيْسٍ، وَكَانَ قَصِيرَ القَامَةِ، صَغِيرَ الرَّأْسِ، أَعْوَرَ، أَعْرَجَ، إِلا أَنَّهُ مَعَ كُلِّ هَذِهِ العُيُوبِ الـخِلْقِيَّةِ كَانَ خَطِيبًا مُفَوَّهًا، قَالَ عَنْهُ الـجَاحِظُ: «أَبْيَنُ العَرَبِ وَالعَجَمِ قَاطِبَةً» ولذا كان الأحنفُ إِذَا رَفَعَ سَيْفَهُ رَفَعَ خَلْفَهُ مَائَةُ أَلْفٍ سُيُوفَهُمْ لا يَسْأَلُونَهُ لـمَ رَفَعَ سَيْفَهُ ، فَانْظُرْ إِلى الأَثَرِ البَالِغِ لِلْفَصَاحَةِ فِي قِيَادَةِ الآخَرِينَ وَإِقْنَاعِهِمْ بِمَا تَحْمِلُهُ مِنْ أَفْكَارٍ وَتَوَجُّهَاتٍ وَهُمُومٍ وَاهْتِمَامَاتٍ.

يَقُولُ الشَّاعِرُ:

لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

وَيَقُولُ الإِسْكَنْدَرُ المقْدُونِيُّ: «أَعْطِنِي لِسَانَ خَطِيبٍ أُعْطِكَ ألف مُقَاتِلٍ».

أَخِي القارئ الكَرِيمَ: إِنَّ قُوَّةَ بَيَانِ لِسَانِكَ وَفَصَاحَتَهُ وَجَمَالَهُ تَجْعَلُكَ قَرِيبًا مِنَ النَّاسِ مَحْبُوبًا لَهُمْ، وَتَسْتَطِيعُ التَّوَاصُلَ مَعَهُمْ وَإِقْنَاعَهُمْ بِفِكْرَتِكَ، وَاسْتَمِعْ مَعِي إِلى هَذِهِ القِصَّةِ الـجَمِيلةِ فِي أَخْبَارِ الفَصَاحَةِ وَالبَيَانِ.

رُوِيَ أَنَّ البَادِيَةَ قَحِطَتْ فِي أَيَّامِ هِشَامِ بنِ عَبْدِ الـمَلِكِ فَقَدِمَتْ عَلَيْهِ العَرَبُ فَهَابُوا أَنْ يُكَلِّمُوهُ وَكَانَ فِيهِمْ **دِرْوَاسُ بْنُ حَبِيبٍ** (وَكَانَ مُتَكَلِّمًا بَلِيغًا) وَهُوَ ابْنُ سِتِّ عَشْرةَ سَنَةً، فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنُ هِشَامٍ فَقَالَ لِـحَاجِبِهِ: «مَا شَاءَ أَحَدٌ أَنْ

---

(١) الرحمن: ٣، ٤.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٧) عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما.

يَدْخُلَ عَلَيّ إلا دَخَلَ حَتَّى الصِّبْيَانُ»، فَوَثَبَ دِرْوَاسُ حتىَّ وقفَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُطْرِقاً، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الأَمِيرُ!! إنَّ لِلْكَلام نَشْرًا وَطَيًّا، وَإِنَّهُ لا يعْرَفُ مَا فِي طَيِّهِ إلا بِنَشْرِهِ، فَإِنْ أَذِنَ لِي الأَمِيرُ أَنْ أَنْشُرَهُ نَشَرْتُهُ، فَأَعْجَبَهُ كَلامُهُ، وَقَالَ لَهُ: انْشُرْهُ، فَقَالَ: «يَا أَمِيرَ المؤْمِنِينَ، إِنَّهُ أَصَابَتْنَا سُنُونٌ ثَلاثٌ، سَنَةٌ أَذَابَتِ الشَّحْمَ، وَسَنَةٌ أَكَلَتِ اللَّحْمَ، وَسَنَةٌ دَقَّتِ العَظْمَ، وَفِي أَيْدِيكُمْ فُضُولُ مَالٍ، فَإِنْ كَانَتْ للهِ فَفَرِّقُوهَا عَلَى عِبَادِهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَـهُمْ فَعَلامَ تَـحْبِسُونَهَا عَنْهُمْ، وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ فَتَصَدَّقُوا بِهَا عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ اللهَ يَجْزِي الـمُتَصَدِّقِينَ».

فَقَالَ هِشَامُ: مَا تَرَكَ الغُلامُ لَنَا فِي وَاحِدَةٍ مِنَ الثَّلاثِ عُذْرَاً، فَأَمَرَ لِلْبَوَادِي بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَلَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: مَا لِي حَاجَةٌ فِي خَاصَّةِ نَفْسِي دُونَ عَامَّةِ المسْلِمِينَ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ القَوْمِ لِحُسْنِ مَنْطِقِهِ.

ولِسَانُكَ هُوَ بَرِيدُكَ لِلآخَرِينَ، وَكُلَّمَا كَانَ لِسَانُكَ فَصِيحاً يُجِيدُ التَّعْبِيرَ كَانَ النَّاسُ يُحِبُّونَ الاسْتِمَاعَ إِلَيْكَ وَيَسْتَجِيبُونَ لِـمَا تَطْلُبُ، **وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ** رَجُلاً أَعْمَى جَلَسَ عَلَى إِحْدَى عَتَبَاتِ عِمَارَةٍ، وَوَضَعَ قُبَّعَتَهُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ وَبِجَانِبِهِ لَوْحَةٌ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: «أَنَا أَعْمَى أَرْجُوكُمْ سَاعِدُونِي». فَمَرَّ رَجُلٌ- فَصِيحُ اللِّسَانِ قَوِيُّ البَيَانِ- بِهَذَا الرَّجُلِ الأَعْمَى، وَوَقَفَ لِيَرَى أَنَّ قُبَّعَتَهُ لا تَحْوِي سِوَى قُرُوشٍ قَلِيلَةٍ، فَوَضَعَ المزِيدَ فِيها، وَأَخَذَ لَوْحَتَهُ وَكَتَبَ عَلَيْهَا كَلاماً آخَرَ. وَعِنْدَمَا انْتَهَى أَعَادَ وَضْعَ اللَّوْحَةِ عِنْدَ قَدَمِ الأَعْمَى وَذَهَبَ بِطَرِيقِهِ. وَفِي نَفْسِ ذَلِكَ اليَوْمِ عَادَ هَذَا الرَّجُلُ الفَصِيحُ البَلِيغُ وَمَرَّ بِالأَعْمَى وَلاحَظَ أَنَّ قُبَّعَتَهُ قَدِ امْتَلأَتْ بِالقُرُوشِ، فَعَرَفَهُ الأَعْمَى مِنْ وَقْعِ خَطَوَاتِهِ، فَسَأَلَهُ إِنْ كَانَ هُوَ مَنْ أَعَادَ كِتَابَةَ اللَّوْحَةِ وَمَاذَا كَتَبَ عَلَيْهَا؟

فَأَجَابَ الرَّجُلُ: «لا شَيءَ غَيْرَ الصِّدْقِ، فَقَطْ أَعَدْتُ صِيَاغَتَهَا». لَكِنَّ

اللَّوْحَةَ الجَدِيدَةَ كُتِبَ عَلَيْهَا: «نَحْنُ فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ لَكِنَّنِي لا أَسْتَطِيعُ رُؤْيَةَ جَمَالِهِ»!!

كَمْ هُوَ كُفْرَانٌ بِنِعْمَةِ الله -تَعَالَى- أَنْ يُرزَقَ الإِنْسَانُ بَيَاناً فِي لِسَانِهِ فَيُعْمِلَهُ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالبَاطِلِ، أَوْ يَسْتَخْدِمَهُ لِلْمِرَاءِ وَالجَدَلِ أَوِ المدْحِ الكَاذِبِ أَوِ الخُصُومَاتِ بِالبَاطِلِ، قَالَ ﷺ: **«إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيّ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَإِنْ قَضَيْتُ لأَحَدٍ مِنْكُمْ بِشَيءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً»**[1].

اللَّهُمَ ارْزُقْنَا لِسَاناً ذَاكِرًا وَقَلْبًا خَاشِعًا وَعِلْمًا نَافِعًا، إِنّك سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣)، وأبو داود (٣٥٨٣)، والترمذي (١٣٣٩) واللفظ له، عن أم سلمة -رضي الله عنها.

الكلمة ١٠: غشمرة

الـمُزَاحُ فِي مِيزَانِ الإِسْلامِ

نقفُ مَعَ كَلِمَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كَلِمَاتِنَا الأَصِيلَةِ وَهِيَ كَلِمَةُ (غَشْمَرَة).

نَقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: «فُلانٌ يتغشْمَر» وَهُوَ غَشْمَرِيٌّ، أَيْ: أَنَّهُ مُـحِبٌّ لِلْعَبَثِ وَالضَّحِكِ وَاللَّهْوِ. وَقَدْ جَاءَتْ فِي كَلامِ العَرَبِ قَرِيباً مِنْ هَذَا الـمَعْنَى:

قَالَ فِي لِسَانِ العَرَبِ: الغَشْمَرةُ: إِتْيَانُ الأَمْرِ مِنْ غَيرِ تَثَبُّتٍ.

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِـهَذِهِ الكَلِمَةِلابـُدَّ أَنْ نَقِـفَ مَعَ أَبْعَادِها الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الهـامَّةِ، وَالَّتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عُنْوانِ: **(المـزاحُ فِي مِيزانِ الإِسْلامِ)**.

لقد كان رَسُولُ اللهِ ﷺ يُمَازِحُ أَصْحَابَهُ وَأَزْوَاجَهُ وَلا يَقُولُ إِلا حَقًّا فَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ اللهِ إِذَا أَتَاهُ الوَحْيُ أَوْ وَعَظَ قُلْتُ: نَذِيرُ قَومٍ أَتَاهُمُ العَذَابُ، فَإِذَا ذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ رَأَيْتَ أَطْلَقَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَكْثَرَهُمْ ضَحِكًا (تَبَسُّمًا) وَأَحْسَنَهم بِشْراً.

وَلَقْد كَانَ مُزَاحُ النَّبِيِّ ﷺ جُزْءاً مِنْ تَرْبِيَتِه لأَصْحَابِهِ وَلَـمْ يَكُنْ لِلْعَبَثِ أَوْ لِـمُجَرَّدِ التَّروِيحِ، وكان نَوعاً مِنْ طَرْدِ السَّأَمِ والهَـمِّ وَالابْتِـعَـادِ عَنْ مَشَاغِلِ الدُّنْيَا وَتَروِيحًا لِلنَّفْسِ؛ إِذْ لا بُدَّ لِلْمَرْءِ مِنْ مَواقِفَ تَتَجَدَّدُ فِيهَا الطَّاقَةُ وَتُبْعَثُ فِـيـها الهِمَّةُ؛ لأَنَّ القُلُوبَ إِذَا كَلَّتْ عَمِيَتْ. وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ عَنْ أَنَسٍ أَنْ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله احْمِلْنِي (أَيْ فِي الجهادِ)، قَال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلدِ نَاقَةٍ**»، قَالَ: وَمَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ، فَقَالَ ﷺ: «**وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلُ إِلا النُّوقَ**»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١)، وصححه الألباني.

وهَذَا حَالُ رَسُولِ الله ﷺ، **وَأَمَّا صَحَابَتُهُ - رَضِيَ اللهُ عَـنْهُمْ -** فَقَـدْ كَـانُوا عَلَى أَثَرِهِ، فَكَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ جِدًّا وَأَقَلَّهم غَفْلَةً، وَمَعَ ذَلِـكَ كَـانُوا يَتَمَازَحُـونَ. **وَمِمَّنْ عُرِفَ بِالـمُزَاحِ مِنَ الصَّحَابَةِ نُعَيْمَانُ بْنُ عَمْرِو بنِ رِفَاعَةَ** المشْهُورُ بِقِصِصَهِ وَدُعَابَاتِهِ، وَهُـوَ صَـحَابِيٌّ جَلِيـلٌ، شَـهِدَ بَـدْراً، وَكَـانَ مِـنْ قُـدَمَاءِ الـصَّحَابَةِ وَكُبَرائِهِمْ، وَكَانَتْ فِيهِ دُعابَةٌ زَائِدَةٌ، وَلَهُ أَخْبَارٌ طَرِيفَةٌ.. **وقد رُوِيَ مُرْسـلاً** مِـن طُرَفِهِ أَنَّهُ كَانَ لا يَدْخُلُ المدِينَةِ طَرِفَةٌ أَوْ فَاكِهَةٌ، إِلا اشترَى مِنْهَا، وَأَكَلَ بَعْضَهَا، وَأَهْدى البَاقِي إِلى النَّبِيِّ ﷺ، فَـإِذَا جَـاءَ صَـاحِبُهَا يَطْلُـبُ ثَمَنَهـا مِـنْ نُعَـيْمَانَ أَحْضَرَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ للنبي ﷺ: أَعْطِ هَذَا ثَمَـنَ مَتَاعِـهِ!! فَيَقُـولُ النَّبِـيُّ ﷺ: «**أَوَ لَـمْ تُهدِهِ لِي؟**» فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَلَكِـنْ، وَاللهِ لَـيْسَ عِنْـدي ثَمَنُـهُ، وَلَقَـدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَأْكُلَهُ. فَيَضْحَكُ النَّبِيُّ ﷺ، وَيَأْمُرُ لِصَاحِبِهِ بِالثَّمَنِ(١).

وَهَكَذَا ظَلَّ الصَّحَابَةُ- رِضْـوانُ الله عَلَـيْهِمْ- لا يُـؤَثِّرُ المـزَاحُ عَـلَى جِدِّيَّـةِ العَمَـلِ عندهم، ولا عَلَى تَطْبِيقِ السُّنَنِ. وَعَلَى مَنْهَجِ الصَّحَابَةِ سَارَ الـسَّلَفُ فِي جَعْلِ الـمُزاحِ اسْتِرَاحَةً. **قِيلِ لِسُفْيانَ بْنِ عُيَيْنَةَ**: الـمُزَاحُ هُجْنَةٌ؟ قَالَ: بَلْ سُنَّةٌ، وَلَكِنَّ الشَأْنَ فِيمَنْ يُـحْسِنُهُ وَيَضَعُهُ مَواضِعَهُ.

يَقُولُ الإمامُ النَّوويُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ: «المزَاحُ الـمَنْهِيُّ عَنْهُ هُوَ الَّذِي فِيـهِ إِفْـرَاطٌ وَيُدَاوَمُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يُورِثُ الضَّحِكَ وقَـسْوَةَ القَلْـبِ، وَيُـشْغِلُ عَـنْ ذِكْـرِ الله- تَعَالَى، يَؤُولُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَوْقَاتِ إِلى الإِيذَاءِ، وَيُورِثُ الأَحْقَادَ، وَيُسْقِطُ المهَابَةَ وَالوَقَارَ. فَأَمَّا مَنْ سَلِمَ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ فَهُوَ المبَاحُ الَّـذِي كَـانَ رَسُـولُ الله ﷺ يَفْعَلُهُ»(٢).

---

(١) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: «أخرجه الزبير بن بكار في الفكاهـة، ومـن طريـق ابن عبد البر من رواية محمد بن حزم مرسلا».

(٢) الأذكار، للنووي، ص ٤٦٨.

أَيُّهَا القارئونَ الكِرَامُ: إِنَّ الـمُزَاحَ قَدْ يَكُونُ مَظْهَراً مِنْ مَظَـاهِرِ الرُّجُولَـةِ فِي البَيْتِ مَـعَ الزَّوْجَـةِ وَالأَوْلادِ، إِذَا كَـانَ دُونَ إِسْرَافٍ أَوْ جُنُـوحٍ، لا كَـمَا يَظُـنُّ البعضُ أَنَّ الرُّجُولَةَ بِالتكَلُّفِ وَالتَصَنُّعِ. وَلَنَا فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ أَسْـوةٌ حَـسَنَةٌ، فقد روى الإِمَامُ أحمدُ- رحمهُ اللهُ- عن عائشةَ- رضي اللهُ عنهـا- أنهـا قالـت: خرجَ رسولُ الله ﷺ في بعـضِ أَسـفارِهِ وأنـا مَعَـهُ، فقـال للنـاسِ: «**تقـدَّمُوا**» فتقـدَّمُوا، ثـمَّ قـالَ لي: «**تَعـالي حتـى أُسـابِقُكِ**»، فـسابقْتُهُ فـسبقْتُهُ، فـسكتَ عنِّي. حتى إذا حَمَلْتُ اللحمَ وبَدِنْتُ ونَسيتُ خرجتُ معهُ في بعـضِ أسـفارِهِ، فقالَ للناسِ: «**تقدَّمُوا**» فتَقَدَّمُوا ثم قالَ لِي: «**تعَالي أسابِقُكِ**» فسابَقْتُه، فسبَقَنِي، فجعلَ يَضْحَكُ ويقولُ: «**هذهِ بتلكَ**»(١).

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِنَّـهُ لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ مِثْلَ الـصَّبِيِّ، ثُـمَّ إِذَا بُغِيَ مِنْهُ وُجِدَ رَجُلاً. لِذَلِكَ يَنْبَغِي أَلا يَكُـونَ مِـنْ خُلُـقِ الـشَّابِّ الــمُلْتَزِمِ أَوْ الدَّاعِيَةِ التَّبَسُّمُ خَارِجَ البَيْتِ وَتَصَنُّعُ الغِلظَةِ وَالـجَفْوَةِ فِي بَيْتِهِ.

ولا بدَّ لنا من وقْفَةٍ عندَ الضوابطِ الشرعيةِ في الـمُزاحِ:

أولاً : أَنْ لا يَكُونَ فِيهِ شَيءٌ مِنَ الاسْتِهْزَاءِ بِالدِّينِ:

فهَذَا يُعدُّ مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلامِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾(٢).

وَهَذَا كَالاسْتِهْزَاءِ بِبَعْضِ السُّنَنِ عَلَى سَبِيلِ الـمُزاحِ، وَبِبَعْضِ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيّةِ.

ثانياً: أَنْ لا يَكْذِبَ فِي مُزَاحِهِ:

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْـنَدِهِ أَنَّ الرَسُـولَ ﷺ قَـالَ: «**وَيْـلٌ لِلَّـذي يُحَـدِّثُ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٧٨)، وصححه الألباني.
(٢) التوبة: ٦٥، ٦٦ .

فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ القَومَ، ويْلٌ لَهُ»(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم.

ثالثاً : أَلَا يُرَوِّعَ أَخَاهُ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمَاً**»(٢). قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجال الكبير ثقات.

رابعاً : عَدَمُ الانْهِمَاكِ والاسْتِرْسَالِ وَالمبَالَغَةِ وَالإِطَالَةِ في المزَاحِ :

قَالَ الإِمَامُ الغَزَالِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ : «مِنَ الغَلَطِ العَظِيمِ أَنْ يُتَّخَذَ المُزَاحَ حِرفةً».

وَفِي الخِتَامِ نقول: التوازنُ مَطلبٌ أساسٌ، ولا شكَّ أنَّ الإفراطَ يقودُ إلى أمورٍ تُنَافِي مقاصدَ الشريعةِ ومراتبَ المروءةِ.

قَالَ سَعدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ لابْنِهِ: «اقْتَصِدْ فِي مُزَاحِكَ؛ فَإِنَّ الإِفْرَاطَ فِيهِ يُذهبُ البَهَاءَ، ويُجَرِّئُ عَلَيْكَ السُّفَهَاءَ».

هذا ونسألُ اللهَ أن يُؤَدِّبَنا بآدابِ الإسلامِ، وأن يهديَنَا إلى الصراطِ المستقيمِ، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥)، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٠٤)، وصححه الألباني.

الكلمة ١١: غث

ثُقَلاءُ الـمَجَالِسِ

إِخْوانِي وَأَخَواتِي القراء الكِرَامَ...

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَكَلِمَتُنَا هِي (**غَثْ**).

نَقُولُ فِي لَـهْجَتِنَا الكَويتِيَّةِ: كَلامٌ غَثِيثٌ، أَيْ: رَدِيءٌ، وَشَخْصٌ غَثِيثٌ، أَيْ: ثَقِيلٌ لا يُـحْتَمَلُ، وَقَدْ وَرَدَتْ كَلِمَةُ «غَثْ» فِي اللُّغَةِ العَرَبِيةِ الفَصِيحَةِ:

قالَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي لِسَانِ العَرَبِ: وَالغَثُّ: الرَّدِيءُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، ولَحْمٌ غَثٌّ وغَثِيثٌ: أي مَهْزُولٌ، وَأَغَثَّ حَدِيثُ القَومِ: إِذَا فَسَدَ، وَكَلامٌ غَثٌّ: لا طَلاوة عَلَيْهِ.

قَالَ الـمُثَقِّبُ العَبْدِيُّ:

فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِصِـدْقٍ   فَأَعْرِفَ فِيكَ غَثِّي مِنْ سَمِينِي

وإلا فَـاطَّرِحْـنِي واتَّـخِـذْنِي   عَـدواً أَتَّـقِـيـكَ وتَتَّقِيْنِـي

وَمَعْنَى الغَث: الهَزِيلُ. وَالسَّمِينُ ضِدُّهُ، وَأَتَّقِيكَ: أَحْذَرُكَ.

وَبَعْدَ هَذَا المُرورِ الموجَزِ عَلَى الـمَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِـهَذِهِ الكَلِمَةِ، لابُـدَّ مِـنْ أَنْ نقِفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ المهمةِ، وَالتِي نَـضَعُهَا تَحْـتَ عِنْـوانِ: (**ثُقَلاءُ المجَالِسِ**).

إِنَّ مِنْ شَقَاوةِ الدُّنْيا أَنْ تجالسَ مَنِ ابْتُلِيَ بِالأَخْلاقِ السَّيِّئَةِ الفَاحِشَةِ الرَّدِيئَـةِ وقُبْحِ القَولِ وَالفِعْلِ، ومن يخَوضِ فِي الكَلامِ الَّذِي لا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلا طَـلاوَةَ عَلَيْهِ وَلا حَلاوَةَ فِيهِ، وهذا مما يَكْـرَهَ النَّـاسُ حُـضُورَه وَيَخَـافُون مِـنْ شُرُورِه، فَالفُحْشُ يَنْفُرُ مِنْهُ الطَّبْعُ السَّلِيمُ، وَيَسْتَقْبِحُهُ العَقْلُ المسْتَقِيمُ، وَيَسْتَخْبِثُهُ الشَّرْعُ الحَنِيفُ.

فَحَاذِرْ أَخِي القارئ الحَبيبَ أنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَسْتَعِيذُ النَّاسُ مِنْ شُرورِهِ ويَكرهُون حُضُورَهُ وَيَتَّقُونهُ لِفُحْشِ قَولِهِ، فَقَدْ أَخْبَرَتِ السَّيِّدةُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**ائْذَنُوا لَهُ، فَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، أَوْ بِئْسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ**» فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْقَوْلَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْتَ الَّذي قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ؟ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ - أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ - اتِّقَاءَ فُحْشِهِ**»[1].

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: إِنَّا لَنُكَشِّرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ[2].

وَقَدْ نَهَانَا اللهُ - تَعَالَى - عَنِ الفُحْشِ فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

يَقُولُ ابْنُ حَجَرٍ: «إِنَّ مُلازَمَةَ الشَّرِّ وَالفُحْشِ مِنَ الكَبَائِرِ، وَالفُحْشُ والتَفَحُّشُ لَيْسَ مِنَ الإِسْلامِ فِي شَيءٍ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ إِسْلاماً أَحْسَنُهُمْ أَخْلاقاً».

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ عَلَى أُنَاسٍ جُلوسٍ فَقَالَ: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُمْ مِنْ شَرِّكُمْ**» قَالَ: فَسَكَتُوا. فَقَالَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: بَلَى يَا رَسُولَ الله أَخْبِرْنَا بِخَيْرِنَا مِنْ شَرِّنَا. قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ يُرجى خَيْرُهُ وَيُؤَمَنُ شَرُّهُ، وَشَرُّكُمْ مَنْ لا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلا يُؤْمَنُ شَرُّهُ**»[4].

وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرٍو ﷺ فِي وَصْفِ حَبِيبِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا**»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣١)، ومسلم (٢٥٩١).
(٣) أخرجه البخاري فوق حديث (١٩٣١).
(٤) الأعراف: ٣٣.
(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٥٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٠٣).
(٦) أخرجه البخاري (٦٠٣٥)، ومسلم (٢٣٢١).

إِنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ تَجِدَ مَنْ حولَك يُـحِبُّونَك ويَتمنَّوْنَ مُجَالَسَتَكَ وَحَدِيثَكَ، وَمِنَ الشَّقَاوةِ أَنْ يَنْفُرَ مِنْكَ مَنْ حَولَكَ! واسْمَعْ مَعِيَ هَذَا الحِوارَ المعبِّرَ.. يُحْكَى أَنَّ ثقِيلاً مِنَ الثُّقَلاءِ كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَى ظَرِيفٍ مِنَ الظُّرَفَاءِ وَأَطَالَ تَـرْدَادَهُ عَلَيْـهِ، حَتَّى سَئِمَ مِنْهُ وَبَرِمَ بِهِ، فَبَيْنَمَا كَانَ الثَّقِيلُ جَالِساً مَعَهُ يَومًا قَالَ الثَّقِيـلُ لَـهُ: مَـنْ تَرَاهُ أَفْحَلَ الشُّعَرَاءِ؟ فأَجَابَهُ الظَّرِيفُ: ابْنُ الوَرْدِيِّ بِقَولِهِ:

غِبْ وَزُرْ غِبًّا تَزِدْ حُبًّا فَمَنْ ... أَكْثَرَ التَّرْدَادَ أَضْنَاهُ الـمَلَلْ

فَقَالَ الثَّقِيلُ: أَخْطأْتَ، فَإِنَّ السِّنْجَارِيَّ أَفْحَلُ مِنْهُ بِقَولِهِ:

إِذَا حَقَّقْـتَ مِـنْ خِــلٍّ وِدَاداً ... فَـزُرْهُ وَلا تَـخَفْ مِنْـهُ مِلالاً

وَكُنْ كَالشَّمْسِ تَطْلُعُ كُلَّ يومٍ ... وَلا تَـكنْ فـي زِيَارَتِهِ هِلالاً

فَقَالَ الظرِيفُ: إِنَّ الـحَرِيرِيَّ أَفْحَلُ مِنَ الاثْنَينِ بِقَولِهِ:

لا تَزُرْ مَنْ تُحِبُّ فِي كُلِّ شهرٍ ... غَيْرَ يومٍ وَلا تَزِدْهُ عَلَيْهِ

فَاجْتِلاءُ الهِلالِ فِي الشَّهْرِ يومٌ ... ثُمَّ لا تَنْظُرُ العُيونُ إِلَيْهِ

ثُمَّ قَالَ الظَّرِيفُ: وَإِنْ لَمْ تُصَدِّقْنِي فَقَدْ وَهَبْتُكَ الدَّارَ بِمَا فِيهَا، وَخَرجَ وَهُوَ يُنْشِدُ:

إِذَا حَلَّ الثَّقِيلُ بِأَرْضِ قومٍ ... فَمَا لِلسَّاكِنِينَ سُوى الرَّحِيلِ

وَإِنَّ أَجْمَلَ وَأَسْعَدَ مَا فِي الدُّنْيَا أَنْ تَـأْلَفَ وتؤْلَـفَ، وَتُحِـبَّ النَّـاسَ وَيُحِبَّـكَ النَّاسُ، وَأَنْ تَكُونَ لَيِّنَ الجَانِبِ حَسَنَ المعَامَلَةِ، طَيِّبَ الكَلامِ. قَالَ ﷺ: «**المؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، وَلا خَـيرَ فِـيمَنْ لا يَـأْلَفُ وَلا يُؤْلَـفُ، وَخَـيرُ النَّـاسِ أَنْفَعُهُـم لِلنَّاسِ**»(١).

وقالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِي مَجْلِساً أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقاً الـمُوَطَّؤُونَ**

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٦١).

أَكْنَافاً الذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ»(١).

فَبالأُلْفَةِ وَاللِّينِ وَالتَحَبُّبِ للآخَرِينَ تَنْتَصِرُ عَلَى أَعَادِيكَ، وَتَمْتَنِعُ بِهَا عَنْ حَاسدِيكَ، وَتَصْفُو بِها مَوَدَّتُكَ لِـمُصَاحِبِيكَ.

إِنَّ الصِّفَاتِ الـحَمِيدةَ فِي الإِنْسَانِ تُتَعلّمُ وتُكْتَسَبُ. وَلا يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّني لا أَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَ طِبَاعِي السَّيِّئَةِ، بَلْ اسْمَعْ إِلَى هَدْيِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حين قال: **«إِنَّمَا العِلْمُ بالتَّعلُّم، وإِنَّمـا الحِلْمُ بالتَّحَلُّمِ»**(٢).

اللَّهُمَ اهْدِنَا لِأَحْسَنِ الأَخْلاقِ، فَإِنَّهُ لا يَهْدِي لِأَحْسَنِها إِلا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنَّا سيِّئَها، فَإِنَّهُ لا يَصْرِفُ عَنَّا سَيِّئَها إِلا أَنْتَ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٣٥٦)، وحسنه الألباني (٢١١١).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ١١٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٩٣).

الكلمة ١٢: طَنَّزْ

تَحْرِيمُ السُّخْرِيَةَ

كَلِمَتُنَا هِيَ: (طَنَّزْ).

نَقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: [فُلانٌ يطَنِّزْ عَلَى فُلانٍ]: أَيْ يَسْخَرُ مِنْهُ. قَالَ الزبيدِيُّ فِي تَاجِ العَرُوسِ: الطَّنْزُ بِفَتْحِ الطَّاءِ: السُّخْرِيَةُ، وَتَقُولُ: طَنّاز بِتَشْدِيدِ النُّونِ: أَيْ كَثِيرُ السُّخْرِيَةِ. وَجَاءَ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ الكَلِمَةِ فِي شِعْرِ العَرَبِ.

قَالَ بِشْرُ بنُ عَمْرٍو بنِ مَرْثَد:

وَتَرَاهُمُ يَغْشَى الرَّفِيضُ جُلودَهمْ طَنِزين يُسقَونَ الرَّحِيقَ الأصهَبا

طَنِزين: أَيْ يُكْثِرُونَ السُّخْرِيَةَ مِنَ الآخَرِينَ.

أَحِبَّتِي القراء: وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَويةِ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ، لا بدُ أَنْ نقفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الهامَّةِ وَالَّتِي نَضَعُها تَحْتَ عُنْوانِ: (**تَحْرِيمُ السُّخْرِيَةَ**).

إِنَّ لِلأَخْلاقِ دَوْراً عَظِيماً فِي حَيَاةِ الأُمَمِ؛ فَالأَخْلاقُ الفَاضِلَةُ تَسْمُو بِأَهْلِهَا وَتَرْفَعُ مِنْ أَقْدَارِهِمْ، وَالأَخْلاقُ القَبِيحَةُ تَهْدِمُ كِيَانَ الأُمَّةِ وَتُفَرِّقُ أَبْنَاءَهَا. كَمَا قِيلَ:

إِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

الإِسْلامُ يَحُثُّ مُجْتَمَعَهُ عَلَى التَّوَادِّ وَالتَّرَاحُمِ، وَالصِّدْقِ وَالمَحَبَّةِ وَالاحْتِرَامِ وَتَبَادُلِ الثِّقَةِ. وَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ الَّتِي أَكْرَمَ بِهَا المُؤْمِنِينَ أَنَّهُ أَلَّفَ بيْنَ قُلُوبِهِمْ بِالإِسْلام، وَجَعَلَهُمْ إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَعْدَاءَ مُتَنَاحِرِينَ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾[1]، **لَكِنْ هُنَاكَ طَائِفَةٌ**

(١) آل عمران: ١٠٣.

مِنَ النَّاسِ يُفْسِدُونَ هَذِهِ الـمَوَدَّةَ مِنْ خِلالِ السُّخْرِيَةِ، فَهُوَ يَهْدِمُ هَـذِهِ الأُخُـوَّةَ وَالمحَبَّةَ، لِيَغْرِسَ مَكَانَهَـا الفُرْقَـةَ وَالكَرَاهِيَـةَ. وَلِـذَا قَبْـلَ أَنْ يَنْهَانَـا رَبُّنَـا عَـنِ السُّخْرِيَةِ مِنَ الآخَرِينَ ذَكَّرَنَا بِإِيمَانِنَا لِيَقُولَ لَنَا: تَذَكَّرُوا إِيمَانَكُمْ الَّذِي بِهِ صِرْتُمْ إِخْوَانـاً مُتَـآلِفِينَ، وَبِـهِ غَـدَوْتُمْ إِخْـوَةً فِي الـدِّينِ، فَعَلَـيْكُمْ أَلا تَـسْخَرُوا مِـنْ إِخْـوَانِكُمْ، قَـالَ تَعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾(١).

وتَتَعَدَّدُ صُوَرُ السُّخْرِيَةِ وَتَتَنَوَّعُ، لَكِنَّهَا بِمَجْمُوعِهَا تَنْقَسِمُ إِلى قِسْمَيْنِ:

١ - سُخْرِيَةٌ مِنْ دِينِ اللهِ وَشَعَائِرِه.

٢ - سُخْرِيَةٌ مِنَ النَّاسِ.

فَالنَّوْعُ الأَوَّلَ: هُوَ الاسْتِهْزَاءُ بِالدِّينِ، وَهُوَ الأَفْظَعُ وَالأَخْطَرُ، لأَنَّهُ فِعْلُ الكَافِرِينَ وَالمنَافِقِينَ، أَمَّا الكَافِرُونَ فَكَانُوا يَهْزَؤُونَ بِصَلاةِ المؤْمِنِينَ: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾(٢). وَأَمَّا المنَافِقُونَ فَكَانُوا يَسْخَرُونَ مِنَ اللهِ وَكَلامِهِ وَرَسُولِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾(٣)؛ وَلِذَا كَانَ هَذَا النَّوْعُ نَاقِضًا مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلامِ، يَؤُولُ بِصَاحِبِهِ إِلى الكُفْرِ وَالخُرُوجِ مِنَ المِلَّةِ وَالعِيَاذُ باللهِ. **وَمِنْ هَذَا القَبِيلِ مَا يَفْعَلُهُ أُنَاسٌ مِنَ السُّخْرِيَةِ بِبَعْضِ سُنَنِ الدِّينِ** وَأَحْكَامِهِ وَشَعَائِرِهِ !!.. فَالـحَذَرَ الـحَذَرَ مِنَ الاسْتِهْزَاءِ بِشَيءٍ مِنَ الدِّينِ وَتَعَالِيمِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُوصِلٌ إِلى الكُفْرِ وَالعِيَاذُ باللهِ تَعَالَى**!!**

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: وَهُوَ الاسْتِهْزَاءُ بِخَلْقِ اللهِ، فَهُـوَ مِـنَ الكَبَـائِرِ وَالعِيَـاذُ بـاللهِ، وَهَذَا النَّوْعُ لَهُ أَشْكَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ:

---

(١) الحجرات : ١١.

(٢) المائدة : ٥٨.

(٣) البقرة : ١٤.

١- الاسْتِهْزَاءُ مِنَ الآخَرِينَ لِفَقْرِهِمْ أَوْ شَكْلِهِمْ أَوْ عِرْقِهِمْ.. جَاءَ عَنْ أُمِّ الـمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، وَأَشَارَتْ عَائِشَةُ بِيَدِهَا- تَعْنِي: قَصِيرَةً- أَيْ يَكْفِيكَ مِنْ أَوْصَافِهَا كَوْنُهَا قَصِيرَةَ القَامَةِ، وَهَذَا الكَلامُ سَبَبُهُ مَا يَكُونُ عَادَةً بَيْنَ الضَّرَائِرِ مِنَ الغَيْرَةِ وَالتَّنَافُسِ، فَقَالَ لَـهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَـمَزَجَتْهُ**»[١].

٢- السُّخْرِيَةُ مِنْ أَهْلِ الفَقْرِ وَالـمَسْكَنَةِ، وَهُوَ مُشَابِهٌ لِـمَا كَانَ يَفْعَلُهُ بَعْضُ زُعَمَاءِ مَكَّةَ مِنَ المشْرِكِينَ، كَأَبِي جَهْلٍ وَالوَلِيدِ بْنِ المغِيرَةِ وَنَحْوِهِمَا مِنْ كِبَارِ قُرَيْشٍ، كَانُوا يَضْحَكُونَ مِنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَصُهَيْبٍ الرُّومِيِّ وَبِلالٍ الحَبَشِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنْ فُقَرَاءِ الـمُسْلِمِينَ، بِسَبَبِ فَقْرِهِمْ وَرَثَاثَةِ حَالِـهِمْ، فَنَزَلَ قَوْلُ الله- سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾[٢].

ولقدِ اشْتَكَتْ أُمُّ الـمُؤْمِنِينَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ بنِ أَخْطَبَ إلى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ بَعْضَ نِسَاءِ الصَّحَابَةِ يُعَيِّرْنَهَا بِأَنَّهَا يَهُودِيَّةٌ، فَلَمْ يَرْضَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَلَمْ يَرْضَ رَبُّنَا كَذَلِكَ فَأَنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[٣].

٣- **السُّخْرِيَة مِنَ الآخَرِينَ**: لا لِشَيْءٍ إلا لأَجْلِ إِضْحَاكِ الآخَرِينَ!! وَمَا أَكْثَرَ هَذَا النَّوْعِ فِي المجَالِسِ اليَوْمَ !! **وَرُبَّـمَا دَخَلَ فِي الكَذِبِ لإِضْحَاكِهِمْ فَيَدْخُلُ فِي الوَعِيدِ النَّبَوِيِّ في قوله ﷺ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ**»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥)، وصححه الألباني.
(٢) المطففين: ٢٩-٣١، وما سبق ذكره القرطبي في التفسير ١٩٢٦٧.
(٣) الحجرات: ١١.
(٤) أخرجه أبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥)، وحسنه الألباني.

إِنَّ السُّخْرِيَةَ مِنَ النَّاسِ لها عَوَاقِبُ سَيِّئَةٌ عَلَى السَّاخِرِ، وَمِنْ هَذِهِ العَوَاقِبِ:

أولاً: عُقُوبَةُ الـمُتَكَبِّرِينَ، فَالسُّخْرِيَةُ فِيهَا غُرُورٌ وَكِبْرٌ عَلَى مَنْ يُسْخَرُ مِنْـهُ، قَال ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الـجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ**»(١).

ثانياً: السُّخْرِيَةُ تُؤَدِّي إِلى التَّنَافُرِ وَالتَّخَاصُمِ وَالتَّخَالُفِ، بَدَلَ المحَبَّةِ وَالتَّوَادِّ وَالتَّآلُفِ، وَفِي هَذَا نَهْيٌ، جَاءَ فِي الـحَدِيثِ: «**وَلا تَدَابَرُوا**»(٢).

ومَا مِنْ دَاءٍ إِلا وَلَهُ دَوَاءٌ، وَالسُّخْرِيَةُ دَاءٌ وَدَوَاؤُهَا:

أَوَّلاً: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ السُّخْرِيَةَ إِمَّا أَنْ تُخْرِجَـكَ مِـنَ الإِسْـلامِ وَتَهْـوِي بِـكَ فِي الكُفْرِ إِنْ كَانَتْ اسْـتِهْزَاءً بِالـدِّينِ وَشَـعَائِرِهِ، وَإِمَّـا أَنْ تُوْقِعَـكَ فِي كَبِـيرَةٍ مِـنَ الكَبَائِرِ، فَأَهْوَنُ مَا فِيهَا ارْتِكَابُ إِحْدَى عَظَائِمِ المعَاصِي وَالـسَيِّئَاتِ. قَـالَ ﷺ: «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الـمُسْلِمَ**»(٣).

ثَانِياً: أَن تَتَيَقَّنَ أَنَّ البَشَرَ كُلَّهُمْ مُتَـسَاوُونَ، فَكُلُّهُـمْ لآدَمَ وَآدَمُ مِـنْ تُـرَابٍ، وكَلهُمْ خلقوا من مْاءَ مِهِينٍ، فكَيفَ تَسْخَرُ وَتَتَكَبَّرُ عَلَى مَنْ خُلِقْـتَ أَنْـتَ مِـنْ نَفْسِ طِينَتِهِ؟!

ثَالِثاً: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مِيزَانَ التَّفَاضُلِ عِنْدَ رَبِّكَ لَيْسَ صُورَةَ الإِنْسَانِ وَمَنْظَـرَهُ، بَـلْ قَلْبُـهُ وَأَعْمَالُـهُ وَمخـبَرُهُ، يَقُـولُ نَبِيُّنَـا ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُـرُ إِلى صُـوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(٤). وَقَـدْ يَكُـونُ المـسْتَهْزَأُ مِنْـهُ خَيْراً مِنَ الهَازِئِ السَّاخِرِ: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرًا مِّنۡهُنَّ﴾(٥). فَهَذَا الـمُـسْلِمُ الَّذِي تَتَقَحمُهُ عَيْنُكَ وَتَشْمَئِزُّ مِنْهُ نَفْسُكَ رُبَّمَا يَكُونَ أَعْلَى مِنْـكَ دَرَجَـةً، عِنْـدَ رَبِّ

(١) أخرجه مسلم (٩١).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/ ٣٢).
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/ ٣٤).
(٥) الحجرات: ١١.

الأَرْضِ وَالـسَّمَوَاتِ، فَـ«رُبَّ أَشْـعَثَ مَـدْفُوعٍ بِـالأَبْوَابِ لَـوْ أَقْـسَمَ عَـلَى اللهِ لأَبَرَّهُ»[1].

وفي الختام: قال رسول الله ﷺ: «المـسْلِمُ مَـنْ سَـلِمَ المـسْلِمُونَ مِـنْ لِـسَانِهِ وَيَدِهِ»[2].

اللَّهُمَّ اجْعَـلْ أَلْـسِنَتَنَا رَطْبَـةً بِـذِكْرِكَ، وَنُفُوسَـنَا سَـامِعَةً مُطِيعَـةً لأَمْـرِكَ، وَجَوَارِحَنَا سَاعِيَةً فِي خِدْمَتِكَ.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١١) عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما، ومسلم (٤١) عن جابر رضي الله عنه.

الكلمة ١٣: موص

إِتْقَانُ العَمَلِ

أَيُّهَا الإِخْوَةُ القراءتقف مَعَ كَلِمَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كَلِمَاتِنا الأَصيلَةِ وَهِي كَلِمَةُ: (مُوصٍ).

نَقُولُ فِي العَامِّيَةِ: «فُلانٌ يَمُوصُ الثَّوبَ أَوِ الإِنَاءَ»، أَيْ: يَغْسِلُهُ غَسْلاً خَفِيفاً. وَقَدْ جَاءَتْ هذه اللفظة فِي كَلامِ العَربِ بِمعْنًى قَرِيبٍ مِنْ هَذَا المعْنَى:

قَالَ فِي لِسَانِ العَرَبِ: الـمَوْصُ: الغَسْلُ. مَاصَهُ يَمُوصُهُ مَوْصاً: غَسَلَه. وَقَال اللَّيْثُ: الـمَوْصُ: غَسْلُ الثَّوبِ غَسْلاً لَيّناً يَجْعَلُ فِي فِيهِ مَاءً ثُمَّ يَصُبُّه عَلَى الثَّوبِ وَهُوَ آخِذُهُ بَينَ إِبْهَامَيْهِ يَغْسِله ويَمُوصُهُ.

وَقَدْ وَرَدَتْ هَـذِهِ الكَلِمَـةُ فِي حَـدِيثِ عَائِـشَةَ فِي مَقْتَـلِ عُـثْمَانَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَتْ: «مُصْتُمُوهُ كَمَا يُمَاصُ الثَّوبُ، ثُمَّ عَدَوْتم عَلَيْهِ فَقَتَلْتُمُوهُ».

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المعَانِي اللُّغَويةِ لِـهَذِهِ الكَلِمَةِلا بـُدَّ أَنَ نَقَـفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الهَـامَّةِ وَالَّتِي نَضَعُها تَحْتَ عُنْـوانِ: (**إِتْقَـانُ العَمَلِ**).

أَيُّهَا القارئونَ الكِرَامُ: إن المسْلِمَ إِنْسَانٌ فَاعِـلٌ مُـؤَثِّرٌ، مُقْبِـلٌ عَـلَى الـحَيَاةِ، مُتَفَاعِلٌ مَعَهَا، وَاللهُ- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- جَعَلَهُ خَلِيفَـةً فِي الأَرْضِ، فَقَـالَ- عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾[1] فهـوُ مطالَـبٌ بالقِيـام بحـقِّ هَـذِهِ الخِلافَةِ فِي الأَرْضِ عِبَادَةً للهِ وإعمارًا للأرض، ولن يتحققَ ذَلِـكَ إِلا بِالعَمَـلِ وَالعَمَلِ الـجَادِّ!!؛ لِذَلِكَ أَمَرَ الحَبِيبُ ﷺ الـمُؤْمِنَ أَنْ يُتْقِنَ عَمَلَـهُ، فَقَـالَ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ**»[2].

---

(١) هود:٦١.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي (٥٣١٢).

وَعَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنَ أَوسٍ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[1].

فَهَذَا الحَدِيثُ نَصٌّ فِي وُجُوبِ الإِحْسَانِ، وَالإِتْقَانُ جُزْءٌ مِنَ الإِحْسَانِ، فَالإِحْسَانُ ذُو جَانِبَينِ، عَمَلُ الحَسَنِ أَوْ الأَحْسَنِ ثُمَّ الشُّعُورُ أَثْنَاءَ العَمَلِ بِأَنَّ اللهَ يَرَانَا أَوْ كَأَنَّنَا نَرَاهُ.

وَوُجُوهُ الإِحْسَانِ هِيَ بِحَسَبِ الإِنْسَانِ، وَبِحَسَبِ مَوْقِعِهِ، وَبِحَسَبِ قُدْرَتِهِ، وَبِحَسَبِ اهْتِمَامِهِ: إِحْسَانٌ بِالمَالِ وَالجُهْدِ وَالعِلْمِ وَالعَمَلِ وَالجَاهِ وَالمَنْصِبِ، وَالشَّفَاعَةِ وَالمَشُورَةِ وَالنَّصِيحَةِ وَالتَّوْجِيهِ، وَبَذْلِ الوَقْتِ وَالـمُؤَانَسَةِ وَالكَلامِ الطَّيِّبِ، يَقُولُ أَبُو الطَّيِّبِ: وَإِحْسَانٌ بِالكَرَمِ وَالجُودِ، وَحُسْنِ الخُلُقِ وَحُسْنِ العِشْرَةِ، وَإِحْسَانٌ لِلحَيْوَانِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الإِحْسَانِ، فَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الـمُحْسِنِين .

ولا بُدَّ لنا بعدَ هذا أن نَطْرَحَ هذا السُّؤالَ: مَا قِيمَةُ الشَّعَائِرِ وَالوَسَائِلِ التَّعَبُّدِيَّةِ التِي لا تُغَيِّرُ فِي سُلُوكِ الإِنْسَانِ ؟

إننا حقا نفتَقَدَ التربيَةَ الأُسَرِيَّةَ وَالمَدْرَسِيَّةَ وَالاجْتِمَاعِيَّةَ التِي تَجْعَلُ الإِتْقَانَ وَالإِحْسَانَ فِي حَيَاتِنَا صِفَةً مُلازِمَةً، وَعَلامَةً فَارِقَةً.

وَلَعَلَّنَا نَلْحَظُ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ التَّخَلُّفِ فِي الـمُجْتَمَعَاتِ الإِسْلامِيَّةِ انْتِشَارُ الصِّفَاتِ المنَاقِضَةِ لِلإِتْقَانِ: كَالفَوضَى وَالتَّسَيُّبِ وَفُقْدَانِ النِّظَامِ وَعَدَمِ المبَالاةِ بِقِيمَةِ الوَقْتِ، وَالسَّعْيِ لِتَحْقِيقِ المصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّةِ دُونَ مُرَاعَاةِ النَّاسِ، وَالإِهْمَالِ وَالغِشِّ وَالـخَدِيعَةِ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

إِنَّ الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ أُمَّةٌ حَضَارِيَّةٌ لا مَكَانَ لِلْفَوضَى وَالتَّسَيُّبِ فِيهَا، أُمَّةٌ تُقَدِّرُ العِلْمَ وَتُحَارِبُ الأُمِّيَّةَ وَالـجَهْلَ وَالـخُرَافَةَ، وَكُلَّ مَظَاهِرِ التَّخَلُّفِ.

لِذَلِكَ نَحْنُ مُطَالَبُونَ بِبَذْلِ الـجُهْدِ كُلِّهِ فِي نَشْرِ ثَقَافَةِ الإِتْقَانِ فِي كُلِّ عَمَلٍ فِي الـحَيَاةِ، فَلا يَكْفِي أَنْ يُؤَدِّيَ الـمُسْلِمُ العَمَلَ صَحِيحاً؛ بَلْ لابُدَّ أَنْ يَكُونَ صَحِيحاً وَمُتْقَنًا، وَالمسْلِمُ لا يُتْقِنُ عَمَلَهُ وَيُـجَوِّدُهُ؛ لأَنَّهُ مُرَاقَبٌ مِنْ رِئِيسٍ لَهُ، أو لأنه يَقْصِدُ بُه تحقِيقَ غَايَاتٍ لَهُ أَوْ يَسْعَى إِلى السُّمْعَةِ وَالشُّهْرَةِ؛ بَلْ يُتْقِنُ عَمَلَهُ لأَنَّ اللهَ يَرَاهُ.

أَيُّهَا القارئونَ الأَعِزَاءُ: لِلْوُصُولِ إِلَى شَخْصِيَّةِ المُلْمِ الـذِّي تتحَقَّقُ فِيهِ مَعَانِي الإِحْسَانِ لا بُدَّ من الـمُجَاهَدَةِ الـشَّدِيدَةِ لِلـنَّفْسِ، قَالَ تَعَالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1].

وَإِلَى جَانِبِ المجَاهَدَةِ هُنَاكَ وَسِيلَةٌ أُخْرَى لاكْتِسَابِ صِفَةِ الإِحْسَانِ وَهِيَ الإِقْبَالُ عَلَى اللهِ بِالطَّاعَةِ وَالعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ، وَلِلْمُؤْمِنِ فِي رَمَضَانَ عِبَادَاتٌ كَثِيرَةٌ يُقْبِلُ بِهَا عَلَى اللهِ وَكَأَنَّهُ يَرَاهُ، كَالصِّيَامِ وَالقِيَامِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي التَّهَجُّدِ، وَكَالـدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، فَشَهْرُ الصِّيَامِ مَدْرَسَةٌ تُعَلِّمُ الإِنْسَانَ الإِتْقَانَ وَالإِحْسَانَ تَعْلِيماً وَتَطْبِيقًا.

ومَنْ أَرَادَ مَحَبَّةَ اللهِ فَعَلَيْهِ بِالإِحْسَانِ قَالَ - سُبْحَانَهُ: ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2]. وَمَنْ أَرَادَ مَعِيَّةَ اللهِ الـخَاصَّةَ فَعَلَيْهِ بِالإِحْسَانِ قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[3].

وَمَنْ أَرَادَ الإِحْسَانَ مِنَ الله فَعَلَيْهِ بِالإِحْسَانِ فِي سَائِرِ عَمَلِهِ قَالَ تَعَالَى:

---

(١) العنكبوت: ٦٩.
(٢) البقرة: ١٩٥.
(٣) النحل: ١٢٨.

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾(١) .

فَمَـنْ أَحْـسَنَ عَمَلَـهُ؛ أَحْـسَنَ اللهُ جَـزَاءَهُ، قَـالَ تَعَـالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(٢). والحُسْنَى هنا: الجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الله - عَزَّ وَجَلَّ.

وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَجَعَلَنَا مِنَ الـمُحْسِنِينَ.

---

(١) الرحمن: ٦٠ .

(٢) يونس: ٢٦ .

الكلمة ١٤: غربل

البَلاءُ وأسْبابُهُ

إِخْوانِي وَأَخواتِي القراء الكِرَامَ:

السَّلامُ عليكُمْ وَرحمةُ اللهِ وَبَركاتُه، وَكَلِمَتُنَا هيَ (**غَرْبَلَ**).

نَقولُ فِي لَـهْجتِنا الكُويتِيَّةِ: فُلانٌ مُغربَلٌ، أَيْ: مُشتَّتُ الأمرِ تُصيبُهُ النَّكَبَاتُ دَائِماً، وَنَدعُو عَلَى الإنْسَانِ أَنْ يَبْتلِيَهُ اللهُ بِالمصَائِبِ فَنَقُولُ: الله يُغربِلُكَ.

وَفِي الْفُصحَى وَرَدَتْ كَلمةُ غَرْبَلَ. قَالَ الزبيدي فِي تاجِ العَروسِ: المغَرْبَلُ بَفتحِ الْباءِ: الدُّونُ الخَسِيسُ مِنَ الرِّجالِ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الغِرْبالِ. وَيرادُ بِالمغَرْبَلِ: المفَرَّقُ.

وَردَ فِي الحَدِيثِ: «**كَيفَ بِكمْ إِذَا كُنْتُم فِي زَمَانٍ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً**»[1]. أَيْ: يُقْتَلونَ ويُطحَنونَ. قَالَ عَامرٌ الخَصَفِيُّ:

تَرَى الـمُلوكَ حَوْلَه مُغَرْبَلَهْ ... وَرُمْـحُـهُ لِلْوَالِداتِ مَثْكَلَـهْ

يَقْتُلُ ذَا الذَّنْبِ وَمَنْ لا ذَنْبَ لَـهْ

قِيلَ: يُرِيدُ أَنّهُ يَنْتَقِي السَّادةَ فَيقتُلُهُم ويَسْتقصِيهِم وَيتبعُهُم.

وَبَعْدَ هَذَا المُرورِ السَّرِيعِ عَلَى المعَانِي اللُّغَويةِ لهَذِهِ الكَلِمَةِ، لا بُدَّ أَنْ نَقِفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الهامَّةِ وَالَّتِي نَضَعُها تَحْتَ عُنْوانِ: (**البَلاءُ وأسْبابُهُ**).

أَحبَابِي القراء الكِرامَ: إِنَّ الابتِلاءَ سُنةُ اللهِ - تَعالى - الجَارِيةُ عَلى عبادِهِ لا يَنفكُّ عَنها الكافرُ ولا المسلمُ، قَالَ تَعالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤٢)، وصححه الألباني.

(٢) البقرة: ١٥٥.

وَإِنَّ منْ حِكمةِ اللهِ – تعالَى – اختِصَاصُ بَعضِ المـؤمنِينَ بِنـزُولِ البَلاءِ. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَثلُ المُؤمنِ كَمَثلِ الزَّرْعِ لا تَزالُ الريحُ تـميلُهُ، وَلا يَزالُ الـمُؤمِنُ يُصيبُهُ البَلاءُ، وَمثلُ الـمُنَافقِ كَمثلِ شَجرةِ الأَرزِ لا تَهتزُّ حَتّى تُسْتحصَدُ**»(١).

وَلْنَنتبِهْ إِلى أَنَّ الابتلاءَ له سَببانِ:

أولاً: نوعٌ يَستهدِفُنا لِتَمحِيصِنَا وَاخْتبارِنَا، وَلِرَفعِ دَرجاتِ المؤمنِ الصابرِ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ، ابْتَلَاهُ اللهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ**»(٢).

ثانياً: نوعٌ يَقعُ تَعجِيلاً لِلْعقوبةِ لَنَا فِي الدّنيا بِسببِ ذنوبِنَا وَآثامِنَا، يقولُ اللهُ – عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾(٣).

وَقدْ جُمِعَ السَّببَانِ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا يُصِيبُ المؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلا رَفَعَهُ الله بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً**»(٤).

فَكَمَا تَكونُ سُنَّةُ اللهِ – تَعالَى – فِي ابْتلائِنا بِأنواعِ الابْتلاءاتِ الكَثيرةِ لِاخْتبارِ قُوَّتِنَا مِنَ الضّعفِ والصّبرِ مِنَ الـجَزعِ، فَإِنَّها مِنْ جِهةٍ أُخرَى تَكونُ لِلتنبيهِ لِتقصيرِنَا في بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ أَوْ لِوقوعِنَا وَانْغماسِنَا فِي بعضِ الـمُحرمَاتِ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الـخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٥).

قَالَ الحسنُ الْبصريُّ: إِنِّي لَأَعلمُ ذَنبِي مِنْ سُوءِ خُلُقِ زَوجتِي وَدَابَّتِي.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٩٠) وصححه الألباني.
(٣) الشورى: ٣٠.
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٧٢).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وقال الألباني: (حسن صحيح).

أَخِي القارئ الْكريمَ: إِنَّ المِقيَاسَ الفَارقَ بَيْنَ الابْتِلاءِ بِسببِ تَقصيرِنَا، وَابتلاءِ التّمحيصِ والاختبارِ مِنْ ربِّنَا - سبحانَهُ، هُوَ «**الْأخذُ بالأَسبابِ والطّاعَاتِ وَالبعدُ عَنِ المعَاصِي وِالـمُحرماتِ**». فَعِندمَا نَأْخذُ بِالأَسْبابِ كَاملَةً ثمَّ يَأْتينَا الابْتلاءُ، عِندَهَا يَكُونُ إِنْزالاً مِنَ الذنُوبِ، وَرفعاً فِي الدّرجَاتِ. وَعِندمَا نَقعُ فِي الذنُوبِ عِندهَا يَكونُ الابْتلاءُ عِقَاباً.

وَالبلاءُ لَهُ صُورٌ كَثيرةٌ: بَلاءٌ في أَهلِنا وَمَالنِا وَوَلدِنا وَفِي صَحتِنَا وَغَيرِهَا، وَلا يجوزُ لَنَا أَنْ نَتمنَّى وُقوعَ البَلاءِ، وَلكنْ عَلينَا أَنْ نَدعوَ وَأَنْ نَسْأَلَ اللهَ- تَعَالَى- السَّلامَةَ وَرَفْعَ البَلاءِ، والْعَفوَ والعَافيةَ، رَوَى مُسلمٌ عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ المسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟**» قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ لَا تُطِيقُهُ**- أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ- **أَفَلَا قُلْتَ اللَّهُمَّ** ﴿ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1]» قَالَ: فَدَعَا اللهَ لَهُ فَشَفَاهُ[2].

إِنَّ الوَاجبَ عَلينَا إِذَا تَعرَّضَ أَحدُنَا لِلابتلاءِ والشَّدائدِ وَالمصَائبِ أَنْ نصبرَ وَنحْتسبَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[3].

كَمَا أَنّ الوَاجِبَ عَلينَا أَنْ نَلتزمَ شَرعَ ربِّنَا وَلا نَسخطَ، وَأَنْ نَتعَاطى الأَسبَابَ النَّافعَةَ لِرَفعِ الْبَلاءِ، وَأَنْ نَستغفرَ اللهَ ونتوبَ إليهِ مِمَّا أَحْدثْنَا مِنَ الذُّنُوبِ.

وَأَخيراً: يَا مَنْ نَزَلَتْ بِكَ الـمَصائِبُ إليكَ بَعْضَ اللطَائفِ تُصبِّرُكَ وَتهَوِّنُ

(١) البقرة: ٢٠١.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٨٨).
(٣) فصلت: ٣٥.

عَليكَ.

انْظرْ فِي مُصيبةِ غَيرِكَ تَهن عَليكَ مُصيبتُكَ. وَتَـذكَّرْ - دَائِـماً - مَـا أَعـدَّ اللهُ لِلصّابرينَ، وَاعلمْ أَنَّ كلَّ مُصيبَةٍ بَعدَ الدينِ سَهلةٌ، وَأنّ اللهَ عندَهُ مَا هُوَ أَعظَـمُ مِنْ بَلائِكَ، وَلكنَّهُ اخْتَارَ لَكَ البلاءَ الأَصغرَ وهَذا معَنى لَطَيف ٌ.

اللهم جنبنا الْفتنَ وَالمصائِبَ، وَارفع عنَّا الابتِلاءاتِ، وَثبت أَقدامَنَا عَلى طَرِيق الـحَقِّ، وَأعنا عَلى الصبرِ والتَحمُّلِ وَقتَ وُقوعِ البَلاءِ.

الكلمة ١٥: عصعص

لا تَكُنْ إمّعَة

إِخْوَانِي وَأَخَوَاتِي القراء الكِرَامَ:

أَسْأَلُ اللهَ- تَعَالَى- أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ قَادَةً فِي الـحَقِّ وَدُعَاةً إِلَيْـهِ، وَكَلِمَتُنَـا هِيَ (**عُصْعُص**).

نَقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: عُصْعُصْ، وَنَعْنِي بِهِ: الذَّيْلَ بِصِفَةٍ عَامَّـةٍ. وَهُـوَ فِي اللُّغَـةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى كَذَلِكَ.

قَالَ الجوهَريُّ فِي الصِّحَاح: العُصْعُصُ، بِالضَمِّ: عَجْبُ الذَّنَبِ، وَهُوَ عَظْمُـهُ، وهوَ أَولَّ مَا يخْلُقُ وَآخِرُ مَا يَبْلى. وَفِي الحدِيثِ: «**لَيْسَ مِنَ الإِنْـسَانِ شَيْءٌ إِلا يَـبْلَى، إِلا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الـخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

وَأَوْرَدَ الأَزْهَرِيُّ فِي تَهْذِيبِ اللُّغَةِ عَنِ ابْـنِ الأَعْـرَابِيِّ أَنَّـهُ قَـالَ: العُـصعُصُ والعَصعَصُ لُغَاتٌ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ، وَهُوَ العُصْعُوصُ أَيْضاً، وَيُجْمَـعُ عُـصُوصاً وعَصَاعِصاً.

قَالَ ذُو الرِّمَّةِ:

تَوَصَّلَ مِنْهَا بَامْرِئِ الْقَيْسِ نِسْبَةً   كَمَا نِيطَ فِي طُولِ العَسِيبِ العَصَاعِصُ

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المعَانِي اللُّغَويةِ لِهَذِهِ الكَلِمَةِلا بـدُ أَنَ نَقـفَ مَـعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الهَامَّةِ وَالَّتِي نَضَعُها تَحْتَ عُنْوانِ: (**لا تَكُنْ إِمَّعَة**).

أَحِبَّائِي القراء الكِرَامَ: إِنَّ المؤْمِنَ لا يَرْضَى أَنْ يَكُوْنَ (عُصْعُصاً)،بَلْ المـؤمِنُ يَسْعَى دَائِماً لِيَكُونَ قُدْوَةً طَيِّبَةً يَتَأَسَّى بِهِ الآخَرونَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إِنَّ القِيَادَةَ صِفَةُ العُظَمَاءِ، فَالإِنْسَانُ الكَبِيرُ فِي نَفْسِهِ هُوَ الَّذِي يُنَمِّي مَوَاهِبَهُ وَقُدرَاتِهِ وَصِفَاتِهِ حَتَّى يَكُونَ قَائِداً لِلآخَرِينَ وأمَا ضَعِيفُ النَّفْسِ وَالشَّخْصِيَّةِ فَهُوَ الَّذِي يَذُوبُ فِي الآخَرِينَ وَيَكُونُ ذَنَباً وَتَابِعاً وَعُصْعُصاً لَهُمْ، وَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَتْبَعُهُ النَّاسُ وَبَيْنَ مَنْ يَكُونُ ذَنَباً وَتَابِعاً لَهُمْ، قَالَ الحُطَيْئَةُ:

قَوْمٌ هُمُ الأَنْفُ وَالأَذْنَابُ غَيْرُهُمُ وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا

وَقَالَ - تَعَالَى - فِي آلِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[(١)]، وَذَكَرَ رَبُّنَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنَّ مِنْ دُعَاءِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً لِلْمُتَّقِينَ، قَالَ تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[(٢)]. وَمَا ذَلِكَ إِلا لأَنَّ القَائِدَ إِذَا أَرْشَدَ النَّاسَ إِلى الحَقِّ وَالصَّوابِ كَانَ لَهُ مِنَ الخَيْرِ وَالأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِهِمْ مِصْدَاقاً لِقَوْلِهِ ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً**»[(٣)].

ومَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِلا وَعِنْدَهُ مِنَ القُدرَاتِ وَالمَوَاهِبِ مَا لَوْ طَوَّرَهَا وَاسْتَثْمَرَهَا لَبَرَزَ مَا فِيهِ مِنْ مَوَاهِبَ وَطَاقَاتٍ، وَلَكِنَّ المشْكِلَةَ أَنَّنَا لا نَثِقُ بِأَنْفُسِنَا، والقِيَادَةُ فَنٌّ وَرِيَادَةٌ، وكذلك مَهَارَةٌ مُكْتَسَبَةٌ، وَلِكَيْ تَكُونَ قَائِداً عَلَيْكَ أَنْ تَتَدَرَّبَ عَلَى مَهَارَاتِ تَقْوِيَةِ الشَّخْصِيَّةِ وَفَنِّ القِيَادَةِ، بِبِنَاءِ ذَاتِكَ وَتَقْوِيَةِ شَخْصِيَّتِكَ وَالتَّعَلُّمِ وَمُصَاحَبَةِ القِيَادِيِّينَ وَقِرَاءَةِ قِصَصِهِمْ. **وَأَوَّلاً وَآخِراً**: لِكَيْ تَكُونَ قِيَادِياً لا بُدَّ لَكَ مِنَ التَّخَلُّصِ مِنَ التَّبَعِيَّةِ وَالذَّوَبَانِ فِي الآخَرِينَ.

وَأَنْتَ عَزِيزِي القَارِئ، لَكَ مَوَاهِبُكَ وَشَخْصِيَّتُكَ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَتَقَمَّصَ

---

(١) الأنبياء: ٧٣.

(٢) الفرقان: ٧٤.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

شَخْصِيَّةَ غَيْرِكَ، وَأَنْ تَحْشُرَ نَفْسَكَ فِي سِرْدَابِ التَّقْلِيدِ وَالـمُحَاكَاةِ وَالذَّوَبَانِ.

قَالَ ﷺ نَاهِياً لَنَا عَنْ التَّبَعِيَّةِ العَمْيَاءِ وَالـذَّوَبَانِ فِي الآخَـرِينَ: «**لَا تَكُونُـوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّـاسُ أَحْـسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُـوا ظَلَمْنَـا، وَلَكِـنْ وَطِّنُـوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا**»(١).

وإِذَا كَانَ لِلقائدِ بالحقِّ ثَوَابُ المتبُوعِينَ وَأَجْرُهُمْ، فَـلا بُـدَّ مِـنْ أَنْ نَعْلَـمَ أَنَّ لِلْقَائِدِ بِالبَاطِلِ إِثْمَ المتْبُوعِينَ وَوِزْرَهُـمْ، قَـالَ- تَعَـالَى- فِي ذَمِّ فِرْعَـوْنَ القَائِـدِ لِقَوْمِهِ بِالبَاطِلِ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾(٢).

فَاعْمَلْ أَخِي القارئ عَلَى أَنْ تَكُونَ قَائِداً لِلحَقِّ أَوْ تَابِعاً لَهُ، وَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ رَأْساً فِي البَاطِلِ أَوْ تَابِعاً لَهُ، فَإِنَّكَ تَحْمِلُ إِثمَك وإِثْمَ مَنِ اتَّبَعَكَ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ: سُئِلَ عُبَيْدُ اللهِ بنُ الـحَسَنِ، وَهُوَ عَلَى القَـضَاءِ، عَنْ مَسْأَلَةٍ فَغَلَطَ فِيهَا، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللهُ، القَوْلُ فِي هَذِهِ المسْألةِ كَذَا وَكَـذَا، فَأَطْرَقَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: إِذاً أَرْجِعُ وَأَنَا صَاغِرٌ، لأَنْ أَكُونَ ذَنَباً فِي الـحَقِّ أَحَـبُّ إِلَيَّ مِنْ أنْ أَكُونَ رَأْساً فِي البَاطِلِ.

وَهَذا عَبدُ اللهِ بنُ أُبَيِّ بنِ سَلُولٍ الَّذِي كَانَ زَعِيماً فِي يَثْرِبَ قَبْـلَ مَقْـدَمِ النَّبِـيِّ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ المصْطَفَى ﷺ وَأَضَاءَتْ بِنُورِهِ يثربُ مَنَعَ هَذَا المنافقَ تكَبُّرُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ تابعاً لِلحَقِّ، وَأَصَرَّ عَلَى أَنْ يَبْقَى زَعِيماً حَتَّى لَوْ كَـانَ بِالبَاطِـلِ، وَأَصْـبَحَ زَعِيماً لِلْمُنَافِقِينَ.

اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً.

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٧)، وضعفه الألباني.
(٢) هود: ٩٨.

الكلمة ١٦: هُوشَةُ

إيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ فِي الْفِتَنِ

كلمتنا الأَصِيلَةُ هِيَ: (هُوشَةُ). وَهِيَ عِنْدَنَا بِمَعْنَى الـمَعْرَكَةِ وَالاقْتِتَالِ.

قَالَ فِي لِسَانِ العَرَبِ: «**وَالـهَوْشَةُ**»: الفِتْنَـةُ وَالهَـيَجُ وَالاضْـطِرَابُ وَالهَـرْجُ وَالاخْتِلاطُ. يُقَالُ: قَدْ هَوَّشَ القومُ إِذَا اخْتَلَطُوا.

قَالَ ذُو الرِّمَّةِ يَصِفُ المَنَازِلَ وَأَنَّ الرِّيَاحَ قَدْ خَلَطَتْ بَعْضَ آثَارِهَا بِبَعْضٍ:

تَعَفَّتْ لِتَهْتانِ الشِّتَاءِ وَهَوَّشَتْ بِهَا نَائِجَاتُ الصَّيْفِ شَرْقِيَّةً كُدْرا

أَيْ: زَالَ أَثَرُهَا وَامَّـحَى بِـسَبَبِ مَطَـرِ الـشِّتَاءِ، وَخَلَطَـتْ رِيَـاحُ الـصَّيْفِ الشَّرْقِيَّةُ بَعْضَ آثَارِهَا بِبَعْضٍ، فَذَهَبَتْ مَعَالِـمُ هَذِهِ المَنَازِلُ.

وَقَدْ جَاءَتْ كَلِمَةُ (هَوْشَةُ) أَوْ مُشْتَقَّاتُهَا فِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ، وَمِنْ ذَلِكَ: مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ: «**فإذا بَشَرٌ كَثِيرٌ يَتَهَاوَشُون**»[1].

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَوِيةِ لِـهَذِهِ الكَلِمَةِ لا بـُدَّ أَنْ نَقِـفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الـهَامَّةِ وَالَّتِي نَضَعُها تَحْتَ عُنْوانِ: (**إِيَّـاكُمْ وَالدُّخُولَ فِي الفِتَنِ**).

وكَثِيراً مَا يَقَعُ الاقْتِتَالُ بَيْنَ النَّاسِ لِسَبَبٍ مَـا؟ فَيَكُـونُ اضْـطِرَابٌ وَهَـرْجٌ وَاخْتِلاطٌ وَفَسَادٌ، وَفِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ، تُسْتَبَاحُ فِيهَا الأَعْـرَاضُ وَالـدِّمَاءُ وَالمحَـارِمُ، وَقَدْ تُسْتَبَاحُ فِيهَا العَقَائِدُ مِنْ وُقُوعٍ فِي تَـمَادٍ عَـلَى اللهِ وَدِينِـهِ وَرَسُـولِهِ، وَالعِيَـاذُ باللهِ- تَعَالَى.

كَمْ حَادِثَةِ قَتْلٍ وَقَعَـتْ فِي فِتْنَـةٍ هَوْجَـاءَ عَمْيَـاءَ فَأُزْهِقَـتْ أَرْوَاحٌ، وَكَانَـتْ الكَارِثَةُ، وَأَمْضَى القَاتِلُ عُمُرَهُ سَجِيناً يَقْتُلُهُ النَّـدَمُ عَـلَى فِعْـلٍ فِي سَـاعَةِ طَـيْشٍ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠١) بنحوه، عن ابن مسعود ﷺ، وصححه الأرناؤوط.

عَمِي فِيهَا بَصَرُهُ، فَوَقَعَ مَا وَقَعَ، فَانْهَارَتْ أُسَرٌ، وَضُيِّعَ أَوْلادٌ، وَمُـزِّقَ الـشَّمْلُ، وَحَلَّ البُؤْسُ، كُلُّ هَذَا بِسَبَبِ تَصَرُّفٍ فِي سَاعةِ غَضَبٍ.

أَيُّهَا الأَحِبَّةُ: لا بُدَّ لَنَا أَنْ نَتَسَاءَلَ؟ مَا هِيَ أَهَمُّ الأَسْبَابِ التِي تَـدْعُو النَّـاسَ إِلى الاخْتِلافِ، وَمِنْ ثَمَّ الاشْتِبَاكِ؟

الأَسْبَابُ كَثِيرةٌ وَنَحْنُ نَذْكُرُ مِنْهَا:

أولاً: فَسَادُ النِّيةِ:

فَفِي بَعْضِ النُّفُوسِ بَغْيٌ وَحَسَدٌ وَحُبٌّ لِلْعُلُوِّ فِي الأَرْضِ وَسَـعْيٌ لِلْفَـسَادِ، وَلِذَلِكَ يُحِبُّ أَحَدُهُمْ أَنْ يَذُمَّ قَوْلَ غَيْرِه أَوْ فِعْلَهُ، أَوْ يُحِبُّ أَنْ يَغْلِبَهُ لِيَتَمَيَّزَ عَلَيْهِ، وَهَذِهِ أَخْلاقُ مَنْ لا خَلاقَ لَهُ عِنْدَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ.

ثانياً: حُبُّ الرِّيَاسَةِ وَالسُّلْطَانِ، وَالعَصَبِيَّاتُ القَوْمِيَّةُ، أَو العُنْصُرِيَّةُ.

وَهَذِهِ أُمُورٌ تَدْفَعُ أَصْحَابَهَا إِلى البَاطِلِ وَتُبْعِدُهُمْ عَنِ الحَقِّ ، لِذَلِكَ قَـال ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عَمِيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَـصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَـا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ**»[1].

إِنَّ الانْجِـرَارَ خَلْـفَ دَعَـوَاتِ الاقْتِتَـالِ لَـهُ عَوَاقِـبُ خَطِـيرةٌ، وَمِـنْ هَـذِهِ العَوَاقِبِ: قَتْلُ النَّفْسِ: وَلا يَخْفَى أَنَّ حُرْمَةَ دَمِ المسْلِمِ مِنْ أَعْظَمِ الـحُرُمَاتِ عِنْدَ اللهِ- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَتْلُ النَّفْسِ المعْصُومَةِ مِـنْ أَكْـبَرِ الكَبَـائِرِ، وَقَـدْ وَرَدَتِ النُّصُوصُ الكَثِيرةُ فِي كِتَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ- وَفِي سُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ التِي تَـدُلُّ عَلَى ذَلِـكَ، فَمِنْهَـا قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٨).

﴿خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾(١).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ: قَالَ ﷺ: «**لا يَزَالُ المؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَماً حَرَاماً**»(٢).

إنَّ مَن يَدْخُلُ في مِثْلِ هذه الفِتَنِ خاسِرٌ، سواءٌ هُزِمَ أوِ انتَصَرَ؛ وسواءٌ قُتِلَ أو قَتَلَ؛ لأنَّ مَن يُقاتِلُهُ مُسْلِمٌ، و«المسْلِمُونَ إخوةٌ»! وَمَا يَقَعُ فِي هَذِهِ الفِتَنِ (الهوشَات) مِنَ السَّبِّ وَاللَّعْنِ وَالقَذْفِ أَمْرُهُ خَطِيرٌ، وَإِثْمُهُ كَبِيرٌ. فَعَنْ ثَابِتِ ابْنِ الضَّحَّاكِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَمَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهُوَ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ**»(٣).

وبعد هذا نسألُ ما هوَ موقفُ المُسْلِمِ مِنْ هَذِهِ الفِتْنَةِ؟

إن المسلم عليه أن يَتَثَبَّتَ لِيَعْلَمَ الحقَّ مِنَ البَاطِلِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾(٤).

وَهُنَاكَ قِرَاءَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ: [فَتَثَبَّتُوا]. فَمَنْ رَأَى (هُوشَةً)، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَثَبَّتَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ، ثُمَّ يتَّبِعَ مَنْهَجَ الحَقِّ فِي النُّصْرَةِ، فَيُصْلِحَ بَيْنَ المتَخَاصِمَيْنِ، فَالمسْلِمُ يَقُولُ الحَقَّ، وَيَنْصُرُ الحَقَّ، وَيَشْهَدُ بِالحَقِّ؛ وَلا يُحَابِي فِي ذَلِكَ قَرِيباً أَوْ حَبِيباً؛ وَذلِكَ اسْتِجَابَةً لأَمْرِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ.

أَيُّهَا القارئونَ الأَعِزَّاءُ: هَذَا هوَ موقفُ المسْلِمِ مِنَ الْفِتْنَةِ إِنْ تَبَيَّنَ الحقَّ مِنَ البَاطِلِ، وَأَمَّا إِذَا اخْتَلَطَ الأَمْرُ، وَأَنْشَبَتِ الفِتْنَةُ أَظْفَارَهَا، وَهَذَا مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ حَيْثُ يَكْثُرُ الهَرْجُ (القَتْلُ) فَلا يَدْرِي القَاتِلُ لِمَ قَتَلَ وَلا المقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ، فَخَيْرٌ لِلْمُسْلِمِ فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ أَنْ يَعْتَزِلَ مَوَارِدَهَا. وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي

---

(١) النساء: ٩٣.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٤٧).

(٤) الحجرات: ٦.

أَحَادِيث كَثِيرةٍ: فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الـمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا**»[١].

فعلى الـمُسْلِمِ أن يبتَعِدَ عَنْ مَوَاطِن هَذِهِ الفِتَنِ إِنْ قَرُبتْ مِنْه، ويَفرَّ مِنْهَا إِنْ جَاءَتْ إِلَيهِ.

بَعْدَ هَذَا البَيَانِ أَسْال اللهَ العَلِيَّ العَظِيمَ أَنْ يُفَقِّهَنَا فِي دِينِنَا، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا الفِتَنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨١) عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم (٢٨٨٧) عن أبي بكرة ﷺ.

الكلمة ١٧ : خرمس

نُورُ الشريعَةِ

كلمتنا الأَصِيلَةُ هِيَ: (**خِرْمِسٌ**).

وَتَعْنِي فِي لَهْجَتِنَا العَامِّيَّةِ: شِدَّةَ الظَّلَامِ وَحُلْكَتَهُ.. وَهِيَ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ فَصِيحَةٌ، وَقَدْ اسْتُعْمِلَتْ فِي لُغَتِنَا العَرَبِيَّةِ بِهَذَا الـمَعْنَى.

قَالَ فِي لِسَانِ العَرَبِ: لَيْلٌ خِرْمِسٌ: مُظْلِمٌ.

وَتَأْتِي بِمَعَانٍ أُخْرَى، مِنْهَا: الذُّلُّ وَالخُضُوعُ. وَمِنْهَا: السُّكُوتُ.

وَحَوْلَ مَعْنَى النُّورِ وَالظَّلامِ سَيَدُورُ حَدِيثُنَا فِي هَذَا اليَوْمِ - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَسَيَكُونُ عُنْوَانُ هَذِهِ الحَلَقَةِ: (**نُورُ الشريعةِ**).

إن النُّور عَنْدِما يَطْلَقْ يَتبَادَرُ إِلى الذِّهْنِ مَعْنَى النُّورِ الحِسِّيِّ مِثْلُ: نُورِ الشَّمْسِ، وَنُورِ كُلِّ كَوْكَبٍ لَهُ وَهَجُهُ وَلَهُ أَشِعَّتُهُ، وَنُورِ المصَابِيحِ، وَضِدُّهُ الظَّلَامُ. لَكِنَّنَا سَنَتَحَدَثُ الْيَوْم مَعَكَمُ عَنْ نُورٍ آخَرَ، هُوَ النَّورُ الحَقِيقِيُّ الَّذِي مَنَّ اللهُ- سُبْحَانَهُ- بِهِ عَلَى عِبادِهِ، وَمَنْ يُحْرَم مِنْهُ فَهُوَ فِي ظُلُمَاتٍ لا تَنْتَهِي وَلَوْ كَانَ يَعِيشُ فِي عَالَمِ الأَضْوَاءِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ، وَهُوَ نُورُ الشَّرِيْعَةِ العَظِيمَةِ.

لَقَدْ بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ مُحَمَّداً ﷺ بِالنُّورِ العَظِيم فِي زَمَنٍ وَصَلَ فِيهِ حَالُ النَّاسِ إِلى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ الظَلْمَاءِ وَالانْحِطَاطِ، لَقَدْ بَعَثَهُ اللهُ بِالنُّورُ لِيمَنْحَ النَّاسَ الهُدَى الَّذِي يَقِيهِمْ ظُلْمَةَ الضَّلالِ، والحَقَّ الَّذِي يَقِيهِمْ ظُلْمَةَ البَاطِلِ، وَالعِلْمَ الَّذِي يَقِيهِمْ ظُلْمَةَ الجَهْلِ.

وَصَدَقَ مَنْ قَالَ:

بَزَغَ الصَّبَاحُ بِنُورِ وَجْهِكَ بَعْدَمَا غَشَّتِ البَرِيَّةَ ظُلْمَةٌ سَوْدَاءُ

فَتَفَتَّقَتْ بِالنُّورِ أَرْكَانُ الدُّجَى وَسَعَى عَلَى الكَوْنِ الفَسِيحِ ضِيَاءُ

ولا يَسْتَوِي مَنْ آتَاهُ اللهُ نُوراً وَمَنْ يَمْشِي فِي حُلْكَةِ الظَّلَامِ فكَيـْفَ إِذَا كَـانَ مَن يَمْشِي فِي الظَّلَامِ أَعْمَى!! فَهُوَ فِي ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْض، وَهَذَا هُوَ مَثَلُ الكُفَّارِ قَالَ – تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾[1] .

وَقَـالَ – سُـبْحَانَهُ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[2] .

فَجَاعِلُ النُّورِ هُوَ اللهُ، وَالنَّورُ الَّذَي يَمْشِي بِهِ المؤْمِنُ فِي النَّاسِ هُوَ نُورُ الحقِّ نورُ القُدْرَةِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الحقِّ وَالبَاطِلِ والهُدَى والضَّلالِ.

لا بُدَّ لَنَا أَنْ نَسْأَلَ كَيْفَ يَفُوزُ الـمُؤْمِنُ بِهَذَا النُّورِ لِيَعِيشَ فِي ظِلالِهِ، وَيَسِيرَ فِي هَدْيِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ؟

إنِ ذَلِكَ يَتحَقَّقُ بِعِدَّةِ أُمُورٍ، مِنْهَا:

أولاً: التَّقَرُّبُ إِلى الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بِالفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ: قَالَ الإِمَـامُ ابْن القَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ – وَهُوَ يَصِفُ نُورَ الإِيمَانِ فِي قَلْبِ المؤْمِنِ: «وَهَذَا هُوَ النَّورُ الَّذِي أَوْدَعَهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَمَـحَبَّتِهِ وَالإِيمَانِ بِهِ وَذِكْرِهِ وَهُـوَ نُـورُهُ الَّـذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْهِم فَأَحْيَاهُمْ بِهِ وَجَعَلَهُمْ يَمْشُونَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ وَأَصْلُهُ فِي قُلُـوبِهِمْ، ثُـمَّ تَقْوَى مَادَّتُهُ فَتَتَزايَدُ حَتَّى يَظْهَرَ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَجَوَارِحِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ بَلْ ثِيَـابِهِمْ وَدُورِهِمْ، يُبْصِرُهُ مَنْ هُوَ مِنْ جِنْسِهِمْ وَسَائِرُ الـخَلْقِ لَهُ مُنْكِرٌ»[3].

فَيَا مَنْ يُرِيدُ الفَوْزَ بِنُورِ الإِيمَانِ أَقْبِلْ عَلَى اللهِ وَانْطَرِحْ بِيْنَ يَدَيْهِ وَمَتِّعْ نَفْسَكَ بِمَحَبَّتِهِ وَالعُبُودِيَّةِ لَهُ.

ثانياً : قِرَاءَةُ القُرْآنِ وَتَدَبُّرُهُ، فَهَذَا القُرْآنُ نُورٌ أَنْزَلَهُ اللهُ لِيُخْرِجَ بِهِ النَّاسَ مِنَ

---

(١) الرعد: ١٦.
(٢) الأنعام: ١٢٢.
(٣) الوابل الصيب: ص ٧٢.

الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ، وَمَنْ يُكْثِرْ قِرَاءَتَهُ وَتَدَبُّرَهُ يَكْتَسِ قَلْبُهُ وَوَجْهُهُ حُلَّةً مِـنْ نُـورِ وَبَهَاءِ هَذَا الكِتَابِ المنِيرِ، قَالَ تَعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[1].

ثالثاً: مَحَبَّةُ النَّبِيِّ ﷺ وَمُتَابَعَتُهُ: فَرَسُولُ الله نُورٌ أَرْسَلَهُ اللهُ لِنَسْتَضِيءَ بِهَدْيِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[2]، فَهُوَ ﷺ السِّرَاجُ المنِيرُ، فَمَنْ أَرَادَ النُّورَ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُسَارِعَ إِلى هَدْيِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَسُنَّتِهِ لِيَقْتَبِسَ مِنْهُ مَا يُنِيرُ بِهِ قَلْبَهُ وَجَسَدَهُ وَرُوحَهُ وَوَجْهَهُ وَحَيَاتَهُ كُلَّهَا.

وَصَدَقَ كَعْبُ بنُ زُهيرٍ رضي الله عنه حِينَ قَالَ:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

رابعاً: كَثْرَةُ الدُّعَاءِ وَالتَّوَسُّلِ إِلى الله أَنْ يَجْعَلَ لَنَا نُوراً: وَلَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو اللهَ بِدُعَاءٍ يَتَوَهَّجُ بِالنُّورِ فَكَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُوراً، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا**»[3].

وفي الختامَ نقفُ عِنْدَ آثَارِ هَذَا النُّورِ فِي حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ:

أولاً: إِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ إِذَا مَشَى عَلَى الأَرْضِ مَشَى سَوِيًّا، وَإِذَا سَارَ سَارَ نَقِيًّا، رِيحَانَةً طَيِّبَةَ الشَّذَى، وَشَامَةً سَاطِعَةَ الضِّيَاءِ، حَرَكَاتُهُ وَسَكَنَاتُهُ إِيمَانِيَّةٌ، يقولُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

---

(١) النساء: ١٧٤.

(٢) الأحزاب: ٤٥، ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).

(٤) الملك: ٢٢.

ثانياً : إِنَّ أَهْلَ النُّورِ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً، يَنْصَحُونَ لِلنَّاسِ، وَيَمْلأُونَ الأَرْضَ خَيْراً، فِي قُلُوبِهِمْ رَحْمَةٌ عَلَى خَلْقِ اللهِ لِيَكُونُوا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالخَيْرِ.

ثالثاً : إِنَّ أَهْلَ النُّورِ فِي الدُّنْيَا يَمْشُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى الصِّرَاطِ بِأَنْوَارِهِمْ كَمَا يَمْشُونَ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَمَنْ لا نُورَ لَهُ فَإِنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْقُلَ قَدَماً عَنْ قَدَمٍ عَلَى الصِّرَاطِ، فَلاَ يَسْتَطِيعُ الـمَشْيَ وَهُوَ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ[1]، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ فَرْحَةٍ، وَمَا أَسْعَدَهَا مِنْ نِهَايَةٍ.

جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَهْلِ النُّورِ وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

---

(١) اجتماع الجيوش لابن القيم ص ١٩ بتصرف.
(٢) التحريم: ٨.

الكلمة ١٨: ذرب

اللسان.. آدابه وآفاته

كَلِمَتنا الجَدِيدَة مِنْ كَلِمَاتِنَا الأَصِيلةِ هِيَ: كَلِمَةُ (ذَرْب).

نَقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: فُلانٌ لِسَانُهُ ذَرْب، أَيْ أَنَّهُ فَصِيحٌ لَهُ قُدْرَةٌ كَبِيرَةٌ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ أَفْكَارِهِ.. وَبِمَعْنًى قَرِيبٍ مِنْ هَذَا وَرَدَتْ فِي اللُّغَةِ الفُصْحَى، قَال فِي لِسَانِ العَرَبِ: قَالَ ابْنُ الأَعْرَابِي: ذَرِبَ الرَّجلُ: **إذا فَصُحَ لسانُه بعدَ حَصرِه.**

وَتَأْتِي بِمَعَانٍ أُخْرَى، **وَمِنْهَا الحِدَّةُ**. يُقَالُ: لِسَانٌ ذَرِبٌ: حديدُ الطَّرَفِ.

وَتَأْتِي بِمَعْنَى **فَسَادِ اللِّسَانِ**. يُقَالُ: قَدْ ذَرِبَ لسانُ الرَّجلِ يَذْرَبُ: إذا فَسَد.

لَقَدْ اخْتَارَ أَهْلُ الكُوَيْتِ مِنْ هَذِهِ المَعَانِي المَعْنَى الجَمِيلَ، وَهُوَ فَصَاحَةُ اللِّسَانِ وَجَمَالُهُ، وَلَكِنَّنَا سَنَتَحَدَّثُ مَعَكُمْ عَنِ اللِّسَانِ بِعَامَّةٍ، وَسَنَضَعُهُ تَحْتَ عُنْوَانِ: (**اللِّسَانُ آدَابُهُ وَآفَاتُهُ**).

وتَعَالَوا بِنَا لِنَعْقِدَ مُقَارَنَةً بَيْنَ الكَلامِ الجَمِيلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُرْضِي اللهَ، وَالكَلامِ القَبِيحِ السَّيِّئِ الَّذِي يُغْضِبُ اللهَ.

إن خَيْرَ مَا يَطْلُقُ فِيهِ اللِّسَانُ هُوَ قِرَاءَةُ القُرْآن، قَالَ اللهُ - عَزّ وَجَلَّ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1]، وَقَالَ ﷺ: «**يُقَالُ لِقَارِئِ القُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلِ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**»[2]، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُمْضِي وَقْتَهُ فِي سَمَاعِ الأَغَانِي، وَلا يُعْطِي مِعْشَارَ هَذَا الوَقْتِ لِسَمَاعِ القُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الخُسْرَانُ.

وَمِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الخَيْرِ الَّتِي يجِبُ أَنْ يَطْلُقَ فِيهَا اللِّسانُ ذِكْرُ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي كُلِّ آنٍ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا يَزالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ**

(١) المزمل: ٤.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وقال الألباني: (حسن صحيح).

اللهِ»[١]، وَلَكِنَّا نَرَى مِنَ النَّاسِ مَنْ لا يَذْكُرُ اللهَ إِلا قَلِيلاً، وَهَذَا مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ النِّفَاقِ، قَالَ – سُبْحَانَهُ – فيهم: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢]، بَيْنَمَا تَرَى الأَوْقَاتَ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ تُقْتَلُ فِيمَا يُسْخِطُ اللهَ – عزَّ وَجَلَّ – مِنَ الكَلامِ المحَرَّمِ كَالاسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ بِالنَّاسِ، وَتَتَبُّعِ عَثَرَاتِهِمْ، وَالضَّحِكِ مِنْهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[٣]، يَعْنِي: الَّذِي يَزْدَرِي النَّاسَ وَيَنْتَقِصُهُمْ. قِيلَ: الهَمْزُ بِالقَوْلِ، وَاللَّمْزُ بِالفِعْلِ، وقد تَوَعَّدَ اللهُ مَنْ يَفْعَلُ ذلكَ بِالوَيْلِ، وَهُوَ كَلِمَةُ عَذَابٍ، أَوْ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ. نَعُوذُ باللهِ مِنْ ذَلِكَ.

ومَن النَّاس من لا يفترُ لسانُهُ عنِ الغيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَهُمَا مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَعَنْ عَائِشَةَ – رضي اللهُ عنها – قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «**تَدْرُونَ أَزْنَى الزِّنَا عِنْدَ اللهِ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّ أَزْنَى الزِّنَا عِنْدَ اللهِ اسْتِحْلالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ**» ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾[٤].

وَقَدْ رَوَى البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ**»[٥].

ومَن خيرِ ما يوظَّفُ فِيهِ اللِّسانُ هُوَ الإِصْلاحُ بَيْنَ النَّاسِ خَاصَّةً فِي شَهْرِ الصِّيامِ، شَهْرِ البِرِّ وَالإِحْسَانِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾[٦].

وَنَحْنُ نَرَى مِنَ النَّاسِ مَنْ يُطِيلُ لِسَانَهُ فِي أَذَى النَّاسِ، وَهَذَا قَدْ يَكْثُرُ فِي

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، وأحمد (٤/ ١٨٨)، وصححه الألباني.
(٢) النساء: ١٤٢.
(٣) الهمزة: ١.
(٤) الأحزاب: ٥٨.
(٥) أخرجه أبو يعلي (٤٦٨٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٧٤): (رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح).
(٦) النساء: ١١٤.

أَيام الصِّيَام مِمَّن لَمْ يفْقَهْ معنى الصِّيام؛ حَيْثُ يَكُونُ هُنَاكَ تَعَبٌ وَجُوعٌ وَعَطَشٌ وصَدُاعَ وُربَمَا يَضَيقُ صَدْرُ الصَّائِمِ عَنْ تَحَمُّلِ الآخَرِينَ؛ لِذَلِكَ جَاءَ تَوْجِيهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُعَالِجَ هَذَا الأَمْرَ فَقَالَ ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ**»(١) .

وَلايليَقُ السَّبُّ وَاللَّعْنُ وَالفُحْشُ فِي الكَلام بِالمسْلِمِ، فَبَعْضُ النَّاسِ يَعْتَادُ النُّطْقَ بِلَعْنِ الأَشْخَاصِ وَالأَمَاكِنِ وَالدَّوَابِّ. قَال - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام: «**لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَاللَّعَّانِ وَلا الفَاحِشِ وَلا البَذِيءِ**»(٢).

فَهَذَا دَاءٌ يَنْبَغِي اسْتِئْصَالُهُ حَتَّى يَكُونَ المُسْلِمُ عَلَى أَثَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَدْ كَانَ يَتَخَيَّرُ فِي خِطَابِهِ وَيَخْتَارُ لأُمَّتِهِ أَحْسَنَ الألفَاظِ وَأَجْمَلَهَا، وَألطَفَهَا، وَأَبْعَدَهَا عَنْ أَلفَاظِ أَهْلِ الجَفَاءِ وَالغِلْظَةِ وَالفُحْشِ، فَلَمْ يَكُنْ فَاحِشاً، وَلا مُتَفَحِّشاً، وَلا صَخَّاباً، وَلا فَظًّا .

وعلَى هذَا النَّهجْ سار السلَفُ الصَّالِحُ - رَحِمَهُمْ اللهُ تَعَالَى - فَقَدْ كَانَ خَوْفُهُمْ مِنْ آفَاتِ اللِّسَانِ عَظِيمًا. وَإِلَيْكُمْ هَذِهِ النَّمَاذِجَ:

كَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يُمْسِكُ لِسَانَهُ وَيَقُولُ: هَذَا الَّذِي أَوْرَدَنِي المَوَارِدَ.

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ يحلَفُ بِاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ: مَا عَلَى الأَرْضِ شَيْءٌ أَحْوَجُ إِلى طُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ.

أَيُّهَا القراء الكِرَامُ: احْفَظُوا أَلسِنَتَكُمْ، وَزِنُوا أَقْوَالَكُمْ، حَتَّى تَصُونُوا إسلامكم وَتَحْفَظُوا إِيمَانَكُمْ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ يَمْلِكُ كَلامَهُ، لَكِنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ مَلَكَهُ كَلامُهُ.

وأَخْتِمُ هَذَا الحَدِيثَ بِقَوْلِ رَبِّ العِزَّةِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٧٧)، وصححه الألباني.

ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[1] .

هَذَا وَنَسْأَل اللهَ أَنْ يُؤَدِّبَنَا بِآدَابِ الإِسْلام، وَأَنْ يَهْدِيَنَا إِلى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيم وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(١) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١.

الكلمة ١٩: شاوي

مَا مِنْ نَبِيٍّ إلا ورَعَى الغَنَمَ

نصَحْبكُمُ مْع َكَلمَةٍ كَانت تـترَ َدَّدُ فِي قَـامُوسِ مُــجْتَمَعَاتِنَا في الـسابق، ألا وَهِيَ كَلِمَةُ (شَاوِي).

نَقُولُ فِي لَـهجَتِنَا الكُوَيْتِيَّةِ العَامِّيَّةِ: (شَاوِي) وَنَقْصُدُ بِهَا مَنْ يَرْعَى الغَنَمَ، أَوِ الشِّيَاهَ الَّتِي تَخْرُجُ إِلى الصَّحْرَاءِ للرَّعْيِ.

وَهِيَ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ كَـذَلِكَ، قَـالَ فِي لِـسَانِ العَـرَبِ: الـشَّاوِيُّ صَـاحِبُ الشَّاءِ.

وَقَالَ فِي القَامُوسِ الـمُحِيطِ: الشَّاةُ: الوَاحِدَةُ مِـنَ الغَـنَمِ، وَالجَمْـعُ: شَـاءٌ، وَإِنْ سَمِّيْتَ بِهِ رَجُلاً قُلْتَ: شاوي.

وَقَالَ يَزِيدُ الحَارِثِيُّ:

ولَسْتُ بِشَـاوِيٍّ عَلَيـهِ دَمَامَـةٌ   إِذَا ما غَدَا يَغْدُو بِقَوْسٍ وأَسْهُمِ

أَيُّهَا الإِخْوةُ وَالأَخَوَاتُ: وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَويـةِ لهَـذِهِ الكَلِمَةِلا بدُ أَنَ نْقفَ َ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الهَامَّةِ وَالَّتِي نَـضَعُهَا تَحْتَ عُنْوانِ: (**مَا مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ وَرَعَى الغَنَمَ**).

أَيُّهَا الإِخْوَةُ القارئونَ. إِنَ ٱلعملَ َعامَةًّ وَاحتْرِاف َ الـمِهَنِ وَالحِـرَفِ بِكَافَّـةِ أَشْكَالهَا هُوَ عَصَبُ التَّقَدُّمِ الحَضَارِيِّ فِي كُلِّ دُوَلِ العَالَـمِ.

وَإِنَّ الإِسْلامَ حَثَّنَا عَلَى العَمَلِ وَامْتِهَانِ الحِرَفِ وَالكَسْبِ الحَـلالِ الطَّيِّـبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[1].

أَعِزَّائِي القراء الكِرَامَ: كَانَ العَـرَبُ فِي الجَاهِلِيَّـةِ قَـدِيماً يَـسْتَهْزِئونَ بِـبَعْضِ

(١) الملك: ١٥.

المِهَنِ وَالأَعْمَالِ وَيَكْرَهُونَ العَمَلَ بِاليَدِ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ بِتَدَنٍّ، وَيَعْتَبِرُونَهُ مَهِيناً لِصَاحِبِهِ بِإِفْقَادِهِ إِيَّاهُ وَقَارَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ أَطْلَقُوا عَلَى العَمَلِ اسْمَ **المِهْنَةِ** أَيّ الابْتِذَالِ، تَعْبِيرًا عَنْ كَرَاهِيَّتِهِمْ لَهُ وَاسْتِهْزَاءً بِالعَمَلِ، وَأَوْكَلُوا أَمْرَ الـمِهَنِ إِلى المَوَالِي وَغَيْرَ العَرَبِ.

ثمُ جَاءَ دِينُنَا الحنيفُ لِيُغَيِّرَ هَذِهِ النَّظْرَةَ الجَاهِلِيَّةَ الخَاطِئَةَ لِلعَمَلِ الشَّرِيفِ، وَيُوعِدَ بِالأَجْرِ العَظِيمِ عَلَيْهِ، وَيُوجِبَ الاحْتِرَامَ وَالتَّقْدِيرَ لِكُلِّ أَرْبَابِ العَمَلِ وَالحِرَفِ بِكَافَّةِ أَصْنَافِهَا وَأَشْكَالِهَا. عَنِ المِقْدَامِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[1] .

إِلا أَنَّ هَذِهِ النَّظْرَةَ الجَاهِلِيَّةَ لِلْمِهَنِ وَالْعَمَلِ مَا لَبِثَتْ أَنْ عَادَتْ إِلى مُجْتَمَعَاتِنَا الإِسْلامِيَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ، وَعَادَ الاسْتِهْزَاءُ بِبَعْضِ المِهَنِ وَالحِرَفِ وَالأَعْمَالِ مِنْ مِثْلِ الاسْتِهْزَاءِ بِمِهْنَةِ الرَّاعِي وَمَنَادَاتِهِ يَا (**شَاوِي**)، يَغْمِزُونَ بِمِهْنَةِ رَعْيِ الأَغْنَامِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ نَتِيجَةً لابْتِعَادِنَا عَمَّا فِيهِ مَصْلَحَتُنَا وَمَصْلَحَةُ أُمَّتِنَا.

وَلَقَدْ أَكَّدَ عَدَدٌ مِنَ البَاحِثِينَ فِي اتجَاهِ العَمَلِ أَنَّ نَظْرَتَنَا هَذِهِ الاسْتِهْزَائِيَّةَ لِلْعَمَلِ بِالحِرَفِ مِنْ أَهَمِّ الـمُعَوِّقَاتِ الحَضَارِيَّةِ وَالـمُشَجِّعَةِ عَلَى كَثْرَةِ البَطَالَةِ فِي المجْتَمَعِ.

أَعِزَّائِي القراء الكِرَامَ:

إِنَّ دِينَنَا الحنيفَ لَـمَّا شَجَّعَنَا عَلَى العَمَلِ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ حُدُوداً، بَلْ دَعَا لِلْعَمَلِ بِكَافَّةِ أَشْكَالِهِ وَأَنْوَاعِهِ، وَلِكَافَّةِ أَنْوَاعِ المِهَنِ وَالحِرَفِ، إِلا مَا حَرَّمَهُ اللهُ -تَعَالَى- مِمَّا يَكُونُ فِيهِ ضَرَرٌ أَوِ اعْتِدَاءٌ عَلَى الفَرْدِ أَوِ المجْتَمَعِ، فَلَيْسَ فِي قَامُوسِ الإِسْلامِ عَمَلٌ وَضِيعٌ وَعَمَلٌ شَرِيفٌ .

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).

فَالْعَمَلُ وَالْحِرَفُ كُلُّهَا مَشْرُوعَةٌ، وَفِي قُرْآنِنَا الكَرِيمِ إِشَارَاتٌ لأَكْثَرَ مِنْ (سَبعِينَ) حِرْفَةً، وَاسْمَعُوا مَعِي لِقَوْلِهِ- تَعَالَى- فِي صِنَاعَةِ الحدِيدِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾(١). وَقَالَ - تَعَالَى - فِي صِنَاعَةِ البِنَاءِ وَالمِعْمَارِ: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾(٢).

وَذَكَرَ مِهْنَةَ الزُّجَاجِ وَإِتْقَانَ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ لِهَذِهِ الحِرْفَةِ: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾(٣).

إِنَّ دِينَنَا يَنْظُرُ إِلى الْعَمَلِ وَالحرَفِ وَالمِهَنِ نَظْرَةً كُلَّهَا تَكْرِيمٌ وَإِجْلالٌ، كَمَا رَتَّبَ عَلَيْهَا الأَجْرَ وَجَعَلَهَا أَفْضَلَ الكَسْبِ وَجَوْهَرَ العِبَادَةِ.

وَإِذَا حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ مَرَّةً أَنْ تُعَيِّرَ شَخْصاً بِمِهْنَةٍ- سَوَاءً كَانَ رَاعِياً أَوْ نَجَّاراً أَوْ غَيْرَهَا- فَتَذَكَّرْ أَنَّ الأَنبِيَاءَ وَالصَّحَابَةَ وَالتَابِّعِينَ وَالسَلَفَ - وَهُمْ قُدْوَتُنَا- لَيْسَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِلا وَامتَهَنَ صُنُوفَ المِهَنِ مَا تَيَسَّرَ لَهُ، وَلا يَأْنَفُونَ أَنْ يَعْمَلُوا فِي أَيِّ مِهْنَةٍ، قَالَ ﷺ: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِياً إِلا رَعَى الغَنَمَ**»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ؟، فَقَالَ: «**نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ**»(٤).

وَكَانَ لِكُلِّ نَبِيٍّ حِرْفَةٌ وَعَمَلٌ يَتَكَسَّبُ مِنْهُ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**كَانَ زَكَرِيَا نَجَّاراً**»(٥).

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَاسٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ بَعْضِ أَنْبِيَاءِ اللهِ- تَعَالَى، فَذَكَرَ عَنْ آدَمَ أَنَّهُ كَانَ عَبْداً حَرَّاثاً، وَعَنْ نُوحٍ أَنَّهُ كَانَ عَبْداً نَجَّاراً، وَعَنْ إِدْرِيسَ أَنَّهُ كَانَ عَبْداً خَيَّاطاً، وَعَنْ دَاوُدَ أَنَّهُ كَانَ عَبْداً زَرَّاداً (أَيْ يَصْنَعُ

---

(١) الحديد: ٢٥.
(٢) الأعراف: ٧٤.
(٣) النمل: ٤٤.
(٤) أخرجه البخاري (٢٢٦٢).
(٥) أخرجه مسلم (٢٣٧٩).

الدُّرُوعَ)، وَعَنْ مُوسَى أَنَّهُ كَانَ عَبْداً رَاعِياً، وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ كَانَ عَبْدَاً زَرَّاعـاً، وَعَنْ صَالِحٍ أَنَّهُ كَانَ عَبْداً تَاجِراً، وَعَنِ النَّبِيِّ المصْطَفَى ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَرْعَى غَـنَمَ أَهْلِ بَيْتِهِ بِأَجْيَاد(١).

وَقَدْ شَارَكَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ فِي حَفْرِ الخَنْدَقِ، وَلَمْ يَتَمَيَّزْ عَنْهُمْ فِي العَمَلِ فِي بِنَاءِ السَمَجْدِ وكَانَ يحَملُ معهَمُ التُرابَ وَالأَحْجَارَ.

كَمَا أَنَّ الـصَّحَابَةَ الكِـرَامَ- رِضْـوَانُ الله تَعَـالَى عَلَـيْهِمْ- عَمِلُـوا فِي المهَـنِ المخْتَلِفَةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ عَمِلَ فِي التِّجَارَةِ كَأَبِي بَكْـرٍ الـصَّدِيقِ وَعَبْـدِ الـرَّحْمَنِ بـنِ عَوْفٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَمِلَ فِي الْـحِدَادَةِ كَخَبَّابِ بْنِ الأَرَتّ، وَرَعَـى عَبْـدُ الله بْـنُ مَسْعُودٍ الغَنَمَ.

ـ وَهَكَذَا كَانَ عُلَمَاؤُنَا وَفُقَهَاؤُنَا وَمُحَدِّثُونَا مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ - رَحِمَهُمْ اللهُ تَعَالَى، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ مِـنْ أَسْـمَائِهِمْ وَأَلقَـابِهِمْ الَّتِـي كَانَـتْ تَـدُلُّ عَـلَى حِـرَفِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَانُوا يُزَاوِلُونَهَا؛ **الـخَيَّاطِ وَالـخَصَّافِ وَالـمَاوَردِي** وَغيرِهِمْ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ:

لَحمْلِي صَـخْرَةً مِنْ قِمَمِ الْجِبَالِ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِنَنِ الرِّجَالِ
يَقُولُ الـنَّاسُ فِي الكَـسْبِ عَارٌ ... فَقُلْتُ العَارُ فِي ذُلِّ السُّؤَالِ

أَيُّهَا الإِخْوَةُ القارئون: نَفَعَنِي اللهُ وإِيَّاكُمْ بِصَالِحِ القَوْلِ وَالعَمَلِ.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٧٧)، والحاكم في المستدرك (٤١٦٥)، وصححه الألباني.

الكلمة ٢٠: سموم

إن جهنم كانت مرصاداً

كَلِمَتُنَا هِيَ (**سمُوم**).

نَقُولُ فِي لَـهْجَتِنَا الكُوَيْتِيَّةِ: سُمُوم وَنُرِيدُ بِهَا الرِّيَاحَ الـحَارَّةَ.

وَهَذِهِ كَلِمَةٌ فَصِيحَةٌ فِي اللّغَةِ العَرَبِيَّةِ، قَالَ فِي لِسَانِ العَرَبِ: السَّمُومُ: الرِّيحُ الحَارَّةُ، وَقِيلَ: هِيَ البَارِدَةُ لَيْلاً كَانَ أَوْ نَهَاراً، تَكُونُ اسْماً وَصِفَةً، وَالجَمْعُ سَمَائِمُ.

أَيُّهَا الإِخْوةُ وَالأَخَوَاتُ: وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المعَانِي اللُّغَويةِ لِـهَذِهِ الكَلِمَةِلا بدُ أَنَ نْقفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الهَامَّةِ وَالَّتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عُنْوانِ: (**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً**).

أَحبابِي القراء الكِرَامَ: كَمَا أَنَّ اللهَ- تَعَالَى- ذَكَرَ الجَنَّةَ وَنعِيمَهَا، فَقَدْ ذَكَرَ النَّارَ وَلهِيبَهَا، فَهُمَا جَنَاحَانِ يُكَمِّلُ أَحَدُهُما الآخَرَ، فَمَصِيرُنَا مَهْمَا طَالَتْ بِنَا الحَيَاةُ إِمَّا إِلى جَنَّةِ نَعِيمٍ نَضِرَةٍ، أَوْ- وَالعِيَاذُ باللهِ- إِلى نَارٍ مَسْمُومَةٍ مُسْتَعِرةٍ، وَهَذَا مَا أَخْبَرَنَا بِهِ القُرْآنُ العَظِيمُ. **وَالْعَاقِلُ مِنّا**: مَنِ اسْتَعَدَّ لِـهَذَا اليَوْمِ وَأَعَدَّ العُدَّةَ لِيَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمِنَ النَّاجِينَ مِنَ النَّارِ، أَعَاذَنِي اللهُ - تَعَالَى - وَإِيَّاكُمْ مِنْ سُمُومِهَا.

وهنَاكُ منَ يعْترِضُ عَلَى الحَدِيثِ عَنِ النَّارِ، وَيَقُولُ: هَـذَا تَشَاؤُمٌ، وَلَكِـنْ نَقُولُ: **إِنَّ نُفُوسَنَا- أَخِي الحبيب**حاجة بَيـنَ القـتر ة وَالقـترةِ إِلَى أَنْ نُورِدَهَـا المَوَاعِظَ وَالنُّذُرُ، ونَذْكرَهَا بمِا خوفَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْهُ، لِنَكْبَحَ جِمَاحَهَا عَنِ الوُقُوعِ فِي المحَرَّمَاتِ.

وَرَبُّنَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَا أَنْذَرَنَا وَخَوَّفَنَا بِشَيءٍ قَطُّ هُوَ أَشَدُّ وَأَدْهَى مِـنَ النَّارِ. وَتَعَالُوا مَعِي لنُشْعِرَ القُلُوبَ بِشَيءٍ مِنْ أَحْوَالِـهَا، وَلِنُذَكِّرَ النُّفُوسَ بِشَيءٍ

مِنْ أَهْوَالِـهَا، عَسَى قَسْوَةً مِنْ قُلُوبِنَا تَلِينُ، وَغَفْلَةً مِنْ نُفُوسِنَا تفيقُ .

إِنَّ سَقَرَ لاتُوصَفُ ، وَإِذَا وُصِفَتْ يَكَادُ وَصْفُهَا يُحَيِّرُ العُقُولَ وَيَذْهَبُ بِالأَفْكَارِ، شَدِيدَةُ الحَرَارَةِ وَشَدِيدَةُ البُرُودَةِ.. قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾[1].

وَاسْمَعْ أَخِي القارئ الحَبِيبَ مَعِي لِوَصْفِ بَرْدِ وَحَرِّ جَهَنَّمَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اشْتَكَتِ النَّارُ إِلى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضاً، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٌ فِي الشِّتَاء، وَنَفَسٌ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ مِنْ سُمُومِ جَهَنَّمَ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ البَرْدِ زَمْهَرِيرُ جَهَنَّمَ**»[2].

وَلِكَيْ تَكُونَ صُورَةُ النَّارِ أَوْضَحَ فَقَدْ ذَكَرَ المَوْلَىٰ وصفَ حَرِّهَا وَلَظَاهَا، وَطَعَامَهَا وَشَرَابَهَا، وَأَغْلالَهَا وَنَكَالَهَا وحَمِيمَهَا وغَسَّاقَهَا، ووَصفَ أَصْفَادَهَا وَسَرَابِيلَهَا.

فَطَعَامُ أَهلِ النَّارِ زقُّوم وغِسْلِين وقَيْح وصَدِيد، لا يُسْمِنُهُمْ وَلا يُغْنِيهِم مِنَ الجُوعِ، تَغَصُّ بِهِ حُلُوقُهُمْ، قَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[3]، يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنهُما: «شوكٌ يَنْشَبُ في الحَلْقِ، لا يَدخُلُ ولا يَخْرُجُ».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾[4]، وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ عَنِ ابْنِ عَبَاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما - قَوْلُهُ ﷺ: «**لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ**

---

(١) المعارج: ١٥، ١٦.
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧).
(٣) المزمل: ١٢، ١٣.
(٤) الحاقة: ٣٥ - ٣٧.

تَكُونُ طَعَامَهُ؟!» [(١)].

وَإِنْ سَألتُمْ- **أَحِبَّائِي القراء**- عَنْ شَرَابِ سُكَّانِ النَّارِ، فَإِنَّ اللهَ - تَعَالَى - يَقُولُ: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [(٢)] مِنْ شِدَّةِ حَرَارَتِهِ، وَقَالَ - تَعَالَى - وَاصِفاً لِبَاسَهُمْ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [(٣)].

فَهِيَ نَارٌ فِي نَارٍ، وَتُفْرَشُ أَرْضُهَا لَهُمْ بالنَّارِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم، قَال تَعَالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [(٤)]، وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [(٥)].

أَخِي القارئ الـمُؤْمِن كيفَ بِكَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ وَقَدِ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ، فَهِيَ أَشَدُ سَوَاداً مِنَ الحِمَمِ، يَصِيحُونَ مِنْ أَقطَارِهَا: (يَا مَالِكُ قَدْ أَثْقَلَنَا الحَدِيدُ، يَا مالكِ قَدْ حَقَّ عَلَيْنَا الوَعِيدُ، يَا مَالِكُ العَدَمُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الوُجُودِ)، فَيُجِيبُهُمْ بَعْدَ حِينٍ: إِنَّكُمْ ماكِثُونَ.

فَيُنَادُونَ رَبَّهُمْ وَقَدْ اشْتَدَّ بُكَاؤُهَمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [(٦)]، فَيُجِيبُهُمْ الجَبَّارُ بِتَوْبِيخ أَشَدَّ مِنَ العَذَابِ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [(٧)]، فَعِنْدَ ذَلِكَ أُطْبِقَتْ عَلَيْهِمُ النَّارُ وَغُلِّقَتْ، فَلا يُسْمَعُ لَهُمْ إلا الأَنِينُ وَالزَّفِيرُ وَالشَهِيقُ وَالبُكَاءُ، يَبْكُونَ عَلَى تَضْيِيعِ أَوْقَاتِ الشَّبَابِ، وَيَتَأَسَّفُونَ أَسَفاً أَعَظْمَ مِنَ المصَابِ. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، ذَهَبَ العَمَلُ وَجَاءَ العِقَابُ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٨٥)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وضعفه الألباني.
(٢) محمد: ١٥.
(٣) الحج: ١٩.
(٤) الأعراف: ٤١.
(٥) الواقعة: ٤١- ٤٤.
(٦) المؤمنون: ١٠٧.
(٧) المؤمنون: ١٠٨.

لَقَدْ خَابَ مِنْ أَوْلادِ آدَمَ مَنْ مَشَى ... إِلى النَّارِ مَغْلَولَ القِيَادَةِ أَزْرَقَا

يُسَـاقُ إِلـى نَـارِ الجَحِيـمِ مُسَرْبَلاً ... سَرَابِيلَ قطْرَانٍ لِبَاسـاً محرَقَـا

إِذَا شَرِبُوا مِنْهَا الصَّـــدِيدَ رَأَيْتَهُـمْ ... يَذُوبُونَ مِنْ حَرِّ الصَّدِيدِ تَمَزُّقَا

إِنَّ رَبَّنَا – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَصَفَ ذَلِكَ كُلَّهُ لَنَا إِنْذَاراً وَتَحْذِيراً، لا لِتَقْنِـيطٍ وَإِنَّمَا لِتَتَّعِظَ بِهِ القُلُوبُ وَتَرِقُّ بِهِ الأَفْئِدَةُ، فَتَتَّخِذَ بيْنَهَا وَبَيْنَ النَّارِ حِجَاباً وَوِقَايَـةً مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

وَفِي الخِتَامِ: قَالَ – تَعَالَى – وَاصِفاً أَهْلَ النَّـارِ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾[1].

اللَّهُمَّ إِنَّهُ لا طَاقَةَ لَنَا بِعِقَابِكَ، وَلا صَـبْرَ لَنَـا عَـلَى عَـذَابِكَ، اللهـمَّ فَأَجِرْنَـا وأَعْتِقْنَا مِنْ نارِكَ، رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، إِنَّ عَذَابَهَا كَـانَ غَرَامـاً، إِنَّهَـا سَاءتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً.

(١) المدثر: ٤٢ – ٤٧.

الكلمة ٢١: امسبه

القَلَقُ وَخَطَرُه عَلَى حَيَاة المُسْلِم

نقفُ مَعَ كَلِمَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كَلِمَاتِنَا الأَصِيلَةِ وَهِيَ (امْسَبَّه).

وَهَذِهِ الكَلِمَةُ نَقُولـهَا فِي لهْجَتِنَا الكُوَيْتِيَّةِ لِلإِنْسَانِ المُتَحَـيِّرِ الَّـذِي لا يَـدْرِي كيفَ يتصَرَّفُ، وَهِيَ كَذَلِكَ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى، فَالمسَبَّهُ: هُوَ الَّذِي يُكْثِرُ التَّفْكِيرَ فِي أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ حَتَّى يَنْسَى نَفْسَهُ، وَلا يَعِي مَا يَجْرِي حَوْلَـهُ؛ وَهـذا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الحَيرَةِ وَالقَلَقِ.

قَالَ فِي لِسَانِ العَرَبِ: السُّبَاهُ: السُّكْتَةُ الَّتِي تَأْخُذُ الإِنْسَانَ، فَيَذْهَبُ مِنْهَا عقلُهُ، وَنَقُولُ: فُلانٌ مَسْبُوهٌ وَمُسَبَّهٌ؛ أَيْ: ذَاهِبُ العَقْلِ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ رؤبةُ بن العَجَّاج السَّعْدِيُّ:

قَالَتْ أُبيلَى لِي وَلَـمْ أُسبَّهْ ... مَا السِّنُّ إِلا غَفْلَةُ الـمُدلَّهْ

وَمَعْنَى الـمُدلَّهِ: الذَاهِبُ العَقْلِ.

بَعْدَ أَنْ عَرَفْنَـا المَعْنَـى اللُغَـوِيَّ لهَـذِهِ الكَلِمَـة تَعَـالُوا نَعِـشْ مَـعَ التَّوْجِيـهِ الإِسْلامِيِّ لِـهَذِهِ الكَلِمَةِ، والذي نضَعُه تحتَ عُنوانِ: (**القَلَقُ وَخَطَرُهُ عَلَى حَيَاةِ المسْلِم**).

إِنَّ القَلَقَ النَّفْسِيَّ يُمَثِّلُ المرْتَبَةَ الأُولَى فِي الانْتِشَارِ بَـيْنَ الأَمْـرَاضِ النَّفْـسِيَّةِ، وَهُوَ يُؤَثِّرُ عَلَى تَفْكِيرِنَا وَتَرْكِيزنَا مِمَّا يَكُونُ لَهُ مَرْدُودٌ سَلْبِيٌّ عَلَى حَيَاتِنَا.

وَإِنَّ عَالَـمَنَا اليوْمَ يَرْزَحُ تَحْتَ ظِلالٍ قَاتِمَةٍ مِنَ الهُمُـومِ وَالأَحْـزَانِ، وَذَلِـكَ لأَنَّنا نَعِيشُ حَضَارَةً يَكْتَنِفُهَا تَطَوُّرُ الـمَادَّةِ دُونَ الاهْتِمَامِ بِأَرْوَاحِنَا.. حَيْثُ يَهْـتَمُّ العالَمَ بتَرَفِيهِ الجَسَدِ وَتَعْذِيبِ القُلُوبِ، وَهَذَا الاخْتِلالُ فِي التَّوَازُنِ بَيْنَ مَطَالِـبِ الجَسَدِ وَمَطَالِبِ الرُّوحِ هُوَ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ القَلَقِ وَالاضْطِرَابِ، الَّذِي يُـؤَدِّي

إِلى سَرَيَانِ الشَّلَلِ الفِكْرِيِّ فِي حَيَاةِ المسْلِمِينَ، وَيُؤَدِّي إِلى فُقْدَانِ الأَمَلِ فِي حَيَاةِ غَيْرِ المسْلِمِينَ؛ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ حَالاتُ الانْتِحَارِ، وَكَثُرَتْ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ العِيَادَاتُ النَّفْسِيَّةُ والمصَحَّاتُ العَقْلِيَّةُ.

إِنَّ أَوَّلَ خُطْوَةٍ في علاجِ الأَمْرَاضِ هوُ مَعرِفةُ سُببَهِا، وتعالَوا بنا لنَقِفَ عِندَ أهَمِّ أَسبابِ القَلَقِ في حَيَاتِنَا.

أولاً: الخَوْفُ عَلَى الحَيَاةِ أَوْ عَلَى الرِّزْقِ فأحَدنا يَخافُ الموتَ فَيقلَقُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلَوْ أَيْقَنَّا أَنَّ الآجَالَ بِيَدِ الله ما حصلَ ذلكِ القلقُ، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1].

وبعَضْنُا يخَافُ عَلَى الرِّزْقِ وَيُصِيبُهُ الأَرَقُ، وَكَأَنَّهُ لم يَقرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[2]، وَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[3]، حَتَّى النَّمْلُ فِي جُحْرِهِ يَرْزُقُهُ اللهُ – تَعَالَى.

ثانياً: المعَاصِي وَالآثَامِ: وَهِيَ سَبَبُ كُلِّ بَلاءٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَهِيَ سَبَبٌ مُبَاشِرٌ لِحُدُوثِ القَلَقِ وَالاكْتِئَابِ عِنْدَنَا. قَالَ اللهُ – تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[4]، وَقَالَ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[5]، **وَلَعَلَّ بَعْضَ النَّاسِ – هَدَاهُمْ اللهُ تَعَالَى** – يَقُولُونَ: نُرِيدُ أن نذهبَ القلقَ عَنَّا فَيَلْجَؤونَ إلى المعَاصِي، وَحَقِيقَةُ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ الطِّينَ بِلَّةً، وَهُمْ كَالـمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ.

---

(١) الأعراف: ٣٤.

(٢) الذاريات: ٥٨.

(٣) هود: ٦.

(٤) النساء: ٧٩.

(٥) الروم: ٤١.

وبعدَ أنْ عرفنا أهم أسبابِ القلقِ التي تعترِي الإنسانَ يأتِي السُّؤالُ الآنَ: كيفَ نتخطَّى هذِهِ الظَّاهِرَةَ إنْ وُجِدَتْ فِي حيَاتِنَا؟

لا بد أن يأتِيَ التغييرُ من قِبَلنا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[1]، **وَإِلَيْكَ أخِي الحَبِيبَ** بَعْضَ مَا يُسَاعِدُنَا فِي رَاحَةِ نُفُوسِنَا مِنَ القَلَقِ وَالحَيرَةِ:

أولاً: أنْ تَعتَقِدَ أنَّ اللهَ مَعَكَ، وأَنَّهُ وَلِيُّكَ، ومنْ كانَ هَذَا حَالُهُ لا يَقْلَقُ، قالَ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[2].

ثانياً: أَنْ تَرْضَى بِقَضَاءِ اللهِ - تَعَالَى - وَأَنْ تَحْمَدَ اللهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَقَدْ وَرَدَ فِي الخَبَرِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: «مَا ابْتُلِيتُ بِمُصِيبَةٍ إلا كَانَ لله عَلَيَّ بِهَا أَرْبَعُ نِعَمٍ، قَالُوا: كَيفَ؟ قَالَ: أَوَّلاً: أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي دِينِي، وَثَانِياً: أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ بِأَعْظَمَ مِنْهَا، وَثَالِثاً: أَنَّ اللهَ أَلْهَمَنِي الصَّبْرَ عَلَيْهَا، وَرَابِعاً: أَنَّ اللهَ وَعَدَنِي بِالثَّوَابِ عَلَيْهَا يَوْمَ القِيَامَةِ».

فَبِهَذِهِ الأَخْلاقِ الإِيمَانِيَّةِ تَتَحَوَّلُ المِحَنُ إِلى نِعَمٍ وَمِنَحٍ، قَالَ - سبحانَهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[3].

ثالثاً: دَاوِمْ عَلَى صِلَتِكَ بِرَبِّكَ مِنْ خِلالِ الصَّلاةِ: قَالَ اللهُ - تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[4]، وَكَانَ نَبِيُّنَا ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلى الصَّلاةِ، وَيَقُولُ لِبِلالٍ: «**أَرِحْنَا بِالصَّلاةِ يَا بِلالُ**»[5].

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(٣) البقرة: ١٥٥ - ١٥٧.

(٤) البقرة: ١٥٣.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وصححه الألباني.

فَإِذَا انْتَابَكَ القَلَقُ- أَخِي القارئ الحَبِيبَ- فَاهْرَعْ إِلى الصَّلاةِ بِخُشُوعٍ وَتَدَبُّرٍ وَحُضُورِ قَلْبٍ، وَالتْجِئْ إلى اللهِ –تَعَالَى – فإنك سَتَجِدُ قَلَقَكَ قَدْ ذَهَبَ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ.

رابعاً: قِرَاءَتُكَ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ، فَفِيْهِ شِفَاءٌ لما فِي الصُّدُور، قالَ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقَالَ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2]، وَالذِّكْرُ أَنِيسُ المسْتَوْحِشِينَ، وَبِهِ يُطْرَدُ الشَّيْطَانُ، وَتَتَنَزَّلُ الرَّحَمَاتُ، وَالقُرْآنُ الكَرِيمُ هُوَ العِلاجُ لِكُلِّ دَاءٍ، وَهُوَ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ، وَبِهِ تَزُولُ الهمُومُ، وتَضْمَحِلُّ الأَحْزَانُ وَتَنْشَرِحُ الصُّدورُ.

فاتقُوا اللهَ أحبتي، واحْفَظُوا اللهَ يَحفَظْكُم، ومَنْ كَانَ مَعَ اللهِ فَلا يَعرِفُ القلقُ إلى نَفْسِهِ سَبِيلاً.

---

(١) يونس: ٥٧.

(٢) الرعد: ٢٨.

الكلمة ٢٢: تلة

اسْحَبْ مَنْ حَوْلكَ إلى الْخَيْرِ

قِفْ مَعَ كَلِمَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كَلِمَاتِنَا الأَصِيلةِ وَهِيَ: كَلِمَةُ (تَلَّةُ).

نَقُولُ فِي اللَّهْجَةِ العَامِّيَّةِ: تَلّ الشَّيْءُ: أَيْ سَحَبَهُ بِقُوَّةٍ وَعُنْفٍ.. وَهِيَ كَـذَلِكَ فِي الفُصْحَى، قَالَ فِي لِسَانِ العَرَبِ: تَلَّ الشَّيءَ يَتِلُّهُ تَلاً: صَرَعَهُ أَوْ أَلْقَاهُ عَلَى عُنُقِـهِ وَخَدِّهِ. وَتَلَّ الشَيْءَ: دَفَعَهُ إِلَيْهِ، أَوْ أَلْقَاهُ، قَـالَ تَعَـالَى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾[1]، أَيْ: صَرَعَهُ. وَقَالَ الكُميتُ:

وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ مُنْعَفِرا مِنْهُ مَنَاطَ الوَتِينِ مُنْقَضِبُ

وَالمعْنَى: أَنَّهُ صَرَعَهُ، وَأَرْدَاهُ قَتِيلاً مَقْطُوعَ الوَتِينِ.

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَويةِ لـهَذِهِ الكَلِمَةِ لا بُـدَّ أَنَ نَقِـفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الهَامَّةِ وَالَّتِي نَضَعُها تَحْتَ عُنْوانِ: (**اِسْحَبْ مَنْ حَوْلَكَ إِلى الْـخَيْرِ**).

أَيُّهَا القارئونَ الأَفَاضِلُ: إِنَّ المسْلِمَ كَانَ- وَمَا زَالَ- هدفاً لأَعْدَاءِ المـسْلِمِينَ الَّذِينَ تَتَنَوَّعُ وَسَائِلُهُمْ لِيُوقِعُوا أَبْنَاءَ الأُمَّةِ فِي شَرَكِهِمُ، وَلِيَزُجُّـوا بِهِـمْ فِي وَحْـلِ الفِتَنِ تَارَةً، وَيُلْقُوا عَلَيْهِمُ الشُّبُهَاتِ تَارَةً أُخرى، لِيُرْدُوهُم ويُورِدُوهُمْ مُسْتَنْقَعَ الهَـوى وَالـشَّهَواتِ، وَيُغْرِقُـوهُمْ فِي الملْهِيَـاتِ وَالمحَرَّمَـاتِ، لِـذَلِكَ لابُـدَّ أَنْ يَتَحَصَنَ الـمُسْلِمُ بِحِصْنٍ مَنِيعٍ أَمَامَ هَذِهِ الأَمْواجِ العَاتِيَةِ الَّتِي تَشُدُّهُ بِعُنْـفٍ إِلى الضَّلالِ وَالـهَلاكِ.

وَإِنَّ الأُسْرَةَ هِيَ الحِصْنُ الأَوَّلُ الَّذِي يَحْمِي أَبْنَاءَنَا مِـنْ ظُلُـمَاتِ الـشُّبُهَاتِ وَالشَّهَواتِ، وَيَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى بَرِّ الأَمَانِ.

---

(١) الصافات: ١٠٣.

فَمَا أَحْوَجَ أَبْنَاءَنَا إِلَيْنَا بأَنْ نَرْجِعَ إِلَيْهِمْ، وأَنْ نَهْتَمَّ بِهِمْ تَرْبِيَةً وَتَوْجِيهاً!

وَهُنَا نُسْأَلُ: كَمْ تَقْضِي مِنْ وَقْتِكَ مَعَ أَبْنَائِكَ؟

إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ أُعْطُوا أَولاداً أَهْمَلُوا جَانِبَ مُجَالَسَةِ أَوْلادِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُمْسِي وَيُصْبِحُ وَدُنْيَاهُ هَمُّهُ وَشُغْلُهُ الشَّاغِلُ، لا يَكَادُ يَلْتَفِتُ إِلَى أَوْلادِهِ، وَلَمْ يَدْرِ المِسْكِينُ أَنَّهُ بِعَمَلِهِ هَذَا قَدْ ضَيَّعَ أَوْلادَهُ، يَدَعَ مَا أَوْكَلَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ (التَّرْبِيَةُ)، وَيَشْتَغِلُ بِمَا كَفَلَهُ لَهُ وَهُوَ (الرِّزْقُ). وَأَقْبَحُ مِنْ هَذَا مَنْ يَأْخُذُ أَبْنَاءَهُ إِلَى العِصْيَانِ- وَالعِيَاذُ باللهِ- سَوَاءٌ فَعَلَ ذَلِكَ هُوَ مُبَاشَرَةً أَوْ أَسْلَمَهُمْ إِلَى منَ لا يخَافُ الرَّحْمَنَ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ أَهْمَلَ تَعْلِيمَ وَلَدِهِ مَا يَنْفَعُهُ وَتَرَكَهُ سُدًى، فَقَدْ أَسَاءَ إِلَيْهِ غَايَةَ الإِسَاءَةِ، وَأَكْثَرُ الأَوْلادِ إِنَّمَا جاءَ فَسَادُهُمْ مِنْ قِبَلِ الآبَاءِ وَإِهْمَالِهِمْ لَهُمْ وَتَرْكِ تَعْلِيمِهِمْ فَرَائِضَ الدِّينِ وَسُنَنَهُ، فَأَضَاعُوهُمْ صِغَاراً، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَنْفَعُوا آبَاءَهُمْ»[1].

خُذُوا بِأَيْدِي أَبْنَائِكُمْ إِلَى الهُدَى قَبْلَ أَنْ تَتَلَقَّفَهُمْ أَيْدِي الشَّرِّ- وَمَا أَكْثَرَهَا- وَتَسْحَبَهُمْ إِلَى الهَاوِيَةِ.

عَلِّمُوا أَوْلادَكُمُ القُرْآنَ، وَرَبُّوهُمْ عَلَى السُّنَّةِ، وَاصْحَبُوهُمْ إِلَى بيُوتِ اللهِ، وَأْمُرُوهُمْ بِالصَّلاةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[2].

وَقَالَ ﷺ: **«مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ»**[3].

(١) تحفة المودود ص١٦١، بتصرف.

(٢) طـه: ١٣٢.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وقال الألباني: (حسن صحيح).

إِذَا قَلَّبْتَ طَرْفَكَ فِي صَفَحَاتِ التَّارِيخِ وَقَفْتَ عَلَى حَقَائِقَ نَاصِعَةٍ كُلِّهَا صَفَاءٍ وَبَهَاءٍ لاهتِمَامِ الأجيَالِ الفذةِ بتربيةِ أَبْنَائِهِمْ وَالاعْتِنَاءِ بِهِمْ، فَهَذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: «يَا بُنَيَّ! اطْلُبِ العِلْمَ، وَأَنَا أَكْفِيكَ بِمغْزَلِي» فَكَانَتْ تَعْمَلُ وَتُقَدِّمُ لَهُ لِيَتَفَرَّغَ لِلْعِلْمِ، وَكَانَتْ تَتَخَوَّلُهُ بِالموْعِظَةِ وَالنَّصِيحَةِ، قَالَتْ لَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ: «يَا بُنَيَّ إِذَا كَتَبْتَ عَشَرَةَ أَحْرُفٍ، فَانْظُرْ: هَلْ تَرَى فِي نَفْسِكَ زِيَادَةً فِي خَشْيَتِكَ وَحِلْمِكَ وَوَقَارِكَ، فَإِنْ لَمْ تَرَ ذَلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّهَا تَضُرُّكَ، وَلا تَنْفَعُكَ».

إِنَّ مِنَ الأُسُسِ الهَامَّةِ فِي تَرْبِيَةِ الأَوْلادِ اخْتِيَارُ الرُّفَقَاءِ الصَّالِحِينَ لَهُمْ، فالصَّاحِب سَاحِب، قَالَ ﷺ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**»[1].

فَمَا مِنْ صَدِيقٍ تُجَالِسُهُ إِلا وَتَكْتَسِبُ مِمَّا فِيهِ.

وَلَكُمْ **أَيُّهَا الإِخْوَةُ** القراء أَنْ تَسْأَلُوا أَهْلَ السُّجُونِ كَيْفَ وَصَلُوا إِلَى مَا وَرَاءَ القضْبَانَ؟ وكَيْفَ وُضِعَتْ فِي أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمُ القُيودُ؟ إِنَّهُمْ بِلا شَكٍ أَصْدِقَاءُ السُّوءِ.

وَكَمْ كُنَّا نَجِدُ مِنَ الأَوْلادِ وَالشَّبَابِ وَالكِبَارِ أُنَاساً عَفَّتْ أَلْسِنَتُهُمْ عَنِ البَذِيءِ، وَعَفَّتْ جَوارِحُهُمْ عَنِ الآثَامِ، واسْتَقَامَتْ أَخْلاقُهُمْ وَسُلُوكُهُمْ، حَتَّى إِذَا مَا قُيِّضَ للوَاحِدِ مِنْهُمْ صَاحِبُ الشَّرِّ وَالانْحِلالِ تَأَثَّرَ بِهِ لا مَحَالَةَ، وانْحَرَفَ مَعَهُ، وَإِنْ كَانَ لا يُرِيدُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ انْحِرَافاً، وَلَكِنَّ الصُّحْبَةَ لابُدَّ أَنْ تُؤَثِّرَ، **وَالصَاحِبُ - كَمَا يَقُولُونَ - سَاحِبٌ**.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني.

عَنِ الـمَرْءِ لا تَسَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُـلُّ قَـرِينٍ بِالـمُقَارَنِ يَقْتَـدِي

فَمَا أَحْوَجَ الـمُسْلِمَ إِلَى أَخٍ نَاصِحٍ وَصَدِيقٍ صَالِحٍ يَهْدِيهِ لِلْخَـيْرِ، يُـذَكِّرُهُ إِذَا نَسِيَ، وَيَحُضُّهُ إِذَا غَفَلَ، يُظْهِرُ وِدَّهُ إِذَا حَضَر، وَيَحْفَظُهُ إِذَا غَابَ.

وَعَنْ أَبِي سَـعِيدٍ الخُـدْرِيِّ ﷺ عَـنْ رَسُـولِ اللهِ ﷺ قَـالَ: «**لا تُـصَاحِبْ إِلا مُؤْمِناً، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلا تَقِيٌّ**» [(١)].

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُـمْ وَلا تُصَاحِبِ الأَرْدَى فَتَـرْدَى مَعَ الـرَّدِي

حَفِظَكُمُ اللهُ وَحَفَظِ أَبْنَاءَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ مِنْ كُلِّ سُوءٍ.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، وحسنه الألباني.

الكلمة ٢٣: كوكس

الثَّبَاتُ عَلَى الحَقِّ

كَلِمَتُنَا هِيَ (كُوكَسْ).

نَقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: كُوكَسْ: أَيْ انْقَلَبَ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَصْبَحَتْ رِجْلُهُ إِلى أَعَلَى وَرَأْسُهُ إِلى أَسْفَلَ، وَجَاءَتْ فِي كَلامِ الْعَرَبِ بِهَذَا المعْنَى.

قَالَ فِي تَاجِ العَرُوسِ: وَكَوَّسَهُ اللهُ تَكْوِيساً: كَبَّه عَلَى رَأْسِهِ. وَقِيلَ : قَلَبَهُ وجَعَلَ أَعْلاهُ أَسْفَلَه.

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجَزِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ، لابُدَّ أَنْ نَقِفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ المهمة وَالتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عُنْوانِ: **(الثَّبَاتُ عَلَى الحَقِّ)** .

نَحْنُ عِنْدَمَا نَسْمَعُ كَلِمَةَ التَّكَوُّس وَالانْتِكَاسِ تَذْهَبُ خَوَاطِرُنَا فَوْرًا إِلى انْتِكَاسِ إِنسانٍ، إما لِكَوْنِ الشَّخْصِ يَتَخَبَّطُ وَيَمْشِي فِي الظَّلام، أَوْ لِكَوْنِهِ سَاهِياً شَارِدًا عَمَّا يُوجَدُ فِي الأَمَامِ، أَوْ لِكَوْنِهِ أَهْوَجَ لاقَى مُ فِيما يَعْتَرِضُ سَبِيلَهُ وَطَرِيقَهُ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

لَكِنَّ حَدِيثِي إِلَيْكُمُ اليَوْمَ عَنِ انْتِكَاسٍ مِنْ نَوْعٍ مُخْتَلِفٍ، أَلا وَهُوَ انْتِكَاسُ البَصَائِرِ وَالقُلُوبِ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾(١).

وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ (٢) .

(١) الحج: ٤٦.
(٢) الحج: ١١.

انْتِكَاسُ البَصَائِرِ وَالقُلُوبِ لَهُ صُوَرٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وَإِليكم أَهَمّ صُوَرِه:

أولاً: الانْتِكَاسُ بِالانْحِرَافِ عَنِ الإِسْلامِ إِلى الكُفْرِ - وَالعِيَاذُ بِالله.

ومن هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ وَصِيَّتُهُ لِصَحَابَتِهِ- رضي اللهُ عنهمْ- بِقَوْلِهِ: «**لَا تُشْرِكْ باللهِ شَيْئًا وَإِنْ قُطِّعْتَ وَحُرِّقْتَ**»[(١)]، وَكَانَ أَصْحَابُهُ شَدِيدِي الحرصِ عَلَى إِسْلامِهِمْ وَعَدَمِ انْتِكَاسِهِمْ، بَعْدَ أَنْ أَبْصَرَتْ قُلُوبُهُمْ نُورَ الإِيمَانِ، وَذَاقَتْ حَلاوَتَهُومَنَ يْنْسَى موقفَ بِلالٍ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ، تَحْتَ صُخُورِ مَكَّةَ المُرْهِقَةِ، وَفَوْقَ رِمَالِهَا المُحْرِقَةِ.

ثانياً: التكَوُّسُ عَنِ الطَّاعَةِ إِلى المعْصِيَةِ، كَمَنْ يَتُوبُ عَنِ التَّدْخِينِ، أَوْ عَنِ المخَدِّرَاتِ وَالمسْكِرَاتِ، وَسُرْعَانَ مَا يَنْتَكِسُ إِلى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ وَالفُجُورِ، أَعَاذَنَا اللهُ وشَبَابَ المسْلِمِينَ وَحَفِظَهُمْ بِعَيْنِ عِنَايَتِهِ وَرِعَايَتِهِ.

فَمَا إِرْشَادُ شَرْعِنَا لِمَنْ حَصَلَ مِنْهُ مِثْلُ هَذَا؟ هُوَ أَنْ يُجَدِّد التَّوْبَةَ وَالعَزْمَ عَلَى الاسْتِقَامَةِ كُلَّمَا زَلَّتْ بِهِ قَدَمُهُ فِي أَوْحَالِ الشَّهَواتِ وَالمنْكَرَاتِ. فقدْ أَتَى رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وقد أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ- عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[(٢)]، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلِي هَذَا؟ قَالَ: «**لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ**»[(٣)].

ثالثاً: الانْتِكَاسُ فِي الأَخْلاقِ: وَهِيَ تَغَيُّرُ وَتَبَدُّلُ المعَامَلَةِ الحَسَنَةِ فِي البَيْتِ وَمَعَ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَى خُلُقٍ حَسَنٍ، وما أكثرَ هذا النَّوعِ!!

وإِذَا سَأَلْنَا عَنِ الطَّرِيقِ لِلثَّبَاتِ عَلَى الدِّينِ وَالأَخْلاقِ فَإِلَيْكُمْ هَذِهِ السُّطُورَ الَّتِي أَتَمَنَّى أَنْ تُعِيرُونِي فِيهَا سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ :

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٤)، وحسنه الألباني.

(٢) هود: ١١٤.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٦).

لا بُدَّ منَ الحِرْصِ عَلَى الصُّحْبَةِ الصَّالحةِ، وَهَجْرُ الصُّحْبَةِ الفَاسِدَةِ، فَإِنَّ النُّفُوسَ مُؤَثِّرَةٌ وَمُتَأَثِّرَةٌ، وَالطِّبَاعُ ـ كَمَا قِيلَ ـ سَرَّاقَةٌ، أَيْ يَأْخُذُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ الإِنْسَانُ، وَأَكَّدَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الحَقِيقَةَ فَقَالَ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[١]، وَمَا فَتِئَ العُقَلاءُ وَالمرَبُّونَ يَنْصَحُونَ بِصُحْبَةِ أَهْلِ الاسْتِقَامَةِ وَالصَّالِحِينَ، أَخْذاً بِإِرْشَادِ حَبِيبِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ: «**لا تُصَاحِبْ إِلا مُؤْمِناً**»[٢]، لأَنَّ صُحبَةَ المؤْمِنِ الصَّالِحِ غَنِيمَةٌ لَيْسَ لهَا ثَمَنٌ، إِنْ زَلَلْتَ وَعَصَيْتَ نَصَحَكَ وَقَوَّمَكَ، وَإِنْ نَسِيتَ شَيْئاً مِنَ الخَيْرِ ذَكَّرَكَ، وَإِنْ أَفْرَطَتْ وغَالَيْتَ سَدَّدَكَ.

وَمِنْ أَجْمَلِ الأَمْثِلَةِ عَلَى هَذِهِ الأُخُوَّةِ الإِيمَانِيَّةِ الحَقَّةِ: أُخُوَّةُ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَرْدَاءِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَقَدْ آخَى بَيْنَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، أَيْ عَمَلُهُ كُلُّهُ لِلآخِرَةِ، يَقُومُ اللَّيْلَ أَبَداً، وَيَصُومُ النَّهَارَ أَبَداً، فَلا حَاجَةَ لَهُ فِي شَيءٍ مِنْ مَبَاهِجِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا المُبَاحَةِ، بَلْ وَلا يَقْرَبُ زَوْجَتَهُ لفَرْطِ انْشِغَالِهِ بِالعِبَادَةِ. فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ طَعَاماً لأَخِيهِ سَلْمَانَ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: كُلْ، قَالَ: إِنِّي صَائِمٌ. قَالَ سَلْمَانُ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ أَبُوالدَّرْدَاءِ. فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ لِيُصَلِّي، قَالَ سَلْمَانُ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ. فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كِلَّ ذَي حقَ حَقَّهُ. فَأَتَى أَبُو الدَّرْدَاءِ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، وحسنه الألباني.

لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**»(١).

فَسَلْمَانُ مِثَالُ الأَخِ الصَّالِحِ.. دَلَّ أَخَاهُ فِي الله عَلَى أَفْضَلِ الأَوْقَاتِ لِلتَّهَجُّدِ، وَذَلِكَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، لِيَمْنَحَ جَسَدَهُ حَقَّهُ مِنَ الرَّاحَةِ، فَيَكُونَ أَقْوَى لَهُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ، ثُمَّ قَدَّمَ إِلَيْهِ سَلْمَانُ نَصِيحَةً ذَهَبِيَّةً رَائِعَةً بِقَوْلِهِ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حقًّا فأَعَطْ كِلَّ ذَي حقٍّ حَقَّهُ.

وَكَمَا يُنْصَحُ بِصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ يُنْصَحُ كَذَلِكَ بِتَجَنُّبِ صُحْبَةِ أَهْلِ الضَّلالِ وَالفَسَادِ، قَالَ الرَّجلُ الصَالِحُ لُقْمَانُ لِوَلَدِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: مَنْ يُصَاحِبْ صَاحِبَ السُّوءِ لا يَسْلَمُ، وَمَنْ يُصَاحِبْ الصَّالِحَ يَغْنَمْ(٢). بَلْ إِنَّ أَهَمَّ سَبَبٍ لانْحِدَارِ شَبَابِنَا نحو الانْحِرَافِ – كَمَا تَذْكُرُ الإِحْصَاءَاتُ – هُمْ جُلُسَاءُ السُّوءِ وَالصُّحْبَةُ الفَاسِدَةُ: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾(٣).

ولَوْ رَأَيْتَ شَخْصاً لاتعرْفُ مَدَى اسْتِقَامَتِهِ وترُيد التعرَّفَ إلى ذَلِكَ، فَمَا عَلَيْكَ إلا أَنْ تَسَأَلَ عَنْ إِخْوَانِهِ وَرِفَاقِهِ، فَالطُّيُورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: اعْتَبِرُوا النَّاسَ بِأَخْدَانِهِمْ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يُخَادِنُ ـ أَيّ يُصَاحِبُ ـ مَنْ يُعْجِبُهُ نَحْوُهُ(٤). أَي احْكُمُوا عَلَى الأَشْخَاصِ مِنْ خِلالِ أَصْدِقَائِهِمْ، فَإِنَّ كُلَّ إنسْانٍ تأتَلِفُ رُوحُهُ مَعَ مَنْ هُوَ عَلَى شَاكِلَتِه وَسِيرَتِهِ.

وَهُوَ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

عَنِ الْمَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ   فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارَنِ يَقْتَدِي

اللَّهُمَّ ثبّتنا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨) عن أبي جحيفة ﷺ.

(٢) ذكره في كتاب المنتقى من مكارم الأخلاق.

(٣) الأعراف: ٢٠٢.

(٤) ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان.

الكلمة ٢٤: حزر

إِذَا أَنْفَقْتَ فَأَنْفِقْ طَيِّباً

كَلِمَتُنَا هِيَ (حَزِر).

نَقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: هَذَا طَعَامٌ حَزِر: أَيْ مُتَغَيِّرُ الطَّعْمِ، وَغَالِباً مَا نَقُولُـهَا لِلمُكَسَّرَاتِ مِثْلِ الـجَوْزِ وَاللَّوزِ.

وَهَذِهِ الكَلِمَةُ فَصِيحَةٌ، قَالَ الزَّبِيدِيُّ: حَزَرَ اللَّبَنُ يَحْزِرُ ويَحْزُرُ حَزْراً وحُزُوراً: أَيْ حَمُضَ، والحازِرُ أَيْضاًدقيقُ الشَّعِيرِ وَلَهُ رِيحٌ لَيْسَتْ بِطَيِّبَةٍ.

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجزِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ، لابدُ أَنْ نَقِفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ المهمة، وَالتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عُنْوانِ: (**إِذَا أَنْفَقْتَ فَأَنْفِقْ طَيِّباً**).

إِخْوَانِي القراء: إِنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ تَسُوقُنَا لِلحَدِيثِ عَنْ مَوْضُوعٍ هُوَ فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَّةِ أَلا وَهُوَ: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّباً**»[1]، فَدِينُنَا الحَنِيفُ يَدْعُونَا إِلى أَكْلِ الحَلالِ الطَّيِّبِ وَالابْتِعَادِ عَنِ الحَرَامِ الفَاسِدِ، قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[2].

وَإِنَّ الـمَالَ الـحَرَامَ - **أَخِي الْمُسْلِم** - هُوَ أَشَدُّ خَبَاثَةً وَنَتَانَةً مِنَ الطَّعَامِ الفَاسِدِ، وَمَعَ هَذَا نَجِدُ الكَثِيرِينَ لا يُبَالُونَ فِي الإِسْرَاعِ إِلى المالِ الحَرَامِ الـخَبِيثِ!

إِنَّ مَعْرِفَةَ الشَّرِّ لِتَوَقِّيهِ، وَمَنْ لا يَعْرِفِ الشَّرَّ يَقعْ فِيهِ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ إِلَيْكُمْ بَعْضَ صُوَرِ المالِ الحَرَامِ الـخَبِيثِ، لِنَتَّقِيَهَا ونبتعدَ عَنهَا.

أولاً: وَهُوَ مِنْ أَخْبَثِ صُوَرِ المالِ الحَرَامِ أَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، قَالَ - تَعَالَى: ﴿إِنَّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) البقرة: ١٧٢.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[١].

ثَانِياً: الرِّشْوَةُ، أَعَاذَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَخْذِهَا أَوْ إِعْطَائِهَا، فَقَدْ لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ «**الرَّاشِيَ وَالمرْتَشِي**»[٢].

ثَالِثاً: أَكْلُ الرِّبَا أَوِ الـمُشَارَكَةُ فِيهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[٣].

رَابِعاً: تَأْخِيرُ أُجُورِ العُمَّالِ أَوِ الأَخْذُ مِنْهَا بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ، جَاءَ فِي الـحَدِيثِ: «**مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ**»[٤].

خَامِساً: حِرْمَانُ البَنَاتِ مِنَ المِيرَاثِ، فَالمالُ الَّذِي فُرِضَ لَهُنَّ إِذَا أُخِذَ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ فَهُوَ مَالٌ حَرَامٌ خَبِيثٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[٥].

لَقَدْ وَعَدَ اللهُ أَهَلَ الكَسْبِ الـحَلالِ بِالكَرَمِ الرَّبَّانِي.. وَإِلَيْكُمْ بَعْضَهَا:

أَوْلاً: إِجَابَةُ الدُّعَاءِ، قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ الله ادْعُ اللهَ أَنْ يَـجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسَتَجَابَ الدَّعْوَةِ**»[٦].

ثَانِياً: إِنَّ كَسْبَ الـمَالِ الـحَلالِ وَاجْتِنَابَ الحَرَامِ مِنْ أَسْبَابِ قَبُولِ العِبَادَةِ عِنْدَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ. ذَكَرَ ابنُ رَجَب فِي جَامِعِ العُلُومِ وَالـحِكَمِ أَنَّ ابْنَ عَبَاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - كان يَقُولُ: لا يَقْبَلُ اللهُ صَلاةَ امْرِئٍ فِي جَوْفِهِ حَرَامٌ. وَاسْتَنْبَطَ

---

(١) النساء: ١٠.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٨٠)، والترمذي (١٣٣٦)، وابن ماجه (٢٣١٣)، وصححه الألباني.

(٣) البقرة: ٢٧٥.

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (٢١٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) النساء: ١١.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٩٥)، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٨١٢).

الإِمَامُ ابْنُ رَجَبٍ دَلِيلاً لِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ المؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المرْسَلِينَ فَقَالَ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ﴾[1]، وقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[2]»[3].

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ: فِي هَذَا الحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلى أَنَّهُ لا يُقْبَلُ العَمَلُ وَلا يَزْكُو إِلا بِأَكْلِ الحَلالِ، وَأَنَّ أَكْلَ الحَرَامِ يُفْسِدُ العَمَلَ وَيَمْنَعُ قَبُولَهُ. بِمَعْنَى: أَنَّ اللهَ فِي الآيَتَيْنِ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ بِأَكْلِ الحَلالِ أَمَرَ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ، لِيُشِيرَ إِلى أَنَّ الحَلالَ شَرْطُ قَبُولِ العَمَلِ.

ثَالِثاً: المالُ الحَرَامُ يُوصِلُ صَاحِبَهُ إِلَى النَّارِ: جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْتٍ**»[4].

أَيُّهَا القارئونَ الكِرَامَ: لَسْنَا مَأْمُورِينَ فَقَطْ بِأَكْلِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، وَلَكِنْ أَيْضاً إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُنْفِقَ لابُدَّ أَنْ نُنْفِقَ الطَّيِّبَ وَنَبْتَعِدَ عَنْ إِنْفَاقِ الفَاسِدِ الَّذِي انْتَهَتْ صَلاحِيَّتُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[5]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[6].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَهُمْ بِالإنْفَاقِ مِنْ أَطْيَبِ المالِ وَأَجْوَدِهِ وَأَنْفَسِهِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّصَدُّقِ بِرَذَالَةِ المالِ وَدَنِيئِهِ وَخَبِيثِهِ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[7].

---

(١) المؤمنون: ٥١.
(٢) البقرة: ١٧٢.
(٣) أخرجه مسلم (١٠١٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٩)، وقال شعيب الأرناؤوط: (إسناده قوي على شرط مسلم).
(٥) آل عمران: ٩٢.
(٦) البقرة: ٢٦٧.
(٧) البقرة: ٢٦٧.

فَالصَّدَقَةُ تَقَعُ فِي يَدِ اللهِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ الفَقِيرِ، فَانْظُرْ إِلى نَفْسِكَ: مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَضَعَ فِي يَدِ اللهِ - جَلَّ وَعَلا، وَهَذَا مَا جَاءَ بِهِ الخَبَرُ الصَّحِيحُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلا أَخَذَهَا اللهُ بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ قَلُوصَهُ**- أيْ مُهْرَه أَوْ جَمَلَهُ الصَّغِيرَ- **حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ**»[١].

وَاسْمَعْ أَخِي القارئ الحبيبَ إِلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ الجَمِيلَةِ فِي التَّصدُّقِ مِنْ أَحبِّ المالِ وَأَنْفَسِهِ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالمدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ (**بَيْرُحَاءَ**)، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ**» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ[٣].

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا حَلالاً طَيِّباً وَاسِعاً مُبَارَكاً فِيهِ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الُمتَصَدِّقِينَ المُخْلِصِينَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤).

(٢) آل عمران: ٩٢.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

الكلمة ٢٥: حوبة

عواقبُ الظلمِ

كَلِمَتُنَا هِي (حُوبَة).

نَقُولُ فِي العَامِّيَةِ لِـمَنْ ظَلَمَ إِنْسَاناً ثُمَّ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ: هَذِي «**حُوبَة فُـلانٍ**». أَيْ: هَذَا جَزَاءُ إِثْمِكِ وَظُلْمِكَ فُلاناً.

وَجَاءَتْ فِي لُغَةِ العَرَبِ بهذا المعنى، قَالَ الجَوْهَرِيُّ في الـصِّحَاحِ: الحُـوبُ: الإِثْمُ. يُقَالُ: حَابَ بِكَذَا حُوباً وحَوبـاً: أَي أَثِـم. وَفُـلانٌ يَتَحـوَّبُ أَي يَـتَرُكُ الحُوبَ وَالإِثْـمَ. وَمِنْـهُ قَـولُ اللهِ سُـبْحَانَهُ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[1] أَيْ إِثْماً كَبِيراً. وَجَـاءَ فِي الـسُّنَّةِ أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ وَدَخَلَ عَلَى أَهْلِهِ قَالَ: «**توباً توبًا، لِرَبِّنَا أَوْبـاً، لا يُغَـادِرُ عَلَيْنَـا حَوباً**»[2] أَيْ إِثْماً، وَهُوَ نَحْوَ دُعَائِه ﷺ: «**رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي وَاغْسِلْ حَوْبَتِي**»[3].

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

فَلا تَدْخُلَنَّ الدَّهْرَ قَبْرَكَ حَوْبَةٌ   يَقُومُ بِهَا يَوْماً عَلَيْكَ حَسِيبُ

أَي لا تَجْعَلْ مِنْ أَعْمَالِكَ الَّتِي تَدْخُلُ مَعَكَ قَـبْرَكَ، ظُلْـمَ النَّـاسِ وَالتَعَـدِّي عَلَيْهِمْ، فَأَمَامَكَ حِسَابُ اللهِ فِي الآخِرَةِ.

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ السَّرِيعِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَوِيَةِ لِهَذِهِ الكلمة، لابدَّ أَنْ نَقِفَ مَعَ أَبْعَادِها الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيةِ الهَامَّةِ وَالَّتِي نَـضَعُهَا تَحْـتَ عُنْـوانِ: (**عواقـبُ الظلمِ**).

---

(١) النساء: ٢.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٥)، وقال الأرناؤوط: حسن كما قال ابن حجر في تخريج الأذكار.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصححه الألباني.

إِنَّ الظُّلْمَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللهِ- تَعَالَى- فَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ القُدْسِي: عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغَفَارِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ- عَزَّ وَجَلَّ- أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا**»(١).

وَالظُّلْمُ ينقسمُ إلى قسمين:

أَوَّلُهما: ظُلْمُ النَّفْسِ بِالكُفْرِ وَالمعْصِيَةِ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

وَثَانِيهُما: ظُلْمُ العِبَادِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣).

وَحَدِيثِي إِلَيْكُمْ اليَوْمَ لَيْسَ عَنِ الظُّلْمِ وَصُوَرِهِ، وَلَكِنْ سَأَتَحَدَّثُ اليومَ عَنْ عَوَاقِبِ الظُّلْمِ وَمَا يَجُرُّهُ عَلَى الظَالِمِ مِنْ وَيْلاتٍ وَعَذَابٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ:

أَولاً: احْذَرْ دَعْوَةَ المظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ: جَاءَ فِي الحَدِيث «**اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»(٤)، بَلْ إِنَّهَا لترفعُ فَوْقَ الغَمَامِ، وَتُفتحُ لَهَا أَبْوابُ السَّمَاءِ، وَيُقْسِمُ رَبُّنَا بِعِزَّتِهِ أَنْ يَنْتَصِرِ لِذَلِكَ المظْلُومِ. فَكَمْ مِنْ مُلْكٍ هُدِمَ وَزَالَ بِدَعْوَةِ المظْلُومِينَ، وَكَمْ مِنْ صَاحِبِ مَالٍ دُمِّرَ بِدَعْوَةِ مَظْلُومٍ، وَالقِصَصُ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى.. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(٥).

لا تَظْلِمنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِراً فَالظُّلْمُ تَرْجِعُ عُقْبَاهُ إِلَى النَّدَمِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) لقمان : ١٣.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٨)، عن جابر ﷺ .

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٨)، ومسلم (١٩) عن ابن عباس – رضي الله عنهما .

(٥) هود : ١٠٢.

تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالـمَظْلُـومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَـمِ

ثَانِياً: الظُّلْمُ سَبِيلٌ إِلى خَرَابِ الـدِّيَارِ، بَـلْ وَإِلَى انْهِيَـارِ الـدُّولِ وَسُـقُوطِهَا، مِصْدَاقاً لِقَوْلِهِ - جَـلَّ جلالُـهُ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾(١)، وَلِقَوْلِـهِ - عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾(٢). قَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ - رَحِمَهُ اللهُ: (اللهُ يَنْـصُـرُ الدَّوْلَـةَ العَادِلَـةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرةً، وَلا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَالِـمَةَ وَلَوْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً)(٣).

ثَالِثاً : الظلمُ سببٌ لِلطَّـرْدِ مِـنْ رَحْمَـةِ اللهِ وَحُبِّـهِ، قَـالَ تَعَـالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٤)، وهو يَجلِبُ غَضَبَ الجَبَّارِ - جَلَّ جلالُهُ، يَقُولُ ﷺ: «**مَـنِ اقْتَطَـعَ أَرْضًا ظَالِمًا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»(٥).

رَابِعاً: الظَّالِمُ يومَ القِيامَةِ مِنَ المفْلِسِينَ الَّذِينَ يُلْقَونَ فِي النَّارِ: جَاءَ فِي الحَدِيثِ قَوْلُهُ ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا المفْلِسُ؟**» قَالُوا: المفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَـهُ وَلَا مَتَـاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ المفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِـيَامٍ وَزَكَـاةٍ، وَيَـأْتِي قَـدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَـى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْـضَى مَـا عَلَيْـهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»(٦).

إِخْوَانِي القراء: الظُّلْمُ خَطِيرٌ جِدُّ خطيرٍ، فَحُقُوقُ العِبَادِ لا يُسَامِحُ فِيهَا رَبُّ العِبَادِ، وَالعَبْدُ فِي الآخِرَةِ أَبْخَلُ وَأَشَحُّ مِنَ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ حَقِّهِ، ابْتِغَاءَ أَنْ يَفُـوزَ

---

(١) الأنبياء : ١١.

(٢) القصص: ٥٩.

(٣) الحسبة ص١٦ ، ١٧.

(٤) آل عمران : ١٤٠.

(٥) أخرجه مسلم (١٣٩) عن وائل بن حجر ﷺ.

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٨١) عن أبي هريرة ﷺ.

بِحَسَنَاتٍ مِنْ ظَالِـمِهِ، وَيَقْتَصَّ وَيَأْخُذَ حَقَّهُ مِنْهُ، فَهَـذا الخَـادِمُ الَّـذِي عِنْـدَكَ، وَالمظَفَّ ُ الَّذِي يَعْمَلُ لَدَيْكَ، إِنْ كُنْـتَ ظَلَمْـتَ أَحَـداً مِـنْهُمَا أَوْ مِـنْ غَيرِهِمَـا، فَاعْلَمْ أَنَّهُ سَيُقْتَصُّ مِنْكَ فِي الآخِرَةِ، يَقُولُ ﷺ: «**مَنْ ضَرب مَـمْلُوكَهُ ظُلْماً أُقِيْدَ مِنْهُ يَومَ القِيامَةِ**»[1].

وَهَذَا حَالُ المَمْلُوْكُ الِذيِّ اشترَ َاهُ الإِنْسَانُ بِمَالِهِ، فَمِنْ بَـابِ أَوْلَى الـشَّخْصُ الحُرُّ الَّذِي يَخْدِمُكَ أَوْ يَعْمَلُ لَدَيْكَ، وثَمَّةَ وَاجِبٌ عَظِيمٌ يَــجِبُ أَنْ نَفْعَلَـهُ، أَلا وَهُوَ أَنْ نَنْصُرَ المظْلومَ وَنَرُدَّ الظَالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ، وَذَلِكَ كَمَا جَاءَ فِي هَدْي نَبِيِّنَـا ﷺ حين قال: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِـمًا أَوْ مَظْلُومًا**». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله أَنْـصُـرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالمِاً كَيفَ َ أَنْصُرُهُ؟ قَـالَ: «**تَحْجِـزُهُ أَوْ تَمْنَعُـهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**»[2].

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نَزِلَّ أو نُزَلَّ، أو نَضِلَّ أو نُضَلَّ، أو نَظلِمَ أَوْ نُظلَمَ، أَوْ نَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيْنَا.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٥٨٧) عن ابن عمر – رضي الله عـنهما، وصـححه الألبـاني في الصحيحة (٢٣٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥٢).

الكلمة ٢٦: هوس

لا تَكُنْ قَاسِيًا على مَنْ حَوْلَكَ

أَيُّهَا الإِخْوةُ القارئون نقفُ مَعَ كَلِمَةٍ جَدِيـدةٍ مِـنْ كَلِمَاتِنَـا الأَصِـيلةِ وَهِـي كَلِمَةُ: (**هَوَّسَ**).

نَقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: هَوَّسَ عَلَى الشَّيْءِ: أَيْ ضَغَطَ عَلَيْهِ.

وَكَلِمَتُنَا كَلِمَةٌ فَصِيحَةٌ وَرَدَتْ فِي كَلامِ العَرَبِ، وَتَعَرَّضَ لـهَا عُلَمَاءُ اللُّغَـةِ، وَأَوْضَحُوا مَعَانِيهَا. قَالَ ابْنُ مَنْظُور في لسانِ العربِ: هُسْتُ الـشَّـيءَ أَهُوسُـه هَوْساً وهَيْساً: أي دَقَقْتُه وكَسَرْتُه، ومِنْه سُمِّيَ الأَسَدُ هَوَّاساً؛ لكَسْرِه فَرِيسَته.

وَبَعْدَ هَذَا الـمُرُورِ الموجَزِ عَلَى المعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِهَذِهِ الكلِمَةِ، لابدُ أَنْ نَقِـفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ المهِمَّةِ وَالتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عُنْوانِ: (**لا تَكُـنْ قَاسِياً على مَنْ حَوْلَكَ**).

المسْلِمُ حَرِيٌّ بِهِ أَنْ يَتَحَلَّى بِمَا يُزَيِّنُهُ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَيَبْتَعِدَ عَنْ كُلِّ مَـا يَشِينُهُ وَيُسِيءُ إِلَيْهِ. وَإِنَّ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ الَّتِي يَـجْدُرُ بِالمسْلِمِ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا: خلُقُ الرِّفْقِ وَاللِّينِ، لا العُنْفِ وَالضَّغْطِ وَالإِرْهَاقِ المبِينِ. وَبِالتَّطْوافِ فِي وَاقِـعِ الحَيَاةِ، وَتَقْلِيبِ النَّظَرِ فِي ثَنَايَاهَا، نَتَبَصَّرُ بعضَ مَوَاضِعِ الضَّغْطِ وَنَتَبَـيَّنُ إِرْشَـادَ الإِسْلامِ فِي كُلٍّ مِنْهَا.

أولاً: ضَغْطُ الإِنْسَانِ وَتَشديدهُ عَلَى نَفْسِهِ بِنَوافِلِ العِبَادَاتِ، وَحِرْمَانُهَـا مِـنْ كَثِيرٍ مِنْ مُبَاحَاتِ الملَذَّاتِ، وَعَدَمُ تَرْويـحِهَا بِمَا شَرَعَ اللهُ مِنْ أَنْـواعِ المبَاحَـاتِ، ممَّا يُصِيبُ الإِنْسَانَ بِالعَنَتِ وَالإِرْهَاقِ، وَيُـدْخِلُ عَلَيْـهِ الفُتُـورَ وَالملَـلَ، وَهَـذَا مُخالَفٌ لِـهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي قَالَ: «**عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ**

لا يَمَلُّ حَتَّى تـَمَلُّوا»[١].

وَنَبَّهَنَا الإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِلى نَحْوٍ مِـنْ ذَلِـكَ فَقَـالَ: أَجِمُّـوا هـذه القُلوبَ، فإنها تَـمَلُّ كـما تَــمَلُّ الأَبْـدانُ[٢]. أَيْ اجْعَلُـوا قِـسْطاً مِـنَ الوَقْـتِ لِلْعِبَادَاتِ، وَقِسْطاً لِلرَّاحَةِ وَمُـمَارَسَةِ الأَنْشِطَةِ وَالمسَلِّيَاتِ المبَاحَاتِ.

وَهَذَا مَا أَكَّدَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي قِصَّةِ الرِّجَالِ الثَّلاثَةِ، الَّذِينَ عَزَمَ أَوَّلُـهُمْ عَلَى أَنْ يُصَلِّيَ اللَّيْلَ أَبَداً، وَعَزَمَ الثَّانِي عَلَى صِيَامِ الدَّهْرِ أَبَداً، وَعَزمَ الثَّالِثُ عَلَى اعْتِـزَالِ النِّسَاءِ وَعَدَمِ الزَّوَاجِ أَبَـداً.. يَتَنَافَسُونَ فِي إِرْهَـاقِ أَنْفُسِهِمْ وَالـضَّغْطِ عَلَيْهَـا وَحِرْمَانِهَا، فَلَمَّا عَلِمَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَـذَا ؟! أَمَـا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[٣]. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٤].

ثانياً: الضَّغْطُ عَلَى الآخَرِينَ، فَمِنْ ذَلِكَ: **الضَّغْطُ عَلَى العَامِلِ؛ سَـواءٌ كَـانَ مُوَظَّفاً أَوْ خَادِماً..**، وَمَنْ مِنَّا لا يَحْفَظُ قَوْلَهُ ﷺ: «**وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»[٥]. وَكَثِيراً مَا أَدَّى الضَّغْطُ عَلَى الموَظَّفِ إِلى نَتَائِجَ سَيِّئَةٍ؛ سَواءٌ عَلَى مُسْتَوى إِنْتَاجِ العَمَلِ أَوْ بَعْضِ مَظَاهِرِ العُنْفِ الَّتِي سَـمِعْنَا وَنَـسْمَعُ مِنْهَا الكَثِيرَ، وَمِنْهَا قَسْوَةِ الـخَدَمِ مَعَ الأَطْفَالِ الصِّغَارِ فِي غِيَابِ الكِبَارِ، وَرُبَّـمَا أَدَّى إِلى حَالاتِ انْتِحَارٍ، فَتَكُونُ أَنْتَ يَا مَنْ أَسَأْتَ المعَامَلَةَ شَرِيكًا فِي هَذَا الإِثْمِ الكَبِيرِ. أَتَى النَّبِيُّ ﷺ أَحَدَ صَحَابَتِهِ، وَهُوَ أَبُو مَسْعُودٍ البَدْرِيُّ ﷺ، وَهُوَ يَضْرِبُ

(١) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥) .
(٢) ذكره المناوي في فيض القدير وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله.
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).
(٤) الأعراف: ٣٢.
(٥) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

غُلاماً لَهُ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**» قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي. فَقَالَ ﷺ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ**». قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا[١].

أَيْنَ القَسوةُ عَلَى الخَدَمِ مِنْ أَخْلاقِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ، بَلْ أَيْنَ هَذَا مِنْ لُطْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ قَالَ: «**إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ، أَوْ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ، فَإِنَّهُ وَلِيَ حَرَّهُ وَعِلاجَهُ**»[٢]. أَيْ إِنَّ هَذَا الخَادِمَ هُوَ الَّذِي تَعِبَ فِي إِعْدَادِ الطَّعَامِ وَطَبْخِهِ لَكَ، وَقَدْ تَهْفُو نَفْسُهُ وَتَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ، فَلا تَنْسَهُ بِنَصِيبٍ مِنْهُ.

ثالثاً: مِنْ صُوَرِ الضَّغْطِ عَلَى الغَيْرِ - إِخْوَانِي الكِرَامَ - **الضَّغْطُ عَلَى الوَلَدِ فِي التَّرْبِيَةِ**، بَعْضُ النَّاسِ يَضْغَطُ عَلَى وَلَدِهِ وَهُوَ يُرَبِّيهِ وَيُؤَدِّبُهُ، فَتَكُونُ تَرْبِيَتُهُ لَهُ تَرْبِيَةَ قَسْوَةٍ وَعُنْفٍ، وَرُبَّمَا كَانَ الضَّرْبُ أَحَدَ صُوَرِهَا المتَكَرِّرَةِ لَدَيْهِ، أَمَا عَلِمْتَ يَا أَخِي أَنَّ الضَّغْطَ عَلَى الولدِ فِي التربِيَةِ يُؤَدِّي إِلَى آثَارٍ نَفْسِيَّةٍ مُدَمِّرَةٍ، فَهُو إِمَّا أَنْ يُؤَدِّيَ إِلى قَتْلِ لِشَخْصِيَّتِهِ وَنُشُوئِهِ عَلَى الخَوْفِ وَالانْعِزَالِ عَنِ المُجْتَمَعِ، أَوْ يُؤَدِّيَ إِلَى أَنْ يُحَوِّلَ الوَلَدُ هَذَا الضَّغْطَ وَالعَنْفَ الَّذِي يُمَارَسُ عَلَيْهِ، إِلَى عُدْوانٍ عَلَى زُمَلائِهِ وَإِخْوَتِهِ، أَوْ يُؤَدِّيَ إِلَى قِلَّةِ المُبَالاةِ بِالتَّوبِيخِ أَوِ الضَّرْبِ وَزَوالِ هَيْبَتِهِ مِنْ نَفْسِهِ.

فَهَلْ كَانَ هَذَا هَدْيَ النَّبِيِّ ﷺ وَأُسْلُوبَهُ فِي التربِيَةِ؟ لقدْ رَأَى - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ - رَيْحَانَتَهُ مِنَ الدُّنْيَا الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَكَانَ طِفْلاً صَغِيراً، رَآهُ أَخَذَ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا الحَسَنُ فِي فِيهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**كِخْ كِخْ، ارْمِ بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٦٠)، ومسلم (١٦٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بِلُطْفٍ يُؤَدِّبُ وَيُرَبِّي، وَيُوَضِّحُ لَـهُ سَـبَبَ نَهْيِـهِ عَـنْ أَكْلِهَـا لِيَكُـونَ أَدْعَـى للاسْتِجَابَةِ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**».

وليسَ معنَىْ ذلـكَ أَن يَـتْرُكَ الآبَـاءُ وَالأُمَّهَـاتُ الحَبْـلَ لِلطِّفْـلِ عَـلَى غَارِبِـهِ، وَيُهْمِلُوا تَقْوِيمَهُ وَتَرْبِيَتَهُ، فَقَدْ يَرى وَلِيُّ أَمْـرِ الطِّفْـلِ فِي بَعْـضِ الحَـالاتِ أَنْ الحَـالَ تَسْتَدْعِي مُعَاقَبَةَ الطِّفْلِ، ورُبَّما ضَرْبَهُ لِتَأْدِيبِـهِ، فَتَتَـذَكَّرُ فِي هَـذَا الـصَّدَدِ قَوْلَـهُ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَـبْعِ سِـنِينَ، وَاضْرِبُـوهُمْ عَلَيْهَـا وَهُـمْ أَبْنَـاءُ عَشْرٍ**»[١]، ومِنْ ثَمَّ قَالَ العُلَمَاءُ: لا يُضْرَبُ الطِّفْلُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ عَشْرَ سَنَواتٍ، وَإِنَّمَا يُرَبَّى بِدِقَّة وَرِقَّةٍ، وَصَبْرٍ وَحِلْمٍ وَأَنَاةٍ. وَلَكِنْ مَا الحكـمُ إِذَا بَلَـغَ الطِّفْـلُ العَـاشِرَةَ؟ لقد سُئِلَ الإِمَامُ أَحْمَدُ – رَحِمَهُ اللهُ – عَنْ ضَرْبِ الـمُعَلِّمِ صِبْيَانَهُ، فَقَالَ: عَـلَى قَـدْرِ ذُنُوبِهِمْ، ويَتوقَّى بِجُهْدِهِ الضَّرْبَ، وَإِذَا كَانَ صَغِيراً لا يَعْقِلُ فَلا يَضْرِبْهُ[٢].

رابعاً: مِنْ صُـوَرِ الـضَّغْطِ عَـلَى الغَـيْرِ ـ أحبتـي الكـرام: إِرْهَـاقُ الزَّوْجَـةِ والعنفُ مَعَهَا وَالضَّغْطُ عَلَيْهَا. فبَعْضُ الأَزْوَاجِ يَقْسُو فِي كَلامِـهِ مَـعَ زَوْجَتِـهِ، يَسُبُّهَا أَوْ يَشْتِمُهَا، وَرُبَّمَا يَضرِبُهَا، فَشَتَّانَ بَيْنَ هَذَا الخُلُـقِ وَبَـيْنَ هَـدْيِ الحَبِيـبِ المصْطَفَى ﷺ وَأَمْرِهِ حِينَ قَالَ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا**»[٣]، وَقَوْلِهِ: «**خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا**»[٤].

وأختِمُ بِقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) ذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي (١١٦٢)، وابن ماجه (١٩٧٨)، وصححه الألباني.

(٥) آل عمران : ١٥٩.

الكلمة ٢٧: الحذية

الهديةُ في ميزانِ الإسلامِ

كَلِمَتُنَا هِيَ (**الحذيّة**).

وَ(الحذيّة) المقْصُودُ بِهَا (الهَدِيَّةُ) كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ عِنْدَكم.

وَقد وَرَدَتْ هذه الكلمةُ فِي لُغَةِ العَرَبِ، فَفِي كِتَابِ «المخَصَّصِ» فِي اللُّغَةِ لابنِ سِيْدَهْ: «الحُذَيَّا والحِذْيَةُ: هَدِيَّةُ البِشَارَةِ أو العطاء».

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَثَلُ الجليسِ الصَّالِحِ مَثَلُ الْعَطَّارِ إِنْ لَمْ يُحْذِكَ مِنْ عِطْرِهِ عَلَقَكَ مِنْ رِيحِهِ، وَمَثَلُ الجلِيسِ السُّوءِ مَثَلُ الْكِيرِ إِنْ لَمْ يُحْرِقْكَ نَالَكَ مِنْ شَرَرِهِ**»(١).

وقال أَبو قِلابةَ:

يَئِسَتْ من الحَذِيَّةِ أُمُّ عَمْرٍو غَداةَ إِذِ انْتَحَوْني بالجَنَابِ

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجَزِ عَلَى المَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِهَذِهِ الكلمةِ، لابدَّ أَنْ نَقِفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ المهمة وَالتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عُنْوانِ: (**الهدِيَّةُ فِي مِيزَانِ الإِسْلامِ**).

وَالهَدِيَّةُ تُقْسَّمُ إِلى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ مُبَاحٌ مَطْلُوبٌ.. وَقِسْمٌ مُحَرَّمٌ مَمْنُوعٌ.

النَّوْعُ الأَوَّلُ: الهَدِيَّةُ المحْبُوبةُ المطْلُوبَةُ: وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ طَرِيقاً إِلى المحَبَّةِ وَصَفَاءِ القُلُوبِ، وَدَفْعِ الشَّحْنَاءِ وَالبَغْضَاءِ، وَهِيَ الَّتِي أَمَرَنَا بِهَا نَبِيُّنَا ﷺ بِقَوْلِهِ: «**تَهَادَوا تَحَابُّوا**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨)، وأحمد (٤/ ٤٠٥) واللفظ له، كلهم عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وحسنه الألباني.

وقد قَبِلَهَا حَبِيبُكُمُ المصْطَفَى ﷺ مِنَ المسْلِمِ وَالكَافِرِ ، وَقَبِلَهَا مِنَ المرْأَةِ، كَمَا قَبِلَهَا مِنَ الرَّجُلِ.

فَعَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ، وَيُثِيبُ عَلَيْهَا»(١). ومعنى يُثِيبُ عليها: أي يُجَازي المهْدي بهديةٍ أيضاً.

إِنَّ لِلْهَدِيَّةِ قِيمةً، وإِنَّ لها أثراً بَالِغاً في النفوسِ ولو كانتْ شيئاً قليلاً. قَالَ – عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**يَا نِسَاءَ المسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ**»(٢).

ولا يلزمُ أن تكونَ الـهَدِيَّةُ مالاً، بَلْ تَشْمَلُ كُلَّ شَيءٍ نافِعٍ، كِتَابًا، شَرِيطًا، ثَوْبًا، ؛ لأَنَّهَا تَسُلُّ السَّخِيمَةَ وَتُذْهِبُ الجَفَاءَ، وَهِيَ أَحْسَنُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ المَالِ، قَالُوا: وَلَوْ أَنَّهَا قَلِيلَةٌ؛ فَإِنَّهَا جَلِيلَةٌ، وَلَوْ كَانَتْ صَغِيرَةً فَإِنَّهَا كَبِيرَةٌ.

وإنَّ مِنْ صُوَرِ الـهَدِيَّةِ القَرْضَ الحَسَنَ، فَإِقْرَاضُ المعْسِرِ وَتَفْرِيجُ كُرَبِهِ أَمْرٌ مُرَغَّبٌ فِيهِ شَرْعاً.

عَنْ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمَانِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ رَجُلًا كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَتَاهُ الملَكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ. فَقِيلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُ. قِيلَ لَهُ: انْظُرْ. قَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئًا، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَأُجَازِيهِمْ، فَأُنْظِرُ الموسِرَ وَأَتَجَاوَزُ عَنِ الـمُعْسِرِ، فَأَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ**»(٣).

إِخْوَتِي وَأَخَوَاتِي القراء الأعزاء: انْظُرُوا، كَمْ مِنْ ضَغِينَةٍ ذَهَبَتْ بِسَبَبِ هَدِيَّةٍ !!

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٧)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٥١).

وَكَمْ مِنْ مُشْكِلَةٍ دُفِعَتْ بِسَبَبِ هَدِيَّةٍ، وَكَـمْ مِـنْ صَـدَاقَةٍ وَمَـحَبَّةٍ جُلِبَـتْ بِسَبَبِ هَدِيَّةٍ ، فَالـهَدِيَّةُ تُزِيلُ غَوَائِلَ الصُّدورِ وتُذْهِبُ الشَّحْنَاءَ مِنَ النُّفُوسِ.

الهَدِيَّـةُ حُلْـوَةٌ، وَهِـيَ كَالـسِّحْرِ تَخْتَلِـبُ القُلُـوبَ، وَتُوَلِّـدُ فِيهَـا الوِصَـالَ وَتَزْرَعُهَا وِدًّا.

إنَّ أَثَرَ الهَدِيَّةِ يَعْظُمُ عِنْدَمَا تُوْضَعُ فِي مَوْضِعِهَا، وأَهَمُّ مَوَاضِعِهَا: الهَدِيَّةُ بَـيْنَ الزَّوْجَيْنِ: فالهديةُ بيـنهما تُعـبِّرُ عَـمَّا يُكِنُّـهُ كِـلا الـزَّوْجَيْنِ لِبَعْـضِهِمَا مِـنْ حُـبٍّ وَإِخْلاصٍ وَوَفَاءٍ. والـهَدِيَّةُ بَيْنَهُمَا لا تَقْتَصِرُ على الأُمُورِ المادِّيَّةِ؛ بَلْ تَشْمَلُ **الهديَّةَ** النَّفْسِيَّةَ، مِثْلَ: الابْتِسَامَةِ، وَطيِّبِ الكَلامِ، وَالثَّنَاءِ العَلَنِيِّ وَالخَـاصِّ، وَالتَـدْلِيلِ وَالطَّاعَةِ، وَالنَّظْرَةِ الحَانِيَةِ، وَحُسْنِ التَّقْدِيرِ للظُّروفِ، وَحُسْنِ الخُلقِ، قال ﷺ: «**ومهما أنفقت فهو لك صدقة، حتى اللقمةَ ترفَعُها إلى فِيِّ امرأتِك**»[1].

وَمَوَاضِعُ الهَدِيَّةِ كَثِيرَةٌ: كالأَصْحابِ، وَالأَرْحَامِ، وَالجِيرَانِ، بَل حَتَّى العَامِلُ والخَادِمُ، وَالكَبِيرُ والصَّغِيرُ فما أروع خُلُقُ التَّهادي إنْ شاعَ وانْتَشَرَ بَيْنَ النّاسِ.

أَمّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَهُوَ الهَدِيَّةُ المحَرَّمَةُ المْنُوعَةُ: وَمِنْهَـا: الهَدِيَّـةُ التـي تُعْطَـى لبَعْضِ الأَوْلادِ دُونَ بَعْضٍ، لما فِي ذَلِكَ مِنَ الـحيفِ وَالظُّلْمِ؛ حَيْـثُ إِنَّ بَعْـضَ النَّاسِ يُعْجِبُهُ بِرُّ بَعْضِ أَوْلادِهِ بِهِ دُونَ بَعْـضٍ، فَيُكَافِئُـهُ عَـلَى هَـذَا بِتَخْـصِيصِ عَطِيَّةٍ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ، وَاللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ يَقُولُ: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[2] .

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ – رَضِيَ اللهُ عَـنْهُمَا – قَـالَ: سَـأَلَتْ أُمِّـي أَبِي بَعْـضَ المْوْهِبَةِ لِي مِنْ مَالِهِ، ثُمَّ بَدَا لَهُ فَوَهَبَهَا لِي، فَقَالَتْ: لَا أَرْضَى حَتَّـى تُـشْهِدَ النَّبِـيَّ ﷺ، فَأَخَذَ بِيَدِي وَأَنَا غُلَامٌ فَـأَتَى بِيَ النَّبِـيَّ ﷺ، فَقَـالَ: إِنَّ أُمَّـهُ بِنْـتَ رَوَاحَـةَ سَأَلَتْنِي بَعْضَ المْوْهِبَةِ لِـهَذَا؟ قَالَ ﷺ: «**أَلَكَ وَلَدٌ سِوَاهُ**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأُرَاهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٤٢).

(٢) المائدة: ٨.

قَالَ: «**لَا تُشْهِدْنِي عَلَى جَوْرٍ**»[١].

وَمِنَ الهَدَايَا الـمُحَرَّمَةِ، مَا يأخُذُهُ المظَفَّ ُ أيًّا كَانَتْ وَظِيفَتُهُ، فهذه رِشْـوَةٌ، وإِنْ سُمِّيَتْ هَدِيَّةً. وَكَذلكَ مَـا يأخُـذُهُ الـشُّهُودُ فِي المحَـاكِمِ جَـزَاءَ شَـهَادَتِهِمْ وَيُسَمُّونَهَا هَدِيَّةً، لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**الرَّاشِي وَالـمُرْتَشِي**»[٢].

«تَهَادَوا تَحَابُّوا».. أسأَلُ اللهَ العليَّ العَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنا إِخْوَةً مُتَحَابِّينَ فِيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٨٠)، وصححه الألباني.

الكلمة ٢٨: حزة

اغْتِنَامُ الوَقْتِ نَجَاحٌ

مَعَ كَلِمَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كَلِمَاتِنَا، أَلا وَهِيَ: (**حَزَّهْ**).

حَيْثُ نَقُولُ فِي لَـهْجَتِنَا العَامِّيَّةِ: (**هَالـحَزَّهْ**) وَنَعْنِي بِهَا (هَذَا الوَقْتَ). وَقَـدْ جَاءَتِ الكَلِمَةُ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى. **قَالَ ابْنُ فَـارِسٍ فِي مُعْجَـمِ مَقَـايِيسِ اللُّغَةِ**: «يُقَالُ: جِئْتُ عَلَى حَزَّةٍ مُنكَرَةٍ، أَيْ حَالٍ وَسَاعَةٍ».

وَقَالَ الزَّبِيْدِيُّ: «وَالْـحَزَّةُ بِالفَتْحِ: السّاعةُ، يُقَالُ: أَيَّ حَـزَّةٍ أَتَيْتَنِـي قَـضَيْتُ حَقَّكَ».

وَبَعْدَ هَذَا الـمُرُورِ الموجَزِ عَلَى المعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لهَذِهِ الكلِمَةِ، لابـُدَّ أَنْ نَقِـفَ مَعَ أَبْعَادِهَا الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ الـمُهمةِ وَالتِي نَضَعُهَا تَحْتَ عُنْوانِ: (**اغْتِنَامُ الوَقْتِ نَجَاحٌ**) .

لَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ - تَعَالَى - بِالوَقْتِ فِي القُرْآنِ الْكَرِيم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[2]، كَمَا أَقْسَمَ اللهُ - تَعَالَى - بِقَولِهِ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾[3]. فَأَقْسَمَ بِهَذِهِ الأَوْقَاتِ لَافِتاً أَنْظَارَ النَّاسِ إِلَى مَا فِيهَا مِنْ مَنَافِعَ.

أَيُّها القارئون الكِرَامُ:

الْوَقْتُ هُوَ عُمُرُ الإِنْسَانِ، وَرَأْسُ مَالِهِ فِي هَـذِهِ الحَيَـاةِ؛ ذَلِـكَ أَنَّ كُـلَّ يَـومٍ يَمْضِي عَلَى الإِنْسَانِ يَأْخُذُ مِنْ عُمُرِهِ وَيُقَرِّبُـهُ إِلَى أَجَلِـهِ، **فَالإِنْـسَانُ عِبَـارَةٌ عَـنْ**

---

(١) العصر : ١، ٢.

(٢) الضحى : ١، ٢.

(٣) الليل : ١.

مَـجْمُوعَةِ أَيام؛ كُلَّ يَوم يُنْزَعُ مِنْهُ وَرَقَةٌ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ أَيَّامُهُ.

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، كُلَّمَا ذَهَبَ يَومٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ».

وَصَلَّى اللهُ عَلَى حَبِيبِنَا وَرَسُولِنَا مُحَمَّدٍ القَائلِ: «**اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِك، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ مَرَضِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ**»[1].

وَهَا هُوَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ يَقُولُ: «مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيءٍ كَنَدَمِي عَلَى يَومٍ غَرَبَتْ شَمْسُهُ، قَرُبَ فِيهِ أَجَلِي، وَلَمْ يَزِدْ فِيهِ عَمَلِي».

وإِنَّ جَرِيمَةَ قَتْلِ الوَقْتِ وَتَبْذِيرِهِ مِنْ أَخْطَرِ الجَرَائِمِ وَأَشَدِّهَا فَتْكًا بِالأَفْرَادِ وَالمجْتَمَعَاتِ، فَهُوَ وَرَاءَ كُلِّ مُشْكِلَةٍ، وَسَبَبُ كُلِّ مُعْضِلَةٍ.

كما أَنَّ هُنَاكَ جُمْلَةً مِنَ **الأَسْبَابِ التِي قَدْ تُؤَدِي - مُجْتَمِعَةً أَوْ مُنْفَرِدَةً - إِلَى الإِخْلالِ بِالأَوْقَاتِ**، وَبَعْضُ هَذِهِ الأَسْبَابِ أَخْطَرُ مِنْ بَعْضٍ؛ لَكِنَّهَا كُلَّهَا مُؤَشِّرٌ عَلَى خَلَلٍ فِي الشَّخْصِيَّةِ، وَلا بُدَّ أَنْ يَتَدَارَكَهُ الـمَرْءُ، فَمِنْ تِلْكَ الأَسْبَابِ مَا يَلِي:

أَوْلاً: عَدَمُ إِدْرَاكِ أَهَمِّيَّةِ الوَقْتِ، وَنِسْيَانُ أَنَّ مَا مَضَى مِنَ الْوَقْتِ لا يَعُودُ وَلا يُعَوَّضُ، فَكُلُّ يَومٍ يَمْضِي وَكُلُّ سَاعَةٍ تَنْقَضِي وَكُلُّ لَحْظَةٍ تَـمُرُّ لَيْسَ فِي الإِمْكَانِ اسْتِعَادَتُهَا، وَبِالتَّالِي لا يُمْكِنُ تَعْوِيضُهَا.

ثَانِياً: الْقُدْوَةُ السَّيِّئَةُ وَمُـجَالَسَةُ مَنْ يُضَيِّعُونَ الوَقْتَ سَبَبٌ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ تَهَاوُنِنَا فِي أَوْقَاتِنَا، فَمُصَاحَبَةُ المحَافِظِينَ عَلَى أَوْقَاتِهِمْ وَمُـخَالَطَتُهُمْ وَالحِرْصُ عَلَى القُرْبِ مِنْهُمْ وَالتَأَسِّي بِهِمْ يُعِينُ عَلى اغْتِنَامِ الوَقْتِ، وَيُقَوِّي النَّفْسَ عَلَى اسْتِغْلالِ سَاعَاتِ العُمُرِ فِي طَاعَةِ اللهِ - تَعَالَى.

---

(١) أخرجه الحاكم (٧٨٤٦) وقال: (صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٧).

ثَالِثاً: تَرْتِيبُ الأَوْلَوِيَّاتِ فِي الأَعْمَالِ، وَفِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأهلك عَلَيْكَ حَقًّا، فَآتِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»(١).

شَبَابَنَا وأَبْنَاءَنَا : حَفِظَ اللهُ عَليكُمْ أَوْقَاتَكُمْ.

أَنْتُمْ عِمَادُ الأُمَّةِ، وَرَصِيدُهَا وَذُخْرُهَا، وَسِرُّ نَهْضَتِهَا، وَبُنَاةُ مَجْدِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا، فَبِصَلاحِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ تَصْلُحُ الأُمَّةُ وَتَسْتَقِيمُ، وَمِنْ أَهَمِّ عَوامِلِ تَحْقِيقِ صَلاحِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ وَعْيُكُمْ بِوَاجِبِكُمْ وَمَلْؤُكُمْ أَوْقَاتَكُمْ بِالنَّافِعِ وَالمُفِيدِ، فإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ وَسُوءَ اسْتِخْدَامِ الفرَاغِ، فإِنَّ ذَلِكَ طَرِيقٌ مِنْ طُرُقِ الفَشَلِ العِلْمِيِّ وَالأَخْلاقِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ.

قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ:

إِنَّ الْفَرَاغَ وَالشَّبَابَ وَالْجِدَهْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ

أَخِي القارئ الْكَرِيمَ: إِنَّ المسْلِمَ مَدْعُوٌّ لاسْتِغْلالِ وَقْتِهِ بِمَا هُوَ مُفِيدٌ فِي دُنيَاهُ وَآخِرَتِهِ. وَنَحنُ لا بُدَّ لَنَا مِن اسْتِغْلالِ أَوْقَاتِنَا بِالمفِيدِ، وَإِلَيْكَ أَخِي القارئ بَعْضَ الطُّرُقِ لاسْتِغْلالِ وَقْتِكَ.

أَوْلاً: **التَّفْكِيرُ**: بِأَنْ نُفَكِّرَ تَفْكِيرًا إِيجَابِيًّا فِي التَّخْطِيطِ لأَعْمَالِنَا، فَكَمْ مِنْ فِكْرَةٍ خَطَرَتْ فِي الوَقْتِ، يَنْتَفِعُ بِهَا المَرْءُ انْتِفَاعًا عَجِيبًا إِنْ طَبَّقَهَا - فِيمَا بَعْدُ.

ثَانِياً: الاسْتِمَاعُ لِشَرِيطِ مُحَاضَرَةٍ أَوْ دَرْسٍ فِي سَيَارَتِكَ أَثْنَاءَ تَنَقُّلِكَ بَدَلَ التَّفْكِيرِ العَشْوَائِيِّ وَالفَوْضَوِيِّ.

وَأَيْضاً اسْتِغْلالُ وَقْتِ الذَّهَابِ إِلى المسْجِدِ فِي الطَّرِيقِ بِالسَّلامِ عَلَى الكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ، وَمُسَاعَدَةِ مُحتَاجٍ وَمَلْهُوفٍ، والذِّكْرِ، وَقِرَاءَةِ بَعْضِ الآيَاتِ التِي يَحْفَظُهَا.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨).

وَأَنْتِ أُخْتِي القارئةُ الْكَرِيمَةُ: وَأَنْتِ تَطْبُخِينَ أَوْ تُنظِّفِينَ اسْتَغِلِّي هَذَا الْوقْتَ فِي العِبَادَةِ بِسماعِ شَرِيطٍ قُرْآنِيٍّ، أَوْ دَرْسٍ، أَوْ مُحَاضَرَةٍ، أَوْ اشْغِلِي ذَلكَ بِالذِّكْرِ وَالاسْتِغْفَارِ.

قَالَ مُحَمَّدُ إِقْبَال فِي وَصفِ فَاطمةَ - رَضيَ اللهُ عَنْهَا:

فَمُهَا يُرَتِّلُ آيَ رَبِّكَ بَيْنَمَا   يَدُهَا تُدِيرُ عَلَى الشَّعِيرِ رَحَاهَا

وأخيرًا: اللهَ اللهَ فِي أَوْقَاتِنَا أَنْ تَضِيعَ هَبَاءً مَنْثُوراً، فَإِنَّ الوَقْتَ هُوَ الحَيَاةُ، وَإِنَّ العُمُرَ قَصِيرٌ، يَضِيعُ بَيْنَ التَّسْويفِ وَالانْشِغَالِ، فَالعَّيِد مُنَ خَاَف.

«وَمَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ الله غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ» [1].

اللهُمَّ اغْفِرْ لنَا تَقْصِيرَنا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَاحْفَظْ عَلَيْنَا دِينَنَا وَوَقْتَنَا.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)، وصححه الألباني.

الكلمة ٢٩: دغر

كُنْ مُتأنّياً

كَلِمَتُنَا هِيَ (**دَغَر**).

نَقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: فُلانٌ يدَغَر: أَيْ يُهَاجِمُ دُونَ تَثَبُّتٍ وَلا تَرَدُّدٍ.. وَهَذِهِ الكَلِمَةُ لها جُذُورٌ فِي لُغَةِ العَرَبِ.

قَالَ فِي لِسَانِ العَرَبِ: دَغَرَ عَلَيْهِ: اقْتَحَمَ وَحَمَلَ عَلَيْهِ حَمْلَةً مُنْكَرَةً مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ، وَمِنَ أَمْثِلَةِ العَرَبِ: دَغْراً لا صَفَّا، أي ادْغَرُوا أَعْدَاءَكُمْ وَهَاجِمُوهُمْ وَلا تُصَافُّوهُم.

وَبَعْدَ مَعْرِفَةِ أَصَالَةِ كَلِمَتِنَا فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، نَنْتَقِلُ مَعَكُم لِلتَّعَرُّفِ إِلى التَّوْجِيهِ الإِسْلامِيِّ لِـهَذِهِ الكَلِمَةِ، والذي نضعُهُ تَحْتَ عُنْوانِ: (**كُنْ مُتَأَنِّياً**).

أَيُّهَا الإِخْوَةُ القارئونَ: إِنَّ مِنْ أَخصِّ صِفَاتِ النَاجِحِينَ فِي حَيَاتِهِمْ: التَأَنِّي فِي الأُمُورِ، وَعَدَمَ الإِقْدَامِ الـمُتَهَوِّرِ وَغيرِ المحْسُوبِ، وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**التَأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»[1].

وَجَاءَ فِي الحِكْمَةِ: **فِي التَأَنِّي السَّلامَةُ وَفِي العَجَلَةِ النَّدَامَةُ**. وَلَقَدْ ضَرَبَ لَنَا الرَّسُولُ ﷺ مَثَلاً وَاضِحاً فِي التَأَنِّي وَأَثَرِهِ فِي إِنَجَاحِ المَشْرُوعِ وَالهَدَفِ الَّذِي نُرِيدُ، فَمَثَلاً حِينَ هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ المكَرَّمَةَ إِلى المَدِينَةِ المَنَوَّرَةِ، وَاخْتبَأَ فِي غَارِ ثَوْرٍ، ظَلَّ فِيهِ ثلاثة أَيَامَّ متأنِّياً متروِّياً، حَتَّى هَدَأَ بَحْثُ قُرَيْشٍ عَنْهُ وَعَنْ صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ.

وَالسِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ ذَاخِرَةٌ بِالأَمْثِلَةِ الرَّائِعَةِ فِي تَأَنِّي رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وكَمْ مِنْ مَشْرُوعٍ فَشِلَ بِسَبَبِ العَجَلَةِ! وَكَمْ مِنْ مُشْكِلَةٍ وَقَعَتْ بِسَبَبِ التَّسَرُّعِ وَعَدَمِ التَّخْطِيطِ السليمِ والدقيقِ لِلعَوَاقِبِ، أَخِي (**كُنْ مُتَأَنِّياً وَلا تَتَعَجَّلْ**).

---

(١) أخرجه البيهقي (٩/ ٣٩٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٩٥).

وَشَبَابُنَا هُمْ سَوَاعِدُنَا وعُدَّتُنا بَعْدَ اللهِ- تَعَالَى، نُرِيدُ مِنْ هَذِهِ الفِئَةِ المبَارَكَةِ أَنْ تَتَأَنَّى فِي مَشَارِيعِهَا وَأَهْدَافِهَا، وَأَنْ تَثْبُتَ لِتَقْطِفَ الثَّمَرَ الطَّيِّبَ الـمَطْلُوبَ.

الاقْتِحَامُ وَالإِقْدَامُ بِغَيْرِ تَأَنٍّ يَنْقَسِمُ إِلى قِسْمَيْنِ: **إِمَّا مَـحْمُودٌ، وَإِمَّا مَذْمُومٌ.**

القسمُ الأولُ: الإقدامُ الـمَحْمُودُ، ولهُ عدةُ صورٍ، منها:

أولاً: الإقدامُ على الأَعْمَالِ الصَّالِـحَةِ، وَلِذا نَرَى رَبَّنَا عِنْدَ الدَّعْوَةِ لِلطَّاعَاتِ تَارَةً يَقُوْلُ: (وَسَارِعُوا) وَتَارَةً ثَانِيَةً يَقُولُ: (سَابِقُوا). وَرَسُـولُنَا المـصْطَفَى ﷺ يَقُولُ: «**التُّؤُدَة فِي كُلِّ شَيءٍ إِلا فِي عَمَلِ الآخِرَةِ**»[1]. أَي: التَأَنِّي وَعَدَمُ الاقْتِحَامِ مطلوبٌ إلا في سُرْعَةِ انْتِزَاعِ نَفْسِكَ مِنَ الدُّنْيَا لإِشْغَالِـهَا بِأَعْمَالِ الآخِرَةِ وَالبَدْءِ فِيهَا.

ثانياً: الإقْدَامُ على الإنفاقِ بلا خـوفٍ ولا تـرددٍ «**أَنْفِـقْ وَلا تَخَـفْ مِـن ذِي العَرْشِ إِقْلالا**»[2].

ثالثاً: الإقْـدامُ فِي صِـلَةِ الأَرْحَـامِ وَإِنْ هُـمْ قَـاطَعُوكَ ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[3].

أما القسمُ الثَانِي- وهو الإِقْدَامُ المذْمُومُ، فَيُمْكِنُ تَلافِيهِ بِالتَأَنِّي كَمَا فِي الأُمُورِ الآتِيَةِ:

أولاً: نَحْنُ نَحْتَاجُ إِلى التَأَنِّي فِي **الكَلِمَةِ** الَّتِي نَقُولُـهَا، فَكَمْ مِنْ كَلِمَةٍ فَرَّقَتْ بَيْنَ الأَحِبَّةِ وَالخِلّانِ، وَكَمْ مِنْ زَوْجٍ تَسَرَّعَ بِكَلِمَةِ الطَّلَاقِ فَأَفْسَدَ بَيْتَهُ وَحَيَاتَهُ!! وهيَ كَلِمَةٌ سَهْلَةٌ عَلَى اللِّسَانِ، وَلَكِنَّ عَوَاقِبَهَا خَطِيرَةٌ، وسُرْعَانَ مَا يَنْدَمُ عَلَيها.

وَكَمْ مِنْ فِتْنَةٍ وَقَعَتَ بَكَلِمَةِ نَمِيمَةٍ، وَلَوْ عُدْنَا إِلى أَنْفُـسِنَا لَوَجَـدْنَا أَنَّ كَثِـيراً مِنَ المَشَاكِلَ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَخَاصَّةً بَيْنَ الجِيرَانِ وَالأَقَارِبِ إِنَّمَا تَقَعُ بِسَبَبِ الكَلِمَـةِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١٠)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٣٤٠) (١٠٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٦١).

(٣) فصلت: ٣٤.

الَّتِي تُقَالُ، وفي الغالبِ هيَ كلمةٌ باطلةٌ مكذوبةٌ!!

أَيُّهَا الإِخْوَةُ: لَيْسَتِ الرُّجُولَةُ أَنْ تَعْبَثَ بِالأَلْفَاظِ وَالمشَاعِرِ، وَلَكِنَّ الرُّجُولَةَ: أَنْ تَحْسِبَ عَوَاقِبَ الأُمُورِ بِدِقَّةٍ، فَلا تَتَعَجَّلْ بِلَفْظٍ إِلا بَعْدَ التَّحَرِّي وَالتَّثَبُّتِ وَمَعرِفَةِ مَا ستُفْضِي إِلَيْهِ الكلمةُ التي تخرجُ، وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ التَّسَرُّعِ فِي الكَلِمَةِ، فَقَالَ ﷺ: «**وإن العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ الله لا يُلْقِي لها بالاً، يهوي بِهَا في جهنَّمَ**»[1].

ثانياً: نَحْنُ نَحْتَاجُ إِلى التَأَنِّي فِي نَقْلِ الخَبَرِ وَتَصْدِيقِهِ، وأكثرُ النَّاسِ اليومَ يَتَعَامَلُونَ بِعَوَاطِفِهِمْ، فَمَا أَكْثَرَ مَا يُقَالُ لأَحَدِنَا: فُلانٌ تَكَلَّمَ فِيكَ كَلاماً مُشِيناً، فَنُسَارِعُ فِي مُقَاطَعَتِهِ وَالخَوْضِ فِي عِرْضِهِ بِمُجَرَّدِ خَبَرٍ!! المنْهجُ الحقُّ هو التَّثَبُّتُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[2].

وَقَدْ كَانَ مِنْ خُلُقِ نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ، مَا جَعَلَهُ عِنْدَ مَجِيءِ الهُدْهُدِ إِلَيْهِ بِخَبَرِ سَبَأٍ، أن قَالَ لَهُ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[3]، وعلى الإِنْسَانِ حِينَ سماعِهِ الخبرَ أَن يَتَرَوَّى وَلا يَنْشُرَهُ حَتى يَتَحَقَّقَ مِنْهُ، ولكِنْ لِلأَسَفِ الشَّدِيدِ شَهْوَةُ النَّشْرِ قَبْلَ الآخَرينَ تَدْفَعُ إِلى التَّهَوُّرِ وَالتَّسَرُّعِ، فتكُونُ النَّتِيجَةُ أَحْيَاناً آثَاراً خَطِيرَةً مُضَاعَفَةً.

فَلا تَتَعَجَّلْ **أَخِي** فِي أَيِّ خُطْوَةٍ إِلا بَعْدَ التَّثَبُّتِ وَمَعْرِفَةِ العَوَاقِبِ، فَكَمْ مِنْ جرِيمةٍ وقعَتْ فِي حقِّ الزَّوْجَاتِ لِمُجَرَّدِ الخَبَرِ الكَاذِبِ، وَكَمْ مِنْ قَطِيعَةٍ بَيْنَ الأَرْحَامِ حَصَلَتْ بِمُجَرَّدِ نَقْلِ كَلامٍ مَكْذُوبٍ، وَالأَمْثِلَةُ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنَّ المهمَّ أَنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٨).
(٢) الحجرات: ٦.
(٣) النمل: ٢٧.

نُقْدِمَ بَعْدَ التَأَكُّدِ وَالتَّثَبُّتِ.. حَتَّى لا نَقَعَ فِي النَّدَامَةِ.

ثالثاً: كُنْ مُتَأَنِّياً فِي الأَعْمَالِ وَالتَّصَرُّفَاتِ؛ فَالتَأَنِّي يُورِثُ إِتْقَانَ العَمَلِ وَتَجْوِيدَهُ وَأَدَاءَهُ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي يُرْضِي اللهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ**»[1] .

أحبتي: نَحْنُ نَحْتَاجُ إِلى خُلُق التأنِّي والترَوِّي لِنَتَفَادَى كَثِيراً مِنَ الخِلافَاتِ والعداواتِ بَيْنَ الأَقَارِبِ وَالجِيرَانِ، وَالَّتِي مَرْجِعُهَا إِلى التَّسَرُّعِ.

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، نَسْأَلكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ.

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٣٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠).

الكلمة ٣٠: كع

أقدمْ.. لا تتراجع

نَخْتِمُ أَصِيلِينَ يَا هَلِي، بِهَذِهِ الكَلِمَةِ المُنَاسِبَةِ لِلْخِتَامِ وَهِي كَلِمَة: (كعَّ).

نَقُولُ فِي العَامِّيَّةِ: كَعَّ فُلانٌ: أَيْ جَبُنَ وَتَرَاجَعَ، وَلَمْ يَجْسُرَ عَلَى التَّقَدُّمِ.

وَجَاءَتْ هَكَذا فِي لُغَةِ العَـرَبِ، قَـالَ فِي لِسَانِ العَـرَبِ: كَـعَّ يَكِـعُّ وَيَكُـعُّ وتَكَعْكَعَ: هَابَ القَوْمَ وَتَرَكَهُمْ بَعْدَمَا أَرَادَهُمْ، وَجَبُنَ عَنْهُمْ.

وَفِي الخِتَامِ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنَا وَإِيَّاكُمْ عَلَى الاسْـتِمْرَارِ فِي العَمَـلِ الـصَّالِحِ فَهُو أَصْلٌ فِي دِينِنَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[1]، وَنبيُّنَـا ﷺ كانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجُبْنِ فَيَقُول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ وَالـجُبْنِ وَالبُخْلِ وَالهرَمِ وَعَذَابِ القَبْرِ**»[2].

أيها الأحبَّةُ القراء الكرامُ: الجبْنُ والتَّراجُعُ ينقَسِمُ إلى نَوْعَينِ:

النوعُ الأوَّلُ : حَالٌ يُذَمُّ فِيهَا.

النَّوعُ الثاني: حَالٌ يُمْدَحُ فِيهَا.

أَوَّلاً : الحالُ المذْمُومَةُحِين يجبَنُ الإنسانُ ويَضْعُفُ عَنْ مُوَاجَهَةِ أَعْدَاءِ اللهِ، وَعَنْ نُصْرَةِ دِينِ اللهِ وَنُصْرَةِ نَبِيِّهِ. حِينَ ظَهَرَتِ الرُّسُومُ السَّاخِرَةُ مِنَ نَبِيِّنَا مُحَمَّـدٍ ﷺ كَانَ لِـمُعْظَمِ المسْلمِين مَوقفٌ جَـرِيءٌ فِي الـدِّفَاعِ عَـنْ حَبِيـبِهِمْ وَنَبِـيِّهِمْ، وَلَكِنْ كانَ لِبَعْضِهِم الموقفٌ ضعيفٌ مترَدِّدٌ.

وإِذَا كَانَ انْتِهَاكُ مُقَدَّسَاتِ المسْلِمِينَ وَالتَّطَـاوُلُ عَـلَى رُمُـوزِهِمْ لايَسْتَحِقُّ مِنْكَ أَنْ تَغْضَبَ، وَتَقُومَ بِمَا عَلَيْكَ نُصْرَةً لَدِينِكَ، فَأَخْبِرْنِي مَتَى تَغْضَبُ؟

ثانياً : أَمَّا الجُبْنُ التراجُعُ المحمُودُ: **إِنْ كَانَ جُبْناً عَـنِ الوُقُـوعِ فِي البَاطِـلِ،**

---

(١) الحجر: ٩٩.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦، ٢٧٢٢).

وَضَعْفاً عَنِ الانْغِمَاسِ فِي المَسَاوِئِ وَالمعَاصِي وَخوْفاً مِنْ غَضَبِ اللهِ وَسَطْوَتِهِ، كَمَا قَالَ – تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[1]، وقال – سبحانه: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[2].

فَمَا أَجْمَلَ الجُبْنَ عَمَّا يُسْخِطُ الجَبَّارَ – جَلَّ جلالُهُ، وَمَا أَنْفَعَ الخَوفَ مِنْ عِقَابِ الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[3]، فَالحَكِيمُ هُوَ مَنْ يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ فِي الموْضِعِ الَّذِي يُنَاسِبُهُ، فالتَّهَوُّرُ نَقِيْصَةِ وَخُلُقٌ ذميم، كما أن الجبنْ والخورَ خلقٌ ذَمِيمٌ، وَبَيْنَهُمَا شَجَاعَةٌ تُمْدَحُ إِنْ كَانَتْ فِي مَوَاضِعِهَا.

إنَّ الجبْنَ لهُ آثارٌ ذَمِيمةٌ على صَاحِبِهِ، ومنْهَا :

أَوَّلاً: تَفْرِيطُهُ فِي مَبَادِئِهِ وَمُعْتَقَدَاتِهِ، فَالجَبَانُ لَيْسَ لَهُ مَبْدَأٌ ثَابِتٌ، وَلا حُرْمَةٌ تستحق الدِّفَاعَ عَنْهَا وَالتَّضْحِيَةَ فِي سَبِيلِهَا، وَلِذَا تَرَاهُ سَرِيعَ الفِرَارِ فِي مَوَاطِنِ البَذْلِ وَالفِدَاءِ وَالإِقْدَامِ. يَقُولُ الفَارُوقُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ: «الجَبَانُ يَفِرُّ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَالجَرِيءُ يُقَاتِلُ عَمَّا لا يَؤُوبُ إِلى رَحْلِهِ».

ثَانِياً: أنه يُحَاوِلُ تَغْطِيَةَ جُبْنِهِ وسَتْرَ خَوَرِهِ بعَرْضِ عَضَلاتِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، فتراهُ جَبَّاراً فِي السِّلْمِ خَوَّاراً فِي الحَرْبِ.

أيُهَا الإِخوَة القراء: إِنَّمَا كَانَ الجبْنُ وَالخَورُ عِنْدَ أَصْحَابِهِ: لِتَعَلُّقِ الجَبَانِ بِالدُّنْيَا تَعَلُّقًا لَيْسَ لَهُ حُدُود.. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[4].

إنّ رَسولَ اللهِ ﷺ هو قُدْوَتُنا، فتعالوا أحبتي لنتعرفَ كيفَ كَانَ حَالُ النَّبِيِّ

(١) البقرة : ٤٠.

(٢) إبراهيم : ١٤.

(٣) المؤمنون: ٦٠ ، ٦١.

(٤) التوبة : ٣٨.

ﷺ صحابته؟ لقد وصف نفسه - صلوات الله وسلامه عليه - فقال: «**لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً**»(١)، وحين انهزم عنه جل أصحابه في حنين لم ينهزم؛ بل ثبت وكشف عن نفسه لأعدائه، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ووصفه أنس خادمه رضي الله عنه، فقال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس»(٢). أما سير أصحابه فكانت كسيرته، ومن صور بطولاتهم الرائعة ما رواه أنس بن مالك؛ أن أنس بن النضر تغيب عن قتال بدر، فقال: تغيبت عن أول مشهد شهده النبي ﷺ، لئن رأيت قتالاً ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد، انهزم أصحاب النبي ﷺ، أقبل أنس فرأى سعد ابن معاذ منهزماً، فقال: يا أبا عمرو، أين أين؟ قم، فوالذي نفسي بيده، إني لأجد ريح الجنة دون أحد، فحمل حتى قتل، فقال سعد بن معاذ: فوالذي نفسي بيده، ما استطعت ما استطاع، فقالت أخته: فما عرفت أخي إلا ببنانه، ولقد كانت فيه بضع وثمانون ضربة، من بين ضربة بسيف، ورمية بسهم، وطعنة برمح، فأنزل الله - عز وجل - فيه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾(٣)(٤).

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٣) الأحزاب: ٢٣.

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣).



الفصل الثاني
قديم المساجد

مقدمة

لَكَ الْـحَمْدُ رَبِّي حَمْدَ الذَّاكِرِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ المرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَبعْدُ:

يعتبر المسجد من أهم الأبنية التي تميز المعالم المعمارية الدينية في الحضارة الإسلامية، فقد اتسمت المساجد على اختلاف أماكنها بالتنوع في منشآتها ومكوناتها المعمارية والثراء في عناصرها الزخرفية.

وفي بداية الأمر كانت المساجد الأولى في الإسلام بسيطة في تخطيطها الذي يتناسب مع شعائر الدين الجديد، فكان الغرض من بنائها هو إقامة صلاة جماعية على قطعة من الأرض تحاط بجدران أربعة، وكان السقف مُقاماً على أعمدة مصنوعة من جذوع النخل .

ثم لم تلبث المساجد الإسلامية أن أصبح لها نظام عام متشابه مع اختلاف في التصميم، وقد حدث تطور في تصميم المساجد من السعة والكبر والزخرفة والفرش، ولكن تبقى المساجد القديمة والأثرية شاهدة على أصالة الدين والإسلام في الحضارة القديمة، وباعثا على الزهد في الدنيا وأداء العبادة بعيدا عن زخرف الحياة.

والكويت مدينة تزخر بعدد كبير من المساجد القديمة والأثرية، ولم يقتصر دور بعض هذه المساجد على الهدف التعبدي كأداء الصلوات وإلقاء الخطب أيام الجمعة والأعياد والمناسبات الدينية فقط، بل كان لها دور تعليمي؛ إذ جمعت في مهمتها بين دور المسجد الجامع والمدرسة.

وإن المحافظة على أصالة هذه المساجد بترميمها ومعرفة تاريخها وتأسيسها وتكويناتها الرئيسية القديمة يحقق عدداً من الأهداف فيما نرى وهي:

١ - تذكير الأجيال الجديدة بما كان عليه الأجداد، وربط الماضي بالحاضر.

٢- المحافظة على طريقة البناء القديمة قدر الإمكان؛ للتعرف على أسلوب ونمط حياة الأجداد.

٣ - المحافظة على وقفية المسجد.

٤ - تأسيس التاريخ الماضي وربطه بالحاضر والمستقبل، وإثبات حالة الحياة الاجتماعية السائدة في تلك العصور.

٥ - دراسة التطور المعماري والهندسي القديم.

وقد كتبنا هذا الفصل للتعرف على تاريخ المساجد القديمة في بلدي الكويت، تاريخاً وتأسيساً وترميماً، ثم نلحق هذا التاريخ الحضاري بموعظة ترق لها القلوب، وتصفو لها النفوس.

المحاضرة (١)

السَّجينُ بِحَقٍّ

أَيهَا الأَحبَابُ القراء الْكرَامُ، سنُطِلُّ عَليكُمْ في هذا الفصل بلطَائِفَ إِيمَانِيةٍ جَدِيدَةٍ، نَفتحُ بها لَكم نَافِذةً جَدِيدةً عَلَى إِرثٍ محرَابِيٍّ، سَطَّرَ سِيرَةَ الأَجدَادِ وَدَوَّنَ خَبَرَ العُلَماءِ الأَفذَاذِ، وَالذِي نُسَمِّيهِ تحتَ عُنوَانِ (قَدِيم المسَاجِدِ)، وَفيهِ سَنَتنَاوَلُ أَخبَارَ جَمِيعِ مَسَاجِدِنَا الأَثرِيةِ تَأْسِيساً وَتَرمِيماً وَتَحْدِيثاً، وَقَد اسْتَقينَا أَغلَبَ مَعلُومَاتِنَا مِن كِتَابِ (تَارِيخُ مَسَاجِدِ الْكُويت الْقَديمَةِ) لِلشَّيخِ الْبَحَّاثَةِ عَدنَان بن سالم الرُّومِي، وَنَبدَأُ أَول رِحلَتِنَا الأَثرِيَّةِ المحرَابِيةِ مِنْ (**مُحَافَظةِ الْعَاصمَةِ**) مِنْ (**مَنطِقَةِ الْقِبْلَةِ**).

١ـ وَأَقدمُ مَسْجِدٍ فِيها مَسْجِدُ (**ابنْ بَحر الْفرضَة**) الَّذِي كَانَ يَقعُ إِلَى الْجَنُوبِ مِنَ الموقع السَّابِقِ لِدَائِرةِ الْجَمَارِكِ مُقَابِلَ قَصْرِ السِّيفِ، وَأَغلَبُ الظَّنِّ أَنهُ قَدِيمٌ بِحَيْثُ لا يُعرَفُ مُؤَسِّسُهُ، وقِيلَ: إنَّ مُؤسسهُ هُوَ (**إِبْرَاهيمُ بن عَبدِ اللهِ الْبَحر**)، مَرَّ هَذَا المسْجِدُ بِعِدَّةِ تَجْدِيدَاتٍ أَوَّلُهَا فِي سَنَةِ (١٧٤٥م)، ثُمَّ جُددَ ثَانياً عَامَ (١٨٥٨م)، وَمِنْ ثَمَّ قَامَتِ الأَوقَافُ فِي عَامِ (١٩٥٦م) بِتَرمِيمِهِ ثَالِثاً، أَمَّ فِيهِ لَفِيفٌ مِنَ العُلَماءِ الأَفَاضلِ. وَذَكرَ الشّيخُ إِبرَاهِيمُ الْجَرَّاحُ أَنَّهُ حَضَرَ فِيهِ دَرْساً لِلشّيخِ أَحمَدِ الْفَارِسِي بَعدَ الْعَصرِ وَكَانَ مِن ضِمنِ الحُضُورِ الشّيخُ سَالم الصّبَاح.

٢ـ وَفِي بَرَاحَةِ الفَلاحِ مِنْ مَنطِقَةِ الْقبلَةِ شَرقِي مُتحَفِ الْكُويتِ مَا زَالَ مَسجِدُ (**ابْن شَرهَان**) وَاسْمُهُ نِسْبَةً لِإِمامِهِ عَبدِ اللهِ الشرْهَان، وَيُطلَقُ عَليهِ مَسجِدَ الْبَدْر، أَسّسَهُ عبد الله بن محمد مرزوق البدر عَامَ (١٨١٣م)، وَتَولَّتِ الأَوقَافُ إِعَادَةَ بِنَائِهِ عَامَ (١٩٥٦م).

٣ـ وَمِنْ مَسَاجِدِ الْقِبلَةِ- أَيُّهَا الأَحبَابُ- مَسْجِدُ (**نَاصِر الْبَدر**) الَّذِي أُسِّسَ عَامَ (١٨٩٧م)، وَمِنْ ثَمّ انْتَقَلَ إِلَى غِرْنَاطَة عَامَ (١٩٩٨م).

أَعِزَّائِي القراء الْكِرَامَ، وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجزِ عَلَى الْآثَـارِ وَأَخْبَـارِ الْأَئِمَّـةِ الْكِبَارِ تعالوا نَسْتَمِعْ لِلْمَوَاعِظِ الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ المهِمَّةِ، وَمَوْعِظَتُنَا الْيَوْمَ بِعُنْوَانِ: (**السَّجِينُ بِحَقٍّ**).

إِنَّ جَوَارِحَكَ- أَخِي القارئ- كُلَّهَا مُرْتَبِطَةٌ بِلِسَانِكَ، قَالَ ﷺ: «**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ** ـ أَيْ تَخْضَعُ لَهُ- **فَتَقُـولُ: اتَّـقِ اللهَ فِينَـا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**»[1]، فَاللِّسَانُ نِعْمَةٌ عُظْمَى، صَغِيرٌ حَجْمُهُ، عَظِيمٌ طَاعَتُهُ وَجُرْمُهُ، وَلأَنَّ القَاعِـدَةَ الأصـولية تَقُولُ: (**دَرْءُ المفَاسِدِ مُقَدَّمٌ عَـلَى جَلْـبِ المصَـالِحِ**) كَـانَ لا بُـدَّ مِـنْ مَعْرِفَـةِ شَرِّ اللسَانِ وَآفَاتِهِ قَبْلَ حَسَنَاتِهِ، مِنْ بَابِ:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرِ بَلْ لِتَوقِيهِ   وَمَـنْ لا يَعْرِفُ الشَّـرَّ يَقَـعْ فِيـهِ

وَلِذَا أَيُّهَا الْأَحْبَابُ نَتَعَرَّفُ الْيَوْمَ عَلَى آفَاتٍ مِنْ حَصَائِدِ الْأَلْسُنِ، كَيْ نَحْتَرِزَ مِنْهَا، وَمِنْ أَهَمِّها:

الآفَةُ الأولَى: الشِّرْكُ بِاللهِ- تَعَالَى- وَالْقَوْلُ عَلَيهِ بِغَيرِ عِلْـمٍ: وَهُـوَ مِـنْ أَعْظَـمِ آفَاتِ اللِّسَانِ، يَقُولُ الْـحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ: «إِنَّ مَعْصِيَةَ النُّطْقِ يَدْخُلُ فِيْهَا الشِّرْكُ وَهُوَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ عِندَ اللهِ- عَزَّ وَجَلَّ- وَيَدخُلُ فِيهَا الْقَولُ عَلَى اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ».

الآفَةُ الثَّانِيَةُ: الْغِيبَةُ وَالْبُهتَانُ: وَالمغتَابُ هو الذِي يَـذكُرُ غَـيرَهُ بِـمَا فِيـهِ مِـنَ المكرُوهِ فِي خَلْقِهِ، أَو خُلُقِهِ، أَو مَالِهِ، أَو وَلَدِهِ، أَو زَوْجِهِ، أَو غَيرِ ذَلكَ مِمَّا يَتَعلَّقُ به، سَوَاءٌ كان كَلاماً أَمْ غَمْزاً أَمْ إِشَارَةً أَمْ كِتَابَةً.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧)، وحسنه الألباني.

وَالْبَهْتُ: أَشَدُّ مِنَ الْغِيبَةِ ، (وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ المرءُ غَيرَهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ) كَمَا وَرَدَ فِي الْـحَدِيثِ الصَّحِيحِ، وَكَلِمةُ المغْتَابِ لَو وَقَعتْ فِي الْبَحرِ لَغَيّرَتْ طَعْمَهُ، وَيَكفِي فِي ذَمِّهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(١)، يقُولُ الْـحَسَنُ البصري- رَحِمَهُ اللهُ: «وَاللهِ لَلْغِيبَةُ أَسْرَعُ فِي دِينِ الرَّجُلِ مِنَ الأَكَلَةِ فِي الْـجَسَدِ».

أَخِي القارئ: إِذَا لَطَّخْتَ لِسَانَكَ بِالْكَذِبِ فَلَنْ تَلْقَى مِنَ اللهِ إِلا الْعُقُوبَةَ، وَمِنَ النَّاسِ إِلا الازْدِرَاءَ وَالانْتِقَاصَ، **فَالكَذِبُ الآفَةُ الثالِثَةُ** مِنْ عَثَرَاتِ اللِّسَانِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الحديثِ الصَّحِيحِ أَنَّ عُقُوبَةَ الْكَذَّابِ شَقُّ شِدْقَيْهِ، وَقَالَ النَّوَوِيُّ: قَدْ تَظَاهَرَتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى تَحْرِيمِ الْكَذِبِ فِي الْـجُمْلَةِ، وَهُوَ مِنْ قَبَائِحِ الذُّنُوبِ وَفَوَاحِشِ العُيُوبِ وَخُلُقِ المنَافِقِينَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**آيَةُ المنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»(٢).

غَيرَ أَنَّهُ رُخِّصَ لَنَا فِي التَّوْرِيَةِ عَنْ ذِكْرِ الْـحَقِيْقَةِ، قَالَ ﷺ: «**لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**»(٣)، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِباً إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الحَرْبِ، وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثِ الْـمرْأَةِ زَوْجَهَا.

الآفَةُ الرَّابِعَةُ: المؤْمِنُونَ كَالْبُنْيَانِ المرْصُوصِ يَهْدِمُهُ اللِّسَانُ بِالنَّمِيمَةِ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَ النَّاسِ بِنَقْلِ الْكَلَامِ بَيْنَهُمْ لِغَرَضِ الْإِفْسَادِ، وَقَدْ جَاءَ فِي عُقُوبَةِ النَّمَّامِ: «**لا يَدْخُلُ الْـجَنَّةَ نَمَّامٌ**»(٤)، وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلاً اشْتَرَى غُلَامَاً نَمَّاماً، فَمَكَثَ الْغُلامُ عِنْدَهُ أَيَّاماً، ثُمَّ قَالَ لِزَوْجَةِ مَوْلاهُ: إِنَّ زَوْجَكِ لا يُحِبُّكِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ

(١) الحجرات: ١٢.
(٢) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).
(٤) أخرجه مسلم (١٠٥) عن حذيفة رضي الله عنه.

عَلَيْكِ، أَفَتُرِيدِينَ أَنْ يَعْطِفَ عَلَيْكِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ لَهَا: خُذِي الموسَ وَاحْلِقِي شَعَرَاتٍ مِنْ بَاطِنِ لِحْيَتِهِ إِذَا نَامَ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى الزَّوْجِ، وَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتَكَ اتَّخَذَتْ صَاحِباً وَهِيَ قَاتِلَتُكَ، أَتُرِيْدُ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَتَنَاوَمْ لَهَا، فَتَنَاوَمَ الرَّجُلَ، فَجَاءَتِ امْرَأَتُهُ بِالموسِ لِتَحْلِقَ الشَّعَرَاتِ، فَظَنَّ الزَّوْجُ أَنَّهَا تُرِيدُ قَتْلَهُ، فَأَخَذَ مِنْهَا الموسَ فَقَتَلَهَا، فَجَاءَ أَوْلِيَاؤُهَا فَقَتَلُوهُ، وَجَاءَ أَوْلِيَاءُ الرَّجُلِ وَوَقَعَ الْقِتَالُ بَيْنَهم.

نَعَمْ هَذِهِ هِيَ النَّمِيمَةُ أَوْدَتْ بِحَيَاةِ رَجُلٍ وَزَوْجَتِهِ، وَأَوْقَعَتِ المقْتَلَةَ بَيْنَ أَقَارِبِهِمَا. قَالَ عَطَاءُ بنُ السَّائِبِ: قَدِمْتُ مِنْ مَكَّةَ فَلَقِيَنِي الشَّعْبِيُّ، فَقَالَ: يَا أَبَا زَيْدٍ أَطْرِفْنَا مِمَّا سَمِعْتَ. قُلْتُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ عَبْدِ الله بنِ سَابِطٍ يَقُولُ: لا يَسْكُنُ مَكَّةَ سَافِكُ دَمٍ وَلا آكِلُ رِبَا وَلا مَشَّاءٌ بِنَمِيمٍ، فَعَجِبْتُ مِنْهُ حِينَ سَاوَى النَّمِيمَةَ بِسَفْكِ الدِّمَاءِ وَأَكْلِ الرِّبَا، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: وَهَلْ تُسْفَكُ الدِّمَاءُ وَتُرْتَكَبُ الْعَظَائِمُ إِلا بِالنَّمِيمَةِ.

الآفَةُ الْخَامِسَةُ: شَهَادَةُ الزُّورِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ: وَهِيَ مِنَ الكَبَائِرِ عَظِيمَةُ الإِثْمِ وَالْوِزْرِ، قَالَ الله- سُبْحَانَهُ - مُثْنِياً عَلَى عِبَادِهِ المؤْمِنِينَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾[1]، وَشَاهِدُ الزُّورِ يَزِيدُ فِي الضَّلالِ حَتَّى يَحْلِفَ باللهِ يَمِيناً كَاذِباً فَتَغمسُهُ هَذِهِ اليَمِينُ فِي النَّارِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: «**الْإِشْرَاكُ بِاللهِ**»، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**الْيَمِينُ الْغَمُوسُ**»، قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: «**الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ**»[2].

---

(١) الفرقان: ٧٢.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٠).

أَيُّهَا الأَحَبَابُ القراء: عَصَمَنِي اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ **الآفَةِ السَّادِسَةِ** الَّتِي يَتَسَاهَلُ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَلا يَكَادُ يَسْلَمُ مِنْهَا الْيَومَ إِلا مُوَفَّقٌ، وَهِيَ قَذْفُ النَّاسِ فِي أَعْرَاضِهِمْ : قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1].

الآفَةُ السَّابِعَةُ: الْـحَلِفُ بِغَيرِ الله - تَعَالَى: كَالْـحَلِفِ بِالذِّمَّةِ وَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ وَالشَّرَفِ وَالقَبِيلَةِ وَبِحَيَاتِكَ وَحَياةِ النَّبِيِّ، وَعِنْدَ أَحْمَدَ «**مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا**»[2]، وَفِي الصَّحِيحِ «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله أَوْ لِيَصْمُتْ**»[3].

أَحْبَابِي القراء: الإِيمَانُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَارِساً عَلَى أَلْسِنَتِنَا أَلا تَقَعَ فِي **الآفَةِ الثَّامِنَةُ** وَهِيَ السَّبُّ وَالشَّتْمُ وَاللعْنُ وَالسُّخْرِيَةُ بِالمؤْمِنِينَ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[4]، وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﵁ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[5].

يَقُولُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ:

لِسَانَكَ لا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ ... فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ

كَثِيرَةٌ هِيَ هَفَوَاتُ أَلْسِنَتِنَا أَيُّهَا الأَحْبَابُ إِذَا لَمْ نَنْتَبِهْ لِذَلِكَ.. فَإِذَا سَلِمْنَا مِنْ كُلِّ مَا مَضَى فَرُبَّمَا لا تَسْلَمُ أَلْسِنَتُنَا مِنْ آفَةِ فُضُولِ الْكَلاَمِ أَوِ المرَاءِ أَوِ الجِدَالِ أَوِ الْـخُصُومَةِ، نَاهِيكَ عَنِ التَّقَعُّرِ فِي الْكَلاَمِ وَالتَّكَلفِ وَغَيرِهَا مِنْ جَرَائِمِ هَذَا الْعُضْوِ الصَّغِيرِ، وَقَدْ جَمَعَ لَنَا ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - كُلَّ آفَاتِ اللِّسَانِ فِي

(١) النور : ٤.
(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٥٣)، وصححه الألباني.
(٣) أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦) عن ابن عمر - رضي الله عنهما.
(٤) الحجرات: ١١.
(٥) أخرجه مسلم (٢٥٩٨).

أَمْرَينِ فَقَالَ: «وَفِي اللِّسَانِ آفتَانِ عَظِيمَتَانِ إِنْ خَلَصَ مِنْ إِحْدَاهُمَا لَمْ يَخْلَصْ مِنَ الأُخْرَى: آفَةُ الْكَلامِ وَآفَةُ السُّكُوتِ، وَقَدْ يَكُونُ كُلٌّ مِنْهُمَا أَعْظَمَ إِثْماً مِنَ الأُخْرَى فِي وَقْتِهَا، فَالسَّاكِتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسُ عَاصٍ لله مُرَاءٍ مُدَاهِنٌ إِذَا لَمْ يَخَفْ عَلَى نَفْسِهِ، وَالمتكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ عَاصٍ لله، وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ مُنْحَرِفٌ فِي كَلامِهِ وَسُكُوتِه، فَهُمْ بَيْنَ هَذَينِ النَّوْعَيْنِ، وَأَهلُ الوَسَطِ ـ وَهُم أَهْلُ الصِّرَاطِ المستَقِيم ـ كَفُّوا أَلسِنَتَهُم عَنِ البَاطِلِ وَأَطْلَقوهَا فِيمَا يَعُودُ عَلَيهِم نَفعُهُ فِي الآخِرَةِ»(١) .

وَأَخِيراً أَخِي الْحَبِيْبَ: بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الشُّرُورِ إِذَا اسْتَوَى الْكَلامُ وَتَرْكُهُ فِي المصْلَحَةِ، فَالسُّنَّةُ الإِمْسَاكُ عَنْهُ؛ لأَنَّهُ قَدْ يَنْجَرُّ الْكَلامُ المبَاحُ إِلَى حَرَامٍ أَوْ مَكْرُوهٍ، فَاللِّسَانُ أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَى السَّجْنِ؛ عَمَلاً بِوَصِيَّةِ المصْطَفَى ﷺ «**مَنْ صَمَتَ نَجَا**»(٢)، وَاقْتِدَاءً بِالسَّلَفِ الصَّالِح- رِضْوَانُ الله تَعَالَى عَنْهُمْ، وَإِذَا كَانَ لا بُدَّ لِهَذَا السَّجِينِ مِن اسْتِرَاحَةٍ فَلا بُدَّ أَنْ تكُونَ ضِمْنَ قَوْلِهِ ﷺ: «**لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً بِذِكْرِ الله**»(٣)، وَبِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالاسْتِغْفَارِ وَالصَّلاةِ عَلَى رَسُولِ الله وَمَا فِيهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالدِّيْنِ.

اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، وَنَسْأَلُكَ أَنْ تَحْفَظَ أَلْسِنَتَنَا عَنِ الْكَذِبِ وَجَمِيعِ آفَاتِ اللِّسَانِ الأُخْرَى، إِنَّكَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

---

(١) الجواب الكافي ص ١١٢.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٠١)، عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، عن عبد الله بن بسر ﷺ وصححه الألباني.

المحاضرة (٢)

ملوك على القلوب

رِحلَتُنا الأَثَرِيَّةُ المحرَابِيةُ مَا زَالَتْ فِي (مُحَافَظَةِ العَاصِمَةِ) لَكِنَّهَا الْيومَ فِي مَنطِقَةِ (حَيِّ الْوَسَطِ):

١ـ وَأَولُ مَساجِدِهَا وَأَقْدمُهَا مَسجِدُ (الخَليفة) نِسْبَةً لحكَّام الْبَحرَينِ، وَالَّذِي مَا يَزَالُ فِي مَوقِعِهِ عَلَى الْبَحْرِ غَربَ وَزَارَةِ التَّخْطِيطِ وَمُقَابِلَ مَبنَى وَزارَةِ الْخَارِجيَّةِ الْجَدِيدِ، وَأَرجَحُ الظَّنِّ أَنَّ مُؤَسِّسَ هَذَا المسجدِ مِنْ عَائِلةِ آل خَلِيفَة حُكَّامِ الْبَحْرَينِ، وَيَتَراوَحُ تَارِيخُ التَّأْسِيسِ بَينَ عَامِ (١٦٧٠م) وَ(١٧٠٨م)، وَقَدْ مَرَّ المسجِدُ بِعِدَّةِ تَجْدِيدَاتٍ وَتَرْمِيمَاتٍ كَانَ آخِرُهَا عَامَ (٢٠٠١م) حَيثُ قَامَتْ وَزَارَةُ الأَوقَافِ بِإِعَادَةِ تَرْمِيمِهِ مَعَ المحَافظَةِ عَلَى بَنَائِهِ الْقَدِيم وَبِحضُورِ الشَّيخِ خَليفَة آل خَليفَة، وَمِنْ أَشْهَرِ مَنْ صَلَّى فِيهِ الشَّيخُ عَبدُ الرَّحمنِ محُمد أَحمَد الفَارِسِي.

٢ـ أَيُّهَا الأَحْبَابُ: وَإِذَا عُدْنَا إِلَى الوَرَاءِ تَارِيخِياً وَبِالتَّحدِيدِ إِلَى عَامِ (١٧٨٢م) لَوَجدْنَا مَكَانَ السَّاحَةِ الزِّرَاعِيةِ الشَّرْقِيَّةِ فِي مَسْجِدِ الدَّوْلَةِ الْكَبِيرِ (مَسْجِدَ مُبَارَك)، وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ المسْجِدَ قَدْ مَرَّ بعِدَّةِ تَرمِيمَاتٍ وَمَا وَصَلنَا مِنْهَا إِلا تَرمِيمُ عَامِ (١٩٥٦م)، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمتِهِ الشَّيخُ (يُوسُفُ بنُ عِيسَى الْقِنَاعِي).

٣ـ وَمِنْ مَسْجِدِ الدَّوْلَةِ الْكَبِيرِ إِلَى مَسجِدِ (عَبدِ الرَّزَّاقِ) فِي حَيِّ عَبدِ الرَّزَّاقِ وَفِي وَاجِهَتِهِ الْجَنوبِيَّةِ تَقَعُ دُروَازَةُ عَبدِ الرَّزَّاقِ، أَسَّسَهُ السيدُ سَالم عَبدُ الرَّزَّاقِ عَامَ (١٧٩٧م)، وَقَد جُدِّدَ مَرتَينِ مِنْ قِبَلِ وَزَارَةِ الأَوقَافِ، كَانَتِ الثَّانِيَةُ عَامَ (١٩٨٠م)، وَأَمَّ فِيهِ الشَّيخُ زَكَريَا بنُ مُحَمَّدٍ الأَنْصَارِيُّ مِنَ الْيَمَنِ.

أَعِزَّائِي القراء: وبَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجَزِ عَلَى آثَارِ مَسَاجِدِنَا وَذِكْرِ أَئِمَّتِنَا، تعالوا نَستَمِعْ لِلمَوَاعِظِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الهَامَّةِ، وَهِي الْيَومَ بِعُنوَانِ: (الطَّرِيقُ لِلْمُلْكِ الحَقِيقِيِّ).

أَخِي القارئ، أُختِي القارئةَ، الْـحُكَّام يَحكُمُونَ عَلَى أَجسَادِنَا، وَهنَـاكَ مَـنْ يَحكُـمُ عَـلَى قُلُوبِنَـا، وَفِي المثَـلِ: (**إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَملِـكَ الْقُلُـوبَ فَاسْـتَعطِفْ**)، فَبِالاسْتعطَافِ وَاللينِ وَالخُلُقِ الْـحَسَنِ تَكونُ أَمِيرَ الْقُلوبِ، نَعمْ أَخِي القـارئ تَسْتَطيعُ أَنْ تَكُونَ أَمِيراً بِصِفَاتٍ تَحْمِلُهَا بَينَ جَنْبَيكَ وَبِخُلُقٍ حَسَـنٍ تَنشُرُهُ بَـينَ النَّاسِ تَستَعْطِفُ بِهِ وِدَّهُم وَتَتربَّعُ بِهِ عَلَى قُلُـوبِهِم، أَفَـلا تُحِـبُّ أَنْ تَرقَـى مِنـبَرَ الْـملْكِ؟ اسْمعْ مَعِي لِصِفَاتِ مُلُوكِ الْقُلُوبِ:

أَوَّلاً: الابْتِسَامَةُ والْوَجْهُ الطَّلَّقُ، هُمَا كَالملْحِ فِي الطَّعَامِ، وَهُمَـا عِبَـادَةٌ وَصَـدَقَةٌ، قَالَ ﷺ: «**وَتَبسمُكَ فِي وَجْهِ أَخيكَ صَدَقَةٌ**»[١]، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﵁ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيّ ﷺ: «**لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْـهٍ طَلْـقٍ**»[٢]، وَالتَّبسُّـمُ للنَّاسِ أَخِي الْـحَبِيبَ سَهْمٌ نَافِذٌ لِقُلُوبِهِم؛ وَلِـذَا قَـالَ عَبْـد اللهِ بْـن الْــحَارِثِ فِي وَصفِ حَبيبِ الْقُلُوبِ: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ)[٣].

وَلا غَرَابَةَ اليومَ أَنْ نَسمَعَ عَنْ مَعَاهِدَ لِتَعليمِ التَّبَسمِ، فَالابْتِسَامَةُ أَهمُّ لُغَاتِ الْـجَسَدِ، وَسِلاحٌ قَوِيٌّ وَفَعـالٌ يَسـتَخدِمُهُ الإِنسَـانُ مِنـذُ طُفولَتِـهِ لِلاقْـترابِ وِالتَّودُّدِ لِلآخرينَ، فَالطِّفْلُ يَتَعلَّمُهَا بَعدَ وِلادَتِهِ بستَّةِ أَسَـابَيع، وَيُؤكِّـدُ خُـبرَاءُ الأَحَاسِيسِ الإِنْسَانِيَّةِ أَنَّ الشَّخْصَ الَّذِي يَبتَسِمُ كَثِيراً يَكُونُ لَهُ تَـأْثِيرٌ إِيجَـابِيٌّ فِي الآخَرِينَ أَكثَرَ مِـنَ الشَّـخصِ الَّـذِي يَبْـدُو وَجْهُـهُ جَـادًّا دَائِـماً؛ لِـذلِكَ يُعْتَـبَرُ المبْتَسِمُونَ أُنَاساً دَافِئِينَ وَدُودِينَ.

أَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَصعدَهَا لِلوُصُولِ لِلْمُلكِ فَهِـيَ الابْتِـدَاءُ بِإِلْقَاءِ السَّلامِ عَلَى مَنْ عَرفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْـرِفْ، وَهُـوَ أَجْـرٌ وَغَنِيمَـةٌ، فَالفَاضِـلُ الَّذِي يَبدَأُ بِالسَّلامِ، قَالَ عُمَرُ النَّدِيُّ: (خَرَجْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ، فَمَا لَقِـيَ صَـغِيراً

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٦)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٤١)، وصححه الألباني.

وَلا كَبِيراً إِلا سَلَّمَ عَلَيهِ)، وَقَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: (المصَافَحَةُ تَزِيدُ فِي المودَّةِ).

ثَالِثاً: أَخِي الْحَبِيبَ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَبْذِرَ حَبَّكَ فِي قُلُوبِ الآخَرِينَ فَعَلَيكَ بِالْهدِيةِ وَبَذلِ المالِ؛ فَإِنَّ لِكلِّ قَلْبٍ مِفْتَاحٌ، وَالْهَدِيةُ مِفْتَاحٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْقُلُوبِ؛ فإِنَّ لَهَا بَالِغَ الأَثَرِ فِيهِم، قَالَ ﷺ: «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**»(١).

وَلَقَدِ اسْتَطَاعَ الْحَبِيبُ ﷺ ببذْلِ المالِ أَنْ يَصِلَ إِلَى قَلْبِ صَفوَانَ بنِ أُميّةَ بَعدَ أَنْ عَرَفَ مِفتَاحَهُ وَذَلِكَ فِي قِصَّةِ إِسلاَمِهِ، حَيثُ كَانَ صَفْوَانُ كَافِراً وَمِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً وَكُرهًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَبَعدَ غَزوَةِ حُنَينٍ وَانْتِصَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَوزِيعِهِ لِلغَنَائِمِ نَظَرَ صَفْوَانُ إِلَى شِعْبٍ مَلآنٍ نَعَماً وَشَاءً وَرِعَاءً مِنَ الغَنَائِمِ، فَأَدَامَ النَّظَرَ إِليهِ، وَرسُولُ الله ﷺ يَرْمُقُهُ وَقَدْ طَمِعَ فِي إِسْلامِهِ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا وَهْبٍ أَيُعْجِبُكَ هَذَا الشِّعْبُ؟**». قَالَ: نَعَم. قَالَ: «**هُوَ لَكَ وَمَا فِيهِ**»، فَقَبَضَ صَفْوَانُ مَا فِي الشِّعْبِ وَقَالَ: مَا طَابَتْ نَفْسُ أَحدٍ بِمِثلِ هَذَا إِلا نَفْسُ نَبِيٍّ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلا اللهُ وَأَنّ مُحَمداً عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَسلَمَ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ فِي السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ «**ازْهَدْ فِي الدُّنيَا يُحِبُّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا عِندَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ**»(٢).

رَابِعاً: مُلُوكُ الْقُلوبِ أَيُّهَا الأَحْبَابُ أَلْسِنَتُهُمْ حِبيسَةٌ إِلا فِيمَا يَنْفَعُ، فَإِيَّاكَ وَارْتفَاعَ الصَّوتِ وَكَثْرَةَ الكَلامِ فِي المجَالِسِ، وَإِيَّاكَ وَتَسَيُّدَ المجَالِسِ، وَعَلَيكَ بِطِيبِ الْكَلامِ وَرِقَّةَ الْعِبارَةِ «**فَالكَلِمةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ**»(٣) كَمَا فِي الصَّحِيحَينِ، وَهِيَ الطَّرِيقُ المعبَّدُ لِلوُصُولِ إِلَى كُرسِيِّ الملكِ عَلَى الْقُلُوبِ، قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «**عَلَيكَ بِحُسْنِ الخُلُقِ وَطُولِ الصَّمْتِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا تَجَمَّلَ الخَلائِقُ بِمِثْلِهِمَا**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (٢٨٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو يعلى (٣٢٩٨)، والطبراني في المعجم الأوسط (٧١٠٣)، والبيهقي في الشعب (٤٩٤١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٤٨).

قَالَ الشَّاعِرُ:

قَدْ يَخْزُنُ الْوَرِعُ التَّقِيُّ لِسَانَهُ حَذَرَ الْكَلامِ وَإِنَّهُ لَـمُفَوَّهُ

كما أَنَّ حُسْنَ الاسْتِماعِ وَأَدبَ الإِنصَاتِ وَعَـدمَ مُقَاطَعـةِ المتحـدِّثِ تَجعَلُـكَ محبُوباً لِلآخرِينَ بِخِلافِ الثَّرثَارِ، فَقدْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لا يَقطَعُ الحَديثَ حَتَّى يَكُونَ المتكلمُ هُو الَّذِي يَقطَعُهُ، وَاسْـمَعْ لِهَـذَا الخُلُـقِ العَظِـيم، قَـالَ عَطَـاءُ: (إِنَّ الرَّجلَ لَيحَدِّثُنِي بِالحَديثِ فَأُنصِتُ لَهُ كَأَنِّي لَمْ أَسمَعْهُ وَقد سَمِعتُهُ قَبلَ أَنْ يُولَدَ).

خَامِساً: لِيَكُنْ شِعَارُكَ إِنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَـمَالَ، فَـالقُلُوبُ تَـأْلَفُ حُسـنَ السَّمْتِ وَالمظهَرِ وَتَميلُ لِطِيبِ الرَّائِحَةِ وَنَظافَةِ الثِّيَابِ، قَالَ عُمَـرُ بـنُ الْخَطَّـابِ رضي الله عنه: (إِنَّهُ لَيُعْجِبنِي الشَّابُّ النَّاسِكُ نَظِيفُ الثَّوبِ طَيِّبُ الرِّيحِ)، وَقَالَ عَبدُ الله بـنُ أَحمَدَ بنِ حَنبلٍ: (إِنِّي مَا رَأيتُ أَحداً أَنظَفَ ثَوباً وَلا أَشـدَّ تَعَهـداً لِنَفسِـهِ وَشَـارِبِهِ وَشَعرِ رَأسِهِ وَشَعرِ بَدَنِهِ، وَلا أَنقَى ثَوباً وَأَشدُّهُ بَيَاضاً مِنْ أَحمَدَ بنِ حَنبَلٍ).

سَادِساً: أَخِي القارئ، قَالَ الْـحَكِيمُ: أَحْسِـنْ إِلَى النَّـاسِ تَستَعبِدْ قُلُـوبَهُمُ فَطَالـما اسْتعبَدَ الإِنسَانَ إِحسَانُ.

نَعَمْ أَخِي الْـحَبيبَ، مَنِ انْتَشَرَ إِحسَانُهُ كَثُرَ أَعوَانُهُ، فَـإِذَا أَردْتَ أَنْ تَتسـلَّلَ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ فَعليْكَ بِالإِحسَانِ إِلـيهِمْ، وَبَـذلِ الـمعرُوفِ لَهُـم، وَقَضَـاءِ حَوَائِجِهِم؛ فَإِنَّهَا جَالِبَةٌ لِـمَحبةِ اللهِ - تَعَالَى - قبلَ مَحبَّةِ النَّاسِ، قَالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ- تَعَـالَى- أَنْفَعُهُـمْ لِلنَّـاسِ**»[1]، وَاللهُ- عَـزَّ وَجَـلَّ - يَقــولُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]، وَفِي الأَمثَـالِ: (عَجَبـاً لِمَـنْ يَشْـتَرِي الـمَمَالِيْكَ بِمَالِهِ كَيفَ لا يَشْتَرِي الأَحرَارَ بِمعرُوفِهِ).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٤٥٣) (١٣٦٨٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة.

(٢) البقرة: ١٩٥ .

سابعاً: أَعِزائي الأَحبَاء، إنَّ أَيسرَ الطُّرُقِ وأَقرَبَهَا إلى قُلُوبِ النَّاسِ إحسَانُ الظَّنِّ بِهِم والْتِمَاسُ الأعْذَارِ لَهُم، فَإِيّاكَ إيّاكَ وَسُوءَ الظَّنِ، وَعَوِّدْ نَفسَكَ عَلَى الاعْتِذَارِ لإِخْوَانِكَ جُهْدَكَ، فَقدْ قَالَ ابنُ المبَارَكِ: (المؤْمِنُ يَطلبُ مَعَاذِيرَ إخوَانِهِ، وَالمنَافِقُ يَطلُبَ عَثَرَاتِهِمْ)، وَأَصِخْ سَمعَكَ لِقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1].

وَيَقولُ المتنبِّي:

إذَا سَاءَ فِعلُ المرءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ ... وَصَدَّقَ مَا يَعتَادُهُ مِنْ تَوَهمِ

ثَامِناً: مَا أَجمَلَهَا- أخِي القارئ- عِندَمَا تُعلِنُ مَحبتَكَ وَمَودتَكَ لِلآخَرينَ وَتُخبِرُهُم بِذلِكَ، فَتَأسِرَ قُلُوبَهُم، وَيُبَادِلُونَكَ نَفسَ المشَاعِرِ وَالحُبِّ، وَلِذَلكَ قَالَ ﷺ: «**إذَا أَحَبَّ أَحدُكُم صَاحِبَهُ فَلْيَأتِهِ فِي مَنزِلِه فَلْيُخبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**»[2]، وَزَادَ فِي رِوايةٍ مُرسَلَةٍ «**فَإِنَّهُ أَبقَى فِي الأُلْفَةِ وَأَثبَتُ فِي المودَّةِ**»، لَكِنْ بِشَرطِ أَنْ تَكونَ المحبَّةُ للهِ، وَلَيسَ لِغرَضٍ مِنْ أَغرَاضِ الدُّنيَا كَالمنصبِ وَالمالِ وَالشهْرَةِ وَالجَمالِ، فَكلُّ أُخُوةٍ لِغيرِ الله هَباءٌ، وَهيَ يَومَ الْقِيامَةِ عِداءٌ، قَالَ تَعالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[3].

تَاسِعاً: أَخِي القارئ، إذَا أَردْتَ أَنْ تكونَ أَمِيراً عَلَى الْقُلُوبِ فَاحْرِصْ عَلَى إتقَانِ فَنِّ وَمَهارَةِ المدُارَاةِ، وَهِيَ لِينُ الكلامِ، وَبَشاشَةُ الْوَجهِ، وَالتَّلَطفُ وَالثَّناءُ عَلَى الرَّجلِ السيئِ بِمَا فِيهِ مَصلَحَةٌ شَرعِيةٌ؛ طَلَباً لِهِدَايتِهِ، مَعَ عَدمِ المجامَلَةِ فِي الدِّينِ، وَإلا انتقَلَتْ مِنَ المدَارَاةِ إلَى المدَاهَنَةِ، قَالَ ابنُ بَطّالٍ: (المدَارَاة مِنْ أَخْلاقِ المؤمِنينَ، وَهِيَ خَفْضُ الجَنَاحِ لِلنَّاسِ، وَتَركُ الإغْلاظِ لَهُم فِي

---

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٥) ومسند عبد الله بن المبارك (٦)، عن أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٩٧).

(٣) الزخرف: ٦٧.

القَولِ، وَذَلكَ مِنْ أَقْوى أَسبَابِ الأَلْفَةِ).

وَعندَ البخَارِيِّ أَنَّ رَجُلاً اسْتَأذنَ عَلى النَّبـي ﷺ، فقَالَ ﷺ: «**بِـئْسَ أَخُـو الْعَشِيرَةِ وبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ**» فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**»[1].

قَالَ ابنُ حَجرٍ فِي الفَتحِ: (هَذا الْـحَديثُ أَصلٌ فِي المدَارَاةِ) ثُم نَقلَ قَولَ الْقُرطُبِيِّ لِلتَّفرِقَةِ بَينَ المدَاهَنةِ وَالمدارَةِ (وَالفَرقُ بَينَ المدارَاةِ وَالمداهَنَةِ أَنَّ المدارَاةَ بَذلُ الدُّنيَا لِصَلاَحِ الدُّنيَا أَوِ الدِّينِ أَو هُمَا مَعاً، وَهِيَ مُبَاحَةٌ وَربَّمَا اسْتُحِبتْ، وَالمدَاهنةُ تَركُ الدِّينِ لِصلاحِ الدُّنيَا).

وَأَخِيراً أَخِي القارئ الْكَرِيم، إِلِيكَ هَذهِ الْقِصةَ مِنْ قَصَصِ أُمَرَاءِ الْقُلُوبِ: عِندَمَا قَدِمَ هَارُونُ الرَّشِيدُ الرَّقَّةَ (بَلدَةٌ بِالْعِراقِ) تَزَامَنَ قُدُومُهُ مَعَ دخولِ عبدِ الله بنِ المبارَكِ إِليهَا، فَأَسرَعَ النَّاسُ خَلفَ عبدِ الله بنِ المبَارِكِ وَتَقطَّعَتْ النِّعَالُ وَارْتَفعَ الْغُبارُ مِنْ كَثرَةِ الأَقدَامِ، فَأَشرَفَت أُمُّ وَلَدٍ لأَميرِ المؤمِنينَ مِنْ بُرجٍ مِنْ قَصْرٍ مِنَ الخَشَبِ، فَلَمَا رَأَتِ النَّاسَ قَالتْ: مَن هَذَا؟ قَالُوا: عَالم مِن أَهلِ خُرَاسَانَ قَدِمَ الرَّقَّةَ يُقَالُ لَهُ: عَبد الله بنُ المبارَكِ. فَقَالَتْ: (هَذَا وَالله الملكُ لا مُلكَ هَارُونَ الَّذِي لا يَجمَعُ النَّاسَ إِلا بِشُرَطٍ (شرطة) وَأَعوَانٍ وَبِالسّوطِ وَالعَصَا وَالرَغْبَةِ وَالرّهبَةِ)[2].

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا حُبَّك وَحبَّ مَن يُحِبُّكَ، وَحَبِّبنَا لِعِبادِكَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٢) عن عائشة – رضي الله عنها.

(٢) تذكرة الحفاظ، الذهبي (١١٥٦).

المحاضرة (٣)

عكازة النفوس المريضة

رِحلَتُنا الأَثَرِيَّةُ المحرَابِيةُ مَا زَالَـتْ فِي (مُحَافَظَـةِ العَاصِـمَةِ) لَكِنَّهَـا الْيـومَ فِي مَنطِقَةِ (حَيِّ الشَّرقِ):

١ـ وَأَولُ مَساجِدِهَا مَسـجِدُ (ابـنُ خَمِيس) الَّـذِي يُطـلُّ الآنَ عَـلى شَـارع الْخليجِ، وَالوَاقِعُ فِي فَرِيجِ ابنِ خَمِيس وَإِليهِم يُنْسبُ اسْمُ المسْجِدِ، أَسسَهُ مُحَمَّـدُ الجَلاهِمة عَامَ (١٧٧٢م)، وَقَدْ مَرَّ المسْجِدُ بِعدَّةٍ تَرمِيمَاتٍ كَانَ آخِرُهَا إِعَادَةَ بِنَائِهِ مِن قِبَلِ وَزَارةِ الأَوقَافِ عَامَ (١٩٥٤م)، وَأَشـهَرُ أَئِمتِـهِ الشَّـيخُ إِسْـحَاقُ بـنُ إِبرَاهِيمَ التَّرْكِيتُ.

٢ـ وَمِن حَيِّ (ابنِ خَمِيس) نَنتَقِلُ إِلَى حَيِّ النِّصْفِ حَيثُ أُقِـيمَ فِيـهِ مَسـجِدُ (النِّصْفُ) خَلفَ دِيوَانِ النِّصفِ عَلى الْخَلِيجِ عَامَ (١٧٧٦م)، وَقَد جَدَّده السيدُ رَاشدُ النِّصفُ بَعدَ تَصدُّعِهِ عَامَ (١٨٦٧م)، ثُمَّ تَولَّـتْ وَزَارَةُ الأَوقَـافِ إِعَـادَةَ بِنَائِهِ عَامَ (١٩٥٦م)، وَرَممَّتْهُ عَامَ (٢٠٠٢)، وَمِن أَشهَرِ مَن صَـلَّى فِيـهِ الشَّـيخُ مُحمدُ صَالِحُ التَّركِيتُ.

٣ـ مَسجدُ (القَطَّامِي) وَكانَ يَقعُ قَرِيباً مِنَ الوَكَالةِ السِّيَاسـيةِ القَدِيمـةِ، ثُـمَّ أَصبحَ مَوقِعُه الآنَ قُربَ مَبنَى وَزَارَةِ الصحَّةِ العَامةِ خَلفَ دِيوَانِ الشَّملانِ عَلى الْخَلِيجِ، أَسَّستْهُ السيدةُ (مَلكةُ بِنتُ مُحمّد الغَـانِمُ) عَـامَ (١٨٣٤م)، وَقـدْ بُنِـيَ صَـغِيراً ثُـمَّ وُسِّـعَ مِـنَ الجِهَـةِ الجنُوبِيـةِ، وَفِي عَـامِ (١٩٥٣م) أَعَـادَتْ وَزارَةُ الأَوقَافِ بِناءَهُ، وَمِن أَشهَرِ أَئمتِهِ الملا (حُسينُ بنُ عبدِ الله التركيتُ وَابنُهُ مُحمـدُ صَالحُ وابنُهُ مُحمدُ).

أَعِزَّائِي القارِئِينَ، هَذِهِ المسَاجِدُ الأَثَرِيَّةُ كَانَتْ وَمَازَالَـتْ جَامِعَـاتٍ يُـدَرِّسُ

فِيهَا أَئِمَّةٌ كِبَارٌ، فتَعَالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّـيَ بِهَـا نُفُوسَـنَا، وَنَجْلُوَ بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعنوان: **(عُكازة النُّفُوسِ الضَّعِيفَةِ)**.

الـحَسَدُ أَيُّهَا الأَحْبَابُ، خُلُقٌ لَئِيمٌ يَسْكُنُ فِي نَفْسٍ دَنِيئَةٍ، تُبْحِرُ فِي مِيَاهٍ آسِـنَةٍ بِالْـحِقْدِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالاسْتِهْزَاءِ، أَمَرَنَا اللهُ – تَعَالَى – بِالاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1]، قَالَ الْـحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: ذَكَرَ اللهُ الشُّرُورَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ثُمَّ خَتَمَهَا بِالْـحَسَدِ؛ لِيُظْهِرَ أَنَّهُ أَخْبَثُ الطَّبَائِعِ.

وقَالَ النَّوَوِيُّ عَنِ الْـحَسَدِ: هُوَ حَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الأُمَّةِ مَعَ النُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ، وَلُو لَمْ يَكُنْ فِي الْـحَسَدِ إِلا أَنَّهُ صِفَةُ الْيَهُودِ لَكَفَى، نَاهِيكَ بِأَنَّ أَوَّلَ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ حَسَدُ إِبْلِيسَ لِآدَمَ، وَأَوَّلَ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ بِـهِ فِي الْأَرْضِ حَسَـدُ قَابِيلَ لِأَخِيهِ هَابِيلَ فَقَتَلَهُ.

وَهُنَا مُلاحَظَةٌ نُنَبِّهُ إِلَيْهَا وَهِيَ أَنَّ حَقِيقَةَ الـحَسَدِ أَيُّهَا الْأَحْبَابُ تَخْتَلِـفُ عَـنِ الْغِبْطَةِ وَالـمنَافَسَةِ؛ فَالْـحَسَدُ كَمَا قَالَ الجَوْهَرِيُّ: كَرَاهَةُ النِّعْمَةِ عَلَى الْغَـيْرِ مَـعَ تَمَنِّي زَوَالِـهَا، وَشِدَّةُ أَسَاكَ وَحُزْنِكَ عَلَى الْـخَيْرَاتِ تَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الأَفَاضِلِ، أَمَّا الْغِبْطَةُ أَلا تُحِبَّ زَوَالَهَا ، وَلا تَكْرَهَ وُجُودَهَا وَدَوَامَهَا، وَلَكِنْ تَشْتَهِي لِنَفْسِكَ مِثْلَهَا. وَأَمَّا المنَافَسَةُ : فَهِيَ طَلَبُ التَّشَـبُّهِ بِالأَفَاضِـلِ مِـنْ غَـيْرِ إِدْخَـالِ الضَّرَـرِ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ أَنْ تَرَى بِغَيْرِكَ نِعْمَةً فِي دِينٍ أَوْ دُنْيَا ، فَتُحِبَّ أَنْ تَلْحَقَ بِـهِ وَتَكُـونَ مِثْلَهُ ، فَالحَسَدُ شَرٌّ مَذْمُومٌ ، وَالمنَافَسَةُ وَالْغِبْطَةُ رَغْبَةٌ مُبَاحَةٌ.

قَـالَ تَعَـالَى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[2]، وَقَـالَ ﷺ: «**لَا حَسَـدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَـا يَعْمَـلُ، وَرَجُـلٌ آتَـاهُ اللهُ**

(١) الفلق: ٥.

(٢) المطففين: ٢٦.

مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الحَقِّ. فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ»[1].

أَخِي القارئ الْكَرِيمَ، اعْلَمْ أَنَّهُ بِحَسَبِ فَضْلِ الْإِنْسَانِ وَظُهُورِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ يَزْدَادُ حَسَدُ النَّاسِ لَهُ، فَإِنْ كَثُرَ فَضْلُهُ كَثُرَ حُسَّادُهُ، قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: (مَا كَانَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلا وَجَّهَ اللهُ لَهَا حَاسِداً).

وقَالَ الشَّاعِرُ:

عَوَاذِلِي حَسَدَتني إِذْ وَلِعْتُ بِكُمْ   وَكُلُّ ذِي نِعْمَةٍ بِالنَّاسِ مَحْسَودُ

وَلَعَلَّ بَعْضَ الإِخْوَةِ القارئينَ يَتَسَاءَلُ: لِمَاذَا يَحْسِدُ النَّاسُ بَعْضَهُمْ؟

فَنَقُولُ: إِنَّ لِلْحَسَدِ أَسْبَاباً وَدَوَاعِيَ مُتَعَدِّدَةً، وَقَدْ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرُهَا:

أَوَّلُهَا: الْعَدَاوَةُ وَالْبُغْضُ وَالحِقْدُ عَلَى المحْسُودِ، وَهُوَ أَصْلُ المحَاسَدَاتِ، فَالْحَسَدُ مِنْ نَتَائِجِ الْحِقْدِ وَثَمَرَاتِهِ، فَمَنْ يَحْقِدُ عَلَى إِنْسَانٍ يَتَمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْهُ، وَيَأْسَى عَلَيْهِ بِفَضِيلَةٍ تَظْهَرُ، فَيُثِيرُ حَسَداً قَدْ خَامَرَ بُغْضاً وَكُرْهاً.

وَثَانِيهَا: خُبْثُ نَفْسِ الْحَاسِدِ وَحُبُّهَا لِلشَّرِّ وَشُحُّهَا بِالخَيْرِ وَالنِّعَمِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْحَسَدِ، إِذْ لَيْسَ لِصَاحِبِهِ رَاحَةٌ، وَلا لِرِضَاهُ غَايَةٌ، وَلَيْسَ يَشْفِي صَدْرَهُ إِلا زَوَالُ النِّعْمَةِ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ:

وَكُلٌّ أُدَاوِيهِ عَلَى قَدْرِ دَائِهِ   سِوَى حَاسِدٍ فَهِيَ الَّتِي لا أَنَالُهَا

وَكَيْفَ يُدَاوِي المرْءُ حَاسِدَ نِعْمَةٍ   إِذَا كَانَ لا يُرْضِيهِ إِلا زَوَالُهَا

وَثَالِثُهَا: التَّعَزُّزُ وَالتَّرَفُّعُ وَالتَّعَجُّبُ بِأَنْ يَظْهَرَ مِنَ المحْسُودِ فَضْلٌ وَنِعْمَةٌ يَعْجَزُ عَنْهُ الْحَاسِدُ، فَيَكْرَهُ تَقَدُّمَهُ فِيهِ، فَإِذَا أَصَابَ أَحَدَ أَصْدِقَائِهِ وِلايَةٌ أَوْ مَالٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٦).

أَثَارَ فِيهِ حَسَداً كَيْفَ بَلَغَ هَذَا المَنْصِبَ أَوِ المَكَانَةَ، وَمِنْ هَـذَا كَـانَ حَسَـدُ أَكْثَـرِ الْكُفَّارِ لِرَسُولِ الله ﷺ إِذْ قَالُوا: كَيْفَ يَتَقَدَّمُ عَلَيْنَا غُلاَمٌ يَتِيمٌ فَنُطَأْطِئُ رُؤُوسَـنَا لَهُ، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1]، وَكَـمَا أَخْـبَرَ اللهُ عَـنِ الأُمَمِ الماضِيَةِ أَنَّهُمْ تَعَجَّبُوا أَنْ يَفُوزَ بِرُتْبَةِ الرُّسُلِ وَالْوَحْيِ مِنَ الله بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، فَحَسَدُوهُمْ وَأَحَبُّوا زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْهُمْ، وَ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[2].

بعض أضرار الحسد على الفرد والمجتمع:

أَحْبَابِي القارئينَ، لله دَرُّ الحَسَدِ مَا أَخْبَثَهُ وَمَا أَسْوَأَهُ وَمَا أَضَرَّهُ، وَمِنْ أَضْرَارِهِ:

١ـ يَحْلِقُ دِينَنَا: عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَـوَّامِ رضي الله عنه قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الـحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الحالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّـعرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّين**»[3].

٢ـ لا يَجْتَمِعُ مَعَ الإِيمَانِ فِي قُلُوبِنَا: قَالَ ﷺ: «**لا يَجْتَمِعُ فِي جَوفِ مؤمن غُبَارٌ فِي سَبِيلِ الله وَفَيْحُ جَهَنَّمَ، وَلا يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ مؤمن الإِيمَانُ وَالـحَسَدُ**»[4].

٣ـ يَرْفَعُ الخَيْرَ مِنْ بَيْنِنَا: وَكَيْفَ لا يَرْتَفِعُ وَكُلٌّ مِنَّا يَتَمَنَّـى أَنْ يَـزُولَ الْـخَيْرُ الَّذِي عِنْدَ صَاحِبِهِ، قَالَ ﷺ: «**لا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوا**»[5].

٤ـ يَضُرُّ بِأَبْدَانِنَا: وَلله دَرُّ الْـحَسَدِ مَا أَعْدَلَهُ، بَدَأَ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهُ، قَالَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه: (لَيْسَ فِي خِصَالِ الشَّرِّ أَعْدَلُ مِـنَ الْـحَسَدِ يَقْتُـلُ الحَاسِـدَ قَبْـلَ أَنْ يَصِـلَ لِلْمَحْسُود. وَقَالَ عَبدُ اللهِ بنُ المعْتَزِّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

اصْـبِرْ عَلَى كَيْدِ الحسُودِ   فَـإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلَـه

(١) الزخرف : ٣١.
(٢) يس : ١٥.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٠٩)، وصححه الألباني.
(٤) أخرجه النسائي (٣١٠٩) وحسنه الألباني .
(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٣٠٩) (٨١٥٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٣٨٦).

فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُه

قَالَ أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ : يَصِلُ إِلَى الحَاسِدِ خَمْسُ عُقُوبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ حَسَدُهُ إِلَى المحْسُودِ:

أَوَّلُهَا: غَمٌّ لا يَنْقَطِعُ.

ثَانِيهَا: مُصِيبَةٌ لا يُؤْجَرُ عَلَيْهَا.

ثَالِثُهَا : مَذَمَّةٌ لا يُحْمَدُ عَلَيْهَا.

رَابِعُهَا : سَخَطُ الرَّبِّ.

خَامِسُهَا : يُغْلَقُ عَنْهُ بَابُ التَّوْفِيقِ.

وَلَقَدْ وَرَدَ عَنْ بَعْضِ مَعَاهِدِ وَجَامِعَاتِ الْعِلْمِ الحَدِيثِ أَنَّ لِعَيْنِ الحَاسِدِ أَشِعَّةً غَيْرَ مَرْئِيَّةٍ تَخْرُجُ فَتُصِيبُ مَنْ يَحْسُدُ وَتُؤَثِّر عَنْ بُعْدٍ فِي المادِيَّاتِ، كَمَا ذُكِرَ أَنَّ هُرْمُونَ الْحَسَدِ يَتكَوَّنُ مِنْ عِدَّةِ هُرْمُونَاتٍ مُتَّحِدَةٍ مِنْ أَهَمِّهَا هُرْمُونُ الْغَبَاءِ وَالضَّعْفِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

عِلاَجُ الحَسَدِ:

وَإِذَا أَحَسَّ أَحَدُنَا بِالْحَسَدِ يَزْحَفُ وَيَغْزُو قَلْبَهُ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى حِوارٍ ذَاتِيٍّ، وَعِلاجٍ وِجدَانِيٍّ يُخَاطِبُ بِهِ نَفسَهُ وَيُحَاسِبُهَا، وَمِن ذَلكَ:

١ ـ أَنْ يَعلمَ الحَاسِدُ مَا فِي الحَسَدِ مِنَ القُبْحِ وَالشنَاعةِ وَالنقْصِ فِي الدينِ وَالدنيَا، وَأَنَّ فِيهِ مُشابَهةً لِأهلِ البَاطِلِ الذِينَ قَالَ اللهُ عَنهُم فِي سُورَةِ البَقَرةِ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[1].

٢ -غمّهُ فِي صَدْرِكَ، قَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: (غُمَّهُ فِي صَدْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لا يَضُرُّكَ مَا لَمْ تَعْدُ بِهِ يداً وَلِسَاناً).

(١) البقرة: ١٠٩.

٣- **الْقِيَامُ بِحُقُوقِ المحْسُودِ** مَعَ الْبُعْدِ عَنْ بُغْضِهِ.

٤ـ الدُّعَاءُ لِلْمَحْسُودِ وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ.

٥ـ السَّلامُ عَلَيْهِ عِنْدَ إِقْبَالِهِ.

٦ـ وَرَأْسُ الشِّفَاءِ مِنَ الحَسَدِ الْقَنَاعَةُ بِعَطَاءِ الله، قَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: مَنْ رَضِيَ بِقَضاءِ الله- تَعَالَى - لَمْ يُسْخِطْهُ أَحَدٌ، وَمَنْ قَنِعَ بِعَطَائِهِ لَمْ يَدْخُلْهُ حَسَدٌ، وَيَقُولُ ابنُ القَيمِ فِي بَدَائعِ الفَوائِدِ: (أَصلُ الحَسدِ هُوَ بُغضُ نِعْمَةِ الله عَلى المحسُودِ وَتَمَنِّي زَوَالِهَا).

وَأَمّا مَنْ خَشيَ عَلى نَفسِهِ الحَسدَ فَعليهِ أَنْ يَتَحصَّنَ بِالاسْتِعاذَةِ وَالدّعَاءِ وَالأورَادِ الشرعيَّةِ مِنْ شَرِّ حَاسدٍ إِذَا حَسَدَ، وَلْيَبتعِدْ عَن مُجَالَسَتِهم، وَقَد قِيلَ: أَسَدٌ تُقَارِبُهُ خَيرٌ مِن حَسودٍ تُرَاقِبُهُ.

اللَّهُمَّ رَضِّنَا بِمَا قَسَمْتَ لنَا، وَاعْصِمْنَا مِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ.

المحاضرة (٤)

انتبه قبل أن تزول عنك النعمة

أَيهَا الأَحبَابُ الكِرَامُ: من المساجد الأثريةُ المحرَابيةُ فِي (حَيِّ السُّوقِ) مِن مُحافَظةِ العَاصِمةِ ما يلي:

١ـ مَسجدُ (العَدسَانِي) وهو أَوَّلُ مَساجِدِ السُّوقِ الَّذِي كَانَ يَقَعُ داخل السور قُربَ سُوقِ المَناخِ القَدِيمِ، وَقَد هُدِمَ فِي أَوائِلِ الخَمسِينياتِ وَانتَقَلَ إِلَى كِيفَانَ قِطعَة (٤) عَامَ (١٩٥٧م)، أَسسَهُ قَاضِي الكُويْت مُحَمدُ بنُ عَبدِ الرحْمَنِ العَدْسَانِي، عَامَ (١٧٤٧م) تَقرِيباً، وَقَد أَمَّ فِيهِ الشَّيخُ عَبدُ اللَّطِيفِ بنُ سَعيدٍ العَدْسَانِيُّ.

٢ـ أَمّا مَسجِدُ (الحَدَّادِ) فَإِنَّهُ كَانَ يَقَعُ قُربَ (فَرِيجِ الجوعَانِ)، وَمَوقِعُهُ الآنَ عَلَى شَارِعِ عَلِي السَّالم مُقَابِلَ مَسجِدِ الدَّولَةِ الكَبِيرِ مِن جِهَةِ الغَربِ، كَانَتْ بِدَايةُ تَأسِيسِهِ عَامَ (١٧٧٦م) عَلَى يَدِ (صَالِحِ الْحَشِيل العَازِمِيِّ) بِبِنَاءٍ صَغِيرٍ لا يَسعُ سِوَى ١٥ مُصلِّياً، ثُمَّ جُدِّدَ مَسْجِداً صَغِيراً عَامَ (١٧٩١م) على يد الحاكم الثاني الشيخ عبد الله الأول بن صباح، وَفِي فَترَةِ الخَمسِينياتِ جُدِّدَ مَرةً أُخرَى من قبل الأوقاف، وَمِن أَشهَرِ أَئمتِهِ الشَّيخُ مُحمدُ صَالِحُ العَدسَانِيُّ.

٣ـ وَفِي (محلة الخَشتِي) كَانَ وَمَا زَالَ مَسجِدُ (يَاسِينَ القِنَاعِي) وَالْوَاقِعُ الآنَ جَنوبَ البنْكِ المركَزِيِّ، أَسسَهُ الحَاجُّ يَاسِينُ القِنَاعِيُّ عَامَ (١٧٨٤م)، وَقَد مَرَّتْ عَلَيْهِ عِدةُ تَجدِيدَاتٍ قام بآخرها المحسن بدر السالم عبد الوهاب المطوع، وَقَد أَمَّ فِيهِ الشَّيخُ سَرحَانُ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ حَتّى نُسِبَ لَه المسجِدُ (وَهُو شَيخٌ مَالكيُّ المذهَبِ مِنَ الأَحسَاءِ).

٤ـ قَبْلَ بِناءِ مَسجِدِ الدّولَةِ الْكبِيرِ كَانَ (مَسجِدُ السُّوق) يُسَمَّى مَسجِدَ الدَّوْلَة، وَيَقعُ فِي أَولِ سُوقِ الدَّاخِلِي مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ، أَسَّسَهُ مِنَ الطِّينِ السَّيدُ

مُحَمَّدُ بنُ حُسَينٍ الأَسْعَدُ عَامَ (١٧٩٤م)، ثُمَّ مَرَّ بِعِدَّةِ تَجْدِيدَاتٍ كَانَ آخرُهَا إِعَادَةَ بِنَائِهِ مِنْ قِبَلِ وَزَارَةِ الأَوقَافِ عَامَ (١٩٥٣م)، وَقَد أَمَّ فِيهِ الشَّيخُ وَالقَاضِي عَبدُ العَزيزِ مُحَمدٌ العَدسَانِي.

أَعِزَّائِي القارئينَ، إِنَّمَا مَسَاجِدُنَا كَتبَتْ آثَارَنَا وَصلَّى بِهَا أَعْلامُنَا وَأَئِمَّتُنا، وَبعدَ هَذَا الموجَزِ عَنْ تَارِيخِهَا تَعَالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّيْ بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بِعنوَانِ: (انتَبِهْ قَبلَ أَنْ تَزولَ عَنكَ النّعمَةُ).

لقد أَنعمَ اللهُ عَلينَا بِنِعمٍ كَثِيرةٍ لا تُعدُّ وَلا تُحصَى؛ كَنِعمَةِ المَالِ وَالصِّحَةِ وَالأَمنِ وَالأَولادِ وَنِعمَةِ الدِّينِ وَكفَى بِهَا مِنْ نِعمَةٍ، قَالَ – تَعَالَى – فِي سُورَةِ إِبرَاهِيمَ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1]، وَهَذهِ النِّعَمُ الجَليلَةُ تَستَوجِبُ مِنَّا شُكْراً، وَهُوَ (اعْتِرافٌ بِالمُنْعِمِ – سُبْحَانَهُ وَتَعالَى – مَعَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَحَمْدِهِ عَلَى سَابغِ نِعَمِهِ، وَاسْتعمالُهَا فِيمَا أَمرَ بِهِ المنعِمُ)، كَمَا قَالَ صَاحبُ الصِّحَاحِ وَابنُ الْقَيِّمِ.

وَلِلشكْرِ أَخِي القارئ أَقسَامٌ ثَلاثَةٌ:

١ـ شُكرٌ ظَاهرٌ بِاللسَانِ : وَهوَ تَحدُّثُكَ بِنِعَمِ اللهِ – تَعَالَى، امتِثَالاً لِقَولِهِ – تَعالَى – فِي سُورةِ الضُّحَى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2]، وَتَطبِيقاً لِقولِهِ – عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**التَّحَدُّثُ بِنعمَةِ الله شُكرٌ**»[3]، وَقِيلَ: مَنْ كَتمَ النِّعمَةَ فَقدْ كَفرَهَا، وَمَنْ أَظْهَرَها وَنَشرَهَا فَقَد شَكرَهَا.

٢ـ وَشُكرٌ عَمِليٌّ بِالجَوارِحِ : وَهوَ عَمَلُكَ بِطَاعةِ الله – تَعَالَى، قَالَ – تَعَالَى – فِي سُورَةِ سَبأ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾[4]. وَقَد وَضَّحَ ذَلكَ رَسولُ الله ﷺ

(١) إبراهيم: ٣٤.
(٢) الضحى: ١١.
(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٤/ ٢٧٨)، وقال الأرناؤوط: «صحيح لغيره».
(٤) سبأ: ١٣.

عَمَلِيًّا حِينَ كَانَ يَقومُ مِنَ اللَّيلِ حَتَّى تتَفَطَّرَ قدماه، فقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فَقَالَ : «**يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[1].

قَالَ الجُنَيدُ- رَحِمَهُ اللهُ: الشُّكرُ أَلا يَستعِينَ الْعَبدُ بِنعمتِهِ- تَعَالَى- عَلَى مَعصِيتِهِ.

٣ـ وَشُكرٌ بَاطِنيٌّ بِالجَنَانِ : وَهوَ أَلا تَحْجُبَكَ رُؤيةُ النِّعَمِ عَنْ رُؤيَةِ المنعِمِ، قَالَ - تعالَى - فِي سُورَةِ النَّحلِ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[2]، وَقَد نَبَّه الرّسُولُ ﷺ إِلَى هَذِهِ الْحَقيقةِ حَيثُ قَالَ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ فَلَكَ الحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ**»[3].

وَذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ فِي مَدارِجِ السَّالِكِينَ أَنَّ مُوسَى- عَلَيهِ السَّلاَمُ- قَالَ: «**يَا رَبِّ خَلقْتَ آدمَ بِيدِكَ، وَنَفخْتَ فِيهِ مِنْ روحِكَ، وَأَسجدْتَ لَهُ مَلائِكتَكَ، وَعلَّمْتَهُ أَسماءَ كُلِّ شَيءٍ، وَفعلْتَ، وَفَعلْتَ، فَكيفَ أَطَاقَ شُكْرَكَ؟ قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجلَّ: عَلِمَ أَنّ ذَلكَ مِنّي، فَكانَتْ معرفَتُهُ بَذلِكَ شُكْراً**».

اعْلَمْ أَخِي الحَبيبَ: أَنّ الشُّكرَ مِنْ أَعلَى مَقَامَاتِ العِبَادَةِ لِاشتِمَالِهِ عَلَى الصَّبْرِ وَالرِّضَا وَالحمْدِ وَكَثِيرٍ مِنَ العِبَادَاتِ البَدَنيَّةِ وَالقَلبيَّةِ، وَهُوَ مِنْ أَعظَمِ صِفَاتِ الرُّسلِ الكِرَامِ - عَليهِمُ الصَّلاَةُ والسّلامُ، وَلِعُلُوِّ مَقامِ الشُّكرِ كَانَ الشَّاكرُونَ قَلِيلينَ بِالرّغْمِ مِنْ نِعمِ الله عَليهِم وَسِعةِ فَضلِهِ وَجُودِهِ قَالَ - تَعالَى- فِي سُورَةِ سَبَأ: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[4] ، وَقَالَ - تَعالَى - فِي سُورَةِ النَّملِ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[5].

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) عن عائشة – رضي الله عنها.
(٢) النحل : ٥٣.
(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٧٣)، وضعفه الألباني.
(٤) سبأ: ١٣.
(٥) النمل : ٧٣.

وَقَد رَأَى بَكرُ بنُ عَبدِ الله المَزَنيُّ الفَقِيهُ حَمَّالاً عَليهِ حِمْلُهُ وَهُوَ يَقولُ: الحَمدُ للهِ، أستغفِرُ اللهَ، قَالَ بَكرٌ: فَانْتَظرتُهُ حَتَّى وَضَعَ مَا عَلَى ظَهرِهِ، وَقلْتُ لَهُ: أَمَا تُحْسِنُ غيرَ هَذَا؟ قَالَ: بَلَى أُحسنُ خيراً كَثِيراً، أَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ، غيرَ أَنَّ العَبْدَ بَينَ نِعمَةٍ وَذَنبٍ، فَأَحمَدُ اللهَ عَلَى نِعمِهِ السّابِغَةِ، وَأَسْتغفِرُهُ لِذنُوبِي. فَقلْتُ: الحَمَّالُ أَفقهُ مِنْ بَكرٍ.

وَتَعودُ فَائِدةُ الشُّكرِ عَلينَا بزِيَادَةِ النِّعمَةِ فِي الدُّنيَا وَالجَزَاءِ الحَسنِ فِي الآخرِةِ، قَالَ- سُبحَانَهُ فِي سُورَةِ إبرَاهِيمَ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، وَقَالَ تَعالَى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[2] أَيْ جَزَاءً كَبيرًا حَسنًا، فَيزدَادُ الغَنيُّ الشَّاكرُ غِنًى، وَيزدَادُ القَويُّ الشَّاكِرُ قُوةً، وَهَكَذَا سَيَجْزِيهِمْ خَيرًا وَرِضًا فِي الآخِرَةِ، قَالَ ابنُ عَطَاءٍ فِي حِكَمِهِ: (مَنْ لَمْ يَشكُرِ النِّعمَ فَقَد تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا، وَمَنْ شَكرَهَا فَقد قَيَّدَها بعِقَالِهَا)، وإنَّ اسْتخدَامَكَ لِنِعَمِ الله فِيمَا لا يُرضِيهِ يُورِّثُ غَضَبَه - تَعالَى - وَعِقَابَهُ، وَسلْبَ نِعمَتِهِ عَنكَ.

قَالَ تَعالَى فِي سُورَةِ النّحْلِ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[3].

رُويَ أَنَّ المعْتمِدَ بنَ عَبَّادٍ أَمِيرَ أَشبِيلِيةَ فِي الأَندَلُسِ كَانَ يَعيشُ حَياةً مُتْرَفةً غَايَةً فِي التَّنعُّمِ وَاللَّذةِ، وَكَانَتْ زَوجتُهُ تَعِيشُ مَعَهُ فِي سُرُورٍ وَسَعَادَةٍ قَلَّمَا وُجِدَ لَهمَا مَثِيلٌ، وَكَانَ الملكُ لا يَرفُضُ لَهَا طَلَباً، وَفِي ذَاتِ يَوم اشْتَهتْ زَوجَتُهُ أَنْ تَخُوضَ فِي الطِّينِ كَعَادَةِ المترَفِينَ، فَأَمرَ بِسَحْقِ الطِّينِ ثُمَّ نُثِرَ فِي سَاحَةِ القَصْرِ حَتّى غَطَّاهَا، ثُمَّ عَجَنَهُ بِمَاءِ الوَرْدِ حَتى تَخُوضَ فِيهِ، وَتَمرُّ الأَيَّامُ وَتَغضَبُ

(١) إبراهيم: ٧.
(٢) آل عمران: ١٤٥.
(٣) النحل: ١١٢.

الزَّوجَةُ مِنَ المعتمِدِ، فَتُقسِمُ لَهُ بِأنَّهَا مَا رَأَتْ مِنْهُ خَيْراً قطُّ، فَقَالَ لَهَا مُستَنْكِراً: وَلا يومُ الطِّينِ؟ فَاستَحْيَتْ وَاعْتذَرَتْ، وَهُو مِصدَاقُ قَولِ نَبيِّنَا- عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- فِي حَقِّ النِّسَاءِ: «**لَو أَحْسنْتَ إِلَى إِحدَاهنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمّ رَأتْ مِنكَ شَيئاً، قَالَتْ: مَا رَأيْتُ مِنكَ خَيراً قَطُّ**»(١).

أَيُّهَا الأَحبَابُ القراء، إِنّ شُكرَ النّاسِ مِنْ شُكرِ اللهِ، قال تعالى فِي سُورَةِ لُقمَانَ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢)، فَمَنْ كَانَ لَهُ إِحسَانٌ إِلَيكَ أَوْ مَعرُوفٌ عِندَكَ فَمِنْ مَكَارمِ الأَخلاقِ أَدَاءُ الشّكْرِ إِلَيْهِ، وَالقَاعِدَةُ الأَخْلاقِيةُ تَقُولُ: (**مَنْ ضَيَّعَ شُكرَ النّاسِ كَانَ لِشُكْرِ الله أَضْيعَ**)، قَالَ ﷺ: «**لا يَشْكُرِ اللهَ مَنْ لا يَشكُرُ النّاسَ**»(٣).

قَالَ العَلَّامَةُ الخَطَّابِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - شَارِحاً لِهذَا الحَديثِ: (هَذَا الكَلامُ يتأَوّلُ عَلَى وَجهَينِ:

أَحدُهُمَا: أَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ طَبعِهِ وَعَادتِهِ كُفرَانُ نِعمَةِ النَّاسِ، وَتَركُ الشُّكرِ لِمعْرُوفِهِم كَانَ مِنْ عَادتِهِ كُفرَانُ نِعمَةِ الله وَتَركُ الشُّكْرِ لَهُ - سُبحَانَهُ.

الْوَجهُ الآخَرُ: أَنّ اللهَ- سُبحَانَهُ- لا يَقبَلُ شُكرَ العَبْدِ عَلَى إِحسَانِهِ إِليهِ إِذَا كَانَ الْعبْدُ لا يَشكُرُ إِحسَانَ النّاسِ، وَيكفُرُ مَعْرُوفَهُم، لاتِّصَالِ أَحَدِ الأَمرَينِ بِالآخَرِ).

وإِنّنَا مَغمُورُونَ بِنِعَمِ الله- تَعالَى، فَهُوَ القَائِلُ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٤)، وَلَكنْ مِنّا مَنْ يَغفَلُ أَو يَتَغَافَلُ عَن هَذِهِ النّعَمِ فَلا يُؤدِّي شُكرَهَا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩).

(٢) لقمان: ١٤.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، وصححه الألباني.

(٤) لقمان: ٢٠.

يُحْكَى أَنَّ رَجُلاً ابْتَلاهُ اللهُ بِالعَمَى وَقَطْعِ اليَدينِ وَالرِّجلَينِ، فَدخَلَ عَليهِ أَحدُ النّاسِ فَوَجدَهُ يَشْكُرُ اللهَ عَلَى نِعمِهِ، وَيقُولُ: الحَمْدُ لله الّذِي عَافَانِي مِمّا ابْتَلَى بِهِ غَيرِي، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً، فَتَعجَّبَ الرّجُلُ مِنْ قَولِ هَذَا الأَعمَى مَقْطُوعِ اليَدَيْنِ وَالرّجلَينِ، وَسَأَلَهُ: عَلَى أَيّ شَيءٍ تَحمَدُ اللهَ وَتَشكُرُهُ؟!

فَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا، أَشْكُرُ اللهَ أَنّ وَهبَنِي لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلبًا خَاشِعًا، وَبَدنًا عَلَى الْبَلاءِ صَابِرًا.

وَيُحكَى أَنّ رَجُلاً ذَهَبَ إِلَى أَحَدِ العُلَمَاءِ، وَشَكَا إِلَيهِ فَقْرَهُ، فَقَالَ العَالِم: أَيسُرُّكَ أَنّكَ أَعمَى وَلَكَ عَشرَةُ آلافِ دِرْهَمٍ؟

فَقَالَ الرّجُلُ: لا.

فَقَالَ العَالِم: أَيسرُّكَ أَنّكَ أَخرَسُ وَلَكَ عَشرَةُ آلافِ دِرهَمٍ؟

فَقَالَ الرّجُلُ: لا.

فَقَالَ العَالِم: أَيَسُرُّكَ أَنّكَ مجْنُونٌ وَلَكَ عَشرَةُ آلافِ دِرهَمٍ؟

فَقَالَ الرّجُلُ: لا.

فَقَالَ العَالِم: أَيَسُرُّكَ أَنكَ مَقطُوع اليَدينَ وَالرِّجْلَينِ وَلَك عِشْرُونَ أَلفًا؟

فَقَالَ الرّجُلُ: لا.

فَقَالَ العَالِم: أَمَا تَستَحِي أَنْ تَشكُوَ مَولاكَ وَلَهُ عِندَكَ نِعَمٌ بِخمسِينَ أَلفًا؟!

فَعَرفَ الرّجُلُ مَدَى نِعمَةِ الله عَلَيهِ، وَظَلَّ يَشكُرُ رَبَّهُ وَيَرضَى بِحَالِهِ، وَلا يَشتكِي إِلَى أَحَدٍ أَبدًا.

فَنَسأَلُ الله– تَعالَى – أَنْ يُعرِّفَنَا نَعمَهُ بِدَوامِهَا لا بِزَوالِهَا، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَى ذِكرِهِ وَشُكرِهِ وَحُسنِ عِبَادَتِهِ.

المحاضرة (٥)

انتبه قلبك مريض

أَيُّهَا القراء الكِرَامُ: رِحلتُنَا الأَثَرِيّةُ المحْرَابيَّةُ الْيـومَ فِي (حَـيّ المرقَـاب) مِـنْ مُحافَظَةِ العَاصِمَةِ:

١ـ وَأولُ مَسَاجِدِهَا مَسجِدُ (الْعَتِيقِي) الّـذِي كَـانَ يَقـعُ فِي حَـيّ المطـرَان، وَالّذِي مَوقِعُهُ الآنَ سُوقُ الأَقْمِشَةِ وَالبَطَاطِينَ، بَنَاهُ السَّـيُّد مُحَمَّـدُ بـنُ عَبـدِ الله الْعَتيقِي عَامَ (١٨٩٢م)، وَقَدْ أَعَادَتْ وَزَارَةُ الأَوقَافِ بِنَـاءَهُ فِي مَكانِـهِ الْقَـديمِ عَامَ (١٩٥٢م)، وَجَددَتْهُ مَرّةً أُخْرَى عَامَ (٢٠٠١م)، وَمِن أَشْـهَرِ أئمتِـهِ المـلا مُحمّدُ بنُ عَبدِ المحسِنِ الدُّعيج.

٢ـ وَمِنْ مَسجِدِ (الْعَتيقِي) نَنتقِلُ إِلَى مَسْجِدِ (الفُضَالَة) الشَّاهِدِ عَلَى مَوقِـعِ حَيِّ الفضَالَة خَلفَ المتْحَفِ العِلْمِيِّ، أَسَّسَهُ السَّيدُ (صَـالِحُ فضَـالَة الفضَـالَة) عَامَ (١٩٠٠م)، وَقَد سَقَطَ هَذَا الـمسْجِدُ عَامَ (١٩٠٨م) إثرَ وُصُولِ أَكثَرِ مِنْ جَنَازةٍ لِلمَسجِدِ فَتدَافَعَ النّاسُ عَلَى سَطحِهِ لِـمشَاهَدةِ الجَنَائِزِ فَسَقطَ جُـزءٌ مِـنْ سَطحِهِ مِـمَّا دَعَا لِتجدِيدِهِ، وفِي عَامِ (١٩٥٣م) قَامَتْ وَزَارةُ الأَوقَافِ بِتَجدِيدِهِ مَرّةً أُخْرَى، وَقَدْ أَمَّ فِيهِ النَّائِبُ السَّيدُ مُحَمدُ بنُ سُلَيمَانَ المرْشِدُ لِـمُدَّةِ شَهْرَينِ.

٣ـ ولَو عُدْنَا بِالتّارِيخِ إِلَى الخَلفِ لَرأَينَا مَكَانَ مُجَمَّـعِ الـوَزَارَاتِ حَيـاً قَـدِيماً يُسمَّى (حَيَّ النَّاصِرِيَّةِ) وَفِيهِ مَسجِدُ (القَصْمَةِ) الّذِي هُدِمَ وَلَم يُعَدْ بِنَاؤُهُ، أُسّسَ هَذَا المسجِدُ وَصَلّى فِيهِ إِمَاماً السَّيدُ عَبدُ الْعَزِيـزِ الْقَصْـمَة عَـامَ (١٩٢٣م)، ثُـمّ أَعَادَتْ وَزَارَةُ الأَوقَافِ بِنَاءَهُ عَامَ (١٩٥٣م)، وَمِن أَشهَرِ مَنْ صَلّى فِيهِ الشّـيخُ عَبدُ الرّحمنِ بنُ مُحَمَّدَ بنِ خَلَفٍ الدّوسَرِيُّ.

وَبَعْدَ هَذَا المرُورِ الموجَزِ عَـلَى الْآثَـارِ وَأَخْبَـارِ الْأَئِمَّـةِ الْكِبَـارِ تعـالوا معـي

لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ، وَمَوْعِظَتُنَا الْيَوْمَ بِعُنْوَانِ: (**سَلِيمٌ قَلْبُكَ أَمْ مَرِيضٌ؟**).

إِنّ قُلوبَنَا تَمْرَضُ، وَلا أَعنِي تَعَطُّلَ صِمَامِ القَلْبِ أَو الهُبُوطَ الحَادَّ وَالجَلَطَاتِ، فَهذِهِ أَمْرَاضٌ عُضويَّةٌ نَجِدُ عِندَ الأَطِّبَاءِ لَهَا دَوَاءً، ونُعْطَى بِالصَّبرِ عَليهَا الجَزَاءَ، وَنسأَلُ اللهَ مِنهَا الشّفَاءَ، وَلكنِّي أَعنِي مَا هُوَ أَخْطَرُ وَأَخفَى، إنّهَا أَمْرَاضُ الحَسدِ وَالْغِلِّ وَالحِقْدِ وَالْكِبْرِ وَالْقَسْوَةِ وَغَيرُهَا مِنَ الأَمْرَاضِ المعنَويَّةِ الّتِي تُصِيبُ قُلُوبَنَا، وَلا نَجَاةَ يومَ القِيَامَةِ إلا بعِلاجِهَا، فَقَد اخْتَصرَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَلَ رَجلٍ مِنْ أَهلِ الْـجَنَّةِ بِسَلامَةِ قَلبِهِ لا بِكَثْرَةِ عِبَادَتِهِ كَمَا جَاءَ فِي الصّحِيحِ.

وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ نَبيِّهِ إِبرَاهِيمَ- عَليهِ السَّلامُ: ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾[1] مَوصُوفٍ بِالأَخْلاق الحَمِيدَةِ وَمُطَهَّرٍ عَنِ الأَوصَافِ الذَّمِيمَةِ، كَمَا قَالَ القُرْطُبِيُّ.

يَقُولُ ابنُ القَيّم- رَحمَهُ اللهُ: (سَلِيمٌ مِنْ شُبهَةٍ تُورِدُ شَكًّا فِي دِينِ الله، أَو شَهْوَةٍ تُورِدُ تَقدِيمَ الهَوى عَلَى أَمرِ الله، أَو غَفْلَةٍ تُوجِبُ نِسيَانَ العبدِ لأَمرِ الله).

فَسَلامَةُ القَلبِ أَغلَى غَنِيمَةٍ فَازَ بِهَا المؤمِنُ، وَمَن سَلِمَ قَلبُهُ سَلِمَتْ جَوارِحُهُ. **قَالَ سَعيدُ بنُ المسيّبِ- رَحمَهُ اللهُ:** (الْقَلبُ السّلِيمُ الصّحِيحُ، هُوَ قَلْبُ المؤمنِ؛ لأَنّ قَلْبَ الْكَافِرِ وَالمنَافِقِ مَرِيضٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾[2]، وَرُوِيَ عَن بَعضِ الصَّالِحِينَ أَنَّهُ كَانَ يَقولُ: (عَجَباً لِلنّاسِ يَبكُونَ عَلَى مَن مَاتَ جَسَدُهُ، وَلا يَبكُونَ عَلَى مَنْ مَاتَ قَلبُهُ وَهُوَ أَشدُّ وَأَحَقُّ بِالبُكَاءِ).

أَخِي المسلِمَ.. أُختِي المسلِمَةَ: تَيقَّظُوا، وَعَلَيكُم بِالفَحْصِ المبَكِّرِ لِقلُوبِكُم عَنَد ظُهُورِ العَلاماتِ التّالِيَةِ:

(١) الشعراء: ٨٧ - ٨٩.
(٢) البقرة: ١٠.

العَلامَةُ الأُولَى: الإِعرَاضُ عَنْ دِينِ الله أو كِتَابِهِ أَو ذِكرِهِ وَالأُنسُ بِالدُّنْيَا وَلَهوِهَا، يَقُولُ- سُبحَانَهُ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾(١).

العَلامَةُ الثَّانِيةُ: كَثْرةُ الغَفلَةِ وَاللّهوِ: يَقولُ تَعالَى: ﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا ﴾(٢).

يَقُولُ ابنُ الْقَيّم – رَحِمَهُ اللهُ: (فإِذَا تَرَاكَمَ عَلَى الْقَلبِ الصَّدَأُ وَاسْوَدَّ، رَكِبَهُ الرَّانُ، وَفَسَدَ تَصوُّرُهُ وإِدراكُهُ، فَلا يَقْبَلُ حَقاً وَلا يُنكِرُ بَاطِلاً، وَهَذَا أَعظَمُ عُقوبَاتِ الْقَلْبِ، وَأَصْلُ مِنْ ذَلِكَ الْغَفْلَةُ، فَإِنهمَا يَطْمِسَانِ نُورَ القَلبِ وَيُعمِيَانِ بَصَرَهُ).

أَمّا العَلاَمَةُ الثَّالثَةُ: فَقَد وَرَدَ فِي المَوَاعِظِ الحِسَانِ: (عَلامَاتُ فَسَادِ القَلْبِ وَمَوتِهِ: عَدَمُ الحُزنِ عَلَى مَا فَاتَ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَترْكُ النّدَمِ عَلَى مَا فَرَّطَ مِنَ الزّلاتِ).

ثُمّ اعْلَمْ عَزِيزِي القارِئ أَنّهُ لا عِلاجَ دُونَ مَعرِفَةِ الأَسْبَابِ، وَأَسبَابُ فَسادِ قُلُوبِنَا كَثِيرةٌ أَهمُّهَا:

السَّبَبُ الأَولُ: كَثرَةُ الْخِلْطَةِ: المجَرَّدَة عَنِ الاصْطِفَاءِ، وَلِذَلكَ يَقُولُ ﷺ: «**لا تُصَاحِبْ إلا مُؤمِناً**»(٣)، وَقَالَ- تَعالَى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ ﴾(٤).

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ- رَحِمَهُ اللهُ: (أَي لا يُخَالطُونَ أَهلَهُ وَلا يُعَاشِرُونَهُم).

السّبَبُ الثّانِي: الإِعْرَاضُ عَنِ الحَقِّ بَعدَ مَعرِفَتِهِ، قَالَ – تَعالَى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾(٥).

---

(١) الزمر: ٤٥.

(٢) الكهف: ٢٨.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، وحسنه الألباني.

(٤) القصص: ٥٥.

(٥) الصف: ٥.

أَمّا السّبَبُ الثَّالِثُ لِـمَرضِ القُلُوبِ فَهُوَ: التّمَنِّي، وَالنّاسُ فِيهِ قِسمَان: قِسْمٌ يَرْكَبُ بَحْرَ الأَمَانِيِّ الفَاسِـدَةِ وَلا يُعـرَفُ أَيـنَ سَـاحِلُهُ، فَتَتلاعَـبُ بِـهِ أَمـوَاجُ الشّهَوَاتِ، وَقِسمٌ صَاحَبَتْ أُمْنيَاتِهِ الصَّالحَةَ هِمَّةٌ عَالِيةٌ، فَأَمَانِيُّ هَذَا إِيـمانٌ وَنُـورٌ وَحِكمةٌ، وَأَمانِيُّ أُولَئكَ خِدَاعٌ وَغُرورٌ.

والسبب الرابع: هو التَّعَلُّقُ بِغَيرِ الله: وَهُوَ مِنْ أَعظَمِ مُفسِدَاتِ القُلُوبِ عَلَى الإِطْلاقِ، فَمَنْ تَعلَّقَ بِغيرِ الله وَكَلَهُ اللهُ إِلَى مَا تَعلّقَ بِهِ وَخَذلَـهُ، وَفاتَـهُ تَحصِـيلُ المقصُودِ مِنَ الله- عَزَّ وَجلَّ - فَلا عَلَى نَصِيبِهِ مِنَ الله حَصَـلَ، وَلا إِلَى مَـا أَمّلَـهُ مِمّنْ تَعَلقّ بِهِ وَصَلَ.

والسبب الخامس: عَندَمَا نَمتَنِعُ عَنِ الطَّعَامِ فِي شَهرِ رَمضَانَ يَجِبُ عَلينَـا أَنْ نَتذَكَّرَ أَنّنَا بِذَلكَ نُعالِجُ قُلُوبَنَا، فَكثْرَةُ الأَكـلِ وَالشَّـبَعُ المفْـرِطُ تُقسِّي- الْقُلـوبَ وَتُمْرِضُهَا، وَلا شَكَّ أَنَّ الَّذِي يَصُومُ فِي النَّهَارِ ثُـمَّ يُفْـرِطُ وَيُكثِـرُ مِـنْ صُـنُوفِ الطّعَامِ عِندَ المسَاءِ قَد فَوّتَ عَلَى نَفسِهِ فَائِدةَ هَذَا الدّوَاءِ، وَمِـن ذَلـكَ- أَيْضـاً- كَثرَةُ النّوم. **قَالَ ابنُ القَـيِّم - رَحِمَـهُ اللهُ**: (قَسْـوَةُ القَلـبِ مِـنْ أَربعَـةِ أَشْـياءَ إِذَا جَاوَزَتْ قَدرَ الحَاجَةِ: الأَكلُ، وَالنّومُ، وَالكَلامُ، وَالمخَالطَةُ).

والسبب السادس هو الذّنُوبُ: الّتِي تُمرِضُ القُلوبَ وَتُمِيتُهَا، وَفِي الحَديثِ: «**أَنَّ العَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً كَانَتْ نُكتَةٌ سَوداءَ فِي قَلبِهِ، فَإِنْ تَـابَ وَاسْـتغفَرَ صُـقِلَ قَلبُهُ، وَإِنْ عَادَ إِلَى الذّنبِ عَادَ السَّوَادُ ،حَتّى يَسْودَّ قَلبُهُ، فَذَلكَ الرَّانُ الّذِي ذَكَرَه - تَعَالَى**: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾»(١).

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ   وَقَد يُورِثُ الذُّلَّ إِدمَانُهَا

---

(١) المطففين: ١٤.

وَتَركُ الذُّنُـوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ　　وَخَيرٌ لِنَفسِكَ عِصْـيَانُهَا

إِنْ رُمْتَ صَلاحَ قَلبِكَ فَـلا بُـدَّ لَـكَ مِـنَ الوِقَايِـةِ أَولاً مِـنَ الأَسـبَابِ الَّتِـي ذَكرْنَاهَا سَابقاً، ثُمَ إِنْ شَعَرْتَ أَنّ المرَضَ قَد تَسلَّلَ لِقلْبِكَ فَاسْمَعْ لِقولِ الشَّاعِرِ:

دَواءُ القَلْبِ خَمْسٌ عِندَ قَسْوَتِهِ　　فَدُمْ عَليهَا تَفُزْ بِالخَيــرِ وَالظَّفَرِ

خَـلاءُ بَـطْـنٍ ، وَقُرآنٌ تَـدَبَّـرهُ　　كَذَا تَضَرُّعُ بَاكٍ سَاعَةَ السَّحَــرِ

كَذَا قِيَامُكَ جُنْحَ اللَّيلِ أَوْسَطَهُ　　وَأَنْ تُجَالسَ أَهلَ الـخَيرِ وَالـخَبَرِ

وَلا بُدّ لَكَ مِنَ العَقَاقِيرِ التّالِيَةِ:

أَولاً: التّوبَةُ وَالاسْتِغفَارُ مَعَ كَثْرَةِ الذِّكْرِ وَقِراءَةِ القُرْآنِ بِتَدبُّرٍ وَتَفكُّـرٍ: قَـالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]، وقَدْ رُوِي فِي الحَـدِيثِ: «**إِنَّ القُلُـوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الحَدِيدُ، وَجِلاؤُهَا كَثْرَةُ تِلاوَةِ كِتَابِ اللهِ تَعَـالَى، وَكَثْـرَةُ الـذِكْرِ للهِ- عَزَّ وَجَلَّ**»[2] .

يَقُولُ ابنُ القَيّم- رَحِمَهُ اللهُ: (وَمِفتَاحُ حَياةِ الْقَلْبِ: تَـدَبُّرُ الْقُـرْآنِ وَالتَّضَرُّـعُ بِالْأَسْحَارِ وَتَرْكُ الذّنُوبِ).

ثَانِياً: الدُّعَاءُ وَسُؤَالُ الله الشِّفَاءَ: بِقَولِكَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَـلَى دِينِكَ، وَيَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِـكَ، وَبِقولِـكَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[3].

ثَالِثاً: تَذَكُّرُ الآخِرَةِ وَزِيارَةُ الموتَى وَعِيادَةُ المـرْضَى وَمُــجَالَسَةُ الصَّـالِحِينَ، وَالإِكثَارُ مِنَ الأَعمَالِ الصّالِـحَةِ، مَعَ مُحَاسـبَةِ الـنّفْسِ وَعَـدمِ تَرْكِهَـا وَهَوَاهَـا، وَقِيامُ اللّيلِ بِتَضَرُّعٍ فِي أَوقَاتِ السَّحَرِ، فَإِنّ هَذِهِ الأَعمَالَ تُلَـيِّنُ الْقَلْـبَ وَتَجعلُـهُ

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/ ٧٨) (١٩٠٩٥).

(٣) آل عمران: ٨.

سَلِيماً مُعَافى.

وَأَخِيراً: جِمَاعُ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ تَرْجِعُ إِلَى الشَّـهَوَاتِ، وَرَأسُ الشِّـفَاءِ مِنهَـا مُجَاهَدةُ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوُءِ وَمُحَاسَبتُهَا، وَاسْمعْ مَعِي لِنصِـيحَةِ ابْـنِ الْقَـيِّمِ- رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (اطْلُبْ قَلبَكَ فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ:

١ - عِندَ سَمَاعِ الْقُرآنِ.

٢ - وَفِي مجَالِسِ الذِّكرِ.

٣ - وَفِي أَوقَاتِ الْـخَلْوَةِ.

فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فِي هَذِهِ المَوَاطِنِ فَسَلِ اللهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيكَ بِقَلْـبٍ، فَإِنّـهُ لا قَلْـبَ لَكَ).

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِـمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَو أَلقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، اللّهُمَّ يَـا مُقَلبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلبِي عَلَى دِينِكَ، وَيَا مُصرَّفَ القُلُـوبِ صَرَّفْ قَلُوبَنَـا إِلَى طَاعَتِكَ.

المحاضرة (٦)

أحكم النصائح

رِحلتُنَا الأَثَرِيَّةُ المحرَابِيةُ إِلَى (حَيِّ الصَّالِحِيّةِ) مِنْ مُـحَافَظةِ العَاصِمَةِ:

١ـ وَأَوَّلُ مَساجِدِهَا المسجِدُ المشهُورُ بِاسْمِ (المـلّا صَـالِحِ)، وَيَقـعُ فِي حَـيِّ الصَّالِـحَّيةِ عَلَى شَارِعِ فَهدِ السَّالم شَارِعِ الْـجَهرَاءِ خَلْـفَ عَـمَارَاتِ الْعَنجَـرِيِّ، أَسَّسَهُ الشَّيخُ سَالم مُبارَكُ الصّبَاحُ عَامَ (١٩١٩م) وَكَانَ المشرِفَ عَلَى الْبِنَاءِ مِـنْ قِبلِ الشّيخِ (سَالم) الـملا صَالِح الَّذِي يُنْسَبُ المسجِدُ لَهُ، وَقَـد جَـدَّدَتْ وَزَارَةُ الأَوْقَافِ بِنَاءَهُ عَامَ (١٩٤٩م) عَلَى الطِّرَازِ الْـحَدِيثِ، كَمَا أَنَّ أَبنَاءَ المرحُومِ الملا صَالِح قَامُوا بِتَجْدِيدِهِ مَرَّةً أُخرَى عَامَ (١٩٨٤م)، وَمِنْ أَشهَرِ أَئِمتِهِ المـلا سَـيِّدُ يَعقُوبُ السّيدُ يُوسُفُ بنُ حُسينٍ الطَّبْطبَائِي، وَالَّذِي دَرَسَ المـذْهَبَ الشّـافِعِيَ عَلَى يَدِ الشّيخِ عَبدِ الله الْعَدْسَانِيِّ.

٢ـ وَمِن مَسْجِدِ (الملاَّ صَالِحِ) نَنتَقِلُ إِلَى خَلْفِ البَلَدِيَّةِ الحَالِيَّـةِ حَيـثُ يَقَـعُ مَسجِدُ (الْعَجيرِيِّ) وَيُطْلَقُ عَلَيهِ أَحْيَاناً مَسـجِدَ الغَـربَلِلي، نِسْـبَةً لِلسَـيِّدِ أَحمَـد هَاشِمٍ الْغَربَلِّلِي الّذِي كَانَ جَارَ المسْجِدِ، أَسّسَهُ الْـحَاجُّ مُحَمَّدٌ صَالِحُ الْعجـيري عَامَ (١٩٣٤م)، وَقَد أَعَادَتْ وَزَارَةُ الأَوقَافِ بِنَـاءَهُ عَـامَ (١٩٥٢م) فِي مَكَانِـهِ القَدِيمِ، ثُمّ أُسِّسَ بِنَاؤُهُ مِنْ جَدِيدٍ عَامَ (١٩٦٧م) وَهُوَ الموجُودُ حَالِيـا، أَمَّ فِيـهِ الملا مُحَمَّدُ إِبرَاهِيمُ الشَّايِجِيُّ.

٣ــ وَمِـنْ مَسَـاجِدِ الصَّـالِحِيةِ الَّتِـي هُـدِمَتْ وَلَمْ تُـبْنَ مِـنْ جَدِيـدٍ مَسْـجِدُ (العجَيرِي الثَّانِي)، وَالَّذِي كَانَ يَقَعُ قُربَ مَقْبَرَةِ الصَّالِحِيَّةِ القَدِيمَةِ بِجِوَارِ قَصْرِ نَايِفٍ، وَمَوقِعُهُ الآنَ شَرقَ فُندُقِ لُنْدُنَ فِي وَسَطِ الشّـارِعِ الهِـلالِيِّ، أُسِّـسَ عَـامَ (١٩٤٣م)، وَقَدْ أَمَّ فِيهِ الملا عَبدُ الله بنُ عَلِيٍّ الْـخنينِي.

وبَعْدَ مُعَايَنَةِ الآثَارِ وَالحَدِيثِ عَنِ الأَئِمَّةِ الْكِبَارِ - رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى - تَعَالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعنوان: (**النَّصِيحَةِ الْحَكِيمَةِ**).

إِنّ مِنَ النَّمَاذِجِ الرَّائِعَةِ فِي المَوَاعِظِ (**مَوعِظَةَ لُقمَانَ لِابنِهِ**) الّتِي يَنقِلُ بِهَا عُصَارَةَ خِبرتِهِ وتَجْربَتِهِ فِي مُعَارِكَةِ الْحَيَاةِ وَمُخَالَطَةِ النَّاسِ إِلَى وَلَدِهِ؛ لِكَي يَبقَى هَذَا الوَلَدُ ثَمرةَ خَيرٍ وَصَدقةً جَارِيَةً بَعدَ مَماتِهِ، وَلقَدْ سَجَّلَ القُرآنُ الكَرِيمُ لَنَا تِلكَ المَوعِظَةَ لِمَا تَضمنَتْهُ مِنَ الْوَصَايَا الحَكِيمَةِ، وَالأَمرِ بِمكَارِمِ الأَخلاَقِ، وَالنَّهيِ عَنِ القَبَائِحِ وَالمنكَرَاتِ، وَنَقِفُ اليَومَ عِندَهَا بَعضَ الوَقَفَاتِ.

الوِقفَةُ الأُولَى: أَهمِّيَّةُ الْحِكمَةِ فِي الوَاعِظِ: ابْتَدأَ رَبُّنَا - سُبحَانَهُ - قَبلَ ذِكرِ مَوْعِظَةِ لُقْمَانَ بِذكرِ صِفتِهِ فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[١] وَهِيَ: (الإِصَابَةُ فِي القَوْلِ وَالإِحْسَانِ فِي القَولِ وَالعَمَلِ) كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ أَهَمِّ صِفاتِ الوَاعِظِ وَالدَّاعِي لِلآخَرِينَ، بِأَنْ يُحسِنَ المَوعِظَةَ قَولاً، وَأَن يُحْسِنَ العَمَلَ بِمَا يَعِظُ.

الوِقفَةُ الثّانِيةُ: التَّعَهُّدُ بِالنُّصْحِ مَعَ حُسْنِ اختيَارِ الْوَقْتِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾[٢]، مِنْ هُنَا بَدأَتْ الوَصِيَّةُ ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾، **وَاسْتَخْدَمَ القُرآنُ الفِعلَ المضَارِعَ** هُنَا لِيُعلِّمَنَا أَمْرَينِ: اسْتمرَارِيةَ المَوْعِظَةِ مَعَ اخْتيَارِ الوَقْتِ المَنَاسِبِ لِلوَعْظِ، وَلَيْسَ كَلَاماً طَارِئاً فِي وَقْتٍ لا يَكونُ الابْنُ أَو المَنْصُوحُ فِيهِ مُهَيأً لِلتَّلَقِّي، وَفِي الحَدِيثِ أَنّ ابنَ مَسعُودٍ ﷺ كَانَ يُذَكِّرُ النَّاسَ كُلَّ يَوْمِ خَمِيسٍ بانتظام، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنَّا نُحِبُّ حَدِيثَكَ وَنَشْتَهِيهِ وَلَوَدِدْنَا أَنَّكَ حَدَّثْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ، فَقَالَ: (مَا يَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ إِلَّا كَرَاهِيَةُ أَنْ أُمِلَّكُمْ، إِنَّ رَسُولَ

(١) لقمان: ١٢.
(٢) لقمان: ١٣.

اللهِ ﷺ كَانَ يَتَخَوَّلُنَا بِالموْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهِيَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا)[١].

الوقفَةُ الثَّالِثَةُ: الرفْقُ وَاللُّطْفُ فِي الموعِظَةِ: ابْتَدأَ لُقمانُ أَوَّلَ كَلِمَةٍ فِي النّصْحِ بِكَلِمَةِ الرِّفقِ ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ وهِيَ كَلِمَةُ إِشْفَاقٍ وَتَصغِيرٍ لِلتَّحَبُّبِ وَالتَّلَطُّفِ، وَالكَلِمةُ الطّيِّبَةُ مِفتَاحُ القُلُوبِ المقْفَلَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾[٢]، وَجَاءَ رَجلٌ إِلَى الخَليفَةِ المأمُونِ فَقَالَ: إِنِي وَاعظُكَ وَمُغلِظٌ لَكَ فِي الموعِظَةِ، فَقَالَ المأمُونُ: مَهْلاً وَلِمَ الغِلْظَةُ يَا أَخِي؟! لَقدْ أَرسَلَ اللهُ مَنْ هُوَ خَيرٌ مِنْكَ- يَعنِي مُوسَى- عَلَيهِ السَّلامُ- إِلَى مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنّي- يَعنِي فِرعَونَ- وَأَمرَهُ بِالرِّفْقِ بِهِ فَقَالَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[٣].

وَأَنتَ أَيُّهَا الأَبُ: إِنْ أَجلَسْتَ وَلدَكَ إِلَى جَانِبِكَ وَوَضعْتَ يَدَكَ عَلَى رَأسِهِ وَكَتِفِهِ، وَقلْتَ لَهُ: يَا بُنَيَّ، فَتأَكَّدْ أَنَّ هَذِهِ الْحَرَكَةَ وَالكَلمَةَ مِفتَاحُ قَلبِهِ لِيقُولَ لَكَ: (قُلْ مَا شِئتَ يَا أَبِي فَإِنِّي أَسمَعْ، وَأْمُرْ بِمَا شِئتَ فَإِنّي مُطِيعٌ).

الوقفَةُ الرَّابِعَةُ: أَسَاسُ الموعظَةِ البِدَايةُ بِأَهمِّ الأُمُورِ: وَكَانَتْ بِدَايَةُ نَصِيحَةِ لُقمَانَ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾[٤] ابْتَدأَ بِالتوحِيدِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ كُلّ العِبَادَاتِ التِي لا تُقْبَلُ بِدونِهِ، وَهَذَا خَيرُ مَا يُعلّمُهُ الوَالِدُ لِولَدِهِ، ثم قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[٥] مُعَلِّلاً النَّهيَ عَنِ الشِّركِ بِأَنَّهُ ظُلْمٌ، وَمُعَلِّماً لَنَا إِذَا نَصَحْنَا أَحَداً أَنْ لا تَقتَصِرَ نَصيحَتُنَا عَلَى الأَمرِ وَالنَّهيِ دُونَ تَبيِينِ الفَوائدِ فِي المأمُورِ بِهِ أَوِ الضَّرَرَ فِي المنهِيِّ عَنهُ؛ فَإِنّهُ أَقربُ لِقلْبِ وَعَقلِ المنصُوحِ، وَفِي المثَلِ: (إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَملِكَ العُقُولَ فَأَقنِعْ).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١) عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) طه: ٤٤.

(٤) لقمان: ١٣.

(٥) لقمان: ١٣.

وَالحِكْمَةُ وَالفَصَاحَةُ تَظهَرُ فِي هَذِهِ الموعِظَةِ عِنْدَمَا وَصفَ الشّرْكَ بِالظُّلْمِ؛ فَلَوْ تَقَدَّمَ شَخْصَانِ لِوَظِيفَةِ مُدِيرٍ مَثلاً وَكَانَ الأَوَّلُ يَتَميَّزُ بِقُوَّةِ الشّخصِيةِ وَالخِبرَةِ وَالشَّهَادَةِ، بَينَمَا الثّانِي يَجهَلُ الأَمرَ تَماماً، فَلا شَهادَةَ وَلا خِبرَةَ وَلا شَخصِيَّةَ، فَلُو سَوَّيْنَا بَينَهُمَا، أَفَلا يَكونُ ذَلِكَ ظُلْماً؟! وَكَذلِكَ المشْرِكُ عِندَمَا سَوَّى بَينَ الخَالِقِ وَالمخلُوقِ، وَبَيْنَ الإِلَهِ وَالصَّنَمِ، فَهُو- بِلا شَكّ- أَحمَقُ النّاسِ، وَأَبعدُهُم عَنْ مَنطِقِ العَقلِ وَالحكْمَةِ، وَحَرِيٌّ بِهِ أَن يُوصَفَ بِالظّالم.

الوقفةُ الْخَامِسَةُ: الرقَابَةُ الذّاتيّةُ عَلَى المعَاصِي: إِذَا أَردْتَ أَنْ تُرسِّخَ فِكرَةً مَعنَويّةً فِي ذِهنِ السّامِعِ فَاضْرِبْ لَهُ مَثَلاً مِنَ المحسُوسِ، وَهَذَا مَا فَعَلَه لُقمَانُ مَعَ ابْنِهِ، قَالَ يَا بُنيّ إِنّ المعَاصِي مَهمَا كَانَتْ صَغِيرَةً وَلَو بِصِغَرِ حَبةِ الْخَردَلِ – وَهِي أَصغَرُ الحُبُوبِ- فَتَكُنْ فِي جَوفِ صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ الشّاسِعةِ بَينَ النّجُومِ أَوْ فِي طَبَقَاتِ الأَرْضِ فَإِنّ اللهَ- سبحانه- يَعلمُ بِهَا وَيَأْتِي بِهَا، وَمِن خِلالِ هَذَا التَّمثِيلِ الرّائِعِ المحسُوسِ اسْتَطاعَ لُقمَانُ أَنْ يَغرِسَ فِي ابْنِهِ الشّعُورَ بِرقَابَةِ الله- تَعَالَى- عَلَيهِ.

الوقفَةُ السَّادِسَةُ: يُواصِلُ لُقمَانُ مَوعِظَةَ ابْنِهِ بِأَعْمَالِ الخَيرِ وَالصَّبرِ عَليهَا:

فَيوصِيهِ أَوّلاً بِالصّلاةِ: وَهِيَ الرُّكنُ الأَولُ بَعْدَ التَّوْحِيدِ، فَقالَ لُقمَانُ لابنِهِ بعبَارَةٍ مُختَصَرةٍ بَلِيغَةٍ: يَا بُنيَّ أَقِمِ الصّلاةَ، وَالإِقامَةُ الإِتْيَانُ بِالصّلاةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ وَأَحْسَنِهِ، وَالصّلاةُ هِيَ الرّابِطَةُ بَينَ العَبدِ وَرَبِّهِ يَستَمِدُّ مِنهَا قُوَّةَ الإِيمَانِ، وَيَتزَوَّدُ بِهَا مِنَ التَّقْوَى وَالعَمَلِ الصّالِحِ.

ثُمّ ثَنّى ذَلِكَ بِأمرِهِ: بِأَنْ يَقُومَ بِوَاجِبِ النُّصْحِ وَالدَّعْوَةِ وَأَنْ يَأمُرَ بِالمعْرُوفِ وَينْهَى عَنِ المنْكَرِ؛ لِيُحسَّ بِمَسؤُوليَّتِهِ تِجَاهَ وَطَنِهِ.

ثُمَّ يَختِمُ ثَالِثاً: أَعْمَالَ الخَيرِ بِالوَصِيَّةِ بِالصَّبرِ عَلَى ذَلِكَ، وَمِن لَطَائِفِ هَذَا

التّرتِيبِ أَنّهُ جَاءَ بِالصَّبْرِ بَعدَ الأَمْرِ بالمعرُوفِ وَالنهي عَنِ المنْكَرِ؛ لِيُنَبِّـهَ عَـلَى أَنّ الدَّاعِيَةَ وَالوَاعِظَ لِلنَّاسِ تَلْحَقُهُ مَضَرَّةٌ تَتَوجّبُ مِنهُ تَوطِيدَ نَفسِهِ عَلَى الصَّبرِ وَالتَّحمُّلِ، وَالنَّبيُّ ﷺ خَيرُ مَثَلٍ عَلَى ذَلِكَ؛ إِذْ لاقَى مَا لاقَى مِن العَدَاوَةِ وَالإِيذَاءِ فِي طَرِيقِ دَعْوتِهِ وَهُوَ صَابِرٌ مُحتَسِبٌ.

الوقفَةُ السَّابِعَةُ: يَنْتَقِلُ بِنَا هَذَا النَّاصِحُ الحَكِيمُ مِنْ أُسلُوبِ الطّلَبِ إِلَى أُسْلُوبِ التَّحْذِيرِ مِنَ الخِصَالِ الذَّمِيمَةِ عَندَ الله والنَّاسِ، فَيقُولُ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾[١] ، قَالَ القُرْطُبيُّ: أَيْ لا تُمِلْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ كِبْراً عَلَيْهِم وَإِعجَاباً، وَتَحْقِيراً لَهُمْ، وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مُختَالاً؛ ثُمّ عَلَّلَ هَذَا التَّحْذِيرَ بِأَنّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، **وَلا يَخْفَى عَلَيْكَ أَخِي القارئ** سُوءُ رَذيلَةِ التكَبُّرِ، وَيكفِي أَنّهَا سَببُ طَرِدِ إِبلِيسَ مِنَ الجَنَّةِ عِندَمَا قَالَ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[٢] ، وَفِي الحَدِيثِ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلبِهِ مِثْقَالَ ذَرّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[٣].

وتَقُولُ القَاعِدةُ الأُصوليَّةُ: (**إِنَّ النَّهْيَ عَنِ الشَّيءِ أَمْرٌ بِضِدِّهِ**) وَحيثُ نَهَى لُقمَانُ ابْنَهُ عَنِ التَّكَبُّرِ فَقَدْ أَرادَ بِذلِكَ أَنْ يَغرِسَ فِي نَفْسِهِ قِيمَةً أَخْلاقِيةً مَمدُوحَةً وَهيَ التَّوَاضُعُ.

الوقفَةُ الثَّامِنَةُ: وَأَخِيراً يَختِمُ الحَكِيمُ لُقمَانُ نَصيحَتَهُ لابنِهِ بِبعْضِ أُمُورٍ سُلوكِيّةٍ تَتعلَّقُ بِاتّزَانِ الشَّخْصِيَّةِ وَكَمَالِها فَقَالَ: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾[٤] فَوجَّهَهُ إِلَى التّوسُّطِ فِي مشيَتِهِ بَينَ الإِسْرَاعِ وَالبُطءِ؛ لأَنَّ الإِسْرَاعَ فِي السّيرِ يُذهِبُ بَهَاءَ الإِنسَانِ، وَالبُطْءَ يُشْعِرُ بِالضَّعْفِ، ثُمّ وَجَّهَهُ إِلَى أَدَبِ الحَديثِ وَالخِطَابِ فَقَالَ لَهُ: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾[٥] فَلا تَرْفَعْهُ أَثنَاءَ الحَديثِ عَالِياً فَإِنهُ لا يَجْمُلُ بِالعَاقِلِ،

(١) لقمان : ١٨.
(٢) الأعراف : ١٢.
(٣) أخرجه مسلم (٩١) عن عبد الله بن مسعود ﷺ.
(٤) لقمان : ١٩.
(٥) لقمان : ١٩.

وَمَنْ رَفَعَ صَوتَهُ عَالِياً شَابَهَ الحِمَارَ فِي صَوتِهِ المنكَرِ، وَإِنَّ أَوْحَشَ وَأَنْكَرَ الأَصوَاتِ صَوتُ الحَميرِ. قَالَ الحَسنُ: كَانَ المشْرِكُونَ يَتفَاخَرُونَ بِرفْعِ الأَصْوَاتِ، فَردَّ عَليهِم بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَيراً لَفَضَلتْهُم بِهِ الحَمِيرُ. وَقَالَ قَتادَةُ: أَقبَحُ الأَصوَاتِ صَوتُ الحَمِيرِ، أَولُهُ زَفِيرٌ وَآخِرُهُ شَهِيقٌ.

وَهَكَذَا تُخْتَمُ هَذهِ الوَصيّةُ الحَكِيمَةُ الّتِي اشْتمَلَتْ عَلَى فَوائِدَ فِي تَربيَةِ الأَبنَاءِ وَالرفْقِ فِي مَوعِظتِهِم، مَعَ الوَصيّةِ بِالتَّوحِيدِ وَالصَّلاةِ وَالصَّبْرِ، وَالتّحذِيرِ مِنَ الكِبْرِ، مَعَ التَّحلِّي بِالسّلُوكِيَّاتِ وَالأَخلاقِ الفَاضلَةِ.

اللّهُمَ اجْعلنَا مِمّنْ يَستَمِعُونَ القولَ فَيتَّبِعُونَ أَحسنَهُ.

المحاضرة (٧)

قوارب للنجاة

رِحلتُنَا الأَثريَّةُ المحرَابيّةُ سَوفَ تَكونُ فِي الْـجُزُرِ وَالبِحَارِ فِي جَزيرةِ (فَيلَكَا) مِنْ مُحافَظةِ العَاصمَةِ:

١ـ كَانَ أَهالِي جَزِيـرةِ فَيلكَـا يَقْطنُـونَ القُـرَى المنتشِرـةَ فِي شَـمالِ وَجنُـوبِ الـجَزيرةِ، وَبِسببِ الطَّاعُونِ انْتقَلُـوا عَـنْ هَـذهِ المنَـاطقِ الموبُـوءةِ إِلَى سَـوَاحلَ نَظِيفةٍ، وَقَد كَانَ لَـهُم فِي أَمَاكنِهم القَدِيمةِ بَعـضُ المسـاجِدِ الّتِـي هُـدِّمَتْ، وَلَمَ يَصِلْ عَنهَا أَيُّ مَعلُومَاتٍ سِوَى مَسجِدَينِ اثْنينِ:

المسْجِدُ الأَوَّلُ: **(الدِشْت)** وَيقَعُ إِلَى الشَّرقِ مِنْ رَأسِ رُوسيَّة، وَكَـانَ أَهلُهَـا يَسْكُنُونَهَا حَتَّى بِدَايةِ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، وَذُكِرَ أَنَّ الشّيْخَ عُثمَانَ بنَ سَـنَدٍ كَـانَ يَؤمُّ المصلّينَ فِيهِ، وَقَد هُدِمَ هَذَا المسجِدُ وَلَم يُعَدْ بناؤُهُ.

المسْجِدُ الثَّانِي: **(القَرنيةُ)** وَهِيَ قَريةٌ قَدِيمةٌ مَا زَالَ إِلَى الآن يَنْبِضُ فِي أَرضِهَا عِرقُ الـحَياةِ عَلَى شَكلِ بَقايَا أَشجَارِ النّخِيلِ وَالسدْرِ، وَكَانَ المسجدُ فِيهَـا مِـنَ الجِهةِ الشّرقِيةِ وَبنَاؤُهُ عَالياً، وَقَد هُدِمَ هَذَا المسجِدُ وَلَم يُعدْ بِناؤُهُ.

٢ـ وَعَلى جَزيرةِ فَيلكَا مَا زَالَ إِلَى الآن مَاثِلاً أَقدَمُ مَسـاجِدِهَا، إِنـهُ مَسـجِدُ (الشَّافِعِيِّ) فِي مَنطِقةِ الزَّورِ، وَأَمّا مَوقِعُهُ الحَالِي فَهُو فِي الْـجِهةِ الجنُوبيةِ الشّرقِيةِ مِن بيوتِ الأَهَالِي، وَقَد أَطلقَتْ عَليـهِ وَزارَةُ الأَوقَـافِ اسـمَ الشّـافِعيّ وَكَـانَ يُعرفُ بِالفَوقِي، وَأَغلبُ الظّنِ أَنّ مُؤسسَهُ من سُكّان الجَزيـرةِ الأَوائِـلِ الّـذِينَ سَكنُوا الزّورَ عَامَ (١٧٧٣م) تَقرِيباً، وَقَد مَرّ المسجِدُ بِعدَةِ تَـرميمَاتٍ، مِنهَـا مَـا عَرفنَاهُ، وَمنهَا مَا لَـم يَصلْنَا، غَيرَ أَنّ وَزارَةَ الأَوقَافِ قامت بإعـادة بِنـاءِهِ عَـامَ (١٩٥٦م)، وَمِن أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الملا إِدْرِيسُ بـنُ إِسـمَاعِيلَ، وَكَـانَ لَـهُ كُتّـابٌ فِي

الـجَزيرةِ دَرسَ عِندَهُ الملا عَبدُ القَادرِ بنُ مُحمدٍ السّرحَان صَغِيراً.

وبَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجَزِ عَلَى آثَارِ مَسَاجِدِنَا وَذِكْرِ أَئِمَّتِنَا، سَنَستَمِعُ لِلمَوَاعِظِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الْـهَامَّةِ وَهِي الْيَومَ بِعُنوَانِ: (قَوَارِبُ النّجَاةِ زَمنَ طُوفَانِ الفِتَنِ).

فِتنٌ كَقطعِ اللَّيْلِ المظلِمِ تَغشَى مُجتَمعَاتِنَـا، تَطَـايَرَ شَرُّهَـا وَتزَايَـدَ ضَررُهَـا، تَنوَّعَتْ أَسبَابُهَا وَاختلفَتْ مَوضُوعَاتُها، وَتعدَّدَتْ مَصَادِرُهَا، فَمِنَ العَقَدِيِّ إِلَى السّيَاسِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ وَنِهايَةً بِالاقْتصَادِيِّ، تَتَضـمّنُ فِي طَيَّاتِهـا تَحسِـينَ القَبِـيحِ وَتَقبِيحَ الحَسَنِ، تُزخْرِفُ البَاطِلَ وَتُروِّجُ لَهُ، وَتُحَاوِلُ مَـحْوَ الحَقِّ وَإِبعَادَ النّاسِ عَنهُ، انْتَشرَتْ بِأسبَابٍ سَرِيعةٍ، وَتَطوَّرَتْ مِن دُخُولها عَلَى الْأَفرَادِ إِلَى دُخُولـِـهَا عَلَى المجْتَمَعَاتِ، وَيَكادُ يَصْدُقُ عَـلَى هَـذَا الـزَّمَنِ قَـولُ النّبِـيِّ ﷺ: «**يتقَـارَبُ الزّمَانُ.. وَتَظهَرُ الفِتنُ**»[١] ، وَقَد حَذرَنَا الشّارِعُ الـحَكِيمُ مِـن غَوَائـِلِ الفِـتنِ وَشُرورِهَا فَقَالَ تَعالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾[٢].

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: (هَذِهِ الآيةُ وإِن كَانَ المخَاطَبُ بِهَـا هُـمْ صَـحابَةُ رَسـولِ الله ﷺ، لَكنَّهَا عَامّةٌ لِكلِّ مُسْلمٍ؛ لأنّ النّبيَّ كَانَ يُحذِّرُ مِنَ الفِـتَنِ)، وَفِي الحَـدِيثِ: «**بَادِرُوا بِالأعمَالِ فِتنًا كَقِطَعِ الليلِ المظْلِمِ، يُصْبِحُ الرّجلُ مُؤمِناً وَيُمْسِي كَـافِراً، وَيُمْسِي مُؤمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدّنيَا**»[٣].

إِنَّهُ وَبَاءُ الفِتنِ الَّذِي لا بُدّ لَهُ مِنَ الحَصَانةِ الوِقَائِيةِ حَتَّـى لا يَتفَـاقَمَ، وَخَـيرُ لِقَاحٍ لِلوِقَايةِ مِنَ الفِتنِ هُوَ الشّرِيعَةُ الإِسلامِيَّةُ، الّتِي تَضَمَّنَتْ تَوجِيهَاتٍ سَامِيَةً تَضْبِطُ زِمَامَ الأُمُورِ أَنْ يَنحَرِفَ، وَتَرسُمُ لِلأُمةِ المسَارَ الصَّحِيحَ عِندَ الفِتَنِ حَالَ ظُهُورِهَـا، وَالمـنهَجَ الأرشَـدَ لمعَالجَـةِ الأَحـوَالِ وَالأَوضَـاعِ عِنـدَ تَغَيُّرِهَـا،

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٦)، ومسلم (١٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) الأنفال : ٢٥.
(٣) أخرجه مسلم (١١٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَالإرشادات التي بِفهَمِهَا يُعْصَمُ المرءُ مِنَ الـخَلَلِ وَالزَّلَلِ.

يَقُولُ ابنُ تَيمِيةَ- رَحِمَهُ اللهُ: (وَالإِنسَانُ فِي نَظَرِهِ مَعَ نَفسِهِ وَمُناظَرَتِهِ لِغَيرِهِ إِذَا اعْتَصَم بِالكتَابِ وَالسّنَةِ هَدَاهُ اللهُ إِلَى الصِّرَاطِ المستقِيم، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ مِثلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكبَهَا نَجا، وَمَن تَخلَّفَ عَنهَا غَرِقَ)، وَتَعُودُ هَـذِهِ التَّوجِيهَاتُ وَتِلكَ الإِرشَادَاتُ إِلَى أُصُولٍ، مِنهَا:

الأَصلُ الأَوّلُ: الابْتِعَادُ عَنْ مَوَاطِنِ الفِتَنِ، وَمُجَانَبَةُ أَسبَابِهَا، قَالَ ﷺ حَاثًّا عَلَى الفِرَارِ مِنَ الفِتنِ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكونَ خَيرَ مَالِ المسلم غَنمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْـجِبَال وَمَوَاقِعَ القَطْرِ؛ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ**»[١]، وَفِي الحَدِيثِ: «**سَتكونُ فِتَنٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِم خَيرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشرَّفَ إِليهَا تَسْتَشْرِفهُ، وَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلجأً أَو مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ**»[٢].

الأَصلُ الثَّانِي: الاعْتِصَامُ بِالكتَابِ وَالسُّنةِ: هُو قَارِبُ النّجَاةِ مِنْ أَموَاجِ الانْحرَافِ وَالبِدَعِ وَالأَوهَامِ وَالشَّكِ، فَمَنْ تَمَسَّكَ بِسنةِ المصطَفَى ﷺ وَعَضّ عَلَى سُنّةِ الخُلفَاءِ الرّاشدِينَ بِالنّواجِذِ كَانَت لَهُ عَاصِماً مِنَ الفِتنِ، قَالَ تعَالَى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[٣]، وَجَاءَ فِي خُطبةِ حَجَّةِ الوَدَاعِ: «**يَا أَيّهَا النَّاسُ، إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُم مَا إِنْ اعْتَصَمتُم بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَداً: كِتَابَ الله وَسُنّتِي**»[٤].

الأَصْلُ الثَالِثُ: تَقوى الله فِي السِّرِ وَالْعَلَنِ: مَخْرَجٌ مِنَ الأَزمَاتِ وَالمحَنِ وَالْفِتنِ، قَالَ تعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[٥]، وَالفِتنُ إِنّمَا يَقوَى تَأثِيرُهَا وَتَظْهَرُ آثَارُهَا عَلَى مَنْ ضَعُفَ تَقْوَاهُ، وَغَلبَتْ عَلَيْهِ شَهوتُهُ، فَلا تَجِدُ الفِتَنُ مِنهُ

(١) أخرجه البخاري (١٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) آل عمران: ١٠٣.

(٤) أخرجه الحاكم (٣١٨)، وصححه الحاكم، والألباني في صحيح الترغيب (٤٠) عن ابن عباس – رضي الله عنهما.

(٥) الطلاق : ٢.

مُقَاوِماً وَلا مُدَافِعاً، فَتَفتِك بِهِ فَتْكاً، وَتُمَزِّقُهُ كَمَا يُمَزِّقُ السَّهْمُ الرَّمِيَّةَ، أَخرَجَ ابنُ أَبِي شَيبةَ عَن حُذيفَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لا تَضرُّكَ الْفِتنةُ مَا عَرفتَ دَينَكَ، إِنَّمَا الفِتنَةُ إذَا اشْتبَهَ عَليكَ الْحَقُّ بِالبَاطِلِ)[١].

وَفِي صَحِيحِ مُسلمٍ: «**إِنَّ أُمَّتَكُم هَذِهِ جُعلَ عَافيتُهَا فِي أَوّلِهَا، وَسَيصِيبُ آخرَهَا بَلاءٌ وَأُمُورٌ تُنكِرونَهَا، وَتَجِيءُ فِتنة فيرقق بَعْضُهَا بَعْضاً، وَتَجِيءُ الفِتنَةُ فَيقُولُ المؤْمِنُ: هَذهِ مُهْلكَتِي، ثُمَّ تَنكَشِفُ، ثُم تَجِيءُ الْفِتنةُ فَيقُولُ: هَذِه هَذِهِ، فَمَنْ أَحبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النّارِ وَيُدْخَلَ الْجنّةَ فَلْتَأتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُو يُؤمِنُ بِالله وَالْيومِ الآخرِ، وَلْيَأتِ إِلَى النَّاسِ الّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤتَى إِليهِ**»[٢].

الأَصلُ الرّابعُ: لُزُومُ جَماعَةِ المسْلِمينَ وَإِمامِهِم: فَفِيهِ رِضَا اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعالَى، وَفِي المسْنَدِ بِسنَدٍ صَحِيحٍ: «**ثَلاثُ خِصَالٍ لا يُغَلُّ عَليهِنَّ قَلبُ مُسْلِمٍ أَبَداً**» وَعَدّ مِنهَا «**لُزُومَ الجَماعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُم تُحِيطُ بِهِم مِنْ وَرَائِهِم**»[٣]، وَفِي الحَدِيثِ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَماعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»[٤].

وَقَد سَأَلَ أَمينُ هَذهِ الأَمةِ حُذيفَةُ بنُ اليَمانِ النّبيَّ ﷺ فَقالَ: يَا رَسولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟، قَالَ: «**نَعَمْ**»، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ**»، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**»، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟قَالَ: «**نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٢٩٢) ط الرشد.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤) عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣) عن أبان بن عثمان ﷺ، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) عن ابن عباس – رضي الله عنهما.

قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلا إِمَامٌ؟ قَالَ: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»(١).

يَقُولُ إِمَامُ دَارِ الهجرَةِ يومَ فِتنَةِ خَلْقِ القُرآنِ: (عَليكُم بالإِنكَارِ بِقلُوبِكُم، وَلا تَخلَعُوا يَداً مِنْ طَاعَةٍ، وَلا تَشقُّوا عَصَا المسلِمينَ، وَتَسفِكُوا دِمَاءَكُم وَدِمَاءَ المسلِمينَ مَعَكُم، انْظُروا فِي عَاقِبَةِ أَمرِكُم، وَاصْبِرُوا حَتّى يَستَريحَ بَرٌّ وَيُستَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ).

الأَصَلُ الخَامِسُ: تَحلِّيكَ بِالصَّبرِ: يَمنَعُكَ مِنَ القِيامِ بَأعمَالٍ لا تُحمَدُ عُقبَاهَا، وَيُطفِئُ الفِتنَ عِندَ هُجُومِهَا، وَانعِدَامُهُ يُشعِلُ أُوارَهَا، فَتَتَقَابَلُ الأَحقَادُ، وَتَثُورُ الفِتنَةُ، وَتُسَلُّ السُيُوفُ، وَتُسفَكُ الدِّمَاءُ، وَاللهُ -جَلَّ وَعَلا- يَقُولُ فِي الاسْتعَانَةِ عَلَى كُلِّ مَا يَقَعُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾(٢)، يَقُولُ شَيخُ الإسلام: (وَلا تقَعُ فِتنَةٌ إِلا مِنْ تَرْكِ مَا أَمَرَ اللهُ، فَإِنّهُ - سُبحَانَهُ -أَمَرَ بِالحَقِّ، وَأَمَرَ بِالصَّبرِ، فَالْفِتنَةُ إِمَّا مِن تَرْكِ الْحَقِّ، وَإِمَّا مِنْ تَرْكِ الصّبرِ).

الأَصلُ السَّادِسُ: تَزيينُ الأُمُورِ بِالرِّفقِ وَالْوُلُوجِ فِيهَا وَفْقَ قَاعِدةِ الْحِلمِ وَالتّأَنِّي: وَعَدمِ التَسَرُّعِ وَالتَّعَجُّلِ، وَفِي الحَدِيثِ: «**مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلا زَانَهُ، وَلا عُزِلَ عَنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ**»(٣)، وَاللهُ - جَلّ وَعَلا - يُخبِرُنَا عَنْ مَنهَجِ أَبِي الأَنبيَاءِ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾(٤)، وَامتدَحَ نَبيُّنَا ﷺ أَشَجَّ عَبدِ القَيْسِ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ**»(٥)، إِذْ بِالحِلْمِ وَالتَّأَنِّي تُرَى الأُمُورُ عَلَى حَقيقَتِهَا، وَتُوزَنُ بِمِيزَانِهَا الصَّحِيحِ، وَيَتَبَصَّرُ الإِنسَانُ وَاقِعَ الدَّاءِ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧) عن حذيفة بن اليمان ﷺ.
(٢) البقرة: ١٥٣.
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٦)، وصححه شعيب الأرناؤوط.
(٤) هود: ٧٥.
(٥) أخرجه مسلم (١٧) عن ابن عباس – رضي الله عنهما.

وَيَستكشِفُهُ، وَيَستَجِلي الدَّوَاءَ وَالشِّفَاءَ وَيُصِيبُهُ، فَمَتَى ظَهَرَتِ الفِتَنُ وَادْلهَمَّتِ الخُطُوبُ ونزلتِ النّوَازِلُ فإنَّ النّاسَ أَحوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَى الاتّصَافِ بالحِلم وَالتَّأَنِي وَعَدم الْعَجَلةِ وَالتَّسرُّعِ، فكَمْ مِن عَجَلةٍ وَرّثَتْ نَدَماً، وَكَمْ مِن تَسَرُّعٍ أَشعَلَ حُرُوباً، وَلِهذَا يُعَلّلُ عَمرُو بنُ العَاصِ ﷺ (بَقَاءَ بَعْضِ الأُمَمِ وَكَثرتِهَا بِصفَاتٍ مِنهَا أَنّهُم أَحلَمُ النّاسِ عِندَ فِتنَةٍ)(١).

الأَصلُ السَّابعُ: التَّعَامُلُ مَعَ الفِتَنِ بِعُمقِ التَّصوُّرِ لِلأُمُورِ مَعَ الرُّجُوعِ إِلَى العُلَماءِ: فَإِنّ اهْتدَاءَ المَرْءِ مَوكُولٌ بِاعْتصَامِهِ بِالوَحيَينِ، وَاعِتصَامُهُ بِهمَا مَوكُولٌ بِاقْتدَائِهِ بِأَهْلِ العِلمِ بِهمَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢)، فَإِذَا رَاجَتِ الفِتنُ وَاضْطَرَبَتِ الأَحْوَالُ كَانَ عَلى المسلِمِ أَلا يَغْترَّ بِالظوَاهِرِ المجرّدَة وَالصُّوَرِ الظَّاهِرةِ، وَمِنَ القَوَاعِدِ الفِقهِيَّةِ: (**أَنَّ الْعِبْرَةَ لِلمقَاصِدِ وَالمعَانِي لا لِلأَلفَاظِ وَالمبَانِي**) فَالوَاجِبُ عَلَى المسْلِمينَ جَمِيعاً- مَهْمَا اخْتَلفَتْ مَسؤُولِيَّاتُهُم وَتنوَّعَتْ ثَقَافتُهُم- التّعَمّقُ فِي فَهْمِ الأُمُورِ والتَّدقِيقُ فِي وَقائعِهَا لِلحُكْمِ عَليهَا، فَالقَاعِدةُ المنْطِقيَّةُ تَقُولُ: (**الْحُكْمُ عَلَى الشَّيءِ فَرْعٌ عَن تَصَوّرِهِ**).

وَأَخِيراً: تَختَلفُ الأَحْوَالُ العَامَّةُ عَن حَالِ الفِتْنَةِ عِندَ عُمُومِهَا، فَلا بُدَّ مِنْ مُرَاعَاةِ العَوَاقِبِ مِنْ كُلِّ مَا يُقَالُ أَو يُفعَلُ حَالَ الفِتَنِ، وَلْنَحذَرْ مِنَ الوُقُوعِ فِي اليَأسِ، وَقَطعِ الأَمَلِ وَالرّجَاءِ فِي ارْتفَاعِ مَا يُصِيبُنَا مِنْ فِتَنٍ أَو مَصَائِبَ مُزَلْزِلَةٍ، وَلْنَثقْ بِأَنَّ الفَرَجَ قَرِيبٌ، وَأَنَّ الفِتنَ تُظْهِرُ مِقدَارَ الإِيمَانِ فِي القَلبِ وَصَلابَةَ العَقِيدةِ فِي النَّفسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٣).

اللّهُمَّ اعْصِمنَا مِنَ الفِتنِ مَا ظَهرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٨) عن المستورد القرشي ﷺ.

(٢) النحل: ٤٣.

(٣) العنكبوت: ٢، ٣.

المحاضرة (٨)

أَلا تُحِبُّ أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ حَوائِجَكَ

ننتَقِلُ بِكمْ لِـمحافَظَةٍ جَديدَةٍ نَتعَرفُ عـلى بعْـضِ مَسـاجِدِهَا الأَثَرِيَّـةِ إِنَّهَـا (مُحَافَظَةُ حَولّي).

١ـ وَمِنْ أَهمِّ مَساجِدِها وَأقدمُهَا مَسْجِدُ (ابنُ عُويِّدٍ) نِسْبَةً لإِمامِـهِ، أُسِّـسَ عَامَ (١٩٢٠م)، ثُم تَولَّتْ وَزَارةُ الأَوقَافِ إِعادَةَ بِنائِهِ عَامَ (١٩٥٥م)، وَفِي عَام (٢٠٠٢م) جَدَّدَتْهُ الوَزارَةُ مَرةً أُخرَى، وَلا يزَالُ إِلَى الآنَ فِي مَوقِعِهِ القَـديم فِي حَولِّي قِطعَةَ (٥٢) شَارِع (٢٧)، وَمِن أَشهَرِ أَئمتِهِ السـيدُ عَبـدُ العَزِيـزِ الْعُوَيِّـدُ الّذِي اسْتَمرَ فِيهِ إِمَاماً وَمُؤَذِّناً لِـمُدَّةِ ٣٠ عَاماً.

٢ـ وَمِن مَسْجِدِ (ابنِ عُوَيِّدٍ) إِلَى مَسْجِدِ (قَصْرِ بَيَانٍ) الَّـذِي أَسَّسَـهُ الشَّـيْخُ (أَحْمَدُ الْـجَابِرُ الصُّباحُ) حَاكِمُ الكُويْت عَـامَ (١٩٣١م) فِي قَصْرِهِ الَّـذِي يَقـعُ جَنوبَ قَريَةِ حَولّي، وَكَانَ المسجِدُ الوَحيـدُ فِي المنطِقَـةِ الّـذِي تُقـامُ فِيـهِ صَـلاة الْـجمْعَةِ، وَقَد أُزيلَ هَذَا المسجِدُ هُوَ وَالقَصْرُ بَعدَ وَفـاةِ الشّـيخِ (أَحمـد الجَـابرِ الصّباحِ) مِنْ مَوقِعِهِما نِهَائِياً، وَبُنِيَ مَكانَهُما الآنَ مُستشْـفَى المبَـارَك، وَقَـد رَثَـى القَصْرَ وَالمسجِدَ الشَّاعِرُ عَبدُ الله السّنانُ بِقصِيدَةٍ مَطْلعُهَا:

هَذَا (بَيَانُ) قَد بَدَا   يَبكِي (ابنَ جَابِرٍ) وَهُو وَاجِمُ

٣ــ مَسْـجِدُ (المسـلم) الَّـذِي أُسِّـسَ فِي عَـام (١٩٣٢أو١٩٣٠م) فِي حَـيِّ القَناعَاتِ، وَباعتبَارِ أَنَّ بِناءَهُ الأَوَّلَ مِنَ الطِّينِ أَعَادَتْ وَزارَةُ الأَوْقَافِ بِناءَهُ عَامَ (١٩٥٤)، ثُم أُعِيدَ بِناؤُهُ عَلَى الطِّـرازِ الْــحدِيثِ وَلا يَـزَالُ إِلَى الآن فِي مَوقِعِـهِ القَدِيمِ فِي حَولِّي قِطعَة (٤٤) شَارِع (٥٦) عَلَى شَارِعِ المثنَّى، وَقَد كَانَ أَوَّلَ مَـن أَمَّ فَيهِ الملا (عَبدُ الله عَلِيُّ اليَاسِينُ).

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجَزِ عَلَى الْآثَارِ وَأَخْبَارِ الأَئِمَّـةِ الْكِبَـارِ تعـالوا لِنَسْـتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ الـمهِمَّةِ، وَمَوْعِظَتُنَا الْيَوْمَ بِعُنْوَانِ: (أَلا تُحِبُّ أَن يَقضيَ اللهُ حَاجتَكَ).

قَسَمَ اللهُ - تَعَالَى - بَيْنَنَا مَعيشَتَنَا، وَفَاضلَ بينَنَا فِيهَـا، وَرَفَـعَ بَعضَـنَا فَـوقَ بَعضٍ دَرجَاتٍ، وَلِكَي يَتمَّ الاسْتِخلافُ فِي الأَرضِ وَالاسْتِعمَارُ سَـخَّرَ بَعضَـنَا لِبعْضٍ لِيَبْلُوَنَا وَيَخْتَبِرَنَا، قَالَ - تعـالَى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[1]، فَفِي شَـكوَى الفَقـيرِ ابْـتِلاءٌ لِلغَنِيِّ، وَفِي انْكِسارِ الضّـعيفِ امْتِحَـانٌ لِلقـويِّ، وَفِي تَوجُّـعِ المـرِيضِ حِكمَـةٌ لِلصَّحِيحِ، وَمِن أَجْلِ هَذهِ السُّنَّةِ الكَونيةِ جَاءَتِ السُّـنةُ الشَّرـعِيةُ بِالحَـثِّ عَـلَى التَّعَاوِنِ بَينَ النَّاسِ، وَقضَاءِ حَـوائِجِهِم، وَالسَّـعيِ فِي تَفـرِيجِ كُـرُوبِهِم، وَبَـذْلِ الشَّفَاعَةِ الْـحَسَنَةِ لَهُمْ، تَحْقِيقًا لِدَوَامِ المَودة وَالْأُلْفَةِ، وَإِظهَـاراً لِلأُخُّـوةِ، قَـالَ - تَعالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[2].

وَالدّينُ ذُلُّ العِبَادةِ وَحُسنُ المعامَلةِ، **قَالَ ابْـنُ الْقَـيِّم - رَحِمَـهُ اللهُ:** (لَقَـدْ دَلَّ العَقْلُ وَالنَّقْلُ وَالفِطْرَةُ وَتَجارِبُ الأُممِ عَلَى اخْتلاَفِ أَجناسِهَا وَمللِهَـا وَنِحَلِهَـا عَـلَى أَنَّ التَّقَـرُّبَ إِلَى رَبِّ العَـالمينَ، وَالـبرَّ وَالإحسـانَ إِلى خَلقِـهِ مِـنْ أَعظَـمِ الأَسْبَابِ الجَالبةِ لِكلِّ خَيرٍ.. فَمَا اسْتُجْلِبَتْ نِعَـمُ اللهِ وَاسْـتُدْفِعَتْ نِقَمُـهُ بِمِثْـلِ طَاعتِهِ وَالإحسَانِ إِلَى خَلقِهِ).

نَاهِيكَ عَن أَنَّ نَفعَ النَّاسِ وَالسَّعيَ فِي كَشْفِ كُرُوبِهِم مِـنْ صِـفِاتِ الأَنبيَـاءِ وَالرُّسُـلِ، فَمُوسَـى- عَليـهِ السَّـلامُ - لَـمَّا وَردَ مَـاءَ مَـدْيَنَ وَجَـدَ امْـرَأَتينِ مُستَضعَفَتينِ، فَرَفَـعَ الحَجَـرَ عَـنِ البِئْـرِ وَسَـقَى لَهُـمَا حَتَّـى رُوِيَـتْ أَغنـامُهُما،

(١) الزخرف: ٣٢.
(٢) المائدة: ٢.

وَخَديجَةُ- رَضيَ اللهُ عَنهَا - تَقُولُ فِي وَصفِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ: «إِنَّكَ تُكسِبُ المعْدُومَ، وَتُقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوائِبِ الحْقِّ»[١]، وَأَشْرَفُ الخَلقِ مُحَمَّدٌ ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنْ حَاجةٍ لَمْ يَرُدَّ السَّائِلَ عَن حَاجتِهِ، يَقُولُ جَابرٌ ﷺ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ الله شَيئًا قَطُّ فَقَالَ: لا»[٢]، فَالدُّنيَا عِنْدَهُ أَقَلُّ مِنْ أَنْ يُردَّ طَالِبُهَا.

وَعَلَى هَذَا النَّهجِ القَويمِ سَارَ الصَّحَابَةُ وَالصَّالِحُونَ، وَقد رَأى طَلْحةُ عُمرَ ابنَ الخَطّابِ بِاللَّيلِ يَدخُلُ بَيْتَ امْرَأَةٍ، فَدَخَلَ إِلَيْهَا فَإذَا هِيَ عَجُوزٌ عَميَاءُ مُقْعَدةٌ فَسأَلَهَا مَا يَصْنَعُ هَذَا الرَّجُلُ عِندَكِ؟!

قَالَتْ: هَذَا لَهُ مُنْذُ كَذَا وَكَذا يَتعَاهدُنَا، يَأتِينِي بِمَا يُصْلِحُنِي وَيُخْرِجُ عَنِّي الأَذَى، فَقَالَ طَلحَةُ: ثَكلَتْكَ أُمُّك يَا طَلْحَةُ، عَثرَاتِ عُمَرَ تتَتَبَّعُ؟!

وَكانَ الصِّدِيقُ يَحْلِبُ لِلحَيِّ أَغنَامَهُم، فَلمَّا اسْتُخْلِفَ قَالَتْ جَارِيَةٌ مِنْهُم: الآنَ لا يَحْلِبُهَا. فَقَالَ أَبُو بَكرٍ: وَإِنِّي لأَرجُو أَلا يُغَيرَنِي مَا دَخَلْتُ فِيهِ – يَعنِي الْخِلافَةَ – عَن شَيءٍ كُنْتُ أَفْعَلُهُ.

وَكَانَ أَبُو وَائِلٍ- رَحِمَهُ اللهُ - يَطُوفُ عَلَى نِساءِ الْحَيِّ وَعَجائزِهنّ كُلَّ يَومٍ، فَيشْتَرِيَ لَهُنَّ حَوائِجَهُنَّ وَمَا يُصْلِحُهُنَّ، وَنُبلاءُ الإِسلام وَأَعلاَمُ الأُمةِ شَأْنُهُم قَضَاءُ الْحَوائِجِ، يَقُولُ ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ اللهُ: (كَانَ شَيْخُ الإِسْلامِ يَسعَى سَعيًا شَديدًا لِقَضَاءِ حَوائِجِ النَّاسِ)، بِهذَا جَاءَ الدِّينُ؛ عِلْمٌ وَعَملٌ، عِبَادَةٌ وَمُعَاملَةٌ، قَالَ أَبُو العَتَاهيَّةِ:

اقْضِ الْحَوَائِجَ مَا اسْتَطَعْتَ ... وَكُنْ لِهَمِّ أَخِيكَ فَارج
فَلَخَيرُ أَيامِ الفَتَى ... يَومٌ قَضَى فِيهِ الْحَوائِج

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١) عن جابر ﷺ.

إِنَّ خِدْمَةَ النَّاسِ وَالمسْتَضعَفِينَ وَقَضَاءَ حَوائِجِهِم وَتَفْرِيجَ كُرُوبِهِم دَلِيلٌ عَلَى طِيبِ المنْبَتِ، وَصَفاءِ الْقَلْبِ، **وَيعُودُ بِالْفَوَائِدِ الْكَثِيرةِ، وَمِن أَهمِّهَا:**

أولاً: الْـجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ: فَجَزَاءُ التّفرِيجِ تَفْرِيجٌ، وَفِي الحَدِيثِ: «**مَنْ نَفَّسَ عَن مُؤمِنٍ كُربَةً مِنْ كُرَبِ الدّنيَا نَفَّسَ اللهُ عَنهُ كُربَةً مِنْ كُرَبِ يَوم القِيَامَةِ**»[1]، وَفِي لَفظٍ لَهُ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَومِ القِيامَةِ فَلْيُنفِّسْ عَن مُعسِرٍ أَو يَضَعْ عَنْهُ**»[2].

ثانياً: تَيسِيرُ مَا تَعسَّرَ: فَالسَّاعِي فِي قَضاءِ حَوائِجِ الآخَرينَ مَوعُودٌ مِنَ العَزِيزِ الكَرِيم بِإِعَانتِهِ عَلَى قَضَاءِ حَوائِجِهِ، مَعَ التَّأْيِيدِ بِالتَّوفِيقِ، فَاللهُ فِي عَونِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَفِي خِدْمَةِ النَّاسِ بَرَكَةٌ فِي الوَقتِ وَالعَمَلِ، وتِيسِيرُ مَا تَعَسَّر مِنَ الأُمورِ، يَقولُ النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ**»[3].

ثالثاً: حُسْنُ الخَاتِمَةِ: وَهيَ مَطْلَبُ الصَّالِحِينَ أَنْ يَقيَهُم مَصْرَعَ السُّوءِ، وَفِي بَذلِ المعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ لِلعِبَادِ تَحسنُ الْخَاتِمةُ، وتُصْرَفُ مِيتَةُ السُّوءِ، يَقُولُ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**صَنَائِعُ المعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ وَالآفَاتِ وَالمهْلِكَاتِ، وَأَهْلُ المعرُوفِ فِي الدُّنيَا هُمْ أَهْلُ المعْرُوفِ فِي الآخِرَةِ**»[4].

رابعاً: السَّعيُ فِي شُؤونِ النَّاسِ زَكَاةُ أَهْلِ المرُوءاتِ، يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضيَ اللهُ عَنهُمَا: (مَنْ مَشَى بِحَقِّ أَخِيهِ لِيَقْضِيَهُ فَلَهُ بِكُلِّ خطْوَةٍ صَدَقَةٌ)، وَمِنَ المصَائِبِ عَندَ ذَوِي الهِمَمِ عَدمُ قَصدِ النّاسِ لَهُم فِي حَوائِجِهِم، يَقُولُ حَكِيمُ بْنُ حِزَامَ: (مَا أَصْبَحْتُ وَلَيْسَ عَلَى بَابِي صَاحِبُ حَاجَةٍ إِلا عَلِمْتُ أَنَّهَا مِنَ المصَائِبِ).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٦٣) عن عبد الله بن أبي قتادة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٩٥).

وَأَعظَمُ مِنْ ذَلكَ أَنَّهُم يَرَونَ أَنَّ صَاحِبَ الحَاجَةِ مُنعِمٌ وَمُتفضِّلٌ عَلَى صَاحِبِ الجَاهِ حِينَمَا أَنزَلَ حَاجَتَهُ بِهِ، يَقولُ ابنُ عَباسٍ: (هُناكَ رَجُلٌ لا يُكَافِئُه عَنِّي إِلا اللهُ) قِيلَ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: (رَجُلٌ نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ فَبَاتَ لَيْلَتَهُ يُفكِّرُ بِمَنْ يُنزِلُهُ، ثُمَّ رَآنِي أَهْلاً لِحَاجتِهِ فَأنزلَهَا بِي).

خامساً: يَدٌ لَكَ عِندَ النَّاسِ: لا تَدرِي أَحْوَالَ الزَّمَانِ، وَالدُّنيَا مِحَنٌ وَابتِلاءٌ، فَالقَوِيُّ فِيهَا قَد يَضْعُفُ، وَالغَنِيُّ رُبمَا يُفْلِسُ، وَالسَّعِيدُ مَنِ اغْتَنَمَ جَاهَهُ وَقُوَّتَهُ فِي خِدْمَةِ عِبَادِ اللهِ- تَعَالَى- وَنَفعِهِم وَاسْتكثَرَ مِنَ الأَيَادِي عِنْدَهُم، فَهِيَ لَهُ ذِكْرٌ حَسَنٌ وَمحبَّةٌ فِي القُلُوبِ لا يَدْرِي مَتَى يَحْتَاجُ إِلَيْهَا، فَالمعْرُوفُ ذَخِيرَةُ الأَبَدِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (صَاحِبُ المعرُوفِ لا يَقعُ، فَإِنْ وَقَعَ وَجَدَ مُتَّكَئاً)، يَقولُ الحُطَيْئَةُ:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيرَ لا يُعْدَمُ جَوازِيهِ　لا يَذهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنّاسِ

عَلَى مَنْ نَزلَتْ بِهِ حَاجَةٌ أَنْ يَسْتَعفِفَ قَدْرَ المسْتَطَاعِ عَنْ عَرْضِهَا عَلَى المخلُوقَاتِ، وَأَنْ يُنزلِهَا بِبابِ رَبِّ الأَرْبَابِ، وَقَد وَرَدَ عَن ثَوبَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يَتكفَّلُ لِي بِوَاحِدةٍ وَأَتكفَّلُ لَهُ بِالجنَّةِ**»، قُلتُ: أَنَا، قَالَ: «**لا تَسأَلِ النّاسَ شَيئاً**»، قَالَ: فَكَانَ ثَوبَانُ يَقعُ سَوْطُهُ وَهُوَ رَاكِبٌ فَلا يَقُولُ لِأَحَدٍ نَاولنِيهِ حَتَّى يَنزِلَ فَيَأْخُذَهُ[1].

ثُمَّ إِنْ ضَاقَتْ بِكَ السُّبُلُ وَاحْتَجْتَ مَنْ يُزِيلُ كُرَبَكَ وَيَقضِي حَاجتَكَ، فَلا تَطْلُبِ الْحَوائِجَ إِلا مِنْ أَهْلِهَا، وَإِيَّاكَ وَاللَّئِيمَ، فَقَد قِيلَ لأَعرَابِيٍّ: مَا السُّقْمُ الّذِي لا يَبْرَأُ، وَالْجُرحُ الّذِي لا يَندَمِلُ؟ قَالَ: حَاجَةُ الكَرِيمِ إِلَى الّلئِيمِ.

وَدَخلَ مُحمدُ بنُ وَاسِعٍ عَلَى قُتيبَةَ بنِ مُسلِم فَقَالَ: إِنّي أَتيتُكَ فِي حَاجَةٍ، فَإِنْ شِئْتَ قَضيتَهَا وَكنّا جَمِيعاً كَرِيمَينِ، وَإِنْ شِئتَ مَنعتَهَا وَكنّا جَمِيعاً لَئِيمَينَ، وَأَرَادَ: إِنْ قَضيتَهَا كُنْتَ كَرِيماً بِقَضَائِهَا، وَكُنْتُ أَنَا كَرِيماً بِسؤَالِكَ إِيّاهَا، لأَنّي وَضعْتُ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٥) عن ثوبان ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٠٤).

طُلْبَتِي فِي مَوضِعِهَا، فَإِنْ لَمْ تَقْضِهَا كُنْتَ لَئِيماً بِمنْعِكَ، وَكُنْتُ أَنَا لِئِيماً لِسُوءِ اخْتيَارِي لَكَ، وفِي حِكَمِ الشّعرِ:

لا تَطْلُبَنّ إِلَى لَئِيمٍ حَاجَةً وَاقْعُدْ فَإِنّكَ قَائِمٌ كَالقَاعِدِ

يَقولُ خَالدُ بنُ صَفوَانَ: (لا تَطلبُوا الْـحَوائِجَ فِي غَيرِ حِينِهَا، وَلا تَطلبُوهَا لِغَيرِ أَهلِهَا، وَلا تَطلبُوا مَا لَستُمْ لَهُ بِأَهلٍ فتكُونُوا لِلمَنعِ خُلَقَاءَ. وَتَخَيَّرْ مِنَ الْكَلامِ أَطيَبَهُ، وَمِنَ القَولِ أَعْجَبَهُ، وَلا لَوْمَ عَلَى مَنْ رُدَّتْ شَفَاعَتُهُ وَلَو عَظُمَ قَدرُ الشَّافِعِ، فَقدْ رَدَّتْ امْرَأَةٌ شَفَاعَةَ سَيِّدِ الْخَلقِ حِينَمَا قَالَ لَهَا: «**لَو رَاجَعْتِ زَوجَكِ فَإِنَّهُ أَبُو وَلدِكِ**» قَالَتْ: يَا رَسولَ الله، أَتَأمُرُنِي؟ قَالَ: «**لا، إِنّمَا أَنَا شَافِعٌ**» قَالَتْ: فَلا حَاجَةَ لِي فِيهِ)(١).

وَإِذَا مَنَّ اللهُ عَليكُم بِمَنْ قَضَى أَمْرَكُمْ وَفَرَّجَ كَربَكُم فَلا تَبخَلُوا أَنْتُم بِالشُّكْرِ، وَفِي الحَدِيثِ: «**لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ**»(٢)، وَيُعلِّمُنَا النّبِيُّ ﷺ كَيْفِيَّةَ الشُّكرِ عَلَى صُنْعِ المعرُوفِ فَيقُول: «**مَنْ أتى إِليكُم مَعرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكافِئُونَهُ فَادعُوا لَهُ حَتَّى تَروا أَنَّكُم قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»(٣). فَإِذَا قَصُرَتْ يَدُكَ عَنِ المكُافَأَةِ فَلْيَطُلْ لِسَانُكَ بِالشُّكْرِ.

اللّهُم لا تَجعَلْ لَنَا عِندَ لَئِيمٍ حَاجَةً، وَسَخِّرْنَا لِخِدمَةِ خَلقِكَ وَعِبادِكَ دُونَ مِنّةٍ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٢٣١) عن ابن عباس – رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٠٩)، والترمذي (٢٥٦٧)، والنسائي (٢٥٧٩)، عن ابن عمر – رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

المحاضرة (٩)

قلوب بين الخوف والرجاء

أَنتَقِلَ بِكُمْ إِلَى (مُحَافَظةِ السَّالمِيَّة)، وَمِن أَهَمِّ مَسَاجِدِهَا الأَثَرِيَّةِ القَدِيمَةِ مَا يَلِي:

١ـ مَسجِدُ (الأذينة): وَكانَ يَقَعُ فِي قَرْيَةِ الدّمْنَة القَدِيمَةِ وَهيَ السَّالمِيَّةُ اليَومَ، وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّهُ لا يُعْرَفُ مُؤسِّسُهُ، وَربما اشْتَرَكَتْ عِدّةُ عَوائِل فِي بِنَائِهِ- وَاللهُ أَعلَمُ، وَلـمَّا ضَاقَ المسْجِدُ بِالمصَلِّينَ عَـامَ (١٩٢٤م) أَعَـادَ بَنـاءَهُ مَـعَ تَوسـعَتِهِ الشّيْخُ أَحمَدُ الجَابِرُ الصّبَاحُ، وَفِي عَام (١٩٥٢م) أَعَادَتْ وَزارَةُ الأَوقَافِ بِنَـاءَهُ مِنْ جَديدٍ فِي نَفسِ بِنائِهِ القَدِيم خَلْـفَ مَبنَـى (المارِينَـا مُـول) فِي السّـالمِيَّةِ عَـلَى الخَلِيجِ، وَقَد كَانَ الشّيخُ يُوسُفُ القنَاعِيُّ، وَالشّيخُ يُوسُفُ بنُ حَمودٍ يُحدِّثان فِيهِ إِذَا كَانا بِالسّالمِيَّةِ.

٢ـ مَسْجِدُ (الرَّأْسِ القَدِيم): وَمَوقِعُهُ قَدِيماً فِي رَأْسِ السَّـالمِيَّةِ، أُسِّـسَ عَـامَ (١٩٢٤م) تَقرِيباً، وَقَد أُعِيدَ بِنَاؤُهُ فِي مَكانِهِ القَدِيم فِي السَّـالمِيَّةِ قِطعَـة (١٤٢)، وَظَلَّ مَسْجِداً غَيرَ جَامِعٍ حَتَّى أَعَادَتْ وَزارَةُ الأَوقَافِ بِنـاءَهَ عَـامَ (١٩٥٣م)، وَقَدْ أَمَّ فِيهِ إِمَاماً وَمُؤذِّناً السّيدُ مُحمد النَّجدِيُّ.

٣ـ مَسْجِدُ (الشَّرَّاحِ): يَقَعُ فِي قَطعَة (١٤) عَـلَى شَـارِعِ المغِـيرَةِ بـنِ شُـعبَةَ، أَسّسَهُ المحْسِنَانِ مُحمدُ بنُ مِـدعِجِ العَـازِمِيُّ، وَعَبـدُ الله بـنُ خَلَـفٍ الشَّرـاحُ – رَحِمَهمَا اللهُ تَعَالَى – عَامَ (١٩٤٥م)، وَقَد قَامَ بِوظِيفَةِ الإِمَامَةِ وَالآذَانِ فِيـهِ المـلا عَلِيٌّ مُحَمَّدٌ الهرَانُ.

وبَعْدَ هَذَا المرورِ الموجَزِ عَلَى آثَارِ مَساجِدِنَا وَذكرِ أَئِمتِنَا، سَنَستَمِعُ لِلمَـوَاعِظِ الاجْتِمَاعِيةِ وَالأَخلاَقِيةِ الهامَّةِ وَهِيَ اليَومَ بِعنْوانِ: (قُلُوبٌ بَينَ الخوفِ وَالرَّجَاءِ).

قُلُوبُنَا مَوضِعُ نَظَرِ رَبِّنَا مِنّا، وَبِهَا نَتفَاضَلُ لا بِأَجْسَـامِنَا، وَلَهَـا عِبَـادَاتٌ كَـمَا

لِـجَوَارِحِنَا، غَيرَ أَنَّ عِبادَةَ الْـجَوارِحِ يَنتَهِي ثَوَابُهَا بِانْتِهَاءِ الجَارِحَةِ مِنَ العِبَـادَةِ، أَمَّا عِبادَةُ القَلْبِ فَلَيْسَ لَهَا مُنْتَهًى، حَتى تكونَ نَائِماً وَيسْرِي عَلَيْكَ أَجْرُهَا، وَلِذَا هِيَ مِنَ الأَهَمِّيَّةِ بِمكَانٍ، حَتّى أَنَّ عَمَلَ الْـجَوَارِحِ نَابعٌ مِنهَا، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

وَإِذَا حَلَّتِ الْـهِدَايَةُ قَلْباً نَشِطَتْ لِلعِبَادَةِ الأَعْضَاءُ

وَأَعمَالُ القُلُوبِ كَثِيرةٌ وَمُتنوِّعَـةٌ، نَسـتَطِيعُ أَنْ نُعِيـدَهَا لِقِسْـمَينِ وَنَـوْعَينِ، وَهُمَا:

القِسْمُ الأَوَلُ: قُلُوبٌ تَعمَلُ رَهبَةً: فَهِيَ (مُرتَعِدَةٌ لـمَا عَملَتْ مِنَ الـذُّنُوبِ، مُضْطَرِبَةٌ خَوفاً مِنْ دُخُولِ النِّيرَانِ، مَهمُومَةٌ خَوفاً مِنْ فَوَاتِ الجِنَانِ، عَلَى شَـكٍّ مِنْ قَبُولِ الأَعمَالِ)، فَتَهْرُبَ إِلَى العِبادَةِ تَطلُـبُ الرِّضـوَانَ، وَهِـيَ تَرجُـو قَولَـهُ تَعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[١]، وَفِي الْـحَدِيثِ: «**مَنْ خَافَ أَدلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المنزِلَ، أَلا إِنَّ سِلعَةَ اللهِ غَالِيـةٌ، أَلا إِنَّ سِـلعَةَ الله الجَنَّـةُ**»[٢]، وَفِي الصَّـحِيحِ قَالتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنهَا: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ: قَـولُ اللهِ - تَعـالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[٣] أَهُو الَّذِي يَزْنِي وَيَشْرَبُ الخَمرَ وَيَسْرِقُ وَهُـو يَخَـافُ اللهَ- عَزَّ وَجـلّ؟، قَـالَ: «**لا يَـا ابْنـةَ الصِّـديقِ، وَلكنَّـهُ الَّـذِي يَصُـومُ وَيُصـلِّي وَيَتصدَّقُ وَيَخَافُ أَلا يَتقَبلَ اللهُ مِنهُ**»[٤].

فَالرهبَةُ مِنَ اللهِ- تَعالَى- وَخوفُهُ شَـجَرةٌ طَيِّبَـةٌ: إِذَا نَبـتَ أَصـلُهَا فِي القَلـبِ امتَدتْ فُرُوعُهَا إِلَى الجَوَارِحِ فَآتَتْ أُكلَها بِإِذِنِ رَبِّهَـا وَأَثمـرَتْ عَمَـلاً صَالِــحاً وَقَولاً حَسَناً وَسُلُوكاً قَوِياً وَفِعلاً كَرِيماً، فَتَخشعُ الْـجَوارِحُ، وَيَنكَسِرُ الفُـؤَادُ، وَيَرِقُّ القَلْبُ، وَتَزكُو النَّفْسُ، وَتَدْمَعُ العَيْنُ، فَيُورِثُ ذَلِكَ الخَوفُ عِنـدَهَا وَجَـلاً

---

(١) الرحمن: ٤٦.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني.
(٣) المؤمنون: ٦٠.
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٨)، وحسنه الألباني.

وَخَشيَةً عِندَ ذِكْرِ اللهِ – تَعَالَى، وَيَحْرِقُ مَوَاضِعَ الشَّهوَاتِ مِنهَا، وَيَطْرُدُ الدّنيَا عَنهَا.

يَقُولُ أَبُو حَفْصٍ النِّيسَابُورِيُّ: (الخَوفُ سِرَاجُ القَلبِ، بِهِ يُبصِرُ مَا فِيهِ مِنَ الخَيرِ وَالشّرِ، وَكلُّ أَحدٍ إِذَا خِفتَهُ هَربْتَ مِنهُ، إلا اللهَ- عَزَّ وَجلَّ- فَإنَّكَ إِذَا خِفتَهُ هَرَبْتَ إِلِيهِ)، قَالَ أَبُو سُلَيمَانَ: (مَا فَارَقَ الخَوفُ قَلْباً إلا خَرِبَ)، وَقَالَ ذُو النُّونِ: (النَّاسُ عَلَى الطَّرِيقِ مَا لَمْ يَزُلْ عَنهمُ الخَوْفُ، فَإِذَا زَالَ الْخَوْفَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ).

وَهَذَا عُمَرُ ﷺ يَقولُ لابنِهِ وَهُو فِي الموتِ: (وَيْحَكَ ضَعْ خَدِّي عَلَى الأَرْضِ عَسَاهُ أَنْ يَرْحمَنِي، ثُمَّ قَالَ: وَيلُ أُمِّي إِنْ لَمْ يَغفِرْ لِي، وَيلُ أُمِّي إِنْ لَمْ يَغفِرْ لِي)، يَقولُ سُفيَانُ الثّورِيُّ: (وَاللهِ لَقدْ خِفتُ مِنَ اللهِ خَوفاً أَخَافُ أَنْ يَطِيرَ عَقلِي مِنهُ، وَإِنِّي لا أَسأَلُ اللهَ فِي صَلاتِي أَنْ يُخَففَ مِنْ خَوفِي مِنْهُ).

وتكُونُ الرَّهْبَةُ مَحْمُودَةً إِذَا حَجَزتْ عَنِ المحَارمِ وَرَغَّبَتْ فِي الطَّاعَاتِ، وَإِلا كَانَتْ يَأساً وَقُنُوطاً، قَالَ عُثمانُ الْحِيرِي: (صِدْقُ الْخَوْفِ هُوَ الْوَرَعُ عَنِ الآثَام ظَاهِراً وَبَاطِناً)، وَهَذَا شَدَّادُ بنُ أَوسٍ ﷺ كَانَ إِذَا دَخَلَ الفِراشَ يَتقَلبُ عَلَى فِرَاشِهِ لا يَأتِيهِ النّومُ وَيَقولُ: (إِنّ النَّارَ أَذهبَتْ مِني النّومَ)، فَيَقُومُ يُصلِّي حَتّى يُصْبِحَ، **وَإِذَا خَافَتْ قُلوبُنَا خَوفاً مَحمُوداً كَانتْ فَائدتُهُ** بَاعِثاً عَلَى الطّاعَاتِ، وَمُمَكّناً لَنَا فِي الأرضِ قَالَ تَعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[1]، وَالخَوفُ مُظِلٌّ فِي ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ الْحَسَرَاتِ، وَأَمَانٌ مِنَ الخَوفِ الأَكْبَرِ يَومَ الزَّحمَاتِ، وَغَافِرٌ لِلزَّلاتِ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «**أَنّ رَجلاً أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الموْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا متُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَالله لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ الله لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ:**

(١) إبراهيم: ١٤.

خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ- أَوْ قَالَ: مَـخَافَتُكَ- **فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ**»[(١)].

وَيُمكنُ أَنْ نَسْقيَ بِذْرَةَ الـخَوفِ مِنَ اللهِ فِي قلوبِنا من خِلالِ مَا يلي:

١ـ إجلالُ اللهِ وَتعظِيمُهُ، وَمَعْرِفَةُ حَقَارَةِ النَّفْسِ، مَعَ خَشْيَةِ التَّقْصِيرِ فِي طَاعَتِهِ.

٢ـ زِيَارَةُ المَرْضَى وَالمصَابِينَ وَالمقَابِرَ مَعَ تَذَكُّرِ الموْتِ.

٣ـ خَشيةُ اللهِ وَمُراقبتُهُ مَعَ تَدَبُّرِ آيَاتِ الْقُرَآنِ الْكَرِيمِ.

٤ـ مُـجَالَسَةُ الْـخَائِفِينَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَالاسْتِمَاعُ لَهُم. فَهَلْ مِن مُشَمِّرٍ؟ هَلْ مِنْ خَائِفٍ؟ هَلْ مِن سَائِرٍ إِلَى اللهِ؟

القِسمُ الثَّانِي: **قُلوبٌ تَعْمَلُ رَغْبَةً: فَهِيَ** (تَنظُرُ إِلَى ثَوابِ اللهِ، وَتَرجُو رَحْمَتَهُ، وَتُحبُّ لِقَاءَهُ، صِفَتُهَا الصِّدْقُ بِالْقَوْلِ وَالإِخْلاصُ بِالْعَمَلِ، مُسَلِّمَةً للهِ فِي كُلِّ أُمُورِهَا، مُـخْبِتَةً لَهُ، مُنقَادَةً مُذْعِنَةً مُنِيبَةً)، شِعَارُهَا الصَّبرُ فِي الشَّدَائِدِ، وَعَلامَتُهَا التَّوَكُّلُ عَلَى الكَافِي وَالشَّافِي- سُبْحَانَهُ، مَعَ الثِّقَةِ بِهِ، وَالأَخذ بِالأَسبَابِ المأذُونِ فِيهَا، فَمَن اعْتَمدَ عَلَى الأَسْبَابِ نَقَصَ تَوكّلُهُ، ومَنِ اعْتَمَدَ عَلَى اللهِ مُلْغِياً لِلأَسْبَاب، فَقَد طَعَنَ فِي حِكْمَةِ اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[(٢)]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «**يَدْخُلُ الْـجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمْ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»[(٣)]، وَأَعْظَمُ المتَوكِّلِينَ النَّبيُّ ﷺ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يَأْخُذُ بِالأَسْبَابِ، فَكَانَ يَأخُذُ الزَّادَ فِي السَّفَرِ، وَلَـمَّا خَرَجَ إِلَى أُحُدٍ ظَاهَرَ بَيْنَ دِرْعَينِ، أَيْ: لَبِسَ دِرْعَينِ اثْنَيْنِ، وَلَـمَّا خَرَجَ مُهَاجِراً أَخَذَ مَنْ يَدُلُّهُ الطَّرِيقَ، وَلَمْ يُنْقِصْ ذَلِكَ مِنْ تَوَكُّلِهِ، وَيُذْكَرُ عَن

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) آل عمران: ١٢٢.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢١٨) عن ابن عباس – رضي الله عنهما.

عُمَرَ رضي الله عنه أَنّهُ قَدِمَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ إِلَى الْحَجِّ بِلا زَادٍ، فَجِيءَ بِهِم إِلَى عُمَرَ، فَسَأَلَهُم، فَقَالُوا: نَحْنُ المتَوَكِّلُونَ عَلَى الله، فَقَالَ: (لَسْتُم المتَوكِّلِينَ، بَلْ أَنْتُمُ المتَوَاكِلُونَ)، وَلا بُدّ مَعَ التَّوَكُّلِ مِنَ الرِّضَا فَهُمَا يَكْتَنِفَانِ المقدُورَ، فَالتَّوَكُّلُ قَبْلَ وُقُوعِ المقْدُورِ وَالرِّضَا بَعْدَ وُقُوعِهِ.

أهمُّ أَعمَالِ القُلُوبِ مَحبةُ الله- تَعالَى - وَالإخلاصُ فِي العَملِ: قِيلَ لِسَهْلِ ابنِ عَبدِ الله: أَيُّ شَيءٍ أَشدُّ عَلى النّفسِ؟ قَالَ: الإِخْلاصُ؛ لأَنَّهُ لَيسَ لَها فِيهِ نَصِيبٌ. وَقَالَ ذُو النُّونِ المِصرِيُّ: ثَلاثٌ مِنْ عَلامَاتِ الإِخْلاصِ: (اسْتِواءُ المدْحِ وَالذَّمِّ مِنَ العَامَّةِ، وَنِسيَانُ رُؤيةِ الأَعْمَالِ، وَنِسْيَانُ اقْتضَاءِ ثَوابِ العملِ فِي الآخرةِ).

وَأَمّا المحَبَّةُ فَهِيَ قُوْتُ القُلُوبِ وَغِذاءُ الأَرْوَاحِ، وَالمرْءُ مَعَ مَنْ أَحبَّ، قَالَ تَعالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1].

وَكُلُّنَا عِندَهُ بُذُورُ مَحَبَّةِ اللهِ فِي قَلبِهِ، وَلَكِنْ لا بُدَّ مِن سِقايتِها بِما يلي: مُجَالَسَةُ المحِبيْنَ، وَالتّقربُ إِلَى اللهِ- تَعالَى- بِالنّوافِلِ بَعدَ الفَرائضِ، مَعَ دَوامِ ذِكرِهِ وَقِراءَةِ القُرآنِ بِالتدبرِ، وَفِي الحَديثِ: «**مَنْ سَرّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَليقَرَأْ فِي المصحَفِ**»[2]، قَالَ إِبرَاهيمُ بنُ الْجُنيدِ: كَانَ يُقالُ: (مِن عَلامَةِ المحبّةِ لله دَوَامُ الذكرِ بِالقلْبِ وَاللسانِ، وَرَأسُ ذَلكَ كلِّهُ اتّباعُ النّبيِّ ﷺ).

يَقولُ الشّاعِرُ:

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا مُحَالٌ فِي القِيَاسِ بَدِيعُ

---

(١) البقرة: ١٦٥.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٠٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٩).

لو كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لَأَطَعْتَهُ إِنَّ المحِبَّ لِـمَنْ يُحِبُّ مُطِيـعُ

الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ جَنَاحَا المؤْمِنِ يَطِيرُ بِهِمَا إِلَى الْـجَنَّةِ، فَمَنْ خَـافَ فَقَـطْ حُـرِمَ لَذَّةَ الْعِبَادَةِ وَقَنِطَ مِنَ الرَّحمَةِ كَالخَوارِجِ، وَمَنْ أَخذَ بِالرَّغْبةِ وَالْـحُبِّ فَقَطْ وَقَـعَ بِالأَمَانِيِّ البَاطِلةِ وَتَركَ العَمَلَ كَالمرجِئَةِ، أَمَّا شَأْنُ الصَّالِحِينَ فَهُـوَ الْـجَمْعُ بَـيْنَ الْقِسْمَينِ، وَنَقْلُ الْقَلْبِ بَيْنَ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَهَذَا مَا أَثْنَى اللهُ - تَعَالَى - بِهِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1]، وَفِي حَدِيثِ الدُّعَاءِ عِنْـدَ النَّـوْمِ: «**فَوَّضْـتُ أَمْرِي إِليكَ؛ رَغبةً وَرَهْبةً إِلَيكَ**»[2].

وَقَدِ اخْتَلفَ العُلَماءُ: هَلِ الأَفْضَلُ وَالمقَدَّمُ حَالُ الرّغبةِ أَمْ حَالُ الرّهبَةِ؟ وَنَقُولُ: إِنَّهُ لا بُدَّ مِنْهُمَا عَلَى الدَّوَامِ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا أَحْسَنُ أَحْيَاناً فِي بَعْضِ الأَحْوَالِ.

يَقُولُ ابنُ الْقَيِّم: (اسْتحَبَّ السَّلَفُ أَنْ يُقَـوِّيَ فِي الصِّـحَّةِ جَنَـاحَ الْـخَوْفِ عَلَى الرَّجَاءِ، وَعِنْـدَ الْـخُرُوجِ مِـنَ الـدُّنيَا يُقَـوِّي جَنَـاحَ الرّجَـاءِ عَـلَى جَنَـاحِ الْـخَوفِ). ثُمَّ قَالَ: (وَالْقَلْبُ فِي سَـيْرِهِ إِلى اللهِ- عَـزَّ وَجَـلَّ- بِمَنْزِلَـةِ الطَّـائِرِ، فَالمحَبَّةُ رَأْسُهُ وَالْـخَوْفُ وَالرَّجَاءُ جَنَاحَاهُ، فَمَتَـى سَـلِمَ الـرَّأْسُ والْـجَنَاحَانِ فَالطَّائِرُ جَيِّدُ الطَّيَرَانِ، وَمَتَى قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ، وَمَتَى فُقِـدَ الْـجَنَاحَانِ فَهُوَ عُرْضَةٌ لِكلِّ صَائِدٍ وَكَاسِرٍ).

وَقَالَ غَيرُهُ: (أَكْمَلُ الأَحْـوَالِ اعْتـدِالُ الرَّجَـاءِ وَالخَـوفِ، وَغَلبـةُ الحُـبِّ، فَالمحَبةُ هِيَ المرْكَبُ وَالرَّجَاءُ حَادٍ، وَالخَوفُ سَائِقٌ، وَاللهُ الموصِلُ بِمَنِّهِ وَكَرمِهِ).

اللهُمَّ طَهِّرْ قُلوبَنَا مِنَ النِّفَاقِ، وَأَعمالَنَا مِن الرِّيَاءِ، وَاجْعلنَـا ممَّـنْ يَعبـدُونَك رَغَباً وَرَهَباً.

---

(١) الأنبياء: ٩٠.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠)، عن البراء بن عازب ﷺ.

المحاضرة (١٠)

دواءٌ عَجيب يَنفَعُ لكُلِّ داءٍ

حَمداً للهِ عَلَى السَّراءِ وَالضَّراءِ، وَالصّلاةُ وَالسّلامُ عَلَى سَيدِ الأَنبيَاءِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ أَهلِ الصَّبرِ وَالرِّضَا بِالقَضَاءِ، أَمَّا بَعدُ:

فرِحلَتُنا الأَثريَّةُ المحرَابيّةُ فِي مُحافَظةِ (الفَروَانيـة) لِنتَعـرَّفَ عـلى مسـاجِدِهَا الأَثَريَّةِ، وَمِن أَهمِّهَا مَا يَلِي:

١ـ مَسجِدُ (عَلي فَهْد الدويلَة) وكَانَ يَقعُ قَدِيماً فِي قَريَةِ الدُّوغَةِ الَّتِي سُمِّيَتْ حَدِيثاً بِالْفَروَانِيةِ، وَأَصبَحَ مَوقِعُهُ الآنَ فِي قِطعَةِ (٣٤) خَلفَ عمَاراتِ العِربيـدِ، أَسسَهُ الحَاجُّ عَليُّ الدويلَة عَامَ (١٩٤٦م) مِنَ الطِّينِ وَعُروقِ الشَّجَرِ، وَفِي عَـامِ (١٩٥٥م) أَعَادَتْ وَزارَةُ الأَوقَافِ بِناءَهَ مِن جَدِيدٍ، وَمِنْ أَشهرِ أَئمتِهِ سَيفُ بن دُويلَةَ عَامَ (١٩٧٧م).

٢ـ مَسجِدُ (نَابِي بنِ دُويلَة) وَكَانَ يَقعُ قَدِيماً فِي قَريَةِ الدُّوغَةِ- أَيْضـاً- الَّتِـي سُمِّيَتْ حَدِيثاً بِالفَروانِيةِ، وَأَصْبَحَ مَوقِعُـهُ الآنَ فِي قِطعَـةِ (٢) خَلـفَ عَـمارَاتِ المنَاوِرِ، أُسِّسَ هَذَا المسْجدُ عَلَى أَرضٍ قَدَّمَهَا الحَاجُّ (نَابيُّ زَايـد الدُّويلَـة) وَقَـامَ ببنَائِهِ الحَاجُّ مُحَمَّدٌ السَعِيدَانُ عَامَ (١٩٥٦م) مِنَ الطِّينِ وَعُروقِ الشَّـجَرِ، وَقَـد رَمَّمَهُ أَولاً الحَاجُّ عَلِي الدُّويلَـة فِي السّـتينياتِ، ثُـمَّ فِي الثَّمَانِينيـاتِ جَـدَّدَهُ أَهَـالِي المنْطِقَةِ مَرَّةً أُخرَى، وَمِن أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ مُحَمَّدُ السَعِيدَان.

٣ـ مَسْجِدُ (سَعدِ بنِ شَيتَان) الوَاقِـعُ فِي الفروَانيـةِ قِطعَـة (٤) عَـلَى شَـارِعِ (١١٤)، أَسَّسَهُ السَّيدُ سَعدُ بنُ شَيتَان فِي أَوائِلِ الخَمسِينِياتِ، ثُمّ أَعادَتْ وَزارَةُ الأَوقَافِ بِناءَهَ فِي مَكانِهِ القَدِيم عَامَ (١٩٥٤م).

٤ـ مَسْجِدُ (نَزَّالِ الرّشِيدِي) الوَاقِـعُ فِي قِطعَـةِ (٤) عَـلَى شَـارِعِ (١١٦) فِي وَسطِ الحَدِيقةِ مَاسةِ الّتِي تَقَعُ عَلَى هَـذَا الشّـارِعِ، أَسسَـهُ المـلا نَـزَال المعصـبُ

الرَّشِيديُّ عَامَ (١٩٥٠م).

وبَعْدَ هَذَا المُرُورِ عَلَى آثَارِ مَسَاجِدِنَا وَذِكْرِ أَئِمَّتِنَا، سَنَستَمِعُ لِلمَوَاعِظِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الْهَامَّةِ وَهِي الْيَومَ بِعُنْوَانِ: (وَصفَةٌ عِلاجِيةٌ عَجِيبةٌ).

الدُّنيَا دَارُ الابْتِلاَءِ، وَفِيهَا الأَسْقَامُ والأَمرَاضُ، وَصَفَهَا التّهَاميُّ بِقولِهِ:

طُبِعَتْ عَلى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْواً مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ

الإِسْلامُ يَأمرُنَا إِذَا مَرِضْنَا أَنْ نَأخذَ بِأَسْبَابِ الشِّفَاءِ وَبِمُرَاجعةِ الأَطِبَّاءِ وَالاستِشفَاءِ بِكلِّ أَنْواعِ الدّوَاءِ، غَيرَ أَنَّ بَعْضَنَا إِذَا مَرِضَ يَطُوفُ عَلَى كُلِّ العِيادَاتِ الطِّبيةِ وَيَغْفَلُ أَوْ يَتَغَافَلُ عَنْ عِبَادَةِ الصَّدَقةِ، وَقَدْ وَردَ فِي الصَّحِيحِ أَنّ الرَّجُلَ يُبتَلَى فِي مَالِهِ وَنَفسِهِ وَأهلِهِ وَيُكَفِّرُ ذَلكَ الصَّدَقةُ، وَفِي الحديثِ «**دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بالصَّدَقة**»[١].

فَيَا أَخِي المريضَ، يَا مَنْ تَبحَثُ عَنِ الشّفَاءِ هَلا أَضَفْتَ لِلأدْويَةِ الّتِي وَصَفَهَا لَكَ الطَّبِيبُ دَواءَ التَّصَدُّقِ مَعَ الثِّقَةِ بِقُدْرَةِ الله- تَعالَى- فإِنَّهُ هو الشَّافِي.

الطَّبِيبُ يَصِفُ لَنَا تَنَاولَ الدَّوَاءَ بِوقْتٍ مُحَدَّدٍ وَبِصُورةٍ مُنتَظِمَةٍ، وَكَذلِكَ التَّداوِي بِالصَّدقةِ فَإِنَّ لَهَا آدَاباً وَقَواعِدَ حَتَّى تكونَ نَافِعةً وَمفِيدَةً، وَمِن أَهمِّ هَذِهِ الآدَابِ:

أَولاً: التّصدُّقُ مِنْ طِيبِ المالِ بِنِيَّةِ الشِّفاءِ مَعَ الإِخلاصِ للهِ- تَعَالَى- وَاليَقِينِ بِقُدْرَتِهِ دُونَ اسْتعجَالٍ، وَلا تَقُلْ: إِنِّي أُجَرِّبُ مَعَ اللهِ - تَعَالَى.

ثَانِياً: لِكَي تَكُونَ صَدَقتُكَ بَالِغةَ الأَثَرِ- بِإِذنِ الله تَعَالَى- حَاولْ جَاهِداً أَنْ تَتَحرَّى لِصدَقتِكَ مُحْتَاجاً صَالِحاً تَقِيّاً، كَمَا جَاءَ فِي الحَديثِ: «**وَلا يَأْكُلْ**

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٨٢)، عن ابن عمر، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٥٨).

طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ»[١]، وَكُلَّمَا كَانَ الْفَقِيرُ أَشَدَّ فَقْراً وَحَاجةً لِلصّدَقةِ كَانَ أَثرُ الصّدَقةِ أَكبرَ وأَعظَمَ.

ثَالِثاً: إنْ لَمْ تَرَ نَتِيجةً سَريعةً لِشِفَاءِ مَرَضِكَ بَعْدَ صَدَقتِكَ، فَتَصَدَّقْ مَرَّةً أُخْرَى، وَكَرِّرْ ذَلِكَ وَلا تَقْنَطْ، وَكُنْ عَلَى تَمَامِ الثِّقةِ أَنَّ صَدَقَتَكَ لَنْ تَضِيعَ أَبَداً، فَهِيَ مَحْفُوظَةٌ عِنْدَ مَنِ لا يَضِلُّ وَلا يَنْسَى، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يُشْفَ مَرَضُكَ بِسبَبِ صَدقَتِكَ فَاعلَمْ يَقِيناً أَنّ ذَلكَ لَمْ يَتمَّ لِلُطفٍ إِلَهيٍّ وَحِكمَةٍ رَبَّانِيَّةٍ؛ لأَنّ اللهَ- تَعالَى- قَد لا يَشفِي المرِيضَ أَحيَاناً حَتّى لَو تَصَدَّقَ، بَلْ قَد يَلْطُفُ بِعَبْدِهِ المتَصَدِّقِ فَلا يَشْفِيهُ حَتَّى يَتَخلَّصَ مِن ذُنُوبِهِ الّتِي يُقِيمُ عَليهَا.

رَابِعاً: إِذَا شَفَاكَ اللهُ- تَعالَى- وَأَبْدَلَكَ عَنِ الضَّراءِ سَرَّاءً، فَتَوجَّهْ إِليهِ بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَدَاوِمْ عَلَى الصَّدَقَةِ.

أَخِي المرِيضَ، أَلم تَتَصَدَّقْ إِلَى الآنَ؟ هَيَّا عَلَيْكَ بِهذَا الدّوَاءِ العَجِيبِ، يَقولُ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّم- رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى: (إِنَّ لِلصَّدَقةِ تَأثِيراً عَجِيباً فِي دَفعِ أَنوَاعِ البَلَاءِ).

أَخِي المرِيضَ، يَقولُونَ فِي الأَمثَالِ: (**اسْأَلْ مجرّبْ وَلا تَسْأَلْ حَكِيم**)، وَهَذَا الإِمامُ ابنُ القَيم- رَحمَهُ اللهُ تَعالَى- يُحدِّثُنَا عَن تَجْرِبتِهِ مَعَ هَذَا الدّواءِ العَجِيبِ يَقولُ: (وَأَهلُ الأَرْضِ كُلُّهُم مُقِرُّونَ بِدواءِ الصدقةِ لأَنَّهُم جَرَّبوهُ، وَقَد جَرَّبنَا نَحنُ وَغَيرُنا مِن هَذَا أَمُوراً كَثِيرةً، وَرَأَيْنَاهَا تَفْعَلُ مَا لا تَفعلُ الأَدْوِيَةُ الحِسّيَّةُ).

أَخِي المرِيضَ الحبيبَ، مَاذَا تَنْتَظِرُ؟ أَمَا زَالَ عِنْدَكَ شَكٌّ؟ تَعَالَ مَعِي لِنَستَمِعَ إِلَى مَنْ عَانُوا مِنَ المرضِ ثُمَّ كَانَ شِفاؤُهُم مَقرُوناً بِظلِّ صَدقتِهِم، إليك هذه القصص:

القِصةُ الأُولَى: جَاءَ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ (أَنَّ الشَّيخَ الحَاكِمَ أَبا عَبدِ اللهِ- رَحِمَهُ اللهُ- قَرِحَ وَجْهُهُ وَعالَجَهُ قَرِيبَ السَّنَةِ فَلمْ يَذْهَبْ، فَطلَبَ مِنَ الإِمامِ

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وحسنه الألباني.

الصّابُونيِّ أَنْ يَدعوَ لَهُ فِي مَـجْلسِهِ يَومَ الْـجُمعةِ، فَدعَا لَهُ وَأكثَرَ النَّاسُ التَّأْمِينَ، فَلَمّا كَانَ يومُ الْـجُمعةِ الأُخرَى أَلقَتْ امْرَأةٌ فِي المجلسِ رُقعَةً وَفِيها: أَنَّها عَادَتْ إِلَى بَيتِهَا وَاجْتهدَتْ فِي الدُّعاءِ لِلحاكِمِ أَبِي عَبدِ اللهِ تِلكَ الليلةَ، فَرأَتْ فِي مَنامِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ كَأَنّهُ يَقولُ لَهَا: «قُولِي لأَبِي عَبدِ اللهِ يُوسِّعُ المـاءَ عَـلَى المسـلِمينَ»، فَأمرَ الحَاكمُ أَبُو عَبدِ اللهِ بِسقَايةٍ بُنِيَتْ عَلَى بَابِ دَارِه، فَمَا مَرَّ عَليهِ أُسـبوعٌ حَتّـى ظَهَرَ الشِّفَاءُ وَزَالَتْ تِلكَ القُرُوحُ وَعَادَ وَجهُهُ إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ).

القِصةُ الثّانِيةُ: ذُكرَ فِي مُعجمِ السَّفرِ: أَنّ أَبا بَكرٍ الخَبّازِيَّ مَرِضَ مَرضاً خَطِيراً، فَقَالَ لَهُ جَارُهُ: تَدَاوَ بِالصَّدَقَةِ، وَكَانَ الوَقْتُ صَيْفاً، فَاشْتَرى بِطِّيخاً كَثِـيراً، وَجَمَـعَ جَمَاعَةً مِنَ الفُقَرَاءِ وَالصّبيَانِ، فَأَكلُوا، وَرَفعُوا أَيدِيهُم إِلَى اللهِ- عَزّ وَجلَّ، وَدَعَوا لَهُ بِالشّفَاءِ، فَمَا أَصبحَ إِلا وَهُوَ فِي كُل عَافِيةٍ مِن اللهِ- تَبارَكَ وَتعَالَى.

القِصةُ الثّالِثَةُ: أَخِي المرِيضَ، هَلْ تُرِيدُ المزِيدَ ممَّا يُبدِّدُ أَحزَانَكَ وَيُنْسِيكَ هَمَّ مَرَضِكَ وَيَفتحُ لَكَ بَابَ الأَمَلِ بِالشِّفَاءِ، اسْمعْ مَعِـي لِلقصَّـةِ التّالِيَـةِ: أُصِـيبَ أَحَدُ أَبنَاءِ مَشايِـخِنَا بِمَرَضٍ عَجزَ عَنهُ الأَطبَاءُ حَتَّى قَالَ آخِـرُهُم: (إِذَا لَمْ تَنْـزِلْ حَرَارَةُ الطِّفلِ هَذِهِ الليلةَ فَسَيُفَارِقُ الحَيَاةَ غَـداً!)، وَبَـاتَ الشَّـيْخُ وَزَوْجَتُـهُ لا يَعْرفَانِ النَّوْمَ مِن هَمِّهِا عَلَى ابْـنِهِا، فَلـمَّا حَانَـتْ صَـلاةُ الفَجـرِ خَـرجَ الشّـيخُ لِلمسْجِدِ، وَفِي الطّرِيقِ تَذكَّرَ التّدَاوِي بِالصَّدَقةِ، وَلكنْ أَينَ يَجِدُ فَقِـيراً يَتَصـدّقُ عَليهِ فِي مِثلِ هَذَا الوَقتِ، وَبينَمَا هُوَ يُفكرُ رَأَى هِرَّة جَائِعةً، فَعَـادَ لِمنزِلِـهِ وَأَخـذَ قِطعَةً مِنَ اللَّحْمِ فَأَطْعَمَهَا لِلهِرَّةِ، وَهُوَ يَتَـذَكَّرُ قَـولَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ لِلصَّـحَابَةِ حِينَمَا سَأَلُوهُ: وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْراً؟ فَقَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطبةٍ أَجْرٌ**»[١].

يَقُولُ الشّيخُ: عُدْتُ لِلبيتِ لأَجِدَ زَوجَتِي- وَهيَ لا تَعلمُ بِشَيـءٍ مِـنْ أَمـرِ الْـهِرَّةِ- قَدْ رَأَتْ مَنَاماً اسْتَبشَرْنَا بِهِ خَيراً، فَقَد رَأتْ طَيراً أَسْود كَبـيراً يُرِيـدُ أَنْ

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) عن أبي هريرة ﷺ.

يَنقضَّ عَلَى طِفلِنَا لِيأَخُذَهُ، وَهِرَّةً تُعارِكُهُ حَتّى دَفَعَتْهُ عَنِ الطِّفلِ وَطَارَ بَعِيداً.

وَفِي الصّباحِ بِقُدرَةِ اللهِ- تَعالَى- وَكَرمِه كَانَ الطِّفلُ يَلهُو مَعَ الأَطفَالِ فِي الحَيِّ وَقَد زَالَتْ حَرارتُهُ، وَبعدَ حَوالِي سبع عشرة سَنَةً أَكملَ حِفظَ القُرآنِ الكَرِيم.

أيّهَا الأَحبَابُ القراء: وَمِن عَجَائِبِ الصَّدَقَةِ أَنّهَا وَصْفَةٌ عِلاجِيّةٌ وَوِقَائِيَّةٌ، فَكمَا أَنّ المرِيضَ يَتعَافَى بِهَا- بِإذنِ الله تَعالَى، فكذَلكَ المعَافَى يَتّقِي بِهَا المرَضَ- بِإذنِ الله تَعالَى، فَيَا مَنْ أَنْعمَ اللهُ عَليكَ بِالْعَافِيةِ لا تَترُكِ الصّدَقةَ بِحُجَّةِ أَنَّكَ سَليمٌ، فَكَمَا أَنّ المريضَ يَصِحُّ فَإنّ الصّحِيحَ يَمرَضُ، وَقَد قِيلَ: (دِرهَمُ وِقَايَةٍ خَيرٌ مِنْ قِنطَارِ عِلاجٍ)، فَلا تَنتَظِرِ المرَضَ حَتَّى تَتدَاوَى بِالصَّدَقَةِ.

وَأَخِيراً، لا تَحْسَبَنَّ فَضْلَ الصَّدقَةِ مَقْصُوراً عَلَى التَّدَاوِي وَالاسْتِشفَاءِ فَقَط، بَلْ لَهَا مِنَ الفَضَائِلِ الكَثِيرُ، وَمِن أَهَمِّ فَضَائِلِهَا: مَطْهَرَةٌ لِلمَالِ، وَتُطفِئُ غَضبَ الرَّبِّ، وَتَمْحُو الْخَطِيئَةَ، وَتَقِي مِنَ النَّارِ، وَالمتَصدِّقُ تَدعُو لَهُ الملائِكَةُ بِأَنْ يَخْلُفَ اللهُ عَليهِ، وَيَدْخُلُ الجَنّةَ مِنْ بَابٍ خَاصٍ بِالصَّدَقةِ وَهُوَ فِي ظِلِّ صَدقَتِهِ يومَ القِيامَةِ، وَإِنّ اللهَ يَدْفَعُ بِالصَّدَقَةِ أَنْوَاعاً مِنَ البَلاءِ وَمِنهَا الظُّلمُ، قَالَ الأَعْمشُ: كَانُوا يَرَونَ أَنَّ الرَّجُلَ المظلُومَ إِذَا تَصدَّقَ بِشَيءٍ دُفِعَ عَنهُ.

كَمَا أَنَّ أَفضَلَ الصّدقَةِ: الصَّدقَةُ الخَفِيَّةُ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَتْ فِي حَالِ الصِّحَةِ مَعَ القِلَّةِ وَالحَاجَةِ، وَابْدأْ بِمنْ تَعُولُ، وأَكْثِرْ مِنهَا فِي شهرِ رمضان الفَضِيلِ، قَالَ ابنُ عَباسٍ رضي الله عنه: (كَانَ رَسولُ الله أَجْودَ النّاسِ، وَكَانَ أَجودَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضانَ حَينَ يَلقَاهُ جِبرِيلُ، وَكَانَ يَلقَاهُ فِي كُلِّ لَيلَةٍ مِنْ رَمضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرآنَ، فَلَرسُولُ الله ﷺ حِينَ يَلقَاهُ جِبرِيلُ أَجودُ بِالخَيرِ مِنَ الرِّيحِ المرْسَلَةِ)[1].

اللهُمّ إِنَّا نَسأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيةَ وَحُسْنَ الخِتَامِ.

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨) عن ابن عباس – رضي الله عنهما.

المحاضرة (١١)

الثُّلاثيَاتُ المهْلكَاتُ وَالمنْجِيَاتُ

محطتُنَا الأَثَريةُ المحرَابيةُ فِي مَنْطِقَةِ (خِيطَانَ وَالجَلِيبِ) مَنْ مُحَافَظَةِ الفَرْوانِيَّةِ، وَأَهمُّ مَسَاجِدِهَا:

١ـ مَسجِدُ **(مُحمدٍ بنِ هَجاج)** وَيَقعُ فِي مَنطِقَةِ خِيطَان قِطعَةِ (٣٤) عَلَى شَارِعِ (٦٨)، أَسّسَهُ السَّيدُ مُحمدُ بنُ هَجَاج العُتَيبِيُّ عَامَ (١٩٥١م)، وَمِنْ ثَمَّ جَدَّدَتْهُ وَزارَةُ الأَوقَافِ فِي مَكانِهِ القَديمِ عَامَ (١٩٥٥م)، وَقَد صَلّى فِيهِ إِمَاماً وَخَطِيباً الملا سَيفُ بنُ عَبدِ الله الدُّويلَةُ فِي الخَمسِينيّاتِ.

٢ـ مَسجِدُ **(يُوسفُ عَبدِ الهَادِي الميلَم)** وَيَقعُ فِي مَنطِقةِ خَيطَان عَلَى شَارِعِ (٧٣)، أَسَّسَهُ وَرثَةُ السيدِ يُوسُفَ عَبدِ الهَادِي، وَسَاهمَتْ وَزارةُ الأَوقَافِ فِي بنائِهِ عَامَ (١٩٥٦م).

٣ـ مَسْجِدُ **(العَضِيلَيةِ)** وَكَانَ يَقعُ عَلَى شَارِعِ الغَزَالِي قُرْبَ سِجنِ طَلْحَةَ فِي جَليبِ الشُّيُوخِ، وَقَد أُعِيدَ بِناؤُهُ فِي مَكانِهِ القَديمِ، أَسَّسَتْهُ وَزارَةُ الأَوقَافِ عَامَ (١٩٥٦م).

هَذِهِ المسَاجِدُ الأَثَرِيَّةُ كَانَتْ وَمَازَالَتْ جَامِعَاتٍ يُدَرِّس فِيْهَا أَئِمَّةٌ كِبَارٌ، فتَعَالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعُنْوان: (الثُّلاثِيَّاتِ المهْلِكَاتِ وَالمنْجِياتِ).

أَمّا الثَّلاثُ الموقِعَاتُ لَنا فِي المهالِكِ: فَأولـهَا: شُحٌّ مُطَاعٌ: وَهُو دَليلُ قِلَّةِ الْعَقْلِ وَسُوءِ التَّدبيرِ، وَمَعناهُ (حِرْصُ النَّفْسِ عَلَى مَا مَلكَتْ وَبخلُهَا بِهِ)، **وَنَقَلَ القُرْطُبِيُّ** تَفْرِقَةً بَيْنَ البُخلِ وَالشُّحِ بَأَنَّ البَخِيلَ يَبْخَلُ بِما فِي يَدِهِ، وَأَمَّا الشَّحيحُ فَإنهُ يَشُحُّ بِمَا فِي يَدهِ وَأيدِي النَّاسِ.

قَالَ ابنُ حَجَرٍ فِي الفَتحِ: (مِن عَلامَاتِ السَّاعةِ إلقاءُ الشُّحِّ وَالْبُخْلِ فِي قُلوبِ النَّاسِ عَلى اخْتلافِ أَحوَالِهم، حَتى يَبْخَلَ العَالِمُ بِعِلْمِهِ، فَيترُكَ التّعلِيمَ وَالفَتْوى، وَيَبْخَلَ الصَّانِعُ بِصناعَتِهِ حَتّى يَترُكَ تَعْلِيمَ غَيرِهِ، وَيَبخَلَ الغَنيُّ بِمالِهِ حَتى يَهْلِكَ الفَقِيرُ).

إنَّ الشُّحَّ وَالحِرصَ صِفةٌ جِبِلِّيَّةٌ فِي الإِنْسَانِ، لا يُذَمُّ عَلَيهَا إلا إِنْ أَطاعَهَا فَمَنَعَ الحُقُوقَ، قَالَ طَلحةُ بنُ عُبيدِ الله: إنّا لَنجِدُ بِأموَالِنَا مَا يَجِدُ البُخلاءُ، لِكنّنَا نَتَصبَّرُ، وَقَالَ رَجلٌ لابنِ عُمرَ: إني شَحِيحٌ، فَقالَ: إن كَانَ شُحُّك لا يَحْمِلُكَ عَلى أَنْ تَأخُذَ مَا لَيسَ لَكَ فَليسَ بِشُحِّكَ بَأسٌ، وَمِنهُ قُولُ النّبيِّ ﷺ: «**اتّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبلَكُم، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِماءَهُم وَاسْتَحلُّوا مَحَارِمَهُمْ**»[1].

إنّ المهالِكَ الّتِي يُوقعُنَا الشُّحُّ بِهَا كَثِيرةٌ، وَمِنْ أَهمِّهَا:

أولاً: لا يَجْتَمعُ مَعَ الإِيمانِ فِي قُلُوبِنَا.

ثانياً: يُشِيعُ الظُّلْمَ بَيننَا.

ثالثاً: يُوَرِّثُ قَطِيعَةَ الرَّحِمِ، قَالَ أَحدُ الحُكَماءِ: جُودُ الرّجُلِ يُحبِّبُهُ إِلَى أَضْدَادِهِ، وَبخلُهُ يُبَغِّضُهُ إِلى أَوْلادِهِ.

رابعاً: يَدفَعُ لِسَفْكِ الدِّماءِ، وَأَكْلِ الأَمْوالِ بِالبَاطِلِ.

خامساً: يُخْرِجُنَا مِنَ الجنةِ، وَيُبْعِدُنَا عَن جِوارِ رَبِّنَا كَما جَاءَ فِي الحَديثِ القُدسيِّ.

سادساً: وَقَد عَدَّه النّبيُّ ﷺ مِنَ الموبقَاتِ.

سابعاً: وَالأَمرُ الّذِي يُثيرُ العَجَبَ أَنَّ الشَّحيحَ يَعيشُ الفقرَ وَإِن كَانَ مِن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٨) عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما.

أَغنَى النَّاسِ، إِذْ يَبْخَلُ حَتّى عَلَى نَفسِهِ، وَهُو يَجمَعُ لِغيرِهِ، وَهَذا وَاقِعٌ مُشَاهَدٌ فِي حَياةِ النَّاسِ، وَمِـمَّا يُرْوَى فِي هَذَا أَنّ الحَسَنَ البَصريَّ- رَحمَه اللهُ- دَخلَ عَلى عَبدِ الله بْنِ الأَهْتَمِ يَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ، فَرَآهُ يَنْظُرُ إِلَى صَنْدُوقٍ فِي بيتِهِ، ثُم قَالَ: يَا أَبا سَعيدٍ، مَا تَقولُ فِي مَائِةِ أَلْفٍ فِي هَذا الصُّندوقِ لَمْ أُؤَدِّ مَنها زَكاةً، وَلَمْ أَصِلْ مِنهَا رَحِمًا؟

قَالَ الحسنُ: ثَكلتْكَ أُمُّكَ، وَلِمَ كُنْتَ تَجْمَعُهَا؟ قَالَ: لِروعَةِ الزّمَانِ، وَجَفوةِ السُّلْطَانِ، وَمُكاثَرةِ العَشِيرةِ. ثُم مَاتَ. فَلَمَا فَرغُوا مِن دَفنِهِ قَالَ الْحَسَنُ- رَحِمَهُ اللهُ: انْظرُوا إِلى هَذَا المسكِينِ كَيفَ خَرجَ مِنهَا مَسْلُوبًا مَحرُومًا.

وَمِن لَطائفِ الجَاحظِ أَيُّها الأَحْبَابُ أَنَّهُ قَالَ: البُخْلُ خُلُقٌ مَكرُوهٌ مِن جَميعِ النّاسِ، إلا أَنّهُ مِنَ النّساءِ أَقَلُّ كَراهِيةً، بَل قَد يُستَحَبُّ مِنَ النِّساءِ البُخْلُ بِمالِ أَزوَاجِهِنَّ إِلا أَن يُؤذَنَّ بِالجُودِ.

أَمّا ثَانِي المُهْلِكَاتِ: فَهَوًى مُتّبَعٌ: قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ: الهَوَى (مَيلُ الإِنسَانِ لَلشَّيءِ وَمَحَبَّتُهُ وَغلبتُهُ عَلَى قَلْبِهِ)، فَإِنْ كَانَ لِلْحَقِّ فَهُوَ الهَوَى المحْمُودُ، وَمنهُ جَاءَ قَولُ عَائشةَ لِلنبيِّ ﷺ: (مَا أَرَى رَبَّكَ إِلا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ) (١).

وَإِنْ كَانَ مَيْلاً لِلشَّهَوَاتِ فَهُوَ الهَوَى المَذْمُومُ وَهُوَ المَرَادُ عِنْدَ إِطْلَاقِ كَلمةِ الهَوَى، وَقَد تَضافَرتْ نُصُوصُ الشَّرْعِ عَلَى ذَمِّهِ وَالتَّحْذِيرِ مِن اتّبَاعِهِ وَالتّنفِيرِ منهُ، قَالَ تَعالَى فِي سُورةِ (ص) مُخَاطِباً دَاودَ - عَليهِ السّلامُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢).

وَاحذَرْ أَخِي القَارئ أَنْ تَكونَ مِمَنْ يُعمِيهِمُ الهَوَى عَنْ رُؤيةِ الحَقِّ أَوْ يَصُمُّهُم عَن سَمَاعِهِ، فَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَحَكَّمُ بِهِ الهَوَى حَتّى يَخْضَعَ لَهُ بِالانْقِيادِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤)، عن عائشة – رضي الله عنها.

(٢) ص: ٢٦.

كَأَنَّهُ إِلَـهُهُ قَالَ - تَعالَى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾(١)، وَيقُـولُ الجَـاحظُ: (إِذَا تَمَكَّنَتِ الشَّهْوةُ وَالهَوى مِنَ الإِنْسَانِ وَمَلَكَتْهُ وَانقَادَ لَهَا كَانَ بِالبهَـائِمِ أَشْـبَهَ مِنْـهُ بِالإِنسَانِ)، وَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم اتِّبَاعُ الهَوَى فَإِنهُ يَصُـدُّ عَنِ الحَقِّ).

قَالَ هِشَامُ بنُ عَبدِ الملكِ - وَلَمْ يَقُلْ غَيرَ هَذَا البَيتِ مِنَ الشعْرِ:

إِذَا أَنْتَ لمْ تَعْصِ الهوَى قَادَكَ الهَوَى إِلَـى كُـلِّ مَـا فِيـهِ عَلَيْـكَ مَقَـالُ

وَأنتَ أَخِي القارئ، بِمَا مُنِحْتَ مِنْ قُوَّةِ العَقْلِ وَالاخْتِيَارِ بِمَلْكِكِ أَنْ تُخَالِفَ هَوَاكَ وَتُسيطِرَ عَليهِ وَتَجْعَلَهُ مُنقَاداً لِعقلِكِ وَدِينِكِ مِن خِـلالِ مُجَاهَـدَةِ الـنَّفسِ وَحَمْلِهَا عَلى السُّمُوِّ فِي دَرَجَاتِ الخَيرِ وَالتَّقوَى، قَالَ تَعالَى فِي سُورةِ النّازعَـاتِ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(٢)، وَقَـالَ عَليـهِ الصّلاةُ وَالسّلامُ: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموْتِ، وَالْعَـاجِزُ مَـنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**»(٣).

أَمّا ثَالِثُ أَضلاعِ مُثَلَّثِ المهْلِكَاتِ فَهُوَ: إِعجَابُ المرءِ بِنَفْسِهِ: وَهُو (الرُّكُونُ إِلَى النِّعمَةِ مَعَ نِسيَانِ المنعِمِ، وَالنّظَرُ لِلغَيرِ بِعينِ الاحْتِقَـارِ) مِمَّـا يَجعَـلُ المعَجَـبَ يَنسَى الذُّنُوبَ فَلا يَستَغفِرُ مِنهَا، وَيَستعظِمُ الطَّاعَاتِ فَلا يَستزِيدُهَا، وَيَمُنُّ عَلَى اللهِ وَعَلى النَّاسِ، وَيَجرِي لِسانُهُ بِالثناءِ عَلَى نَفسِـهِ بِـما لَـيْسَ فِيهَـا، فَيُحْـرَمُ مِـن اسْتِشَارةِ الآخَرِينَ، وَيَقَعُ فِي هَاويةِ الاسْتبدَادِ بِالرَّأيِ حَتّى يَقُولَ: أنا خير منـه، كَمَا قَالَهَا إِبْلِيسُ، قال: أنا خير منه، وَكَما قَالَ صَاحِبُ الجَنَّتَينِ لِصَاحبِهِ فِي سُورةِ الكَهفِ: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾(٤)، فَكَانَتْ عَاقبـةُ إِبلـيسَ أَنْ قَـالَ اللهُ -

(١) الفرقان: ٤٣.

(٢) النازعات: ٤٠، ٤١.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وضعفه الألباني.

(٤) الكهف: ٣٤.

تَعالَى- لَهُ: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾[1]، وَأَمّا صَاحِبُ الجَنّتينِ فَقَد أَهلَكَ اللهُ جَنتَيهِ وَأُحِيطَ بِثمرِه.

قَالَ الأَحنفُ: عَجَباً لابْنِ آدمَ يَتَجَبَّرُ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ مَجْرَى البَولِ مَرَّتَينِ.

وَعَن مُطرفِ بْنِ عَبدِ الله الشِّخيرِ أَنّهُ رَأَى المهَلَّبَ وَهُوَ يَتَبخترُ فِي جُبّةِ خزٍّ، فَقالَ: هَذِهِ مِشيةٌ يُبغضُهَا اللهُ وَرسولُهُ، فَقَالَ لَهُ المهلبُ: أَمَا تَعْرِفُنِي؟فَقَالَ: بَلَى أَعْرِفُكَ، أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرةٌ، وَأنتَ بَينَ ذَلكَ تَحمِلُ العَذِرَةَ، فَمَضى المهَلَّبُ وَتَرَكَ مِشْيَتَهُ تِلْكَ.

بَعدَ أَنْ انتَهيْنَا مِن مُثَلَّثِ المهْلِكَاتِ نَتَحَدَّثُ عَنْ أَضلاعِ مُثلَّثِ المنْجِيَاتِ.

وَأَوَّلُهَا: العَدْلُ فِي الغَضَبِ وَالرِّضَا: قَالَ تَعالَى فِي سُورَةِ المائِدةِ: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[2]، وَجَاءَ رَجلٌ إِلَى عُمرِ بنِ الخَطابِ يَأخذُ رِزْقَهُ، وَكَان جُنْدياً مِنْ جُنودِ المسلمِينَ، وَلكنّهُ كَانَ فِي الجَاهِليةِ قَد قَتلَ أَخاً لِعُمرَ، فَلَمّا رَآهُ عُمرُ اربدَّ وَجههُ وَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا، إِنِّي لا أُحبُّكَ حَتّى تُحِبَّ الأَرْضُ الدّمَ.

فَقالَ الرّجلُ: أَوَ مَانِعِي ذَلِكَ عِنْدَكَ حَقًّا مِنْ حُقُوقِ الله؟ فَقالَ عُمرُ: لا.

قَالَ الرّجلُ: مَا يُضِيرُنِي بُغْضُكَ، إِنّمَا يَأْسَى عَلَى الحُبِّ النّسَاءُ.

فَقَد عَرفَ الرَّجُلُ مِن وَرَعِ عُمَرَ وَدِينِهِ أَنّ شِدّةَ غَضَبِهِ وَغَيظِهِ وَحَنقِهِ عَلَيْهِ وَكَراهيَتِهِ لَه لا يَخْرُجُ بِهِ عَن العَدْلِ إِلَى الظُّلمِ، فَلَمّا عَلمَ بَعَدْلِهِ وَوَثِقَ بِدينِهِ أَمِنَ مِن بَطْشِهِ، وَمِمَّا قَرَّرَهُ السّادَةُ الفُقهاءُ- رَحِمَهُم اللهُ تَعالَى- فِي هَذا البَابِ حِرْصاً مِنهُم عَلَى العَدلِ **أَنّ الغَضْبَانَ لا يَحْكُمُ بَينَ اثْنينِ**، وَقَاسُوا عَليهِ كُلَّ مَا يُشَوِّشُ عَقْلَ القَاضِي وَذِهنَه مِن شِدَّةِ جُوعٍ أَو عَطشٍ أَو حُزنٍ؛ حَتّى يَمنعَهُ مِن التَّفْكيرِ

(١) الحجر: ٣٤.

(٢) المائدة: ٨.

وَالتّدبُّرِ وَالتّصورِ وَالوُصُولِ إِلَى الحُكم الصّحِيح.

وَالثَّانيةُ مِنَ المنجياتِ: القَصْدُ فِي الفَقرِ وَالغِنَى: وَهُوَ (التَّوَسُّطُ بَينَ الإِفرَاطِ وَالتّفريطِ)، فَبَطَرُ الغِنَى رُبّمَا جَرَّ إِلَى الإِفرَاطِ، وَعَدمُ الصّبرِ عَلَى الفَقرِ رُبّمَا أَوْقَعَ فِي التّفرِيطِ، فَالقَصدُ فِيهِمَا هُوَ الطَّرِيقَةُ القَويمَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (مَا عَالَ مُقتَصِدٌ قَطُّ).

وَقَالَ تَعالَى فِي وَصْفِ عِبادِهِ المكْرَمِينَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[1]، فَلَم يُبَذِّرُوا فِي إِنفاقِهِم فَوقَ حَاجتِهِم، وَلا بَخلُوا عَلَى أَهلِيهِم فِي حَقِّهِم، بَلْ خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَطُهَا بَينَ الإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيرِ، فَالإِسرَافُ مَفسَدَةٌ لِلنَّفسِ وَالمالِ وَالمجتَمَعِ، وَالتّقتِيرُ مِثْلُه حَبْسٌ لِلْمَالِ عَن انْتفَاعِ صَاحبِهِ بِهِ، وَانتفَاعِ الجَمَاعةِ مِنْ حَولِهِ.

قَالَ رجل لعمر بن عبد العزيز: يَا أَمِيرَ المؤمنِينَ إِنَّ اللهَ قَدْ أَعطَاكَ فَلَو لَبِسْتَ- وَذَلِكَ بَعدَ أَنْ رَآهُ يَلْبَسُ قَمِيصاً مَرقُوعَ الجَيبِ مِن بَينِ يَديهِ وَمِن خَلْفِهِ ـ فَقَالَ: (أَفضَلُ القَصدِ عِندَ الجِدَةِ).

وَأَمّا ثَالِثَةُ المنْجِياتِ: فَهِيَ خَشيَةُ اللهِ فِي السّرِ وَالعَلانيةِ: وَمعنَاهَا (الخَوفُ مَعَ التَّعْظِيمِ وَالإِجْلالِ).

قَالَ الكَفَوِيُّ: (الخَشيَةُ أَشَدُّ مِنَ الخَوفِ، فَالخَشيَةُ تَكونُ مِنْ عِظَمِ المَخْشِيِّ وَإِنْ كَانَ الخَاشِي قَوِيًّا، وَالخَوفُ يَكونُ مِن ضَعفِ الخَائِفِ وَإِنْ كَانَ المخُوفُ أَمْراً يَسِيراً)، فَالخَشْيَةُ أَخَصُّ مِنَ الخَوفِ تَكُونُ لِلْعُلَمَاءِ وَالأَنبيَاءِ، وَالخَوفُ لِعَامَّةِ المؤمِنينَ قَالَ ﷺ: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ للهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي**»[2]، وَفِي الصّحِيحِ يَقولُ المصطَفَى: «**كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا**

(١) الفرقان: ٦٧.

(٢) أخرجه مسلم (١١١٠) عن عائشة – رضي الله عنها.

حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا متُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ؛ فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الْأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ سبحانه: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ، خَشْيَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ»[1].

اللَّهُمَّ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ المهالِكِ، وَارْفَعْنَا عِندَكَ الدّرجَاتِ العُلَى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦) عن أبي هريرة ﷺ.

المحاضرة (١٢)

ما خاب من استشار

إِخوَانِي أَحبابِي القراء الْكِرَامَ تَحطُّ بِنَا عَصَا التِّرحَالِ فِي (مُحافَظَةِ الأَحمدِي) لِنَتعرفَ على مساجِدِهَا الأَثريّةِ، وَمِن أَهمِّها مَا يَلِي:

١ـ **مَسجِدُ (الشُّعَيبةِ القَدِيمُ)**: يَقعُ فِي قَريةِ الشّعيبَّةِ، وَلا يُعْلَمُ عَلَى وَجهِ التَّحْدِيدِ مَتَى أُسِّسَ هَذَا المسْجِدُ وَلا مَن أَسَّسَهُ، وَلا شَكَّ أَنّهُ قَدْ مَرَّ بِعِدَّةِ تَجْدِيدَاتٍ، وَلا يُعرفُ مِنهَا إلا تَجدِيدُ وَزارَةِ الأَوقافِ؛ حَيثُ أَعادَتْ بنَاءَهُ مِن جَديدٍ عَامَ (١٩٥٠م)، وَمِنْ أَشهَرِ أَئِمتِهِ الملا عَصفُورُ العَصفُور.

٢ـ **مَسجِدُ (الحَمْدَان)**: وَيَقعُ فِي قَرْيَةِ الفِنْطَاسِ، أَسَّسَهُ حَمْدَانُ بنُ حَمْدَانَ ابنِ خُزَيم، وَبَقِيَ المسْجِدُ إِلَى أَن انْتقَلَ أَهَالِي قَريةِ الفِنطَاسِ مِنْ مَوقِعِهِم الأَوَّلِ القَدِيم إِلَى مَوقِعِهم الثَانِي عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ بِسبَبِ تَرَاكُم الرِّمَالِ الموْسِميَّةِ، وَلـمَّا أَرَادُوا بِنَاءَ مَسْجِدِهِم الجَدِيدِ نَقلُوا لَهُ مَا كَانَ مُسْتَخدَماً فِي مَسجِدِ الحَمدَانِ القَديمِ، وَظلَّ مَسجِدُ الحَمدانِ القَديمُ أَطْلالاً إِلَى أَن أُزِيلَ مَوقِعُهُ عَامَ (١٩٨٧م) وَذَلكَ عِندَ تَسوِيَةِ البَلَديةِ الموقِعَ لِتَسوِيةِ الأَمَاكِنِ المنخَفِضَةِ، وَقَد أُعيدَ بِنَاءُ هَذَا المسجِدِ عَامَ (١٩٦٧م) فِي مَوقِعِهِ الحَالِي قَرِيباً مِنْ مَوقِعِهِ القَديمِ قُرْبَ جَمعِيةِ الفِنطَاسِ، وَمِن أَشْهَرِ أَئمتِهِ الملا حَمدَانُ أَحمَدُ الحَمْدَانُ الّذِي كَانَ إِمَاماً وَمُحَارِباً فِي المعارِكِ.

٣ـ **أَيُّها الأَحبَابُ الكرَامُ**: بَعدَ انتقَالِ أَهلِ الفِنطَاسِ إِلَى الموقِعِ الجَدِيدِ عَلَى البَحرِ احْتَاجُوا لِـمَسْجِدٍ جَدِيدٍ بَدلَ مَسجِدِ الحَمدَانِ فَبنوا (**مَسجِدَ الرَّدْهَانِ**) عَامَ (١٩١٠م)، وَقَد جَدَّدَتْهُ وَزارةُ الأَوقَافِ عَامَ (١٩٥٢م)، وَفِي عَامِ (١٩٨٦م) أَعَادَتْ بِناءَهُ فِي مَوقِعِه الجَدِيدِ الّذِي يَقعُ شَمالَ مَوقِعِهِ القَدِيمِ.

إنها مَساجِدُنا كَتبتْ آثارَنَا وَصَلّى بِهَا أَعْلامُنا وَأَئمتُنا، وَبَعدَ هَذَا الموجَزِ عَنْ تَاريخِهَا تَعَالَوا لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّيَ بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُوَ بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بِعنوانِ: (مَا خَابَ مَنِ اسْتَشارَ).

الشُّورَى مِنْ عَزَائِمِ الأَحْكَامِ وَقَواعِدِ الشَّرِيعَةِ، قَالَ الأَصْفَهَانِيُّ: (هِيَ إِظهَارُ وَاسْتخرَاجُ الرَّأْيِ وَالفِكْرِ بِتبَادُلِ الآرَاءِ؛ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى الرَّأْيِ الأَصْوَبِ).

وَإِنَّ مِنْ حَزْمِ العَاقِلِ- مَهْمَا كَانَ مَرْكَزُهُ الاجْتِماعِيِّ- أَلا يُبْرِمَ أَمْرًا إلا بِمَشُورَةِ نَاصِحٍ، وَمُطَالَعَةِ ذِي الْعَقْلِ الرَّاجِحِ، فَالحَاكِمُ الّذِي يُدَبِّرُ شؤونَ الدّولَةِ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا، وَكَذلِكَ مُدِيرُ المدرَسةِ، وَرَبُّ الأُسرَةِ وَنَحوُهُم مِنَ الأَفرَادِ وَالجماعَاتِ، وَقَد أَمَرَ اللهُ- تَعَالَى- بِالمشُورَةِ نَبِيَّهُ ﷺ مَعَ مَا تَكَفَّلَ بِهِ مِنْ إِرْشَادِهِ وَوَعَدَ بِهِ مِنْ تَأْيِيدِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1].

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَمَرَهُ بِمُشَاوَرَتِهِمْ لِيَسْتَنَّ بِهِ المسْلِمُونَ وَيَتْبَعَهُ فِيهَا المؤمِنُونَ، وَإِنْ كَانَ عَنْ مَشُورَتِهِمْ غَنِيًّا، وَلَمْ تَزَلِ الشُّورَى فِي أَطوَارِ التَّارِيخِ رَائِجَةً بَينَ البَشَرِ، فَقَدْ اسْتَشَارَتْ بِلْقِيسُ فِي شَأنِ سُلَيمَانَ- عَلَيهِ السَّلامُ- فِيمَا حكى اللهُ عَنهَا بِقولِهِ: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾[2].

وَاعْلمُوا أَيُّهَا الأَحْبَابُ الحَرِيصُونَ عَلَى مَصَالِحِكُمْ أَنْ التَّشَاوُرَ مِنَ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ الَّتِي تَطلُبُ النّجَاحَ فِي مَسَاعِيهَا وَأُمُورِهَا، وَقَدْ قَرَنَ اللهُ- تَعَالَى- أَصْلَ خَلْقِنَا بِالتَّشَاوُرِ؛ إِذْ قَالَ لِلْمَلائِكَةِ وَهُوَ الغَنِيُّ عَن مَشورَتِهِم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[3]؛ لِيَكُونَ التّشَاوُرُ سُنةً فِي البَشرِ وَضَرورَةً، وَأَنّهُ مُقتَرِنٌ بِتكوِينِهِ، فَإِنّ مُقارنَةَ الشّيءِ لِلشّيءِ فِي أَصلِ التّكوِينِ يُوجِبُ إِلفَهُ وَتَعارُفَهُ،

(١) آل عمران : ١٥٩.
(٢) النمل : ٣٢.
(٣) البقرة : ٣٠.

وَإِنّما يُلهِي النّاسَ عَنِ المشاورَةِ حُبُّ الاسْتِبدَادِ وَكَرَاهِيةُ سَمَاعِ مَا يُخَالِفُ الهَوَى، وَذَلكَ مِن انْحرَافِ الطَّبَائع وَلَيسَ مِنْ أَصْلِ الفِطْرَةِ، وَلَذلِكَ يَهْرعُ المسْتَبِدُّ إِلَى الشُّورَى عِنْدَ الشَّدَائِدِ، فَقَد اسْتشَارَ فِرعُونُ المسْتَبِدُّ فِي شَأنِ مُوسَى - عَليهِ السّلامُ - فِيمَا حَكَى اللهُ عَنهُ بِقولِهِ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[1].

فِإيَّاكَ أَخِي القارئ مِنَ الاسْتِبدَادِ برأيِكَ اعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِك، وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِك، فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي الْحَاجَةِ أَسْلَمُ، وَهُوَ مِنْ الصَّوَابِ أَقْرَبُ؛ لِخُلُوصِ الْفِكْرِ وَخُلُوِّ الْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ الْهَوَى وَارْتِفَاعِ الشَّهْوَةِ، قَالَ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ لابْنِهِ: شَاوِرْ مَنْ جَرَّبَ الْأُمُورَ؛ فَإِنَّهُ يُعْطِيك مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِالْغَلاءِ، وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وفِي الحِكَم: (الخَطَأُ مَعَ الاسْتِرْشَادِ أَحْمَدُ مِنَ الصَّوَابِ مَعَ الاسْتِبْدَادِ).

وَقَد اخْتلفَ الفُقهَاءُ - رَحِمَهُمُ اللهُ - فِي حُكْمِ الشُّورَى: وَاجِبَةٌ هِيَ أَمْ مَندُوبَةٌ؟ وَقَد ذَهبُوا إِلَى تَأْكيدِهَا فِي حَقِّ وُلاةِ الأُمُورِ، قَالَ ابْنُ خُويزَ مَنْدَاد - فَقِيهٌ مَالِكيٌ: (وَاجِبٌ عَلَى الوُلاةِ مُشَاوَرَةُ العُلَماءِ فِيمَا لا يَعْلَمُونَ، وَفِيمَا أُشْكِلَ عَلَيْهِم مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا)، وَدَعَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ عَشَرةَ نَفرٍ مِنْ فُقهَاءِ البَلْدَةِ فَقَالَ: (إِنِّي دَعَوتُكُم لأمْرٍ تُؤْجَرُونَ عَليهِ، وَتَكونُونَ فِيهِ أَعوَاناً عَلَى الحَقِّ، مَا أَرِيدُ أَن أَقطعَ أَمراً إِلا بِرَأْيكُم أَوْ بِرأْيِ مَن حَضَرَ مِنكُم).

قَالَ الشّاعِرُ:

شَاوِرْ سِوَاكَ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ — يَوماً وإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ المشورَاتِ

وَتَعودُ فَائدةُ الاسْتشَارَةِ إِلَى مَا يَلِي:

أَولاً: عَدمُ النّدَامَةِ: إِنّ المشَاوِرَ إِذَا لَمْ يَنجَحْ أَمرُهُ عَلِمَ أَنّ امْتنَاعَ النَّجَاحِ مَحْضُ

(١) الأعراف: ١١٠.

قَدَرٍ فَلَمْ يَلُمْ نَفسَهُ، فَالتّدبيرُ قَبلَ العَملِ يُؤَمِّنُكَ مِنَ النَّـدَمِ، وَقَـدْ قِيـلَ فِي مَنْثُـورِ الْـحِكَمِ: مَنْ أَكْثَرَ المشُورَةَ لَمْ يُعْدَمْ عِنْدَ الصَّوَابِ مَادِحاً، وَعِنْدَ الْخَطَأِ عَاذِرًا.

ثَانِياً: الشُّورَى سَبَبٌ مِنْ أَسبَابِ السَّدَادِ: فَإِنّهُ قَدْ يَعْزِمُ عَـلَى أَمْـرٍ يَتبَـيَّنُ لَـهُ الصَّوابُ فِي قَولِ غَيرِهِ، فَيعلَمُ عَجزَ نَفسِهِ عَنِ الإِحَاطَةِ بِفنُونِ المصَالِحِ، وَللهِ دَرُّ مَنْ قَالَ:

إِنَّ اللَّبِيبَ إِذا تَفَرَّقَ أَمـرُهُ فتَقَ الأُمورَ مُناظِراً وَمُشاوِرا

وَأَخو الجهالَةِ يَستَبِدُّ بِرَأيِهِ فَتَراهُ يَعتَسِفُ الأُمورَ مُخاطِرا

وَقَالَ بَعضُ الحُكَمَاءِ: مَا اسْتُنْبِطَ الصَّـوَابُ بمثـلِ المشَـاوَرَةِ. وَقَـالَ بَعْـضُ الْبُلَغَاءِ: مِنْ حَقِّ الْعَاقِـلِ أَنْ يُضِـيفَ إلَى رَأْيِـهِ آرَاءَ الْعُقَـلاءِ، وَيَجْمَـعَ إلَى عَقْلِـهِ عُقُولَ الْـحُكَمَاءِ ، فَالرَّأْيُ الْفَذُّ رُبَّمَا زَلَّ، وَالْعَقْلُ الْفَرْدُ رُبَّمَا ضَلَّ.

آداب التشاور:

إِنَّ لِلتَّشَاوُرِ آدَاباً لا بُدّ مِنهَا حَتّى تُحَقِّقَ المشورَةُ مَقصودَهَا، وَمِن أَهَمِّهَا:

الأَدبُ الأولُ: التَّحـرِّي وَالدّقـةُ فِي اخْتيَـارِ المسْتَشَـارِ: فَـإِذَا عَزَمْـتَ عَـلَى المـُشَاوَرَةِ فابحث عن أَهْلِهَا- وَالجَمَاعَةُ خَيرٌ مِنَ الفَردِ- مِـمَّنْ قَـدْ اسْـتُكْمِلَتْ فِيهِم خِصَالُ الدّينِ وَالعِلمِ وَالعَقلِ وَالتّجرِبةِ وَالنّصحِ.

قَالَ النّوَوِيُّ: (وَاعْلَمْ أَنّهُ يُستَحبُّ لِـمَن هَمَّ بِأمرٍ أَنْ يُشَـاوِرَ فِيـهِ مَـنْ يَثـقُ بِدينِهِ، وَخِبرَتِهِ، وَحَذقِهِ، وَنَصيحَتِهِ، وَوَرَعِهِ، وَشَفقتِهِ).

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْـحَسَنِ لابْنِهِ مُحَمَّدٍ: (احْـذَرْ مَشُـورَةَ الجَاهِـلِ وَإِنْ كَـانَ نَاصِحًا؛ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُوَرِّطَك بِمَشُورَتِهِ)، كَمَا أَنّهُ يَنبَغِي فِي المسْتَشَارِ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ هَمٍّ شَاغِلٍ، فَإِنَّ المهمُومَ لا يَسْلَمُ لَهُ رَأْيٌ وَلا مَشوُرَةٌ. وَقَد كَانَ كِسْرَـى إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعثَ إِلَى مَرَازِبَتِهِ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَإِنْ قَصَّرُوا فِي الـرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتِـهِ

وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ بِأَرْزَاقِهِمْ فَأَخْطَأوا فِي آرَائِهِمْ.

الأَدَبُ الثَّانِي: الأَمْرُ المسْتَشَارُ فِيهِ: وَهُوَ مَا لا نَصَّ فِيهِ مما يَتفِّقُ مَعَ مَقَاصِدِ الشّريعَةِ، فَلا اسْتشَارَةَ فِي الحَرَامِ وَلا فِي الأَمْرِ المقطُوعِ فِيهِ، كَالتَّشَاوُرِ عَلَى الظُّلم أَوْ السّرِقةِ أَوِ التَّشَاوُرِ عَلَى فَرْضيَّةِ صَلاةِ الظُّهْرِ. يَقُولُ ابنُ عَابدِينَ: (الأُمُورُ المقطُوعِ بِهَا لَيسَتْ مجَالاً لِلشُّورَى وَلا هِيَ دَاخِلَةٌ فِي نِطَاقِهَا، فَالحَقَائِقُ الثَّابِتَةُ وَالوَاضحَةُ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنيَا لَيْسَتْ مَجَالَ نِقَاشٍ؛ لأَنّهُ مُجمَعٌ عَلَى أَنّهَا حَقٌّ وَلا مجَالَ للاختِلافِ فِيهِ).

الأَدبُ الثَّالِثُ: قَبُولُ المشُورَةِ: فَإذَا صَدَرَتْ المشوُرَةُ مِن أَهْلِها فَمِنَ الأَدَبِ قَبُولُهَا، وَلا يَعنِي القَبُولُ العَمَلَ بِهَا وَتَقليدَهَا الأَعمَى، لَكنْ إعمالُهَا بِاسْتِعْرَاضِهَا وَتَصَفُّح آرائِهَا، ثُمَّ التّفَاضُلُ بَينَهَا، ثُمَّ الأَخْذُ بِأَحْكَمِ الأُمُورِ وِفْقَ تِلْكَ المشورةِ، فَقَد قَلَّبَ النّبيُّ ﷺ مَشورَةَ أَصحَابِهِ يَومَ أُحدٍ فِي مَكَانِ مُلاقَاةِ العَدُوِّ، أَفِي المدِينةِ أَم يَخرُجُونَ خَارجَها لِقتَالِهِ، وَقَد رَأتِ الأَغلَبيةُ الخُروجَ؛ حَتّى لا يُقَالَ عَنهُم إِنّهُم جَبُنُوا عَن لِقَاءِ العَدُو، وَقَد أَخذَ بهَا ﷺ.

آداب المستشار:

وَإِذَا اسْتَشَارَنَا أَحَد فَلا نَتسَرعُ بِإِبدَاءِ الرّأيِ؛ لأَنّهَا أَمَانَةٌ وَالمستشَارُ مُؤتَمَنٌ كَمَا فِي الصَّحِيحِ، وَفِي الحديثِ «**مَن اسْتشَارَه أَخُوهُ المسلمُ، فَأَشَارَ عَليهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ فَقَد خَانَهُ**»[(١)]، فَيَجِبُ التَّحرِّي وِالدِّقةُ فِيمَا نُشِيرُ بِهِ عَلَى الآخَرِينَ بمَا نَرَاهُ صَوَاباً بَعدَ النَّظَرِ وَالتَّقلِيبِ وَالتَّفْكِيرِ بِما هُوَ أَصْلَحُ، وَقَدْ كَانَ أَحمدُ بنُ حَنبلٍ - رَحمَهُ اللهُ تَعالَى - إِذَا شَاورَهُ الرّجلُ اجْتهدَ لَهُ رَأيَهُ وَأَشارَ عَليهِ بمَا يَرى مِن صَلاحٍ.

وَلا يَنْبَغِي عَلى المرء أَنْ يبذُلَ مَشورَتَه دُونَ أَنْ تُطلَبَ مِنه؛ فَإِنّهَا عُرضَةٌ لِلتُّهْمَةِ مَا لَم تَظهَرْ حاجَةٌ مُلِحَّةٌ، وَقَد تَقَدَّمَ بِبَذْلِهَا الحُبَابُ بنُ المنْذرِ يومَ بَدرٍ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢١)، وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد.

عِندَمَا نَزلَ الجَيشُ فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنْ بئرِ بَـدْرٍ، فَقَـالَ: إنّ هَـذَا لَـيْسَ بِمَنْـزِلٍ، وَأَشارَ أَنْ يُعَسْكِرَ الجَيشُ عِندَ بئرِ بَدْرٍ، فَيَشْرَـبُ مِنـهُ المسـلمُونَ وَيَمْنَعُـوا مِنْـهُ الكُفَّارَ، فَرَضِيَ النَّبيُّ ﷺ بِرَأيِهِ وَعَمِلَ بِهِ.

وَأمّا عِندَ الطَّلَبِ فَلا بُدَّ مِنَ المبَادَرةِ إِلَيْهَا عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ، قَالَ سُـلَيمَانُ بْـنُ دُرَيْدٍ:

وَأَجِبْ أَخَاكَ إِذَا اسْتَشَارَكَ نَاصِحًا   وَعَلَى أَخِيكَ نَصِيحَةً لا تَرْدُدِ

وقَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إذَا اسْتُشْهِدْتَ فَاشْهَدْ، وَإِذَا اسْتُشِرْتَ فَلا تَعْجَـلْ حَتَّى تَنْظُرَ.

اللهُمَّ اجْعلنَا مِمنْ يَسْتَمِعُونَ القولَ فَيتبعُونَ أَحْسَنَهُ.

المحاضرة (١٣)

المؤمن القِيَاديُّ

رِحْلَتُنَا الأَثَرِيةِ المِحْرَابِيَّةِ تُلْقِي بِأَحْمَالِـهَا فِي مُحَافَظَـةِ الجَهْـرَاءِ لِنَتَعَـرَّفَ عَـلَى مَسَاجِدِهَا الأَثَرِيَّةِ، وَمِنْ أَهَمِّهَا مَا يَلِي:

١ـ تَقَعُ (قَرْيَةُ الجَهْرَاءِ) غَرْبَ مَدِينَةِ الكُوَيْتِ فِي سَهْلٍ رَمْلِيٍّ مُنْبَسِطٍ بِالقُرْبِ مِنْ خَلِيجِ الكُوَيْتِ، وَكَانَتْ قَـدِيماً تُسَـمَّى كَاظمَـةَ القَدِيمـةَ، وَأَقْـرَبُ تَـارِيخ وَصَلَنَا لِلسَّكَنِ فِيهَا عَامُ (١٨٥٥م)، وَمَعَ تَارِيخِ السَّكَنِ فِيهـا تَأَسَّـسَ مَسْـجِدُ (**الجَهْرَاءِ القَدِيم**)، وَكَانَ- أَوَّلَ ذِي بِدْء- مُصَلًّى صَغِيرًا، ثُمَّ ضَـاقَ فَبَنَـاهُ عَـلَى نَفَقَتِهِ التَّاجِرُ (الحَاجُّ يُوسُـفُ البَـدْر) فِي مَكَانِـهِ بَعْـدَ عِـدَّةِ سَـنَواتٍ، وَفِي عَـام (١٨٩٦م) تَمَّ تَجْدِيدُهُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَكَانَتْ نِصْفُ النَّفَقَةِ مِنَ السَّيِّد (خَلَف بَاشَـا النَّقِيب وَمَرْزُوقٍ دَاود البدر)، وَالبَاقِي جُمِعَ مِنَ الأَهَالِي، ثُـمَّ رُمِّـمَ وَأُصْـلِحَ فِي زَمَنِ السَّيِّد (فَهَـدْ بْـن عَبْـدِ اللَّطِيـف السَّـعِيد)، وَفِي عَـامِ (١٩٥٥م) هَـدَمَتْ الأَوْقَافُ المَسْجِدَ وَقَامَتْ بِبِنَائِهِ مِنْ جَدِيدٍ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الملا عَبْـدُ الـرَّحْمَن ابْنُ أَحْمَد الكَمَالِي.

٢ـ مَسْجِدُ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ أَوْ (الـجَهْرَاءِ الجديدُ): أَسَّسَتهُ دَائِرَةُ الأَوْقَـافِ العَامَّةِ عَامَ (١٩٥٥م).

٣ـ مَسْجِد (جِيوَان): أَسَّسَتهُ دَائِرَةُ الأَوْقَافِ العَامَّة عَامَ (١٩٥٦م).

٤ـ مَسْجِد (عَشيرج): يُعْتَبَرُ (عشيرج) لِسَاناً يَمْتَـدُّ فِي جَـوْفِ الكُوَيْـتِ فِي الجِهَةِ الغَرْبِيَّةِ مِنَ الكُوَيْتِ، وَتَأَسَّسَ مَسْجِدُ العَشِيرج مَعَ تَأْسِيسِ القَرْيَـةِ عَـام (١٨٦٠م)، أَسَّسَهُ السَّيِّدُ (مبارك بْن حبيـبٍ العـازميُّ) عـام (١٨٦٠م)، وَفِي عَامِ (١٩٣١م) جُدِّدَ مِنْ بَعْضِ عَوائلِ العَوَازِمِ، وَمِنْ أَشْهَرِ مَـنْ قَـامَ بِالإِمَامَـةِ

فِيهِ الملا رَاشِدُ بْنُ فَهَدِ بْنِ صَقْرِ الغُرْبَةِ.

وَبَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجَزِ عَلَى الآثَارِ وَأَخْبَارِ الأَئِمَّةِ الْكِبَارِ سَنَسْتَمِعُ لِلْمَوَاعِظِ الأَخْلاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ، وَمَوْعِظَتُنَا الْيَوْمَ بِعُنْوَانِ: (المؤْمِنُ القِيادِيُّ).

إِنَّ القِيَادَةَ صِفَةُ العُظَمَاءِ، وَإِنَّ التَّبَعِيَّةَ صِفَةُ الضُّعفَاءِ، وَالمؤمنُ القَوي: هُوَ الَّذِي يُنَمِّي مَوَاهِبَهُ وقُدراتِه وَصِفَاتِهِ حَتَّى يَكُونَ قَائِداً وَإِمَاماً لِلآخَرِينَ، وَأَمَّا ضَعِيفُ النَّفْسِ وَالشَّخْصِيَّةِ فَهُوَ الَّذِي يَذُوبُ فِي الآخَرِينَ، وَيَكُونُ ذَنَباً وَتَابِعاً، وَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَتْبَعُهُ النَّاسُ وَبَيْنَ مَنْ يَكُونُ ذَنَباً وَتَابِعاً لَهُمْ.

قَالَ الله- تَعَالَى - فِي آلِ إِبْرَاهِيمَ- عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[1]، وَذَكَرَ رَبُّنَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنَّ مِنْ دُعَاءِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً لِلْمُتَّقِينَ، قَالَ- تَعَالَى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[2]. وَمَا ذَلِكَ إلا لأَنَّ القَائِدَ إِذَا أَرْشَدَ النَّاسَ إِلى الحَقِّ وَالصَّوابِ كَانَ لَهُ مِنَ الخَيْرِ وَالأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِهِمْ، مِصْدَاقاً لِقَوْلِهِ ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً**»[3].

والقِيَادَةُ فَنٌّ وَرِيَادَةٌ، ومَهَارَةٌ مُكْتَسَبَةٌ، وَلِكَيْ تَكُونَ قَائِداً عَلَيْكَ أَنْ تَتَدَرَّبَ عَلَى مَهَارَاتِ تَقْوِيَةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَفَنِّ القِيَادَةِ، بِبِنَاءِ ذَاتِكَ وَتَقْوِيَةِ شَخْصِيَّتِكَ، وَالتَّعَلُّمِ، وَمُصَاحَبَةِ القِيادِيِّينَ، وَقِرَاءَةِ قِصَصِهِمْ.

ولِكَيْ تَكُونَ قِيَادِياً لا بُدَّ لَكَ مِنَ التَّخَلُّصِ مِنَ التبَعِيَّةِ وَالذَّوَبَانِ فِي الآخَرِينَ وَالتَّقْلِيدِ الأَعْمَى.

إِنَّ اللهَ- عَزَّ وجَلَّ- خَلَقَنَا مُخْتَلِفِينَ بالصِّفَاتِ وَالمواهِبِ وَالأَلْسُنِ

---

(١) الأنبياء : ٧٣.

(٢) الفرقان : ٧٤.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) عن أبي هريرة ﷺ.

والألْوَانِ، فأنَا مُـخْتَلِفٌ عَنْكَ، وَأَنْتَ تَـخْتَلِفُ عَـنِ الآخَـرِينَ، وأبـو بكـرٍ ﷺ بِرَحْمَتِهِ وَرِفْقِهِ يَـخْتَلِفُ عَنْ عُمرَ ﷺ بِشِـدَّتِهِ ونَصْرِ الإِسْـلامِ، ولِكُـلٍّ مَوَاهبُـهُ وَوِجْهَتُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾(١).

وَأَنْتَ عَزِيزِي القـارئ، لَـكَ مَوَاهِبُـكُ وَشَخْصِـيَّتُكُ، فَإِيَّـاكَ أَنْ تَـتَقَمَّصَ شَخْصِيَّةَ غَيْرِكَ، وَأَنْ تَحْشُرَ نَفْسَـكَ فِي سِرْدَابِ التَّقْلِيـدِ وَالمحَاكَـاةِ وَالـذَّوَبَانِ، فأنتَ بِذَلكَ تُعْدِمُ كَيَانَكَ وذَاتَكَ، إِنَّمَا انْطَلِقْ على هَيْئَتِكَ وَسَجِيَّتِكَ، وَعِشْ كَمَا خُلِقْتَ، لا تُغَيِّرْ صَوْتَكَ، ولا تُبدِّلْ نَبْرَتَـكَ، ولا تُــخَالِفْ مِشْـيَتَكَ، وَهَـذِّبْ نَفْسَكَ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ، وَلَكِنْ دُونَ أَنْ تُلْغِيَ وُجُودَكَ وَتَقْتُلَ اسْتِقْلالَكَ، فَإِنْ كُنْتَ كَالموزِ فلا تَتحَوَّلْ إِلى سَفَرْجَلٍ.

قَالَ ﷺ نَاهِياً لَنَا عَنِ التَّبَعِيَّةِ العَمْيَـاءِ وَالـذَّوَبَانِ فِي الآخَـرِينَ: «**لا تَكُونُـوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّـاسُ أَحْسَـنَّا، وَإِنْ ظَلَمُـوا ظَلَمْنَـا، وَلَكِـنْ وَطِّنُـوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلا تَظْلِمُوا**»(٢)، وَقَـالَ الله- تَعَالَى - فِي وَصْفِ أَهْلِ سَقَر: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾(٣).

فَالتقليدُ الأَعْمَى والانْصِهَارُ المسْرِفُ في شَخْصِـيَّاتِ الآخَـرِينَ، سَـواءٌ في الملْبَسِ أَو المشْرَبِ أَو المطْعَمِ أَو التَّفْكِيرِ، هو وَأْدٌ لِلْمَوْهِبَةِ وقَتْلٌ للإرادةِ.

وَالمؤمنُ عَليهِ أَنْ يجتهدَ لِيكُونَ مُسْتَقلاً وَقَائِداً لِلآخَرينَ وَإِماماً لِلمتَّقِينَ، لا تابِعاً وَذَنباً وَذَائِباً فِي الآخرينَ.

ولَئِنْ كَانَ لِلقائِدِ بِالـحَقِّ ثَوَابُ المتْبُوعِينَ وَأَجْرُهُمْ، فَلا بُدَّ مِنْ أَنْ نَعْلَـمَ أَنَّ لِلْقَائِدِ بِالبَاطِلِ إِثْمَ المتْبُـوعِينَ وَوِزْرَهُـمْ، قَـالَ- تَعَـالَى- فِي ذَمِّ فِرْعَـوْنَ القَائِـدِ

(١) البقرة: ١٤٨.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٧) عن حذيفة ﷺ، وضعفه الألباني.
(٣) المدثر: ٤٥.

لِقَوْمِهِ بِالبَاطِلِ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾[1].

فَاعْمَلْ أَخِي عَلَى أَنْ تَكُونَ قَائِداً لِلْحَقِّ أَوْ تَابِعاً لَهُ، وَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ رَأْساً فِي البَاطِلِ أَوْ تَابِعاً لَهُ، فَإِنَّكَ تَحْمِلُ إِثْمَكَ وإِثْمَ مَنِ اتَّبَعَكَ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَلأَنْ تكونَ ذَنَباً في الحقِّ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أنْ تَكُونَ رَأْسًا في الباطلِ.

قَالَ عَبْدُ الرَحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ: سُئِلَ عُبَيْدُ اللهِ بنُ الحسَنِ، وَهُوَ عَلَى القَضَاءِ، عَنْ مَسْأَلَةٍ فَغَلِطَ فِيهَا، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللهُ، القَوْلُ فِي هَذِهِ المسْألةِ كَذَا وَكَذَا، فَأَطْرَقَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: إِذاً أَرْجِعُ وَأَنَا صَاغِرٌ، لأَنْ أَكُونَ ذَنَباً فِي الحقِّ أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ أنْ أَكُونَ رَأْسَاً فِي البَاطِلِ.

وقالَ ابنُ عباد يومَ جاءَ ابنُ تَاشْفِينَ في أواخرِ عَهْدِ الأندلسِ لِينصرَ أهلَ الإسلامِ، فقيلَ لهُ: يا ابنَ عَبَّادٍ! إِنِ انْتَصَرَ ابنُ تَاشْفِينَ أَخَذَ مُلْكَكَ، فَقَالَ: لأَنْ أكونَ ذَنَباً فِي الْـحَقِّ أَحَب إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ رَأْساً في الْبَاطلِ!

وَهَذا عَبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابن سَلُولٍ الَّذِي كَانَ زَعِيماً فِي يَثْرِبَ قَبْلَ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَما جاءَ المصْطَفَى ﷺ وَأَضَاءَتْ بِنُورِهِ يثربُ مَنَعَ هَذَا المنَافِقَ تَكَبُّرُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ تَابِعاً لِلْحَقِّ وَأَصَرَّ عَلَى أَنْ يَبْقَى زَعِيماً حَتَّى لَوْ كَانَ بِالبَاطِلِ، وَأَصْبَحَ زَعِيماً لِلْمُنَافِقِينَ!!

الإِسْلامُ يُعَلِّمُنَا القِيَادَةَ بِالحَقِّ وينَهانا عَنِ التبعيةِ والذَّوَبانِ الأَعْمَى، ويُحَذِّرُنا كُلَّ الْـحَذَرِ مِنْ أَنْ نَكُونَ قَادَةً فِي الضَّلالِ، وَإِنْ كَانَ لا بُدَّ فَلنكُنْ تَبَعاً لأَشْرَفِ المخْلُوقَاتِ ﷺ ولأَصْحَابِهِ.

اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً.

---

(١) هود: ٩٨.

المحاضرة (١٤)

مَدْرَسَةٌ لَيْلِيَّةٌ

نعودُ إِلَى حَيِّ الْقِبْلَةِ، لنَتَعرَّفَ مَا فِيهِ مِنَ المسَاجِدِ الأَثرِيَّةِ، وَمِنْ مَسَاجِدِ الْقِبْلَةِ الأَثَرِيَّةِ زِيَادَةً عَلَى مَا ذَكَرْنَا سَابِقاً مَا يَلِي:

١ـ فِي أَقْدَمِ الأَحيَاءِ الْكُويتِيَّةِ فِي حَيِّ سُعُودٍ أَسَّسَ السَّيدُ (عَبدُ اللهِ بنُ عُلْوَان) مَسجِداً سُمِّيَ بِاسْمِهِ عَامَ (١٧٨٨م)، وَهُوَ مِنْ أَوائِلِ المسَاجِدِ الَّتِي هُدِمَتْ فِي الخَمسِينيَّاتِ وَانْتَقلَ إِلَى (الْخَالِدِيةِ) قِطْعَةِ (٣) عَامَ (١٩٦٧م)، وَأَمَّ فِيهِ الملا (جَاسِمُ بنُ جُمعَةَ الْكَفِيفُ) الَّذِي كَانَ يَقرَأُ المَوَالِدَ لِلنَّاسِ.

٢ـ وَفِي فَرِيجِ الْبَدْرِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ قُرْبَ المتحَفِ مَا زَالَ مَسجِدُ (يَعْقُوب الْخَالِد) وَيَعقُوبُ نِسبَةً إِلَى مُؤَسِّسِهِ (يَعقُوب الْغَانِم) وَالْخَالِدُ نِسْبَةً إِلَى مُجَدِّدِهِ (حَمدِ الخَالِدِ)، أُسّسِ المسْجِدُ عَامَ (١٨١٨م)، وَمَرَّ بِعِدَّةِ تَجْدِيدَاتٍ آخِرُهَا قَامَتْ بِهِ وَزَارَةُ الأَوقَافِ عَامَ (١٩٥٢م)، وَمِمَّنْ أَمَّ فِيهِ الشيخُ مُحَمَّدُ النُّورِي وَابنُهُ عَبدُ الله.

٣ـ وَمَنْ يَزُر غُرْفَةَ التِّجَارَةِ وَالصِّنَاعَةِ يَجِد مُقَابِلَهَا عَلَى شَارِعِ السَّالم إِلَى اليومَ مَسجِدَ (السَّعِيدِ) نِسبَةً لإِمَامِهِ، وَالَّذِي أَسَّسَهُ عَبَّاسُ الهَارُونُ عَامَ (١٨٧٨م)، جَدَّدتْهُ وَزَارَةُ الأَوقَافِ بِالتَّعاونِ مَعَ السيدِ عَبدِ الْعَزيزِ النّفْسِيِّ، وَفِي عَامِ (٢٠٠١م) أُعِيدَ صِيَانَتُه وَترمِيمُهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَكَانَ مِنْ أَئِمتِهِ الشَّيخُ (مُحمدُ بنُ سليمان الجَرَّاحِ).

إنها مساجدنا كَتبتْ آثارَنا وصلَّى بها أعلامُنا وأئمتُنا، وبعدَ هَذَا الموجزِ عَنْ تاريخِها تَعَالَوا لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بِعنوانِ: (مَدْرَسَةٌ لَيْلِيَّةٌ).

إِذَا مَا الليلُ أَرْخى سِتْرَهُ صَفَّ الصَّالِحُونَ أَقْدَامَهُمْ، فَسَاجِدٌ يَحْذَرُ الآخِرَةَ، أَو قَائِمٌ يَرْجُو الرَّحمةَ، قَد خَلَوْا بِرَبِّهِم وَتوجَّهُوا إِلى بَارِئِهم، قَالَ تَعالَى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[(١)]، قَالَ مُجَاهِد: يَعنِي قِيامَ اللَّيْلِ، وَقَد أَثنَى رَبُّنَا عَلَى المتَّقِينَ بِقولِهِ: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[(٢)] قَالَ الْحَسنُ: (كَابَدُوا اللَّيْلَ، وَمَدُّوا الصّلاةَ إِلى السَّحَرِ، ثُمَّ جَلسُوا فِي الدُّعاءِ وَالاسْتكَانةِ وَالاسْتِغْفَارِ)، يَلتَمِسُونَ سَاعَةَ الإِجَابَةِ، فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ: «**إِنَّ مِن اللَّيلِ سَاعَةً لا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ الله خَيْرًا إِلا آتَاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ**»[(٣)]، قَد آنسَهُم قَولُ الْحَادِي:

يَا رِجالَ اللّيلِ جِدُّوا   رُبَّ دَاعٍ لا يُـــردُّ

حكم قيام الليل:

قِيامُ اللَّيلِ سُنَّةٌ مُؤَكَّدةٌ، وَقَد تَواتَرتْ نُصوصُ الْحَثِّ عَليهِ وَالتَّرغِيبِ بِهِ، فَفِي الْحَديثِ: «**أَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ المكْتُوبَةِ الصَّلاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ**»[(٤)]، وَمَدَحَ المصطَفَى ﷺ ابنَ عُمَر فَقَالَ: «**نِعْمَ الرَّجُلُ هُو، لَو كَانَ يُصلِّي مِنَ اللّيل**»[(٥)]. قَالَ ابنُهُ سَالم: فَكَانَ أَبِي بَعدَ ذَلكَ لا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلا قَلِيلاً، وَبَشَّرَ النّبيُّ ﷺ «**مَنْ بَاتَ قَائِماً وَالنّاسُ نِيامٌ بِغُرَفٍ فِي الجنةِ يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِن ظَاهِرِها**»[(٦)]، وَجَاءَ جِبريلُ - عَليهِ السَّلامُ - إِلَى نَبينَا ﷺ فَقالَ لَهُ: «**اعْلَمْ أَنَّ شَرفَ المؤمنِ قِيَامُهُ بِاللّيلِ**»[(٧)]، وَخَاطبَ اللهُ نَبيَّهُ

(١) السجدة: ١٦.
(٢) الذاريات: ١٧، ١٨.
(٣) أخرجه مسلم (٧٥٧) عن جابر رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم (١١٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) أخرجه البخاري (١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩) عن ابن عمر - رضي الله عنهما.
(٦) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١٢٣).
(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٩٢١) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣).

وَحبيبَهُ بِقَولِـهِ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾[1]، فكَانَ ﷺ يقُومُ مِنَ اللّيلِ حَتّى تَتفَطَّرَ قدماهُ، يَقُولُ حُذَيفَةُ: (صَلَّيْتُ مَـعَ النّبـيِّ ﷺ ذَاتَ لَيلَةٍ، فَافْتَتحَ البَقَرةَ، فقلْتُ: يَركَعُ بَهَا، ثُمَّ افْتَتحَ النِّسَاءَ فَقرأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمرَانَ فَقَرأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسبيحٌ سَـبّحَ، وَإِذا مَـرَّ بِسـؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعوّذٍ تَعَوَّذَ)[2]، قَالَ ابنُ رَواحَةَ مَادحاً لَهُ ﷺ:

يَبيتُ يـُجافِي جَنبَهُ عَن فِرَاشِهِ   إِذَا اسْتَثقَلَتْ بِالمشرِكينَ الـمضاجِعُ

فوائد قيام الليل:

والليلُ مَدْرَسَةُ الصَّالحِينَ، بِهِ يَحيَا مَيِّتُ القلُـوبُ، وَفِي الحَـديثِ: «**عَلَـيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّـهُ دَأَبُ الصَّـالحِينَ قَـبْلَكُمْ، ومَقْرُبَـةٌ لَكُـمْ إِلَى اللهِ- عَـزَّ وَجَـلَّ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ، وَمَطْرَدَةُ الدَّاءِ عَنِ الجسَدِ**»[3].

يَقُولُ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ- رَحِمَه اللهُ: (قِيامُ اللّيلِ يَشْرُفُ بِهِ الوَضِـيعُ، وَيُعَـزُّ بِـهِ الذَّلِيلُ).

وَيَقولُ ابنُ عَباسٍ- رَضِي اللهُ عَنهُمَا: (مَنْ أَحـبَّ أَن يُهَـوِّنَ اللهُ عَليـهِ طُـولَ الوُقُوفِ يَومَ القِيامَة فَلْيَرَهُ اللهُ فِي ظُلمَـةِ الليـل سَـاجِداً وَقَـائِماً، يَحـذَرُ الآخِـرةَ وَيَرجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ).

وَكَانَ ابنُ أَبِي رَوَّاد إِذَا فُرِشَ لَه فِرَاشُهُ لِينَامَ عَليـهِ بِاللَّيْـلِ، يَضَـعُ يَـدَهُ عَـلَى الفِرَاشِ فَيتَحَسَّسُهُ ثُمَّ يَقولُ: مَا أَلينَكَ!! وَلَكنَّ فِراشَ الجنـةِ أَلـينُ مِنْـكَ!! ثُـمَّ يَقُومُ إِلَى صَلاتِهِ.

يَقُولُ الدَّارَانيُّ: (أَهلُ اللَّيْلِ فِي لَيلِهِم أَلَذُّ مِنَ أَهلِ اللَّهْوِ فِي لَـهْوِهِمْ، وَلَـولا

(١) المزمل: ٢- ٤.

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٢) عن حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩) عن بلال رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٧٩) إلا قولـه: «**ومطردة للداء عن الجسد**».

اللَّيْلُ لَـمَا أَحبَبْتُ البَقاءَ فِي الدّنيَا)، وَلْيَسمَعِ الْيَومَ أَهلُ الـدّنيَا مِـمّنْ يَقطَعُـونَ لَيلَهُم بِالسَّهَرِ عَلَى العَبَثَ وَاللّهْوِ وَالأَفلامِ كَمْ فَاتَه مِنَ الفَضْلِ، قال ﷺ: «**مَـنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الـمُقَنْطِرِينَ**»(١).

وَعَن عُثْمَانَ بنِ أَبِي العَاصِ رضي الله عنه عَنِ النّبـيِّ ﷺ قَـالَ: «**تُفـتحُ أَبـوَابُ السَّـمَاءِ نِصْفَ اللَّيْلِ فَيُنَادِي مُنَادٍ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ، هَلْ مِـنْ دَاعٍ فَأَسْـتَجِيبَ لَـهُ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ، هَلْ مِن دَاعٍ فَيُستَجابُ لَهُ، هَل مِـن سَـائِلٍ فَيُعْطَـى، هَل مِن مَكرُوبٍ فَيُفَرَّجُ عَنهُ، فَلا يَبقَى مُسْلمٌ يَدعُو بِـدعْوَةٍ إِلا اسْـتَجابَ اللهُ - تَعالَى - لَهُ، إِلا زَانِيةٌ تَسعَى بِفَرجِهَا، أَوْ عَشَّاراً**» (٢).

وَقِيلَ لِلحَسنِ: مَا بَالُ المتَهَجِّدِينَ مِن أَحسنِ النَّاسِ وُجُوهاً؟ قَالَ: (لأَنّهُـم خَلَوا بِالرَّحْمَنِ فَأَلبَسَهُم مِن نُورِهِ نُوراً).

أسباب مساعدة على قيام الليل:

إِذَا تَثاقَلَتْ قَدمَاكَ عِـنِ القِيـامِ، وَتَناوَمَـتْ عَينَـاكَ عَـنِ المنَاجَـاةِ، فَعَليـكَ بِالأَسبَابِ الميسِّرةِ لِقِيامِ الليلِ، وَهِيَ:

أَولاً: إِيَّاكَ وَكَثرةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ: فَقَد قِيلَ فِي الْـحِكَمِ: (مَن أَكَـلَ كَثـيراً شَرِبَ كَثِيراً، وَمَن شَرِبَ كَثيراً نَامَ كَثِيراً، وَمَنْ نَامَ كَثِـيراً خَسِرَ كَثِـيراً)، وَقَـالَ سُفيانُ الثّوريُّ: (عَليكُم بِقِلَّةِ الأَكْلِ تَملِكُوا قِيامَ اللَّيْلِ).

ثَانياً: اسْتَعِنْ عَلَى القِيامِ بِقَيْلُولَةِ النَّهَارِ، وَخَالِفِ الشّياطِينَ، فَإِنّهَا لا تَقِيلُ كَما وَردَ فِي الصّحِيحِ، مَرَّ الْـحَسنُ بِقَومٍ فِي السّوقِ فَرَأَى صَخَبَهَمُ وَلَغَطَهُم، فَقَالَ: أَمَا يَقِيلُ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: لا، قَالَ: (إِنِّي لأَرَى لَيْلَهُم لَيْلَ سُوءٍ)، وَقَالَ أَبُو فَـروَةَ:

(١) أخرجه أبو داود (١٣٩٨)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٥٩) (٨٤٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٧١).

(القَائِلةُ مِنْ عَمَلِ أَهلِ الْـخَيرِ، وَهِيَ مَـجَمَّةٌ لِلفُؤادِ، مَقْوَاةٌ عَلَى قِيامِ اللَّيْلِ).

ثَالثًا: اجْتِنَابُ المعاصِي وَتَرْكُها: وَقَد تَـواتَر عَـنِ السَّـلَفِ أَنَّ المعـاصِي تَحْـرِمُ الْعَبْدَ مِنَ القِيامِ، قِيلَ لابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: مَا نَستَطِيعُ قِيامَ اللَّيْلِ!! قَالَ: (أَقْعَـدَتْكُم ذُنُوبُكُم)، وَقَالَ رَجلٌ لإِبرَاهِيمَ بنِ أَدْهَمَ: إِنِّي لا أَقْدِرُ عَلَى قِيامِ اللّيْـلِ فَصِـفْ لِي دَوَاءً؟ قَالَ: (لا تَعْصِهِ بِالنَّهارِ، وَهُو يُقِيمُكَ بَينَ يَديهِ بِاللَّيْلِ، فَـإِنَّ وُقُوفَـكَ بَـينَ يَديهِ فِي اللَّيْلِ مِنْ أَعْظمِ الشَّـرَفِ، وَالعَـاصِي لا يَسْـتَحقُّ ذَلـكَ الشَّـرَفَ)، قَـالَ أَبُو جَعفَرٍ البقَّالُ: دَخَلْتُ عَلَى أَحْمَدَ بنِ يَحيَى، فَرَأَيْتُهُ يَبكِـي بُكَـاءً كَثِـيراً مَـا يَكَـادُ يَتمالَكُ نَفسَهُ! فَقلْتُ لَهُ: أَخْبِرنِي مَا حَالُكَ؟ فَقَالَ: فَاتَنِي حِزْبِي وَوِردِي البَارحَة! وَلا أَحْسَبُ ذَلكَ إِلا لأمرٍ أَحْدَثْتُهُ، فَعُوقِبْتُ بِمَنْعِ حِزبِي! ثُمَّ أَخَذ يَبْكِي.

رَابعاً: أَسْكِنِ الْـخَوْفَ قَلبَكَ: فَما سَكَنَ قَلبَ امْرِئٍ إِلا وَنَشِطَتْ أَعْضَـاؤُهُ لِلعبَادَةِ، وَقَد كَانَ شَدَّادُ بنُ أَوسٍ ﷺ إِذَا دَخَلَ فِرَاشَهُ يَتقَلَّبُ عَليهِ بِمنزِلَةِ القَمْحِ فِي المقلاةِ عَلَى النَّارِ!! وَيَقُولُ: اللّهُم إِنَّ النَّارَ قَد أَذْهَبَتْ عَنِّي النَّومَ!! ثُـمَّ يَقُـومُ يُصَلِّي إِلَى الفَجْرِ.

خامِساً: وَهُو أَشْرفُ البَوَاعِثِ: حُبُّ الله؛ فَمَن أَحَـبَّ اللهَ- تَعـالَى- أَحَـبَّ مُنَاجَاتَهُ؛ فَتَحمِلُهُ لَذَّةُ المنَاجَاةِ لِلحَبِيبِ عَـلَى طُـولِ القِيـامِ. أَخَـذَ الفُضَـيلُ بـنُ عِياضٍ بِيدِ الْـحُسَينِ بنِ زِيَادٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا حُسَينُ يَنْزِلُ اللهُ- تَعالَى- كُلَّ لَيلَةٍ إِلَى السّماءِ الدّنيَا، فَيقُولُ الرَّبُّ: «**كَذَبَ مَن ادَّعَى مَـحَبَّتِي فَإِذَا جَنَّهُ الليلُ نَامَ عَنِّي؟ أَليسَ كُلُّ حَبِيبٍ يَخْلُو بِحَبِيبِهِ؟ هَا أَنَا ذَا مُطَّلِعٌ عَلَى أَحبَّائِي إِذَا جَنَّهُم الليلُ، غَداً أُقِرُّ عُيونَ أَحبَّائِي فِي جَنَّاتِي**».

ترك قيام الليل:

إِنَّ ضَعفَ النُّفُوسِ عَن قِيامِ اللّيلِ يُقَسِّي القُلُوبَ، وَيُجِفُّ الدُّمُوعَ، وَيُحكِـمُ

الغَفلَةَ، فَقَد ذُكِرَ رَجلٌ عِندَ رَسُولِ الله ﷺ فَقِيلَ: مَا زَالَ نَائِماً حَتّى أَصْبَحَ، فَقَالَ: «**ذَاكَ رَجلٌ بَالَ الشَّيطَانُ فِي أُذُنِهِ**»[١]، وَرَوَى البَيهَقيُّ بِسَندٍ صَحِيحٍ: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ، سَخَّابٍ فِي الأَسوَاقِ، جِيفَةٍ بِاللّيلِ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، عَالِم بِأَمْرِ الدّنيَا، جَاهِلٍ بِأَمرِ الآخِرَةِ**»[٢].

وَلا نَنسَى أَنْ نَدُلَّ عَلَى هَذَا الْخَيرِ أَهلَنَا وَأَولادَنَا، وَأَنْ نَدْعوَهُم لِهذِهِ المَائِدَةِ الإِلَهِيَّةِ، فَفِي الْحَدِيثِ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا المَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ المَاءَ**»[٣].

اللَّهُمَ اجْعَلنَا مِمَّنْ يَستَمعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسنَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٠)، ومسلم (٧٧٤)، عن عبد الله ﷺ.

(٢) أخرجه ابن حبان (٧٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٧٨).

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٠٨) عن أبي هريرة ﷺ وصححه الألباني.

المحاضرة (١٥)

الْكَنْزُ الَّذِي لا يَفْنَى

رِحْلَتنا الْأَثَرِيَّةُ المحْرَابِيَّةُ فِي (**حَيِّ الْوَسَطِ**) حَيْثُ ذَكَرْنَا سَابِقًا بَعْضًا مِنْ مَسَاجِدِهِ الْأَثَرِيَّةِ، وَالْيَوْمَ نُكْمِلُ بَقِيَّةَ المسَاجِدِ الْقَدِيمَةِ فِيهِ، وَهِيَ:

١ـ مَسْجِدُ (حَنِيف النومَان) وَكَانَ يَقَعُ فِي حَيِّ الدَّبُّوسِ مَا بَيْنَ مَسْجِدِ الْحَمْدَانِ وَعَبْدِ الإِلَـهِ، وَالْأَغْلَبُ أَنَّ المؤَسِّسَ لَيْسَ وَاحِداً، بَلْ مَجْمُوعَةٌ اشْتَرَكَتْ فِيْ تَأْسِيسِهِ عَامَ (١٨٠٧م)، وَقِيلَ: إنَّ المطَرَ أَسْقَطَهُ فَقَامَتِ الْأَوْقَافُ بِبِنَائِهِ مِنْ جَدِيدٍ عَامَ (١٩٥٥م)، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْفَارِسِيُّ وَالِدُ الشَّيْخِ أَحْمَدَ الْفَارِسِيِّ.

٢ـ مَسْجِدُ (الْحَمْدَان) وَكَانَ يَقَعُ فِي بَرَاحَةِ الْحَمْدَانِ وَبِقُرْبِهِ مُسْتَشْفَى الميْدَانِ، أَمَّا الْيَوْمَ فَيَقَعُ عَلَى شَارِعِ عَلَيِّ السَّالِم خَلْفَ مَبْنَى بُورْصَةِ الْكُوَيْتِ وَسَطَ الْعِمَارَاتِ الْكَثِيرَةِ، أَسَّسَهُ السَّيِّدُ مُحَمَدُ بْنُ بَاشِقٍ الْحَمْدَانُ القِنَاعِيُّ عَامَ (١٨٤٤م)، وَبَعْدَ مُضِيِّ نَحْوِ مَائِةِ عَامٍ عَلَى تَأْسِيسِهِ تَصَدَّعَ فَرُمِّمَ عَامَ (١٩٤٥م)، وَفِي عَامِ (١٩٥٦م) أَعَادَتْ وزارة الأوقاف بِنَاءَهُ مِنْ جَدِيدٍ، وَمِنْ أَشْهَرِ مَنْ صَلَّى فِيهِ الشَّيْخُ عَبْدُ الْحَيِّ بْنُ يُوسُفَ.

٣ـ أَيُّهَا الْأَحْبَابُ: وَالمتَّجِهُ خَلْفَ مَبْنَى الْأَوْرَاقِ الماليَّةِ الْيَوْمَ يَرَى مَسْجِدَ (المطَوِّع) الَّذِي أَسَّسَهُ (عبد العزيز عَبْدُ الله المطَوِّع القِنَاعِيِّ) عَامَ (١٨٧٠م)، وَقَدْ جُدِّدَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ كَانَ آخِرُهَا عَامَ (١٩٥٥م) حَيْثُ أَعَادَتْ وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ بِنَاءَهُ مِنْ جَدِيدٍ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الملا عَبْدُ المحْسِنِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ المطَوِّعُ، وَكَانَ كَفِيفًا.

٤ـ مَسْجِدُ (عَبْدِ الإِلَهِ) وَكَانَ يَقَعُ عَلَى شَارِعِ الميْدَانِ الْقَدِيمِ، وَأَمَّا الآنَ

فَمَوْقِعُهُ عَلَى شَارِعِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَيُسَمَّى مَسْجِدَ (صَادِقٍ) نِسْبَةً لإِمَامٍ كَانَ فِيهِ مِنَ الْعَوَضِيَّةِ اسْمُهُ صَادِقٌ، أَسَّسَهُ السَّيِّدُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الإِلَهِ الْقِنَاعِيُّ مِنْ ثُلُثِ الْمَرْحُومِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الْقِنَاعِيِّ عَامَ (١٩١٢م)، وَفِي عَامِ (١٩٥١م) أَعَادَتِ الْأَوْقَافُ بِنَاءَهُ فِي مَكَانِهِ الْقَدِيمِ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الشَّيْخُ عَبْدُ اللهِ الْأَعْرَجُ الْبَصْرِيُّ.

إِنَّهَا مَسَاجِدُنَا كَتَبَتْ آثَارَنَا وَصَلَّى بِهَا أَعْلامُنَا وَأَئِمَّتُنَا، وَبَعْدَ هَذَا الموجَزِ عَنْ تَارِيخِهَا، تَعَالَوا لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بِعُنْوَانِ: (الْقَنَاعَة كَنْزٌ لا يَفْنَى).

قَسَّمَ اللهُ أَرْزَاقَنَا، فَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ، وَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وهذا هُوَ الْقَانِعُ السَّعِيدُ فِي حَيَاتِهِ، وَالأَوَّلُ هُوَ السَّاخِطُ الَّذِي لا يَمْلأُ جَوْفَهُ إلا التُّرَابُ، فَالْقَنَاعَةُ (الرِّضَا بِالمقْدُورِ غِنًى كَانَ أَوْ فَقْرًا) فَقَدْ يَقْنَعُ الْفَقِيرُ فَيَصْبِرُ، وَقَدْ يَقْنَعُ الْغَنِيُّ فَيَشْكُرُ، وَعَلَى الْعَكْسِ قَدْ يَسْخَطُ الْفَقِيرُ فَيَشْكُو رَبَّهُ لِلْخَلْقِ، وَقَدْ يَسْخَطُ الْغَنِيُّ فَيَمْنَعُ الْحُقُوقَ وَيَطْمَعُ فِي المزِيدِ، يَقُولُ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيُّ:

وَذُو الْقَنَاعَةِ رَاضٍ عَن مَعِيشَتِهِ وَصَاحِبُ الْحِرْصِ إِنْ أَثْرَى فَغَضْبَانُ

وَفَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ الْقَنَاعَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي تَعْنِي أَنْ يَرْضَى الإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ وَإِمَكَانِيَّاتِهِ، فَيَثِقُ بِقُدُرَاتِهِ، وَيَسْعَى لِلأَفْضَلِ، وَيَجْتَهِدُ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ هَذَا الرِّضَا وَالْيَقِينِ، وَبَيْنَ مَا يَتَوَهَّمُهُ الْبَعْضُ مِنْ أَنَّ الْقَنَاعَةَ هِيَ حَالَةٌ مِنَ الاسْتِسْلامِ لِلأَمْرِ الْوَاقِعِ مِنْ ذُلٍّ وَيَأْسٍ وَقِلَّةِ حِيلَةٍ، فَالْقَنَاعَةُ مُضَادُّهَا الطَّمَعُ، لا الطُّمُوحُ.

فوائد القناعة:

إِذَا قَنِعْتَ فَأَنْتَ السَّعِيدُ وَالآمِنُ وَالمطْمَئِنُّ، وَمِنْ أَهَمِّ فَوَائِدِ الْقَنَاعَةِ مَا يَلِي:

أَوَّلاً: امْتِلاءُ قَلْبِكَ بِالإِيمَانِ وَالرِّضَا، مَعَ قُوَّةِ الْيَقِينِ بِضَمَانِ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ

وَقَسْمِهَا بَيْنَهُمْ، حَتَّى وَلَوْ كُنْتَ لا تَمْلِكُ شَيْئًا، يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: (إِنَّ أَرْجَى مَا أَكُونُ لِلرِّزْقِ إِذَا قَالُوا: لَيْسَ فِي الْبَيْتِ دَقِيقٌ).

ثَانِيًا: الإِحْسَاسُ بِطِيبِ الْعَيْشِ: قَالَ اللهُ- تَعَالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾(١)، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (الحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الْقَنَاعَةُ)، وَفِي هَذَا المعْنَى قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ- رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (مَنْ قَنِعَ طَابَ عَيْشُهُ)، فَهُوَ مُرْتَاحُ الصَّدْرِ مِنَ النَّظَرِ لما عِنْدَ الْآخَرِينَ، قَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: (وجَدْتُ أَهْنَأَ النَّاسِ عَيْشًا الْقَنُوعُ)، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**»(٢)، وَقَالَ أَحَدُ الحُكَمَاءِ: (سُرُورُ الدُّنْيَا أَنْ تَقْنَعَ بِمَا رُزِقْتَ، وَغَمُّهَا أَنْ تَغْتَمَّ لِمَا لَمْ تُرْزَقْ)، وَصَدَقَ الْقَائِلُ:

هِيَ الْقَنَاعَةُ لا تَرْضَى بِهَا بَدَلاً ... فِيهَا النَّعِيمُ وَفِيهَا رَاحَةُ الْبَدَنِ

انْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ... هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْقُطْنِ وَالْكَفَنِ

ثَالِثًا: مَنْ قَنِعَ بِمَا عِنْدَهُ شَكَرَ، وَمَنْ تَقَالَّهُ سَخِطَ وَكَفَرَ، وَقَصَّرَ فِي الشُّكْرِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ**»(٣)، وَقَدْ شَكَا رَجُلٌ إِلَى قَوْمٍ ضِيقًا فِي رِزْقِهِ فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ: (شَكَوْتَ مَنْ يَرْحَمُكَ إِلَى مَنْ لا يَرْحَمُكَ).

رَابِعًا: الْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لا يَفْنَى: وَسِرُّ هَذَا الْكَنْزِ اسْتِمْرَارِيَّةٌ لا تَنْقُصُ بِالاسْتِعْمَالِ، وَفِي الحَدِيثِ: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»(٤).

خَامِسًا: الْقَنَاعَةُ طَرِيقُ الْجَنَّةِ: فَفِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟**»، فَقَالَ ثَوْبَانُ: أَنَا. فَكَانَ لا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا(١).

---

(١) النحل: ٩٧.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٥٤)، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٩٢١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه أبو داود (١٦٤٣) عن ثوبان رضي الله عنه، وصححه الألباني.

سَادِسًا: لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقَنَاعَةِ إِلا **عِزَّةُ النَّفْسِ** لَكَفَى بها بَاعِثاً، فَالْقَانِعُ حُرٌّ وَالطَّامِعُ عَبْدٌ، وَقَدْ قِيلَ فِي المثَلِ: عَزَّ مَنْ قَنِعَ، وَذَلَّ مَنْ طَمِعَ.

أسباب اكتساب القناعة:

إِيَّاكَ وَمُنَازَعَةُ الشَّهَوَاتِ؛ فَإِنَّهَا لا حَدَّ لَهَا مُتَنَاهٍ، وَمَنْ لَمْ تَتَنَاهَ شَهْوَتُهُ، اسْتَدَامَ كَدُّهُ وَتَعَبُهُ، فَلَا يَنْزَجِرُ عَنْهَا بِعَقْلٍ، وَلا يَنْكَفُّ عَنْهَا بِقَنَاعَةٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَنَاعَةَ تُكْتَسَبُ، وَمِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِهَا:

أَوَّلاً: تَقْوِيَةُ الإِيمَانِ بِرِزْقِ الله المكْتُوبِ: وَتَرْوِيضُ الْقَلْبِ عَلَى الْقَنَاعَةِ بِهِ بِتَدَبُّرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، يَقُولُ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ: (أَرْبَعُ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ الله إِذَا قَرَأْتُهُنَّ مَسَاءً لَمْ أُبَالِ عَلَى مَا أُمْسِي، وَإِذَا تَلَوْتُهُنَّ صَبَاحًا لَمْ أُبَالِ عَلَى مَا أُصْبِحُ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]، وَقَوْلُهُ - تَعَالَى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[2]، وَقَوْلُهُ - تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[3]، وَقَوْلُهُ - تَعَالَى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[4].

ثَانِيًا: الإِلحَاحُ بِالدُّعَاءِ بِالْقَنَاعَةِ: وَفِي الْحَدِيثِ كَانَ ﷺ يَدْعُو: «**اللهُمَّ قَنِّعْنِي بِمَا رَزَقْتَنِي**»[5].

ثَالِثًا: النَّظَرُ إِلَى حَالِ مَنْ هُوَ أَقَلُّ مِنْكَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، وَعَدَمُ النَّظَرِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فِيهَا؛ وَلِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَلا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله**»[1].

---

(١) فاطر: ٢.

(٢) يونس: ١٠٧.

(٣) هود: ٦.

(٤) الطلاق: ٧.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٦٧٤) عن ابن عباس – رضي الله عنهما، وصححه ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد (١٠٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

رَابِعًا: قِرَاءَةُ سِيَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَأَحْوَالِهِمْ مَعَ الدُّنْيَا، وَزُهْدِهِمْ فِيهَا، وَقَناعَتِهِمْ بِالمَقْسُومِ مِنْهَا، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ أَحْوَالِهِمْ، تُحَفِّزُ عَلَى التَّأَسِّي بِهِمْ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَقْنَعُ النَّاسِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَدْ كَانَ يَرْضَى بِمَا عِنْدَهُ، وَلا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا، وَلا يَتَطَلَّعُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ، وَكَانَ ﷺ يَنَامُ عَلَى الْحَصِيرِ، فَرَآهُ الصَّحَابَةُ وَقَدْ أَثَّرَ الْحَصِيرُ فِي جَنْبِهِ، فَأَرَادُوا أَنْ يُعِدُّوا لَهُ فِرَاشًا لَيِّنًا يَجْلِسُ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُمْ: «**مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»(١)، وَقَدْ سَأَلَ ﷺ أَبَا ذَرٍّ: «**أَتَرَى كَثْرَةَ المالِ هُوَ الْغِنَى؟**» فَقَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ: «**فَتَرَىَ قِلَّةَ المالِ هُوَ الْفَقْرُ؟**» فَقَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ: «**إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ**»(٢).

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - يَبُلُّ الْخُبْزَ الْيَابِسَ بِالماءِ وَيَأْكُلُهُ وَيَقُولُ: (مَنْ قَنِعَ بِهَذَا لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَحَدٍ)، وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ: (مَنْ سَيِّدُ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ؟ قَالُوا: الْحَسَنُ، قَالَ: بِمَ سَادَهُمْ؟ قَالُوا: احْتَاجَ النَّاسُ إِلَى عِلْمِهِ، وَاسْتَغْنَى هُوَ عَنْ دُنْيَاهُمْ. وَكَتَبَ بَعْضَ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَى أَبِي حَازِمٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - يَعْزِمُ عَلَيْهِ إِلا رَفَعَ إِلَيْهِ حَوَائِجَهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ: (قَدْ رَفَعْتُ حَوَائِجِي إِلَى مَوْلايَ، فَمَا أَعْطَانِي مِنْهَا قَبِلْتُ، وَمَا أَمْسَكَ مِنْهَا عَنِّي قَنِعْتُ).

أَسْأَلُ اللهَ - تَعَالَى - أَنْ يَرْزُقَنَا الْقَنَاعَةَ بِمَا رَزَقَنَا، وَأَنْ يَجْعَلَ حِسَابَنَا يَسِيرًا، وَأَنْ يُصْلِحَ قُلوبَنَا وَأَعْمَالَنَا وَنِيَّاتِنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) عن عبد الله ﷺ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٨٥)، والحاكم في المستدرك (٧٩٢٩)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨١٦).

المحاضرة (١٦)

الظلم ظلمات

رِحلتُنَا الأَثَرِيَّةُ المحرَابيَّةُ تَحطُّ بِنَا فِي (مُحافَظةِ العَاصِمةِ) وَفِي (حَيِّ الشَّرقِ)، وَمِن مَسَاجِدِ الشَّرقِ الأَثَرِيَّةِ زِيادَةً عَلَى مَا ذَكَرْنَا سَابِقاً مَا يَلِي:

١ـ مَسجِدُ (**المطبةِ**) وَكَانَ يَقعُ فِي حَيِّ المطبةِ قُربَ مَدْرسَةِ النَّجاحِ سَابِقاً، وَأَمَّا مَوقِعُهُ- الآنَ - فَهُوَ عَلَى شَارعِ عَلي السَّالم، أَسّسَهُ الحَاجُّ شَملانُ بنُ عَلي الرُّومِي عَامَ (١٨٩٣م)، وَمَعَ ازْديَادِ المصلِينَ احْتَاجَ المسجِدُ لِتَوسعَةٍ عَامَ (١٩٤٧م)، وَفِي عَام (١٩٦٥م) أَعَادَتْ وَزَارَةُ الأَوقَافِ بِنَاءَهُ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى الطِّرَازِ الحَدِيثِ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئمتِهِ الملا حُسَينُ بنُ عَبدِ الله التّركِيتُ قُرَابَةَ سَتِّينَ عَاماً.

٢ـ مَسجِدُ (**المناعِي**) وَيَقعُ فِي حَيِّ المناعِ قُربَ المدرَسةِ الشَّرقِيَّةِ عَلَى شَارعِ الْخَليجِ، وَأَغلَبُ الرِّوَايَاتِ تُفِيدُ أَنَّ هُنَاكَ مَجمُوعَةً قَدِ اشْتَركُوا فِي تَأسِيسِ المسجدِ عَامَ (١٨٩٦م)، وَقَد قَامَ السّيدُ هِلالُ المطيرِي عَامَ (١٩٢٥م) وبِمُساعَدةِ أَهلِ الْخَيرِ بِتجدِيدِ المسجدِ، وَفِي عَام (١٩٥٦م) أَعادَتْ وَزارَةُ الأَوقَافِ بِنَاءَهُ مِنْ جَدِيدٍ فِي مَكَانِهِ، وَمِن أَشهَرِ مَنْ أَمَّ فِيهِ حُسينُ بنُ مُحمَّد التّركِيتُ.

٣ـ مَسجِدُ (**ابْنُ هَبلَه**) وَكَانَ يَقعُ قَدِيماً فِي حَيِّ الشَّرقِ فِي فَرِيجِ العوازِمِ قُربَ مَزرَعَةِ الشَّيخِ عَبدِ الله السَّالم، وَأَمَّا- الآنَ- فَلا يَزالُ مَوجُوداً وَيَقعُ خَلفَ الْعَمارَاتِ الّتِي تَقَعُ عَلَى شَارعِ مَبارَك وَخَلفَ سَكَنِ الصَوَابِر، أَسَّسهُ السيدُ فَهدُ بنُ هَبلَةَ الرَّشِيديُّ عَامَ (١٨٩٨م)، وَأَعادَتِ الأَوقَافُ بِنَاءَهُ عَامَ (١٩٥٢م)، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئمتَهِ رَاشدُ عَبدِ الله الفَرحَانُ المحامِيُّ وَالوَزِيرُ السَّابقُ لِلأَوقَافِ.

هَذِهِ المسَاجِدُ الأَثَرِيَّةُ كَانَتْ وَمَازَالَتْ جَامِعَاتٍ يُدَرِّسُ فِيهَا أَئِمَّةٌ كِبَارٌ، فتعَالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا،

وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعنوان: (ظُلَمَاتِ الظّلْم).

الظُّلمُ لا يَصدُرُ إلا مِنَ النُّفُوسِ اللّئِيمَةِ، وَهُوَ (التَّعدِي عَلَى حَقِّ الغَيرِ بِغَيرِ حَقٍّ)، وَقَد حَرَّمَهُ اللهُ- تَعَالَى- عَلَى نَفسِهِ، وَجعلَهُ بَينَنَا مُحَرَّماً كَما رَوَى مُسلمٌ[1]، وَهُوَ يَنقَسِمُ لِثَلاثَةِ أَنوَاعٍ:

أَولُها وَأَعظمُهَا: ظُلمٌ بَينَ الإِنسَانِ وَرَبِّهِ بِالكُفرِ وَالإِشرَاكِ وَصَرْفِ الْعِبادَةِ لِغَيرِه، قَالَ- عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2] .

أَمَّا النَّوعُ الثَّانِي: فَهُوَ ظُلْمُ الإِنسَانِ لِنَفسِهِ بِتركِهَا تَقتَحِمُ الذُّنُوبَ، يَقُولُ- جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3]، **وَالنَّفسُ أَيُّهَا الأَحبَابُ** كَالطِّفلِ فَإِذَا تَرَكَتْهُ أُمُّهُ يَلعَبُ بِمَا يُؤذِيهِ فَهِيَ لَهُ ظَالمةٌ، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

وَالنَّفسُ كَالطِّفلِ إِنْ تُهمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفطِمْهُ يَنفَطِمِ

النّوعُ الثَّالِثُ: ظُلْمُ الإِنسَانِ لِـمخلُوقَاتِ اللهِ، وَهُوَ مِنَ النَّاسِ قَبِيحٌ، وَلَكنَّهُ مِنَ الوُلاةِ أَقبَحُ لِقُوةِ سَطوَتِهم وَاقْتَدَاءِ الْحَاشيةِ بِهِم مِن بَابِ:

إِذَا كَانَ رَبُّ الْبَيتِ لِلدُّفِ ضَارِباً فَشِيمَةُ أَهلِ الْبيتِ كُلِّهِم الرَّقْصُ

صُورُ الظُّلْمِ:

١ـ غَصبُ أَموَالِ الآخَرِينَ وَأَعظمُهَا مَالُ اليَتِيمِ: سَواءً كَانَ أَرْضاً أَوْ مَالاً أَوْ مَنْعَ أُجرَةٍ لأَجيرٍ، وَفِي الصّحِيحِ «**ثلاثة أنا خصمهم.. ورجل اسْتأجَرَ أَجِيراً فَاسْتَوفَى مِنْهُ ولِم يُعطِهِ أَجْرَهُ**»[4]، وَقَالَ ﷺ: «**مَنْ ظَلَمَ قَيدَ شِبرٍ مِنَ الأَرضِ طُوقَهُ مِن سَبعِ أَرَضِينَ**»[5]، وَمِن أَعظَمِ الظّلْمِ أَكلُ الأَموَالِ بِالحَلفِ كَذِباً وَلَوْ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر ﷺ.
(٢) لقمان : ١٣.
(٣) النحل : ٣٣.
(٤) أخرجه البخاري (٢٢٧٠) عن أبي هريرة ﷺ.
(٥) أخرجه البخاري (٢٤٥٣)، ومسلم (٢٣٢١) عن عائشة – رضي الله عنها.

يَسِيراً، وَصَحَّ عَنهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الجنَّةَ**» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ**»(١).

٢ـ مِنْ صُورِ ظُلمِ البَشَرِ لِبعَضِهم عَدَمُ العَدلِ بَينَ الأَبنَاءِ: يَقولُ النعمانُ بنُ بَشيرٍ - رَضيَ اللهُ عَنهُمَا - نَحلنِي أبي نحلاً -هدية- وأراد أن يُشهدَ عَليهَا رَسُولَ الله ﷺ، فقَالَ له النبي ﷺ: «**أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحلْتَ مِثْلَهُ**» قَالَ: لا، فقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ وَاعْدلُوا فِي أَولادِكُم، إِنِّي لا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ**»(٢)، وَقَد ذَكَر العُلماءُ أَنَّ مِنَ العَدلِ بَينَ الأَولادِ أَلا تَتَبَسَّمَ لأَحدِهم دُونَ الآخَرِ.

٣ـ ظُلْمِ الْـحَيوَانِ: كَأَنْ يُحبَسَ بِلا طَعَامٍ وَلا شَرابٍ حَتّى يَموتَ: رَوَى البُخَاريُّ وَمُسلمٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**»(٣).

كَثِيرةٌ هِيَ صُورُ الظّلْمِ، فَأَكلُ صَدَاقِ الزّوجَةِ بِالقُوةِ ظُلْمٌ، وَالسَّرِقةُ وَأَذيَّةُ المؤمِنينَ وَالمؤمنَاتِ وَالجيرَانِ ظُلْمٌ، وَالْغِشُّ وَكِتمَانُ الشّهادَةِ ظُلمٌ، وَنَقضُ العُهُودِ وَعَدمُ الوَفَاءِ بِها ظُلْمٌ، وَعَدمُ رَدِّ الظَّالمِ عَنْ ظُلْمِهِ ظُلمٌ، إِلى غَيرِ ذَلكَ مِن أَنوَاعِ الظُّلمِ الظَّاهِرِ وَالخَفِيِّ.

عقوبة الظلم:

حَذَارِ ثُمّ حَذَارِ أَنْ تَظلمَ، وَاعْلمْ أَنَّ عُقوبَةَ الظّلمِ عَظِيمَةٌ وَمِنْ أَهَمِّهَا:

أَوّلاً: لِلْمَظلُومِ دَعوَةٌ لا تُرَدُّ: مُسلِماً كَانَ أَو كَافِراً، فَفِي حَدِيثِ أَنس: «**اتَّقُوا دَعْوَةَ المظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٧) عن أبي أمامة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢٣) عن النعمان بن بشر - رضي الله عنهما - بنحوه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٦١٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٥٣) عن أنس ﷺ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٩).

وَقد أَجادَ مَن قَالَ:

لا تَظلِمنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقتَدِراً فَالظُّلمُ آخرُهُ يَأتِيكَ بِالنَّدَمِ

نَامَتْ عُيونُكَ وَالمظلُومُ مُنتبِهٌ يَدعُو عَلَيكَ وَعَينُ الله لَم تَنَمِ

وَلـمَّا حُبسَ الأَمِيرُ خَالدُ بنُ بَرمَكَ وَوَلَدُهُ، قَالَ: يَا أَبَتِ بَعدَ الْعِزِّ صِرنَا فِي القَيدِ وَالْحبَسِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ لَعلَّهَا دَعْوَةُ مَظلُوم سَرتْ بِلَيلٍ غَفلنَا عَنهَا وَلَم يَغْفَلِ اللهُ عَنهَا. **وَكَانَ يَزيدُ بنُ حَكيم يَقُولُ**: (مَا هِبْتُ أَحَدًا قَط هَيبَتِي لِرَجلٍ ظَلَمْتُهُ وَأَنَا أَعلَمُ أَنَّهُ لا نَاصِرَ لَهُ إِلا اللهُ، وَهُو يَقُول لِي: حَسبي اللهُ، اللهُ بَينِي وَبَينِكَ).

ثَانِياً: ذُلُّ الظَالمِ يَومَ القِيامَةِ وَإفلاسُهِ مِنَ الْحَسنَاتِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ (١)، وَفِي الْحَديثِ: **«مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَلا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»**(٢).

ثَالثاً: محَقُ الْبَركَةِ: أَخِي الْحبِيبَ، ظُلمُكَ يَمحَقُ بَركَةَ مَالِكَ، كَمَا أَنَّ ظُلمَ المدِيرِ يُذْهِبُ إِدَارتَهُ، وَظُلم التّاجِرِ يَأتِي عَلَى تِجارَتِهِ، وَظُلم الحَاكِمِ يُزيلُ دَولتَهُ، وَقَدْ تَنبَّهَ الْكَثيرُ مِنَ النَّاسِ وَالْحُكام لِذلِكَ، حَتَّى الكُفار مِنهُم، فَخَافُوا مِنَ الظّلْمِ وَهَابُوهُ، فَهُوَ يَقلِبُ النِّعمَ نِقَماً.

ذَكَرَ ابنُ الجَوزِيِّ: أَنَّ كِسرَى خَرجَ لِلصّيْدِ، فَانْقَطعَ عَنْ أَصْحابِهِ بِسَبَبِ مَطَرٍ غَزِيرٍ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى كُوخٍ فِيهِ عَجُوزٌ، فَنَزلَ عندَها، فَأَقبلَتِ ابْنَتُها بِبَقرةٍ قَد رَعتْهَا فَاحْتَلَبَتْهَا، وَرَأَى كِسرَى لَبنَهَا كَثِيراً، فَقَالَ: يَنْبَغِي أَنْ نَجعَلَ عَلَى كُلِّ

(١) إبراهيم: ٤٢، ٤٣.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٩)، عن أبي هريرة ﷺ.

بَقرةٍ خَرَاجاً، فَهَذَا حِلابٌ كَثيرٌ؛ ثُمَّ قَامَتِ الْبِنتُ فِي آخرِ اللّيلِ لِتَحْلبَهَا فَوجدَتْهَا لا لَبنَ فِيهَا، فَنادَتْ: يَا أُمَّاهُ قَد أَضمَرَ الملكُ لِرَعيَّتِهِ سُوءاً؛ قَالَتْ أُمُّها: وَكَيفَ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: إِنَّ الْبَقرةَ مَا تَبِزُّ بِقَطرةٍ مِنْ لَبَنٍ؛ فَقَالَتْ لَها أُمُّها: اسْكُتِي، فَإِنَّ عَليكِ لَيلاً؛ فَأَضْمَر كِسْرَى فِي نَفسِهِ العَدلَ وَالرّجوعَ عَن ذَلكَ العَزمَ، فَلما كَانَ آخرُ اللّيلِ قَالَت لَهَا أُمُّها: قُومِي احْلِبِي؛ فَقَامَت فَوجَدَتِ البَقرةَ حَافِلاً، فَقَالَتْ: يَا أُمّاهُ قَد وَالله ذَهبَ مَا فِي نَفسِ الملكِ مِنَ السّوءِ.

فَلما ارْتفعَ النّهارُ جَاءَ أَصحَابُ كِسْرَى فَركِبَ، وَأَمرَ بِحملِ العَجُوزِ وَابنتِهَا إِليهِ، فَأَحسنَ إِليهِمَا ، وَقَالَ: كَيفَ عَلِمْتُمَا ذَلِكَ؟ فَقالَتِ العَجُوزُ: أَنَا بِهذَا المكانِ مُنذُ كَذَا وَكَذَا، مَا عُملَ فِينَا بَعَدلٍ إِلا أَخصَبَتْ أَرضُنَا، وَاتّسَعَ عَيشُنا، وَمَا عُملَ فِينَا بَجَورٍ إِلا ضَاقَ عَيشُنَا وَانْقَطَعتْ مَوَارِدُ النّفعِ عَنَّا).

وَذَكَرَ الطّرطُوشِيُّ: (أَنّهُ كَانَ بِصَعيدِ مِصرَ نَخلةٌ تَحملُ عَشَرةَ أَرَادبَ تَمْراً، وَلَم يَكنْ فِي ذَلكَ الزَّمانِ نَخلةٌ تَحمِلُ نِصفَ ذَلكَ، فَغَصبَها السّلطَانُ، فَلمْ تَحمِلْ فِي ذَلكَ العَامِ وَلا تَمرةً وَاحدَةً).

وَفِي المقَابلِ مَا عُملَ بِالعدْلِ بَينَ النّاسِ إِلا كَانَتِ البَرَكةُ وَالْخيرُ وَبَسْطُ الأَمْنِ تَعُمُّهُمْ وَتَلفُّهُم، وَخِلافَةُ عُمَرَ بنِ عَبدِ العَزِيزِ- رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- خَيرُ شَاهدٍ عَلى ذَلِكَ، وَقَد كَتبَ عَامِلٌ لَهُ: (إِنَّ مَدينَتَنَا قَد احْتَاجَتْ إِلَى مَرَمَّةٍ، فَكَتبَ إِليهِ عُمرُ: حَصِّنْ مَدِينَتَكَ بِالعدْلِ، وَنَقِّ طُرقَهَا مِنَ المظالمِ).

يَقولُ ابنُ مَسعُودٍ ﷺ: (لَـمَّا كُشِفَ الْعَذابُ عَنْ قَومِ يُونُسَ- عَليهِ السّلامُ- تَرَادُّوا المظَالمَ بَينَهُم، حَتّى كَانَ الرّجلُ لَيقلَعُ الحَجرَ مِنْ أَسَاسِهِ فَيَردُّهُ إِلَى صَاحبِهِ)، وَيُروَى فِي الحِكَمِ: (إِنَّ اللهَ يَنصُرُ الدَّولةَ العَادِلةَ وَإِن كَانَت كَافِرَةً، وَلا يَنصُرُ الدّولةَ الظَّالمةَ وَإِن كَانَتْ مُؤْمِنةً).

يا مَنْ دَعتْكَ قُوتُكَ وَسُلطَانُكَ لِظُلم النّاسِ، يَقُول أَحدُ الحُكمَاءَ: (اذْكرْ عِندَ الظّلمِ عَدلَ الله فِيكَ، وَعِندَ القُدرَةِ قُدرَةَ الله عَليكَ، وَلا يُعجِبْكَ رَحْبُ الذّرَاعَينِ سفَّاكُ الدّمَاءِ، فَإِنَّ لَهُ قَاتِلاً لا يمُوتُ)، وَمَا دُمْتَ في وَقْتِ المـهُلَةِ بَعدَ مَا سَمِعْتَ فَبابُ التّوبةِ مَفتُوحٌ وَمِن شَرطِهَا أَنْ تَرُدَّ المظَالم إِلَى أَهلِهَا وَتَسْتَسمِحَ مِنهُم، فَسوفَ تَجِدُ رَبّا غَفُوراً رَحِيمًا.

اللّهُم لا تُسلطْ عَلينَا مَنْ لا يَخافُكَ وَلا يَرحَمُنا.

المحاضرة (١٧)

سلاح الأقوياء

رِحْلَتُنَا الْأَثَرِيَّةُ المحْرَابِيَّةُ تُلْقِي بِأَحْمَالِهَا فِي مُحَافَظَةِ الْعَاصِمَةِ فِي حَيِّ السُّوقِ لِنَسْتكْمِلَ مَا بَقِيَ مِنْ مَسَاجِدِهِ الأَثَرِيَّةِ، وَمِنْ أَهَمِّهَا مَا يَلِي:

١ـ مَسْجِدُ (**الفَارِسِ**) وَيَقَعُ فِي فَرِيجِ الْعَوَازِمِ قُرْبَ مَكْتَبَةِ المعَارِفِ الْقَدِيمَةِ وَبَوَّابَةِ الشَّيخِ، وَهُوَ الآنَ فِي مَكَانِهِ مُطِلٌّ عَلَى مَوَاقِفِ سُوْقِ المبَارَكِيَّةِ، أَسَّسَهُ رَجُلٌ مِنَ الْعَوَازِمِ مَا قَبْلَ عَامِ (١٨٢٩م) تَقْرِيباً، وَقَدْ قَامَ السَّيِّدُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بنُ مُحَمَّدِ الْفَارِس عَامَ (١٨٣٤م) بِتَجدِيدِهِ وَوَقَفَ أَوقَافاً عَلَيهِ حَتَّى نُسِبَ المسْجِدُ لِعَائِلَةِ الفَارِسِ، وَفِي عَامِ (١٩٨٢م) أَعَادَتْ الْأَوقَافُ بِنَاءَهُ عَلَى الطِّرَازِ الْحَدِيْثِ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الشَّيْخُ عَبْدُ الْوَهَابِ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْفَارِس قُرَابَةَ أَربَعٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً.

٢ـ مَسْجِدُ (**الفَهْدِ**) وَيَقَعُ فِي فَرِيجِ الْفَهْدِ مُقَابِلَ سَوقِ اللَّحْمِ الْحَالِي وَقُرْبَ سُوقِ الذَّهَبِ، وَلا يَزَالُ فِي مَوْقِعِهِ، أَسَّسَهُ السَّيدُ عَبْدُ الله الْفَهدُ عَامَ (١٨٥٨م)، وَقَدْ جُدِّدَ عَامَ (١٨٩٩م)، وَفِي عَام (١٩٨٣م) أَعَادَتِ الأَوقَافُ بِنَاءَهُ ضِمْنَ مَبنَى السُّوقِ، وَمِن أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الشَّيْخُ جَاسِمُ الْبِلالِيُّ.

٣ـ فِي نِهَايَةِ سُوقِ ابنِ دعِيج مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ يَقَعُ مَسْجِدُ (**النَّبْهَان**)، وَاشْتُهِرَ بِهَذَا الاسْمِ نِسْبَةً لإِمَامِهِ إِبْرَاهِيمَ النَّبهَان، وَالمسْجِدُ لا يَزَالُ بِمَوقِعِهِ الْقَدِيمِ خَلْفَ دِيوَانِ الرَّعِيلِ الأَوَّلِ، أَسَّسَهُ أَولاً (كُبَراً) السَّيدُ مُحْسِنُ بنُ مُحَمَّدِ ابنِ حنُوه البَرِيكِيُّ العَازِمِيُّ عَامَ (١٨٧٤م) ثُمَّ أَعَادَ بِنَاءَهُ مِن جَدِيدٍ السَّيِّدُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْعَتِيقِي، وَبَعْدَهُ الْأَوْقَافُ، وَأَخِيراً أَعَادَ بِنَاءَهُ السَّيدُ عَبْدُ الهَادِي سَعْدُون الْعِتِيبي عَامَ (١٩٨٨م) عَلَى أَحْدَثِ طِرَازٍ، وَمِن أَشْهَرِ مَنْ صَلَّى فِيهِ إِمَاماً

الشَّيخُ عَبْدُ العَزِيزِ الرَّشِيدُ.

وبَعْدَ هَذَا المُرُورِ الموجَزِ عَلَى آثَارِ مَسَاجِدِنَا وَذِكْرَ أَئِمَّتِنَا، سَنَسْتَمِعُ لِلمَوَاعِظِ الاجْتِمَاعِيةِ الْـهَامةِ وَهَيَ اليومَ بِعنْوَانِ: (سِلاحُ الأَقْويَاءِ).

أُوصِيكُم وَإِيَّايَ بِالتَّغَافلِ عَنِ العَثَرَاتِ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ المَقْدِرَاتِ، فَإِنَّهُ سِلاحُ الْأَقْوِيَاءِ، وَأَفْضَلُ الأَخْلاقِ، وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى نَقَاءِ الْقَلْبِ، وَصَفَاءِ النَّفْسِ، وَكَرَمِ الطِّبَاعِ الَّذِي يَنْفُذُ بِقُوةٍ إِلَى شِغَافِ القُلُوبِ، وَإِنَّ نَزْعَةَ الانْتِصَارِ لِلنَّفْسِ لَيْسَتْ مِنْ أَخلاقِ المؤْمِنِ الصَّالِحِ الْـهَيِّنِ اللَّيِّنِ.

يَقُولُ الجوهَرِيُّ فِي تَعْرِيفِ الْعَفْوِ: هُوَ تَرْكُ الْعُقُوبَةِ عَلَى الذَّنْبِ، وَالمحْمُودُ مِنْهُ الْعَفْوُ عِنْدَ المَقْدِرَةِ، فَالْعَفوُ بِدُونِ مَقْدِرَةٍ قَدْ يَكُونُ عَجْزاً وَقَهْراً، كَمَا أَنَّ العَفوَ مَعِيبٌ فِي مَوَاطِنِ الْـحَزمِ. قَالَ بَعضُهُم: لَيسَ الْـحَلِيمُ مَن ظُلِمَ فَحَلِمَ حَتَّى إِذَا قَدِرَ انْتَقَمَ، وَلَكِنَّ الْـحَلِيمَ مَن ظُلِمَ فَحَلِمَ حَتَّى إِذَا قَدرَ عَفَا.

وَيَخْتَلِفُ الْعَفوُ عَنِ الْغُفْرَانِ وَالصَّفْحِ، أَمَّا الغُفْرَانُ فَإِنَّهُ يُنْبِئُ بِسِتْرِ الذَّنْبِ، بَيْنَمَا يَعْنِي العَفْوُ مَحْوَ الذَّنْبِ ظَاهِراً فَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْغُفْرَانِ، وَأَبْلَغُ مِنَ الاثْنَينِ الصَّفْحُ؛ لأَنَّهُ مَحْوٌ لِلذَّنْبِ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَتَجَاوُزٌ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، وَلِذَا أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾[1].

لَقَدْ سَمَّى اللهُ- سُبْحَانَهُ- نَفْسَهُ بِالْعَفُوِّ، وَأَوْصَانَا بِالْعَفْوِ، فَمَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذىً سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، يَدْعُونَ لَهُ الوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِم وَيَرْزُقُهُم، وَقَدْ أَمَر اللهُ- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- رَسُولَهُ ﷺ وَهُوَ خِطَابٌ لِأُمتِهِ فَقَالَ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[2]، فَكَانَ ﷺ لا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيئةِ، وَلَكِنْ يَعفُو وَيَصْفَحُ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمُ مِنْ صَاحِبِهِ[3]، وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ

(١) الحجر : ٨٥ .

(٢) الأعراف : ١٩٩ .

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٣٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما .

ﷺ فقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ، كَمْ نَعفُو عَنِ الخَدَمِ ؟ فَصَمَتَ، ثُمَّ أَعَادَ عَليهِ الكَلامَ فَصمَتَ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالثَةِ قَالَ: «**اعْفُوا عَنهُ فِي كُلِّ يوم سَبعينَ مَرَّةً**»[١]، وَقَالَ الْحَسنُ بنُ عَليٍّ- رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُمَا: (لَوْ أَنَّ رَجُلاً شَتَمَنِي فِي أُذُنِي هَذِهِ وَاعْتَذَرَ فِي أُذُنِي الأُخْرَى لَقَبِلْتُ عُذْرَهُ)، وَقَالَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ- رَحِمَهُ اللهُ: (لأَنْ أَنْدَمَ عَلَى الْعَفوِ عِشْرينَ مَرَّةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْدَمَ عَلَى الْعُقُوبَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً).

فوائد العفو:

إِنَّ فَوَائِدَ الْعَفْوِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُعَدَّ أَوْ تُحْصَى وَمِنْ أَهَمِّهَا:

أَولاً: إِدْرَاكُ مَحَبَّةِ اللهِ- تَعَالَى- وَجَنَّتِهِ: فَإِنَّهُ- سُبْحَانَهُ- عَفُوٌّ يُحِبُّ أَهْلَ الْعَفْوِ، وَيُثِيبُ عَلَيهِ بِجَنَّتِهِ، قَالَ- سُبْحَانَهُ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٢]، رُوِيَ أَنَّ عَبْدَ الملِكِ بنَ مَرْوَانَ لَـمَّا أُتِيَ بِأُسَارَى ابنِ الأَشْعَثِ قَالَ لِرَجَاءِ بنِ حَيوَة : مَاذَا تَرَى؟ فَقَالَ رَجَاءُ: إِنَّ اللهَ- تَعَالَى- قَدْ أَعْطَاكَ مَا تُحِبُّ مِنَ الظَّفرِ، فَأَعْطِ اللهَ مَا يُحِبُّ مِنَ الْعَفْوِ، فَعَفَا عَنْهُمْ.

ثَانِياً: الْعَفـوُ مَصْـدَرٌ لِلْعِـزَّةِ: إِنَّ الشَّـيْطَانَ يَسْـعَى لِلتَّحْـرِيشِ بَيْنَنَـا بِقَلْـبِ المفَاهِيمِ؛ فَيُرِيْنَا الْعَفْوَ وَالتَّسَامُحَ ضَعْفاً وَخَـوَراً، وَالظُّلْـمَ شَـجَاعَةً وَقُـوَّةً، وَفِي الْـحَدِيثِ : «**مَا زَادَ اللهُ عَبداً بعفوٍ إلا عِزًّا**»[٣]، وَفِي لَفظٍ لِأَحْمَدَ: «**مَـا مِـنْ عَبْـدٍ ظُلِمَ بِمَظْلَمَةٍ فَيُغْضِي عَنْهَا للهِ إِلا أَعَزَّهُ اللهُ - تَعَالَى - بِهَا وَنَصَرَهُ**»[٤].

ثَالِثاً: الْـجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ: أَخِي الْـحَبِيبَ إِذَا عَفَوْتَ فِي الدُّنْيَا جُزِيتَ بِالْعَفْوِ يوْمَ الْقِيَامَةِ، فَفِي الْـحَدِيثِ: «**كَانَ تَاجِرٌ يُدَاينُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا**

(١) أخرجه أبو داود (٥١٦٤) عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما ، وصححه الألباني .

(٢) آل عمران : ١٣٣، ١٣٤ .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة ﷺ .

(٤) أخرجه أحمد (٩٦٢٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٣١) .

قَالَ لِفِتْيَانِهِ تَجَاوَزُوا عَنْهُ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ»(١).

يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ: (يَا ابْنَ آدَمَ.. إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الله خَطَايَا وَذُنُوباً لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ، وَإِنَّكَ تُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَهَا لَكَ اللهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتَ أَنْ يَغْفِرَهَا لَكَ فَاغْفِرْ أَنْتَ لِعِبَادِهِ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَعْفُوَهَا عَنْكَ فَاعْفُ أَنْتَ عَنْ عِبَادِهِ، فَإِنَّمَا الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.. تَعْفُوْ هُنَا يَعْفُو هُنَاكَ، تَنْتَقِمُ هُنَا يَنْتَقِمُ هُنَاكَ، تُطَالِبُ بِالْحَقِّ هُنَا يُطَالِبُ بِالْحَقِّ هُنَاكَ). وَعَنْ عَبدِ الله بنِ عَمرِو بنِ العَاصِ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ: «**ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرُ اللهُ لَكُم**»(٢).

يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِيقُ ﷺ: بَلَغَنَا أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - يَأْمُرُ مُنَادِياً يَومَ الْقِيَامَةِ فَيُنَادِي: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ الله شَيءٌ فَلْيَقُمْ، فَيَقُومُ أَهْلُ الْعَفْوِ فَيُكَافِئُهُم اللهُ بِمَا كَانَ مِنْ عَفْوِهِم عَنِ النَّاسِ.

رابعاً: رَاحَةُ الْجَسَدِ، وَخُرُوجٌ مِنْ ضِيقِ الكَرَاهيةِ إِلَى فُسْحَةِ المسَامَحَةِ، فَمَنْ أَمْسَكَ فِي قَلْبِهِ الْعَدَاوَةَ وَتَرَبَّص الْفُرْصَةَ لِلنِّقْمَةِ، وَأَضْمَرَ الشَّرَّ لِمَنْ أَسَاءَ، تَكَدَّرَ عَيْشُهُ وَاضطَرَبَتْ نَفْسُهُ وَوَهَنَ جَسَدُهُ، وَالْعَافِيَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي التَّغَاضِي وَالتَّغَافُلِ وَالْعَفْوِ، وَقَدْ قِيلَ: (فِي إِغْضَائِكِ رَاحَةُ أَعْضَائِكِ)، وَقِيلَ لِلإِمَامِ أَحمد- رَحِمَه اللهُ تَعَالَى: (الْعَافِيَةُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ، تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي التَّغَافُلِ، فَقَالَ: الْعَافِيَةُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ كُلُّهَا فِي التَّغَافُلِ)، وَيَقُولُ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ- رَحِمَهُ اللهُ:

لـمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ　　أَرَحْتُ نَفْسِيَ مِنْ هَمِّ الْعَدَاوَاتِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٨)، ومسلم (١٥٦٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٧).

وَفِي دِرَاسَةٍ نُشِرَتْ فِي مَجَلَّة (دِرَاسَاتِ السَّعَادَةِ): اتَّضَحَ أَنَّ هُنَاكَ عَلاقَةٌ وَثِيقَةٌ بَيْنَ تَسَامُحِ الإِنْسَانِ وَبيْنَ سَعَادَتِهِ، حَيْثُ أُجْرِيَت دِرَاسَةٌ دَقِيقَةٌ عَلَى عِدَّةِ أَشْخَاصٍ، وَكَانَتِ المفَاجَأةُ أَنَّ الأَشْخَاصَ الأَكْثَرَ سَعَادَةً هُمُ الْأَكْثَرُ تَسَامُحاً مَعَ غَيرِهم! فَقَرَّرُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِجْرَاءَ التَّجَارِبِ لاكْتِشَافِ العَلاقَةِ بَيْنَ التَّسَامُحِ وَبَيْنَ أَهَمِّ أَمْرَاضِ العَصْرِ (مَرَضِ الْقَلْبِ)، وَكَانَتِ المفَاجَأةُ أَنَّ الأَشْخَاصَ الَّذِينَ تَعَوَّدُوا عَلَى الْعَفوِ وَالتَّسَامُحِ وَأَنْ يَصْفَحُوا عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِم، هُمْ أَقَلُّ الْأَشْخَاصِ انْفِعَالاً، وَلا يُعَانُونَ مِنْ ضَغْطِ الدَّم، وَعَمَلُ الْقَلْبِ لَدَيهِم فِيهِ انْتِظَامٌ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِم، وَلَدَيْهِم قُدْرَةٌ عَلَى الإِبْدَاعِ أَكْثَر، كَمَا خَلُصَتْ دِرَاسَاتُهُم إِلَى أَنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ أَعْمَاراً هُمْ أَكْثَرُهُم تَسَامُحاً، فَسُبْحَانَ الله العَظِيم.

قَدِمَ ثَلاثَةٌ مِنَ الشَّبَابِ إِلَى عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ ﷺ يَطْلُبُونَ القَوَدَ مِنْ رَجُلٍ أَمْسَكُوهُ لأَنَّهُ قَتَلَ وَالِدَهُمْ، وَاعْتَرَفَ الرَّجُلُ بِفِعْلَتِهِ، وَلَكِنَّهُ طَلَبَ مُهْلَةَ ثَلاثَةَ أَيَّام يَذْهَبُ بِهَا لأَوْلادِهِ، وَضَمِنَهُ أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ، وَلَمَّا قَارَبَتِ الثَّلاثَةُ أَيَّام عَلَى الانْتِهاءِ قَدِمَ الرَّجلُ، فَقَالَ عُمَرُ لِلرَّجلِ: لِمَ حَضَرْتَ وَقَدْ كَانَ بِإِمْكانِكَ أَنْ تَهْرُبَ؟! فَقَالَ الرَّجلُ: خَوْفًا مِنْ أَنْ يُقَالَ: ذَهَبَ أَهْلُ الْوَفَاءِ بِالْوَعْدِ، فَقَالَ عُمَرُ لأبى ذَرٍّ: وَأَنْتَ لِمَاذَا ضَمِنْتَهُ وَأَنْتَ لا تَعْرِفُهُ؟ فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَوْفاً مِنْ أَنْ يُقَالَ: ذَهَبَ أَهْلُ المرُوءَةِ وَالْكَرم. فَقَالَ أَبْنَاءُ الْقَتِيلِ: وَنَحْنُ عَفَوْنَا وَتَسَامَحْنَا حَتَّى لا يُقَالَ: ذَهَبَ أَهْلُ الْعَفْوُ عِنْدَ المقْدِرَةِ.

اللَّهُمَّ عَافِنَا وَاعْفُ عَنَّا، وَارْحَمْنَا بِرحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَصَلِّ اللّهُم عَلَى نَبِينَا مُحمدٍّ وَعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ أَجْمَعِينَ.

المحاضرة (١٨)

أيها النائم فاتتك الغنائم

تَحُطُّ بِنَا عَصَا التَّرْحَالِ فِي (مُحَافَظَةِ الْعَاصِمَةِ) فِي حَيِّ المرْقَابِ لِنَسْتَكْمِلَ مَا بَقِيَ مِنْ مَسَاجِدِهِ الأَثَرِيَّةِ، وَمِن أَهَمِّهَا مَا يَلِي:

١ـ مَسْجِدُ (هِلالُ) وَيَقَعُ فِي حَيِّ المطْرَانِ، وَلا يَزَالُ مَوْجُوداً قُرْبَ سُوقِ الأَقْمِشَةِ وَالبَطَّانِيَّاتِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ، وَمِنْ طَرِيفِ مَا يُذْكَرُ أَنَّ مُؤَسِّسَ هَذَا المسْجِدِ هُوَ السَّيِّدُ (عَزْرَانُ بنُ عَامِرِ بنِ حَمَدِ) مِنَ الصَّوَابِرِ، مِنْ فَخْذِ عَيَّاضٍ، مِنَ العَوَازِمِ، وَهُوَ لَمْ يَهَبْهُ اللهُ – تَعَالَى – سِوَى الْبَنَاتِ، وَقَدْ انْقَطَعَ نَسْلُهُ وَبقِيَ عَمَلُهُ المتَمَثِّلُ فِي هَذَا المسْجِدِ الَّذِي أَسَّسَهُ عَامَ (١٩٠٧م)، وَقَدْ مَرَّ بِعِدَّةِ تَرْمِيمَاتٍ كَانَ آخِرُهَا عَامَ (٢٠٠١م)، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الشَّيْخُ مُحَمَدُ بنُ جَنِيدَل.

٢ـ مَسْجِدُ (الشَّايع) وَيَقَعُ فِي حَيِّ الشَّايِعِ، وَقَدْ بَنَتْهُ مِنْ جَدِيدٍ عَائِلَةُ الشَّايِعِ خَلْفَ مَبْنَى المَوَاصَلاتِ السِّلْكِيَّةِ وَاللاسِلْكِيَّةِ، أَسَّسَهُ الفَاضِلانِ التَّاجِرُ عَبْدُ اللهِ ابنُ سُلَيْمَانَ النَّجْدِيُّ الَّذِي تَبَرَّعَ بِالأَرْضِ وَالسَّيدُ مُحَمَّدُ بنُ حُمُودٍ الشَّايِعُ، فَتَمَّ تَأْسِيسُهُ عَامَ (١٩٠٧م)، وَقَدْ مَرَّ بِثَلاثِ تَجْدِيدَاتٍ كَانَ آخُرُها عَامَ (١٩٨٦م) الَّذِي قَامَ بِهِ وَرَثَةُ مُحَمَّدٍ حُمُود الشَّايِعِ، وَهُوَ بِنَاءُ المسْجِدِ مِن جَدِيدٍ عَلَى أَحْدَثِ طِرَازٍ، وَقَدْ صَلَّى بِهِ إِمَاماً الملا عَجِيلُ بنُ مُحَمَّدٍ الَّذِي قَدِمَ الْكُوَيْتَ مِنْ مَدِينَةِ (عنيزة) السّعُودِيَّة.

٣ـ مَسْجِدُ (ابْنِ إِسْمَاعِيلَ) وَكَانَ يَقَعُ قَدِيماً فِي بَرَاحةِ (ابْنِ حَسَنٍ) الْوَاقِعةِ خَلْفَ المبْنَى الْـجَدِيدِ لِغُرْفَةِ الصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ، وَقَدْ هُدِمَ عَامَ (١٩٦٥م) أَغْلَبُ الْـحَيِّ وَمِنهُ هَذَا المسْجِدُ (وَانْتَقَلَ إِلَى الرّمَيْثِيَّةَ)، أَسَّسَهُ إِبْرَاهِيمُ بنُ إِسْمَاعِيلَ عَامَ (١٩١٢م)، وَقَامَتِ الْأَوقَافُ بِتَجْدِيدِهِ عَامَ (١٩٥٠م)، وَمِنْ

أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الملا إِبْرَاهِيمُ المزْعِلُ.

وبَعْدَ مُعَايَنَةِ الآثَارِ وَالْحَدِيثِ عَنِ الأَئِمةِ الْكِبارِ - رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى - تَعَالَوا لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعنوان: (**الغَنَائمَ أَيها النَّائِمُ**).

كُلُّنَا يُحِبُّ الرِّبْحَ الدَّائِمَ بِالْجُهْدِ الْقَلِيلِ، وَالمغبُونُ مَنْ يُضَيِّعُ فُرْصَةَ رِبْحٍ عَظِيمٍ بِرَأسِ مَالٍ قَلِيلٍ، وَهَذَا حَالُ بَعْضِ النَّاسِ عِنْدَمَا تُوَزَّعُ الغَنَائِمُ تَتْراً وَهُمْ عَنْهَا فِي غَفْلَةٍ وَنَومٍ، إِنهَا غَنَائِمُ الفَجْرِ تَفُوتُكَ أَيُّهَا الأَخُ النَّائِمُ، فَاسْمَعْ مَعِي لأَهَمِّهَا:

الْغَنِيمَةُ الْأُولَى: الحرِّيةُ الإِيجَابِيَّةُ وَالانْطِلاقَةُ الْحَيَوِيَّةُ: أَخِي النَّائِمُ فِي الفَجْرِ الشَّيْطَانُ يُقَيِّدُكَ، وَعَنْ إِجَابَةِ النِّدَاءِ يَرُدُّكَ وَيَصْرِفُكَ، وَبِالنَّومِ يُرَغِّبُكَ، فَإِنْ كُنْتَ ذَا عَزِيمَةٍ، وَتَنَبَّهْتَ وَتَوَضَّأْتَ وَبَادَرْتَ إِلَى أَدَاءِ الصَّلاةِ، كُنْتَ فِي كُلِّ خَطْوةٍ تُحطِّمُ قَيْداً مِنْ قُيُودِهِ، وَتَحِلُّ عُقُدةً مِنْ عُقَدِهِ، وَفِي الحَدِيثِ: «**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ مَكَانَ كُلِّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ**»(١)، ذُكِرَ فِي فَتْحِ البَارِي: (وَكَانَ تَخْصِيصُ الْقَفَا بِالْعَقْدِ مِنَ الشَّيْطَانِ لِكَوْنِهِ مَحَلَّ الْوَهْمِ وَمَجَالَ تَصَرُّفِهِ، وَهُوَ أَطْوَعُ الْقِوَى لِلشَّيْطَانِ وَأَسْرَعُهَا إِجَابَةً لِدَعْوَتِهِ).

إِنَّ افْتِتَاحَ يَوْمِكَ بِالذِّكْرِ وَالطَّاعَةِ يَجْعَلُكَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ، مُيَسَّرَ الْأَمْرِ، أَمَّا إِنْ فَاتَتْكَ تِلْكَ المنَّةُ فَأَنْتَ خَبِيثُ النَّفْسِ كَسْلانُ، مُكَدَّرُ الْخَاطِرِ، مُعَسَّرُ الأُمُورِ، فَهَلْ تَرْضَى - أَخِي الْحَبِيبَ - أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ المأْسُورَ المسْتَعْبَدَ الْكَسْلاَنَ؟ إِنَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٢)، ومسلم (١٠٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

انْتِصَارُ الذِّكْرِ عَلَى الغَفْلَةِ، وَالْعَزِيمَةِ عَلَى الضَّعْفِ، فَاحْرِصْ عَلَيْهَا وَلا تُفَرِّطْ بِهَا.

الْغَنِيمَةُ الثَّانِيَةُ: الْبِشَارَةُ النُّورَانِيَّةُ، وَالشَّهَادَةُ الملائِكِيَّةُ: الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَمَنْ مَشَى لِلْفَجرِ فِي الظَّلامِ كَانَ جَزَاؤُهُ النُّورُ التَّامُّ، وَفِي الحَدِيثِ: «**بَشِّرِ المَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إلى المساجد بِالنُّورِ التَّامِّ يَومَ الْقِيَامَةِ**»[١]، وَيَقُولُ- تَعَالَى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٢]، تَشْهَدُهُ الملائِكَةُ المقَرَّبُونَ، ثُمَّ يَشْهَدُونَ لَكَ بِهِ عِنْدَ الله، وَيَذْكُرُونَكَ بِأَدَاءِ الصَّلاةِ، وَيَمْدَحُونَكَ بِشُهُودِكَ الْجَمَاعَةَ، وَفِي الحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ ربهم- وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ- كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»[٣] .

ذَكَرَ الأَلُوسِيُّ: (وَلاَ يَخْفَى مَا فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ التَّرْغِيبِ وَالحَثِّ عَلَى الاعْتِنَاءِ بَأَمْرِ صَلاةِ الفَجْرِ؛ لأَنَّ الْعَبْدَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُشَيِّعٌ كِرَاماً، وَمُتَلَقٍّ كِرَاماً، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ يَتَحَدَّثُ بِهِ الرَاحِلُ وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِ النَّازِلُ)، فَاللهَ اللهَ فِي هَذِهِ البِشَارَةِ وَالشَّهَادَةِ، بَادِرْ إِلَيْهَا، وَلا تَتَأَخَّرْ عَنْ شُهُودِهَا.

الْغَنِيمَةُ الثَّالِثَةُ: شُهُودُ الْفَجْرِ يَمْنَحُكَ الْحَصَانَةَ الإِلَهِيَّةَ، فَفِي الحَدِيثِ: «**مَن صَلّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ**»[٤] أَيْ فِي حِفْظِهِ، وَهَذِهِ الْحَصَانَةُ تَصْرِفُ عَنْكَ الشُّرورَ، وَتُبْعِدُ عَنْكَ الأَذَى، وَتُسَلِّمُكَ مِنْ مَهَاوِي الرَّدَى، وَكَأَنَّكَ اسْتَجَرْتَ بِالله- تَعَالَى - فَأَجَارَكَ، فَإِذَا اعْتَدَى عَلَيْكَ مُعْتَدٍ فَاللهُ يُطَالِبُهُ بِحَقِّكَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣) عن بريدة، وصححه الألباني .

(٢) الإسراء : ٧٨ .

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم (٦٥٧)، عن جندب بن عبد الله – رضي الله عنهما .

وَيُخَاصِمُهُ، فَلا تَفُوتَنَّكَ هَذِهِ الغَنِيمَةُ، وَتَعَرَّضْ لَـهَا وَلا تُعْرِضْ عَنهَا.

الْغَنِيمَةُ الرَّابِعَةُ: صَمَّامُ أَمَانٍ مِنَ النِّيرَانِ، وَدَعْوَةٌ لِلْجِنَانِ، فَفِي الحَدِيثِ: «**لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**» يَعْنِي الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ[(١)]، وَبَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ- الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ- دخَلَ الْجَنةِ**»[(٢)]، وَهَاتَانِ الغَايَتَانِ مِنْ أَعْظَمِ غَايَاتِنَا الإِسْلامِيَّةِ، فَبَادِرْ أَخِي الْحَبِيبَ وَعضَّ عَلَى صَلاةِ الْفَجرِ بِالنَّواجِذِ كَي لا تَفُوتَ.

رَوَى مُسْلمٌ قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللهُ- تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ- عَزَّ وَجَلَّ**»[(٣)]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[(٤)].

وَهَذِهِ الرّؤيَةُ لِرَبنَا هِيَ الغَنِيمَةُ الْخَامِسَةُ: مِن غَنَائِمِ الفَجْرِ، قَالَ جَرِيرٌ البَجَلِيُّ ﷺ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمرِ لَيْلَةً- يَعْنِي الْبَدْرَ- فَقَالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[(٥)]، وَفِي قَوْلِهِ ﷺ: «**إِنِ اسْتطعتُم أَلا تُغلَبُوا**» إِشَارَةٌ إِلَى وُجُودِ مُثَبِّطَاتٍ وَعَوَائِقَ تُقْعِدُ المسْلِمَ عَنْ حُضُورِ صَلاةِ الفَجْرِ، عَلَيْنَا أَنْ نَتَغَلَّبَ عَلَيْهَا حَتَّى لا تُقَيِّدَنَا عَنْ حُضُورِهَا.

قِيَامُ اللَّيْلِ مَدْرَسَةُ التَّقْوَى، بِهِ تَحْيَا القُلُوبُ وَتَزْدَادُ إِشْرَاقاً، وَبِهِ تَسْمُو

---

(١) أخرجه مسلم (٦٣٤) عن عمارة بن رؤيبة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥) عن أبي موسى ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (١٨١) عن صهيب ﷺ.

(٤) القيامة: ٢٢، ٢٣.

(٥) ق: ٣٩.

النُّفُوسُ وَتَمْتَلِئُ أَشْوَاقاً، فِيهِ تَذْرِفُ الْعُيُونُ دُمُوعَ الْخَشْيَةِ، وَتَلْهَجُ الْأَلْسُنُ بِدَعَوَاتِ الإِنَابَةِ، لَكِنْ لَعَلَّكَ تَقُولُ كَمَا يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: لَمْ نَعُدْ نَقُومُ اللَّيلَ، وَلا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، ضَعُفَتْ عَنْهُ هِمَمُنَا، وَثَقُلَتْ عَنْهُ أَجْسَادُنَا، وَشَغَلَتْنَا عَنْهُ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا، وَمَعَ أَنَّنِي أَدْعُو نَفْسِي وَأَدْعُوكَ وَأَدْعُو كُلَّ مُسْلِمٍ أَلا يُفَوِّتَ قِيَامَ اللَّيْلِ وَلَو رَكْعَتَيْنِ؛ وَلَكِنَّنِي مَعَ ذَلِكَ أَسُوقُ لَكَ.

غَنِيمَةٌ سَادِسَةٌ عُظْمَى مِنْ غَنَائِمِ الفَجْرِ: إِذَا أَدَّيْتَ صَلاةَ الْفَجْرِ فَكَأَنَّمَا قُمْتَ اللَّيْلَ كُلَّهُ، نَعَمْ! كُلَّهُ لا بَعْضَهُ، فَفِي الحَدِيثِ: «**مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ**»[1]، أَمَا زِلْتَ تُفَكِّرُ أَخِي الْحَبِيبَ أَنْ تُفَرِّطَ بِهَا.

إِنَّهُ خَيْرٌ بَلا حَدٍّ، وَحَسَنَاتٌ بِلا عَدٍّ، وَعَطَاءٌ يَفُوقُ الوَصْفَ، وَهِبَاتٌ تَزِيدُ عَلَى الضِّعْفِ، تِلْكَ الغَنَائِمُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ- تَعَالَى- مَقْرُونَةً بِصَلاةِ الفَجْرِ، فَفِي رَكعَتَيْ سُنَّةِ الفَجْرِ غَنِيمَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ: «**فَإِذَا صَلَّيْتَ رَكْعَتَي الْفَجْرِ، ثُمَّ جَلَسْتَ تَذْكُرِ اللهَ- تَعَالَى- حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّيْتَ رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَكَ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ**»[2]، وَاسْمَعْ مَعِي لِهَذِهِ الغَنِيمَةِ الفَاضِلَةِ: «**مَنْ قَالَ فِي دُبُرِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَهُوَ ثَانٍ رِجْلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ، كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَكَانَ يَوْمَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي حِرْزٍ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَحُرِسَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَمْ يَنْبَغِ لِذَنْبٍ أَنْ يُدْرِكَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلا الشِّرْكَ بِاللهِ- تَعَالَى**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٦) عن أبي عمرة ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٥٨٦)، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٧٤)، وضعفه الألباني.

أَلم أَقُلْ لَكَ أَخِي النَّائِمَ: لَقَدْ فَاتَتْكَ الْغَنَائِمُ، وَأَيُّ غَنَائِم! فِيهَا حَياةُ القَلْبِ، وَسُمُو الرّوحِ، وَزَكَاةُ النَّفْسِ، لأَجلِ نُعَاسٍ يُداعِبُ جَفْنَيْكَ، أَوْ قَلِيلٍ مِنَ التَّعَبِ يُوْهِنُ جِسْمَكَ؟

فَهَلا عَزَمْتَ عَلَى الأَدَاءِ حَتَّى يَتَيَسَّرَ لَكَ الأَدَاءُ .

اللهُمَّ اجْعلْنَا مِمَّنْ تَرَاهُم حَيثُ أَمَرتهُم، وَلا تَجِدُهُم حَيثُ نَهَيْتَهُم.

المحاضرة (١٩)

سيد الأخلاق أو الخلق الصعب

رِحْلَتُنَا الأَثَرِيَّةُ المحْرَابِيَّةُ تَحُطُّ فِي (حَيِّ الصَّالِحِيَّةِ) مِنْ مُحَافَظَةِ العَاصِمَةِ، حَيْثُ ذَكَرْنَا سَابِقاً بَعْضاً مِنْ مَسَاجِدِهِ الأَثَرِيَّةِ، وَالْيَوْمَ نُكْمِلُ بَقِيَّةَ المسَاجِدِ الْقَدِيمَةِ فِيهِ، وَهِيَ:

١ـ مَسْجِدُ (نَايف) وَيَقَعُ دَاخِل قَصْرِ (نَايف) مِنَ الْـجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْقَصْرِ، وَأَسَّسَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الله الأَحْمَدُ الجابِرُ الصَّبَاحُ عَامَ (١٩٤٨م)، ثُمَّ جَدَّدَتْهُ وَزَارَةُ الأَوْقَافِ عَامَ (١٩٦٢م)، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الملا عَبْدُ الله بنُ عَبْدِ الَّلطِيفِ الْعُثْمانُ.

٢ـ مَسْجِدُ (الصَّالِحِيَّةِ) وَيَقَعُ فِي مَنْطِقَةِ الصَّالِحِيَّةِ خَلْفَ وَزَارَةِ الْخَارِجَيَّةِ سَابِقاً، وَكَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمَ (بَوَّابَةِ الجَهرَاءِ) وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ الآن اسْمَ (النَّفَيسِي) نِسْبَةً لِلسَّيدِ غَازِي فهد عبد العزيز النَّفِيسِي- الَّذِي جَدَّدَهُ وَأَعَادَ بِنَاءَهُ عَامَ (١٩٨٥م)، أَسَّسَتْهُ وَزَارَةُ الأَوْقَافِ عَامَ (١٩٥٥م).

٣ـ مَسْجِدُ (السّهُول) وَيَقَعُ قَدِيماً بِقُرْبِ آبَارِ الشَّامِيَّةِ، أَمَّا مَوْقِعُهُ حَدِيْثاً فَيَقَعُ فِي ضَاحِيَةِ عَبْدِ الله السَّالِم قِطْعَة (٤) عَلَى شَارِعِ (سَيّدِ عَلِي سَيِّدِ سُلَيْمان)، أَسَّسَهُ فِي أَوَائِلِ الخَمْسِينِيَّاتِ الْبَدُو القَاطِنونَ خَارِجَ سُورِ الشَّامِيَّةِ، ثُمَّ أَطْلَقَتْ عَلَيْهِ الأَوْقَافُ اسْمَ (البعَيجَان) وَفِي عَامِ (١٩٥١م) أَعَادَ بِنَاءَهُ السَّيدُ سُليمَانُ السَّهْلِي، كَمَا أَعَادَ بِنَاءَهُ أَيْضاً السَّيدُ عَلِيُّ يُوسُف الرَّشِيْدُ عَامَ (١٩٧٤م)، وَمِن أَشْهَرِ أَئِمتِهِ فِي أَوَائِلِ الْخَمْسِينيَّاتِ الملا مُحَمَّدُ عَلِي الفَارِسُ والشيخ محمد بن سليمان عبد الله الجراح.

بَعْدَ مُعَايَنَةِ الآثَارِ وَالْـحَدِيثِ عَنِ الأَئِمَّةِ الْكِبَار – رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى – تَعَالَوا

لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعنوان: (الْـخُلُق الصَّعْب).

الإِسْلامُ مَدْرَسَةُ الأَخْلاَقِ، وَالحِلمُ سَيِّدُ هَذِهِ الأَخْلاَقِ، وَخَيْرُ صِفَةِ الرَّجُلِ الْـحَلِيْمُ، وَهُوَ الَّذِي يَضْبِطُ نَفْسَهُ عِنْدَ هَيَجَانِ غَضَبِهِ، وَيَكْبَحُ قِوَى الشَّرِّ عِنْدَ غَلَبَةِ طَبْعِهِ الْبَشَرِيِّ؛ امْتِثَالاً لِقَوْلِ الله- تَعَالَى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[1] كَمَا ذَكَرَ الماورْدِيُّ، وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ مَكَانَةَ الْـحَلِيمِ عِنْدَ رَبِّهِ فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْـحَلِيمَ الْـحَيِيّ**»[2]، وَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: (أَوَّلُ عِوَضِ الحَلِيمِ عَنْ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنْصَارُهُ)، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الحِلْمِ إِلا سَلامَةُ الْعِرْضِ وَرَاحَةُ الْـجَسَدِ وَاجْتِلابُ الْـحَمْدِ لَكَفَى بَاعِثاً عَلَى التَّخَلُّقِ بِهِ). قَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: مَنْ غَرَسَ شَجَرَةَ الحِلْمِ اجْتَنَى ثَمَرَةَ السِّلْمِ. ولله دَرُّ الشَّاعِرِ إِذْ يَقُولُ:

أُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ جَهْدِي ... وَأَكْرَهُ أَنْ أَعِيبَ وَأَنْ أُعَابَا

وَأَصْفَحُ عَنْ سِبَابِ النَّاسِ حِلْمًا ... وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوَى السِّبَابَا

الفرق بين الحلم والذل:

لا بُدَّ مِنَ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الحِلْمِ وَالذُّلِّ، فَإِذَا سَمِعْتَ مَا يُغْضِبُكَ فَغَضِبْتَ وَضَبَطْتَ نَفْسَكَ عَنْ تَصَرُّفٍ طَائِشٍ عِنْدَ هَيَجَانِ الْغَضَبِ فَأَنْتَ حَلِيمٌ، أَمَّا إِذَا لَمْ تَغْضَبْ أَصْلاً لِسَمَاعِ مَا يُغْضِبُ، فَذَلِكَ ذُلُّ النَّفْسِ وَقِلَّةُ الحَمِيَّةِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ: (مَنِ اسْتُغْضِبَ فَلَمْ يَغْضَبْ فَهُوَ حِمَارٌ).

وَقَالَ الشَّاعِرُ الْـحَكِيمُ:

مَنْ يَدَّعِ الْـحِلْمَ أَغْضِبْهُ لِتَعْرِفَهُ ... لا يُعْرَفُ الْـحِلْمُ إِلا سَاعَةَ الْغَضَبِ

وَلَيْسَ هَذَا الْقَولُ إِغْرَاءً بِالْغَضَبِ وَالانْقِيَادِ إِلَيْهِ، بَلْ دَعْوَةٌ إِلَى التَّوَازُنِ بَيْنَ

(١) آل عمران: ١٣٤.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ١٩٦) (١٠٤٦٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧١١).

الحِلْمِ وَالْغَضَبِ، عَلَى أَنْ يَكُونَ الحِلْمُ قَائِداً لِلْغَضَبِ.

وِللحِلْمِ أَسْبَابٌ تَبْعَثُ عَلَى ضَبْطِ النَّفْسِ، أَهَمُّهَا:

أَولاً: الرَّحْمَةُ بِالجُهَّالِ: فَالرَّحْمَةُ بِالنَّاسِ مَطْلُوبَةٌ، وَأَفْضَلُهَا الرَّحْمَةُ بَالجَاهِلِ حَتَّى يَتَعلَّمَ. قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ لِرَجُلٍ أَسْمَعَهُ كَلامًا: (يَا هَذَا لا تُغْرِقَنَّ فِي سَبِّنَا، وَدَعْ لِلصُّلْحِ مَوْضِعًا، فَإِنَّا لا نُكَافِئُ مَنْ عَصَى اللهَ فِينَا بِأَكْثَرَ مِنْ أَنْ نُطِيعَ اللهَ- عَزَّ وَجَلَّ- فِيهِ)، وَشَتَمَ رَجُلٌ الشَّعْبِيَّ فَقَالَ: (إِنْ كُنْتُ كَمَا قُلْتَ فَغَفَرَ اللهُ لِي، وَإِنْ لَمْ أَكُنْ كَمَا قُلْتَ فَغَفَرَ اللهُ لَكَ).

وَقَسَّمَ مُعَاوِيَةُ ﷺ قِطَافًا، فَأَعْطَى شَيْخًا مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ قَطِيفَةً فَلَمْ تُعْجِبْهُ، فَحَلَفَ أَنْ يَضْرِبَ بِهَا رَأْسَ مُعَاوِيَةَ، فَأَتَاهُ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: (أَوْفِ بِنَذْرِك، وَلْيَرْفُقِ الشَّيْخُ بِالشَّيْخِ).

ثانياً: الْقُدْرَةُ عَلَى الانْتِصَارِ: وَذَلِكَ مِنْ سَعَةِ الصَّدْرِ، قَالَ عَلِيٌّ- كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: إِذَا قَدرْت عَلَى عَدُوِّك فَاجْعَلْ الْعَفْوَ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

ثالثاً: التَّرَفُّعُ عَن مُجَارَاةِ المخطِئ: وَالاسْتِهَانَةُ بِهِ لا عَنْ كِبْرٍ وَإِعْجَابٍ بِالنَّفْسِ، إِنَّمَا هُو نَأْيٌ عَن مُنَافِسٍ لا يُسَاوِيكَ قَدْراً، وَذَلِكَ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ، وَقد أَكْثَرَ رَجُلٌ مِنْ سَبِّ الْأَحْنَفِ وَهُوَ لَا يُجِيبُهُ، فَقَالَ: وَالله مَا مَنَعَهُ مِنْ جَوَابِي إلا هَوَانِي عَلَيْهِ، فَعَدَّ النَّاسُ ذَلِكَ مِنْ مُسْتَحْسَنِ الْكِبْرِ. وَمِثْلُهُ ابنُ هُبَيْرَةَ، فَقَدْ أَسْمَعَهُ رَجلٌ مَا سَاءَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: إِيَّاكَ أَعَنِي، فَقَالَ لَهُ: وَعَنْك أُعْرِضُ.

رابعاً : الاسْتِحْيَاءُ مِنْ جَزَاءِ الجوَابِ: وَهَذَا يَكُونُ مِنْ صِيَانَةِ النَّفْسِ وَكَمَالِ المُروءَةِ. قَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: مَا أَفْحَشَ حَلِيمٌ.

خَامِساً: التَّفَضُّلُ عَلَى المسِيءِ وَتَأَلُّفُهُ وَاسْتِيعَابُهُ: وسيرة الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ

مَعَ الأَعْرَابِيِّ الَّذِي أَعْطَاهُ الرَّسُولُ ﷺ فَلَمْ يَرْضَ لِزَعْمِهِ أَنَّهُ قَلِيلٌ، فَغَضِبَ الصَّحَابَةُ مِنْهُ، لَكِنَّ النَّبيَّ ﷺ أَخَذَهُ إِلَى بَيتِهِ وَأَجْزَلَ لَهُ حَتَّى رَضِيَ، وَأَمرَهُ أَن يُعلِنَ أَمامَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ رَضِيَ وَقَرَّتْ عَينُهُ، فَبعدَ أَنْ قَالَ: مَا أَوفيْتَ وَمَا أَجْزيْتَ، قَالَ: لَقدْ أَجْزيْتَ وَأَوفيْتَ، فَجَزاكَ اللهُ مِنْ كَريمٍ خَيْراً.

وَهَذَا الإِسْكَندرُ قِيلَ لَهُ: إِنَّ فُلاناً وَفُلاناً يَنتَقِصَانِكَ وَيَثْلِبَانِكَ، فَلَو عَاقَبْتَهُما؟ فَقَالَ: هُمَا بَعْدَ الْعُقُوبَةِ أَعْذَرُ فِي تَنْقِيصِي وَثَلْبِي، فَكَانَ هَذَا تَفضُّلاً مِنهُ وَتَألفاً.

وَقَدْ حُكِيَ عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا عَادَانِي أَحَدٌ قَطُّ إلا أَخَذْتُ فِي أَمْرِهِ بِإِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِنْ كَانَ أَعْلَى مِنِّي عَرَفْتُ لَهُ قَدْرَهُ، وَإِنْ كَانَ دُونِي رَفَعْتُ قَدْرِي عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ نَظِيرِي تَفَضَّلْتُ عَلَيْهِ.

سَادِساً : قَطْعُ دَابِرِ الْـخِصَامِ، وَهَذَا مِنَ الْـحَزْمِ، كَمَا حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِضِرَارِ بْنِ الْقَعْقَاعِ: وَاللهِ لَوْ قُلْتَ وَاحِدَةً لَسَمِعْتَ عَشْرًا، فَقَالَ لَهُ ضِرَارٌ: وَاللهِ لَوْ قُلْتَ عَشْرًا لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَةً.

وَقَالَ أَحَدُ الشّعرَاءِ:

وَفِي الْـحِلْمِ رَدْعٌ لِلسَّفِيهِ عَنِ الأَذَى ... وَفِي الْـخَرْقِ إِغْرَاءٌ فَلا تَكُ أَخْرَقَا

وَقَالَ غَيْرُهُ:

قُلْ مَا بَدَا لَكَ مِنْ زُورٍ وَمِن كَذِبٍ ... حِلمِي أَصمُّ وَأُذْنِي غَيرُ صَمّاءِ

سابعاً: الرِّعَايَةُ لِيَدٍ سَالِفَةٍ، وَهَذَا مِنَ الْوَفَاءِ وَحُسْنِ الْعَهْدِ، وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْثُورِ الْـحِكَمِ: أَكْرَمُ الشِّيَمِ أَرْعَاهَا لِلذِّمَمِ.

ثامناً : المَكْرُ وَتَوَقُّعُ الْفُرَصِ الْـخَلْفِيَّةِ، وَهَذَا مِنَ الدَّهَاءِ. وَقَدْ قِيلَ: مَنْ ظَهَرَ غَضَبُهُ، قَلَّ كَيْدُهُ. قَالَ أَحَدُ الشُّعَرَاءِ:

وَلَلْكَفُّ عَنْ شَتمِ اللَّئِيمِ تَكَرُّماً أَضَرُّ لَـهُ مِن شَتْمِهِ حِيـنَ يُشْتَـمُ

الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، فَتَعَلَّمْ كَيْفَ تَتَلَقَّى ثَوْرَةَ الْغَضَبِ بِحِكْمَةِ الحِلْمِ.

بَعْضَ الأُمُورِ الَتِي يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى الْـحِلْمِ:

أَوَّلاً: اذْكُـرِ اللهَ- عَـزَّ وَجَـلَّ: قَـالَ تَعَـالَى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[1]، قَـالَ عِكْرِمَةُ: يَعْنِي إِذَا غَضِبْتَ.

وَذُكِرَ أَنَّ فِي التَّوْرَاةِ مَكْتُوبًا: «**يَا ابْنَ آدَمَ اذْكُرْنِي حِينَ تَغْضَبُ، أَذْكُرْكَ حِـينَ أَغْضَبُ**».

ثَانِياً: غَيِّرْ هَيْئَتَكَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ: وَفِي الحَدِيثِ: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلا فَلْيَضْـطَجِعْ**»[2] ، فالقَـائِمُ مُتَهيِـئٌ للانْتِقام وَأَقْرَبُ إِلَيْهِ، وَالجَالِسُ وَالمضطَجِعُ أَبْعَدُ عَنْهُ، وَهَذَا مَـا فَعَلَـهُ مُعَاوِيَـةُ حِينَ غَضِبَ وَهُوَ يَخطبُ، فَنَزَلَ وَتَوَضَّأَ، ثمّ عَادَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ عَلِمَ مِـنَ النَّبِـيِّ ﷺ أَنَّ الْغَضَبَ نَارٌ يُطْفِئُهُ الماءُ.

ثَالِثاً: تَذَكَّرْ مَا يَئُولُ إِلَيْهِ الْغَضَبُ مِنَ النَّدَمِ وَمَذَمَّةِ الانْتِقَامِ: فَكَمْ مِنْ غَضَبٍ أَوْقَعَ صَاحِبَه فِي المعْصِـيَةِ! فَهُنَـاكَ مَـن جَـرَّهُ الْغَضَـبُ إِلَى الْقَتْـلِ، وَالآخَـرَ إِلَى الطَّلاقِ، وَغَيرِ ذَلكَ مِنَ المهَالِكِ، وَلا يَغِيْبُ عَنْكمْ أَيُّهَا الحَرِيصُونَ عَلَى أَنْفُسِكُم أَنَّ بَعْضَ الأَمْرَاضِ الَّتِي تُصِيبُ الْـجَسَدَ، سَـبَبُهَا شِـدَّةُ الانْفِعَـالِ وَالْغَضَـبِ، كَتَصَلُّبِ الشَّرَايِينِ، وَجَلْطَةِ الْقَلْبِ، وَالسُّكَّرِ. وَكَتَبَ إِبْرُوِيزُ إِلَى ابْنِـهِ شِـيرَوَيْهِ: احْتَرِسْ فِي غَضَبِك مِنْ قَوْلِك أَنْ تُخْطِئَ، وَمِنْ لَوْنِك أَنْ يَتَغَيَّرَ، وَمِنْ جَسَدِك أَنْ يَخِفَّ، فَإِنَّ المُلُوكَ تُعَاقِبُ قُدْرَةً، وَتَعْفُو حِلْمًا.

وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: إِيَّاكَ وَعِزَّةَ الْغَضَبِ، فَإِنَّهَا تُفْضِي إِلَى ذُلِّ الْعُذْرِ.

---

(١) الكهف : ٢٤.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٨٢)، وصححه الألباني.

رَابعاً: انْتَبِهْ سَرِيعاً إِلَى ثَوَابِ الْعَفْوِ، وَحُسْنِ الصَّفْحِ، فاقْهَرْ نَفْسَكَ رَغبَةً فِي الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ، واذْكُرِ انْعِطَافَ الْقُلُوبِ عَلَيْكَ، وَمَيْلَ النُّفُوسِ إِلَيْكَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا زاد الله عبداً بِعَفْوٍ إلا عِزًّا»[1]، فَاعْفُوا يُعِزَّكُمُ اللهُ.

خِتَاماً: هَذِهِ بِشَارَةٌ: أَخْبَرَ عَنهَا النَّبِيُّ ﷺ لِمَنْ كظَمَ غَيْظَهُ وَكَبَحَهُ وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ بِحِلْمِهِ، فَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ كَظَمَ غيظاً، وهوَ يسْتطيعُ أَنْ يُنفِذَهُ، دعاهُ اللهُ يَومَ القيامةِ على رُؤوسِ الخَلائِقِ، حتى يُخيِّرَهُ أيَّ الحورِ شاء»[2].

اللَّهُمَّ اهْدِنا إِلَى أَحْسَنِ الأَخلاقِ، فإِنَّهُ لا يهْدِي إِلَى أَحْسَنِها إِلا أَنْتَ، واصْرِفْ عنَّا سَيِّئَها، فإِنَّهُ لا يصرِفُ سَيِّئَها إِلا أَنْتَ.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧) عن معاذ رضي الله عنه، وحسنه الألباني.

المحاضرة (٢٠)

أَبِي وَأَبُوكَ.. الإِسْلامُ

رِحْلَتُنَا الأَثَرِيَّةُ المحْرَابِيَةُ تَحُطُّ بِنَا مَرَةً أُخْرَى فِي جَزِيرَةِ (فَيْلَكَا) مِنْ مُحَافَظَةِ (العَاصِمَةِ) لِنَسْتَكْمِلَ مَا بَقِيَ مِنْ مَسَاجِدِهَا الأَثَرِيَةِ، وَمِنْ أَهَمِّهَا مَا يَلِي:

١ـ **مَسْجِدُ (الطَّاهِرِ)** يَقَعُ فِي الجُزْءِ الشَّمَالِيِّ مِنَ الْـجَزِيرَةِ بِالقُرْبِ مِنْ سَاحِلِ البَحْرِ، أَسَّسَهُ السَيِّدُ (أَحْمَدُ مَالَ الله) عَامَ (١٩١١م)، وَقَدْ جَدَّدَ بِنَاءَهُ القَدِيمَ أَولادُ طَاهِر بْنِ عَبْدِ الله، ثُمَّ أَعَادَتْ الأَوْقَافُ بِنَاءَهُ عَامَ (١٩٥٦م)، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الملا عَبْدُ القَادِرِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ السَّرْحَان.

٢ـ **مَسْجِدُ (آل شعيب)** يَقَعُ فِي وَسَطِ الْـجَزِيرَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَبِقُرْبِهِ كَانَ كُتَّابُ الملا عَبْدِ الرَّحمنِ الملا فِي فَرِيجِ شعيب، واخْتُلِفَ فيمن مَنْ أَسَّسَهُ، فَذُكِرَ أَنَّ المؤَسِّسَ مُحَمَّدُ شُعيب أَو شُعيب بنُ عَلي آل شُعيب عَامَ (١٨٧٣م)، وَقَدْ أَعَادَتِ الأَوْقَافُ بِنَاءَهُ مِنْ جَدِيدٍ عَامَ (١٩٥٦م)، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الملا عَبْدُ القَادِرِ السَّرحانُ – الْـجَدُّ- لأَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِينَ سَنَةً.

٣ـ **مَسْجِدُ (فَيْلَكَا)** يَقَعُ فِي المنْطَقَةِ الْـجَنُوبِيَّة قُرْبَ مَسَاكِنِ الشُّيوخ، أَسَّسَهُ الشَّيْخُ جَابرُ الصُّبَاحُ عَامَ (١٨٩٧م)، وَلا تَزَالُ آثَارُهُ بَاقِيَةً إِلَى اليَوْمِ، وَقَدْ شَارَكَ مَعَهُ الأَهَالِي تَطَوُّعاً فِي بِنَائِهِ، وَمِنْ أَشْهَرِ مَنْ صَلَّى فِيهِ الملا عَبْدُ الرَّحْمنِ البَهْبَهِيُّ.

هَذِهِ المسَاجِدُ الأَثَرِيَّةُ كَانَتْ وَمَازَالَتْ جَامِعَاتٍ يُدَرِّسُ فِيهَا أَئِمَّةٌ كِبَارٌ، فتعَالَوا لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعنوان: (أَبِي وَأَبُوكَ الإِسلامُ).

النَّسَبُ الْعَرِيقُ نِعْمَةٌ، وَالْعَائِلَةُ الْكَرِيمَةُ نِعْمَةٌ، وَحِفْظُ النَّسَبِ وَالْـحَسَبِ مَنْقَبَةٌ، وَتَكَاتُفُ أَبْنَاءِ الْقَبِيلَةِ الْوَاحِدَةِ عَلَى الـخَيْرِ وَالمنَاصَرَةِ مَكْرُمَةٌ مَحْمُودَةٌ،

وَكُلُّ ذَلِكَ نِعْمَةٌ تَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ لا الفَخْـرَ وَالتَكَـبُّرَ، فَمِـنَ القُـبْحِ وَالجَهْـلِ أَنْ يُجْعَلَ النَّسَبُ مِعْياراً لِلتَّفَاضُلِ، وَسَبَباً لِلتَّعَالِي وَالتَّكَبُّرِ عَلَى الآخَرِينَ أَوْ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْعِبَـادِ، وَتَصْـنِيفِهِمُ إِلَى طَبَقَـاتٍ وَفِئَـاتٍ تَفْصِـلُ بَيْـنَهُمْ حَـوَاجِزُ النَّسَـبِ وَعَوازِلُ الْـحَسَبِ، فَلَيْسَ مَحْمُوداً للإِنْسَانِ أَنْ يَفْخَرَ عَـلَى غَـيْرِهِ بِـمَا كَـانَ مِـنْ كِسْبِ يَدِهِ، فَمَا بَالُكَ بِمَا لَيْسَ مِنْ كِسْبِهِ وَمَا لا جُهْدَ لَـهُ فِيـهِ؟! فَـمَا مِـنْ مَولُـودٍ اخْتَارَ نَسَبَهُ، وَلا مِنْ إِنْسَانٍ صَنَعَ حَسَبَهُ.

وإِنَّ وَاقِعَنَا اليَوْمَ يَشْهَدُ عَصَـبِيَّةً وَقَبَلِيَّـةً أَضْـحَتْ تَصْـنِيفًا اجْتِمَاعِيـاً قَاسِـياً يُؤْخَذُ بِهِ أَكْثَرَ مِنَ العَدالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الزَّوَاجِ وَالعَمَلِ وَالتَعْلِـيم، وَكَثِـيراً مَـا نَسْمَعُ (**اعْرِفْ مَنْ تُكَلِّمْ، وَاعْرِفِ ابْنَ مَنْ أَنَا؟! وَأَنْتَ شَكو عَشَـان اتكلمنـي؟ أَنَا فُلانُ بْنُ فُلانٍ**).. وَغَيْرُهَـا كَثِـيرٌ مِـنْ دَعَـوى الجَاهِلِيَّـةِ المُنْتِنَـةِ، وَهَـذِهِ هِـيَ العَصَـبيَّةُ المفسِـدَةُ: (التّفَـاخرُ وَالتَّطَـاوُلُ بِالحَسَـبِ وَالـدَّعوَةِ لِنُصرَـةِ القَبيلَـةِ وَالفَزعَةِ عَلَى مَنْ عَادَهُم، ظَالـمِينَ كَانُوا أَوْ مَظْلُومِينَ)، وَفِي الْـحَديثِ: «**ثَلاثٌ مِنْ عَمَلِ أَهْـلِ الجاهِلِيَّـةِ لا يَـتْرُكُهُنَّ أَهْـلُ الإِسْـلَامِ، .. وَذَكَـرَ مِنهَـا: دَعْـوَى الْـجَاهِلِيَّةِ يَا آلَ فُلَانٍ، يَا آلَ فُلَانٍ، يَا آلَ فُلَانٍ**»[1].

وَتَتنوعُ هَذِهِ الدّعوَاتُ الْـجَاهِلِيَّةُ إِلَى أَنْوَاعٍ مُتعدِّدَةٍ، وَمِنَ الصّـعُوبَةِ بِمَكَـانٍ حَصْرُ أَنواعِها، وَمِن أَهَمِّهَا عَصَبيَّةُ (الْـجِنسِ أَو الّلونِ أَوِ الّلغَـةِ أَوِ المـذهَبِ أَوِ الوَطَنِ أَوِ الْـحِزبِ أَوِ القَومِ أَوِ الْـجِنسيَّةِ)، وَمِن أَهمِّ مَا يَدفَعُ عَلَى تَبَنِّـي هَـذِهِ المنقَصَةِ المنتِنَةِ الْـجَهلُ بِأُمُورِ الدِّينِ وَأَخلاقِهِ وَآدَابِهِ؛ مِمَّا يَجُرُّ إِلى ضَعفِ الـوَازِعِ الدّينِيِّ، وَينتجُ عَنهُ نِسيانُ أَنَّ التَّفاضلَ بِالتّقوَى، قَالَ- تَعالَى- مُسَـاوِياً لِلنّـاسِ بِأَســنَانِ المشْــطِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[2]،

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣١٤١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٥٢٥).

(٢) الحجرات : ١٣.

فَاللهُ- سَبحانَهُ- يَقولُ: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ وَلَيسَ لِتفَاخَرُوا وَتَعاظَمُوا، وَالميزَانُ الّذِي لا يَختَلُّ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1]؟!، وَفِي الْحَديثِ: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ولا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»[2].

آفات العصبية:

إِنَّ تَطَاولَنَا بِالأَنسَابِ وتَعَصُّبَنَا لِلأَحْسَابِ مَرضٌ فَتَّاكٌ، يُفَرِّقُ الجَمَاعَةَ، وَيُوجِدُ الْبَغضَاءَ وَالْعَدَاوَةَ، وَيُخْرِجُ الإِنسَانَ مِنْ أَصلِهِ الْكَبِيرِ أُخُوَّةِ الإِيمَانِ، إِلَى أَمرٍ حَقيرٍ ذَلِيلٍ أَنَانيَّةِ العَصَبيَّةِ، وَيَدفَعُ المرءَ لِلافْتخَارِ بِالكَفَرةِ مِن آبائِهِ وَأجدَادِهِ، وَفِي مُسنَدِ أَحْمَدَ بِسنَدٍ صَحِيحٍ: «**أَنَّ رَجُلَيْنِ مِن بَنِي إِسرَائِيلَ انْتَسبَا، فَقَالَ الأولُ: أَنَا فُلانٌ بْنُ فُلانٍ، حَتَّى بَلَغَ تِسْعَةَ آبَاءٍ مِنَ المشْرِكِينَ. وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا فُلانٌ بْنُ فُلانٍ بْنُ الإِسْلامِ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى- عَلَيْهِ السَّلامُ: أَمَّا الَّذِي انْتَسَبَ إِلَى تِسْعَةِ آبَاءٍ فَهُو عَاشِرُهُمْ، وَأَمَّا الَّذِي انْتَسَبَ إِلَى أَبَوَيْهِ فَهُوَ ثَالِثُهُم بِالجنَّةِ**»[3]، وَهَذَا يُذَكِّرُنَا بِسُلَيمَانَ الخَيْرِ ﷺ لَـمَّا سُئِلَ عَن نَسَبِهِ قَالَ: (أَنَا ابْنُ الإِسلامِ)، فَلَمَّا بَلغَ عُمرَ مَقولَتُهُ هَذِهِ بَكَى.

يَقُولُ الشَّاعرُ:

أَبِـي الإِسْلامُ لا أَبَ لـي سِوَاهُ إِذَا انْتَسبُوا لِقَيسٍ أَوْ تَـمِيـم

وَيقُولُ سَيدُ قُطْبٍ: جِنسيَّةُ المَسلْمِ عَقِيدتُهُ. وَمِنْ حِكَمِ ما قِيل: (يَا أَخِـي فِي الشَّرقِ أَوْ فِي الـمغربِ، أَنَا مِنْـكَ، أَنـتَ مِنّـي، لا تَسَـلْ عَـنْ عُنصُرِي.. عَـن نَسبِي.. إِنَّهُ الإِسلامُ أُمِّي وَأَبِي).

إِنَّنَا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ تَتَكَافَأُ دِماؤُنَا، وَيَسْعَى بِذِمَّتِنَا أَدْنَانَا، وَالْعَدَالَةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ وَالمسَاوَةُ بينَ النَّاسِ أَسَاسُ دِينِنَا الحَنِيفِ، وَالأُخُوَّةُ الإِيمَانِيةُ أَقوَى رَوَابطِنَا، فَهَا

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٧٢).

هُوَ رَسولُنا ﷺ يُساوِي بَينَ عَبيدِ مَكَّةَ وَأَشرَافِهَا، وَأَغنِيائِها وَفُقرَائِها، وَيُؤاخِي بَينَ المهاجِرينَ وَالأَنصارِ، وَبَينَ العَربِ وَمَواليهِم مِنَ الأَحبَاشِ وَالْفُرسِ وَالرُّوم، وَدُرُوسُ السّيرَةِ النّبويةِ فِي ذَلِكَ كَثِيرةٌ، وَخَيرُ شَاهِدٍ عَلَى ذَلِكَ قَولُهُ ﷺ لِسلمَانَ: «**سَلمَانُ مِنّا آلَ الْبَيتِ**»[1]، وَفي الحَديثِ: «**مَثَلُ المؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[2].

وَيُمكِنُ أَنْ نُجمِلَ مُحارَبَةَ الإِسلام لِلعَصَبيَّة القَبليَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ فِيمَا يَلِي:

أَوْلاً: إِلْغَاءُ الْعَصَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْهَا: وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ ذِلِكَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ والنسائي: «**مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ** - أَيْ لا يَعْرِفُ فِيْهَا الحَقَّ أَو الْبَاطِلَ - **يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**»[3]، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: كَسَعَ - ضرب - رَجُلٌ مِنَ المهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاجْتَمَعَ قَوْمُ ذَا وَقَوْمُ ذَا، وَقَالَ هَؤُلاءِ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، وَقَالَ هَؤُلاءِ: يَا لَلْأَنْصَارِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**أَلا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ، دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»[4].

ثَانِياً: المسَاوَاةُ بَيْنَ النَّاسِ وَعَدَمُ الاعْتِرَافِ بِالامْتِيَازَاتِ الطَبَقِيَّةِ: أَو النُّفُوذِ الموْرُوثِ؛ فَأَسَاسُ التَفَاضُلِ التَّقْوى وَالعَمَلُ الصَّالِحُ، وَمِيزَانُ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[5]، وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ قال: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّام التَّشْرِيقِ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلا لأَحْمَرَ**

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦٥٤١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٧٠١٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير – رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٨)، والنسائي (٤١٢٥)، واللفظ له، عن أبي ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما.

(٥) الحجرات : ١٣.

عَلَى أَسْوَدَ وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى»[١].

ثَالِثاً: النَّهْيُ عَنِ التَّفَاخُرِ وَالتَّعَاظُمِ بِالآبَاءِ وَالأَجْدَادِ: وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ عُظْمَى يَجِبُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَعُوهَا، كَوْنُ الْبَشَرِ جَمِيعاً مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ، أَفْضَلُهُمْ أَأْدَبُهُمْ. يَقُولُ الشَّاعِرُ:

كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاكْتَسِبْ ... أَدَباً يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمْ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجُعَلِ**- الخنفساء- **الَّذِي يُدَهْدِهُ**- يدحرجه- **الْخِرَاءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا**- أي كبرها ونخوتها- **بِالآبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ**»[٢]، فَتَرَى الْبَشَرَ عَلَى مُسْتَوَى الْأَفْرَادِ وَالْأُسَرِ وَالمجْتَمَعَاتِ يَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ الْأَفْضَلُ، وَيَرُدُّ هَذَا الْفَضْلَ إِلَىَ نَسَبِهِ فَقَطْ، مُتَنَاسِياً قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[٣]، وَمِنْ حِكَمِ الشُّعَرَاءِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

لَيْسَ الْفَتَى مَنْ قَالَ كَانَ أَبِي ... وَلَكِن الْفَتَى مَنْ قَالَ هَائَنَذَا

وَهَذَا يَدْعُونَا إِلَى أَلا نَقِفَ عِنْدَ حَضَارَةِ الأَقْدَمِينَ مِنْ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا مُتَفَاخِرِينَ مُتَغَنِينَ فَقَطْ، بَلْ أَنْ نَسِيرَ كَسَيْرِهِمْ نَحْوَ الإِنْجَازِ وَالإِبْدَاعِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ عَصَبِيَّةٍ عَمْيَاءَ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ دَعْوَةٍ قَبَلِيَّةٍ جَهْلاءَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) عن أبي نضرة ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٩٦٣) عن جابر ﷺ.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٥٥)، وحسنه الألباني.
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، عن أبي هريرة ﷺ.

المحاضرة (٢١)

الرَّوَاحُ خماصاً وَالْعَوْدُ بطَانًا

رِحْلَتُنَا الْأَثَرِيَّةُ المحْرَابِيَّةُ تَحُطُّ بِنَا مَرَّةً ثَانِيَةً فِي (مُحَافَظَةِ حَوَلِي وَالنُّقْرَةِ)، وَمِنْ مَسَاجِدِهَا الْأَثَرِيَّةِ زِيَادَةً عَلَى مَا ذَكَرْنَا سَابِقاً مَا يَلِي:

١ـ مَسْجِدُ (عَبْد الْحَمِيد الصَّانِعُ)، وَيَقَعُ فِي حَولِي الْقِبْلِي قُرْبَ مَدْرَسَةٍ كَانَتْ هُنَاكَ، وَمَوْقِعُهُ الآنَ فِي مَكَانِهِ الْقَدِيم عَلَى شَارِعِ تُونس، أَسَّسَهُ الْأَدِيبُ السَّيِّدُ عَبْدُ الْحَمِيْدِ الصَّانِعُ عَامَ (١٩٥٠م) بِالاشْتِرَاكِ مَعَ دَائِرَةِ الأَوْقَافِ.

٢ـ مَسْجِدُ (الرشِيد) وَيَقَعُ فِي النُّقْرَةِ قِطعَة (١٢) شَارِع (٣٤)، أَسَّسَهُ السَّيدُ مُحَمَدُ يُوسُفُ الرشِيدُ الْبَدْرُ عَامَ (١٩٥٠م)، وَقَدْ جَدَّدْتَهُ الأَوْقَافُ عَامَ (١٩٥٤م)، وَفِي عَامِ (٢٠٠٢م) جَدَّدْتَهُ الأَوْقَافُ مَرَّةً أُخْرَى فِي مَكَانِهِ الْقَدِيم.

٣ـ مَسْجِدُ (الْقَطَّان وَالمشَارِي) وَمَوْقِعُهُ الْيَوْمَ عَلَى شَارِعِ المثَنَّى، أَسَّسَه مْشَارِي الْعَبْدُ الْعَزِيز، وَمُحَمَّد الْقَطَّان تَحْتَ إِشْرَافِ الْأَوْقَافِ، وَقَدْ جَدَّدَتْهُ الْأَوْقَافُ عَامَ (١٩٥٧م).

٤ـ مَسْجِدُ (حَمَد الْبَرَاك ـ والمسمى مسجد الطوَارِي) وَتَقَعُ نُقْطَةُ الطَّوَارِئِ فِي جَنُوبِ مَنْطَقَةِ النُّقْرَةِ، أَمَّا الْيَوْمَ فَيَقَعُ مَسْجِدُنَا فِي مَكَانِهِ الْقَدِيمِ فِي قِطْعَة (١٠) عَلَى شَارِعِ عَبْدِ اللَّطِيفِ الْعُثْمَانِ، أَسَّسَهُ حَمَدُ نَاصِرُ الْبَرَاكُ، ثُمَّ جَدَّدَتْهُ الْأَوْقَافُ عَامَ (١٩٥٦م).

٥ـ مَسْجِدُ (مُشْرِف) الْوَاقِعُ فِي قَصْرِ مُشْرِفٍ، أَسَّسَهُ فِي الخَمْسِيْنِيَّاتِ الشَّيْخُ عَبْدُ الله المبَارَكُ الصُّبَاحُ، وَلا زَالَ هَذَا المسْجِدُ فِي مَكَانِهِ فِي قَصْرِ مُشْرِفٍ.

إِنَّهَا مَسَاجِدُنَا كَتَبَتْ آثَارَنَا وَصَلَّى بِهَا أَعْلَامُنَا وَأَئِمَّتُنَا، وَبَعْدَ هَذَا الموْجَزِ عَنْ تَارِيخِهَا تَعَالَوْا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالْأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا

قُلُوْبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَوْمَ بِعُنْوَانِ: (**الرَّوَاحُ خِمَاصاً وَالْعَوْدُ بِطَاناً**).

المالُ قِوَامُ الْـحَيَاةِ وَزِينَتُهَا، وَكُلُّنَا فُطِرْنَا عَلَى طَلَبِ رِزْقِنَا، مَعْ تَكَفُّلِ المـوْلَى لَنَا بِهِ، قَالَ - تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(١)، وَالنَّاسُ يَسْتَقْبِلُونَ صَبَاحَهُمُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَشُؤُونُ الرِّزْقِ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ وَأَفْكَارِهِم، المقِلُّ مِنْهُم يُرِيدُ سَعَةً، وَالموسِعُ يُرِيدُ مَزِيداً، فَإِمَّا غَنِيٌّ فِيهِ طَمَعٌ، أَوْ فَقِيرٌ عِنْدَهُ قَلَقٌ، وَقَلِيلٌ هُمُ الْقَانِعُونَ، قَالَ - تَعَالَى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾(٢).

وَيَنْقَسِمُ النَّاسُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ إِلَى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: لا يَشْبَعُ: وَهُوَ الْـجَشِعُ الشَّرِهُ، لا يَكْتَفِي بِالقَلِيلِ، وَلا يُشْبِعُهُ الْكَثِيرُ، وَلا يَكْفِيهِ مَا عِنْدَهُ، فَيَمْتَدُّ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ، فَإِذَا رَأَى أَوَّلَ الرِّزْقِ سَالَ لُعَابُهُ عَلَى آخِرِهِ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُ المصْطَفَى: «**لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى وَادِياً ثَالِثاً، وَلا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلا التُّرَابُ**»(٣)، وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ نَهَى عَنْ مَنْعٍ وَهَات، فَإِنَّ شِعَارَهُ هُوَ: هَاتِ وَهَاتِ، فَهُوَ يَلْهَثُ وَرَاءَ الرِّزْقِ، نَاسِياً الرَّزَّاقَ، صَدَقَ فِيهِ قَوْلُ اللهِ - تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(٤).

الْقِسْمُ الثَّانِي: قَانِعٌ أَعْمَى: وَهُوَ الَّذِي أَخْلَدَ لِلرَّاحَةِ وَالْكَسَلِ يَنْتَظِرُ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ ذَهَباً أَوْ فِضَّةً، يَرَى السَّعْيَ وَطَلَبَ الرِّزْقِ مُضِرًّا بِالتَّوَكُّلِ وَالْقَنَاعَةِ، وَحَقِيقَتُهُ قِنَاعٌ أَعْمًى وتَوَاكُلٌ، وَلَيْسَ قَنَاعَةً وَتَوَكُّلاً، وَهَذَا الْقِسْمُ سَمِعَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً**»(٥)، فَمنْ جَهِلَهُ أَخَذَ مِنَ الْـحَدِيثِ تَوَكُّلَ الطَّيْرِ، وَلَمْ

---

(١) هود : ٦.

(٢) الليل : ٤.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٣٠)، ومسلم (١٠٤٩) عن ابن عباس - رضي الله عنهما.

(٤) الجمعة : ١١.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) عن عمر بن الخطاب ﷺ، وصححه الألباني.

يَأْخُذْ مِنْهُ غُدُوَّهَا وَرَوَاحَهَا، قَالَ الإِمَامِ أَحْمَدُ- رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وَلَيْسَ فِي هَذَا الحَدِيثِ دَلالَةٌ عَلَى الْقُعُودِ عَنِ الْكَسْبِ، بَلْ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى طَلَبِ الرِّزْقِ؛ لأَنَّ الْطَّيْرِ إِذَا غَدَتْ فَإِنَّمَا تَغْدُو لِطَلَبِ الرِّزْقِ)، وَقَدْ رَأَى الْفَارُوقُ ﷺ قَوْماً قَابِعِينَ فِي رُكْنِ المسْجِدِ بَعْدَ صَلاةِ الْـجُمْعَةِ، فَسَأَلَهُمْ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ المتَوَكِّلُونَ عَلَى اللهِ، فَعَلاهُمَ عُمَرُ ﷺ بِدُرَّتِهِ وَنَهَرَهُمْ، وَقَالَ: لا يَقْعُدَنَّ أَحَدُكُمْ عَنْ طَلَبِ الرِّزْقِ، وَيَقُولَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تُمْطِرُ ذَهَباً وَلَا فِضَّةً، وَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾(١).

أَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ: فَهُوَ السَّاعِي الْقَنُوعُ المتَوَكِّلُ: كَسَبَ فَتَطَهَّرَ، واقْتَصَدَ فَاعْتَدَلَ، وَذَكَرَ رَبَّهُ وَلَمْ يَنْسَ نَصِيبَهُ مِنَ الدُّنْيَا، غَسَلَ نَفْسَهُ مِنْ فَضَلاتِ الْكَسَلِ بِعَرَقِ الْعَمَلِ الْـحَلَالِ، وَمَشَى فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ مُتَوَكِّلاً مُتَعَوِّذاً مِنَ الْفَقْرِ، يُرْضِيهِ مَا يُقْسَمُ لَهُ، فَلا قَلْبُهُ بِالجَشَعِ امْتَلأَ، وَلا جَسَدُهُ بِالْكَسَلِ أَخَذَ، لا يَدْرِي أَيْنَ خُبِّئَ رِزْقُهُ، فَالْغِنَى وَالْقِلَّةُ مَطِيَّتَانِ لا يُبَالِي أَيُّهُمَا قُسِمَ لَهُ، يُرَاقِبُ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(٢) .

مَا عَلَيْنَا إِلا أَنْ نَجِدَّ وَنَعْمَلَ، وَنَأْخُذَ بِأَسْبَابِ الرِّزْقِ، فَمَنْ جَدَّ وَجَدَ، وَمَنْ زَرَعَ حَصَدَ، فَلا كَسْبَ بِلا عَمَلٍ، وَلا حَصَادَ بِلا زَرْعٍ، رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَجُلَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ دَخَلا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَعَانَاهُ عَلَى شَيْءٍ كَانَ يُصْلِحُهُ، فَقَالَ لَهُمَا: «**لا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزَّزَتْ رُؤُوسُكُمَا؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرَةٌ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ**»(٣)، وَفِي الْـحَدِيثِ: «**وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي**»(١)، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ- جَلَّ شَأْنُهُ- لِلرِّزْقِ أَسَبَاباً حِسِّيَّةً

---

(١) الجمعة : ١٠.

(٢) الزخرف : ٣٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٦٥) عن حبة وسواء ابني خالد – رضي الله عنهما، وضعفه الألباني.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠)، وصححه الشيخ أحمد شاكر.

وَأَسْبَاباً شَرْعِيَّةً، فَلا الأَسْبَابُ الشَّرْعِيَّةُ تَكْفِي بِمُفْرَدِهَا، وَالأَسْبَابُ الحِسِّيَّةُ فَقَطْ دَلِيلُ الْجَشَعِ، وَالمشْرُوعُ لِلْمُسْلِمِ أَلا يَعْتَمِدَ عَلَى الأَسْبَابِ الْحِسِّيَّةِ فَقَطْ، وَلا عَلَى الْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ فَقَطْ، بَلْ يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا، فَالطُّيُورُ تَخْرُجُ فِي الصَّبَاحِ جَائِعَةً، وَتَعُودُ مُمْتَلِئَةَ الْبُطُونِ، غَيْرَ أَنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ رَكَّزَ عَلَى الأَسْبَابِ الْحِسِّيَّةِ وَاهْتَمُّوا بِهَا، مَعْ أَنَّهَا لَيْسَتْ مُتَاحَةً لِلْجَمِيعِ، بَلْ وَلا مَيْسُورَةً لَهُمْ كُلُّهُم عَلَى قَدَمِ المسَاوَاةِ، وَغَفَلَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ عَنِ الأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُيَسَّرَةٌ ومُتاحَةٌ لِلْجَمِيعِ، وَكُلٌّ يَسْتَطِيعُ الْحُصُولَ عَلَيْهَا.

وَأَهَمُّ هَذِهِ الأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: كَثْرَةُ الاسْتِغْفَارِ: فَمَنْ لَزِمَهُ رَزَقَهُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، وَهَذَا نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يُذَكِّرُ قَوْمَهُ فَيَقُولُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾(١)، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ: (هَذِهِ الآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الاسْتِغْفَارَ يُسْتَنْزَلُ بِهِ الرِّزْقُ وَالْأَمْطَارُ)، شَكَا رَجُلٌ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ الْجُدُوبَةَ، فَقَالَ لَهُ: اسْتَغْفِر الله، وَشَكَا آخَرُ إِلَيْهِ الْفَقْرَ، فَقَالَ لَهُ: اسْتَغْفِر اللهَ، وَقَالَ لَهُ آخَرُ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِي وَلَداً، فَقَالَ لَهُ: اسْتَغْفِر اللهَ، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ جَفَافَ بُسْتَانِهِ، فَقَالَ لَهُ: اسْتَغْفِر اللهَ، فَقَالُوا لَهُ: أَتَاكَ رِجَالٌ يَشْكُونَ أَنْوَاعاً مِنَ الْبَلاءِ فَأَمَرْتَهُم كُلَّهُمْ بِالاسْتِغْفَارِ!. فَقَالَ: مَا قُلْتُ مِنْ عِنْدِي شَيْئاً، إِنَّ اللهَ - تَعَالَى - يَقُولُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾(٢).

السَّبَبُ الثَّانِي: تَقْوَى الله وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ: بِأَنْ تَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَذَابِ اللهِ وِقَايَةً؛ فَلا يَفْقِدُكَ حَيْثُ أَمَرَكَ، وَلا يَجِدُكَ حَيْثُ نَهَاكَ، قَالَ - تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ

(١) نوح: ١٠ - ١٢.
(٢) نوح: ١٠، ١١.

﴿ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[(١)]، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ: (أَيْ مِنْ جِهَةٍ لا تَخْطُرُ بِبَالِهِ)، فَبَرَكَاتُ السَّمَاءِ تُسْتَمْطَرُ بِتَقْوَى اللهِ، وَالتَّوَكُّلِ لا التَّوَاكُلِ.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: المحَافَظَةُ عَلَى الطَّاعَاتِ: فَلا يَشْغَلُنَا الْكَسْبُ عَنِ الْعِبَادَةِ؛ لأَنَّهَا سَبَبُ خَلْقِنَا قَالَ - تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[(٢)]، وَقَالَ- تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[(٣)]، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ- رَحِمَهُ اللهُ: (إِذَا أَقَمْتَ الصَّلاةَ أَتَاكَ الرِّزْقُ)، فَمَنْ شَغَلَهُ رِزْقُهُ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ مُحِقَتْ بَرَكَتُهُ، وَفِي الحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: يَقُولُ اللهُ- تَعَالَى: «**ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ قَلْبَكَ غِنًى، وَأَمْلأْ يَدَيْكَ رِزْقاً، ابْنَ آدَمَ لَا تُبَاعِدْ مِنِّي أَمْلأْ قَلْبَكَ فَقْراً وَأَمْلأْ يَدَيْكَ شُغْلاً**»[(٤)].

السَّبَبُ الرَّابِعُ: إِذَا أَحْبَبْتَ الرِّزْقَ الْوَفِيرَ فَعَلَيْكَ بِصِلَةِ رَحِمِكَ وَأَقْرِبَائِكَ، وَفِي الحَدِيثِ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[(٥)]، وَمِنْ عَجَائِبِ صِلَةِ الرَّحِمِ أَنَّهَا تُوَسِّعُ الرِّزْقَ حَتَّى عَلَى الْكَافِرِ، فَقَدْ رَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ، يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَاباً لَصِلَةُ الرَّحِمِ، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُوا فَجَرَةً فَتَنمُو أَمْوَالُهُمْ وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ إِذَا تَوَاصَلُوا**»[(١)].

السَّبَبُ الْخَامِسُ: إِنَّهَا مُعَادَلَةٌ: «**أَنْفِقْ يُنْفَقْ عَلَيْكَ**»[(٢)]، وَلا تُوكِ وَتَمْنَعْ

---

(١) الطلاق: ٢، ٣.

(٢) الذاريات: ٥٦ - ٥٨.

(٣) طه: ١٣٢.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٦٦)، وابن ماجه (٤١٠٧) عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) عن أنس بن مالك ﷺ.

(١) أخرجه ابن حبان (٤٤٠)، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٣٧): «حسن لغيره».

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

فَيُوكَ عَلَيْكَ، قَالَ - تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(١) ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: (أَيْ مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَأَبَاحَهُ لَكُمْ فَهُوَ يُخْلِفُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْبَدَلِ، وَفِي الآخِرَةِ بِالجزَاءِ)، وَفِي الحَدِيْثِ: «**أَنَّ مَلَكَيْنِ يُصْبِحَانِ كُلَّ يَوْمٍ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً**»(٢)، وَكَانَ ﷺ يُنَادِي: «**أَنْفِقْ يَا بِلالُ وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلالاً**»(٣) .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ رِزْقاً حَلالاً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ، وَاجْعَلْهُ عَوْناً عَلَى طَاعَتِكَ وَمَرْضَاتِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

---

(١) سبأ: ٣٩.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٣٤٠) (١٠٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥١٢)، والبيهقي في الشعب (٢/ ١١٦).

المحاضرة (٢٢)

أخلاق فاضلة مهجورة: «حسن الجوار»

تَحُطُّ بِنَا عَصَا التِّرْحَالِ مَرَةً أُخْرَى فِي (مُحَافَظَةِ الأَحْمَدِي) لِنَسْتَكْمِلَ مَا بَقِيَ مِنْ مَسَاجِدِهَا الأَثَرِيَةِ، وَمِنْ أَهَمِّهَا مَا يَلِي:

١ـ مَسْجِدُ (الفَنِيطِيس أَوْ سَعْدُ الزَّمَان) وَيَقَعُ فِي قَرْيَةِ الفِنِيطِيس، طَلَبَ السَّيدُ سَعْدُ بْنُ سَعْدِ الزَّمَانِ العَجْمِيّ أَرْضَ المسْجِدِ مِنْ الشَّيخ عَبْد الله الجَابِر الصُّبَاح، ثُمَّ قَامَ السَاكِنونَ بِبِنَاءِ المسْجِدِ عَامَ (١٩٤٢م)، ثم أَعَادَتِ الأَوقَافُ بِنَاءَهُ عَامَ (١٩٥٥م)، وَفِي عَامِ (١٩٨٦م) هُدِمَ المسْجِدُ القَدِيمُ وَبَعْدَ عَام أُعِيدَ بِنَاؤهُ بِالقُرْبِ مِنْ مَكَانِهِ القَدِيم، وَأَشْهَرُ أَئِمَّتِهِ الضَّرِيرُ الملا غَصَّاب بْنُ مُحَمَّد العَجمِي فِي فَتْرَةِ الخَمْسِينِيات.

٢ـ مَسْجِدُ (أَبُو حَلِيفَة) يَقَعُ قُرْبَ رَوْضَةِ أَبِي حَلِيفَة، وَقَدْ أُسِّسَ مَعَ تَأْسِيسِ قَرْيَةِ أَبِي حَلِيفَةَ غَيْر المَعْرُوفِ تَارِيخُهُ تَحْدِيداً، وَقَدْ أَعَادَتِ الأَوْقَافُ بِنَاءَهُ عَامَ (١٩٥٢م)، وَفِي عَامِ (١٩٨١م) أَعَادَ السَّيدُ مُبَارَك سَعد فهد الجري بناءه مِنْ جَدِيدٍ فِي مَكَانِهِ القَدِيمِ، وَمِنْ أَشْهَرِ مَنْ صَلَّى فِيهِ إِمَاماً وَخَطِيباً الملا عَبْدُ الله بْنُ عَلِي العصْفُور.

٣ـ مَسْجِدُ (الفَحَيحِيل القَدِيم) أَوْ مَسْجِدُ العَجِيل، وَيَقَعُ دَاخِلَ الفَحَيحِيل القَدِيمَةِ، أَسَّسَهُ الشيخُ هِلالُ المطيريُّ قرابة عام (١٩٠٤م)، وَمَوْقِعُهُ الآنَ بَيْنَ مَرْكَزِ تَحْفِيظِ القُرْآنِ وَمَحَطَّةِ البَنْزِين، وَيَعُودُ تَارِيخُ تَأْسِيسِهِ إِلَى مَا قَبْلَ عَامِ (١٩٠٤م) قَبْلَ أَنْ تَسْكُنَ عَائِلَةُ العَجِيلِ الفَحَيحِيل، وَقَدْ أَعَادَتْ الأَوْقَافُ بِنَاءَهُ عَامَ (١٩٥٣م) وَأَطْلَقَتْ عَلَيْهِ مَسْجِدَ أَحْمَد المطَوع، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الشَّيْخُ أَحْمَدُ مبارك المطوع.

٤ـ مَسجِدُ (**مُحمد بنِ هَجاج**) وَيَقعُ فِي مَنطِقَـةِ خِيطَـان، قِطعَـةِ (٣٤) عَـلَى شَارِعِ (٦٨)، أَسّسَهُ السَّيدُ مُحمدُ بنُ هَجَاج العُتَيبِيُّ عَامَ (١٩٥١م)، وَمِـنْ ثَـمَّ جَدَّدَتْهُ وَزارَةُ الأَوقَافِ فِي مَكانِهِ القَديمِ عَامَ (١٩٥٥م)، وَقَد صَـلّى فِيـهِ إِمَامـاً وَخَطِيباً الملا سَيفُ بنُ عَبدِ الله الدُّويلَةُ فِي الخَمسِينيّاتِ.

بَعْدَ مُعَايَنَةِ الآثَارِ وَالحَدِيثِ عَنْ الأَئِمَّةِ الكِبَارِ- رَحِمَهُـمُ اللهُ تَعَـالَى- تَعَـالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَـوَاعِظِ وَالأَذْكَـارِ، نُزَكِّـي بِهَـا نُفُوسَـنَا، وَنَجْلُـو بِهَـا قُلُوبَنَـا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعنوان: (حسن الجوار).

إِنَّ دِينَنَا الْـحَنِيْفَ يَقُومُ عَلَى مَبْدَأ الْـحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ، بَدْءاً بِالْعَلاقَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَالِقِنَا، وَانْتِهَاءً بِعَلاقَاتِنَا فِيمَا بَيْنَنَا ، وَلَقَـدْ أَضَـاعَ جُلُّنَـا كَثِـيراً مِـنْ هَـذِهِ الْـحُقُوقِ وَقَصَّرُوا فِيهَا، وَمِنْ أَكْثَرِ الْـحُقُوقِ ضَيَاعاً حُقُوقُ الْــجِوَارِ، خَاصَّـةً فِي المدُنِ وَالأَمْصَارِ.

لَقَدْ وَصَّانَا الإِسْلامُ بِالجَارِ؛ تَمْهِيداً لِـمُجْتَمَعٍ مُتَحَابٍّ مُتَرَاحِمٍ، فَآدَابُ الجِوارِ فِي الإِسلامِ تَتَمَتَّعُ بِمَسَاحَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ تُقَوي أَوَاصِرَ النَّسِيجِ الاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يُقَرِّبُ بَيْنَ الأَخِلاءِ وَالجِيرَانِ فِي المكانِ وَالزَّمَانِ، وَكَذَلِكَ فِي المصَالِحِ العَامَّةِ وَالمنَافِعِ المشْتَرَكَةِ التِي يَقْتَضِيهَا القُرْبُ المكَانِيُّ، وَإِذَا كَانَ التَّضَامُنُ أَو التَّكَافُلُ هُوَ التَّعَاوُنُ المثْمِرُ الَّذِي يُقِيمُهُ النَّاسُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَإِنَّ الجَارَ أَحَقُّ النَّاسِ فِي إِقَامَةِ هَذَا التَّعَاوُنِ وَالتَّبَادُلِ البَنَّاءِ وَالمثْمِرِ لِتَقَدُّمِ الجَارِ عَلَى غَيْرِهِ، وَمِنْ هُنَا كَانَتْ حِكْمَةُ الإِسْلامِ فِي دَعْوَةِ المسْلِمِينَ إِلَى تَعْمِيمِ الإِحْسَانِ وَنَشْرِ البِرِّ عَلَى الجَارِ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ القَرَابَةِ فِي الدِّينِ أَوِ النَّسَبِ، فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ

وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[١].

وَلَقَدْ أَفَاضَتِ السُنَّةُ النَّبَوِيَّةُ فِي بَيَانِ رِعَايَةِ حُقُوقِ الجَارِ، وَالوَصِيَّةِ بِهِ، وَصِيَانَةُ عِرْضِهِ، وَالحِفَاظِ عَلَى شَرَفِهِ، وَسَتْرِ عَوْرَتِهِ، وَسَدِّ خِلَّتِهِ، وَمِنْ أَجَلِّ تِلْكَ النُّصُوصِ قَولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»[٢].

قَالَ الإِمَامُ الغَزَالِيُّ: آدَابُ الجَارِ أَنْ يَبْدَأَ بِالسَّلامِ وَلا يُطِيلَ مَعَهُ الكَلامَ، وَلا يُكْثِرَ عَلَيْهِ وَعَنْ حَالِهِ السُّؤَالَ، وَيَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ، وَيُعَزِّيهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ، وَيَقُومَ مَعَهُ فِي عَزَائِهِ، وَيُهَنِّئُهُ فِي فَرَحِهِ، وَيُشَارِكُهُ فِي سُرُورِهِ، وَيَتَلَّطَفُ فِي مُعَامَلَةِ أَوْلادِهِ، وَيَصْفَحُ عَنْ زَلَّاتِهِ، وَيُعَاتِبُهُ بِرِفْقٍ عِنْد هَفَواتِهِ، ويَغَضُّ بَصَرَهُ عَنْ حَرَمِهِ، وَيُعِينُهُ فِي نَوائِبِهِ، وَلا يَتَطَلَّعُ مِنْ السَّطْحِ إِلَى عَورَاتِهِ وَلا يُضَايقُهُ بِصَوتِهِ، وَلا يُؤْذِيهِ بِوَضعِ الجِذْعِ عَلَى جِدَارِهِ، وَلا يُصِيبُ المَاءَ فِي مِيزَابِهِ، وَلا يَطْرَحُ التُّرَابَ فِي فِنَائِهِ، وَلا يُضَيِّقُ طَرِيقَهُ إِلَى دَارِهِ، وَلا يتْبعُهُ بِالنَّظَرِ فِيمَا يَحْمِلُهُ إِلَى بَيْتِهِ، وَيَسْتُرُ مَا يَنْكَشِفُ مِنْ عَورَاتِهِ، وَلا يَغْفَلُ عَنْ مُلاحَظَةِ دَارِهِ عِنْدَ غَيبَتِهِ، وَلا يَسْمَعُ عَلَيْهِ كَلاماً مِنْ عَدُوِّهِ، وَيُرْشِدُهُ إِلَى مَا يَجْهَلُهُ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

قَالَ ﷺ: «**كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعاً تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ للنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً، وَأَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِماً**»[٣].

وَمِنْ حَقِّ الجَارِ التَّعَرُّفُ عَلَيْهِ وَتَفَقُّدُ أَحْوالِهِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ لا يَعْرِفُ جَارَهُ الملاصِقَ، وَرُبَّمَا دَامَتِ الجِيرَةُ سَنَواتٍ عَدِيدَةً وَهُمْ عَلَى هَذَا الحَالِ، إِمَّا

(١) النساء: ٣٦.
(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥) عن ابن عمر – رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧) عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني.

تجاهُلاً أَوْ تهاوناً أَو اشْتِغَالاً بالدُّنْيَا. وَهَذَا يَكْثُرُ فِي المدُنِ الكُبْرَى؛ التِي تَرْزَحُ تَحْتَ وَطأَةِ المدَنِيَّةِ الحَدِيثَةِ، وَلا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الصَّنِيعَ تَفْرِيطٌ وَتَقْصِيرٌ؛ فَمِنْ حَقِ الجَارِ أَنْ تَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ وَتَجْعَلَ لِفَرَحِهِ وَحُزْنِهِ وَمُشْكِلاتِهِ حَيِّزاً مِنْ تَفْكِيرِكَ وَمَشَاعِرِكَ، وَلا يَحْصُلُ هَذَا إِلا بِتَفَقُّدِ أَحْوَالِهِ، وَالسُّؤَالِ عَنْ حَاجَاتِهِ، فَقَدْ يَكُونُ مَرِيضاً، وَقَدْ يَكُونُ مَدْيوناً، وَقَدْ... وَقَدْ ... وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَنَامُ قَرِيرَ العَيْنِ وَجَارُهُ قَدْ أَطَارَتِ الهُمُومُ وَالأَحْزَانُ النَّومَ عَنْهُ.. فَهَلْ يَلِيقُ هَذَا؟! وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَان وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ**»(١).

وَإِذَا كَانَ الأَذَى بِغَيْرِ حَقٍّ مُحَرَّما، فَأَذِيَّةُ الجَارِ أَشَدُّ تَحْرِيماً، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليوم الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ...**»، وَقَالَ ﷺ: «**وَاللهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ**» قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوائِقَه**»(٢)، [أَيْ غَوَائِلَهُ وَشُرورهُ]، وَقِيلَ للنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ فُلانَةَ تَقُومُ الليلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ وَتَفْعَلُ، وَتَتَصَدَّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّار**». قَالُوا: وَفُلانَةُ تُصَلِّي المكْتُوبَةَ، وَتَتَصَدَّقُ بِأَثْوَارٍ مِنَ الأَقْطِ، وَلا تُؤْذِي أَحَداً؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هِيَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»(٣).

وَإِنَّ مِنْ أَهَمِّ حُقُوقِ جَارِكَ أَخِي الحَبِيبَ: غَضُّ بَصَرِكَ عَنْ مَحَارِمِهِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ أَوْ دُخُولِهِمْ، وَصَوْنَ حُرْمَتِهِ وَعِرْضِهِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الخِدْرُ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٢٥٩) (٧٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٦١).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) عن أبي هريرة ﷺ.
(٣) أخرجه مسلم (٤٦) عن أبي هريرة ﷺ.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرو بْـنِ العَـاصِ قَـالَ ﷺ: «**خَـيْرُ الأَصْـحَابِ عِنْـدَ الله خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الجِيرانِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِـجَارِهِ**»[1].

وَرَوى المَرْوذِي عَنِ الحَسَنِ: لَيْسَ حُسْنُ الجِوارِ كَفُّ الأَذَى، حُسْنُ الجِـوَارِ الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى.

وَأَنْتَ أَخِي الْكَرِيمَ، إِذَا ابْتَلاكَ اللهُ بِجَارِ سُوْءٍ أَوْ كَافِرٍ، فَمِنْ حُسْـنِ الجِـوَارِ أَنْ تَصْبِرَ عَلَى أَذَاهُ ، بَلْ وَأَنْ تُحْسِنَ إِلَيْهِ ، فَالإِحْسَانُ يُزِيلُ الْعَـدَاوَاتِ وَيُصَـيِّرُهَا صَدَاقَاتٍ ، وَقَدْ ضَرَبَ لَنَا سَيِّدُنَا رَسُـولُ الله ﷺ المَثَـلَ بِالإِحْسَـانِ إِلَى الْــجَارِ حَتَّى وَلَو كَانَ مِنْ غَيْرِ المسْلِمِينَ، حَيْـثُ ذَهَـبَ الرَّسُـولُ ﷺ ذَاتَ مَـرَّةٍ يَعُـودُ غُلامًا مَرِيضاً مِنَ اليَهُودِ، كَانَ مِنْ جِيرَانِهِ.

وَيُذَكِّرُنَا الإِحْسَانُ لِلْجَارِ السَّيِّئِ بِقِصَّةِ الإِمَامِ أَبِي حَنِيفَـةَ- رَحِمَـهُ اللهُ- مَـعَ جَارِهِ، الَّذِي كَانَ يُقْلِقُهُ وَيُؤْذِيهِ طوَالَ اللَّيْلِ بِصَوْتِهِ، فَلَمَّا قَبَضَت عَلَيْـهِ الشُّرَـطَةُ وَأَوْدَعُوهُ السِّجْنَ، ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى الأَمِيرِ وَشَفَعَ فِي جَارِهِ، فَخَجِلَ الرَّجُلُ، وَقَالَ لأَبِي حَنِيفَةَ: جَزَاكَ اللهُ خَيْراً، فَقَدْ حَافَظْتَ عَلَى حُقُوقِ جَارِكَ، ثُمَّ تَـابَ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَى إِزْعَاجِ جِيرَانِهِ.

وَاعْلَمْ أَخِي القارئ أَنَّ الْـجَارَ قَبْـلَ الـدَّارِ، وَأَنَّ الجَـارَ الْــحَسَنَ يُشْـتَرَى، فَالدَّارُ الطَّيِّبَةُ الْوَاسِعَةُ الْقَرِيبَةُ تَضِيقُ بِسَاكِنِيهَا إِذَا ابْتُلُـوا بِجَـارِ سُـوءٍ، وَالـدَّارُ الضَّيقَةُ الْبَعِيدَةُ تَطِيـبُ لِسَـاكِنِيهَا إِذَا حَظُـوا بِحُسْـنِ الجِـوَارِ، وَيُـرْوَى أَنَّ أَبَـا الْـجَهْمِ الْعَدوِيَّ أَرَادَ بَيعَ دَارِهِ بِمِائَـةِ أَلْـفِ دِينَـارٍ، ثُـمَّ قَـالَ لِلْمُشْـتَرِينَ: بِكَـمْ تَشْتَرُونَ جِوَارَ سَعِيدِ بنِ الْعَاصِ؟ فَقَالُوا: وَهَلْ يُشْتَرَى جِوَارٌ قط؟ قَـالَ: رُدُّوا عَلَيَّ دَارِي ، وَخُذُوا دَرَاهِمَكُم، وَالله لا أَدَعُ جِوَارَ رَجُلٍ: إِنْ فُقِدْتُ سَأَلَ عَنِّـي، وَإِنْ رَآنِي رَحَّـبَ بِي، وَإِنْ غِبْـتُ حَفِظَنِـي، وَإِنْ شَـهِدْتُ قَرَّبَنِـي، وَإِنْ سَـأَلْتُهُ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٣٠٥) وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

أَعْطَانِي، وَإِنْ لَمْ أَسْأَلْهُ ابْتَدَأَنِي، وَإِنْ نَابَتْنِي جَائِحَةٌ فَرَّجَ عَنِّي، فَبَلَغَ ذَلِكَ سَعِيداً فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَأَبْقَاهُ فِي دَارِهِ.

وَأَمَّا جَارُ السُّوءِ فَإِنَّهُ يُبَاعُ بِأَبْخَسِ الأَثْمَانِ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَبَا الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيَّ كَانَ لَهُ جِيرَانٌ بِالْبَصْرَةِ يُؤْذُونَهُ فِي الجِوَارِ، وَيَرْمُونَهُ فِي اللَّيْلِ بِالحِجَارَةِ؛ ثُمَّ بَاعَ الدَّارَ، فَقِيلَ لَهُ: بِعْتَ دَارَكَ؟! فَقَالَ: بِلْ بِعْتُ جَارِي؛ فَأَرْسَلَهَا مَثَلاً.

فَاحْذَرْ أَخِي المسْلِمَ أَنْ تَكُونَ جَارَ سُوءٍ، وَاحْرِصْ أَنْ تَرْعَى وَصِيَّةَ رَبِّكَ وَرَسُولِكَ فِي جِيرَانِكَ، وَمَا أَعْظَمَ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ قِصَصٍ وَحِكَايَاتٍ عَنْ سُوءِ الجِوَارِ وَغِلْظَتِهِم وَغَفْلَتِهِمْ عَنْ حُقُوقِ إِخْوَانِهِم وَجِيرَانِهِم، فَكَمْ سَمِعْنَا أَنَّ شَخْصاً مَاتَ فِي شَقَّتِهِ وَلَمْ يَعْلَمْ جِيرَانُهُ بِوَفَاتِهِ حَتَّى تَجَيَّفَ وَشَمُّوا رَائِحَتَهُ، وَأَنَّ شَخْصاً مَاتَ أَبُوهُ أُوْ ماتَتْ أُمُّهُ وُلَمْ يجِدْ مِنْ جِيرانِهِ مَنْ يُعَزِّيهِ، وَكَمْ سَمِعْنَا أَنَّ جَاراً يَمْرَضُ وَيَذْهَبُ إِلَى الاسْتِشْفَاءِ خَارِجَ الْبَلَدِ، وَلا يَسْمَعُ بِهِ جِيرَانُهُ الأَقْرَبُونَ، وَهَذَا بِجَانِبِ الْكَيْدِ، وَالتَّجَسُّسِ، وَالإِيذَاءِ الحِسِّيِّ والمعْنَوِيِّ، وِالْحَسَدِ، وَغَيرِ ذَلكَ.

اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى الإِحْسَانِ لِجِيرَانِنَا وَأَنْعِمْ عَلَيْنَا بِالدَّارِ الوَاسِعَةِ وَالجَّارِ الصَّالِحِ.

المحاضرة (٢٣)

شَوَاطِئُ الْبَكَّائِينَ

نعُودُ إِلَى (حَيِّ الْقِبْلَةِ) وَهُوَ مِنْ الأَحْيَاءِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي ضَمَّتْ كَثِيراً مِنَ المَسَاجِدِ الْأَثَرِيَّةِ، وَمِنْهَا زِيَادَةً عَلَى مَا ذَكَرْنَا سَابِقاً مَا يَلِي:

١ـ مَسْجِدُ (عَلِيِّ بْنِ حَمَد) وَيُسَمَّى مَسْجِدَ المَهَارَةِ لِكَثْرَةِ مَنْ يُصَلِّي فِيهِ مِنْهُمْ، وَلا يَزَالُ فِي مَوْقِعِهِ خَلْفَ مَبْنَى قَصْرِ الْعَدْلِ، أُسِّسَ عَامَ (١٩٠٠م)، وَأَعَادَتْ وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ بِنَاءَهُ (١٩٥٠م)، وَكَانَ مِنْ أَئِمَّتِهِ الملا عليُّ بْنُ حَمَد الَّذِي سُمِّيَ المَسْجِدُ بِاسْمِهِ.

٢ـ وَمِنَ المَسَاجِدِ الَّتِي هُدِّمَتْ وَكَانَتْ فِي حَيِّ الْقِبْلَةِ مَسْجِدُ **(الْعُثْمان)** الَّذِي كَانَ فِي مَحَلِّ مَجْلِسِ الأُمَّةِ الآنَ، أَسَّسَهُ النُوخَذَةُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْعُثْمَانُ عَامَ (١٩٠٧م)، وَفِي عَام (١٩٩١م) أُعِيدَ بِنَاؤُهُ فِي الطَّرَفِ الشَّمَالِيِّ مِنْ مَبْنَى مَجْلِسِ الأُمَّةِ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الشَّيْخُ يُوْسِفُ بْنُ حَمَدٍ تِلْمِيذُ الشَّيخِ عَبدِ الله الْـخَلَفِ.

٣ـ وَفِي حَيِّ الْفَلاحِ بَنَى آلُ الصَّقْرِ مَسْجِدَهُمْ **(الصَّقر)** عَامَ (١٩١١م)، وَمِنْ ثَمَّ هُدِمَ وَحَلَّ مَحَلَّهُ متْحَفُ الكُوَيْتِ.

هَذِهِ المَسَاجِدُ الأَثَرِيَّةُ كَانَتْ وَمَازَالَتْ جَامِعَاتٍ يُدَرِّسُ فِيهَا أَئِمَّةٌ كِبَارٌ، فَتَعَالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَلِقَاؤُنَا الْيَومَ بعنوان: (شَاطِئِ الْبَكَّائِينَ).

نِعْمَتَانِ فِطْرِيَّتَانِ أَوْدَعَهُمَا اللهُ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ- الضَّحِكُ وَالْبُكَاءُ - فَبِالْأَوَلِ يُعَبَّرُ عَنِ الْفَرَحِ وَالْأُنْسِ بِالمَرْغُوبِ، وَبِالثَّانِي يُعَلَّلُ وَيُفَرَّجُ المَكْرُوبُ، قَالَ - تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[1]، فَهُمَا شَاطِئَانِ يَرْتَادُهُمَا النَّاسُ، وَنَقِفُ اليَومَ

(١) النجم: ٤٣.

عِنْدَ شَاطِئِ البُكَاءِ نَتَعَرَّفُ عَلَى مُرْتَادِيهِ وَأَخْبَارِهِمُ.

أَيُّهَا الأَحْبَابُ: إِنَّ العَيْنَ لَتَدْمَعُ، وَلِهَذِهِ الدُّمُوعِ طَعْمٌ وَمَذَاقٌ وَأَنْوَاعٌ ثَلاثة وَهِيَ:

أَولاً: دُمُوعُ أَهْلِ الهَوَى: وَهُمُ الَّذِينَ جَنَحُوا عَنْ رِقِّ العُبُودِيَّةِ لله إِلَى رِقِّ الْهَوى وَالشَّيْطَانِ، فَاشْتَروا الْبُكَاءَ شِرَاءً مُفْتَقِراً لِشُرُوطِ الصِّحَّةِ، وَأَوْقَفُوا هَذِهِ الدُّمُوعَ وَاحْتَبَسُوهَا فِي غَيْرِ وَجْهٍ شَرْعِيٍّ، فَبَطَلَ الوَقْفُ، وَخَسِرَ الوَاقِفُ، وَهَامَ المَوْقُوفُ عَلَيْهِ، فَمَا أَعْظَمَهَا شِقْوَةً! وَمَا أَوْعَرَهَا هُوَّةً!

فَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ الهَوَى حُلْوَ المَذَاقِ

تَرَاهُ بَاكِياً فِي كُلِّ حِينٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لاشْتِيَاقِ

أَعَاذَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ هَذِهِ الحَالِ.

ثَانِياً: دُمُوعُ الهَمِّ وَالحَزَنِ: وعَلَى هَذَا دُمُوعُ جُلِّ النَّاسِ، فَاقْتَصَرُوا عَلَى سِلْعَةٍ وَافَقَتْ جِبِلَّتَهُمُ الَّتِي جَبَلَهُمُ اللهُ عَلَيْهَا، فَأَصْبَحُوا لا لَهُمْ وَلا عَلَيْهِمْ.

ثَالِثاً: دُمُوعُ خَشْيَةِ الله: وَتِلْكُمُ البِضَاعَةُ الرَّابِحَةُ الَّتِي زَهَدَ فِيهَا مُعْظَمُ الْقَوْمِ إِلا مَنْ رَحِمَ اللهُ، فَآيَاتٌ وَأَحَادِيثُ وَمَوَاعِظُ تُتْلَى وَتُرْوى وَتُلْقَى، وَلَكِنْ تَدْخُلُ مِنَ الْيُمْنَى وَتَخْرُجُ مِنَ الْيُسْرَى، لا يَخْشَعُ لَهَا قَلْبٌ، وَلا تَهْتَزُّ لَهَا نَفْسٌ، وَلا يَسِيلُ عَلَى أَثَرِهَا دَمْعٌ، وَهَذَا مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**اللَّهُمَ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ عَيْنٍ لا تَدْمَعُ**»(١).

وَعَلَى شَاطِئِ الْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ الله طَالما وَقَفَ الأَنْبِيَاءُ وَالصَّالحُونَ وَالْعُلَماءُ، حَيْثُ لا تُسْعِفُهُمُ الْكَلِمَاتُ لِلتَّعْبِيرِ عَمَّا يُخَالِجُ مَشَاعِرَهُمُ مِنْ حُبٍّ لله وَخَشْيَةٍ لَهُ، فَتَفِيضُ عُيُونُهُمْ بِالدُّمُوعِ، فَقَدْ صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا صَلَّى سُمِعَ لِصَدْرِهِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) عن زيد بن أرقم ﷺ.

غَلَيَانٌ وَأَزِيزٌ كَغَلَيَانِ الْقِدْرِ مِنَ الْبُكَاءِ.

وَحَدَّثَتْ عَائِشَةُ- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- بِأَعْجَبِ مَا رَأَتْهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: لَـمَّا كَانَتْ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي قَامَ ﷺ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي، حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ وَحِجْرَهُ وَالْأَرْضَ! فَجَاءَ بِلالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاةِ، فَلَـمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ الله تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**»(١).

وَجَاءَ مَجْمُوعَةٌ مِنْ فُقَرَاءِ الصَّحَابَةِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ يَطْلُبُونَ أَنْ يَحْمِلَهُمْ مَعَهُ لِلْجِهَادِ فَقَالَ لَهُمْ: «**وَالله، لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**»، فَتَوَلَّوْا وَهُمْ يَبْكُونَ، وَعَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْلِسُوا عَنِ الجِهَادِ، وَلا يَجِدُونَ نَفَقَةً وَلا مَحْمَلاً.

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**»(٢).

وَهَذَا الصِّدِّيقُ ﷺ يَسْتَسْقِي بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيُقَدَّمُ لَهُ قِدْحٌ مِنْ عَسَلٍ مَشُوبٌ بِمَاءٍ، فَلَمَّا قَرَّبَهُ إِلَى فِيهِ بَكَى وَبَكَى، حَتَى أَبْكَى مَنْ حولَهُ، لأَنَّهُ تَذَكَّرَ النَّبِيَّ ﷺ.

وَبَكَى مُعَاذٌ ﷺ بُكَاءً شَدِيداً. فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: (لأَنَّ اللهَ- عَزَّ وَجَلَّ- قَبَضَ قَبْضَتَيْنِ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَالأُخْرَى فِي النَّارِ، فَأَنَا لا أَدْرِي مِنْ أَيِّ الفَرِيقَيْنِ أَكُونُ).

وَبَكَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ فِي مَرَضِهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟! فَقَالَ: (أَمَا إِنِّي لا أَبْكِي عَلَى دُنْيَاكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنْ أَبْكِي عَلَى بُعْدِ سَفَرِي، وَقِلَّةِ زَادِي، وَإِنِّي أَمْسَيْتُ فِي صُعُودٍ عَلَى جَنَّةٍ أَو نَارٍ، لا أَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِمَا يُؤْخَذُ بِي).

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) عن المغيرة ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦) وأحمد (٦/ ٢٥٩) عن عقبة بن عامر ﷺ، وصححه الألباني.

وَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَبَكَى، ثُمَّ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ لِيَسْتَعْلِمُوا عَنْ سَبَبِ بُكَائِهِ، فَاسْتَعْجَمَ لِسَانُهُ، فَدَعَوْا أَبَا حَازِمٍ، فَلَمَّا دَخَلَ أَبُو حَازِمٍ هَدَأَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْمُنْكَدِرِ بَعْضَ الشَّيءِ، فَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ بُكَائِهِ؟ فَقَالَ: تَلَوْتُ قَوْلَ اللهِ- جَلَّ وَعَلا: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[1]، فَبَكَى أَبُو حَازِمٍ، وَعَادَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْمُنْكَدِرِ إِلَى الْبُكَاءِ، فَقَالُوا: أَتَيْنَا بِكَ لِتُخَفِّفَ عَنْهُ فَزِدْتَهُ بُكَاءً.

وَرَوى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ حَمْزَةَ الأَعْمَى قَالَ: ذَهَبَتْ بِي أُمِّي إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا سَعِيدٍ ابْنِي هَذَا قَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ يَلْزَمَكَ، فَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يَنْفَعَهُ بِكَ، قَالَ: فَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لِي يَوماً: (يَا بُنَيَّ أَدِمِ الْحُزْنَ عَلَى خَيْرِ الآخِرَةِ، لَعَلَّهُ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ، وَابْكِ فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي الْخَلْوَةِ لَعَلَّ مَوْلاكَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْكَ فَيَرْحَمَ عَبْرَتَكَ فَتَكُونَ مِنَ الْفَائِزِينَ).

يَعُودُ فَضْلُ الْبُكَاءِ إِلَى مَا يَلِي:

١ـ الظِّلُّ فِي يوم القِيَامَةِ: وَقَدْ ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: «**وَرَجُلاً ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»[2] وَقَدْ مَيَّزَ الْحَدِيثُ الْبُكَاءَ فِي الْخَلْوَةِ؛ لأَنَّ الْخَلْوَةَ مَدْعَاةٌ إِلَى قَسْوَةِ الْقَلْبِ وَالْجُرْأَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَالْبُكَاءُ فِيهَا مَدْعَاةٌ لِعَدَمِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، فَاسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِ الرَّحْمَنِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ.

٢ـ لا تَمَسُّ النَّارُ الْبَاكِي: قَالَ ﷺ: «**عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[3]، فَعَبَّرَ بِالْجُزْءِ وَهِيَ الْعَيْنُ وَأَرَادَ الْكُلَّ وَهُوَ أَنَّهُ لا تَمَسُّهُ كُلَّهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ**

(١) الزمر: ٤٧.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٩)، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة ﷺ.
(٣) أخرجه الترمذي (١٦٣٩) عن ابن عباس - رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

خَشْيَةِ الله حَتَى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ»[١].

٣ـ حُبُّ الله تَعَالَى: قَالَ ﷺ: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى الله مِنْ قَطْرَةٍ مِنْ دُمُوعِ خَشْيَةِ الله**»[٢]، قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (لأَنْ أَدْمَعَ مِنْ خَشْيَةِ الله أَحَبُّ إِلَي مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَلْفِ دِينَارٍ!).

الْعَيْنُ تَتْبَعُ القَلْبَ، يَقُولُ ابْنُ القَيِّم - رَحِمَهُ اللهُ: (مَتَى أَقْحَطَتِ الْعَيْنُ مِنَ الْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ الله تَعَالَى فَاعْلَمْ أَنَّ قَحْطَهَا مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ، وَأَبْعَدُ الْقُلُوبِ مِنَ الله: الْقَلْبُ الْقَاسِي).

وَتَعُودُ أَسْبَاب قَسْوَةِ الْقَلْبِ لأَمْرَيْنِ:

أَوْلاً: كَثْرَةُ الْكَلاَمِ وَالضَّحِكِ وَالأَكْلِ وَالنَّوم: قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: قَسْوَةُ القَلْبِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ إِذَا جَاوَزَتْ قَدْرَ الْحَاجَةِ: الأَكْلِ، وَالنَّومِ، وَالْكَلامِ، وَالمخَالَطَةِ.

وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ: خَصْلَتَانِ تُقَسِّيَانِ الْقَلْبَ: كَثْرَةُ الْكَلاَمِ، وَكَثْرَةُ الأَكْلِ.

وَقَدْ مَرَّ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بِشَابٍ وَهُوَ مُسْتَغْرِقٌ فِي ضَحِكِهِ، فَقَالَ لَهَ: يَا فَتَى: هَلْ مَرَرْتَ بِالصِّرَاطِ؟! قَالَ : لا قَالَ: فَهَلْ تَدْرِي إِلَى الجَنَّةِ تَصِيرُ أَمْ إِلَى النَّارِ؟ قَالَ: لا. قَالَ : فَمَا هَذَا الضَّحِكُ؟ فَمَا رُؤِيَ الْفَتَى بَعْدَهَا ضَاحِكًا.

ثَانِياً: نَقْضُ الْعَهْدِ مَعَ الله بِكَثْرَةِ الذُّنُوبِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣]، وَفِي الْحَدِيثِ: «**إِنَّ المؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوداءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَى يَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَلِكَ**

(١) أخرجه الترمذي (١٦٣٣) ، والنسائي (٣١٠٨)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٣٠٨).
(٣) المطففين : ١٤.

الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ»[١]، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْقَلْبُ إِذَا قَلَّتْ خَطَايَاهُ أَسْرَعَتْ دَمْعَتُهُ.

فَإِذَا أَرَدْتُم رِقَّةَ قُلُوبِكُمْ فَعَلَيْكُمْ:

أولاً: بِقَرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَسِيرَةِ الْبَكَّائِينَ مَعَ سَمَاعِ الموَاعِظِ وَكَثْرَةِ الذِّكْرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[٢]، قَالَ ابْنُ الْقَيِّم: (إِنَّ فِي الْقَلْبِ قَسْوَةٌ لا يُذِيبُهَا إِلاَّ ذِكْرُ الله- تَعَالَى)، وَقَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ أَشْكُو إِلَيْكَ قَسْوَةَ قَلْبِي، قَالَ: أَذِبْهُ بِالذِّكْرِ. وَفِي الْحَدِيْثِ: (وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ)[٣].

ثانياً: كَثْرَةُ الطَّاعَاتِ وَتَذَكُّرُ الموتِ: فَفِي الصَّحِيحَينِ: أَنَّه ﷺ عَادَ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ﷺ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَجَدَهُ فِي غَاشِيَةٍ، فَقَالَ: «**قَدْ قضى؟**» قَالُوا: لا يَا رَسُولَ الله، فَبَكَى ﷺ، فَلَمَّا رَأَى الْقَومُ بُكَاءَهُ ﷺ بَكَوا، فَقَالَ: «**أَلا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَينِ وَلا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا**- وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ- **أَوْ يَرْحَمُ**»[٤].

وَشَكَتِ امْرَأَةٌ لِعَائِشَةَ قَسْوَةَ قَلْبِهَا، فَقَالَتْ: (أَكْثِري ذِكْرَ الموْتِ يَرِقُّ قَلْبُكِ وَتَقْدِري عَلَى حَاجَتِكَ)، قَالَتْ: فَفَعَلْتُ، فَوَجَدْتُ أَنَّ قَلْبِي رَقَّ، فَجَاءَتْ تَشْكُرُ لِعَائِشَةَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ: بِمَ تَلِينُ الْقُلُوبُ؟ قَالَ: بِأَكْلِ الْحَلالِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وحسنه الألباني.

(٢) المائدة: ٨٣.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، عن العرباض بن سارية ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (١٢٤٢) عن عبد الله بن عمر ﷺ.

دِينُنَا وَسَطٌ، وَلا يُفْهَمُ مِنَ الْـحَثِّ عَلَى الْبُكَاءِ وَالتَّبَاكِي خَشْيةً لله، أَنَّهُ دَعْوَةٌ لِلْكَدَرِ وَالرَّهْبَنَةِ، وَلا إِلَى مَا يَقُولُهُ أَحَدُهُمْ: (مَا ضَحِكْتُ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً)، فَرَسُولُنَا كَانَ يَضْحَكُ، وَلَكِنَّهُ لا يَسْتَجْمِعُ ضَاحِكاً، وَلا يُفْرِطُ فِي الضَّحِكِ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: «**لا تُكْثِرُوا الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ**»[1].

اعْلَمُوا أَنَّهُ لا بُدَ مِنَ الْقَلَقِ وَالْبُكَاءِ، إِمَّا فِي زَاوِيَةِ التَعَبُّدِ وَالطَّاعَةِ، أَوْ فِي هَاوِيَةِ الطَّرْدِ وَالإِبْعَادِ، فَإِمَّا أَنْ تَحْرِقَ قَلْبَكَ بِنَارِ الدَّمْعِ عَلَى التَّقْصِيرِ وَالشَّوقِ إِلَى لِقَاءِ العَلِيِّ الْقَدِيرِ، وَإِلا فَاعْلَمْ أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَراً، ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[2].

فَانْظُرُوا إِلَى الْبَكَّائِينَ الْـخَاشِعِينَ تَرَوْنَهُمْ عَلَى شَواطِئِ أَنْهَارِ الدُّمُوعِ نُـزُولاً، فَلَوْ سِرْتُمْ عَنْ هَواكُمْ خَطَوَاتٍ لاحَتْ لَكُمْ خِيَامُهُمْ.

اللَّهُمَّ إِنَا نَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ عَينٍ لا تَدْمَعُ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤١٩٣) عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني.
(٢) التوبة: ٨٢.

المحاضرة (٢٤)

احذر أن تلحقك اللعنات

رِحْلَتُنَا الْأَثَرِيَّةُ المحْرَابِيَّةُ تَحُطُّ فِي (حَيِّ الشَّرْقِ) مِنْ مُحَافَظَةِ (الْعَاصِمَةِ) حَيْثُ ذَكَرْنَا سَابِقاً بَعْضاً مِنْ مَسَاجِدِهِ الْأَثَرِيَّةِ، وَالْيَوْمَ نُكْمِلُ بَقِيَّةَ المسَاجِدِ الْقَدِيمَةِ فِيهِ، وَهِيَ:

١ـ مَسْجِدُ (النَّاهِضُ) كَانَ وَلا يَزَالُ يَقَعُ فِي حَيِّ الشَّرْقِ فِي بَرَاحَةِ المَاصِّ قُرْبَ المدْرَسَةِ الشَّرْقِيَّةِ لِلْبَنَاتِ، وَهُوَ الْآنَ خَلْفَ مَسْجِدِ المنَاعِي، أَسَّسَهُ بِنَفْسِهِ السَيِّدُ نَاهِضُ بْنُ عَلِيٍّ السَّهْلِيِّ عَامَ (١٨٨٢م) الَّذِي كَانَ يَنْقُلُ الصَّخْرَ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى المسْجِدِ لِيَصْنَعَ أَسَاسَ المسْجِدِ، وَقَدْ أَعَادَتْ الْأَوْقَافُ بِنَاءَهُ مِنْ جَدِيدٍ عَامَ (١٩٥٦م)، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الملا عَبْدُ الله بِنُ مُحَمدٍ التَّرْكِيتِ الَّذِي كَانَ يَدرسُ فِي المدْرَسَةِ التَّابِعَةِ لِلْمَسْجِدِ.

٢ـ مَسْجِدُ (أَحْمَدُ الْعَبْدَ الله) وَيَقَعُ فِي حَيِّ هِلال المطِيري عَلَى شَارِعِ خَالِدِ ابْنِ الْوَلِيدِ، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ اسْمُ أَحْمَدَ الْعَبْدَ الله، نِسْبَةً لِإِمَامٍ صَلَّى فِيهِ طَوِيلاً، وَيُسَمَّى مَسْجِدَ مُحَمَّد سَعِيد بنِ مُحَمدِ الْعطِيبِي، أُسِّسَ عَامَ (١٩١٤م)، وَقَدْ جَدَّدَتْهُ الْأَوْقَافُ عَامَ (١٩٥٥م)، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الملا أَحْمدُ بنُ صَالِحٍ الضُّلِيعِي.

٣ـ مَسجدُ (القطَامِي) وَكانَ يَقعُ قَرِيباً مِنَ الوَكَالةِ السِّيَاسِيةِ القَدِيمةِ، ثُمَّ أَصبحَ مَوقِعُه الآنَ قُربَ مَبنَى وَزَارَةِ الصِّحَّةِ العَامةِ خَلفَ دِيوَانِ الشَّملانِ عَلى الخَلِيجِ، أَسَّستْهُ السيدةُ (مَلكةُ بِنتُ مُحمّد الغَانِمُ) عَامَ (١٨٣٤م)، وَقدْ بُنِيَ صَغِيراً ثُمَّ وُسِّعَ مِنَ الجِهَةِ الجْنُوبِيةِ، وَفِي عَامِ (١٩٥٣م) أَعَادَتْ وَزارَةُ الأَوقَافِ بِناءَهُ، وَمِن أَشهَرِ أَئمتِهِ الملا (حُسينُ بنُ عبدِ الله التركيتُ وَابنُهُ مُحمدُ

صَالحُ وابنُهُ مُحمدُ).

٤ـ مَسْجِدُ (سَعْد أَخُو نَاهِضٍ) وَيَقَعُ فِي أَقْصَى الشَّرْقِ مِنْ جِهَةِ المسْتَشْفَى الْأَمِيرِيِّ قُرْبَ المرْسَم الْـحُرِّ عَلَى سَاحِلِ الْخَلِيجِ، أُسِّسَ عَامَ (١٩١٦م)، وَقَدْ أَعَادَتِ الْأَوْقَافُ بِنَاءَهُ عَامَ (١٩٥٤م) ثُمَّ رَمَّـمَتْهُ عَامَ (٢٠٠٢م)، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الشَّيْخُ عِيدُ بْنُ إبْدَاح المطِيرِيُّ.

إِنَّهَا مَسَاجِدُنَا كَتَبَتْ آثَارَنَا وَصَلَّى بِهَا أَعْلامُنَا وَأَئِمَّتُنا، وَبَعْدَ هَذَا الموجَزِ عَنْ تَارِيخِهَا تَعَالَوا لِنَسْتَمِع لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعنوان: (حَاذِرْ أَنْ تَلْحَقَكَ اللَّعْنَةُ).

لَقَدْ عَاقَبَ اللهُ – تَعَالَى – إِبْلِيسَ وَالْكَافِرِينَ بِاللَّعْنَةِ، فَطَرَدَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ، وَبِمَا أَنَّ اللَّعْنَةَ (طَرْدٌ عَنْ بَابِ رَحْمَةِ الله- تَعَالَى) فَقَدْ نُهِينَا أَنْ نَنْعَتَ بَعْضَنَا بِالمَلْعُونِ أَوْ المَلْعُونَةِ، أَوْ أَنْ نَدْعُوَ عَلَى أَنْفُسِنَا بِاللَّعْنَةِ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ أَنَّ عَبْدَ المَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ دَعَا خَادِمَهُ فَكَأَنَّهُ أَبْطَأَ عَلَيْهِ فَلَعَنَهُ، فَقَالَتْ لَهُ أُمُّ الدَّرْدَاءِ: إِنَّ النبِيّ ﷺ قَالَ: «**لا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

فَإِيَّاكُمْ أَحْبَابِي وَاللِّعَانَ، وَأَنْتُنَّ أَخَوَاتِي القَارِئَاتِ خَاصَّةً اتَّقِينَ اللهَ وَلا تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَحَذَارِ مِنْ التَّعَرُّضِ لأَسْبَابِ اللَّعْنِ، فَفِي الحَدِيثِ: «**اتَّقُوا اللَّعانَيْنِ**». قَالُوا: وَمَا اللَّعَانَانِ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**الَّذِي يَتَخَلَّى**- أَيْ الَّذِي يَقْضِي حَاجَتَهُ- **فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِم**»(٢).

عِنْدَمَا طُلِبَ مِنْهُ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى المشْرِكِينَ، قَالَ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»(٣)، فَكَانَ ﷺ لا يَلْعَنُ شَخْصاً بِعَيْنِهِ، وَلَكِنَّهُ – صَلَوَاتُ رَبِي وَسَلامُهُ عَلَيْهِ – حَذَّرَنَا مِنْ صِفَاتٍ مَنْ كَانَتْ فِيهِ اسْتَوجَبَ اللَّعْنَ، وَهَذِهِ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٨) عن أبي الدرداء ﷺ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩) عن أبي هريرة ﷺ.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٩) عن أبي هريرة ﷺ.

الصِّفَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌ بِالنِّسَاءِ، وَأَهَـمُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ مَا يَلِي:

أَولاً: السَّابُّ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فَهُمْ رُفَقَاءُ دَعْوَتِهِ الَّذِينَ أَثْنَى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِمْ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، فَحُبُّهُم دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى عَدَالَتِهِمْ، قَالَ ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَداً أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**»[1].

يَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (إِنْ كَانَ مُسْتَحِلاً لِسَبِّ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ - فَهُوَ كَافِرٌ)، وَفِي الحَدِيثِ: «**مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالملائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجمعينَ**»[2].

وَسُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَمَّنْ يَشْتِمُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ . فَقَالَ: مَا أَرَاهُ عَلَى الإِسْلامِ.

ثَانِياً: المشِيرُ لِأَخِيهِ بِالسِّلاَحِ: مَازِحاً كَانَ أَمْ جاداً، وَهُوَ فِعْلُ السُّفَهَاءِ، رَوَى مُسْلِمٌ: «**مَنْ أَشَارَ إِلى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الملائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَنْزِعَ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ**»[3]، وَفِي الرِّوَايَةِ المتَّفَقِ عَلَيْهَا: «**لا يُشِرْ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلاحِ، فَإِنَّهُ لا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ**»[4].

قَالَ النَّوَوِيُّ: (وَفِيهِ تَأْكِيدُ حُرْمَةِ المسْلِمِ، وَالنَّهْيُ الشدِيدُ عَنْ تَرْوِيعِهِ وَتَخْوِيفِهِ وَالتَّعَرُّضِ لَهُ، هَزْلاً وَلَعِباً؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَسْبِقُهُ السِّلاحُ، وَلَعْنُ الملائِكَةِ لَهُ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠) عن أبي سعيد الخدري ﵁.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٤٢) (١٢٧٤٠) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣٤٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦١٦) عن أبي هريرة ﵁.
(٤) أخرجه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧) عن أبي هريرة ﵁.

يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَرَامٌ)، وَيُقَاسُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِن آلاَتِ الْقِتَالِ مِثْلَ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ السُّفَهَاءِ المتَلاَعِبِينَ بِحَيَاةِ النَّاسِ، يَأْتِي بِالسَّيارَةِ مُسْرِعاً نَحْوَ شَخْصٍ وَاقِفٍ أَوْ جَالِسٍ، أَوْ يُشْهِرُ مُسَدَّساً أَوْ بُنْدُقِيَّةً فِي وَجْهِ الْآخَرِينَ.

ثَالِثاً: أَهْلُ الْبِدْعَةِ: وَالمبْتَدِعُ مَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ مَلْعُونٌ حَتَّى مَنْ آوَاهُ أَوْ حَمَاهُ، وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا فَعَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالملاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(١).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ: (وَهَذِهِ الْكَبِيرَةُ تَخْتَلِفُ مَرَاتِبُهَا بِاخْتِلافِ مَرَاتِبِ الْحَدَثِ فِي نَفْسِهِ؛ فَكُلَّمَا كَانَ الْحَدَثُ فِي نَفْسِهِ أَكْبَرَ كَانَت الكَبِيرَةُ أَعْظَمَ).

وَمِنْ أَعْظَمِ الْبِدَعِ **تَخْوِيفُ أَهْلِ المدِينَةِ**: فَفِي الحَدِيثِ: «**مَنْ أَخَافَ أَهْلَ المدِينَةِ ظُلْماً أَخَافَهُ اللهُ، وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالملائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ**»(٢).

رَابِعاً: الرِّبَا وَأَهْلُهُ: أَيُّهَا الأَحْبَابُ مِن الْأَسْبَابِ الَّتِي تُلْحِقُ اللَّعْنَةَ بِنَا أَكْلُ الرِّبَا، وَهُوَ مِن الكبَائِرِ الَّتِي يَمْحَقُ اللهُ - تَعَالَى - بِسَبَبِهَا المالَ وَأَهْلَهُ، وَفِي الحَدِيثِ: لَعَنَ رسول الله آكِلَ الرِّبا، وَمُوْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ. وَقَالَ: وَهُمْ سَوَاءٌ(٣).

خَامِساً: المتَشَبِّهُونَ بِالنِّسَاءِ وَالمتَشَبِّهَاتُ بِالرِّجَالِ: بَأَنْ يَلْبسَ الرَّجُلُ ثَوْبَ المرْأَةِ أَوْ تَلْبسَ المرْأَةُ ثَوْبَ الرَّجُلِ. وَقَدْ أَفْتَى الْعُلَمَاءُ بِأَنَّ وَضْعَ الْعَبَاءَةِ عَلَى الْكَتِفِ تَشَبُّهٌ بِالرِّجَالِ. وَفِي الحَدِيثِ: **لَعَنَ ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتَشَبِّهَاتِ مِن النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ**(١).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٣٠)، والنسائي (٤٧٤٨) عن علي ﷺ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٥٥) عن خلاد ﷺ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣٠٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٩٨) عن جابر ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٥) عن ابن عباس – رضي الله عنهما.

وَقِيلَ لِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إِنَّ امْرَأَةً تَلْبِسُ النَّعْلَ، فَقَالَتْ: لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ الرَّجِلَةَ مِنْ النِّسَاءِ[١]. فَمَا بَالُكَ اليَوْمَ بِمَا نَسْمَعُ عَنْ آخَرِ صَرعَاتِ الشَّيطَانِ مِنْ عَمَلِيَّاتٍ تُحَوِّلُ الرجُلَ أُنْثى أَوِ الْأُنْثَى ذَكَراً، وَالْعِيَاذُ بِالله- تَعَالَى.

سَادِسَاً: المَرْأَةُ النَّاشِزُ: وَهِيَ المسْخِطَةُ لِزَوْجِهَا، المُمْتَنِعَةُ عَنْ طَاعَتِهِ، فَطَاعَةُ المَرْأَةِ لِزَوْجِهَا بِالمعْرُوفِ مِنْ أَعْظَمِ مَا تَتَقَرَّبُ بِهِ المَرْأَةُ إِلَى رَبِّهَا، وَاسْتِرْضَاؤُهُ سَبَبٌ لِدُخُولِهَا الجَنَّةَ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيثِ «**أَنَّ خَيْرَ نِسَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ الْوَدُودُ الْوَلُودُ الَّتِي إِنْ غَضِبَتْ مِنْ زَوْجِهَا أَوْ غَضِبَ مِنْهَا زَوْجُهَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ حُجْرَتَهُ وَصَافَحَتْهُ، وَقَالَتْ: هَذِهِ يَدِي فِي يَدِكَ لا أَذُوقُ غَمْضاً حَتَى تَرْضَى**»[٢].

وفِي المقَابِلِ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ الزَّوجِ وَتَكْدِيرَ حَيَاتِهِ ذَنْبٌ عَظِيمٌ، وَمَعْصِيَةٌ تُؤَدِّي بِالمرْأَةِ إِلَى غَضَبِ الله وَلَعْنَتِهِ، إِذَا كَانَ زَوْجُهَا صَالِحاً لا يَأْمُرُهَا إِلا بِخَيرٍ، وَلا يَطْلُبُ مِنْهَا إِلا مَا تُطِيقُهُ نَفْسُهَا مِن الأُمُورِ المعْرُوفَةِ لا المنْكَرَةِ، وَفِي الحَدِيثِ: «**أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا دَعَا امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فأبت، فبات غضبان عليها**- وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَانِعٌ مِنْ مَرَضٍ أَوْ غَيرِهِ- **لَعَنَتْهَا الملائِكَةُ حَتَى تصبح**»[٣]، وَفِي رِوَايَةٍ «**حَتَّى تَرْجِعَ**»، وَمِثْلُهُ لَوْ مَنَعَهَا مِن الذَّهَابِ لِمَكَانٍ مُعَيَّنٍ. **قَالَ النوويُّ**: (وَالمعْنَى أَنَّ اللَّعْنَةَ تَسْتَمِر عَلَيْهَا حَتَّى تَزُولَ المعْصِيَةُ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ وَالاسْتِغْنَاءِ عَنْهَا، أَوْ بِتَوْبَتِهَا وَرُجُوعِهَا إِلَى الْفِرَاشِ).

سَابعاً: المتَبَرجَةُ الْكَاسِيَةُ الْعَارِيَةُ: فَهِيَ شَرُّ نِسَائِنَا، لا تَدْخُلُ الجَنَّةَ وَلا تَشُمُّ رَائِحَتَهَا، تَسْتُرُ بَعْضَ بَدَنِهَا، وَتَكْشِفُ بَعْضَهُ إِظْهَاراً لِجَمالِهَا، وَفِي الحَدِيثِ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا.. وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٩٩) عن عائشة – رضي الله عنها، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ١٤٠) (١٥٩٧٨) عن كعب بن عجرة ﷺ، وصححه الألباني عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في الصحيحة (٢٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦) عن أبي هريرة ﷺ.

الْبُخْتِ الْعِجَافِ-أَيْ مِثْل سنَامِ الجِمَالِ الهَزِيلَةِ- **الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٍ**»[١] .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ: (وَأَمَّا مَعْنَى قَوْلِهِ: كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، فَإِنَّهُ أَرَادَ اللَّواتِي يَلْبِسْنَ مِن الثِّيَابِ الشَّيْءَ الخَفِيفَ الَّذِي يَصِفُ وَلا يَسْتُرُ؛ فَهُنَّ كَاسِيَاتٌ بِالاسْمِ، عَارِيَاتٌ فِي الحَقِيقَةِ)، وَقَدْ كَانَ عُمَرُ ﷺ يَقُولُ: (لا تُلْبِسُوا نِسَاءَكُمْ القَبَاطِي- ثِيَابٌ رَقِيقَةٌ- فَإِنَّهُ إِن لا يَشف يَصِفُ).

ثَامِناً: المغيِّرَاتُ لِخَلْقِ الله- تَعَالَى: المتَّبِعَاتُ لِلشَّيْطَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [٢]، وَفِي الحَدِيثِ: «**لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالمسْتَوْشِمَاتِ وَالنامِصَاتِ وَالمتَنَمصَاتِ وَالمتَفَلجَاتِ لِلْحُسْنِ المغَيرَاتِ خَلْقَ الله**»[٣].

وَالْوَاشِمَةُ: هِيَ الَّتِي تَغْرِزُ الإِبَرَ فِي البَدَنِ ثُمَّ تَحْشُوهُ بِكُحْلٍ أَوْ نَحْوِهِ سَواءً فِي الْوَجْهِ أَوْ فِي غَيرِهِ، وَالمسْتَوْشِمَةُ الَّتِي تَطْلُبُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا النَّمْصُ: فَهُوَ نَتْفُ شَعْرِ الحَاجِبَينِ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ.

وَأَمَّا التَّفَلُّجُ: فَهُوَ بَرْدُ مَا بَينَ الأَسْنَانِ الثَّنَايا وَالرُّبَاعِياتِ.

تَاسِعاً: أَيُّهَا الأَخَواتُ: وَمِمَّنْ لَعَنَهُنَّ النَّبيُّ ﷺ: الخَامِشَةُ وَجْهَهَا، وَالشَّاقَّةُ جَيْبَهَا، وَالدَّاعِيةُ بِالْوَيلِ وَالثُّبُورِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ، فَتَفْعَلُ هَذِهِ الأَفْعَالَ عِنْدَ المصِيبَةِ.

اللَّهُم لا تَطْرُدْنَا مِنْ رَحْمَتِكَ، وَاعْصِمْنَا مِمَّا يُلْحِقُ بِنَا لَعْنَتَكَ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) النساء: ١١٩.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٤٦٠٤) عن عبد الله ﷺ.

المحاضرة (٢٥)

لا تكن أعجز الناس

تَحُطُّ بِنَا عَصَا التِّرْحَالِ مَرَّةً أُخْرَى فِي (مُحَافَظَةِ الْعَاصِمَةِ) فِي (حَيِّ المِرْقَـابِ) لِنَسْتَكمِلَ مَا بَقِيَ مِنْ مَسَاجِدِهِ الأَثَرِيَّةِ، وَمِنْ أَهَمهَا مَا يَلِي:

١ـ **مَسْجِدُ (الفُلَيج)** وَكَانَ يَقَعُ فِي حَيِّ الْفُوزَانِ فِي الجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ مَبْنَـى مُجَمَّعِ الْوَزَارَاتِ عَلَى شَارِعِ الهِلالِيِّ. أَسَّسَهُ الْـحَاجُّ فُلِيج الْعَلي عَـامَ (١٩٦٦م)، وَجَدَّدَتْهُ الْأَوْقَافُ عَامَ (١٩٥٢م)، وَمِنْ ثَمَّ هُدِمَ وَبُنِيَ مَكَانَهُ مُجَمَّعُ الْـوزَارَاتِ وَانْتَقَلَ إِلَى قُرْطُبَةَ. وَمِنْ أَشْهَرِ مَنْ صَلَّى فِيهِ إِمَاماً وَمُؤذناً الملا سُلَيمَانُ الْخَلِيفِـي، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ تُسَاعِدُهُ فِي تَنْظِيفِ المَسْجِدِ.

٢ـ الَّذِي يَمُرُّ بِشَارِعِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مِنْ نَاحِيَةِ دَوَّارِ الْبَرَكَةِ قَاصِداً مُجَمَّـعَ الْوزَارَاتِ الْـجَدِيدِ يُشَاهِدُ عَنِ اليَسَارِ مَنْطِقَةً قَدِيمة كَانْتَ تُعْرَفُ- ومَا زَالَتْ- بِاسْمِ (مَنْطِقَـةِ الحَمـدِ) نِسْـبَةً لأُسْرَةِ الحَمـدِ، وَفِي هَـذِهِ المنْطِقَـةِ كَـانَ وَمَـا زَالَ (**مَسْجِدُ الْـحَمدِ**) الَّذِي أَسَّسَهُ العِرَاقِيُّ خَالِـدُ بْـنُ عَبْـدِ اللَّطِيـفِ الحَمـدِ عَـامَ (١٨٩٠م) عَلَى قِطْعَـةِ أَرْضٍ وَهَبَتْهَـا لَهُـمْ الحُكُومَـةُ الْكُويْتِيَّـةُ، وَقَـدْ جُـدِّدَ فِي الْخَمْسِينَاتِ، ثُمَّ أُعِيدَ بِنَاؤهُ عَامَ (١٩٧٥م)، وَفِي عَـامِ (٢٠٠٢م) رُمِّـمَ، وَمِـنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الملا نَاصِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ المسفرُ.

هَذِهِ المَسَاجِدُ الأَثَرِيَّةُ كَانَتْ وَمَازَالَتْ جَامِعَـاتٍ يُـدَرِّسُ فِيهَـا أَئِمَّـةٌ كِبَـارٌ، فتَعَالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَلِقاؤُنَا الْيَومَ بعنوان: (**لا تَكُنْ أَعْجَزَ النَّاسِ**).

إِذَا تَزَاحَمَ النَّاسُ عَلى بَابِ المخْلُوقَاتِ وَتَدافَعُوا، فَلا تَغْفَلُوا عَنْ طَرْقِ بَابِ الْكَرِيمِ بِدُعَائِهِ، فَفِي الْـحَدِيثِ: «**مَنْ نَزَلَتْ بِه فَاقةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالناسِ لَمْ تُسَدّ فَاقَتُهُ،**

ومَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالله، فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرزْقٍ عَاجِلٍ، أَوْ آجِلٍ»[١].

وَالدُّعَاءُ هُوَ الابْتِهَالُ بِالسُّؤَالِ، وَالرَّغْبَةُ فِيمَا عِنْدَ الله مِنَ الخَيْرِ مَعَ إِظْهَارِ غَايَةِ التَذَلُّلِ وَالافْتِقَارِ إِلى الله وَالاسْتِكَانَةِ لَهُ. وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ - تَعَالَى - بِدُعَائِهِ وَحَثَّنَا عَلَيْهِ وَوَعَدَنَا بِالإِجَابَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٢]، فَسَمَّى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - الدعَاءَ عِبَادَةً. قَالَ شَيخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ - رَحِمَهُ اللهُ: الدعَاءُ مِنْ أَعْظَمِ الدِّين، وَفِي الحَدِيثِ: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ على الله- سُبْحَانَهُ - مِنَ الدّعَاءِ**»[٣].

أقسام الدعاء: وَيْنَقَسِمُ الدعَاءُ إِلَى: **دُعَاءِ عِبَادَةٍ وَتَوْحِيدٍ وَثَنَاء**: كَقَوْلِكَ: يَا اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، وَكَقَوْلِكَ: رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ. وَإِلَى **دُعَاءِ مَسْأَلَةٍ بِالعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ، أَوْ بِالعَافِيَةِ وَنَحْوِهَا**: كَقَوْلِكَ : اللَّهُمَ اغْفِرْ لَنَا، أَوْ اللَّهُمَ ارْزُقْنِي مَالاً وَوَلَداً.

والدعَاءُ إِنَّمَا يَكُونُ: رَغْبَةً فيمَا عِنْدَ الله- جَلَّ جَلالُهُ - مِنَ الثَّوابِ الْعَاجِلِ وَالنَّعِيمِ المقِيمِ، **أَوْ رَهْبَةً مِمَّا** أَعَدَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْعَذَابِ المقِيمِ وَالنَّكَالِ وَالجَحِيمِ، وَقَدْ أَثْنَى اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٤]، وَقَالَ- عَزَّ وَجَلَّ - آمِراً عِبَادَهُ المؤْمِنِينَ بِذَلِكَ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٥].

سَأَلَ الصَّحَابَةُ الكِرَامُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْماً: أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيهِ، أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ؟ فَنَزَلَ قَوْلُ الله - تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٣٢٦)، وصححه الألباني بلفظ: «**بموت عاجل أو غنى عاجل**».
(٢) غافر : ٦٠.
(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٠) عن أبي هريرة ﷺ، وحسنه الألباني .
(٤) الأنبياء : ٩٠.
(٥) الأعراف: ٥٥.

دَعَانِ﴾[١] ، وَالدُّعَاءُ عِبَادَةٌ عَظِيمَةُ الفَضْل، جَزِيلَةُ الشَّأْنِ، وَمِنْ أَهَمِّ فَضَائِلِ الدُّعَاءِ:

١ـ به يُستدفعُ البَلاءُ، ويُردُّ القَضاءُ، وَتُسْتَمطَرُ الرَّحَمَاتُ، وتُستدفع النّقِماتُ، وتُفرّجُ الشَّدَائد، وتُنفّسُ الكُرَبُ. وَفِي الحَدِيثِ: «**لا يَرُدّ القَضَاءَ إلا الدّعَاءُ، وَلا يَزِيدُ في العُمُرِ إلا البِرّ**»[٢]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ المسجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ- ورَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثنَا، فَرَفَعَ رَسُولُ الله يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهمَّ أَغِثْنَا. اللَّهمَّ أَغِثْنا. اللَّهمَّ أَغِثْنَا**»[٣]، فَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ.

وَكَمْ سَمِعْنَا عَمنْ أُغْلِقَتْ فِي وَجْهِهِ الأَبْوابُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَ طَرَقَ بَابَ مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ، وَأَلَحَّ عَلَى الله فِي الدُّعَاءِ، فَفُتِحَتْ لَهُ الْأَبْوَابُ، وَانْفَرَجَ مَا بِهِ مِنْ شِدَّةٍ وَضِيقٍ، وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ أُولئِكَ النَّفَرِ الثَّلاثَةِ الَّذِينَ دَخَلُوا غَاراً فأغْلَقَتْ عليهِمُ البَابَ صَخْرةٌ عَظِيمَةٌ، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إلا أَنْ دَعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِهِم وَأَخْلَصِهَا، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ وَخَرَجُوا يَمْشُونَ[٤].

٢ـ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ الدُّعَاءِ- أَيُّهَا الأَحْبَابُ: أَنَّ اللهَ يُحِبُّ الإلحَاحَ فِيهِ وَيَغْضَبُ لِتَرْكِهِ، فَقَدْ كَانَ ﷺ يُلِحُّ فِي الدُّعاءِ، وَيُحَدِّثُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَدْعُ اللهَ غَضِبَ اللهُ عَليهِ، وَمَا ذَلِكَ إلا لأَنَّ العَبْدَ مُفْتَقِرٌ إلى الله فِي جَمِيعِ أَحْوالِهِ ، فَمَنْ تَرَكَ الدُّعَاءَ كَأَنَّهُ اسْتَغْنَى عَنْ رَبِّهِ، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَركْتَ سُؤَالَهُ ... وبُنَيّ آدمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

---

(١) البقرة : ١٨٦.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٣٩) عن سلمان ﷺ، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما.

وَلِذَا كَانَتْ عَائِشَةُ- رَضِي اللهُ عَنْهَا- تَقُولُ: (سَلُوا اللهَ التَّيْسِيرَ فِي كُلِّ شَيءٍ، حَتَّى الشَّسْعَ فِي النَّعْلِ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ اللهُ لَمْ يَتَيَسرْ).

والشَّسْعُ: أَحَدُ سُيُورِ النَّعْلِ وَهُوَ الَّذِي يَدْخُلُ بَيْنَ الإِصْبَعَيْن.

قَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ الله المزنيّ: (يَنْزِلُ بِالْعَبْدِ الأَمْرُ فَيَدْعُو اللهَ فَيُصْرَفُ عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيُضْعِفُ شُكْرَهُ يقُولُ: إِنَّ الأَمْرَ كَانَ أَيْسَرَ مما تَذْهَبُ إِلَيْهِ)، وَأَوْرَدَ ابْنُ تَيْمِيَةَ- رَحِمَهُ اللهُ- عَنْ بَعْضِ السَّلفِ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَقَدْ بُورِكَ لَكَ فِي حَاجَةٍ أَكْثَرْتَ فِيهَا مِنْ قَرْعِ بَابِ سَيِّدِكَ.

٣ـ الدُّعَاءُ سِلاحُ المؤْمِنِ وَسَهمٌ لا يُخْطِئُ،بِه يُقَاتلُ، وبهِ يُدَافعُ، قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحمهُ اللهُ:

أَتَهْزأُ بِالدُّعَاءِ وتَزْدَرِيهِ ... ومَا تَدْري بِمَا صَنَع الدعاءُ

سِهَامُ اللَّيْلِ لا تُخْطِي وَلكنْ ... لَهَا أَمدٌ وَلِلأَمَدِ انْقِضَاءُ

فَيُمْسكُهَا إِذَا مَا شَاءَ رَبِّي ... وَيُرْسِلُهَا إِذَا نَفَذَ القَضَاءُ

وَللدُّعَاءِ مَعَ البَلاءِ ثَلاثُ مَقَامَاتٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَكونَ أَقْوى مِنَ البَلاءِ فَيْدَفَعُهُ.

الثَانِي: أَنْ يَكُونَ أَضْعَفَ مِنَ الْبَلاءِ فَيَقْوى عِليهِ البَلاءُ، فَيُصَابُ بِهِ العَبْدُ، وَلَكِنْ قَدْ يُخَفِّفُهُ.

الثالِثُ: أَنْ يَتَقَاوَمَا وَيَمْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ.

آداب الدعاء:

وَقَبْلَ أَنْ تَرْفَعَ يَدَيْكَ بِالدُّعَاءِ لابُدَّ لَكَ مِنْ إِخْلاصِ دُعَائِكَ لله- تَبَارَكَ وَتَعَالَى – مَعَ رَفْعِ اليَدَيْنِ؛ فَقَدْ رَفَعَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطَيْهِ كَمَا فِي

الصَّحِيح(١). وَلِرَفْعِ اليَدَيْنِ فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ، حَيْثُ يَسْتَحِي رَبُّكَ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً، وَحَبَّذَا لَوْ كُنْتَ مُتَوَضِّأً، مُسْتَقْبِلاً القِبْلَةَ كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْر، ثُمَّ إِذَا بَدَأْتَ بِالدُّعَاءِ فَلْيَكُنْ أَولَ دُعَائِكَ: الحَمْدُ وَالثنَاءُ وَالصلاةُ على رسول الله ﷺ، وَإِلا كُنْتَ مِنَ الْعَجِلِينَ الَّذِينَ لا يُجَابُ دُعَاؤُهُم، فَإِذَا بَثَثْتَ شَكْوَاكَ لِمَولاكَ فَكُنْ مُوقِناً بِالْإِجَابَةِ، وَلْيَكُنْ دُعَاؤُكَ فِي الرَّخَاءِ لا فِي الشدَّةِ فَقَطْ، فَمَنْ عَرَفَ اللهَ فِي الرخَاءِ عَرَفَهُ فِي الشِّدَّةِ، مَعَ عَزْمِ المسْأَلَةِ، دُونَ تَرَدُّدٍ، فَلا تَقلْ: اللَّهُمَ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، فَإِنَّهُ لا مُكْرِهَ لَهُ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِجَابَةَ لِدَعْوةِ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ.

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الرَّبِيعِ فَقَالَ: أَلا تَعْجَبُونَ مِنَ النَّاسِ وَكَثْرَةِ دُعَائِهِم وَقِلَّةِ إِجَابَتِهِمْ؟ فَقَالَ الرَّبِيع: تَدْرُونَ لِمَ ذَاكَ؟ إِنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ إِلا النَاخِلَةَ مِن الدُّعَاءِ، وَالَّذِي لا إِلهَ غَيْرُهُ لا يَسْمَعُ اللهُ مِن مُسمِّعٍ، وَلا مُرَاءٍ، وَلا لاعِبٍ، وَلا دَاعٍ، إِلا دَاعٍ دَعَا بِتَثَبُّتٍ مِنْ قَلْبِهِ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: مَنْ جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ قَلبَهُ فِي الدعَاءِ لَمْ يَرُدَّهُ.

وَحَذَارِ مِن الاعْتِدَاءِ فِي الدعَاءِ بِأَنْ تُنَادِي اللهَ- سُبْحَانَهُ - بِغَيْرِ أَسْمَائِهِ الوَارِدَةِ، أَوْ أَنْ تُبَالِغَ بِرَفْعِ صَوْتِكَ بِالدُّعَاءِ؛ فَإِنَّكَ تَدْعُو سَمِيعاً قَرِيباً، وَاجْتَنِبْ تَكَلُّفَ السَّجْعِ فِي دُعَائِكَ؛ فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ وَصَحْبَه كَانُوا يَجْتَنِبُونَهُ، وَلْيَكُنْ دُعَاؤكَ مُجْمَلاً لا مُفَصَّلاً، فَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مُغَفَّلٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ سَلِ اللهَ الجَنَّةَ، وَعُذْ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٠)، ومسلم (٨٩٥) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٨٠) عن سعد ﷺ، وابن ماجه (٣٨٦٤) عن عبد الله بن مغفل ﷺ، وصححه الألباني.

وَمِنْ مَظَانِّ إِجَابَةِ الدعَاءِ حُصُولُهُ فِي بَعْضِ الأَحْوالِ أَوْ الأَزْمَانِ أَوْ الأَمَاكِنِ، وَأَهَمُّهَا: الدعَاءُ بَيْنَ الأذَانِ وَالإِقَامَةِ فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وَعِنْدَ صُعُودِ الخَطِيبِ المِنْبَرَ يَوْمَ الجُمْعَةِ حَتى تُقْضَى الصَّلاةُ، وَفِي جَوفِ اللَّيلِ الآخِرِ، وَأَدْبَار الصَّلَواتِ المكْتُوبَةِ، وَفِي الموْقِفِ العَظِيم يَوْمَ عَرفةَ عِنْدَمَا يُبَاهِي رَبُّ العِزةِ - سُبْحَانَهُ - مَلائِكَتَهُ بِعِبَادِهِ الَّذِينَ أَتَوْهُ شُعْثاً غُبْراً، وَعِنْدَ نُزُولِ الْغَيْثِ، وَفِي كُلِّ يَومٍ مِنْ رَمَضَانَ عِنْدَ فِطْرِ الصَّائِم، وَفِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

وَكَمَا أَنَّ لِلدُّعَاءِ أَوْقاتاً لِلإِجَابَةِ هُنَاكَ مَوانِعُ تَحُولُ بَيْنَ الدعَاءِ وَبَيْنَ ارْتِفَاعِهِ لِلسَّمَاءِ، وَمِنْ أَهَمِّهَا ارْتِكَابُ الذنُوبِ وَالمعَاصِي، وَأَعْظَمُ المعَاصِي أَكْلُ الحَرام، فَإِنهَا تَسدُّ طُرُقَ الإِجَابَةِ، وَتُبْعِدُ عَنْ علامِ الغُيُوبِ، وَكَيْفَ يَقُولُ العَبْدُ: يَا رَبِّ طَالِباً شَيئًا وَهُوَ يُعَادِيهِ بِأَكْلِ الحَرَامِ.

كَمَا أَنَّ مِنْ موانِعِ الإِجَابَةِ **الدعَاءَ بِالإِثْمِ أَوْ اسْتِعْجَالَ الإِجَابَةِ وَتَرْكَ الدعَاءِ**، وَفِي الحَدِيثِ: «**لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**». قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، مَا الاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «**يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدّعَاءَ**»(١).

وَأَخِيراً، أَلَيْسَ لَكُمْ حَاجَةٌ- بَلْ حَاجَاتٌ - إِلَى رَبِّ الأَرْضِ وَالسَموَاتِ؟ فَهَلَّا انْطَرَحْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَحْسَسْتُمْ بِصِدْقِ المنَاجَاةَ، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِ هذا الحَدِيثِ «**أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجزَ عَنِ الدعَاءِ**»(٢).

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنا إِنَّكَ أَنْتَ السمِيعُ العَلِيمُ ، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّك أَنْتَ التوابُ الرحِيمُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٨٧٦٧) عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٤٤).

المحاضرة (٢٦)

الملائكة تصلي عليك

تَحُطُّ بِنَا عَصَا التِّرْحَالِ مَرَّةً أُخْرَى فِي (مُحَافَظَةِ الْأَحْمَدِي) لِنَسْتَكْمِلَ مَا بَقِيَ مِنْ مَسَاجِدِهَا الْأَثَرِيَّةِ، وَمِنْ أَهَمِّهَا مَا يَلِي:

١ـ مَسْجِدُ (عَبْدِ الْإِلَهِ) وَكَانَ يَقَعُ عَلَى شَارِعِ الْمَيْدَانِ الْقَدِيمِ في حي الوسط، وَأَمَّا الْآنَ فَمَوْقِعُهُ عَلَى شَارِعِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَيُسَمَّى مَسْجِدَ (صَادِق) نِسْبَةً لِإِمَامٍ كَانَ فِيهِ مِن الْعَوَضِيَّةِ اسْمُهُ صَادِق، أَسَّسَهُ السَّيِّدُ عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الْإِلَهِ الْقِنَاعِيّ مِنْ ثُلُثِ الْمَرْحُوم مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الْقِنَاعِيّ عَامَ (١٩١٢م)، وَفِي عَامِ (١٩٥١م) أَعَادَتِ الْأَوْقَافُ بِنَاءَهُ فِي مَكَانِهِ الْقَدِيمِ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الشَّيْخُ عَبْدُ الله الْأَعْرَجُ الْبَصْرِيُّ.

٢ـ ومن حي الوسط إلى محافظة (الأحمدي) حيث كَانَ أَهْلُ الْمَنْقَفِ فِي نِهَايَةِ الثَّلاثِينِيَّاتِ يَضَعُونَ خَطاً مِنْ طُوبٍ طِينِيٍّ دَاخِلَ مَنْزِل السَّيِّدِ خَلَفِ رَاشِدِ الْحَرْبِيِّ كَمُصَلى لإِقَامَةِ الصَّلاةِ، وَكَانَ يُؤَذِّنُ السَّيِّدُ خَلَفُ، بِيْنَمَا كَانَ الإِمَامُ السيِّدُ مُحَمدُ عَبْدُ الله الْعَمَّارُ وَالسَّيِّدُ مرْضِي الدوسَري، ثُم فِي فَتْرَةِ الستينياتِ بَنَتْ وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ شَبْرَة للصلاة في المنقف، فَلَمَّا نَزَحَ الْأَهَالِي عَنِ الْمَنْقَفِ إِلَى المَنَاطِقِ الْجَدِيدَةِ هُدِمَتِ الشَّبْرَةُ، وَفِي عَامِ (١٩٨٠م) أَسَّسَ السَّيِّدُ إِبْرَاهِيمُ هَبْدَانُ الْهَبْدَانُ مَسْجِداً قَرِيباً مِنْ مَوْقِعِ المَسْجِدِ الْقَدِيمِ فِي قِطْعَةِ (٤).

٣ـ مَسْجِدُ (الْأَحْمَدِي الْكَبِيرُ) وَيَقَعُ فِي جَنُوبِ شَرقِ مَدِينَةِ الْأَحْمَدِيِّ عَلَى شَارِعٍ مُتَفَرِّعٍ مِنَ الشَّارِعِ الْعَامِّ الْجَنُوبِيِّ رَقَمُ (٣٢) وَمِمَّا يُحِيطُ المكْتَبَةَ الْعَامَّةَ وَبَنْك التَّسْلِيفِ والادِخَارِ، افْتُتِحَ عَامَ (١٩٥١م) فِي عَهْدِ الشَيْخ عَبدِ الله السَّالم الصُّباحِ، وَقَدْ تَوَلَّتْ شَرِكَةُ النِّفْطِ إِنْشَاءَهُ وَلاَ تَزَالُ تَقُومُ بِصِيَانَتِهِ.

٤ـ مَسْجِدُ (**دَائِرَةِ الْأَمْنِ الْعَام**) أَسَّسَتْ هَذَا المسْجِدَ شَرِكَةُ زَيْتِ الْكُوَيْتِ بِأَمْرِ صَاحِبِ السُّمُو أَمِيرِ الْبِلاَدِ الشَّيْخ عَبْدِ الله السَّالِم الصُّبَاحِ، وَهُوَ فِي مَكَانِهِ الْقَدِيمِ.

بَعْدَ مُعَايَنَةِ الْآثَارِ وَالْحَدِيثِ عَنِ الْأَئِمَّةِ الْكِبَارِ - رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى - تَعَالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعنوان: (**مَنْ تُصَلِّي عَلَيهِ الملاَئِكَةُ؟**).

الدُّعَاءُ سِلاحُنَا، بِهِ نَلْهَجُ إِلَى رَبِّنَا، ونطلب من إِخْوَانِنَا أَنْ يَدْعُوا لَنَا، وَخَاصَةً إِذَا لَمَسْنَا مِنْهُم صَلاَحاً، وَتَوَسَّمْنَا بِهِم اسْتِجَابَةَ الدَّعْوَى، وَكَمْ تَغْمُرُنَا الْفَرْحَةُ إِذَا عَرَفْنَا أَنَّ عَالِماً صَالِحاً خَصَّنَا بِدُعَائِهِ، أَوْ أَنَّ تَقِيًّا مِنَ الأَتْقِيَاءِ ذَكَرَنَا فِي تَبَتُّلِهِ وَرَجَائِهِ، فَكَيْفَ لَوْ قِيلَ لَنَا: إِنَّ الملاَئِكَةَ هِيَ الَّتِي سَتَتَوَلَّى الدُّعَاءَ لَنَا وَالصَّلاَةَ عَلَيْنَا!!

الصَّلاةُ فِي اللغَةِ: الدُّعَاءُ، وَتَخْتَلِفُ فِي الشَّرْعِ حَسَبَ المصَلِّي والمصَلَّى عَلَيْهِ، فَصَلاتُنَا لله عِبَادَةٌ وَخُضُوعٌ وَأَدَاءُ رَكْعَاتٍ، وَصَلاةُ الله عَلَيْنَا مَغْفِرَةٌ وَتَنَزُّلُ رَحَمَاتٍ، وَعَلَى نَبِيِّهِ ثَنَاءٌ فِي الملأِ الأَعَلى وَرَفْعُ دَرَجَاتٍ. وَأَمَّا صَلاةُ الملائِكَةِ عَلَيْنَا فَهِي دُعَاءٌ لَنَا بِالمغْفِرَةِ وَالرَّحَمَاتِ قَالَ الله - تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾[1]، وَقَدْ خَصَّ النَّبِيُّ ﷺ أَعْمَالاً تُصَلِّي الملاَئِكَةُ عَلَى فَاعِلِهَا، وَهِيَ:

أَوَّلاً: مُعَلِّمُ النَّاسِ الْخَيْرَ: وَهِيَ أَعْظَمُ الوَظَائِفِ؛ لأَنَّهَا مِنْ وَظَائِفِ الرسُلِ الْكِرَامِ قَالَ الله - تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[2]، وَمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ لِلسَّيْرِ عَلَى طَرِيقِهِمْ فِي تَعْلِيمِ النَّاسِ دِينَهُم وَإِرْشَادَهُم إِلَى الْخَيْرِ فَقَدْ نَالَ خَيْراً كَثِيراً، وَقَدْ ذُكِرَ لِرَسُولِ الله ﷺ

(١) الأحزاب : ٤٣.

(٢) الجمعة : ٢.

رَجُلانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِم، فَقَالَ ﷺ: «**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ**»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْلَ السماواتِ وَالأَرْضِ حَتى النمْلَةُ فِي جُحْرِهَا وَحَتى الحُوتُ لَيُصَلّونَ عَلَى مُعَلِم النَّاس الخَيْرَ**»(١).

ثَانِياً: عِيَادَةُ المرِيضِ: وَفِي عِيَادَتِهِ إِينَاسٌ لِقَلْبِهِ، وَإِزَالَةٌ لِوَحْشَتِهِ، وَتَخْفِيفٌ مِنْ ألمِهِ، نَاهِيكَ عَنْ ثَوابِهِ الْـجَزِيلِ، فَالماشِي إِلَى المرِيضِ تُنَادِيهِ الملائِكَةُ: طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، فَهُوَ يَخُوضُ فِي الرَّحْمَةِ، حَتَّى إِذَا وَصَل عِنْدَ المرِيضِ وَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ بِالرَّحْمَةِ وَالمغْفِرَةِ، فَفِي الْـحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ يَقولُ اللهُ- عَزَّ وجلَّ - يومَ القِيَامَةِ: «**يَا بْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، كَيفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالمينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟**»(٢).

وَأَنْتَ أَخِي الْـحَبِيبَ عِنْدَمَا تَسْمَعُ بِأَخٍ لَكَ أَوْ صَدِيقٍ قَدْ حَبَسَهُ المرَضُ فَتَخْرُجَ لِزَيَارَتِهِ اعْلَمْ أَنَّ الملائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْكَ، فَفِي الحَدِيثِ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِماً إِلا يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيهِ فِي أَيِّ سَاعَاتِ النَّهَارِ حَتَّى يُمْسِي، وَفِي أَيِّ سَاعَاتِ اللَّيْلِ حَتَّى يُصْبِحَ**»(٣)، فَإِذَا وَصَلْتَ وَجَلَسْتَ عِنْدَهُ فَأَنْتَ فِي حَدِيقَةٍ مِنْ حَدَائِقِ الجَنَّةِ، فَفِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ المسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ المسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرفَةِ الجَنَّةِ حَتى يَرْجِعَ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا خُرفَةُ الجَنَّةِ؟ قَالَ: «**جَنَاهَا**»(٤) أَيْ: ثِمَارُهَا.

ثَالِثاً: الصَّلاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: هِيَ وِرْدُ المحِبِّينَ، وَإِشْرَاقَةُ نُورِهِمْ، وَقَدْ رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ بَخِيلٍ سَمِعَ اسْمَهُ ﷺ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) عن أبي أمامة الباهلي ﷺ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي (٩٦٩)، وأحمد (١/ ١١٨)، واللفظ له، عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٨) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ.

والصلاة على النبي ﷺ لا تَجِبُ إِلا عِنْدَ التَّشَهُّدِ الأَخِيرِ فِي الصَّلاةِ، وَيُسَنُّ الْإِكْثَارُ مِنْهَا كُلَّ حِينٍ، وَخَاصةً عِنْدَ الدُّعَاءِ، وَيَوْمَ الجُمعَةِ، فَيَرُدُّهَا الحَبِيبُ عَلَيْنَا وَنَنَالُ بِهَا شَفَاعَتَهُ، وَيُصلي بِهَا رَبُّنَا عَلَيْنَا وَمَلائِكَتُهُ، فَفِي الحَدِيثِ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي عَلَيَّ إِلا صَلَّتْ عَلَيْهِ الملائِكَةُ مَادَامَ يُصَلي عَلَيَّ، فَلْيُقِلَّ الْعَبْدُ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ**»(١).

رَابِعاً: صَلاةُ الله وَمَلائِكَتِهِ عَلَى أَهْلِ الجَمَاعَةِ: أَبْشِرُوا يَا مَنْ تَشْهَدُونَ الجَمَاعَاتِ، فَاللهُ وَمَلائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى أَهْلِ الصفِّ الأَولِ وَمَنْ عَلَى مَيَامِينِ الصُّفُوفِ، وَمَنْ يَصِلُ الصُّفُوفَ، وَيَسُدُّ الفُرَجَ، كَمَا أَنَّ مُنْتَظِرَ الصَّلاةِ تُصَلِي عَلَيْهِ الملائِكَةُ مُدَّةَ انْتِظَارِهِ؛ فَفِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ الملائِكَةَ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ أَوْ يُحْدِث**»(٢).

خَامِساً: لا تَتَكَاسَلَ عَنِ التَّطَهُّرِ قَبْلَ نَوْمِكَ فَتُحْرَمَ صَلاةَ مَلائِكَةِ رَبِّكَ، فَفِي الحَدِيثِ: «**مَنْ بَاتَ طَاهِراً بَاتَ فِي شِعَارِهِ- أَيْ ثَوْبِهِ- مَلَكٌ، فَلَمْ يَسْتَيْقِظْ إِلا قَالَ الملَكُ: اللَّهُمَ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ فُلان؛ فَإِنَّهُ بَاتَ طَاهِراً**»(٣).

سَادِساً: لازلنا فِي شَهْرِ الْخَيْرِ، تُفْتَحُ لَنَا أَبْوَابُ الرَّحَمَاتِ بِأَنْ نُفَطِّرَ الصَّائِمِينَ فَيُثِيبَنَا اللهُ بِثَوَابِهِ الْعَظِيمِ، وَمِنْهُ مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ تُصَلِّي عَلَى الصَّائِمِ إِذَا أُكِلَ عِنْدَهُ حَتى يَفْرَغُوا**»(٤)، كَمَا أَنَّ الملائِكَةَ تُصَلِّي عَلَى أَهْلِ الْأَكَلَةِ المبَارَكَةِ وَهِي أَكَلَةُ السَّحَرِ، فَفِي الحَدِيثِ: «**السُّحُورُ كُلُّهُ بَرَكَةٌ، فَلا تَدَعُوهُ وَلَوْ أَنْ يَجْرَعَ أَحَدُكُمْ جرْعَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّ اللهَ- عَزَّ وَجَلَّ - وَمَلائِكَتَهُ**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٩٠٧)، وأحمد (٣/ ٤٤٦) عن عامر بن ربيعة ﷺ، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٥)، ومسلم (٦٤٩) عن أبي هريرة ﷺ .

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٦٤٣) عن عمرو بن عبسة، وابن حبان (١٠٥١)، عن ابن عمر – رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٥٩٧).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٤٣٩٩)، عن أم عمارة بنت كعب – رضي الله عنها، وضعفه الأرناؤوط.

يُصَلُّونَ عَلَى المتَسَحِّرِينَ»(١).

وَأَخِيراً: إِذَا أَرَدْتَ الْخَيْرَ لِنَفْسِكَ فَادْعُ بِهِ لِلآخَرِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، فَهِيَ سُنَّةٌ حَسَنَةٌ دَرَجَ عَلَيْهَا الأَنْبِيَاءُ والصَّالِحُونَ، فَهُمْ يُحِبُّونَ لإِخوانِهِمُ المؤْمِنِينَ الْخَيْرَ، وَيَدْعُونَ لَهُمْ حَالَ غَيْبَتِهِمْ عِنْدَمَا يَدْعُونَ لأَنْفُسِهِمْ، قَالَ اللهُ- تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(٢)، لِما فِي ذَلِكَ مِن المحَبَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِرَادَةِ الْخَيْرِ لَهُمْ وَالإِخْلاصِ للهِ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ الملائِكَةَ تُؤَمِّنُ عَلَى الدُّعَاءِ، وَتَدْعُو للدَّاعِي بِمِثْلِ مَا دَعَا لأَخِيهِ، فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّ رسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**دَعْوةُ المرءِ المسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الملَكُ الموكَّلُ بِهِ: آمِين، وَلَكَ بِمِثْلٍ**»(٣).

اللَّهُمَ اغْفِرْ لَنَا جَمِيعاً خَطِيئَاتِنَا، وَجَهْلَنَا، وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا.

اللَّهُمَ اغْفِرْ لَنَا مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرحِيمُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢) عن أبي سعيد الخدري، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٨٣).

(٢) الحشر : ١٠.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٣٣)، عن أم الدرداء – رضي الله عنها.

المحاضرة (٢٧)

كُنْ رَفِيقًا وَلَا تَعْجَلْ

نَنْتَقِلُ مِنْ حَيٍّ لِحَيٍّ، نَتَعَرَّفُ على مَا فِيهِ مِنَ المَسَاجِدِ الْأَثَرِيَّةِ، وَمِنْ مَسَـاجِدِ الْقِبْلَةِ الْأَثَرِيَّةِ وزِيَادَةً عَلَىَ مَا ذَكَرْنَا سَابِقًا مَا يَلِي:

١ـ مَسْجِدُ (**ابْنُ سَلَامَةَ**) وَهُوَ مِنْ أَقْدَمِ مَسَاجِدِ الْكُوَيْتِ، أَسَّسَهُ سَلَامَةُ بـنُ سَلَامَةَ عَامَ (١٨١٠م)، وَيَقَعُ فِي حَيِّ الخَشتَيِّ غَرْبَ الْبَنْكِ المَرْكَزِيِّ، وَهُوَ مِـنْ أَوَائِلِ المَسَاجِدِ الَّتِيْ هُدمَتْ لِتَنْظِيمِ المَنْطِقَـةِ تِجَارِيًّـا، وَانْتَقَـلَ إِلَى الرُّمَيْثِيَّـةِ عَـامَ (١٩٦٦م)، أَمَّ فِيهِ المُلَّا عَبْدُ الْعَزِيزِ التُّورَة.

٢ـ وَمِنْ مَسْجِدِ (ابْنِ سَلَامَةَ) أَنْتَقِلُ بِكُمْ إِلَى حَيِّ عَبْدِ الْـجَلِيلِ عَلَى سَـاحِلِ الْبَحْرِ؛ حَيْثُ أَسَّسَ قَاضِي الْكُوَيْتِ (**أَحْمَدُ عَبْدُ الله العَبْدُ الجلِيلِ**) مَسْجِدَ (عَبْـدِ الجلِيلِ) عَامَ (١٧٧٩م)، وَالَّذِي انْتَقَلَ فِيمَا بَعْدُ إِلَى الْفَيْحَاءِ قِطْعَة (٨)، وَأُطْلِـقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْقَاضِي. وَمِنَ الْعُلَـمَاءِ الْأَفَاضِـلِ الَّـذِينَ صَـلُّوا فِيـهِ المـلَّا (مَسْـعُودُ الهَقْهقَ) وَالَّذِي كَانَ إِمَامَهُ وَمُؤَذِّنَهُ وقائماً على خدمته.

٣ـ وَالَّذِي يَسِيرُ عَلَىَ شَارِعِ (**عَلِي السَّالمِ**) يُشَـاهدُ إِلَى الْآنَ المَسْـجِدَ الْأَثَـرِيَّ (المديرس) وَقَدْ أَسَّسَهُ (عَبْدُ الله مُحَمَّدُ المديرس) عَـامَ (١٨١٠م)، ثُـمَّ جَدَّدتـهُ وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ عَامَ (١٩٥٦م)، وَفِي عَام (١٩٨٤م) أَعَادَتْ الْوَزَارَةُ بِنَاءَهُ عَلَى أَحْدَثِ طِرَازٍ، وَكَانَ الملا عَبْدُ الله السُّلْطَانِ مِنْ أَوَائِلِ أَئِمَّتِهُ.

٤ــ وَخَلْـفَ مجلـس الْأُمَّـةِ لَا زَالَ يَقَـعُ مَسْـجِدُ (**السَّـايِرِ الْقِـبِلِيِّ**) شَرْقِـي المسْتَشْفَى الْأَمْرِيكَانِي، وَسُمِّيَ بالْقِبْلِيِّ تَمْيِيزًا لَهُ عَنِ السَّايِرِ الشَّرْقِيِّ، أُسِّسَ عَـامَ (١٩١٩م) وَفِي عَام (١٩٥٤م) قَامَتْ وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ بِإِعَادَةِ بِنَائِهِ مِنْ جَدِيـدٍ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهُ الشَّيْخُ (مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الجَرَّاح).

بَعْدَ مُعَايَنَةِ الْآثَارِ وَالحَدِيثِ عَنِ الْأَئِمَّةِ الْكِبَارِ- رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى - تَعَالَوْا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالْأَذْكَارِ، نُزَكِّيَ بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُو بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَوْمَ بعنوان: (**كُنْ رَفِيقًا وَلَا تَعْجَلْ**).

لَقَدِ اخْتَفَتْ شَمْسُ الهِدَايَةِ خَلْفَ غُيُومِ الْحَضَارَةِ المادِّيَّةِ، فَقَسَتِ الْقُلُوبُ وَغَادَرَتْهَا الرَّحْمَةُ، وَانْفرَطَ عِقْدُ المَوَدَّةِ، فَلَمْ يَعُدْ لِلرِّفْقِ وَاللُّطْفِ وَالتَّأَنِّي وُجُودٌ فِعْلِيٌّ عَلَى سَاحَةِ الْوَاقِعِ المادِّيِّ، فَإِذَا أَرَدْتَ فَلَاحَ أَمْرِكَ فَكُنْ رَفِيقًا هَيِّنًا وَلَا تَعْجَلْ، فَإِنَّ الْعَجِلَ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ، ويُجِيبُ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمَ، وَيَعْزِمُ قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ، تَصْحَبُهُ النَّدَامَةُ.

وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُكَنِّي عَنِ الْعَجَلَةِ (بِأُمِّ النَّدَامَاتِ)، كَمَا أَنَّ الْعُنْفَ فِيْ مُعَامَلَةِ النَّاسِ يُورِثُ الْعَدَاوَاتِ وَالْأَحْقَادِ وَيَدْفَعُ إِلَى الرَّغْبَةِ فِي الانْتِقَامِ، مَتَى سَنَحَتِ الْفُرْصَةُ لِتَنْفِيذِهِ، أَمَّا الرِّفْقُ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ فَهُوَ يُؤَلِّفُ بَيْنَ الْقُلُوبِ، وَيَمْتَلِكُ مَوَدَّتَهَا، وهو لَبُوسٌ حَسَنٌ، يُزَيِّنُ مُرْتَدِيهِ، وَفِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»[1]، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أُمَّتَهُ بِالرِّفْقِ، وَحَذَّرَهَا مِنَ الْعُنْفِ، رَوَى مُسْلِمٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِعَائِشَةَ: «**عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ**»[2]، وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّهُ**»[3]، وَجَاءَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: (أَلَا إِنَّ الرِّفْقَ رَأْسُ الحِكْمَةِ)، فَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤)، عن عائشة – رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٠)، عن عائشة – رضي الله عنها.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٢)، عن جرير ﵁.

يَتَغَلْغَلُ الرِّفْقُ فِي كُلِّ مُعَامَلَاتِنَا فَيَأْخُذُ أَشْكَالًا مُتَعَدِّدَةً مِنْ أَهَمِّهَا:

أَوَّلاً: الرِّفْقُ فِي الْعِبَادَةِ وَالدِّينِ: وَهُوَ تَحَمُّلُ النَّفْسِ مِنَ المسْنُونِ مَا تُطِيقُ، فَإِنَّ اللهَ يَرْضَى وَيُحِبُّ الصَّالِحَ الْيَسِيرَ مَعَ الصِّدْقِ وَالدَّوَامِ، وَقَهْرُهَا عَلَى الْغُلُوِّ يُوَلِّدُ رِدَّةَ فِعْلٍ مُعَاكِسَةً، كَالرَّاكِبِ المنْبَتِّ الَّذِي لَا سَفَرًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى، فَفِي الْحَدِيثِ: «**خُذُوا مِنَ الْعِبَادَةِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يمل حَتَّى تملوا**»[١].

ثَانِياً: الرِّفْقُ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ: وَتَرْكُ الشِّدَّةِ وَالجفَاءِ، وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ عَنِ الْغِلْظَةِ وَالشِّدَّةِ، قَالَ الله - تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢].

ثَالِثًا: الرِّفْقُ بِالخَدَمِ: بِأَنْ تُطْعِمَهُ مِمَّا تَأْكُلُ، وَتُلْبِسَهُ مِمَّا تَلْبَسُ، وَلَا تكَلِّفَهُ مَا لَا يُطِيقُ، فَإِنْ كَلَّفْتَهُ مَا لَا يُطِيقُ فَعَلَيْكَ أَنْ تُعِينَهُ، وَيَقُولُ ﷺ: «**مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ**»[٣] (يَجْعَلُهُ حُرًّا).

رَابِعًا: الرِّفْقُ بِالحيَوَانَاتِ: فَلَا يَجُوزُ حَبْسُها دُونِ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ تَعْذِيبُها، وَقَدْ مَرَّ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَلَى قَوْمٍ نَصَّبُوا أَمَامَهُمْ دَجَاجَةً، وَجَعَلُوهَا هَدَفًا لَهُمْ، وَأَخَذُوا يَرْمُونَهَا بِالحِجَارَةِ، فَقَالَ أَنَسٌ: نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تُصْبَرَ الْبَهَائِمُ (أَيْ: تُحْبَسُ وَتعذَّبُ وَتُقَيَّدُ وَتُرْمَى حَتَّى الموْتِ)[٤]، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللهَ- سُبْحَانَهُ - قَدْ غَفَرَ لِرَجُلٍ؛ لِأَنَّهُ سَقَى كَلْبًا كَادَ يَمُوتُ مِنَ الْعَطَشِ[٥]. بَيْنَمَا دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ؛ لِأَنَّهَا حَبَسَتْ قِطَّةً، فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا حَتَّى مَاتَتْ[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢) عن عائشة - رضي الله عنها.
(٢) آل عمران: ١٥٩.
(٣) أخرجه مسلم (١٦٥٧) عن ابن عمر - رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه البخاري (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٦) عن أنس رضي الله عنه.
(٥) أخرجه البخاري (٦٠٠٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٢٤٤) عن أبي صالح السمان رضي الله عنه.
(٦) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، عن ابن عمر - رضي الله عنهما، ومسلم (٢٦١٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَيَحْكِي ابْنُ مَسْعُوْدٍ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ، فَأَخَذُوا طَائِرَيْنِ صَغِيرَيْنِ مِنْ العُشِّ، فَجَاءَتِ الْأُمُّ تَطِيرُ وَتُرَفْرِفُ بِجَنَاحَيْهَا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا إِلَيْهَا وَلَدَهَا**»(١).

وَمِنَ الرِّفْقِ بِالحَيَوَانِ ذَبْحُهُ بِسِكِّينٍ حَادٍّ؛ حَتَّى لَا يَتَعَذَّب، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»(٢).

إِنَّ الْأُمُورَ الْكَبِيرَةَ لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُهَا إِلَّا بِالرِّفْقِ وَالتَّأَنِّي، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نُدْرِكَ بِرْفَقِنَا وَتَأَنِّينَا مَا لا نُدْرِكُهُ بِالْعُنْفِ وَالْعَجَلَةِ، أَلم تَرَ أَنَّ المَاءَ عَلَى لِينِهِ وَرِقَّتِهِ يَقْطَعُ الحَجَرَ عَلَى شِدَّتِهِ وَقَسْوَتِهِ، وَيَقُولُ الشَّاعِرُ:

الرِّفْقُ يُمْنٌ وَالْأَنَاةُ سَعَادَةٌ ... فَاسْتَأْنِ فِي رِفْقٍ تُلَاقِ نَجَاحًا

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

قَدْ يُدْرِكُ المتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

فَالمَدَرِّسُ الرَّفِيقُ بِطُلَابِهِ الحَرِيصُ عَلَى نَفْعِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ يَكْسَبُ وُدَّهُمْ وَاحْتِرَامَهُمْ، وَيُفْلِحُ فِي تَرْبِيَتِهِمْ وَإِفَادَتِهِمْ، وَذَلِكَ بِخِلَافِ المدَرِّسِ الْعَنِيفِ الْغَلِيظِ الْعَجِلِ.

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْآبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ: رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ مِنْ بَنَاتِكُمْ، وَرِفْقًا بِأَبْنَائِكُمْ صُنَّاعِ المجْدِ، فَإِنَّكُمْ بِرِفْقِكُمْ وَحُسْنِ أُسْلُوبِكُمْ تَصِلُونَ إِلَى مَا لا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَصِلُوا إِلَيْهِ بِالشِّدَّةِ وَالْعُنْفَ.

وَأَنْتَ يَا بُنَيَّ: رِفْقًا بِوَالِدَيْكَ، فَإِذَا كَانَ الرِّفْقُ مَطْلُوباً مَعَ الْآخَرِينَ فَهُوَ مَعَ وَالِدَيْكَ أَوْجَبُ وَأَوْلَى.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٦٨)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٥٥)، عن شداد بن أوس ﷺ.

أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ:

رِفْقًا بِبَعْضِكُمَا، فَقَدْ كَانَ ﷺ أَرْفَقَ وَأَرْحَمَ بِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - مِنْ أَبِيهَا.

أَيُّهَا المدَرَاءُ وَالدُّعَاةُ وَالمصْلِحُوْنَ وَالحكَّامُ:

رِفْقًا بِرَعَايَاكُمْ حَتَّى تُشَاد الحَضَارَةُ وَيَسْودَ الحُبُّ، وَحَاذِرُوا دَعْوَةَ النَّبِيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ**»[1]، وَدُعَاءُ الرَّسُولِ ﷺ مُسْتَجَابٌ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ عَائِذَ بْنَ عَمْرٍو دَخَلَ عَلَى عَبْدِ الله بْنِ زِيَادٍ فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ**»[2]- الشَّدِيدُ الْعَنِيفُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ.

التوازن في الأخلاق مذهب العقلاء:

فَقَدْ تَعْتَرِضُنَا مَوَاقِفُ كَثِيرَةٌ تَقْتَضِي مِنَّا رِفْقًا وَتَأَنِّياً، كَمَا تَمُرُّ بِنَا أَحْدَاث كَحَالَةٍ اسْتِثْنَائِيَّةٍ لَا يَنْفَعُ فِيهَا إِلَّا الشِّدَّةُ وَالْعَجَلَةُ، وَكَمَا أَنَّ الشِّدَّةَ فِي مَوْطِنِ الرِّفْقِ بَاعِثٌ عَلَى الْكُرْهِ وَالْفُرْقَةِ، فَإِنَّ الرِّفْقَ فِي مَوْطِنِ الشِّدَّةِ بَاعِثٌ عَلَى التَّمَرُّدِ وَالْفَسَادِ، وَفِي الشِّعْرِ:

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وَفِي غُرَرِ الْحِكَمِ: (اخْلطِ الشِّدَّةَ بِرِفْقٍ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقُ).

يَقُولُ الْغَزَالِيُّ: (لَـمَّا كَانَتِ الطِّبَاعُ إِلَى الْعُنْفِ وَالحِدَّةِ أَمْيَلَ، كَانَتِ الحَاجَةُ إِلَى تَرْغِيبِهِمْ فِي جَانِبِ الرِّفْقِ أَكْثَرَ، فَلِذَلِكَ أَكَّدَ الشَّرْعُ عَلَى جَانِبِ الرِّفْقِ دُونَ الْعُنْفِ، وَإِنْ كَانَ الْعُنْفُ فِي مَحَلِّهِ حَسَنًا، كَمَا أَنَّ الرِّفْقَ فِي مَحَلِّهِ أَحْسَنُ).

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٨) عن عائشة – رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣٠) عن عائذ بن عمرو رضي الله عنه.

وَعَلَيْهِ فَإِنَّ مَنْ لَا يُصْلِحُهُ الرِّفْقُ أَصْلَحَتْهُ الشِّدَّةُ، وَمَنْ لَمْ يَتَقَوَّمْ بِالمسَامَحَةِ تَقَوَّمَ بِالمحَاسَبَةِ، وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الرِّفْقَ يَكُونُ الرِّفْقُ مَعَهُ خَرْقًا، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الشَّاعِرَ أَبَا عَزَّةَ الْـجُمَحِيَّ عَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَخْرُجَ لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ خَرَجَ مَعَ الْكَافِرِينَ لِلْقِتَالِ وَأُسِرَ فَطَلَبَ الْعَفْوَ، فَقَالَ ﷺ: «**أَيْنَ مَا أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَهْدِ وَالميثَاقِ؟! لَا وَاللهِ لَا تَمْسَحُ عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ تَقُولُ: سَخِرْتُ بِمُحَمَّدٍ مَرَّتَيْنِ**»(١)، ثُمَّ ضَرَبَ عُنُقَهُ.

اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى أَنْ نَرْفُقَ بِأَنْفُسِنَا وَبِمَنْ حَوْلَنَا، وَلَا تَحْرِمْنَا رِفْقَكَ وَلُطْفَكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٦٥)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٤١).

المحاضرة (٢٨)

أَيْنَ يَذْهَبُ وَقْتُكَ؟

رِحْلَتُنَا الْأَثَرِيَّةُ المِحْرَابِيَّةُ تَحُطُّ بِنَا مَرَّةً ثَانِيَةً فِي (حَيِّ الشَّرْقِ) مِنْ (مُحَافَظَةِ الْعَاصِمَةِ)؛ لِنَسْتَكْمِلَ مَا بَقِيَ مِنْ مَسَاجِدِهِ الْأَثَرِيَّةِ، وَمِنْ أَهَمِّهَا مَا يَلِي:

١ـ مَسْجِدُ (دَسْمَان الكَبِير) يَقَعُ دَاخِلَ قَصْرِ دَسْمَانَ، أَسَّسَهُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ جَابِرُ الصُّبَاحُ عَامَ (١٩٢١م)، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الشَّيْخُ أَحْمَدُ غَنّامُ الرّشيدُ.

٢ـ مَسْجِدُ (دَسْمَان الصَّغِير) وَيَقَعُ دَاخِلَ قَصْرِ دَسْمَانَ - أَيْضاً - وَهُوَ أَصْغَرُ مِنَ السَّابِقِ، أَسَّسَهُ السَّيدُ هِلالُ المطِيرِيُّ عَامَ (١٩٣١م)، وَفِي عَامِ (١٩٥٥م) قَامَتِ الأَوْقَافُ بِبِنَاءِ مَنَارَةٍ صَغِيرَةٍ لَهُ وَمَحَل لِلْوُضُوءِ وَبَعْضِ التَّرْمِيمَاتِ، وَلا يُعْرَفُ مَنْ صَلَّى فِيهِ إِمَاماً إِلا الملا جَاسِمُ صَالِحُ المسبَاحُ.

٣ـ مَسْجِدُ (العَوضِي) وَيَقَعُ فِي فرِيجِ العَوَضِيَّةِ عَلَى شَارِعِ دَسْمَانَ سَابِقاً، وَأَمَّا الْآنَ فَإِنَّهُ لا يَزَالُ فِي مَوْقِعِهِ الْقَدِيمِ عَلَى شَارِعِ أَحْمَدَ الجَابِرِ، أَسَّسَهُ الحَاجُّ عَبْدُ الله مُحَمَّدُ هَادِي العَوضِي عَامَ (١٩٥٤م)، وَفِي عَامِ (١٩٩٨م) بُنِيَ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى أَحْدَثِ طِرَازٍ مِنْ ثُلُثِ المَرْحُومِ عَبْدِ الله مُحَمَدِ هَادِي العَوَضِيِّ، وَقَدْ صَلَّى فِيهِ الشَيْخُ مُحَمد بنُ أَحْمَدَ الخَلَفِ إِمَاماً أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

٤ـ مَسْجِدُ (الحْصص) وَيَقَعُ فِي بِنيدِ القَارِ قُرْبَ السَّفَارَةِ الأَمْرِيكِيَّةِ وَجَمْعِيَّةِ المهَنْدِسِينَ، تَأَسَّسَ عَامَ (١٩٤٥م) تَقْرِيباً بِتَبَرُّعٍ مِنْ بَعْضِ الْعَوَازِمِ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ حَمَدُ مُبارِكُ الهِيمُ، واسْتَمَرَّتِ الصَّلاةُ فِيهِ إِلَى أَنْ نَزَحَ الْأَهَالِي إِلَى المنَاطِقِ الجَدِيدَةِ، فَتوَقَّفَتِ الصَّلاةُ فِيهِ، وَأَصْبَحَ أَطْلالاً.

بَعْدَ مُعَايَنَةِ الْآثَارِ وَالحَدِيثِ عَنِ الْأَئِمَّةِ الْكِبَارِ - رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى - تَعَالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّيَ بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُوَ بِهَا قُلُوبَنَا،

وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعنوان: (**أَيْنَ يَذْهَبُ وَقْتُكَ؟**).

لَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ- تَعَالَى - بِالْوَقْتِ فِي القُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَقَالَ - تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[١]، وَقَالَ - تَعَالَى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[٢]، كَمَا أَقْسَمَ اللهُ - تَعَالَى - بِقَولِهِ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾[٣]. فَأَقْسَمَ بِهَذِهِ الأَوْقَاتِ لافِتاً أَنْظَارَ النَّاسِ إِلَى مَا فِيهَا مِنْ مَنَافِعَ.

الْوَقْتُ هُوَ عُمرُ الإِنْسَانِ، وَرَأْسُ مَالِهِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ؛ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ يَومٍ يَمْضِي عَلَى الْإِنْسَانِ يَأْخُذُ مِنْ عُمرِهِ وَيُقَرِّبُهُ إِلَى أَجَلِهِ، فَالإِنْسَانُ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعَةِ أَيامٍ؛ كُلُّ يَومٍ يُنْزَعُ مِنْهُ وَرَقَةٌ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ أَيامُهُ.

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ: (يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، كُلَّمَا ذَهَبَ يَومٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ).

وَصَلَّى اللهُ عَلَى حَبِيبِنَا وَرَسُولِنَا مُحَمَّدٍ القَائِلِ: «**اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هرَمك، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَصِحتَكَ قَبْلَ مَرَضِكَ، وَغنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ**»[٤].

وَهَا هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ يَقُولُ: (مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيءٍ كَنَدَمِي عَلَى يَومٍ غَرَبَتْ شَمْسُهُ، قَرُبَ فِيهِ أَجَلِي، وَلَمْ يَزِدْ فِيهِ عَمَلِي).

إِنَّ جَرِيمَةَ قَتْلِ الوَقْتِ وَتَبْذِيرِهِ مِنْ أَخْطَرِ الجَرَائِمِ وَأَشَدِّهَا فَتْكاً بِالأَفْرَادِ وَالمجْتَمَعَاتِ، فَهُوَ وَرَاءَ كُلِّ مُشْكِلَةٍ، وَسَبَبُ كُلِّ مُعْضِلَةٍ.

---

(١) العصر: ١، ٢.

(٢) الضحى : ١ ، ٢.

(٣) الليل : ١.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٨٤٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٧).

أسباب قتل الوقت:

إِنَّ هُنَاكَ جُمْلَةً مِـنَ الأَسْـبَابِ التِـي قَـدْ تُـؤَدي- مُجْتَمِعَـةً أَوْ مُنْفَـرِدَةً - إِلَى الإِخْلالِ بِالأَوْقَاتِ، وَبَعْضُ هَذِهِ الأَسْبَابِ أَخْطَـرُ مِـنْ بَعْـضٍ؛ لَكِنَّهَـا كُلَّهَـا مُؤَشِّرٌ عَلَى خَلَلٍ فِي الشَخْصِيَّةِ، وَلا بُدَّ أَنْ يَتَدَارَكَهُ المَرْءُ، فَمِنْ تِلْكَ الأَسْبَابِ مَا يَلِي:

أَوْلاً: عَدَمُ إِدْرَاكِ أَهَمِيةِ الوَقْتِ، وَنِسْيَانُ أَنَّ مَا مَضَى مِنَ الْوَقْتِ لا يَعُودُ وَلا يُعَوَّضُ، فَكُلُّ يومٍ يَمْضِي وَكُلُّ سَاعَةٍ تَنْقَضِي وَكُلُّ لَحْظَةٍ تَمُرُّ لَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ اسْتِعَادَتُهَا، وَبِالتالِي لا يُمْكِنُ تَعْويضُهَا.

ثَانِياً: الْقُدْوَةُ السيِّئَةُ وَمُجَالَسَةُ مَنْ يُضَيِّعُونَ الوَقْتَ: سَبَبٌ مِنْ أَهَـمِّ أَسْـبَابِ تَهَاوُنِنَا فِي أَوْقَاتِنَا، فَمُصَاحَبَةُ المحَافِظِينَ عَلَى أَوْقَاتِهِمْ وَمُخَالَطَتُهُمْ، وَالحِرْصُ عَلَى القُرْبِ مِنْهُمْ وَالتأسي بِهِـمْ يُعِـينُ عَـلى اغْتِنَـامِ الوَقْـتِ، وَيُقَـوِّي الـنَّفْسَ عَـلَى اسْتِغْلالِ سَاعَاتِ العُمرِ فِي طَاعَةِ الله - تَعَالَى.

ثَالِثاً: تَرْتِيبُ الأَوْلَوِيَّاتِ فِي الأَعْمَالِ، وَفِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْـكَ حَقًّـا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَآتِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»[1].

شَبَابَنَا.. أَبْنَاءَنَا، حَفِظَ اللهُ عَليكُمْ أَوْقَاتَكُمْ.

أَنْـتُمْ عِـمَادُ الأُمَّـةِ، وَرَصِـيدُهَا وَذُخْرُهَـا، وَسِرُّ نَهْضَـتِهَا، وَبُنَـاةُ مَجْـدِهَا وَمُسْتَقْبَلُهَا، فَبِصَلاحِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ تَصْلُحُ الأُمَّةُ وَتَسْتَقِيمُ، وَمِنْ أَهَمِّ عَوامِلِ تَحْقِيقِ صَلاحِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ وَعْـيُكُمْ بِـوَاجِبِكُمْ وَمَلْـؤُكُمْ أَوْقَـاتَكُمْ بِالنَـافِعِ وَالمفِيدِ، فَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ وَسُوءَ اسْـتِخْدَامِ الفَـرَاغِ، فَـإِنَّ ذَلِـكَ طَرِيـقٌ مِـنْ طُـرُقِ الفَشَلِ العِلْمِيِّ وَالأَخْلاقِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨) عن أبي جحيفة ﷺ.

قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَة:

إِنَّ الْفَرَاغَ وَالشَّبَابَ وَالْجِدَهْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ

إِنَّ المسْلِمَ مَدْعُوٌّ لاسْتِغْلالِ وَقْتِهِ بِمَا هُوَ مُفِيدٌ فِي دُنيَاهُ وَآخِرَتِهِ. وَنَحنُ لاَ بُدَّ لَنَا مِنِ اسْتِغْلالِ أَوْقَاتِنَا بِالمفِيدِ، **وَإِلَيْكَ أَخِي القارئ بَعْضَ الطُّرُقِ لاسْتِغْلالِ وَقْتِكَ.**

أَوْلاً: التَّفْكِيرُ: بِأَنْ نُفَكِّرَ تَفْكِيرًا إِيجَابِيًّا فِي التَّخْطِيطِ لأَعْمَالِنَا، فَكَمْ مِنْ فِكْرَةٍ خَطَرَتْ فِي الوَقْتِ، يَنْتَفِعُ بِهَا المرْءُ انْتِفَاعًا عَجِيبًا إِنْ طَبَّقَهَا فِيمَا بَعْدُ.

ثَانِياً: الاسْتِمَاعُ لِشَرِيطِ مُحَاضَرَةٍ أَوْ دَرْسٍ فِي سَيَارَتِكَ أَثْنَاءَ تَنَقُّلِكَ بَدَلَ التَفْكِيرِ العَشْوَائِيِّ وَالفَوْضَوِيِّ.

وَأَيْضاً اسْتِغْلالُ وَقْتِ الذهَابِ إِلى المسْجِدِ فِي الطرِيقِ بِالسلامِ عَلَى الكَبِيرِ وَالصغِيرِ، وَمُسَاعَدَةِ مُحْتَاجٍ وَمَلْهُوفٍ، والذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ بَعْضِ الآيَاتِ التِي تَحْفَظُهَا.

وَأَنْتِ أُخْتِي القارئةَ الْكَرِيمَةَ، وَأَنْتِ تَطْبُخِينَ أَوْ تُنظِّفِينَ اسْتَغِلِّي هَذَا الْوقْتَ فِي العِبَادَةِ بِسمَاعِ شَرِيطٍ قُرْآنِيٍّ، أَوْ دَرْسٍ، أَوْ مُحَاضَرَةٍ، أَوْ أشْغِلِي ذَلكَ بِالذِّكْرِ وَالاسْتِغْفَارِ.

قَالَ مُحَمَّدُ إِقْبَال فِي وَصفِ فَاطمةَ - رَضيَ اللهَ عَنْهَا:

فَمُهَا يُرَتِّلُ آيَ رَبِّكَ بَيْنَمَا يَدُهَا تُدِيرُ عَلَى الشَّعِيرِ رَحَاهَا

اللهَ اللهَ فِي أَوْقَاتِنَا أَنْ تَضِيعَ هَبَاءً مَنْثُوراً، فَإِنَّ الوَقْتَ هُوَ الحَيَاةُ، وَإِنَّ العُمرَ قَصِيرٌ، يَضِيعُ بَيْنَ التسْويفِ وَالانْشِغَالِ، فَالسعِيدُ مَنْ خَافَ «**وَمَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المنْزِلَ. أَلا إِنَّ سِلْعَةَ الله غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ**»[1].

اللهُمَّ اغْفِرْ لَنَا تَقْصِيرَنا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَاحْفَظْ عَلَيْنَا دِينَنَا وَوَقْتَنَا.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) وصححه الألباني.

المحاضرة (٢٩)

أعمال فاضلة

رِحْلَتُنَا الْأَثَرِيةُ المحْرَابِيَّةُ تَحُطُّ بِنَا مَرَّةً أُخْرَى فِي (حَيِّ الْقِبْلَةِ) مِنْ مُحَافَظَةِ (الْعَاصِمَةِ) لِنَسْتَكْمِلَ مَا بَقِيَ مِنْ مَسَاجِدِهِ الْأَثَرِيةِ، وَمِنْ أَهَمِّهَا مَا يَلِي:

١ـ مِنْ المسَاجِدِ الَّتِي هُدِّمَتْ فِي حَيِّ الْقِبْلَةِ وَلَمْ تُبْنَ مَسْجِدُ (**ابْنُ شَرف**) الَّذِي كَانَ موقِعُهُ أَمَامَ قَصْرِ الْعَدْلِ، وَقَدْ هُدمَ حِينَمَا تَمَّ بِنَاءُ قَصْرِ الْعَدْلِ سَنَةَ (١٩٨٧م) وَلَمْ يُبْنَ مِنْ جَدِيدٍ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَئِمَّتِهِ الشَّيْخُ (مُحَمَّدُ بنُ إِبرَاهِيمَ الجَسَّارُ).

٢ـ وَنَبْقَى أَمَامَ مَبْنَى قَصْرِ الْعَدْلِ؛ حَيْثُ لا يَزَالُ مَسْجِدُ (**السَّايِرِ الشَّرْقِيِّ**) الَّذِي أُسِّسَ عَامَ (١٨٩٣م)، وَفِي عَامِ (١٩٥٥م) أَعَادَتْ الْوَزَارَةُ بِنَاءَهُ، وَكَانَ أَوَّل مَنْ صَلَّى بِهِ الشيْخ (أَحْمد بْن مُحَمَّدٍ الهَوْلِيّ) الشَّافِعِيّ المذْهَبِ.

٣ـ وَأَمَّا آخِرُ مَسَاجِدِ الْقِبْلَةِ فَهُوَ مَسْجِدُ (**مَرْزُوقُ دَاود الْبَدْر**) الْوَاقِعُ فِي حَيِّ الشَّطِي وَالَّذِي لا يَزَالُ فِي مَكَانِهِ الْقَدِيمِ خَلْفَ الْعِمَارَاتِ فِي شَارِعِ فَهْدِ السَّالِم، أُسِّسَ عَامَ (١٩٢٢م)، وَأَمَّ فِيهِ الملا (خَالِدُ بنُ سُلَيمَانَ الشّطيُّ) المدَرسُ فِي مَدْرَسَةِ (عَبدِ الْعَزِيزِ الْعَنْجَرِيُّ).

إِنَّهَا مَسَاجِدُنَا كَتَبَتْ آثَارَنَا، وَصَلَّى بِهَا أَعْلامُنَا وَأَئِمَّتُنَا. وَبَعْدَ هَذَا الموجَزِ عَنْ تَارِيخِهَا تَعَالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالْأَذْكَارِ، نُزَكِّي بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُوَ بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بِعنْوَانِ: (أَعْمَالٌ فَاضِلَةٌ).

تَتَقَاصَرُ أَعْمَارُنا بِالنِّسْبَةِ لأَعْمَارِ الْأُمَمِ السَّابِقةِ، فَالرَّجُلُ مِنهُمْ كَانَ يُعَمِّرُ مِئَاتِ السِّنِينِ، بَيْنَمَا تَتَرَاوَحُ أَعْمَارُنا بَيْنَ السِّتينَ والسبْعِينَ، وَهَذَا يَقْتَضِي سَبْقَهُم لَنَا بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ لِطُولِ عُمرِهُم؛ فَالزَّمَنُ الطَّوِيلُ فُرْصَةٌ لإِنْجازِ الْعَملِ الكَثِيرِ،

لَكِنَّ رَحْمَةَ اللهِ- سُبْحَانَهُ - بِهَذِهِ الْأُمَةِ جَعَلَتِ الثَّوابَ الجَزِيلَ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ، فَمَا يَجْتَنِيهِ غَيْرُنَا بِالسِّنِينِ الطَّوِيلَةِ نَقْطِفُ ثِمَارَهُ بِالدَّقَائِقِ الْقَلِيلَةِ، فَمِنْ نِعَمِ اللهِ- تَعَالَى - عَلَينَا أَنْ شَرَعَ لَنَا الْأَعْمَالَ الْفَاضِلَةَ الَّتِي يَخِفُّ عَلَى النَّفسِ أَدَاؤُهَا وَيَعْظُمُ عِنْدَ اللهِ جَزَاؤُهَا، وَيَكُونُ المؤَدِّي لَهَا كَمَنْ يَجْمَعُ الجَوَاهِرَ الثَّمِينَةَ مِنْ بَطْنِ الْبَحْرِ، بَيْنَمَا غَيْرُهُ يَجْمَعُ الْأَصْدَافَ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الشاعِرُ:

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ المدَلَّلِ تَمْشِي رُوَيْداً وَتَجِيءُ فِي الأَوَّلِ

أَهَمّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ الْفَاضِلَةِ كَي تَزِيدَ فِي إِنْتَاجِكَ العُمْرِيِّ وَتَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ:

أَوَّلاً: الصَّلَوَاتُ الْفَاضِلَةُ: وَهِيَ كَثِيرَةٌ وَعَدِيدَةٌ خَصَّهَا اللهُ - تَعَالَى - بِبَعْضِ الْأَمَاكِنِ وَالْأَزْمَانِ، **وَمِنْ أَفْضَلِهَا:** الصَّلاةُ فِي الْحَرَمَيْنِ وَفِي مَسْجِدِ قُبَاءَ، فَفِي الْحَدِيثِ: «**صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاه إِلا المسْجِدَ الحَرَامَ، وَصَلاةٌ فِي المسْجِد الحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مَائَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِواهُ**»[(١)].

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ «**مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ فَصَلى فِيهِ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ**»[(٢)].

وَمِنْهَا الخُرُوجُ مُتَطَهراً للصلاةِ المكْتُوبَةِ فِي المسْجِدِ مَعَ الْإِمَامِ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ أَجْرَ الْحَاجِّ المحْرِمِ وَتَزِيدُ عَلَى صَلاةِ الْفَرْدِ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ، **نَاهِيكَ عَنْ فَضْلِ أَهْلِ الصَّفِ الْأَوَّلِ:** الَّذِينَ يُصَلِّي عَلَيْهِمُ اللهُ وَمَلائِكَتُهُ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُم النَّبِيُّ ﷺ ثَلاثاً.

وَلا تَنْسَوا أَيُّهَا الْأَحْبَابُ القراء رَكْعَتَي الضُّحَى: فَإِنَّهَا صَدَقَةُ الْفُقَرَاءِ، فَفِي الحَدِيثِ: «**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُم صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ**

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤٠٦) عن جابر ﷺ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤١٢) عن سهل بن حنيف، وصححه الألباني.

تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالمعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ المنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ تَرْكَعُهُما مِنَ الضُّحَى»[١].

وَإِياكَ أَخِي القارئ الحبيبَ أَنْ يَفُوتَكَ فَضْلُ الْخُطَى لِصَلاةِ الجمْعَةِ؛ فَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ غَسَّلَ يومَ الجمْعَةِ واغتسل، ثُمَ بَكَّرَ وابْتكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِن الإمَامِ، فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ، أَجْرُ صِيامِهَا وَقِيامِهَا»[٢].

ثَانِياً: صَومُ الدَّهْرِ مَرَّتَيْنِ: مَا أَسْهَلَهَا عِنْدَمَا تَصُومُ رَمَضَانَ، ثُمَّ تُتْبِعُه بِستٍ مِنْ شَوال، فَتَنَالَ ثَوابَ صِيامِ الدهْرِ كُلِّهِ، فَإِذَا أَحْبَبْتَ أَنْ تَنَالَ ثَوابَ صِيامِهِ مَرَةً أُخْرَى فَعَلَيْكَ بِالْأَيامِ البِيضِ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَهِيَ (اليَومُ الثَالِثُ عَشَرَ ـ والرابعُ عَشَرَ وَالخَامِسُ عَشَرَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ) فَإِنَّهَا تَعْدِلُ صِيامَ الشَّهْرِ كَلِّهِ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ- عَزَّ وَجَلَّ- تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٣]، اليَوْمُ بِعَشْرَةِ أَيَام.

ثَالِثاً: ثَوابُ أَعْمَالِ الْآخَرِينَ: مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِم شَيءٌ، انْظُرْ لِكَرَمِ اللهِ- تَعَالَى - فِي مُضَاعَفَةِ الأَجْرِ والثوَابِ، إِذَا فَطَّرْتَ صَائِماً كَانَ لَكَ مِثْلُ أَجْرِهِ، وَإِذَا عَلَّمْتَ أَحَداً فَلَكَ ثَوابُهُ وَثَوابُ كُلِّ مَنْ يَتَعَلمُ مِنْهُ، وَإِذَا تَرَكْتَ وَلَداً صَالِحاً فَأَعْمَالُهُ كُلُّهَا فِي مِيزَانِكَ، وَصَدَقَتُكَ الجَارِيَةُ تَزِيدُ فِي حَسَنَاتِكَ حَتى بَعْدَ المَمَاتِ طَالما يُنْتَفَعُ بِها، وَالدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِها مِنْ بَعْدِهِ إِلَى يَوْمِ القَيامَةِ، إِنَّهُ فَضْلُ اللهِ- تَعَالَى - وَكَرَمُهُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٠) عن أبي ذر ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٤٥)، وصححه الألباني.

(٣) الأنعام: ١٦٠.

رَابعاً: لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِن العُمْرِ: ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَبِسَ السِّلاحَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَلْفَ شَهْرٍ، قَالَ: فَعَجِبَ المسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[(١)]، فَإِيَّاكَ أَخِي الحَبِيبَ أَنْ تَفُوتَكَ هَذِهِ اللَّيْلَةُ المبَارَكَةُ الْفَاضِلَةُ.

خَامِساً: إِذَا عَجَزْتَ عَنِ الذَّهَابِ لِلْحَجِّ فَأَبْشِرْ فَإِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنَالَ ثَوابَهُ، فَفِي الحَدِيثِ: «**مَنْ غَدا إِلَى المسْجِدِ لا يُرِيدُ إِلا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْراً أَوْ يُعَلِّمَهُ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَاماً حَجَّته**»[(٢)]، كَمَا أَنَّ العُمْرَةَ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ[(٣)].

سَادِساً: الذكْرُ وَالاسْتِغْفَارُ المضَاعَفُ: وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُعَدَّ، وَمِنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ جُوَيرِيَة أُمِّ المؤْمِنينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْها - بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصبحَ وَهِي فِي مِسْجِدِها، ثُم رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِي جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «**مَازِلْتِ عَلَى الحَالِ التِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟**» قَالَتْ: نَعم. فَقَالَ ﷺ: «**لَقَدْ قُلتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثلاثَ مَراتٍ لَو وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ اليَوْم لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»[(٤)].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: رَآنِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ، فَقَالَ: «**مَا تَقُولُ يَا أَبَا أَمَامَةَ؟**» قُلْتُ: أَذْكُرُ اللهَ. قَالَ: «**أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِكَ اللهَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ؟ تَقُولُ: الحمْدُ لله عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَالحَمْدُ لله مِلْءَ مَا أَحْصَى كِتَابهُ، وَالحمْدُ لله عَدَدَ كُلِّ شَيءٍ، وَالحَمْدُ لله مِلْءَ كُلِّ شَيءٍ، وَتُسَبِّحُ اللهَ مِثْلَهُنَّ**» ثُم

---

(١) القدر: ٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١١) عن أبي أمامة ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٢٥٦) عن ابن عباس ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٢٦) عن جويرية - رضي الله عنها.

قَالَ: «**تَعَلَّمْهُنَّ وَعَلِّمْهُنَّ عَقِبَك مَنْ بَعْدَكَ**»(١)، كَمَا أَنْ الاسْتِغْفَارَ لِلمُؤْمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ يَكْتُبُ اللهُ لِلْمُسْتَغْفِرِ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً.

سَابِعاً: قَضَاءُ حَوائِجِ النَّاسِ خلَّةُ الكِرَام: وَثَوابُهَا جَزِيلٌ عَظِيمٌ؛ حَتى أَنَّ النَبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لأَنْ أَمْشِي مَعَ أَخِي المسْلِمِ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي المسْجِدِ شَهْراً**»(٢).

ثَامِناً: فَضِيلَةُ المؤَذِّنِ وَإِجَابَتُهُ: قَال ﷺ: «**المؤَذِّنُ يُغْفَرُ لَهُ مَدَى صَوتِهِ، ويُصَدِّقُهُ مَنْ سَمِعَهُ مِنْ رَطِبٍ وَيَابِسٍ، وَلَهُ أَجْرُ مَنْ صَلَّى مَعَهُ**»(٣)، وَإِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَخِي القارئ أَن تُدْرِكَ فَضِيلَةَ الأَذَانِ فَلا أَقَلَّ مِنْ أَنْ تَكْسِبَ مِثْلَ أَجْرِهِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ كَمَا يَقُولُ المؤَذِّنُ، فَفِي الحَدِيثِ: «**قُلْ كَمَا يَقُولُونَ**- أَي المؤَذِّنُونَ- **فَإِذَا انْتَهَيْتَ فَسَل تُعْطَهُ**»(٤).

تَاسِعاً: تكْرَارُ بَعْضِ سُورِ القُرْآنِ: لِقَوْلِهِ ﷺ: «**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرونَ تَعْدِلُ رُبعَ القُرْآنِ**»(٥).

عَاشِراً: حُسْنُ الخُلُقِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ: أَمَا حُسْنُ الخُلُقِ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ فِي النَّهَارِ وَالقَائِمِ بالليلِ، وَأَما صِلَةُ الرَّحِمِ فَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيثِ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(٦)، وَفِي

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٨) (٦٩٤٦) عن أبي أمامة ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٥٧٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٥٣) عن ابن عمر – رضي الله عنهما، وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (٣٦)، وحسن إسناد ابن أبي الدنيا الألباني في صحيح الجامع (١٧٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٥)، والنسائي (٦٤٤)، وابن ماجه (٧٢٤)، وأحمد (٢/ ٢٦٦) واللفظ له عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٢٤) عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٨٩٤) عن ابن عباس – رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

(٦) أخرجه البخاري (٥٩٨٥)، ومسلم (١٩٦١)، عن أبي هريرة ﷺ.

الحَدِيثِ: «صِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الخُلُقِ وَحُسْنُ الجِوارِ يُعَمِّرْنَ الدِّيَارَ، وَيَـزِدْنَ فِي الأَعْمَارِ»[1].

وَفَّقَنَا اللهُ جَمِيعاً لإِطَالَةِ أَعْمَارِنَا فِي الخيْرِ، واسْتِغْلالِ الفُرَصِ المضَـاعفَةِ التِـي يَغْفَلُ عَنْهَا المفَرِّطُونَ، وَصَلَى اللهُ وَسلَّمَ عَلى نَبِيِّنَا مُحَمدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلم.

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩) عن عائشة – رضي الله عنها، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥١٩).

المحاضرة (٣٠)

هَمْسَةٌ فِي أذنِ أحبابِي

سَلَامٌ مِنَ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَأَحْمَدُ اللهَ - تَعَالَى - إِلَيْكُمْ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى خَيْرِ مُعَلِّمٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ وَاهْتَدَى بِهَدْيِهِ، أَمَّا بَعْدُ:

نَخْتِمُ مَعَكُمْ هَذَا الحديث الَّذِي اسْتَمْتَعْنَا بِهِ مَعَكُمْ فِيمَا تَبَقَّى مَعَنَا مِنَ المَسَاجِدِ الْأَثَرِيَّةِ وَهِيَ:

١ـ **مَسْجِدُ (عَلِيِّ عَبْدِ الْوَهَّابِ المطَوعِ)** وَكَانَ يَقَعُ فِي حَيِّ المرْقَابِ شَرْقِيّ بَوَّابَةِ نَايِف، وَأَصْبَحَ الْآنَ مَكَانَ المسْجِدِ مَوْقفُ السَّيَّارَاتِ لِـمُجَمَّعِ الْوَزَارَاتِ قُرْبَ الْبَوَّابَةِ الثَّامِنَةِ، أَسَّسَهُ كُلٌّ مِنَ الْفَاضِلَيْنَ السيِّد عَلِي بْن عَبْدِ الْوَهابِ المطَوعِ، وَابْنه عَبْد الْعَزِيزِ المطَوعِ مَعَ مُسَاهَمَةِ إِحْدَى المحْسِنَاتِ، وَفِي عَامِ (١٩٥٥م) قَامَتِ الْأَوْقَافُ بِتَجْدِيدِهِ، وَمِنْ أَشْهَرِ مَنْ صَلَّى فِيهِ إِمَامًا وَخَطِيبًا الملا عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ الْعُثْمَانُ.

٢ـ **مَسْجِدُ (عَلِيِّ بْنِ شَمْلانَ الرُّومِيِّ)** وَكَانَ يَقَعُ فِي حَيِّ المرْقَاب عِنْدَ تَقَاطُعِ شَارِعِ الْـهِلالِ وَشَارِعِ عَبْدِ الله المبَارَكِ الصُّبَاحِ فِي الدَّوَّارِ قُرْبَ مَنْزِلِ الشَّيْخ عَبْدِ الله المبَارَكِ، وَلا يَزَالُ المسْجِدُ فِي مَوْقِعِهِ الْقَدِيم، أُسِّسَ مِنْ مَالِ المحْسِنِينَ، ثُمَّ بَنَاهُ شملانُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ سَيْفٍ الرُّومِيُّ عَامَ (١٦٢١م)، وَبَنَى اللِّيوَانَ الشَّيْخُ يُوسُف بْن عِيسَى الْقِنَاعِيّ، وَقَدْ جَدَّدَتْهُ الْأَوْقَافُ عَامَ (١٩٥٩م)، وَأَشْهَرُ أَئِمَّتِهِ الملا سُعُودُ بْنُ رَاشِدٍ الصَّقْر.

٣ـ **مَسْجِدُ (الْبَحْرِ)** وَيَقَعُ - قَدِيمًا - فِي حَيِّ السُّوقِ قُرْبَ بَرَاحَةِ السبْعَانِ، أَمَّا الْآنَ فَقَرِيبٌ مِنْ سُوقِ اللَّحْمِ وَالْخُضْرَةِ، أَسَّسَهُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَحْرُ عَامَ (١٩٠٧م) مِنْ ثُلُثِ وَالِدِهِ، ثُمَّ أَعَادَتِ الأَوْقَافُ بِنَاءَهُ عَامَ

(١٩٥٣م)، وَفِي عَام (١٩٨٢م) أَعَادَ بِنَاءَهُ السَّيِّدُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبَحْرُ عَلَى أَحْدَثِ طِرَازٍ. وَمِنْ أَشْهَرِ مَنْ صَلَّى فِيهِ الملَّا عَبْدُ الْعَزِيزِ بن إِبْرَاهِيم النَّبْهَان.

بَعْدَ مُعَايَنَةِ الآثَارِ وَالْحدِيثِ عَنِ الأَئِمةِ الْكِبارِ- رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى- تَعَالَوا مَعِي لِنَسْتَمِعَ لِلْمَوَاعِظِ وَالأَذْكَارِ، نُزَكِّيَ بِهَا نُفُوسَنَا، وَنَجْلُوَ بِهَا قُلُوبَنَا، وَحَدِيثُنَا الْيَومَ بعنوان: (**هَمْسَة فِي أُذنِ أَحْبَابِي**).

أَرْجُو أَنْ تُعِيرُونِي سَمْعَكُمْ لِأَنِّي سَأَهْمِسُ فِي أُذُنِكُمْ بِنَصَائِحَ مُحِبٍّ صَادِقٍ يَخْشَى عَلَيْكُمْ كَخَشْيَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ.

الهمْسَة الأولى: أمامَكَ عقَبَاتٌ كؤود:

نَعِيشُ أَيَّامًا قَلائِلَ، ثُمَّ لا بُدَّ لَنَا مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى الله وَالْوُقُوْفِ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[1]، فَلِمَاذَا نَهْدِمُ أَعْمَارَنَا عَلَى قِصَرِهَا وَنَدْنُو نَفَسًا بَعْدَ نَفَسٍ مِنْ صُنْدُوقِ الْعَمَلِ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[2]، يَقُولُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ- رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، فَإِذَا ذَهَبَ يَوْمُكَ ذَهَبَ بَعْضُكَ. وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: (أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِبَعْضِ جَسَدِي- وَفِي رِوَايَةٍ: بِمَنْكِبَي- فَقَالَ: «**يَا عَبْدَ الله، كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ كَأَنَّكَ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ**»، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- يَقُولُ: (إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ)[3].

وَأَمَامَنَا فِي هَذَا السَّفَرِ عَقَبَاتٌ كَؤُودٌ، أَمَامَنَا الموْتُ وَسَكْرَتُهُ، وَالْقَبْرُ

---

(١) الأنعام: ٦٢.

(٢) الغاشية: ٢٥، ٢٦.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، والترمذي (٢٣٣٣)، وابن ماجه (٤١١٤) عن ابن عمر – رضي الله عنهما.

وَظُلْمَتُـهُ، وَالْصِّرَاطُ وَحِدَّتُـهُ، وَالميـزَانُ وَدِقَّتُـهُ، وَالحَشْرُ وَرَهْبَتُـهُ، وَالصُّـورُ وصَعقتُهُ، وَالْوُقُوفُ أَمَامَ الله وَعَظَمَته، فَواخَجْلَتَاهُ يَوْمَ الْعَرْضِ الْأَكْبَرِ عَلَى الله، فَوَاأَسَفَاهُ، وَوَاحُزْنَاهُ عَلَى أَعْمَارٍ انْقَضَتْ وَمَرَّتْ وفَرَّتْ فَلَمْ تَزِدْنَـا إِلَى الله قُرْبًـا، فَمَاذَا أَعْدَدْنَا لِـهَذِهِ الْعَقَبَاتِ؟! وَمَا الزَّادُ الَّذِي جَهَّزْنَاهُ لِـهَذِهِ المُهْلِكَاتِ؟ يَقُـولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلخرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تجْأَرُونَ إِلَى الله- تَعَالَى**»(١).

يَقُولُ الْشَّاعِرُ:

تَـزَوَّدْ لِلَّـذِي لَابُـدَّ مِـنْـهُ ... فَإِنَّ الـموْتَ مِيقَاتُ الْعِبَـادِ

أَتَرْضَى أَنْ تَكُونَ رَفِيقَ قَوْمٍ ... لَـهُمْ زَادٌ وَأَنْتَ بِغَيْـرِ زَادِ؟!

الهمسَة الثانيَة: حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ:

أَصْحَابُ الْقُبُورِ مُرْتَهَنُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا، أُمْنِيَّةُ أَحَـدِهِمْ أَنْ يَعُودَ إِلَى الدُّنْيَا لِيُفْسَحَ لَهُ فِي الْأَجَلِ فَيَسْتَأْنِفَ الْعَمَلَ، فَيَمْلأَ كُلَّ لَحْظَةٍ بِطَاعَةٍ وَكُلَّ سَاعَةٍ بِقُرْبَةٍ، تَرْفَعُ قَدْرَهُ عِنْدَ خَالِقِهِ وَمَوْلاهُ، وَتُبَيِّضُ وَجْهَهُ يَوْمَ لِقَـاءِ الله، وَلَكِنْ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾(٢)، ضَـاعَتِ الأَيَّـامُ فِي جَمْعِ الحُطَـامِ، وَجَـاءَ المَوْتُ لِيَخْتَرِمَ الْعُمْرَ، كَمَثَلِ نَمْلَةٍ صَغِيرَةٍ تَجْمَعُ الحَبَّ فِيْ الصَّيْفِ لِتَأْكُلَهُ فِي زَمَنِ الشِّتَاءِ عِنْدَمَا يَشْتَدُّ الْبَرْدُ وَيُفْتَقَدُ الْغِذَاءُ، وَفِي يَوْمٍ مِن الْأَيَّام أَخَذَتِ النَّمْلَةُ حَبَّـةً فِي فَمِهَا لِتَكْنِزَهَا فِي مَخْدَعِهَا، فَجَاءَ عُصْفُورٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخَـذَهَا وَالحَبَّـةَ مَعَهَـا، فَلَا مَا جَمعتْ أَكَلَتْ وَلَا بِكَنْزِهَا تَمَتَّعَتْ.

وَلَكِنَّكَ أَخِي القَارئ الْكَرِيمَ: مَـا زِلْـتَ فِي زَمَـنِ الْعَمَـلِ، فَـدَعِ التَّـوَانِيَ

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠) عن أبي ذر ﷺ.

(٢) سبأ: ٥٤.

وَالْكَسَلَ. يَقُولُ عَلِيُّ بْـنُ أَبِي طَالِـبٍ ﷺ: (ارْتَحَلَـتِ الـدُّنْيَا مُـدْبِرَةً، وَارْتَحَلَـتِ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلٍّ وَاحِدة مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُـوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ وَغَدًا حِسَـابٌ وَلَا عَمَـلٌ)، وَعَـنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: اضْـطَجَعَ النَّبِـيُّ ﷺ عَـلَى الحَصِـيرِ، فَأَثَّرَ فِي جِلْدِهِ، فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ كُنْتَ آذَنْتَنَا فَفَرَشْنَا لَكَ عَلَيْهِ شَيْئًا يَقِيكَ مِنْهُ!، فَقَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: **«مَـا لِي ومـا للـدُّنْيَا ! إِنَّـمَا أَنَـا وَالـدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»**[1].

الهمسة الثالثة: لمثل هذا فأعدوا:

كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ الصَّالِحِ قَدْ حَفَرَ لِنَفْسِهِ قَبْرًا، فَإِذَا فَتَرَ عَنِ الْعَمَلِ نَزَلَ فِي قَبْرِهِ، فَتَمَدَّدَ فِي لَحْدِهِ، ثُمَّ قَالَ لِنَفْسِهِ: يَا نَفْـسُ قَـدِّرِي أَنِّي قَـدْ مِـتُّ وَصِرْتُ فِي لَحْدِي، أَيّ شَيْءٍ كُنْتِ تَتَمَنَّـينَ؟ قَالَـتْ: أُرَدُّ إِلَى الـدُّنْيَا، فَأَعْمَـلَ فِيهَـا صَـالِحًا، فَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: قَدْ بَلَغْتِ أُمْنِيَّتَكِ، فَقُومِي فَاعْمَلِي صَالِحًا، فَيَعُودُ وَقَدْ زَادَ إِيمَانُـهُ وَانْقَادَ لِلْعَمَلِ جِسْمُهُ. **وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ** ﷺ **قَالَ:** بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ إذ بَصُرَ بِجَمَاعَةٍ فَقَالَ: **«عَلَامَ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ؟»** قِيلَ: عَلَى قَبْرٍ يَحْفِرُونَهُ، قَالَ: فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبَدَرَ بَيْنَ يَدَيْ أَصْحَابِهِ مُسْرِعًا حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْقَبْرِ فَجَثَا عَلَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلْتُهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ لِأَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ، فَبَكَى حَتَّى بَلَّ الثَّرَى مِنْ دُمُوعِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، قَالَ: **«أَيْ إِخْوَانِي، لِمِثْلِ الْيَوْمِ فَأَعِدُّوا»**[2].

وَتَنَبَّهْ أَخِي الْـحَبِيبَ إِلَى أَنَّ الرَّفِيـقَ الَّـذِي لَا يَخُـونُ هُـوَ الْعَمَـلُ الصَّـالِحُ، فَأَعِدَّهُ -أَيُّهَا الْـحَبِيبُ- لِذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ. قَـالَ ﷺ: **«يَتْبَـعُ المَيِّـتَ ثَلَاثَـةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِـعُ أَهْلُـهُ وَمَالُـهُ،**

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩) عن عبد الله ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٤) عن البراء بن عازب ﷺ، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٧٥١).

وَيَبْقَى عَمَلُهُ»[١].

قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي الْـجَنَّةِ أَتَمَتَّعُ بِنَعِيمِهَـا، وَقُلْتُ لِنَفْسِي: يَا نَفْسُ أَيّ شَيْءٍ تَتَمَنَّـيْنَ؟ فَقَالَـتْ: أُرَدُّ إِلَى الـدُّنْيَا، فَأَزْدَادُ مِـن الْعَمَلِ الَّذِي نِلْتُ بِهِ هَذَا، ثُـمَّ مَثَّلْـتُ نَفْسِي فِي النَّـارِ أُعَـالِجُ عَـذَابَهَا، وَقُلْـتُ لِنَفْسِي: أَيّ شَيْءٍ تَتَمَنَّيْنَ ؟ فَقَالَتْ: أُرَدُّ إِلَى الدُّنْيَا فَأَعْمَل عَمَلًا أَتَخَلَّـصُ بِـهِ مِـنْ هَذَا الْعَذَابِ، فَقُلْتُ لَهَا: يَا نَفْسُ أَنْتِ فِي المنيةِ فَاعْمَلِي. وَنَحْنُ أَيُّهَا الْأَحْبَابُ مَـا زِلْنَا فِي المنيةِ، فَهَلْ مِنْ يَقَظَةٍ وَاعْتِبَارٍ؟

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... وَلاقَيْتَ بَعْدَ الـموْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا

نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُـونَ كَمِثْلِهِ ... وَأَنَّكَ لَمْ تَرْصُـدْ لِـمَا كَـانَ أَرْصَـدَا

الهمْسَة الرابعَة: الدُنيَا مَزرَعَة الآخرَة:

الدُّنْيَا مَطِيَّةُ الآخِرَةِ وَمَزْرَعَةُ لَهَا، وَمِنْ هَوَانِهَا زَوَاهَا الله عَنْ أَحَبِّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ وَأَكْرَمِهِمْ عَلَيْهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ، وَفِي الحَدِيثِ: «**والله يَا عَائِشَةُ، لَـوْ شِـئْتُ لَأَجْرَى اللهُ مَعِيَ جِبَالَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**»[٢]، وَالْعَلِيمُ بِهَا يُحَذِّرُنَا مِنْهَـا فَيَقُـولُ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[٣]، فَوَاعَجَبـا مِـنْ تَنَافُسِـنَا عَلَيْهَا، بِالرَّغْمِ مِنْ مَكْرِهَا بِنَا وَتَغْرِيرِهَا لَنَا!!.

الهمْسَة الْـخامسَة: أمْنيَة أهْل الآخرَة:

الدُّنْيَا أُمْنِيَةُ أَهْلِ الآخِرَةِ جَمِيعًا، فَكُلٌّ يَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهَا، لَا لِيَسْـتَزِيدَ مِـنْ مَتَاعِهَا وَيَسْتَكْثِرَ مِنْ زَخَارِفِهَا وَحُطَامِهَـا، وَإِنَّـمَا لِيُصَـحِّحَ الملَّـةَ، وَيَتُـوبَ مِـنَ الزَّلَّةِ، وَيَتَنَافَسَ فِي الْخَيْرِ كُلِّهِ، فَأُمْنِيَةُ الشُّهَدَاءِ «**يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَـرُدَّ أَرْوَاحَنَـا فِي**

(١) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٦٨) عن عائشة – رضي الله عنها. صححه بشواهده الألبـاني في الصحيحة (٢٤٨٤).

(٣) لقمان : ٣٣.

أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى»[١]، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ أُمْنِيَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمَا بَالُكَ بِأَمَانِيِّ أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾[٢]، يُنَادونَ: أَرْجِعْنَا إِلَى الدُّنْيَا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[٣]، فَيَأْتِيهِم الجَوَابُ الَّذِي تَتَقَطَّعُ لِهَوْلِهِ الْقُلُوبُ وَلِحَسْرَتِهِ الْأَفْئِدَةُ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[٤].

فَيَا أَيُّهَا الْأَحْبَابُ، مَا زِلْنَا فِي الْأُمْنِيَةِ، وَمَا زَالَتِ الْفُرْصَةُ أَمَامَنَا، وَالطَّرِيقُ بَيْنَ أَيْدِينَا، فَلْنَجِدَّ المسِيرَ إِلى السَّمِيعِ الْبَصِيرِ، وَلْنُفِقْ مِنْ هَذَا السُّبَاتِ قَبْلَ أَنْ يَخْتَرِمَنَا المَمَاتُ، فَقَدْ دَنَا الرَّحِيلُ، وَالزَّادُ قَلِيلٌ، وَالسَّفَرُ طَوِيلٌ، وَالْخَطْبُ جَلِيلٌ، وَاللهُ المسْتَعَانُ.

ملَاكُ الْأَمْرِ تَقْوَى اللهِ، فَاجْعَلْ تُقَاهُ عُدَّةً لِصَلَاحِ أَمْرِكَ، وَبَادِرْ نَحْوَ طَاعَتِهِ بِعَزْمٍ، فَمَا تَدْرِي مَتَى يَمْضِي بِعُمْرِكَ.

وَفِي الْخِتَامِ، هَذَا مَا أَحْبَبْتُ أَنْ أَهْمِسَ بِهِ فِي آذانكم، وَهُوَ دَلِيلُ حُبِّي لَكُمْ، وَخَوْفِي عَلَيْكُمْ، مُتَمَثِّلًا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ أَبِي عُثْمَانَ:

حَبِيبُكَ مَنْ يَغَارُ إِذَا زَلَلْتَا ... وَيُغْلِظُ فِي الْكَلَامِ مَتَى أَسَأْتَا
يُسَرُّ إِذَا اتَّصَفْتَ بِكُلِّ فَضْلٍ ... وَيَحْزَنُ إِنْ نَقَصت أَوِ انْتَقَصْتَا
وَمَنْ لَا يَكْتَرِثْ بِكَ لَا يُبَالِي ... أَحِدْتَ عَنِ الصَّوَابِ أَمِ اعْتَدَلْتَا

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧) عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوف.
(٢) المؤمنون : ١٠٦.
(٣) فاطر : ٣٧.
(٤) فاطر : ٣٧.



الفصل الثالث

أهل الطيب

مقدمة

الحمد لله رب العالمين وحده لا شريك له ، نحمده حمد الشاكرين ، ونشكره شكر الحامدين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له صفات الكمال والجلال والجمال، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الأسوة الحسنة، كان خلقه القرآن، فاجتمع فيه خصال الكمال ما لا يحيط به حدّ، ولا يحصره عدّ.

أما بعد :

إن الطيب والأصالة وحب الخير خلق محفور في وجدان البلاد الإسلامية عامة ومنهم أهلي أهل الكويت ، منقوش في ذاكرتهم، شهدت به الجموع الكثيرة، اتصف به الأجداد، واقتدى بهم الأحفاد ، فكان تراثاً عريقاً، وحاضراً مجيداً.

ومن هذا الحاضر وذاك الماضي سوف نكتب لكم هذه الأمثال، والتي هي بعنوان: **(أهل الطيب)** بأسلوب جميل ممتع، أتناول فيه الأمثال الكويتية بشيء من التفصيل، ثم أعقب على ما تهدف إليه هذه الأمثال، وما تشير إليه من السلوك الخلقي أو العمل الفاضل.

حي الرجال اللي لهم فعل بالطيب   أهل الكرم والطيب وأهل الشهامة
لا جوهم الضيفان يلقون ترحي   ولضيوفهم يقدمون الكرامة
لا جاهم المحتاج خالي من الجيب   يدعي لهم من طيبهم بالسلامة
أهل الكويت أهل الكرم والمروّات   من طيبهم قعداتهم ما تملِّ
بعيونهم مثل اللهب للعداوات   وهمّال سحب للصداقة يهلّ

الحلقة (١)

غوصة أول يوم..!

(**غَوْصَةُ أَولِ يَومٍ؟**) مَثَلٌ كُويَتِيٌّ، يَعْرِفُهُ أَهْلُ البَحْرِ، فَيَقُولُونَ: غَوْصَةُ أَولِ يَومٍ لا شَكَّ أَنَّهَا تَكُونُ أَفْضَلَ بِكَثِيرٍ، وَأَوْفَر حَظًّا مِن الغَوْصَاتِ الَّتِي بَعْدَهَا.

لأَنَّهَا تَنْبَنِي - دَائِماً - عَلَى حُسْنِ الاسْتِعْدَادِ وَالتَّهْيِئَةِ وَالنَّشَاطِ؛ فَالبِدَايَةُ - دَائِماً - تَكُونُ قَوِيَّةً، وَتَتَمَتَّعُ بِقَدْرٍ عَظِيمٍ مِن العَزْمِ، وَلِهَذَا يَحْصُلُ فِيهَا الغَواصُ عَلَى رِزْقٍ كَثِيرٍ، وكَذَلِكَ غَوْصَةُ أَوَّل يومٍ فِيهَا تَعَبٌ وَضَغْطٌ وَصُعُوبَةٌ فِي التَّنَفُّسِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ أَوَّلُ يَوْمٍ فِي رَمَضَانَ يَكُونُ يومَ تَعَبٍ فِي الصومِ وامْتِنَاعٍ عَن الطَّعَامِ وَشُعُورٍ بَالدوخَةِ، ولكن كما يقول أهل الطيب: (**العافية بأطراف الجوع**)، تَجْرِبَةٌ تَتكَرَّرُ مَوسِمِياً.. فَتَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ وَحُسْنِ تَعَامُلٍ؛ حَتَى يَتَعَوَّدَ الإِنْسَانُ الطاعَةَ مِثْلَمَا يَتَعَوَّدُ الغَوَّاصُ مِنْ أَجْلِ لُقْمَةِ العَيْشِ.

وَلَوْ أَحْبَبْنَا أَنْ نُجْرِيَ هَذَا المثَلَ عَلَى النَّاسِ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَسَنَرى أَنَّهُ يُمَثِلُهُ لَهُمْ: أَنَّهُ أَولُ يومٍ فِي شَهْرِ الرَّحْمَةِ وَالمغْفِرَةِ والعِتْقِ مِن النِّيرَانِ. أَولُ يومٍ فِي شَهْرِ القُرْآنِ وَشَهْرِ القِيامِ وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، أَوَلُ يَوْمٍ فِي شَهْرٍ جَعَلَ اللهُ - تَعالَى - صِيَامَهُ فَرْضاً وَقِيامَ لَيْلِهِ تَطَوعاً، شَهْرٍ النافِلَةُ فِيهِ كَالفَرِيضَةِ، وَالفَرِيضَةُ فِيهِ بِسَبْعِينَ فَرِيضَةً.

شَهْرٌ كَانَ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ الله تَعَالى عَلَيْهِم - يَتَمَنونَ أَنْ تَكُونَ السَّنَةُ كُلُّهَا رَمَضانَ لِمَا فِيهِ مِن الخَيْرِ وَالثَّوَابِ، وَكَانُوا يَسْتَعِدُّونَ لاسْتِقْبَالِهِ كَأَعَزِّ ضَيْفٍ نَزَلَ بِهم. أولُ يوْمٍ فِي رَمَضَانَ لَهُ مذاقٌ خاصٌّ.. أتدرون لماذا؟

لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: «**إِذَا كَانَ أَوَّل لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الجِنُّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبَوابُ**

الجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الـخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الـشَّرِّ أَقْصِرْ، وَللهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ»(١).

وَعَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الـجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَـهُ الرَّيَّـانُ، يُدْعَى يَوْم القِيَامَةِ فَيُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَ الصَّائِمِينَ دَخَلَهُ، وَمَـنْ دَخَلَهُ، لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً»(٢).

فَهَذِهِ نَفَحَاتٌ تَجْعَلُ فِي أَوَّلِ يَـوْمٍ فِي رَمَـضَانَ يَـوْمَ العُـروضِ المُذْهِلَـةِ مِـنْ المغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالعِتْقِ مِن النَّارِ.

أَوَّلُ يَوْمٍ فِي رَمَضَانَ تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوابُ السَّمَاءِ كَمَا قَالَ النَّبِـيُّ ﷺ: «إِنَّ أَبْـوابَ السَّمَاءِ تُفْتَحُ فِي أَولِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَلا تُغْلَقُ إِلَى آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْهُ»(٣).

وَهُنَا تَحْلُو مَنَاجَاةُ اللهِ- تَعَالَى - فِي الصَّلاةِ وَفِي قِراءَةِ القُرْآنِ، وَيَحْلُـو الـذِّكْرُ لِلذَّاكِرِينَ، وَتَحْلُو الصَّدَقَةُ لِلْمُتَصَدِّقِينَ. يَقُولُ ابْنُ الجوزِيِّ - رَحِمَـهُ اللهُ: (مَثَـلُ الشُّهُورِ الاثِنَا عَشَرَ كَمَثَلِ أَوْلادِ يَعْقُوبَ، فَكَمَا أَنيوُسفُ - عَلَيْهِ السَلامُ- كَان أَحَبَّ أَولادِهِ إِلَيْهِ، كَذَلِكَ فَإِنَّ رَمَضَانَ أَحَبُّ الشُّهُورِ إِلَى اللهِ- تَعَالَى، وَكَمَا أَنَّهُ- عَزَّ وَجَلَّ- غَفَرَ لأَوْلادِ يَعْقُوبَ بِـدَعْوَةِوَاحِـدٍ مِـنْهم، وهُـوَ يَوُسُـفُ - عَلَيْـهِ السَّلامُ- كَذَلِكَ يَغْفِرُ اللهُ- تَعَالَى- ذُنُـوبَ أَحَـدَ عَـشَرَ شَـهْراً بِبَرَكَـةِ رَمَـضَانَ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَ اللهِ).

الَّذِي تَعَوَّدَ عَلَى شَيْءٍ صَعْبٌ أَنْ يُقْلِعَ عَنْهُ بِسُرْعَةٍ، فَالنَّاسُ تَعَوَّدَتْ عَـلَى أَنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ مُبَاحٌ طَوالَ الوَقْتِ، وَأَنَّ الاسْتِمتَاعَ بِلَذَائِذِ الحيَاةِ المبَاحَةِ أَمْرٌ لا شَيءَ فِيهِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢) عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢) عن سهل ﷺ.

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (٣٢٣) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٧٨٧): «رواه الطبراني في الصغير وفيه محمد بن مروان السدي وهو ضعيف».

فَإِذَا مَا دَخَلَ رَمَضَانُ تَغَيَّرَ الـحَالُ!

صَحِيحٌ أَنَّ الـمُسْلِمَ مُقْتَنِعٌ بِفَضْلِ الله العَظِيمِ فِي شَهرِ رَمَضَانَ، وَأَنَّهُ الشَّهْرُ الَّذِي تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوابُ الـجَنَّةِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوابُ النِّيرَانِ، وَتُصَفَّدُ فِيهِ الـشَّيَاطِينُ وَيُنَادِي الـمُنَادِي: يَا بَاغِي الخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِ أَقْصِرْ.

هُوَ مُقْتَنِعٌ بِهَذِهِ النُّصُوصِ.. لَكِنَّ نَفْسَهُ تَشُدُّهُ إِلى مَا تَعَوَّدَتْ عَلَيْهِ.

وَهَذا أَيُّهَا الإِخْوةُ يَحْتَاجُ إِلى وَقْفَةٍ.. وَقْفَةٍ تُعَبِّرُ عَنْ حَالٍ مَضَى وَحَالٍ آتٍ.

وَقْفَة نَسْأَلُ فِيهَا بَعْضَ الأَسْئِلَةِ:

١ـ هَل كُنْتَ تَحْرِصُ عَلَى صِيَامِ أَيامِ الاثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ، وَالأَيامِ البِيضِ مِـنْ كُل شَهْرٍ؟ هَلْ صُمْتَ مِنْ شَهْر شَعْبَانَ الَّذِي أَخْبَرَ النَّبِـيُّ ﷺ بِأَنَّـهُ يَغْفَـلُ عَنْـهُ كَثِيرٌ مِن النَّاسِ لأَنَّهُ بيْنَ شَهْرِ الله المحَرَمِ رَجَب وَشَهرِ القُرْآنِ رَمَضَانَ؟

حَتى مَا إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ لَمْ تَجِدْ عَنَاءَ الصِّيَامِ، فَقَدْ أَتَاكَ بِمَا تَعَوَّدْتَ عَلَيْهِ.

هُنَا لَفْتَةٌ نَبَوِيَّةٌ كَرِيمَة: (فِي جَبْرِ الخَوَاطِرِ) حَتَّى فِي الأَزْمِنَةِ.

٢ـ هَلْ كُنْتَ تَحْرِصُ عَلَى أَنْ تَكُونَ كَثِيرَ الصَّدَقَةِ فِي غَـيْرِ رَمَـضَانَ؟ فَحِيـنَمَا يَأْتِي رَمَضَانُ تَكُونُ فِيهِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ كَالرِّيحِ الـمُرْسَلَةِ بِالخَيْرِ.

هَلْ كُنْتَ تَحْرِصُ عَلَى وِرْدِكَ القُرْآنِي وَتُمَتِّعُ عَيْنَكَ بِالنَّظَرِ إِلى كِتَاب الله- تَعَالى- قَبْلَ رَمَضَانَ؟ حَتَّى مَا إِذَا دَخَلَ عَلَيْكَ رَمَضانُ كَانَتْ لَـكَ خَـتَمَاتٌ وَخَـتَمَاتٌ مَـعَ كِتَابِ الله، حَيْـثُ كَـانَ النَّبِـيُّ ﷺ يَأتِيـهِ جِبْرِيـلُ فِي رَمَـضَانَ وَيُدَارِسُـهُ القُـرْآنَ، هَلْ كُنْتَ فِيهِ مُتَمَثِّلا بِحَالِ السَّلَفِ الصَّالـحِ- رِضْوَانُ الله تَعَالَى عَلَـيْهِمُ - حَيـثُ كَانَ الإِمَامُ مَالِكٌ يَتْرُكُ مَجَالِسَ العِلْمِ وَيُقْبِلُ عَلَى القُرْآنِ وَيَقُولُ: هَذَا شَهْرُ القُرآنِ؟ وَكَانَ للإِمَام الشَافِعِيِّ فِي رَمَضَانَ أَكْثَرُ مِنْ ٣٠ خَتْمَة لِلْمُصْحَفِ؟

٣ـ هَلْ كُنْتَ تُعَوِّدُ نَفْسَكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَكَ نَصِيبٌ مِنْ رَكَعَاتٍ فِي جَـوفِ

اللَّيْلِ تُحْيي بِهَا لَيْلَكَ وَتُنِيرُ بِهَا قَلْبَكَ؟ حَتى مَا إِذَا جَاء رَمَضَانُ كُنْتَ صَوَّامَ النَّهارِ، قَوَّامَ اللَّيْلِ، وَتَمَثَّلْتَ بِحَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ كَانَ يَقُومُ مِن الليلِ حَتَّى تَتَوَرَّمَ قَدَمَاهُ، وَتَسْأَلُهُ السَّيِّدَةُ الطَّاهِرَةُ الـمُطَهَّرَةُ عَائِشَةُ وَتَقُولُ لَهُ: يا رسول الله أتصنع هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟**»[1].

أَظُنُّ أَنَّ تَعَوُّدَ الإِنْسَانِ عَلَى طَاعَةِ الله فِي غَيْرِ رَمَضَانَ تَجْعَلُ رَمَضَانَ خيرا، وَتَجْعَلُ الـمُسْلِمَ أَكْثَرَ اسْتِعْدَاداً فِيهِ، وَلِهَذا يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: (تَعَوَّدُوا الخَيْرَ إِنَّمَا الخَيْرُ عَادَةٌ).

مِثْلَمَا يَحْتَاجُ الغَوَّاصُ إِلَى لِيَاقَةٍ بَدَنِيَّةٍ فَإِنَّ رَمَضَانَ يَحْتَاجُ إِلَى لِيَاقَةٍ إِيمَانِيَّةٍ. (غَوْصَةُ أَوَّلِ يوم).

قَالَ أَحَدُ السَّلَفِ: طُوبَى لِـمَنْ تَرَكَ شَهْوَةً حَاضِرَةً لِمَوْعِدِ غَيْبٍ لَمْ يَرَهُ! وَمَنْ حُرِمَ مِنْ شَهْوَتِه فِي الدُّنْيَا أَدْرَكَهَا غَداً فِي الـجَنَّةِ، وَمَنْ حُرِمَ عَما سِوَى الله فَعِيدُهُ يَوْمَ لُقْيَاه قَال - تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾[2].

أَلَيْسَ شَهْرُكُمْ هُوَ شَهْرُ القُرْآنِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ نَبِيُّكُمْ ﷺ: «**اقْرَؤوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يومَ القِيامَةِ شَفِيعاً لأَصْحَابِهِ**»[3].

يَقُولُ نَبِيُّنَا ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلا يَقْبَلُ اللهُ إِلا الطَّيِّبَ - فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجبَلِ**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠)، عن عائشة - رضي الله عنها.
(٢) العنكبوت: ٥.
(٣) أخرجه مسلم (٨٠٤) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الحلقة (٢)

حلاة الثوب رقعَتُهُ مِنْهُ وفيه

نَقُولُ فِي الـمَثَلِ الكُوَيْتِيِّ: (**حلاة الثوب رقعَتُهُ مِنْهُ وفيه**)، وَهَذَا المَثَلُ يُضْرَبُ فِي حُسْنِ الاخْتِيارِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، **وَخَاصَّةً فِي مَسْأَلَةِ الزَّوَاجِ** .

وَحَقِيقَةً مَسْأَلَة الاخْتِيارِ فِي الزَّواجِ قَضِيَّةٌ مُهِمَّةٌ جِداً، وَلا يُمْكِنُ إِغْفَالُـهَا.

وَأَقُولُ لِـمَنْ يَتَسَاءَلُ عَن ارْتِفَاعِ نِسَبِ الطَّلاقِ فِي بِلادِنَـا: هَلا نَظَرْتُمُ فِي الاخْتِيارِ مُنْذُ البِدَايَةِ.

فَحُسْنُ الاخْتِيارِ يُـجَنِّبُنَا وَيْلاتِ الطَّلاقِ أَوْ عَلَى الأَقَل نَضْمَنُ بِهِ بَيْتاً مُسْتَقِراً.

أَتَعْرِفُونَ أَنَّ نِسَبَ الطَّلاقِ عِنْدَنَا فِي الكُوَيْتِ وَالعَالَمِ العَرَبِيِّ نِسْبَةٌ تُعْطِي مُؤَشِراً خَطِيراً عن اسْتِقْرَارِ الأُسَرِ.

فَمَا السَّبَبُ وَرَاءَ ذَلِكَ؟

إِنَّهَا عُوامِلُ كَثِيرَةٌ أَهَمُّهَا قَضِيَةُ حُسْنِ الاخْتِيَار:

وَكَأَنَّ الشَّابَّ يَتَفَاجَأُ بَأَنَّ هَذِهِ الفَتَاةَ لَمْ تَكُنْ هِيَ التِي يُرِيدُهَا، وَالفَتَاةُ تَقُولُ كَذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ هَذَا فَارِسُ أَحْلامِي .

إِنَّ زَوَاجَ المسْلِم شِعَارُهُ: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾(١)، فهُوَ قائمٌ على حُسْنِ الاخْتِيارِ، فَاللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - جَعَلَ الزَّوَاجَ المبَارَكَ سَبَباً فِي ارْتِبَاطِ بَيْتَيْنِ كَرِيمَيْنِ بِعَلاقَةِ المطَهرَةَ الِتيِّ تضُيف مَزِيداً مِنْ الحبِّ وَالأُلْفَةِ وَالمحَبَّةِ بينَ الزَّوْجَينِ وَهَذِهِ، هِيَ سُنَّةُ الحَيَاةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

---

(١) النور: ٢٦.

(٢) الذاريات: ٤٩.

لَقَدْ شَرَعَ اللهُ- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الزَّوَاجَ، وَحَثَّ عَلَيْهِ لِتَحْصِينِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ، وَتَحْقِيقِ السَّكَنِ النَّفْسِيِّ، وَتَقْوِيَةِ الرَّوَابِطِ العَائِلِيَّةِ فِي المجْتَمَعِ المسْلِمِ المترابِطِ وَالمتَحَابِّ، وَلإِنْجَابِ الذُّرِّيَّةِ الصَّالحَةِ لِتَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِلزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ.

وقُدْوَتُنَا فِي ذَلِكَ الـمُصْطَفَى ﷺ؛ حَيْثُ كَانَ يَأْمُرُ بِالزَّوَاجِ وَيَنْهَى عَنِ التَّبَتُّلِ نَهْياً شَدِيداً وَيَقُولُ: «**تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ، إِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الأَنْبِيَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

وَقَدْ وَجَّهَ ﷺ الشَّبَابَ لِلزَّواجِ بِاعْتِبَارِهِم أَمَلُ الأُمَّةِ، وَعِمَادُ نَهْضَتِهَا، لِذَلِكَ كَانَتْ مُشَارَكَتُهُمْ ضَرُورِيَّةً فِي تَأْسِيسِ البُيوتِ المسْلِمَةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، فَقَالَ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابَ مِن اسْتَطَاعَ مِنْكُم البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ وأَحْصَنُ لِلفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّومِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»(٢).

بَلْ إِنَّ الأَمْرَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ يَا أَهْلَ الطِّيبِ.. فَرَسُولُ الله ﷺ حِرْصاً مِنْهُ وَرَحْمَةً بِأُمَّتِهِ، قَدْ نَصَحَ لَهُمْ، وَبَيَّنَ لَهُم الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ إِلَى الزَّوَاجِ المبَارَكِ، وَبَيَّنَ لِلشَّبَابِ مَنْهَجَهُ فِي اخْتِيَارِ زَوْجَاتِهِمْ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُم القَرَارَ الصَّحِيحَ الصَّائِبَ، إِذَا رَغِبُوا فِي بَيْتٍ تَعُمُّهُ السَّكِينَةُ وَلا تُغَادِرُهُ السَّعَادَةُ، بَيْتٌ يَصْمُدُ أَمَامَ العَوَاصِفِ، فِيهِ تتَّسِعُ لِلدِفْءِ العَائِلَةِ وَالعِشْرَةِ اللَّطِيفَةِ، قَالَ ﷺ: «**تُنْكَحُ المرْأَةُ لِأَرْبَعَةٍ: لِمَالِهَا وَلحسَبِهَا، وَلجمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**»(٣).

فاللائقُ بِذِي الدِّينِ وَالمرُوءَةِ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ اخْتِيَارَهُ فِي كُلِّ شَيءٍ، فَمَا بَالُكَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠)، عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦)، عن أبي هريرة ﷺ.

بِالزَّوْجَةِ الَّتِي تَطُولُ صُحْبَتُهَا وَعِشْرَتُهَا! فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتاً يَقُومُ عَلَى التَّقْوَى وَالعَفَافِ، كَانَ حَقاً عَلَى اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنْ يُعِينَهُ، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ يُدْرِكُهَا مَنْ أَقْدَمَ مِن الشَّبَابِ عَلَى هَذِهِ الخُطْوَةِ الطَّيِّبَةِ المبَارَكَةِ، فَفِي الحَدِيثِ: «**ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ: المجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالمكَاتبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ**»[١].

وَإِذَا كَانَت الدُّنْيَا مَتَاعاً، فَلا شَكَّ أَنْ خَيْرَ مَتَاعِهَا المرْأَةُ الصَالحَةُ، تِلْكَ الَّتِي إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ، وَإِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غِبْتَ عَنْهَا حَفِظَتْكَ فِي نَفْسِهَا وَمَالِكَ[٢].

وَمِثْلَمَا حَثَّ دِينُنُا العَظِيمُ عَلَى حُسْنِ اخْتِيَارِ الزَّوْجِ لِزَوْجَتِهِ، حَثَّ فِي المقَابِلِ الزَّوْجَةَ - وَخَاصَّةً أَهْلَهَا - عَلَى حُسْنِ اخْتِيَارِ الزَّوْجِ الَّذِي يَتَقَدَّمُ طَالِباً لِلزَّواجِ قَالَ ﷺ: «**إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضُونَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فَأنكحُوهُ**» ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ ﷺ بِنَتِيجَةٍ طَبِيعِيَّةٍ لِمَنْ يَأْخُذُ بِهَذِهِ القَاعِدَةِ فَقَالَ: «**إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادُ**»[٣].

وَلِذَلِكَ، عِنْدَمَا جَاءَ رَجُلٌ لِلحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فقَالَ لَهُ: إِنَّ لِي بِنْتاً فَمَنْ تَرَى أُزَوِّجُهَا؟، فَأَجَابَهُ الحَسَنُ مُتَّبِعاً مَنْهَجَ جَدِّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: (زَوِّجْهَا لِمَنْ يَتَّقِي اللهَ، فَإِنْ أَحَبَّهَا أَكْرَمَهَا، وَإِنْ بَغِضَهَا لَمْ يَظْلِمْهَا).

يَا وَلَدِي مِنْ أَهْلِ الطِّيبِ أُوصِيكَ:

بِأَنْ تُحْسِنَ عِشْرَةَ زَوْجَتِكَ، وَتُوفِّيَ بِالعَهدِ، وتُراعِيهَا وتَعْطِفُ عَلَيْهَا وَتَقْضِي حَاجَاتِهَا، حَتَّى تُصْبِحَ لَهَا حَقِيقَةً كَالمحَارَةِ أَو الصَّدَفَةِ الَّتِي تَحْمِي الدَّانَةَ

(١) أخرجه الترمذي (١٦٥٥) عن أبي هريرة ﷺ وحسنه الألباني.
(٢) انظر : ابن ماجه (١٨٥٧) عن أبي أمامة ﷺ، وضعفه الألباني.
(٣) أخرجه الترمذي (١٠٨٥) عن أبي حاتم المزني ﷺ، وابن ماجه (١٩٦٧) عن أبي هريرة ﷺ، وحسنه الألباني.

الَّتِي بِدَاخِلِهَا مِنْ أَشْواكِ الـحَيَاةِ، وَتَقَلُّبَاتِ الأَيـامِ، وَلا تُحوجُهَـا إِلَى شَيْءٍ مِمـا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَوْ تُرِيدُهُ.

فَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ الله، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَـهُ فِي رَقَبَـةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى الـمُسْلِمِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْراً الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ**»[1].

كَمَا أُذَكِّرُكَ بِحَدِيثِ المصْطَفى ﷺ: «**اسْتَوْصُـوا بِالنِّسَاءِ خَـيْراً**»[2] بَـلْ إِنَّ حَبِيبَنَا المصْطَفَى ﷺ وَصَّى بالنِّسَاءِ خَيْراً وَهُوَ عَلَى فِرَاشِ الموْتِ فَقَـالَ: «**اتَّقُـوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَـإِنَّكُمْ أَخَـذْتُمُوهُنَّ بِأَمَـانِ الله، وَاسْـتَحْلَلْتُمْ فُـرُوجَهُنَّ بِكَلِمَـةِ الله**»[3].

<u>**وَأَنْتِ ابْنَتِي العَرُوسُ**</u> نَنْصَحُكِ بِأَنْ تَكُونِي هَيِّنَـةً لَيِّنَـةً، نَقِيَّـةً تَقِيَّـةً، وَتُعِينِـي زَوْجَكِ عَلَى صُعُوبَةِ الـحَيَاةِ، وَأَنْ تُعِينِيهِ عَلَى الخَيْرِ وَالبِرِّ، وَخَاصَّةً البِرَّ بِوَالِدَيْهِ وَصِلَةَ أَرْحَامِهِ.

وَلتَعْلَمْ ابْنَتُنَا أَن الـعَّادَةَ لَا تتحَقَـقُّ بِالمـالِ أَوْ الـسَّكَنِ الفَـاخِرِ وَالأَثَـاثِ الغَالِي، وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ مِنْ مَسرَّاتِ الـحياةِ، وَلَكِن السَّعَادَةَ تَنْبُـعُ مِـنْ دَاخِـلِ النَّفْسِ وَمِنْ تَقْوى الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الَّذِي يهبُ الـسَّعَادَةَ وَالمـوَدَّةَ وَالحُـبَّ وَالرَّحْمَةَ بَيْنَ الزَّوْجِين.

و«**المرْأَةُ إِذَا صَلَّتْ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، وَحَفِظَـتْ فَرْجَهَا دَخَلَتْ جَنَّةَ رَبِّهَا**»[4]. فَطُوبى لِبيوتٍ تُبْنَى عَلَى التَّقْوَى.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٩٥) عن أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨) عن أبي هريرة ﵁.

(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨) عن جابر ﵁.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٠٨) عن أنس ﵁، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٢٥٤).

فَالكَفَاءَةُ فِي الدِّينِ بِمَثَابَةِ العِصْمَةِ وَالحِمَايَةِ، وَبَابٌ مِنْ أَبْوابِ دَوامِ العِشْرَةِ وَالمَوَدَّةِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ.. وَأَهْلُ المَثَلِ يَقُولُونَ: (الطُّيورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ) وَالإِنْسَانُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ يَسْأَلُ عَن الأَهْلِ، فَالعِرْقُ دَسَّاسٌ. وَكَمَا يُقَالُ فِي المَثَلِ: (**اسْأَلْ عَنْ أمها لي بغيت تضُمهَا**).

الحلقة (٣)

خُذْ ما تَيَسَّرَ وخل ما تعسر

نَقولُ فِي المَثَلِ الكُويتِيِّ :(خُذْ مَا تَيَسَّرَ وَخَل مَا تَعَسَّرَ) وَيَقُولُونَ: (**خُذْ مَا لاح وخَل ما رَاحَ**)هَذَا مَتوُافِقٌ تَمَاماً مَع سَمَاحَةِ الإِسْلامِ، فَهُوَ دِينُ اليُسْرِ وَالسَّمَاحَةِ.

وَالتَّيْسِيرُ وَالسَّمَاحَةُ مَنْهَجٌ رَبَّانِيٌّ وَإِرَادَةٌ إِلهيَّةٌ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[(١)]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٢)] .

أَمَّا السُّنَّةُ فَكَانَتْ خَيْرَ نَمْوذَجٍ لإِرَادَةِ التَّخْفِيفِ وَاليُسْرِ وَالسَّمَاحَةِ، كَمَا بَيَّنَ ﷺ وَهُوَ يُوجِزُ أُصُولَ المعَامَلاتِ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَقُولُ: «**رَحِمَ اللهُ رَجلاً سَمْحاً إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى**»[(٣)].

وَتَرْوِي السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَتَقُولُ كَمَا فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْماً»[(٤)]، وَذَاتَ يَوم دَخَلَ النبِيُّ ﷺ المَسْجِدَ فَوَجَدَ حَبْلاً مَمْدُوداً بِيْنَ السَّارِيَتَينِ فَقَالَ: «**مَا هَذَا الحَبْلُ؟**» قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ، فَقَالَ النبِيُّ ﷺ:«**لا.. حُلُوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ**»[(٥)].

لأَنَّ الإِنْسَانَ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ مُتَقَلِّبُ الأَحْوالِ بَيْنَ النَّشَاطِ وَالتَّكَاسُلِ، فَإِذَا رَأَى الوَاحِدُ مِنْ نَفْسِهِ نَشَاطاً فَلْيَجْتَهِد، فَإِذَا أَحَسَّ بِالتَّعَبِ رفق بِنَفْسِهِ وَأَرَاحَهَا،

(١) البقرة : ١٨٥.
(٢) المائدة : ٦.
(٣) أخرجه البخاري (٢٠٧٦) عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧)، عن عائشة – رضي الله عنها.
(٥) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٦٨٤) عن أنس بن مالك ﷺ.

لِكَي يَسْتَطِيعَ مُوَاصَلَةَ الطَّرِيقِ.

أَمَا هَجْمَةُ النَّشَاطِ المفَاجِئِ وَالعَمَلِ الشَّاقِ الَّذِي يُحَمِّلُ النَّفْس فَوْقَ طَاقَتِهَا، فَرُبَّمَا يَعْقُبَهُ هُبُوطٌ حَادٌّ أَوْ فُتُورٌ مُفَاجِئٌ أَيْضاً وَيُقْعِدُ النَّفْسَ فَتْرَةً طَوِيلَةً.

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ الله، فَإِنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضاً قَطَعَ وَلا ظَهْراً أَبْقَى**»(١).

فَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَصِلَ إِلى مُبْتَغَاهُ وَهَدَفِهِ لابُدَّ أَنْ يَرْفُقَ بِدَابَّتِهِ الَّتِي تَحْمِلُهُ، أَمَّا إِنْ شَدَّدَ عَلَيْهَا وَحَمَّلَهَا بِمَا لا تُطِيقُ لَنْ يصِلَ إِلىَ هَدَفِهِ، بَلْ وَرُبَّمَا مَاتَت الدَّابَّةُ، وَرَحْمَةُ الله عَلَى مَنْ كَانَ يَقُولُ: نَفْسِي مَطِيَّتِي وَإِنْ حَمَّلْتُهَا مَا لا تُطِيقُ لَمْ تُوَصِّلْنِي.

إِنَّ تَعْقِيدَ الأُمُورِ وَالتَّشْدِيدِ وَتَكْلِيفِ النَّفْسِ بِمَا لا تَسْتَطِيعُ لَيْسَتْ دَلالَةً عَلَى قُوَّةِ دِينٍ أَوْ إِيمَانٍ، وَلَيْسَ بِغَرِيبٍ حَدِيثُ النَّفَرِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلى بَيْتِ النَّبِي ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَلَمَّا تَقَالُّوهَا قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ الدَّهْرَ لا أَفْطِرُ، وَقَالَ الآخَرَ: أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ لا أَنَامُ، وَقَالَ الثَّالِثُ: أَمَّا أَنَا فَلا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَلما عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ جَاءَ إِلَيْهِمِ وَقَالَ: «**أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(٢).

وَقَدْ قِيلَ: احْذَرْ ضَحِكَ الشَّيْطَانِ عَلَيْكَ وَأَنْتَ فِي خَمْسِ سَاعَاتٍ: سَاعَة الغَضَبِ، وَسَاعَة المفَاخَرَةِ، وَسَاعَة المجَادَلَةِ، وَهَجْمَة الزُّهْدِ المفَاجِئِ وَالحَمَاسِ وَأَنْتَ تَخْطُبُ فِي النَّاسِ، فَقَدْ يَكُونُ التَّعْسِيرُ وَالتَّشْدِيدُ عَلَى النَّفْسِ مَا هُوَ إِلا حَمَاسَةٌ مُؤَقَّتَةٌ يَتْبَعُهَا فُتُورٌ.

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤٥٢٠) عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما، وفي الشعب (٣٨٨٦) عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٤٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (٤٧٧٦) عن أنس بن مالك ﷺ.

وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ ﷺ حِينَ قَالَ لَهُ ابْنهُ: يَا أَبَتِ لماذَا لا تَحْمِل النَّاسَ عَلَى الحق حَمْلاً، وَالله لا أُبَالِي إِنْ غَلَتِ القُدُورِ بِي وَبِكَ فِي الحق . فَقَالَ عُمَرُ بن عَبْدِ العَزِيزِ ﷺأخاف إِنْ حَمَلْتُ النَّاسَ عَلَى الحق جُمْلَةً أَنْ يتركُوهُ جُمْلَةً.

هَذَا التَّيْسِيرُ لَيْسَ مَعْنَاهُ التَّهاون فِي العِبَادَاتِ أَوْ الالْتِزَامَاتِ، فَدَائِماً المعْنَى الجَمِيلُ يضِيعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ: الإِفْرَاطُ وَالتَّفْرِيطُ.

والشَّيْطَانُ يَنْزَغُ لابنِ آدَمَ بَيْنَ نَزْغَتَيْنِ؛ فَإِمَّا أَنْ يَجْعَلَهُ مُتَهَاوِناً فِي دِينِهِ يَتَتَبَّعُ الرخُّصَ، بل ربما يترك فَرَائِض الدِّينِ. وَإِمَّا أَنْ يَجْعَلَهُ مُتَشَدِّداً عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى النَّاسِ فَيُحَمِّلُ نَفْسَهُ مَا لاتطيق . وَلا شَكَّ أَنَّ لِلْنَّفْسِ طَاقَةً وَعَزِيمَةً، وَكَمْ مِنْ أُنَاسٍ حَمَلُوا لِوَاءَ الدَّعْوَةِ إِلى الله – تَعَالَى- وَكَانُوا مَعَ هَذَا مُنَفِّرِينَّ!

لَكِنَّ أَهْلَ الطِّيبِ هُمْ أَهْلُ التَّوَازُنِ بَيْنَ الإِفْرَاطِ المجْهِدِ لِلنَّفْسِ الهَدَّام لِلْعَزِيمَةِ وَبَيْنَ التَّفْرِيطِ الـمُخِلِّ بِالسُّلُوكِيَّاتِ وَالالْتِزَامَاتِ. أَهْلُ الطِّيبِ هُم الَّذِينَ يَأْخُذُونَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ مَا تَيَسَّرَ مَا لَمْ يَكُنْ إِثْماً أَوْ حَرَاماً.

أَهْل الطِّيبِ هُمْ أَهْلُ المدَاوَمَةِ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ العَمَلُ قَلِيلاً، لا أَهْلَ هَجْمَةِ زُهْدٍ وَعِبَادَةٍ ثُمَّ فُتُور وَرُكُون.

فَخُذُوا مَا تَيَسَّرَ وَاتْرُكُوا مَا تَعَسَّرَ .

١ -إِنَّ هَذَا الدِّينَ كَمَا قَالَ النَّبِي ﷺ: «**مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ**»[1] و«**لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلا غَلَبَهُ**»[2].

٢ - «**خذ ما تيسر**» تَعُلقٌ كَذَلِكَ بِالتَوَكُّلِ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِالله- سُبْحَانَهُ- وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ مَرْفُوعاً: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكم كَمَا**

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨) عن أنس ﷺ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩)، عن أبي هريرة ﷺ.

يَرْزُقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً»(١). وَالتَوَكُّلُ - كَمَا قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ - مِنْ أَعْمَالِ القُلُوبِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَةَ الرَّبِّ - سُبْحَانَهُ - وَصِفَاتِهِ، مِمَا يَسْتَلْزِمُ تَفْوِيضَ الأَمْرِ إِلَى الله، كَمَا قَالَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَونَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٢).

٣-إِنَّ مِنْ ثِمَارِ التَّوَكُّلِ عَلَى الله الرِّضَا، والتَعْظِيمَ وَالإِجْلالَ وَالحَيَاءَ، انْظُرُوا إِلَى أَدَبِ المَسِيحِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلامُ - فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - حِكَايَةً عِن عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾(٣)، ولم يقل: (**لم أَقُلْهُ**).

٤-إِكْرَامُ الله لِلعَبْدِ بِالسَّكِينَةِ وَالطمَأْنِينَةِ هو عَطَاءٌ مِن الله وَلَيْسَ مِنْ كَسْبِ الجُهْدِ البَشَرِيِّ كَمَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤). وَقَدْ كَانَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْن تَيْمِيَةَ إِذَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ الأُمُورُ قَرَأَ آيَاتِ السَّكِينَةِ وَهِي (سورة التوبة آية ٢٧، ٤١ وسورة الفتح آيات: ٤، ١٨، ٢٦) وَالسَّكِينَةُ هِي الطمَأْنِينَةُ وَالوَقَارُ وَالسُّكُونُ الَّذِي يُنَزِّلُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ عِنْدَ اضْطِرَابِهِ مِنْ شِدَّةِ المَخَاوِفِ، فَلا يَنْزَعِجُ بَعْدَ ذَلِكَ لما يَرِدُ عَلَيْهِ وَيُوجِبُ لَهُ زِيَادَةَ الإِيمَانِ وَقُوَّةَ اليَقِينِ وَالثبَاتِ.

٥- والرِّضَا بِمَا تَيَسَّرَ وَعَدَمُ الفَزَعِ بِمَا فَاتَ أَسَاسُ السَّعَادَةِ كَمَا قَالَ أَهْلُ المَثَلِ: (الرِّضَا سيد الأَحْكَام) وَقَوْلُهُمْ: (لي سَلم العود الحال مردود) وَيَقُولُون: (أدق شحيمتي على أركيبتي ولا عازه لجويرتي).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٥)، ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤) عن عمر بن الخطاب ﷺ، وصححه الألباني.
(٢) غافر: ٤٤.
(٣) المائدة: ١١٦.
(٤) التوبة: ٢٦.
(٥) التوبة: ٢٨.

ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١].

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[٢]، ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[٣]، ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[٤].

---

(١) التوبة : ٤١.

(٢) الفتح : ٤.

(٣) الفتح : ١٨.

(٤) الفتح : ٢٦.

الحلقة (٤)

كل بقلبه شقا اللي له

(كل بقلبه شقا إللي له)، و(كل ما يوجس إلا اللي حبه).

لَوْ سَأَلْنَا النَّاسَ: مَا هُوَ أَهَـمُّ شَيْءٍ فِي حَيَـاتِكم؟ لاخْتَلَفَـتْ إِجَابَـاتُهُم مِـنْ شَخْصٍ لآخَرَ، وَهَذِهِ هِيَ طَبِيعَةُ النَّاسِ.

فاهَتِمَامَاتُ النَّاسِ تَخْتَلِفُ مِنْ شَخْصٍ لآخَرِ:

وَاحِدٌ هُمُومُهُ لا تُفَارِقُ نَفْسَهُ وَشَهَواتِهَا وَمَلَذَاتِهَا، وَمَا تُحِبُّ وَمَا تَهْوَى.

وَوَاحِدٌ آخَرُ هُمُومُهُ هيَ هُمُوم النَّاسِ يَتَأَلَّمُ لآلامِهِم وَيَـشْقَى لِـشَقَائِهِم (مـن عاش لنفسه..).

وَطَرِيقَةُ السَّعْيِ فِي الـحَيَاةِ- أَيْضاً تَخْتَلِـفُ مِـنْ شَـخْصٍ لآخَـرَ، فَهُنَـاكَ الكَسُولُ، وَهُنَاكَ النَّشِطُ، وهُنَاكَ الفَاتِرُ فِي أَحْلامِهِ وَطُمُوحَاتِـهِ، وَهُنَـاكَ عَـالِي الهِمَّةِ فِي آمَالِهِ وَأَعْمَالِهِ. وَلا شَكَّ أَنَّهما لا يَسْتَوِيانِ.

إِنَّ الإِسْلامَ يَدْعُو دَائِماً لِلتَّخَلُّقِ بِالسَّامِي وَالرَّفِيعِ فِي الأَعْـمَالِ وَفِي الأَقْـوالِ وَفِي المواقِفِ وَحَتَّـى فِي الـدُّعَاءِ، فَـالنَّبِيُّ ﷺ يَقُـولُ: «**إِذَا سَـأَلْتُم اللهَ فَاسْـأَلُوهُ الفِرْدَوسَ**»(١)، وَرَبَّى أَصْحَابَهُ عَلَى أَنْ يَكُونُـوا عِظَامـاً فِي آمَـالِهِم وَأَحْلَامِهِـم، وَعَلَى نَهْجِهِ سَارَ الصَّحَابَةُ.

فَهَذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يَجْلِسُ يوماً فِي المسْجِدِ فَيَقُولُ لأَصْحَابِهِ تَمَنَّوا، فَيَقُولُ أَحَدُهُم: أَتَمَنَّى ملء هَذَا الـمَسْجِدِ ذَهَباً أُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ الله، وَيَقُولُ آخَرُ: أَتَمَنَّـى مِلْء هَذَا الـمَسْجِدِ مَالاً أُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ الله. وقـالوا لَـهُ: تَمَنَّـى أَنْـتَ يَـا عُمَـرُ. فَيَقُولُ: أَتَمَنَّى مِلْء هَذَا الـمَسْجِدِ رِجَالاً كَأَبِي عُبَيْدَةَ بْن الـجَرَّاحِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة ﷺ.

وَهَذَا ابْنُ قُتَيْبَةَ يَقُولُ: قَرَأْتُ فِي كُتُبِ الحِكْمَةِ هَذِهِ المقُولَة: (ذُو الهِمَّةِ العَالِيَةِ إِنْ حُطَّ فَنَفْسُهُ تَأْبَى إِلا عُلُواً كَالشُّعْلَةِ مِن النَّارِ يُصَوِّبُهَا صَاحِبُهَا وَتَأْبَى إِلا ارْتِفَاعاً).

إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلى الهِمَمِ العَالِيَةِ: إِنْ كَانَتْ لِلأُمَّةِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، والمجْتَمَعُ مَدْعُوٌّ لِأَنْ يَكُونَ عَالِي الهَمَّةِ فِي أَعْمَالِهِ وَوَظَائِفِهِ، فِهِيَ دَعْوَةٌ إِلَى الشَّبَابِ خَاصَّةً.

فَنَقُولُ لِكُلِّ شَابٍّ:

فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فِي الثُّرَيا

وَلِيَحْرِصْ كُلُّ شَابٍّ عَلَى أَلا يَمُرَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ إِلا وَيَزْدَاد فِيهِ شَيْئاً.

يَقُولُ إِبرَاهِيمُ الحَرْبِي: صَحِبْتُ الإِمَام أَحْمَدَ عِشْرِينَ سَنَةً صيفاً وشتاءً، حَراً وَبَرْداً، لَيْلاً وَنَهَاراً، فَمَا لَقِيتُهُ فِي يَوْمٍ إِلا وَهُوَ زَائِدٌ عَلَيْهِ بِالأَمْس.

وَيُحْكَى أَنَّ شَابًا صِينِياً ذَهَبَ لِرَجُلٍ كَبِيرٍ فِي السِّنِ وَالفَضْلِ سَائِلاً إِيَاهُ مِفْتَاحَ النَّجَاحِ. فَأَحْضَرَ العَجُوزُ إِنَاءً بِهِ مَاءٌ، فَاسْتَغْرَبَ الشَّابُّ، وَقَالَ لَهُ العَجُوزُ: انْظُرْ إِلَى الإِنَاء مَاذَا تَرى؟

فنَظَرَ الشَّابُّ فِي الإِنَاءِ وَإِذَا بِالعَجُوزِ يُمْسِكُ بِرَأْسِ الشَّابِّ يغمرُهُ فِي الماءِ. فَحَاوَل الشاب مُقَاوَمَتَهُ، فَأَقْبَضَ العَجُوزُ بِقُوَّةٍ أَكْبَرَ، وَلكِنَّ الشاب قَاومَ بِشِدةٍ وَأَخْرَجَ رَأْسَهُ مِن المَاءِ، وَنَظَرَ فِي وَجْهِ العَجُوزِ مُتَعَجِباً وَقَالَ: كِدْتُ أَنْ أَموتَ لماذَا فَعَلْتَ هَذَا؟

فَقَالَ العَجُوزُ: هَلْ رَأَيْتَ مَدَى حَاجَتِكَ إِلَى الهَوَاءِ؟ قَالَ الشاب: نَعَمْ.

فَقَالَ العَجُوزُ: هَكَذَا النجَاحُ لابُدَّ أَنْ تَطْلُبَهُ بِحِرْصٍ كَطَلَبِكَ لِلهَوَاءِ.

إِنَّنَا الآنَ فِي رَمَضَانَ، وَهَو أَهْلٌ لعُلُوِّ الهِمَّةِ فِي عَلاقَتِنَا بِالله فِي العِبَادَةِ وَعَلاقَتِنَا مَعَ النَّاسِ بِحُسْنِ المُعَامَلَةِ. وَلله قَولُ ابْنِ الجُوزِي حَيْثُ يَقُولُ: لله

أَقْوَامٌ مَا رَضُوا مِن الفَضَائِلِ إلا بِتَحْصِيلِ جَمِيعِهَا، فَهُمْ يُبَالِغُونَ فِي كُلِّ عِلْمٍ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي كُلِّ عَمَلٍ، يُثَابِرُونَ عَلَى كَلِّ فَضِيلَةٍ، فَإِذَا ضَعُفَتْ أَبْدَانُهُم عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ قَامَتْ النياتُ نَائِبَةً وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ.

مِنْ أَمْثِلَةِ الهِمَم العَالِيَةِ فِي الـمُعَادَاةِ: إِيزَابِيلَ بِنْتُ خُوان (مَلِك قَشْتَالَة) فِي زَمَنِ الأَنْدَلُسِ؛ حَيْثُ نَذَرَتْ أَلا تَخْلَعَ مَلابِسَهَا حَتَّى تَتَحَرَّرَ قَشْتَالَةُ وَتَعُودَ غرْنَاطَةُ مِنْ أَيْدِي المسْلِمِينَ، وَظَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الحَالِ مَا يُقَارِبُ ٣٠ عاماً.

هَذِهِ هِمَّةٌ عَالِيَةٌ فِي العَدَاءِ.

وَهُنَاكَ نَمَاذِج أُخْرَى فِي تَارِيخِنَا الإِسْلامِي: فِي الهِمَّةِ العَالِيَةِ وَأَئِمَّةِ الحَدِيثِ الَّذِينَ كَانُوا يَنْتَقِلُونَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَمِنْ مَجْلِسِ عِلْمٍ إِلَى آخَرَ، حَتَّى يَروُونَ أَنَّ أَحَدَهُم كَانَ يَقُومُ بِرِحْلَةٍ تُقَارِبُ العَامَ ذَهَاباً وإِياباً لِأَجْلِ البَحْثِ عَنْ صِحَّةِ حَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ.فِي كتبُ التراجِم أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ.

ولمأدَهْشَنَي من مْواقفَ في الهِمَمِ العَالِيةِ ذَلِكَ الشاب الَّذِي سَمِعَ يَوماً مِن الأَيامِ وَهُوَ وَسطَ أَصْحَابِهِ أَنَّ بُرْجَ (بِيزَا المائِل) قَدْ وَقَعَ فَبَكَى، فَتَعَجَّبَ الحاضِرُونَ لِبُكَائِهِ، وَسَأَلُوهُ فَقَالَ لَهُمْ: لَقَدْ وَقَعَ بُرجُ بِيزَا أَمَا سَمِعْتُمْ؟ فَقَالَوا: وَمَا يُحْزِنُك أَنْتَ؟ فَقَالَ: كُنْتُ أَحْلُمُ أَنْ أُؤَذِّنَ عَلَيْهِ يَوماً مِن الأَيام.

فَيَا شَبَابَ الإِسْلَام كُونُوا كِبَاراً فِي أَمَانِيكُمْ وَفِي آمَالِكُمْ، كُونُوا كِبَاراً فِي أَعْمَالِكُمْ وَوَظَائِفِكُمْ، كُونُوا كِبَاراً فِي مُوَاقِفِكُمْ وَلْتَذْكُرُوا وَصِيةَ وَهِيبِ بْنِ الوَرْدِ القَائِلَةِ: إِذَا اسْتَطَعْتَ أَلا يَسْبِقَكَ إِلَى الله- تَعَالَى - أَحَدٌ فَافْعَلْ.

لا يَنْفَكُّ المؤْمِنُ بِيْنَ جَذْبَيْنِ: جَذْب إِيمَانِهِ وَنِيَّتِهِ وَهِمَّتِهِ وَوَعْيِهِ وَشُعُورِهِ بِمَسْؤُولِيَتِهِ، وَجَذْبِ الشَّيْطَانِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يَأْخُذُهُ لِلفُتُورِ وَالرُّكُونِ إِلَى الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ فِي غَفْلَةٍ وَكَسَلٍ وَطُولِ أَمَلٍ. وَلِهَذَا فَأَهْلُ الطِّيبِ يَجْلِسُونَ

بَيْنَ الحِينِ وَالآخرِ يَتفَكَّرُونَ وَيَتَأَمَّلُونَ مَعَ إِخْوَانِهِم فِي المَسْجِد كَمَا قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ لأَبِي الدَّرداءِ - رَضِي اللهُ عَنْهُمَا: (تعَالَ نُؤْمِن سَاعَةً، إِنَّ القَلْبَ أَسْرَعُ تَقَلُّباً مِنْ القِدْرِ إِذَا استَجْمَعَتْ غَلَيَانًا).

مِنْ أَكْثَرِ مَا يُوزِعُ القَلْبَ اتِّبَاعُ الهَوى، فَهُو مُضَادٌّلِلحِقَ ّ كَمَا قَالَ- تَعَالَى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١).

وَلِهَذَا الأَمْرِ عِنْدَمَا تَوَلَّى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ الخِلافَةَ كَانَ هَمُّهُ إِصْلاح الأُمَّةِ وَإِرْجَاعهَا إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّاشِدُونَ، فَقَالَ- يُبَيِّنُ عِظَمَ المَسْؤُولِيةِ الَّتِي عَلَيْهِ: (إِنِي أُعَالِجُ أَمْراً لا يُعِينُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ، قَدْ فَنِي عَلَيْهِ الكَبِيرُ وَكَبُرَ عَلَيْهِ الصَّغِيرُ، وَفَصَحَ عَلَيْهِ الأَعْجَمِيُّ، وَهَاجَرَ عَلَيْهِ الأَعْرَابِيُّ، حَتَّى حَسبُوهُ دِيناً لا يَرَوْنَ غَيْرَهُ).

---

(١) ص: ٢٦.

الحلقة (٥)

إذا فات الفوت ما ينفع الصوت

(**إِذَا فَات الفُوتْ مَا ينْفَع الصُّوتْ**) . هَذَا مَثَلٌ عَرَبِيٌّ مَشْهُورٌ، وَمَشْهُورٌ بَيْنَنَا فِي الكُويتِ، فَإِذَا اتَّخَذَ الوَاحِدُ مِنا قَرَاراً وَبَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ خَطَأً قَالَ: (**إِذَا فَاتَ الفَوتْ مَا يَنْفَع الصَّوتْ**)، المَثَل لَوْ وَزَنَّاهُ لَوَجَدْنَاهُ صَحِيحًا سَلِيمًا.

فالنبِيُّ ﷺ قَالَ: «**اسْتَعِنْ بِالله وَلا تَعْجَزْ، وَلا تَقُلْ لَو أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا لَكانَ كَذَا، وَلكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[١].

إِنَّ النَّدَمَ الهَدَّامَ يَأْتِي عَلى النُّفُوسِ، فَيَكُونُ لَهَا كَمثلِ السلاسِلِ التِي تُسَلْسِلُهَا، فَلا يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَرَّكَ.

لا يُمْكِنُهَا أَنْ تُعِيدَ الأَحْدَاثَ، وَتُصْلِحَ مَا فَاتَ، وَلا يُمْكِنُهَا أَن تُقَدِّمَ فِي المسْتَقْبَلِ شَيْئاً ذَا قِيمَةٍ.

وَالإِنْسَانُ طوالَ حَيَاتِهِ عُرضَةٌ لِلمُشْكِلاتِ وَالمصَائِبِ، وَعُرْضَةٌ - أَحَياناً - لِسُوءِ التَّقْدِيرِ والتدبير، فَإِذَا مَا وَقَعَ فِي مُشْكِلَةٍ وَتَبَيَّن أَنَّهُ أَسَاءَ التَّخْطِيطَ، وَتَمَلَّكَهُ الندَمُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، صَارَ إِنْسَاناً عَاجِزاً وَأَضْعَف مِنْ أَنْ يُوَاجِهَ أَيَّ مُشْكِلَةٍ أُخْرَى، وَمَا أَكْثَرَ مَتَاعِبَ وَمَشَاكِلَ الحَيَاةِ.

وَلِهَذا يَقُولُ النَّاسُ: (**لا تَبْكِ عَلَى اللَّبَنِ المسْكُوبِ**)، وَيَقُولُونَ: (**تَنْسَد مِنْ بَابٍ وَيَأْتِيكَ الفَرَجُ مِنْ بَاب**).

لِأَنَّ مَا فَاتَ مَضَى وَانْتَهَى، ولم يَبْقَ مِنْهُ إِلا العِبْرَةُ وَالعِظَةُ.

لَوْ أَنَّهُ يُمْكِنُ العَودَةُ إِلى الماضِي وَلَوْ لِلَحظَاتٍ، وَأَمْكَنَ تَعْدِيلُ وَتَحْسِينُ صُورَةِ الماضِي بِمَا نُحِبُّ، لَوْ كَانَ يُمْكِنُنَا ذَلِكَ لما تَأَخرنا وَهَرَعْنَا نَحْوَ المَاضِي

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة ﷺ.

لِنُحَسِّنَ الوَاقِعَ وَالمسْتَقْبَلَ، وَلَكِنْ لِلأَسَف هَذَا لَنْ يَكُون، هَذَا مِنْ المسْتَحِيلِ، إِذَنْ فَلِمَاذَا الحزْنُ عَلَى مَا فَاتَ؟ لِمَاذَا يَعتَرِينَا النَّدَمُ الهَدَّامُ لِلعَزائِم؟أَلَيْسَ أَحْرَى بِنَا أَنْ يَكُونَ المَاضِي عِبْرَةً لِلحَاضِرِ، فَنَعْتَبِرَ بِما مَضَى وَلا نُكَرِّرَ أَخطَاءَنا؟ يَقُولُ النبِيُّ ﷺ فِي حَالِ التَّوْبَةِ: «**النَّدَمُ تَوبَةٌ**»(١). فَنَدَمُكَ عَلَى الذَّنْبِ تَوْبَةٌ.

لَكِن لَيْسَ المقْصُود هُنَا الندَم القَاتِل لِلعَزَائِمِ، وَلَكِنهُ النَّدَمُ الَّذِي يَجْعَلُ الذَّنْبَ أَمَامَ عَيْنيكَ، وَفِي ذَاكِرَتِكَ فَلا تَعُودُ إِلَيهِ مَرَةً ثَانِيَةً.

ذَكَرَتْ بَعْضُ الفَضَائِياتِ أَنَّ العُلَمَاءَ يَبْحَثُونَ عَقَاراً مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَمْسَحَ الأَحْدَاثَ الأَلِيمَةِ مِنْ ذَاكِرَةِ الإِنْسَانِ، وَبِالفِعْلِ أُجْرِيَت الاخْتِبَارَاتُ عَلَى الفِئْرَانِ، وَهُمْ عَازِمُونَ عَلَى إِنْتَاجِ هَذَا العَقَارِ.

قَدْ يَحْسبُ المسْتَمِعُ وَالمشَاهِدُ أَنَّ هَذَا يُعَدُّ تَرَفاً عِلْمياً!! وهَذَا صَحِيحٌ.

لكِنْ هَلْ الصَّحِيحُ أَنْ يَعِيشَ الإِنْسَانُ فِي أَحْداثِ الماضِي الأَلِيمِ وَيَنْسَى وَاقِعَهُ؟! فَهُوَ لَنْ يُعِيدَ الماضِي أَبداً مَهْمَا كَانَ، لَكِنَّهُ مُصِرٌّ عَلَى أَنْ يُضَيِّعَ الحَاضِرَ أَيْضاً.

وَالمؤْمِنُ لا حَاجَةَ لَهُ لِهَذَا الدَّوَاء، لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ بِقَضَاءِ الله- تَعَالَى - وَقَدَرِهِ مَهْمَا كَانَ، وَيَطْمَئِنُّ أَنَّ مَا فَاتَهُ رُبَّمَا فَاتَهُ لِأَنَّ اللهَ- تَعَالَى - اخْتَارَ لَهُ الأَحْسَنَ. وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ: مَا ينفع اللوم لأن المقدر جرى.

وَفِي الحَدِيثِ يَقُولُ النبِيُّ ﷺ: «**عَجَباً لأَمْرِ المؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ هَذَا لأَحَدٍ إِلا المؤْمِنَ، إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ شَرٌّ صَبرَ فكَانَ خَيْراً لَهُ**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢) عن عبد الله بن مسعود ﷺ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب ﷺ.

وَلله درّ القَائِل:

وَلَسْتُ بِمُـدْرِكٍ مَا فَـاتَ مِنِّي بِلَهفٍ وَلا بِلَيْتَ، وَلا لَوْ أَنِّي

فَلَهفُ الواحِدِ مِنا عَلَى مَا فَاتَهُ أَوْ قَوْلُهُ لَيْتَ أَوْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، كُلُّ هَـذَا لَنْ يُعِيدَ مَا فَاتَ، لِسَبَبٍ بَسِيطٍ، وَهُوَ أَنَّ مَا فَـاتَ وَمَـا هُـوَ آتٍ كُلُّـهُ بيـدِ الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- قَـالَ تَعَـالَى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

فَالـمَاضِي وَالحَاضِرُ بِيدِ الله- سُبْحَانَهُ، وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

دَع النَّدَامَةَ لا يَذْهَبْ بِكَ النَّدَمُ فَلَسْتَ أَوَّلَ مَنْ زَلَّتْ بِه قَدَمُ

هِيَ المَقَادِيرُ وَالأَحْكَامُ جَـارِيَـةٌ وَلِلمُهَيْمِنِ فِي أَحْكَامِهِ حِكَمُ

أحبتي في الله، إِنَّ اللهَ –تَعَالى – لَنْ يُغَـيِّرَ سُـنَنَهُ الكَونِيـةَ مِـنْ أَجْـلِ جَهْـلِ الـجَاهِلِ بِهَا، أَوْ لِسُوءِ تَقْدِيرِ واجْتِهَادَاتِ النَّاسِ.

إِنَّ لله سُنَناً ثَابِتَةً، وَأَهْل الطِّيبِ فِي كُلِّ زَمَنٍ يُؤْمِنُونَ بِهَا.

حَكَمَ اللهُ – تَعَالى – عَلَى الـمَاضِي أَنَّهُ لا يَعودُ إلا يوم الحساب: «**لا تَـزُولُ قَدَمَا ابْن آدَمَ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أربع: عَنْ عُمْرِه فِيمَا أفناه، وعن شـبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم**»(٢)، لكِنَّهُ فِي المَقَابِلِ، أَعطَاكَ الـحَاضِرَ وَمَنَّاك وَأَغْراكَ بِالمسْتَقْبَلِ.

وَكَمَا قِيلَ: إِنْ كَانَ الـمَاضِي صَفْحَةً انْطَوَتْ، فَالمـسْتَقْبَلُ صَـفْحَةٌ مَـا زَالَـتْ بَيْضَاءَ فسَطِّرْ فِيهَا مَا تَشَاءُ).

فَتَعَلَّمْ مِنْ أَخْطَائِكَ، وَلا تُكَرِّر مَا وَقَعْتَ فِيهِ.

---

(١) المؤمنون: ٨٨.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٦) عن ابن مسعود ﷺ، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤٦).

إِنَّ الدَّقِيقَةَ التِي تَـمُرُّ لَنْ تَعُودَ أَبَداً فاغْتَنِمُوهَا بِالنَّافِعِ.

حَيَاتُنَا لَنْ يَعِيشَهَا غَيْرُنَا فَلْنَعِشْهَا بِأَحْلَى مَا يَكُونُ فِيهَا مَا دَامَ حَـلالاً طيبـاً؛ فَإِنَّ الحُزْنَ عَلَى الـمَاضِي لَنْ يُقَدِّمَ لَكِنَّهُ سَيُؤَخِّرُ.

عَدُوكَ يَتَمَنَّى لَكَ الحُزْنَ الهَدَّامَ، والنَّدَمَ القَاتِلَ لِلعَزِيمَةِ، حَتَّـى يَـسْبِقَكَ إِلَى الغَايةِ وَالهَدَفِ، والمصَابُ يَتَحَمَّلُ إِصْوابَهُ، كَمَا يُقَالُ : شايل داره بِرداه .

واعلَمُوا أنَّ :

١- الحَيَاةَ تَجَارِبٌ، وَلابُدَّ مِنْ التَّفَكُّرِ فِي التَّجْرِبَةِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا الإِنْسَانُ.

٢- الحَيَاةَ بُنِيَتْ عَلَى الحلْوَةِ وَالمرَّةِ فَلابُدَّ مِن التَّوَازُنِ.

٣- لنَجْعَل الفَشَلَ سُلَّماً لِلنَّجَاحِ، لا مِعْوَلاً لِلهَدْمِ، وَأَهْـلُ المثَـلِ يَقُولُـون: (سِّرْ عَنْ اذْرَاعِكْ).

٤- التَخْطِيطُ الجَيِّدُ يُجَنِّبُنَا النَّدَمَ، كَمَا يُجَنِّبُنَا النَّظَرَ فِي عَواقِبِ الأُمُـورِ كَثِـيراً مِن الزَّلاتِ.

٥- القُرْآنُ الكَرِيمُ يَعْرِضُ قصَص الأُمَمِ الـسَّابِقَةِ لِلعِـبْرَة، وَأَنْ لا نُكَـرِّرَ أَخْطَاءَهَا.

٦- أَحْياناً طُولُ الأَمَلِ وَالغُرورِ بِالدُّنْيَا مِن الأَبْوابِ المؤَدِّيَةِ لِلنَّدَمِ.

٧- الرِّضَا بِقَضَاءِ الله يُجَنِّبُنَا النَّدَمَ السَّلْبِيَّ القَاتِلَ.

(إِذَا فَاتْ الفُوتْ وَالله مَا يَنْفَع الـصوتْ. وصـبرك عـلى نفـسك ولا صـبر الناس عليك).

الحلقة (٦)

كَثْرُ الدَّقِّ يَفُكُّ اللحَامَ

جَمِيلَةٌ هذِهِ المَعَانِي مِنْ أهلِ الطِّيبِ فِي الإِجَابَةِ عَلَى سُـؤَالِنَا: **لماذا كثير من أمانينا وأحلامنا لا تتحقق؟**

وَالَّتِي تَلَخَّصَتْ بـ....

١ - عَدَمُ الجِدِّيَةِ فِي العَمَلِ.

٢- التَّسْوِيفِ وَالتَأْجِيلُ للأَعْمَالِ.

٣- الاتِّكَالِيَةُ وَعَدَمُ الاعْتِمَادِ عَلَى النَّفْسِ.

٤ - وُجُودُ أَمَانٍ مُبَالَغٌ فِيهَا خَارِجَةٌ عَنْ حُدُودِ المعْقُولِ وَالمقْدُورِ.

٥ - الكَسَلُ وَعَدَمُ بَذْلِ السَّبَبِ لِتَحْقِيقِ الأَمَانِي.

وَمَعَ هَذِهِ البَاقَةِ الطَّيِّبَةِ مِنْ هَذَا الكَلامِ الجَمِيلِ أُضِيفُ وَرْدَةً لِهَـذِهِ المزْهَرِيَّـةِ الـجَمِيلَةِ فأَقُولُ:

(كَثْرُ الدَّقِّ يَفُكُّ اللحَامَ): مَثَلٌ مَشْهورٌ بَينَنَا فِي الكُويتِ، وَمَشْهُورٌ- أَيْضاً- فِي مُجْتَمَعِنَا العَرَبِيِّ بِأَلفَاظٍ قَرِيبَةٍ مِنْ ذَلِكَ. وَهَذَا المثَلُ صَحِيحٌ فِي مَعْنَاهُ وَمَبْنَاهُ .

فَهُوَ يُعَبرُ عَنْ حَقِيقَةٍ لا يُمكِنُ إنْكَارُهَا، وَيُؤَكِّدُ عَلَى مَعْنى عَظِيمٍ وَسُلوكٍ حَبَّذَا لَوْ صَارَ سُلُوكُ أَهْلِ الطِيب. وَهُوَ الإِصْرَارُ عَلَى تَحْقِيقِ الأَمَانِي مَا دَامَت فِي نِطَاقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، كَمَا يَقُولُ أَهْلُ المثَلِ: (عَلَى الطُّولِ يَقْطَعُ الحَبْلُ الحَجَرَ).

فَالإِنْسَانُ كَثِيرُ الأَمَانِي وَالرَّغَبَاتِ، لكَن يقِفُ العَجَزُ بَيْنَهُ وَبينَ تَحْقِيقِ أَمَانِيهِ. ومعروفٌ أنَ تَحَقَيْقَ الأَمَانِي لَنْ يَكُونَ بِمُجَرَّدِ التمَنِيِّ.

وَكَمَا قَال القَائِلُ:

وَمَا نَيْلُ المطَالِبِ بِالتمَني وَلكِنْ تُؤخَذُ الدنْيَا غِلاباً

وَلَو عَمِلْنَا إِحْصَاءً لِكُلِ النَّاسِ، فَسَنَجِدُ أَنَّهُ كَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ أمَـانٍ وَأَحْـلام عِظَام، وَمِن الناسِ مَنْ حَقَّقَ أَمَانِيهِ وَمِنْهمُ مْنَ وْقفَ عَاجِزاً عَنْ تَحْقِيقِ أَمَانِيهِ. حَقِّقُوا أَمَانِيكُمْ كَمَا نَقُولُ: (إِخْذَه بِالكَاويه ولا باللاويه).

وَلِهَذَا قَالَ رَبنَا – سُـبْحَانَهُ : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[1].

فَالقَضِيةُ لَيْسَتْ قَضِيةَ أَمَانٍ، لَكِنَّهَا قَضِيةُ عَمَلٍ، وَعَمَلٍ جَادٍّ وَعَزِيمَةٍ قَوِيةٍ، يَقُولُ أَهْلُ البَحْرِ: (القبعه تخلص التانكي) الأَمَانِيُّ وَالأَحْلام أَهْدَافٌ بَعِيـدَةٌ، وَالعَمَلُ هُو وَسِيلَةُ الوصُولِ إِلَيْهَا، أَمَا العَزِيمَةُ فَهِي المطِيَّةُ، فَإِنْ كَانَتْ الأَمَـانِي صَادِقةً وَالعَمَلُ خَالصاً، وَالعَزِيمَةُ قَوِيةً، حقّقتَ أَحْلامَكَ وَنِلْتَ مَا تَمَنَّيتَ.

وَالنبِيُّ ﷺ يُلْفِتُ نَظَرَنَا إِلى حَقِيقَةٍ مُهمةٍ وَهِي ارْتبَـاطُ الأَمَـانِي بِـالأَعْمَالِ، فَقَدْ قَالَ ﷺ فِي الحَدِيثِ: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لما بَعْدَ الموتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله الأَمَانِي**»[2].

الإِنْسَانُ الكَيِّسُ الذَّكِيُّ هُوَ الَّذِي يُـصَدِّقُ عَمَلُـهُ قَوْلَـهُ، أَمـا العَـاجِزُ فَهُـوَ الشَّخْصُ الَّذِي يَظَلُّ يَتَمَنَّى أَمَـانِيَّ وَيحْلُـمُ بِتَحْقِيـقِ أَهـدافٍ عَظِيمَـةٍ، لَكِنَّـهُ لا يُحَقِّقُهَا.

لَوْ سَأَلْتَ البَعْضَ اليَومَ عَنْ أُمْنِيَّتِهِ لَقَالَ:

أُحِبُّ أَنْ أُحَافِظَ عَلى صَلَواتِي كُلِّهَا فِي المسْجِدِ، وَأُحِبُّ أَنْ أَكُونَ مِـنْ أَهْـلِ الصَّدَقَةِ، وَأُحِبُّ أَنْ أَقُومَ اللَّيْلَ، وأُحِبُّ أَنْ أَكُونَ خَـدُوماً قَـائِماً عَـلَى مَـصَالحِ

---

(١) النساء: ١٢٣.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وضعفه الألباني.

النَّاسِ، وَأُحِبُّ أَنْ أَكُونَ نَافِعاً لِدِينِي وَلِلمُسْلِمِينَ.

هَذَا كُلُّهُ جَمِيلٌ، لكِنَّهَا لَا تَزَالُ أَمَانِيَّ لَمْ تَرَ النورَ بَعْدُ! .

هَلْ لِأَنَّنَا نَتَمَنى أمْنِيَاتٍ صَعْبَةَ الـمَنَالِ؟ أَمْ لِأَنَّ عَزِيمَتَنَا يُـصِيبُهَا الـضعفُ والاسْتِكَانَةُ، حَتى أَنَّهَا تَقْعُدُ عَنْ بَذْلِ الجُهْدِ، وَمِنْ ثَم لا تُحَقِّقُ أَمَانِيها؟

الظَّاهِر أَنَّنَا بَينَ هَذَينِ نَسِيرُ..!

فَالبَعْضُ مِنا يَتَمَنى أَمَانِيَّ أَكْثَرَ مِنْ قُدرَاتِهِ. وَهَذَا نَقُولُ لَهُ: لا تَكُـنْ خَيالياً، ولا تَسْبَح فِي الرمَالِ، وَلا تَبْنِ قُصُوراً مِنْ خَيالِ.

وَالبَعْضُ الآخَرُ يَتَمَنى مَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُه، لَكِنَّ عَزِيمَتَهُ ضَعِيفَةٌ هَشَّةٌ. وَهَـذَا نَقُولُ لَهُ كَمَا قَال النبِيُّ ﷺ: «**اسْتَعِنْ بِالله، وَلا تَعْجَزْ**»[1]. وَنُذَكِّرُهُ بِهَذِهِ المَقُولَةِ: إِذَا سَمَّيْتَ مُمْكِنَ غَيْرِكَ مُسْتَحِيلاً فَأَنْتَ العَاجِزُ، إذ إنَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُحَقِّقَهُ غَيْرُكَ فَمِنَ السَّهْلِ أَنْ تُحَقِّقَهُ أَنْتَ.

يَقُولُ عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزِيز: (تَاقَتْ نَفْسِي إِلى الإِمَارَةِ فَنالَتْهَا، ثُـمَ تَاقَـتْ إِلى الخِلافَةِ فَنالَتْهَا، ثُمَ تَاقَت إِلَى الجَنَّةِ فَأَسْأَلُ اللهَ أَنْ أَنَالَهَا).

لابُدَّ مِنْ عَزْمٍ فِي شَهْرِ العَزْمِ يَبْعَثُ عَلَى السلُوكِ بِلا تَوَقُّفٍ، وَلا تَـرَدُّدٍ، وَلا عِلَةٍ غَيْرِ العُبُودِيةِ، فَيَبْتَعِد عَن الرياءِ وَالسمْعَةِ وَطَلَب المحْمَدَةِ أَوْ الجَاهِ وَالمنْزِلَةِ عَنْدَ الخَلْقِ، وَحِينَذَاكَ لا يَلْقَى سَبباً يَفُوقُ عَن المقْـصُودِ وَلا قِطْعَـةً وَلا حَـائِلاً دُونَهُ لا مَنْعَةً وَلا صُعُوبَةً إلا تَسَهَّلَهَا، فَهُو مُسْتَجْمِعُ قُوى الإِرَادَةِ عَلَى الفِعْلِ.

وَهَذَا الإِمَامُ أَحْمَدُ ﷺ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى الأَمَام وَإِلى الأُمَّةِ جمعاءَ، وذلك فِي قِصَّةِ امْتِحَانِهِ فِي خَلْقِ القُرْآنِ، فَيَقُولُ أَحْمَدُ بْـنُ دَاودَ الوَاسِـطِيّ: دَخَلْـتُ عَـلَى أَحْمَـدَ الحَبْسَ قَبْلَ المغْرِبِ، فَقُلْتُ لَهُ فِي بَعْضِ كَلامِي: يَا أَبَـا عَبْـدِ الله، عَلَيْـكَ عِيـالٌ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة ﷺ.

وَلَكْ صِبْيَانٌ، كَأَنِّي أُسَهِّلُ عَلَيْهِ الإِجَابَةَ.

فَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: إِنْ كَانَ هَذَا عَقْلُكَ يَا أَبَا سَعِيد فَقَاسترِحْ..!.

هِمَّةٌ وَصَفَهَا الجُنَيدُ بِقَوْلِهِ: عَبْدٌ ذَاهِبٌ عَنْ نَفْسِهِ، مُتَّصِلٌ بِذِكْرِ رَبِّهِ، قَائِمٌ بِأَدَاءِ حُقُوقِهِ، نَاظِرٌ إِلَى قَلْبِهِ، فَإِنْ تَكَلَّمَ فَبِالله وَإِنْ نَطَقَ فَعَنِ الله، وَإِنْ تَحَرَّكَ فَبِأَمْرِ الله، وَإِنْ سَكَتَ فَمَعَ الله، فَهُوَ بِالله وَلله وَمَعَ الله، وهَؤُلاءِ مَا دَفَعَهُمْ لِهَذِهِ الهِمَّةِ إِلا الشَّوْقُ إِلَى الله، كَمَا وَرَدَ فِي دُعَائِهِ ﷺ: «**أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِكَ**»(١).

مما يَضْعِفُ الهِمَّةَ، الأَمَانِيُّ وَالأَحْلامُ بِلا عَمَلٍ وسَعْيٍ، لِيَكُونَ النِّتَاجُ بَعْدَ ذَلِكَ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ، وَاللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – يَقُولُ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾(٢).

تَقولُ العَرَبُ: (فُلانٌ وَثَّابٌ عَلَى الفُرَصِ)، وَأَوَّلُ خُطْوَةٍ لِتَحْقِيقِ الحلمِ أَنْ تَصْحُوَ مِن النَّوْمِ لِتَجِدَّ فِي الطَّلَبِ، وَعَامةُ النَّاسِ تَقُولُ: (قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ)، وأَصْحَابُ العَزِيمَةِ مِنْ أَهْلِ الطِّيبِ يَقُولُونَ: (كثرة الدَّقُّ يَفُكُّ اللِّحَامَ، وَقِيمَةُ كُل امْرِئٍ مَا يَطْلُبُ).

فَقِيمَةُ المَرْءِ هِمَّتُهُ وَمَطْلَبُهُ، وَصَاحِبُ الهِمَّةِ كَثِيرُ الدَّقِّ، سَرِيعٌ وُصُولُهُ وَظَفَرُهُ بِمَطْلُوبِهِ، مَا تَعُقْهُ العوائق وَتَقْطَعْهُ العلائق، ولتُصَفِّيهِ مِنْ كَدَرِ التَّوانِي، وَتُخَلِّصَهُ مِن أَوْسَاخِ الفُتُورِ؛ لِيَرِثَ بَعْدَ ذَلِكَ الثِّقَةَ بِالأَمَلِ.

إِنَّ الحَدِيثَ عَنِ الهِمَّةِ يُلْزِمُنَا أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ نَمَاذِجَ رَبَّانِيَّةٍ مِنْ جِيلِ الصَّحَابَةِ– رِضْوَانُ الله عَلَيْهِم، فَهَذَا رَبِيعَةُ بْن كَعْبٍ الأَسْلَمِيّ خَادِمُ النبيِّ ﷺ يَقُولُ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ. فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ. فَقَالَ لِي: «**سَلْ**». فَقُلْت:

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٤) عن عمار بن ياسر ﷺ.
(٢) محمد: ٢١.

أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ. قَالَ: «**أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ؟**» قُلْتُ: هُوَ ذَاك. قَالَ: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[1]. وَقَدْ وَرَدَ عَنْ سَلَمَةَ بْن الأَكوعِ مِثْلُ ذَلِكَ.

وَفِي قِصَّةِ سَواد فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ مَوْعِظَةٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩) عن ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ.

الحلقة (٧)

بخور السوق

هذِهِ وَالله عَادَتُكُمْ- دَائِماً- مُشَارَكَتُكُمْ حلوَة، وَخُصُوصاً فِي إِجَابَتِكُمْ عَلَى سُؤَالِنَا: **مَتَى تَكْبُرُ الإِشَاعَةُ؟** وَالتِي هِيَ عَلَى المجْمَلِ تَحْتَوي عَلَى الأُمُورِ التَّالِيَةِ:

١- عِنْدَ تَلَقِّي النَّاسِ لَـهَا وَالحَدِيثِ بِهَا فِي المُنْتَدَيَاتِ مِنْ غَيْرِ مُرَاقَبَةٍ لله.

٢- عَدَمُ انْشِغَالِ النَّاسِ بِالأُمُورِ المهِمَّةِ.

٣-ضعَفْ ُ نُفُوسِ المرَوِّجِينَ للإِشَاعَةِ وَتَصْدِيقِهَا، والعَمَل عَلَى نَشْرِهَا.

٤- عَدَمُ التَثَبُّتِ مِنْ نَقْلِ المعْلُومَةِ.

وَأَنَا مُشَارَكَتِي أَقُولُ فِيهَا:

وَضَعْنَا هَذِهِ الكَلِمَةَ عنْواناً لِهَذِهِ الحلَقَةِ الَّتِي تَدُورُ حَولَ الإِشَاعَةِ وَالتِي هِيَ أَشْبَهُ مَا تَكُونُ بِبَخُورِ السُّوقِ، وَالَّذِي سُرْعَانَ مَا يَنْتَشِرُ وَيَمْلأُ المكَانَ، وَلا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُسَيْطِرَ عَلَيْهِ، وَيَبْدَأُ النَّاسُ يُرَدِّدُونَ الكَلامَ بِلا دَاعٍ، كَمَا قَالَ أَهْلُ الطِّيبِ فِي أَمْثَالِهِم: (يَبْكِي وَلا يَدْرِي مَنْ مَات).

الشَّائِعَاتُ ظَاهِرَةٌ مُجْتَمَعِيةٌ أَوْ إِنْ شِئْنَا أَنْ نَقُولَ: مَرَضٌ اجْتِمَاعِيٌّ عُضَالٌ.

وَالإِشَاعَةُ: هِيَ الأَحَادِيثُ وَالأَقْوَالُ وَالأَخْبَارُ الَّتِي يَتَنَاقَلُهَا النَّاسُ وَالقِصَصُ الَّتِي يَرْوُونَهَا دُونَ التَّثَبُّتِ مِنْ صِحَّتِهَا أَوْ التَّحَقُّقِ مِنْ صِدْقِهَا، وَهَذِهِ الإِشَاعَاتُ مِثْل: شَظِيَةٍ مُلْتَهِبَةٍ لا يَكْفِيهَا حَطَبُ الدنْيا كُلها، وَلَكِن غُرْفَة مَاءٍ بَسِيطَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَقْضِي عَلَيْهَا.

وَالغَرِيبُ أَنَّ الناسَ تَنْسَاقُخلَفْ َ الإِشَاعَاتِ بِلا تَرَوٍّ وَلا تَثَبتٍ. وَمَثَالُهُمْ فِي ذَلِكَ: (إِذَا طَاحَ الجَمَلْ كَثُرَتْ سَكَاكِينَه).

وَلَيْسَتْ هَذِهِ بِأَخْلاقِ المسْلِمِينَ.

فَالقُرآنُ الكَرِيمُ قَدْ بَيَّنَ هَذِهِ المسْأَلَةَ بِوُضُوحٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾(١).

أَمَّا كَيْفَ تَنْشَأُ أَوْ تَبْدَأُ الإِشَاعَةُ:

فَالوَاقِعُ يَقُولُ: إِنَّهُ فِي الأَغْلَبِ الأَعَمِّ أَنْ الإِشَاعَةَ تَكُونُ مِنْ جُمْلَةٍ مَقْطُوعَةٍ وَمَعْلُومَةٍ مَلْغُومَةٍ، وَقَدْ تَرْتَبِطُ بِخَبَرٍ أَوْ بِمَوْقِفٍ مُعَيَّنٍ، ثُمَّ تَكْبُرُ وَتَكْبُرُ مِثْلَ كُرَةِ الثلْج. وَإِنْ بَدَأَتْ بِكَلِمَةٍ فَإِنَّهَا تَنْتَهِي بِعَشَرات، بَلْ مِئَاتِ الكَلِمَاتِ، وَالغَرِيبُ أَنَّ النَّاسَ تَتَنَاقَلُ الإِشَاعَةَ مِنْ فَمٍ لفَم، وَلا يَكُونُ هَدَفُهُمْ أَبَداً هُوَ انْتِشَارُهَا، بَلْ تَجِدُ- أَحْيَاناً- أُنَاساً هُمْ فِي المِيزانِ أَهْلُ صَلاحٍ وَتَقْوَى، لَكِنَّهُمْ يُرَدِّدُونَ مَا يَقُولُهُ النَّاسُ، فَيَقُولُ الوَاحِدُ: زَعَمَوا كَذَا وَكَذَا، أَوْ قِيلَ كَذَا وَكَذَا.

وَلَمْ يَعْلَمْ هَذَا الشَخْصُ خُطُورَةَ مَا يَقُولُ أَوْ يَنْقلُ، وَصَدَقَ النبِيُّ ﷺ حِينَ قَالَ: «**كَفَى بِالـمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**»(٢).

قَالَ المنَاوِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ: (إِذَا حَدَّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ لا محَالَةَ يَكْذِبُ، وَالكَذِبُ هُو الإِخْبَارُ عَنْ الشَيْءِ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَتَعَمَّدْ).

نَسى مَنْ يَتَنَاقَلُ الكَلامَ تَحْتَ بَابِ زَعَمُوا، نَسى قَوْلَ النبِيِّ ﷺ: «**بِئْسَ مَطِيةُ الرجُلِ زَعَمُوا**»(٣).

وَفِي الخَبَرِ أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلأَحْنَفِ بْنِ قَيسٍ: أَخْبَرَنِي عَنْكَ ثِقَةٌ بِأَمْرِ سُوءٍ، فقَالَ لَه الأحنَفُ: الثقَةُ لا يَنِمُّ.

وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ.. فَالشخْصُ الـمَوصُوفُ بِأَنَّهُ ثِقَةٌ لا يَنِمُّ، وَلا يَقُولُ أَبَداً مَا يُوقِعُ بَيْنَ النَّاسِ.

---

(١) الحجرات: ٦.

(٢) أخرجه مسلم (٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٧٢) عن أبي مسعود ﷺ، وصححه الألباني.

فَالشائِعَةُ تُوغِرُ الصدُورَ، وَتُوقِعُ بيْنَ النَّاسِ، وَتَمْنَعُ مِنْ تَآلُفِ القُلُوبِ.

وَفِي الـحَديثِ يَقُولُ النبِيُّ ﷺ: «**لا يُحَدثْنِي أَحَدٌ عَـنْ أَحَـدٍ مِـنْ أَصْـحَابِي شَيئاً، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُم وَأَنَا سَلِيمُ الصدْرِ**»[1].

وَلَوْ أَخَذْنَا نَبْحَثُ عَنْ أَسْبَابِ انْتِشَارِ الشائِعَاتِ لَوَجَدْنَاهَا- أَحْيَاناً- تَرْتَبِطُ إِما:

١- بِحُبِّ الفُضُولِ.

٢- أَو الشعُورِ- أَحْيَاناً- بِالنشْوَةِ مِنْ نَاقِلِ الإِشَـاعَةِ عِنـدَمَا يَـرَى إِصْـغَاءَ السامِعِينَ لَهُ وَلِحَدِيثِهِ.

٣-ومِنْها ضعَفْ الوَازِعِ الدِينِيِّ عِنْدَ النَّاسِ.

٤- وَمِنْهَا عَدَمُ مُحَاسَبَةِ النفْسِ.. واللهُ - عَزَّ وَجَلَّ- يَقُـولُ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2].

فَلِكُلِّ لَفْظٍ رَقِيبٌ عَتِيدٌ، وَلَو اسْتَشْعَرَ المسْلِمُ هَذِهِ الحَقِيقَةَ مَا تَجَرأَ أَبَـداً عَـلَى أَنْ يَنْقِلَ كَلاماً لا يَعْلَـمُ حَقِيقَتَـهُ، فَكَـمْ مِـنْ بُيـوتٍ تَهـدَّمَتْ وَأُسَرٍ تَفَكَّكَـتْ، وَأَطْفَالٍ شُرِّدُوا، وَكَمْ مِنْ أَرْحَامٍ قُطِعَتْ، وَأَعْرَاضٍ انْتُهِكَتْ، وَالسبَبُ إِشَاعَةٌ! وَصَدَقَ الَّذِي قَالَ:

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيماً مِن الأَذَي ... وَدِينُـكَ مَوْفُـورٌ وَعِرْضُـكَ صَـيِّنُ

لِسَانَكَ لا تَـذْكُرْ بِهِ عَـوْرَةَ امـْرِئٍ ... فَكُلُّـكَ عَـوْرَاتٌ وَلِلنَّـاسِ أَلْـسُنُ

وَعَيْنُكَ إِنْ أَبْـدَتْ إِلَيْكَ مَـسَاوِئاً ... فَدَعْهَا وَقُلْ يَـا عـيْنُ لِلنَّـاسِ أَعْـيُنُ

وَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وَسَامِحْ مَن اعْتَدَى ... وَدَافِعْ وَلَكِـنْ بـالتي هِـيَ أَحْـسَنُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وضعفه الألباني.

(٢) ق: ١٨.

يقول أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[1]: إن اللسَانَ يَتَلَقَّى عَن اللسَانِ بلا تَدَبُّرٍ وَلا تَروٍّ وَلا تَفَحُّصٍ وَلا إِمْعَانِ نَظَرٍ، إِنَّمَا هِيَ كَلِمَاتٌ تقذِفُ بِهَا الأَفْواهُ قَبْلَ أَنْ تَسْتَقِرَّ فِي الـمَدَارِكِ، وَقَبْلَ أَنْ تَتَلَقَّاهَا العُقُولُ.

فَخُذُوا عَنِّي:

(١) العاقِلُ مَنْ يُفكِّرُ فِي الكلمَةِ قبلَ أنْ ينْطِقَ بِهَا، أَمَّا الجَاهِلُ فَهُوَ الَّذِي يُفَكِّرُ في الكَلِمَةِ بَعْدَمَا يُطْلِقُهَا.

(٢) انْتَبِهُوا إِلَى خُطُورَةِ الإِشَاعَةِ عَلَى اسْتِقْرَارِ المجْتَمَعَاتِ، وَخَاصةً وَقْتَ الأَزَمَاتِ.

(٣) اعْلَمُوا أَنَّ الحِرْصَ عَلَى نَشْرِ الحَقِيقَةِ يَقْتُلُ الإِشَاعَةَ.

(٤) مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ، مَعَ ضَرُورَةِ وَأَهَمِيةِ التثَبُّتِ مِن الخَبَرِ.

(٥) المؤْمِنُ يَحْرِصُ عَلَى سُمْعَةِ وَأَعْرَاضِ النَّاسِ ولا ينْجَرِفُ إلى مَا نْيجَرَفُ لَهُ عَامةُ النَّاسِ.

(٦) تَنَاقُلُ البُلوتُوثِ الَّذِي بِهِ أَذى وَإِسَاءَةٌ إِلَى النَّاسِ هُوَ نَوْعٌ مَرْذُولٌ مِنْ نَقْلِ الإِشَاعَاتِ.

(٧) اعْلَمُوا أَنَّ العَدُو يَسْتَخْدِمُ- أَحْياناً- الإِشَاعَةَ لِهَدْمِ المجْتَمَعِ مِنْ الداخِلِ.

(٨) الإِشَاعَةُ تَحْمِلُ فِي طَيِّهَا ذُنُوبَ النمِيمَةِ وَالغيبَةِ وَالبُهْتَانِ، وَهَذَا فِي مِيزَانِ الله عَظِيمٌ.

---

(١) النور: ١٥.

(٩) إِنَّ خُطُورَةَ الإِشَاعَةِ كَانَت وَاضِحَة فِي قِصَّةِ الإِفْكِ وَمَا كَانَ مِنْ إِيـذاءٍ لِبَيْتِ النبُوةِ وَسُقُوطِ بَعْضِ الصحَابَةِ- رِضْوَانُ الله عَلَيْهِم- فِي المحْذُورِ، وَقَـدْ غَفَرَ اللهُ لَهُمْ.

(١٠) مَطْلُوبٌ حُسْنُ الظنِّ بِالنَّاسِ، وَتَرْكُ سَرَائِرِهِم لله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَحْدَهُ.

فَطَيِّبُوا الأَلْسُنَ بِذِكْرِ الله- تَعَالَى - بَدَلاً مِنْ قِيل وَقَالَ.

الحلقة (٨)

من طَقَّ طبله قال أنا قبله

نَقُولُ فِي الـمَثَلِ الكُويتِيِّ الـمَشْهُورِ: (**من طَقَّ طبله قال أنا قبله**).

وَهَذَا المَثَلُ مَشْهُورٌ عَرَبِياً، لَكِنْ رُبمَا بِصِيَغٍ أُخْـرَى، وَهُـوَ مَثَـلٌ فِي الحَقِيقَـةِ صَحِيحٌ.

فَالتأَني وَالاعْتِدَالُ فِي السيْرِ قَدْ يَكُونُ مَنْ عَواصِمِ الخَطَـأ، وَكَـذَلِكَ التـأَني وَالتَرَيُّثُ فِي قِرَاءَةِ الأَحْدَاثِ عَامِلٌ مُهِمٌّ مِنْ عَوامِـلِ الفَهْـمِ الـصحِيحِ وَالحَـلِّ الأَصَح.

وَصَدَقَ مَنْ قَالَ:

قَدْ يُدْرِكُ الـمُتَأَني بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الـمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

أَحِبتِـي فِي الله، إِنَّ حَـالَ الـبَعْضِ فِي بَعْـضِ الأَحْيَـانِ هُـوَ حَـالُ التـوَهُّجِ وَالتَّسَرُّعِ، ظَنًّا أَنَّهُ بِذَلِكَ سَيُدْرِكُ مَا لا يُدْرِكُهُ الآخَرُونَ، وَهَذَا خَطَأٌ.

وَالبَعْضُ كَذَلِكَ يَرْبِطُ بـيْنَ الـسُّرْعَةِ وَالإنْجَـازِ، وَيَعْتَـبِرُ أَنَّ الـسرْعَةَ هِـيَ أَسَاسُ الإنْجَازِ، وَهَذَا خَطَأٌ أَيْضاً. وَأَهْـلُ الطِّيـبِ يَقُولُـونَ: (مَكَّـةُ مَـا بُنِيَـتْ بِيومٍ).

وَالبَعْضُ قَدْ يَرْبِطُ بَيْنَ الهِمَّةِ العَالِيَةِ وَالنشَاطِ وَبَيْنَ السُّرْعَةِ فِي الأَدَاءِ، وَهَذَا أَيضاً خَطَأٌ.

فَالهِمَّةُ العَالِيَةُ وَالنشَاطُ وَالإنْجَازُ مَبْنِيانِ فِي الأَسَاسِ عَـلَى (أَعْـطِ كُـلَّ ذِي حقٍّ حَقَّهُ) وَ(عامِلْ كلَّ شَخْصٍ بِما يَستَحِقّ) وَ(أَعْطِ كلَّ موقِفٍ مـا يـستَحِقّ) وَ(احْذَرْ مِنْ هَجْمَةِ النشَاطِ الـمُفَاجِئِ ثُم الفُتَورِ الـمُفَاجِئِ).

وهَذَا المَثَلُ لا يخَـالِفُ قَـوْلَ الله تَعَـالَى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ

عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[١]، فَالمسْلِمُ فِي هَـذِهِ الآيَـةِ مَـأْمُورٌ بِـأَنْ يُسَارِعَ وَيُنَافِسَ فِي طَاعَةِ الله- تَعَالَى؛ لأَنَّ العَبْدَ- أَحياناً- يَعْقِدُ النيـةَ عَلَى الصدَقَةِ أَوْ الطاعَةِ، ثُم تَأْتِي نَزْعَةُ الـشيْطَانِ فِي التـسْويفِ، فَيَقُـول لِنَفْسِهِ: أَنَـا نَوَيْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ وَلَكِنْ بَعْدَ سَفَرِي سَأَفْعَلُ، وَهَكَذَا يُسَوِّفُ ثُـم فِي النهَايَـةِ لا يَفْعَلُ. وَهُنَا نَقُولُ لَهُ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

فَطَالَـمَا كَانَتْ هُنَـاكَ نِيـةٌ لِلعَمَـلِ فَـسَارِعْ لِلعَمَـلِ قَبْـلَ أَنْ يُفْـسِدَهُ عَلَيْـكَ الشيْطَانُ.

أَما فِي حَيَاتِكَ الدنْيَويةِ فَامْشِ بِتَـأَنٍّ، وَاحْـذَرْ مِـنْ خطـأ الآخَـرِينَ؛ لأَنَّـكَ حِينَهَا تَكُونُ أَكْثَرَ سَيْطَرَةً، وَأَكْثَرَ تَمَلُّكاً لِزِمَامِ الأُمُورِ. وَهَكَذَا الإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا. وَكَانَتْ مَقُولَةُ العَم أَبُو بَدْر – رَحِمَهُ اللهُ: (مَنْ مَلَكَ زِمَـامَ التَّغَـافُرِ مَلَـكَ زِمَامَ الأُمُور).

فَالكَيِّسُ لابُدَّ أَنْ يَجْتَهِدَ وَيَحْذَرَ مِنْ خَطَإِ الآخَرِ وَمِنْ ظُلْمِ النَّاسِ، وَمَا أَكْثَـرَ ظُلْمَ النَّاسِ إِما عَنْ قَـصْدٍ وَإِمـا عَـنْ جَهْـلٍ وَسُـوءِ تَقْـدِيرٍ. فَأَحْيَانـاً الواحِـدُ يَتَعَامَلُ- كَمَا يَقُولُونَ- بِنِيةٍ صَافِيَةٍ وَبِظَنٍّ حَسَنٍ، لَكِنَّهُ يُواجَهُ بِظُلْمٍ وَجَهْلٍ مَـن النَّاسِ، وَهَذَا يَجْعَلُ المسْلِمَ أَكْثَرَ حَذَراً فِي خَطَواتِهِ وَيُجْعَلهُ فِي أَمَـسِّ الحَاجَـةِ إِلَى أَنْ يَرْكنَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَهَلْ هُنَاكَ مِنْ رُكْنٍ أَشَدّ مِنْ رُكْنِ الله- تَعَالَى – وَلِهَذَا عَلَّمَنَا النبيُّ ﷺ عِنْدَ بِدَايَةِ خُرُوجِنَا مِن المنْزِلِ هَذَا الدُّعَاءَ:

«**بِسْمِ الله، تَوَكَّلْتُ عَلَى الله، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِالله**»[٢].

«**اللَّهُم إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَو أُضَلَّ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»[٣].

---

(١) آل عمران: ١٣٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦) عن أنس بن مالك ﷺ، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٩٤)، والنسائي (٥٥٠١) عن أم سلمة – رضي الله عنها، وصححه الألباني.

لَكِنْ لا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الشُّعُورُ دَافِعاً لأنْ يَحْذَرَ الإِنْسَانُ مِنْ أَخْطَاءِ الآخَرِينَ حَذَراً يُقعِدُهُ عَن العَمَلِ أَوْ يُشَكِّكُهُ فِي التعَامُلِ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ.

الحَياةُ تَحْتَاجُ مِن الإِنْسَانِ قَدْراً قَلِيلاً مِن الحَذَرِ وَقَدْراً عَظِيماً مِن التوَكُّلِ. والحَذَرُ مَطْلُوبٌ، لَكِنَّهُ لا يُنْجِي.. وكَمَا يُقَالُ: الحَذَرُ لا يُنْجِي مِن القَدَرِ.

إِذَنْ.. فَاحْذَرْ مَا اسْتَطَعْتَ، وَإِنْ حَدَثَ مَكْرُوهٌ فقُلْ: «**قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**»(١).

وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبكَ وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ. فَالمسْأَلَةُ لا تَجْرِي عَبَثاً، وَإِنما تَجْرِي بِحِكْمَةٍ وَمِيزَانٍ عَادِلٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(٢)، وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(٣).

وَحَظُّ الإِنْسَانِ هُوَ أَنْ يَتخِذَ مِن الأَسْبَابِ مَا أَمْكَنَهُ.

فَهَلْ مِنْ حَذِرٍ بِفَهْمٍ؟ وَهَلْ مِنْ تَوَكُّلٍ عَلَى الله تَعَالَى بِصِدْقٍ؟

فِي المَثَلِ:

١- دَعْوَةٌ لِلتفَكُّرِ وَالتدَبُّرِ قَبْلَ البَدْءِ فِي اتِّخَاذِ القَرَارِ، وَهَذَا مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ القَرَارِ الصحِيحِ بَعْدَ تَوْفِيقِ الله. كَانَ جَدي لِوَالِدَتِي يَقُولُ فِي حَدِيثِهِ: (خَلِّ لَكَ رَقَبَةَ بَعِيرٍ) فَفَهِمْنَا هَذِهِ الحِكْمَةَ بَعْدَ مُدَّةٍ، وهِي تَعْنِي: لا تُخْرِج الكَلِمَةَ إِلا بَعْدَ تَفكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ. ووَجَدْنَا فِي أَمْثِلَةِ الآخَرِينَ: (خَلِّ لَكْ رَقَبَةَ زَرَافَةٍ).

٢- التَرَوي وَعَدَمُ التسَرُّعِ بِإِصْدَارِ الحُكْمِ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَعْقَلِ النَّاسِ، فَهَذِهِ آيَةٌ فِي كِتَابِ الله تَرْوي لَنَا قِصَّةَ نَبِيٍّ وَمَلِكٍ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ وَالقُوَّةَ وَكَمَالَ العِلْمِ وَالإِصَابَةَ فِي الأُمُورِ وَالإِتْقَانَ فِي العَمَلِ، فَعِنْدَمَا أَسْرَعَ فِي إِصْدَارِ الحُكْمِ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) المؤمنون: ١١٥.
(٣) القمر: ٤٩.

تَذَكَّرَ وَانْتَبَهَ وَأَنَابَ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[1] .

٣- التفَكُّرُ وَالتدَبُّرُ سَبِيلُ وَمَنْهَجُ العُقَلاءِ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2] .

وَالتسَرُّعُ أَسَاسُ الخَطَأِ وَاخْتِلاقُ الأُمُورِ كَمَا قِيلَ: (مِنْ قِلَّةِ تَدْبِيرِهِ خَلَطَ حَبَّهُ مَعَ شَعِيرِهِ).

أَحِبَّتِي.. إِياكُمْ وَالعَجَلَةَ (وَمَنْ أَصْبَحَ أَفْلَحَ)، (لَو تبطي ما تخطي..) .

العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَالهَدَاوَة مِن الرَّحْمَن.

---

(١) ص: ٢١- ٢٤.

(٢) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

الحلقة (٩)

أبو قلب أسود

الرزّاقُ فِي السماءِ وَالحَاسِدُ فِي الأَرْضِ

مَنْ هُوَ الذِي نُسَميهِ أَبُو قَلب أَسْوَد؟ إنه:

١- الحاقِدُ الَّذِي يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ الضُّرَّ للآخَرِينَ.

٢- الذي يستَعْلِي عَلَى النَّاسِ وَيَحْتَقِرُ جُهُودَهُمْ.

٣- أَنْ تَشْتَعِلَ الغِيرَةُ فِي نَفْسِهِ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ لِلوُصُولِ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الآخَرونَ.

٤- هُوَ الذِي لا يَنْسَى أَخْطَاءَ الآخرِينَ، وَلا يُحِبُّ لَهُم الخَيْرَ.

إِنَّ القُلُوبَ هِيَ مُسْتَودَعُ الرَّحْمَةِ وَمَخْزَنُ التَّقْوَى وَالإِخْلاصِ وَالحُبِّ وَالبُغْضِ. القُلُوبُ هِيَ مَوْضِعُ الإِيمَانِ وَالكُفْرِ وَالطمَأْنِينَةِ وَالاضْطِرَابِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1].

وَيَقُولُ النبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلحَتْ صَلحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ القَلْبُ**»[2]، وَسَلامَةُ القَلْبِ هُوَ أَنْ يُشْفِى مِنْ العِلَلِ وَالأَمْرَاضِ وَالآفَاتِ وَالعُيوبِ، وَمَا أَكْثَرَ العُيوب الَّتِي تُصِيبُ القُلُوبَ.

لِلقُلُوبِ أَمْرَاضٌ: أَمْرَاضٌ عُضْوِيةٌ يَعْلَمُ عِلاجَهَا الأَطِبَاءُ وَأَمْرَاضٌ أُخْرَى رُوحِيةٌ.. وَمَا أَخطَرَها عَلَى القُلُوبِ.

وَأَعْظَمُ آفَةٍ وَعِلةٍ قَدْ تُصِيبُ القَلْبَ هِيَ الجهْلُ، وَهَذَا الجهْلُ هُوَ الَّذِي يُوَلِّدُ

---

(١) ق: ٣٧.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير – رضي الله عنهما.

الحِقْدَ وَالـحَسَدَ وَالبَغْضَاءَ.

فَالجَهْلُ بِحِكْمَةِ الله- تَعَالَى - فِي تَوْزِيعِ الأَرْزَاقِ وَتَصْرِيفِ الأَحْوالِ يُوَلِّـدُ الحِقْدَ وَيُسَوِّدُ القَلْبَ.

وَنَحْنُ نَقُولُ فِي كَلامِنَا عَن الشخْصِ الـحَسُودِ أَنَّهُ أَبُو قَلَب أَسْوَد. وَحَقِيقَةً أَنَّه لَيْسَ فِي قَلْبِهِ سَوادٌ حَقِيقِيٌّ مَادِيٌّ، وَإِنما سَوادٌ مَعْنَوِيٌّ، ظَلامُ الحِقْدِ وَالجَهْلِ. غِلاَفِية تَتَرَاكَمُ عَلَيَهِ فَتُعْمِيهِ، فَـلا يَـرَى المعْرُوفَ مَعْرُوفـاً وَلا المنْكَـرَ مُنْكَـراً، فَالأَبْيَضُ يَعْنِي الطُّهْر وَالعِفَّة وَالطِّيبَة وَالخَيْر وَالفَرَح، وَالقَلْبُ الأَسْـوَدُ يَعْنِـي الحِقْد وَالحَسَد وَالغِلّ والغِيْظ، وَالحَيَـاةُ مَلِيئَـةٌ بِأَمْثَـالِ النمُـوذَجين، سَـتَجِدُ فِي حَيَاتِكَ صَاحِبَ القَلْبِ الطَّيِّبِ النَّقِيِّ الطَّاهِرِ الأَبْيَضِ، وَسَتَجِدُ صَاحِبَ القَلْبِ الأَسْوَدِ الحَقُودِ، وَفِي الحَدِيثِ يَقُولُ النبيُّ ﷺ: **«تُعْـرَضُ الفِـتَنُ عَـلَى القُلُـوبِ عَرْضَ الـحَصِيرِ عُوداً عَوداً، فَأَيمَا قَلْبٍ أشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَـودَاءُ، وَأَيُّـمَا قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَى يَصِيرَ عَلَى قَلْبيْنِ: أَبْيَضَ كَالـصَّفَا لا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَت السَّمَواتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَد مِرْبَاداً كَالكُوزِ مُجخِياً لا يَعْرِفُ مَعْروفاً وَلا يُنْكِرُ مُنْكَراً إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَواهُ»**[1].

فالَقلُوبُ إِذنَ مَقصُودةٌ بسِهامِ الفتِنَ، ليعُرَفَ صَحِيحُهَا مِنْ سَقِيمِهَا.

أَمَّا أَصْحَابُ القُلُوبِ الـمُؤْمِنَةِ فَما تَزِيـدُهُم الفِـتَنُ إلا إِيمَانـاً وَثَبَاتـاً، وَأَمَّـا أَصْحَابُ القُلُوبِ الهَشَّةِ الضَّعِيفَةِ فَتَتَقَاذَفُهَا الرِّيحُ يُمْنَةً وَيُسْرَةً.

قَالَ الله- تَعَالَى - فِي شَأْنِ الصَحَابَةِ - رِضْوَانُ الله عَلَـيْهِم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[2].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٤) عن حذيفة ﷺ.

(٢) الأحزاب: ٢٢.

وَنَحْنُ نَرَى فِي وَاقِعِنَا أُنَاساً مَا تزِيدُهُمُ الابْتِلاءَاتُ إِلا إِيماناً وَصَبْراً، وَهُم أَنفُسُهُم الَّذِينَ لَو فُتِحَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا تَراهُمْ أَهْلَ شُكْرٍ وَعِبَادَةٍ.

وَمَا كَانَ مِنْهُم هَذَا إِلا لأَنَّهُمْ أُنَاسٌ طُهْرُ القُلُوبِ، وَفِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ فِي الجسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الجسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كُلُّهُ**»[1].

يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْن تَيْمِيَةَ فِي تَفْسيرِ قَولِ الله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[2]: هُوَ مَرَضُ الشَّهْوَةِ، فَالقَلْبُ الصَّحِيحُ لَو تُعْرَضُ لَهُ المرْأَةُ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، أَمَا القَلْبُ المرِيضُ فَإِنَّهُ لِضَعْفِهِ يَمِيلُ إِلَى مَا يُعْرَضُ عَلَيْهِ.

إِنَّ أَصْحَابَ القُلُوبِ البَيْضَاءِ أَكْثَرُ النَّاسِ اسْتِقْرَاراً وَسَعَادَةً وَطمَأْنِينَةً حَتَّى لَو تَكَالَبَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، حَتَّى لَو عَادَاهُم وَحَسَدَهُمُ الحَاقِدُونَ، وَالحَيَاةُ لَنْ تَخْلُوَ مِنْ حَسُودٍ أَو حَقُودٍ.

يُحْكَى أَنَّ شَيْخَ الإِسْلامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ مَاتَ أَحَدُ أَلَدِّ خُصُومِهِ، فَأَتَاهُ ابْنُ القَيِّمِ يُبَشِّرُهُ بِهَذَا الخَبَرِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ تَيْمِيَةَ: (كَيفَ تُبَشِّرُنِي بِمَوْتِ مُسْلِمٍ)، وَذَهَبَ ابْنُ تَيْمِيَةَ إِلَى أَهْلِ المَيِّتِ وَعَزَّاهُم، وَقَالَ لأَوْلادِهِ: (أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ أَبِيكُم).

إِنَّ أَصْحَابَ القُلُوبِ البَيْضَاءَ هُمْ أَصْحَابُ العَفْوِ وَالرَّحْمَةِ، حَتَّى إِنْ جَهَلَ عَلَيْهِم الجُهَلاءُ.

رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ضَحِكَ يَوماً فِي مجْلِسِهِ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: مَا الَّذِي أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ الله بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَضْحَكُ لِرَجُلَيْنِ مِنْ أُمَّتِي أَحَدُهُمَا ظَالِمٌ وَالآخَرُ مَظْلُومٌ، وَوَقَفَا أَمَامَ الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فَيَقُولُ المظْلُومُ: يَا رَبّ يَا رَبّ. فَيَقُولُ اللهُ - تَعَالَى: نَعَمْ عَبْدِي. فَيَقُولُ: خُذْ مِنْ زَلاتِي وَضَعْهَا عَلَى فُلان.**

---

(١) سبق تخريجه قريبا.

(٢) الأحزاب: ٣٢.

وَهُنَا يَكْشِفُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - جُزْءاً مِن الجَنَّةِ لهذَا المظْلُوم فَيَرَى القُصُورَ وَالجَنَّاتِ، فَيَقُولُ المظْلُومُ: يَا اللهُ لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا وَلِأَيِّ شَهِيد؟ فَيَقُولُ اللهُ- تَعَالَى: هَذَا لِمَنْ أَعْطَى حَقَّهُ. فَيَقُولُ العَبْدُ: أَيُّ حَقٍّ؟ فَيَقُولُ اللهُ - تَعَالَى: أَنْ تَعْفُو عَنْ أَخِيكَ. فَصَاحِبُ القَلْبِ الأَبْيَضِ هُوَ صَاحِبُ العَفْو»[1].

أَمَا أَصْحَابُ القُلُوبِ السَّوْدَاءِ فَهُمْ يَحْمِلُونَ فِي القُلُوبِ أَضْغَانا وَأَحْقَادا يُثْقِلُهَا وَيعْمِيهَا السَّوادُ، وَيُصِيبُهَا بِالاضْطِرَابِ وَالقَلَقِ، (فَأَبُو قَلب أَسْود) يَحْمِلُ مِن الهُمُومِ بِقَدْرِ سَوَادِ قَلْبِهِ، وَمَا أَحْوَجَهُ إِلَى النقَاءِ وَالصفَاءِ.

وَلنَذْهَبْ إِلَى المَحَاكِمِ لِنَرَى بَأَعْيُنِنَا، حَيْثُ تُشِيرُ الإِحْصَائِياتُ الى أَن القَضَايَا المُقَدَّمَةِ لِتَنْظُرَ فِيهَا المَحَاكِمُ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ تُعْطِي مُؤَشِراً مُخِيفاً، فَمَا بَالُنَا بِقَضَايَا عَام كَامِلٍ.

أَيْنَ القُلُوبُ الرَّحِيمَةُ البَيْضَاءُ الَّتِي تُعَامِلُ النَّاسَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ تُعَامَلَ؟ وَأَيْنَ ثَقَافَةُ العَفْوِ؟!

طَيِّبُوا القُلُوبَ، وَانْزعُوا عَنْهَا السَّوَادَ، وَامْلَؤُوهَا رِضا وَتَقْوى وَذِكْراً.

فَالقُلُوبُ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الحَدِيدُ، وَجَلاؤُهَا كَمَا قَالَ النبِيُّ ﷺ: «**بِذِكْرِ اللهِ، وَتَلاوةِ القُرْآنِ**».

(١) أَبُو قَلْب أَسْوَد: حَسُودٌ لا يُسَامِحُ وَلا يَغْفِرُ الزَّلاتِ، حَقُودٌ لا يَتَجَاوَزُ عَنْ أَخْطَاءِ الآخَرِينَ إِنْ طَلَبُوا العَفْوَ، مِثَالُهُ: (اقْعُدْ بِحُضْنِهِ وَلِفْت ذَقْنَهُ).

(٢) خُطُورَةُ الحَسَدِ عَلَى قَلْبِ صَاحِبِهِ، يَجْعَلُ حَيَاتَهُ هَمًّا وَغَمًّا، وَلِذَلِكَ قِيلَ: (بَيْتُ الظالِمِ خَرَابٌ).

(٣) فَلْيَذْكُر الحَاسِدُ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ إِلى زَوالِ، وَأَنَّ الكُلَّ سَيَمُوتُ فَلِمَ

---

(١) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية (٤٧٠٧) عن أبي يعلى عن أنس ﷺ، وقال: ضعيف جدا.

الـحَسَدُ؟!

(٤) الـحَسَدُ أَقْبَحُ مَا فِي الشَّيْطَانِ..وشَرَّمَا يعْرفُ بِهِ الإِنْسَانُ. وَالـحَاسِدُ كَمَا قِيلَ عَنْهُ: (هَذِي أَنْتِ يَا جِيفَة لَو انْغَسَلْتِي بِلِيفَة).

(٥) الـحَسَدُ أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِن الـجَنَّةِ مَعَ رَذِيلَةِ الكِبرِ، وسَبَبُ قَتْلِ قَابِيـل لِهَابِيلَ (أَولُ ذَنْبٍ فِي السمَاءِ وَفِي الأَرْضِ). شِعَارُهُ كَمَا قِيلَ: (لا أَرْحَمُ وَلا أُخَلِّي رَحْمَةَ الله تَنْزِل عَلَيْك)، فَهُو كَمَا قِيلَ: (عَقْرَبُ رَمْـلٍ)، بَـلْ حَسَدُهُ مُـسْتَمِرٌّ إِلَى الذُريَّةِ، فَيَقُولُ أَهْلُ الـمَثَلِ: (عَدُو أَبُوكَ مَا يُصَافِيكَ).

(٦) الـحَسَدُ نَارٌ فِي القَلْبِ تَحْرِقُ كَبِدَ صَاحِبِهَا.

(٧) قَالَ مُعَاوِيَةُ: كُلُّ النَّاسِ يُمكِنُنِي أَنْ أَرْضِيَهُ إِلا الـحَاسِدَ.

(٨) كُلُّ العَدَاوَاتِ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا إِلا عَدَاوَة مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَد.

(٩) قَالَ الأَصْمَعِيُّ: رَأَيْتُ أَعْرَابِياً أَتَى عَلَيْهِ عُمْرٌ كَثِيرٌ، فَقُلْتُ: أَرَاكَ حَسَنَ الـحَالِ فِي جَسَدِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، تَرَكْتُ الـحَسَدَ فَأَبْقَيْتُ نَفْسِي.

(١٠)

اصْبِرْ عَلى حَسَدِ الـحَسُو ... دِ فَـإِنَّ صَـبْرَكَ قَاتِلُـه

فَالنَّـار تَأْكُـلُ بَعْـضَـهَا ... إِنْ لَمْ تَجِـدْ مَـا تَأْكُلُـه

(١١) مِن الأَمْثَالِ: الـحَسُودُ لا يَسُودُ، وَكُلُّ أَمِهِ سِوُد، فكَيفَ إِذَا اجْتَمَعَ الـحَسَدُ مَعَ الـحِقْدِ؟

الحلقة (١٠)

اللي ما يطيع يضيع

(اللي ما يطيع يضيع) هَذَا مَثَلٌ يُرَدَّدُ كَثِيراً عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَكُلٌ حَسَبَ مَجَالِهِ.

فَكُلُّ النَّاسِ بِمُخْتَلَفِ الـمَشَارِبِ وَالمِهَنِ تَرْفَعُ هَذَا الـشِّعَارَ، وَكُـلُّ وَاحِـدٍ مِنْهُمْ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ دَائِماً النَّاصِحَ الأَمِينَ، وَيَنْصَحُ وَرُبَّمَا يَكُونُ جَاهِلاً بِالأَمْرِ الَّذِي يَنْصَحُ فِيهِ، وَإِنْ سَأَلْتَهُ وَاسْتَفْسَرْتَ قَالَ لَكَ: نَصِيحَتِي (اللي ما يَطيعْ يَضِيعْ).

حَتَّى إِنَّ شَرِكَةً اسْتِثْمَارِيَّةً قَالَتْ فِي إِعْلانَاتِهَا: شِعَارُنَا فِي بيْعِ وَشِرَاءِ الأَسْهُمِ (اللي ما يطيع يضيع).

والنَّاسُ فِي حِلِّهِـمْ وَتِرْحَـالِهِمْ تَجِـدُهُمْ يَتَمَثَّلُونَ خَلُـقَ النَّـصِيحَةِ بِـصُورَةٍ عَجِيبَةٍ؛ فَمَنْ سَافَرَ إِلَى دَوْلَةٍ وَأَعْجَبَتْهُ وَجَدْتَهُ دَاعِياً لِلسَّفَرِ إِلَيْهَـا، رُبَّـمَا بِطَرِيقَـةٍ تَفُوقُ إِعْلانَاتِهَا هِي عَنْ نَفْسِها، وَحَتَّى النِّسَاء إِذَا ذَهَبَـتْ الوَاحِـدَةُ إِلَى سُـوْقٍ مُعَيَّنٍ وَأَعْجَبَهَا تَكُونُ كَذَلكَ خَيْرَ نَاصِحَةٍ وَدَاعِيَةٍ إِلَيْهِ، فَتُخْبِرُ كُلَّ مَـنْ تَعْرِفُ مِن النِّسَاءِ بِمُمَيزاتِ هَذَا السُّوقِ وَهَذِهِ البِضَاعَةِ.

إِذَنْ نَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَنْ سُلُوكٍ اجْتِمَاعِيٍّ عَامٍّ، لَكِنَّهُ غَيْرُ مُقَنَّنٍ وَغَيْرُ مُنْضَبِطٍ.

جَمِيلَةٌ عِبَارَةُ: (اللي ما يطيع يضيع).

- لَكِنْ أَجْمَلُ مِنْهَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[١].

وَهَذِهِ عِبَارَةٌ وَجِيزَةٌ بَلِيغَةٌ تُقَرِّرُ حَقِيقَةً، وَهِي أَنَّ الدِّينَ مَبْنَاهُ عَلَى النَّصِيحَةِ، فَكَمَا يَقُولُ الـحَدِيثُ: «**الـحَجُّ عَرَفَة**»[٢] أَو «**الـمُسْلِمُ أَخُو الـمُسْلِم**»[٣] يَقُولُ

(١) أخرجه مسلم (٥٥) عن تميم الداري ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥) عن عبد الرحمن بن يعمر ﷺ، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما.

أَيْضاً: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**».

فَالإِنْسَانُ أَحْيَاناً بَلْ كَثِيراً مَا يَنْصَحُ، لَكِنَّهُ لا يَرْبِطُ ذَلِكَ بِالشَّرْعِ فَنَقُولُ لَهُ: لا بَلْ انْصَحْ وَاسْتَشْعِرْ أَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يُثِيبُكَ خَيْراً بِهَذِهِ النَّصِيحَةِ، وَأَنَّكَ بَنَصِيحَتِكَ تُحَقِّقُ مَعْنَى الدِّينِ الَّذِي قَصَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي الحَدِيثِ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**».

وَالنَّصِيحَةُ وَالنُّصْحُ كَلِمَةٌ تُقَارِبُ فِي المعْنَى الإِخْلاصَ، وَهِيَ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ تَدُلُّ عَلَى إِرَادَةِ الخَيْرِ لِلنَّاصِحِ وَالمنْصُوحِ لَهُ عَلَى السَّواءِ قَوْلاً وَعَمَلاً.

وَلما سَمِعَ الصَّحَابَةُ هَذِهِ العِبَارَةَ بَادَرُوا بِالسُّؤَالِ فَقَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ: «**لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الـمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[1].

وَالنَّصِيحَةُ لله - تَعَالَى - تَكُونُ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا حَرَّمَ، وَالاجْتِهَادِ فِيمَا أَمَر. وَالنَّصِيحَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ تَكُونُ بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ وَنَشْرِهَا فِي النَّاسِ. وَمَا أَجْمَلَ هَذِهِ الـمَقُولَة لِأَحَدِ السَّلَفِ: لَوْ أَحَبَّ النَّاسُ إِنْسَاناً نَشَرُوا محَاسِنَهُ وَتَنَاسَوا عيوبه، فكَيْفَ الحَالُ بِخَيْرِ الأَنْبِياءِ ﷺ كيف لا يَنْشُرُ النَّاسُ محَاسِنَهُ وَلَيْسَ لَهُ عُيوبٌ.

أَما النَّصِيحَةُ لِكِتَابِ الله فتَكُونُ بِالعَمَلِ بِهِ واتِّبَاعِ هَدْيِهِ وَتَصْدِيقِ شَرَائِعِهِ والتَّأَدُّبِ بِمَا جَاءَ فِيهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِي اللهُ عَنْهَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**كَانَ خُلُقُهُ القُرآنُ**»[2].

أَمَّا النَّصِيحَةُ لِأَئِمَّةِ الـمُسْلِمِينَ فَتَكُونُ لِرُؤَسَائِهِمْ وَحُكَّامِهِمْ، بِتَبْصِيرِهِمْ وَأَمْرِهِمْ ونَهْيِهِمْ.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥) عن تميم الداري ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١١).

وَحياةُ السَّلْفِ الصَّالِحِ كَانَتْ نَمُوذَجاً يُحْتَذَى بِيْنَ الحُكَّامِ والمحْكُومِينَ فِي هَذَا البَابِ، فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ يَطْلُبُ النَّصِيحَةَ مِن النَّاسِ، وَكَانَ يَقُولُ: (مَرْحَباً بِالنَّاصِحِ أَبَدَ الدَّهْرِ وَمَرْحَباً بِالنَّاصِحِ غُدواً وَعَشياً).

وَكَانَ يَقُولُ كَمَا هُوَ مَأْثُورٌ عَنْهُ: (إِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأَتُ فَقَوِّمُونِي) وهَذَا مَتوُافِقٌ مَعَ قَوْلِ أَهْلِ الطِّيبِ: (من شار عان).

- ثُمَّ بَعْدَ ذِلِكَ النَّصِيحَةُ لِعَامَّةِ الـمُسْلِمِينَ.

وَهِيَ مَدَارُ مُعَامَلاتِ النَّاسِ فِي حَيَاتِهِمْ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**المؤْمِنُ مِرآةُ أَخِيهِ**»[1]. وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ، وَالمِرْآةُ لا تَكْذِبُ، فَأَنْتَ حِينَمَا تَنْظُرُ فِي المِرْآةِ تُرِيكَ عُيوبَكَ وَتُرِيكَ مَحَاسِنَكَ وَتَسْتَعَينُ بِهَا عَلَى تَحْسِينِ صُورَتِكَ.

فَالـمُؤْمِنُ الَّذِي مَلأ الإِيمَانُ قَلْبَهُ لا يَبْخَلُ عَلَى إِخْوانِهِ بِالنُّصْحِ، وَلا يَرْضَى أبدَا أَنْ يَلْحَقَ بِأَحَدٍ ضَرَرٌ، وَشِعَارُهُ (حِبَّ لأَخِيكَ مَا تُحِبُ لِنَفْسِكَ).

لَكِن هَذَا يَجْعَلُنَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَمْرَينِ فِي غَايَةِ الأَهَمِيةِ، وَهُمَا النصِيحَةُ وَالفَضِيحَةُ.

فَالبَعْضُ قَدْ لا يُبَالِي فِي نُصْحِهِ فَيَنْصَحُ فِي السر وَالعَلَنِ، وَيُحَوِّلُ النصِيحَةَ بِجَهْلِهِ إِلَى فَضِيحَةٍ، وَهَذَا نَقُولُ لَهُ كَمَا قَالَ الإِمَامُ الشافِعِيُّ:

تَعَمَّدْنِي بِنُصْحِكَ فِي انْفِرَادِي ... وَجَنِّبْنِي النصَيحَةَ فِي الجمَاعَه

فَإِنَّ النُّصْحَ بِينَ النَّاسِ نَوْعٌ ... مِن التَّوبِيْخِ لا أَرْضَى اسْتِمَاعَه

وَلله مَقُولَةُ أَحَدِ السلَفِ لا شيَءْ أَخَفَّ مِن النصِيحَةِ عِنْدَ مُقَدِّمِهَا، وَلا أَثْقَلَ مِنْهَا عِنْدَ مُسْتَلِمِهَا.

فَالنصِيحَةُ فِي السِّرِّ نَصِيحَةٌ، وَفِي العَلَنِ وَأَمَامَ النَّاسِ فَضِيحَةٌ، وَأَهْلُ الطِّيبِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩١٨) عن أبي هريرة ﷺ، وحسنه الألباني.

أَهْلُ نِصِيحَةٍ وَلَيْسُوا دُعَاةَ فَضِيحَةٍ.

فـ(اللِّي مَا يطيع يضيع)، و(الدينُ النَّصِيحَةُ) و(اليَدُ الوَاحِدَةُ مَا تُصَفِّقُ).

أَمَّا المَنْصُوحُ فَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ وِعَاءٍ لإِخْوانِهِ وَنَاصِحِيهِ، وَالنبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي الحَدِيثِ: «**لِينُوا فِي يَدِ إِخْوانِكُمْ**»[1]، وَمَعَ أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ قِيلَ فِي مَعْرِضِ تَسْوِيَةِ الصُّفُوفِ، إلا أَنَّهُ كَلامٌ عَامٌّ يُفْهَمُ أَيْضا فِي مَعْرِضِ النَّصِيحَةِ، فَجَمِيلٌ أَنْ يَكُونَ المُسْلِمُ هَيِّناً لَيِّناً مَعَ إِخْوَانِهِ.

المؤْمِنُ كَمَا قَال النبيُّ ﷺ: «**كَالجَمَلِ الأَنِفِ الَّذي إِذَا أُنِيخَ اسْتَنَاخَ**». أَيْ أَنَّ المُسْلِمَ فِي شُمُوخِهِ وَعِزَّتِهِ كَالجَمَلِ الضَّخْمِ، لَكِنَّهُ يَسْمَعُ وَيُطِيعُ، وَيَقْبَلُ نَصِيحَةَ النَّاصِحِينَ؛ خَاصَّةً إِذَا كَانُوا أَهْلاً لِلنَّصِيحَةِ، وَلا يَنْصَحُونَهُ إِلا بِالمعْرُوفِ. فَكَمْ مِنْ نَاصِحٍ أَخَذَ بِيَدِ نَاصِحِهِ إِلَى بَرِّ الأَمَانِ!

فَـ...

١- النَّصِيحَةُ دِينٌ وَأَمَانَةٌ فَلا تُضَيِّعُوهَا.

٢- المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ.

٣- اسْتِشَارَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلصَّحَابَةِ فِي غَزَوَاتِهِ (بَدْر - أُحُد - الحُدَيْبِيَة) دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ اسْتِغْنَاءِ أَحَدٍ عَنْ مُشَاوَرَةِ أَحَدٍ.

٤- الوُصُولُ لِلصَّوابِ: مَا خَابَ مِنْ اسْتَخَارَ ولا نَدِمَ مَن اسْتَشَارَ.

٥- تَبَادُلُ الاسْتِشَارَاتِ وَالخِبْرَاتِ مَطْلُوبٌ بَيْنَ البَشَرِ.

٦-

إِنَّ اللَّبِيبَ إِذَا تَفَرَّقَ أَمْرُهُ ... فَتَقَ الأُمُورَ مُنَاظِراً وَمُشَاوِراً

وَأَخُو الجَهَالَةِ يَسْتَبِدُّ بِرَأْيِهِ ... فتراهَ يُتَعَسَفَّ الأمُور مخُاطِراً

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٢، عن أبي أمامة ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٤٩١).

٧-رغْـمَ أَنَّ الرسُـولَ ﷺ لا ينْطِـقُ عَـن الهَـوَى، إلا أَنَّ اللهَ أَمَـرَهُ، فَقَـالَ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(١).

٨- مَنْ شَاوَرَ أَهْلَ النَّصِيحَةِ سَلِمَ مِن الفَضِيحَةِ.

٩- الـمُشَاوَرَةُ حِصْنٌ مِنْ النَّدَامَةِ وَأَمْنٌ مِن الـمَلامَةِ.

١٠- قيلَ: لَأَنْ أُخْطِئَ وَقَدْ اسْتَشَرْتُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِـنْ أَنْ أُصِـيبَ مِـنْ غَـيْرِ مَشُورَةٍ.

١١-لما همت ثقيف بالارْتِدَادِ بَعْدَ وَفَاةِ النبيِّ ﷺ اسْتَشَارُوا عُثْمَانَ بْـنَ أَبِي العَاصِ وَكَانَ مُطَاعاً فِيهِم فَقَـالَ: (لا تَكُونُـوا آخِـرَ العَـرَبِ إِسْـلاماً وَأَوَّلَهُـمْ ارْتِدَاداً)، فَنَفَعَهُمُ اللهُ بِرَأْيِهِ.

١٢- قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّـابِ رضي الله عنه: (شَاوِرْ فِي أَمْـرِكَ مَـنْ يَخَـافُ اللهَ - عَـزَّ وَجَلَ).

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

الحلقة (١١)

اللي يجي من الله حياه الله

نَقُولُ فِي الـمَثَلِ الكُويْتِيِّ (**اللي يجي من الله حياه الله**)، وَهَذَا المَثَلُ يُعَبِّرُ عَـنْ حَقِيقَةٍ فِي عَقِيدَةِ الـمُسْلِمِ، أَلا وَهِي الإِيمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ وَبِتَـصَارِيفِ الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالى- لِلخَلْقِ. يَقُولُ أَهْلُ الطِّيبِ: (من عرف ربه هانت مـصيبته)، ويقولون: (لا تحاتي يا عبدي ولك في السما ملبِّي).

وَهَذَا الـمَثَلُ يُعَدُّ عنْواناً لأَهْلِينِ مِن النَّاسِ.

أَهْلُ الصَّبْرِ عَلَى البَلَاءِ وَالابْتِلاءِ وَالـمَصَائِبِ، وَأَهْـلُ الـشُّكْرِ عَـلَى الـنِّعَمِ والخَيْرَاتِ.

(فَاللي يجي من الله حياه الله) دَلِيلٌ عَلَى صَـبْرٍ وَشُـكْرٍ، وَدَلِيـلُ كَـرَمِ نَفْـسٍ مُؤْمِنَةٍ لا تَجْزَعُ لِلمَصَائِبِ جَزَعاً يُنْسِيها جَزَاءَ الصَّابِرِينَ وَلا تَفْرَحْ بِـمَا هُـو آتٍ فَرَحاً يُنْسيها نِعْمَةَ الشُّكْرِ وَجَزَاءَ الشَّاكِرِينَ.

وَكَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[(١)].

أَحِبَّتِـي فِي الله: يَقُـولُ اللهُ- تَعَـالَى- فِي مُحْكَـمِ آياتِـهِ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[(٢)] فالَابتِلاءِ اُختبِارٌ وامتحانٌ ليُعرَفَ أَهْلُ الصَّبْرِ مَنْ أَهْلِ الجَزَعِ.

فَمَنْ ابْتُلِيَ بِمَكْرُوهٍ فِي نَفْسِهِ أَوْ أَهْلِهِ- عَافَانَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ كُلِّ سُـوءٍ- إِنَّـمَا هُوَ امْتِحَانٌ واخْتِبَـار، وَقَـدْ بَـيَّنَ اللهُ - سُـبْحَانَهُ - الجَـزَاءَاتِ مَـا عَـدَا جَـزَاءَ الصَّابِرِينَ فَقَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(٣)].

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) الأنبياء: ٣٥.

(٣) الزمر: ١٠.

ورُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ عَن الله- عز وَجَل- قَالَ اللهُ- تَعَالَى: إِذَا وَجَّهْتُ إِلى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مُصِيبَةً فِي أَهْلِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ أَوْ فِي بَدَنِهِ فَاسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحيَيْتُ مِنْهُ يَومَ القِيَامَةِ أَنْ أَنْشُرَ لَهُ دِيواناً أَوْ أَنْصِبَ لَهُ ميزاناً**»[١].

ثُمَ مَاذَا لَوْ لَمْ يَصْبِرْ ابْنُ آدَمَ عَلَى الـمُصِيبَةِ؟

مَاذَا يُفِيدُهُ الـجَزَعُ وَعَدَمُ الإِيمَانِ بِقَضَاءِ الله- تَعَالَى- وَقَدَرِهِ؟ وَقَدْ وَرَدَ فِي الـحَدِيثِ: «**إِنْ صَبرْتَ جَرَى عَلَيْكَ القَدَرُ وَأَنْتَ مُجْزِيٌّ خَيْراً وَإِنْ لَمْ تَصْبِرْ جَرى عَلَيْكَ القَدَرُ**»[٢].

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطابِ ﷺ يَقُولُ: (عِنْدَ الـمُصِيبَةِ أَحْمَدُ اللهَ - عَز وَجَل- عَلَى ثَلاثٍ:

أَولاً: لأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي دِينِي.

ثَانِياً: لأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ أَعْظَمَ مِنْهَا.

ثَالِثاً: لِأَنَّ اللهَ - تَعَالَى - أَلْهَمَنِي الصَبْرَ عَلَيْهَا).

وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ القَائِلِ:

صَبرْتُ وَمَنْ يَصْبِرْ يَجِدْ غِبَّ صَبْرِه   أَلَذَّ وَأَحْلَى مِنْ جَنَي النَّحْلِ فِي الفَمِ

لأَنَّهُ هُنَا نَظَرَ إِلَى قَضَاءِ الله- تَعَالَى - وَتَصَارِيفِهِ بِعَيْنِ الرِّضَا وَيَا لَهَا مِنْ مَنْزِلَةٍ لا يُجِيدُهَا إِلا أَصْحَابُ العَزَائِمِ.

فالرضا مَحَلُّ السَّعَادَةِ وَمِيزَانُ الخَيْرِيَّةِ كَمَا فِي الـحَدِيثِ، قَالَ ﷺ: «**مِنْ سَعَادَةِ ابنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ**»[٣].

---

(١) أخرجه الشهاب في مسنده (١٤٦٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٠٤٤) عن أنس ﷺ.

(٢) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال (٤٢٩٥٩) ونسبه إلى ابن عساكر.

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٥١) عن سعد ﷺ بلفظ: «**من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له**»، وضعفه الألباني.

وَفِي الأَثَرِ أَن اللهَ- تَعَالَى- أَوْحَى إِلَى دَاوُد- عَلَيْهِ السَّلامُ: «**يَا دَاوُد إِنَّكَ لَـنْ تَلْقَانِي بِعَمَلٍ هُوَ أَرْضَى لِي عَنْكَ، وَلا أَحَطُّ لِوِزْرِكَ، مِنَ الرِّضَا بِقَضَائِي**».

وَحِينَما قَرَأَ عَلْقَمَةُ ﷺ قَوْلَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[1]، قَالَ: (هِـيَ الـمُصِيبَةُ تُصِيبُ الرَّجُلَ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ الله فَيُسَلِّمَ لَهَا وَيَرْضَى..).

ويَقُولُ ابنُ الـجَوْزِي: (الدُّنْيَا وُضِعَتْ للبَلاءِ، فَيَنْبَغِـي لِلعَاقِـلِ أَنْ يُـوطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ)، وَكَما يَقُولونَ: (شده وتهون).

وَقَالَ الـحَسنُ: (مَنْ رَضِي بِمَا قُسِمَ لَهُ، وَسِعَهُ وَبَارَكَ اللهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ لَمْ يَسَعْهُ وَلَمْ يُبَارِكْ لَهُ فِيهِ).

وَلِلرضَا حَلاوَةٌ وَاطْمِئْنَانٌ وَلِلصبْرِ كَذَلِكَ.

نَعَمْ لِلصبْرِ عَلَى الابْتِلاءِ وَعَلَى تَصَارِيفِ الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى- حَـلَاوَةٌ لَا يَتَذَوَّقُهَا إِلَّا أَهْلُ الطيبِ أَصْحَابُ العَزَائِمِ. وَصَدَقَ مَنْ قَالَ: مَا تَشْكُو مِنْهُ مِـنْ بَلاءٍ يَرَاهُ غَيْرُكَ فَضْلاً.

وَانْظُرْ دَائِماً فِي أُمُورِ الدنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكَ، وَانْظُرْ فِي أُمُورِ الآخِرَةِ إِلَى مَـنْ هُوَ فَوقَكَ.

أَحِبتِي فِي الله: هَلْ لَكُم أَنْ تَكُونُوا عَوْناً لِلصابِرِينَ عَلَى الصبْرِ وَالاحْتِسَابِ، فَإِنَّ مَنْ أَعَانَ الناسَ عَلَى بَلْوَاهُم وَمَصَائِبِهِم كَـانَ سَـبَباً مِـنْ أَسْـبَابِ الله عَـلَى الصبْرِ.

وَرَحِمَ اللهُ مَنْ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَ بَلغْنِي عَثَرَاتِ الكِرَامِ.

نَعَمْ مَنْ أَعَانَ وَمَنْ يَسَّرَ وَآزَرَ للنَّاس ووَقَفَ بِجَنْبِهِم فِي مِـحَنِهِمْ- وَمَا أَكْثَرَ مِـحَنَ الزمَانِ وَعَقَبَاتِهِ- كَـانَ لَـهُ جَـزَاءُ مَـنْ يَـسَّرَ عَـلَى مُـؤْمِنٍ كُرْبَـةً، كَـمَا فِي

---

(١) التغابن : ١١.

الـحَدِيثِ: «**مَنْ يَسَّرَ عَلَى مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدنْيَا يَسَّرَ اللهُ عَلَيْـهِ كُرْبَـةً مِـنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا دَامَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»[1].

وَهُنَا سَتَتَكَرَّرُ قِصَصُ الصابِرِينَ عَلَى البَلاءِ وَسَنَسْمَعُ- دَائِماً- مَـنْ يَقُـولُ: (**اللي يجي من الله حياه الله**)؛ لأَنَّهُ سَيَجِدُ مَنْ يُعِينُهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَأَهْلُ الطيبِ:

١- فِي كُلِ زَمَانٍ وَمَكَانٍ أَهْلٌ لِـهَذَا العَونِ، فَكُونُوا صَابِرِينَ مُصَابِرِينَ.

٢- الرضَا يَكُونُ بَعْدَ الـبلاءِ- عـلَى الـرَّاجِحِ- مُـسْتَحَبٌّ كَـمَا قَـالَ شَـيْخُ الإِسلام ابنْ تُيمْيِةَ خِلافَ الـصبْرِ فَالـصوابُ أَنَّـهُ وَاجِـبٌ، وَقَـدْ جَـاءَ الثنَـاءُ وَالـمَدْحُ لأَصْحَابِ الرضَا، وَهُوَ نِهَايَةُ التَوَكُّلِ.

٣- مَدَارُ الإِسْلامِ وَطَعْمُ الإِسْلامِ عَـلَى مَـا وَرَدَ فِي قَوْلِـهِ ﷺ: «**ذَاقَ طَعْـمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِي بِالله رَباً، وَبِالإِسْلامِ دِيناً، وَبِمُحَمدٍ رَسُولاً**»[2]، وَيَقُولُ أَهْـلُ الـمَثَلِ: (طف النية وارقد في البرية)، وَيَقُولُ أَهْلُ الـمَثَلِ: (يَطِير الطيْر وَالقُدْرة تجيبه).

٤- قِيلَ لِيَحْيى بْنِ مُعَاذ: مَتَى يَبْلُغُ العَبْدُ مَقَام الرضَا؟ فَقَالَ: إِذَا أَقَامَ نَفْسَهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أُصُولٍ فِيمَا يُعَامِلُ بِهِ رَبَّهُ، فَيَقُولُ: إِنْ أَعْطَيْتَنِـي قَبِلْـتُ، وَإِنْ مَنَعْتَنِـي رَضِيتُ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي عَبَدْتُ، وَإِنْ دَعَوْتَنِي أَجَبْتُ.

٥- لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الرضَا أَلا يَحِسّ بِالأَلَمِ وَالمكَارِهِ، بَلْ المطلوب أَلا يَعترَضَ عَلَى الـحُكْمِ وَلا يَسْخَطَ، فَوُجُودُ التأَلُّمِ وَكَرَاهَةُ النفْسِ لَهُ لا يُنَافِي الرضَا، وَذَلِكَ نَحْوَ رِضَا الصائِمِ فِي اليَوْمِ الشدِيدِ الـحَر بِمَا يَنَالُهُ مِن الجُوعِ وَالظمَأ.

٦- ثَمَرَةُ الرضَا: الفَرَحُ وَالسرُورُ بِالربِّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٣٤) عن العباس ﷺ.

الحلقة (١٢)

قليلبة

الدنْيَا لا تَبْقَى عَلَى حَالٍ وَاحِدٍ، وَهَذِهِ عَادَتُهَا، فَلَهَا فِي كُلِّ يَومٍ شَكلٌ، وكَـما فِي الـمَثَلِ الشَعْبِيِّ: (**يوم لك ويوم عليك**).

وَكَمَا قِيلَ:

الدهْرُ يَوْمَانِ ذَا أَمْنٌ وَذَا خَطَرٌ وَالعَيْشُ عَيْشَانِ ذَا صَفْوٌ وَذَا كَدَرٌ

وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ لَا تَغِيبُ عَنْ ذِهْنِ أَحَـدٍ، حَتـى إِنَّ أَطْفَالَنَـا كَـانوا في المـاضي يَلْعَبُونَ لُعْبَةَ [قليلبة] وَهِيَ فِي محْتَواهَا تُبَيِّنُ هَذِهِ الـحَقِيقَةَ، وَهِيَ أَنَّ الدنْيَا هَكَذَا طَبِيعَتُهَا لا تَسْتَقِر عَلَى حَالٍ، تَكُونُ مَعَكَ اليَوْمَ وَفِي الغَدِ تَكُونُ عَلَيْـكَ، تَتَبَـدَّلُ الأَحْوَالُ بَيْنَ الغِنَي وَالفَقْرِ، بَيْنَ الصحَةِ وَالـمَرَضِ، بَيْنَ الخَوْفِ وَالأَمْنِ، وَكَمَا يَقُولُ أَهْلُ الطيبِ: (منْ أكل حلاوتها تلقى مرارتها).

وَهَذَا يَجْعَلُ المؤمَنَ لا يَنْخَدِع بِهَا وَلا يَـرْكَن وَلا يَطْمَـئِن إِلَيْهَـا، وَأَظُـنُّ أَنَّ حَالَ الاقْتِصَادِ فِي العَالَمِ الآنَ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ، وَأَخْبَارُ الاقْتِـصَادِ، وخَـسَارَةُ أَوْ مَكْسَبُ رِجَالِ الأَعْمَالِ فِي البُورصَاتِ العَالَمِيَةِ، وَتَقَلُّبُ حَالِ النَّـاسِ مِـنْ غَنـى فَاحِشٍ إِلى فَقْرٍ فَاحِشٍ فِي لَـحَظَاتٍ مُشَاهَدٌ لِلجَمِيعِ؛ حَتى إِنَّ الأَخْبَارَ تُطَالِعُنَـا بِإِقْدَام البَعْضِ عَلَى الانْتِحَارِ بِسَبَبِ الخَسَارَةِ الـمُفَاجِئَةِ، كَلُّ ذَلِكَ دَلِيـلٌ قَـاطِعٌ عَلَى أَنَّ الـدنْيَا لا تَـسْتَقِر عَـلَى حَـالٍ وَالمثَـلُ يَقُـولُ: (مـن أكـل خيرهـا تلقـى شرورها).

وَمَا كَانَت الدنْيَا يَوْماً بَيْنَ يَدَيْكَ إِلا لِأَنَّهَا سُحِبَتْ مِنْ تَحْتِ غَيْرِكَ.

وَمَا أَجْمَلَ مَقُولَةَ أَحَدِ الصالِحِينَ: (لا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَكَ فَرُبَّمَا لَمْ يَكُـنْ لـكَ، وَلا تَفْرَحْ بِمَا هُوَ آتٍ فَقَدْ يَكُونُ لِغَيْرِكَ).

وَهَذَا يَسْتَدْعِي مِنْ أَهْلِ الطيبِ أَنْ يَجْعَلُوا الآخِرَةَ هِيَ هَمّهُمْ، وَيَجْعَلُوا السعْي والتعَبَ وَالنَّصَبَ، لا مِنْ أَجْلِ تَحْصِيلِ الدنْيَا فَإِنَّهَا خَداعَةٌ، وَإِنَّمَا مِنْ أَجْلِ الآخِرَةِ.

والـمَسْأَلَة تَحْتَاجُ إِلَى نَوْعٍ مِن التوَازُنِ بَيْنَ مُتَطَلبَاتِ الدنْيَا وَالنَّاسِ وَبَيْنَ مُتَطَلبَاتِ الآخِرَةِ.

وَمَا أَجْمَلَ التَصْوِيرَ القُرْآنِيَّ لِهَذِهِ المسْأَلَةِ فِي آيَاتِ سُورَةِ القَصَصِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾(١).

وَأَتْرُكُ أَهَلَ الطيبِ لِيَبْحَثُوا عَن الفَارِقِ بَيْنَ هَذَينِ الفِعْلَيْنِ ﴿وَابْتَغِ﴾ ﴿وَلا تَنْسَ﴾، فَإِنَّ لِكُلِّ فِعْلٍ مِنْهُمَا دَلالَةٌ وَعِبْرَةٌ.

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الدنْيَا هَكَذَا طَبِيعَتُهَا فَإِنَّهَا ما تَسْوى شَيئا. وصَدَقَ فِيهَا قَولُ النبِيِّ ﷺ: «**لَوْ كَانَت الدنْيَا تَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا قَطْرَةَ مَاءٍ**»(٢).

والغَرِيبُ أَنَّهُ رَغْمَ حقَارَةِ هَذِهِ الدنْيَا وَدُنُوِّهَا إِلا أَنَّنَا نَتَكَالَبُ عَلَيْهَا وَنَتَصَارَعُ مِنْ أَجْلِ الـحُصُولِ عَلَيْهَا وَاقْتِنَائِهَا.

يَطْلُبُهَا البَعْضُ بِكُل مَا يَمْلُكُ، وَلَكِنْ تَكُونُ الطامَّةُ الكُبْرَى فِي النهَايَةِ، يَومَ تَذْهَبُ الدنْيَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، يَوْمَ أَنْ تَظْهَرَ عَلَى حَقِيقَتِهَا.. عِنْدَهَا يَنْدَمُ، وَلاتَ سَاعَةَ نَدَمٍ.

وَمَا أَبْلَغَ قَوْل القَائِلِ:

رُبَّ قَوْمٍ غَدوا فِي نِعْمَةٍ   زَمَناً وَالدهْرُ رَيانٌ غَدَقَ

(١) القصص: ٧٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١١٠)، وصححه الألباني.

سَكَتَ الدهْرُ زَمَاناً عَنْهُم   ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَماً حِينَ نَطَقَ

وَلَنَا عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ فِي أَصْحَابِ الـجَنَّةِ الَّذِينَ حَكَى القُـرْآنُ قِـصتَهُمْ؛ حَيْـثُ كَانَتْ عِنْدَهُمْ جَنَّة فِيهَا مِن الخَيْرَاتِ وَالبَرَكَـةِ مَـا يَكْفِـيهِم وَيَكْفِـي أَصْـحَابَ الـمَسْأَلَةِ، لَكِنَّهُم اغترُّوا كَمَا قَال القُـرْآنُ: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾[1]، ولَكِنْ هَلْ سَتَدُومُ هَذِهِ الـجَنَّةُ؟ الواقع لا.

فَبَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُـحَاهَا صَـارَتْ رَمَـاداً ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾[2]، فَالـدنيا هَكَـذَا حَالُـهَا تَغُرُّ صَاحِبَهَا، مَعَ أَنَّهَا لا تُسَاوِي شَيْئاً.

الدنْيَا خَدَّاعَةٌ مُتَقَلِّبَةُ الأَحْوَالِ، لَكِنَّهَا فِي النهَايَةِ وَسِيلَةٌ وَمَطِيةٌ إِلَى الآخِـرَةِ، وَهِيَ كَمَا قَالَ النبِيُّ ﷺ: «**الدنْيَا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ**» وَيَنْبَغِي أَلا تَزِيدَ عَنْ ذَلِكَ.

وَالفَارِقُ بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَأَهْلِ الآخِرَةِ:

أَنَّ الدنْيَا فِي قَلْـبِ أَصْـحَابِهَا تُـسَيْطِرُ عَلَـيْهِمُ، لَكِنَّهَـا فِي يَـدِ أَهْـلِ الآخِـرَةِ يَتَحَكَّمُونَ فِيهَا، وَيُسَيْطِرُونَ عَلَيْهَا.

فَمَا غَرَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفانَ أَوْ عَبْدَ الرَحْمَنِ بْنَ عَوفٍ غِنَاهُمَا حتى يَقُولَ القَائِـلُ: كُنا نَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ فَمَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ موالِيهِ أَوْ مَنْ تَحْتَ يَدَيْهِ مِن العَبيدِ.

وَمَا خَشِي أَبُو بَكْر الصديق مِن الدنيا يَومَ أَنفقَ مَالَهُ كُلَّهُ فِي سَبِيلِ الله.

لَكِنْ مَاذَا كَسَبَ فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَقَارُونُ يَوْمَ أَنْ ظَنُّوا أَنَّ الدنْيَا لَـهُمْ؟

مَاذَا كَسَبَ فِرْعَوْنُ يَوْمَ ظَلَمَ وَتَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَقَالَ كَـمَا حَكَـى القُـرْآنُ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[3]؟

(١) القلم: ١٧، ١٨.
(٢) القلم: ٢٠.
(٣) القصص: ٣٨.

وَمَاذَا كَسَبَ قَارُونُ يَوْمَ قَالَ كَمَا حَكَى القُرْآنُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾[1]؟!

وَاحِـدٌ أَغْرَقَـهُ البَحْـرُ، وَوَاحِـد خَسَفَ اللهُ بِـه الأَرْضَ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[2].

فَمَا أَطْيَبَ أَنْ تَظَلَّ الدنْيَا فِي أَيْدِينَا لا فِي قُلُوبِنَا!.

ومَا أَطيَبَ أَنَ نعَرْفَ الدنْيَا عَلَى حَقِيقَتِهَا فَلا نُعْطِيهَا أَكْبَرَ مِنْ حَقهَا.

الدنْيَا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ، وَالدنْيَا وَسِيلَةٌ لِنَيْلِ رِضْوَانِ الله تَعَالَى، وَالدنْيَا لَيْسَتْ غَايَةً، وَلَيْسَتْ هَدَفاً.

طَيِّبُوا القُلُوبَ بِانْتِزَاعِ الدنْيَا مِنْهَا وَجَعْلِهَا فِي اليَدِ.

تَـمَتعُوا بِحَياةٍ مُسْتَقِرةٍ فِي كُلِّ أَشْكَالِهَا الرَّاقيةِ لَيْسَ فِيهَا تَقَلُّبَات أنها:

(١) **حَياةُ العِلْمِ**: مِنْ مَوْتِ الـجَهْلِ كَمَا قِيلَ:

وَفِي الجهْلِ قَبْلَ الموْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ ... وَأَجْسَامُهُمْ قَبْـلَ القُبُـورِ قُبُـورُ

قَـال تعـالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[3]، قَـالَ لُقْـمَانُ: (يَـا بُنَـيَّ، جَـالِس العُلَـمَاءَ وَزَاحِمْهُـمْ بِرُكْبَتَيْكَ، فَإِنَّ اللهَ يُحْيِي القُلُوبَ بِنُورِ الحِكْمَةِ كَمَا يُحْيِي الأَرْضَ بِوابِلِ المطَرِ).

(٢) **حَيَاةُ القُلُوبِ**: القَائِمَـةِ عَـلَى مُدَاومَـةِ الـذكْرِ وَالإِنَابَـةِ إِلَى الله، وَتَـرْكِ الذنُوبِ وَالغَفْلَةِ الـجَاثِمَةِ عَلَى القَلْبِ الَّتِيتجعَلُه لا يعَرْف مَعْرُوفاً، وَلا يُنْكِـرُ مُنْكَراً كَمَا قَالَ ابْنُ الـمُبَارَكُ:

رَأَيْتُ الذنُوبَ تُميتُ القُلُو ... بَ وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

---

(١) القصص : ٧٨.

(٢) فصلت: ٤٦.

(٣) الأنعام : ١٢٢.

(٣) **حَيَاةُ الأَخْلاقِ**: وَالصفَاتِ المحْمُودَةِ، فَحَياةُ مَنْ قَدْ طُبِـعَ عَـلَى الحيَـاءِ وَالعِفَّةِ وَالجُودِ وَالسخَاءِ والمرُوءَةِ وَالصدْقِ وَالوَفَاءِ وَنَحْوهَا أتمَّ مِنْ حَياةِ مَـنْ يَقْهَرُ نَفْسَهُ وَيُغَالِبُ طَبيعَتَهُ، وَكُلَّمَا كَانَـتْ هَـذِهِ الأَخْـلاقُ فِي صَـاحِبِهَا أَكْمَـلَ كَانَتْ حَيَاتُهُ أَقْوى وَأَتَمّلذلِكِ كَانَ خَلُـقُ ُ الحيـاءِ (مُـشْتَقاً مِـن الحَيَـاةِ) اسْـماً وَحَقِيقَةً.

(٤) وَالحَذَرُ مِنْ تَقَلُّبَاتِ الحَيَاةِ، يَقُولُ أَهْلُ الطيبِ: (عـلام تـصيح وأنـت الفوقاني؟ قال: أخاف من الانقلابه)، وَهَكَذا الدنْيَا يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ.

صَحِيح الـحَياة قَليلبة.

الحلقة (١٣)

اسألْ مجرب ولا تسألْ طبيب

نَقُولُ فِي الـمَثَلِ العَرَبِيِّ: (**اسْأَلْ مُجَرِّب وَلا تَسْأَلْ طَبِيب**)، وَالحقِيقَةُ أَنَّ هَـذَا الـمَثَلَ صَحِيحٌ مِنْ وَجْهٍ، وَغَيْرُ صَحِيحٍ عَلَى إِطْلاقِهِ.

فَهُو لا يَعْنِي أَبَداً أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ طَبِيبَ نَفْسِهِ فِي وَقْتِ المرَضِ، لَكِنَّهُ يَعْنِي أَنْ يَسْتَفِيدَ الـمَرْءُ مِنْ تَجَارِبِ الآخَرِينَ، وَأَنْ تَكُونَ كُلُّ تَجْرِبَةٍ سَابِقَةٍ، كَأَنَّهَا تَجْرِبَةٌ له، فَيَتَعَلَّمَ حتى لا تَتَكَرَّرَ أَخْطَاؤُهُ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الجاهِلَ هُوَ الَّـذِي لا يَتَعَلَّمُ مِنْ تَجَارِبِهِ وَأَخْطَائِهِ، أَمَّا الذكِيُّ فَهُوَ الَّذِي يَتَعَلمُ مِنْ تَجَارِبِهِ وَأَخْطَائِهِ، لَكِنَّ الأَذْكَى هُوَ الَّذِي يَتَعَلَّمُ مِنْ تَجَارِبِ الآخَرِينَ وَمِنْ أَخْطَائِهِم، فَاسْأَلْ الـمُجَرِّبَ: أَي تَعَلَّمْ مِنْ تَجَارِبِهِ، وَتَعَلَّمْ مِنْ أَخْطَائِهِ وَمُحَاوَلَاتِهِ. وَكَمَا يَقُولُ أَهْلُ الـمَثَلِ: (أَكْبَرْ مِنكْ بِيومْ أَعْرَفْ مِنكْ بِسَنَة).

فالبَعْضَ قَدْ يَفْهَمُ الفَهْمَ السطْحِيَّ لِلمَثَلِ: فَإِنْ أَصَابَهُ مَرَضٌ أَوْ اشْتَكَى مِنْ شَيْءٍ لا يَذْهَبُ إِلى طَبِيبٍ، بَلْ يَسْأَلُ مَنْ أُصِيبَ مِثْلَهُ.

وَهُنَا تَكُونُ الطامةُ الكُبْرَى.

ولكن قد وَرَدَتْ صِيغَةٌ أُخْرَى لِهَذَا المثَلِ أَكْثَرُ دِقة تَقُولُ: (اسْأَلْ المجَربَ وَلا تَنْسَ الطبِيبَ)، أَيْ تَعَلَّمْ مِنْ تَجَارِبِ غَيْرِكَ، لَكِنْ لا تَنْسَ أَصْحَابَ التَّخَصُّصِ، لا تَنْسَ أَهْلَ الفَهْمِ فِي كُلِّ وَقْتٍ.. وَاللهُ- تَعَالَى- يَقُولُ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وَأَظُنُّ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا تَجْرِبَةٌ أَوْ أَكْثَرُ مَعَ هَـذَا المثَـلِ، فَهُنَاكَ مَنْ كَانَتْ تَجَارِبُ الآخَرِينَ خَيْرَ عَوْنٍ لَهُ، وَهُنَاكَ مَنْ كَانَتْ تَجَارِبُهُ هُوَ عَوناً للآخَرِينَ.

---

(١) الأنبياء: ٧.

وَالقُرْآنُ فِي ذِكْرِهِ لِلقَصَصِ، سَواءً قَصَص الأَنْبياءِ أَوْ قَصَص الصالـحِينَ، إِنَّمَا يُعَلمُنَا التجَارِبَ لِنَتَعَلَّمَ مِنْهَا، يَقُولُ اللهُ- تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

فَتَجَارِبُ الآخَرِينَ هِيَ خُطْوَةٌ لِتَذْكِيرِكَ وَعِظَتِكَ، فَلا تُكَرِّرْ أَخْطَاءَهُمْ، بَـلْ اسْتَفِدْ مِنْهَا، وَكَرِّرْ مَآثِرَهُم وَسِرْ عَلَى خُطَاهُم.

أَمَا تَجَارِبُ الشَّخْصِ نَفْسِهِ، فَالـحَيَاةُ كُلُّهَا تَجَارِب، وَالعَاقِلُ مِن النَّاسِ مَـنْ يَتَعَلَّمُ فِي كُلِّ يَوْمٍ شَيْئاً جَدِيداً. وَلِهَذَا يَقُولُ مُصْطَفَى صَـادِق الرافِعِـي: (اليَـوْم الَّذِي لا أَتَعَلَّمُ فِيهِ جَدِيداً إِنَّمَا أَنَا زَائِدٌ عَلَيْهِ).

وَصَاحِبُ التَّجَارِبِ: (ذِيبٍ أمَعط) كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الـمَثَلِ.

كأَنَّهُ عَاهَدَ نَفْسَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ شَيْئاً جَدِيـداً؛ حَتَّـى يَكُـونَ شَخْـصاً مُتَفَاعِلاً فِي حَيَاتِهِ إِيجَابِياً.

وَلا يَخْشَى الإِنسْانُ مِن أَخْطَائهِ ولا يَخَافُ مِنْهَا، بَـلْ تَجْعَلُـهُ أَشَـدَّ حَـذَراً فِي المرَّاتِ الأُخْرَى. وَكَمَا يَقُولُ أَهْلُ المثَلِ: (من عَضَّتْه الحَيَّةُ لا يَأْمَن مِنْ الـحَبَل).

فَإِنَّ فَشَلَ الإِنْسَانِ فِي شَيءٍ لَيْسَ مَعْنَاهُ نهَايَةَ الـمَطَافِ، بَلْ مَعْنَاهُ: احْذَرْ مِنْ أَنْ يَتَكَرَّرَ نَفْسُ خَطَئِكَ فِي الـمَرَّاتِ القَادِمَةِ.

وَهُنَا تَعْظِيمُ أَهَمِيَّةِ الـمُشَاوَرَةِ وَالاسْتِشَارَةِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ- تَعالَى- لِنَبِيِّـهِ ﷺ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[2]، فقَالَ النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ لَغَنِيَّـانِ عَنْهـا** - يَعْنِـي الـمُشَاوَرَةَ- **وَلَكِنْ جَعَلَهَا اللهُ رَحْمَةً لِأُمَّتِي**»[3]، فَالنبِيُّ ﷺ مَأْمُورٌ بِـأَنْ يُـشَاوِرَ

---

(١) يوسف: ١١١.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٤٤٢).

أَصْحَابَهُ فِيمَا يَحْتَاجُ فِيهِ الأَمْرُ إِلَى مُشَاوَرَةٍ فِي حَيَاةِ النَّاسِ.

يَقُولُ - عَلَيْهِ الصلاةُ وَالسلامُ - فِي الـحَدِيثِ: «**مَا خَابَ مَن اسْتَشَارَ، وَمَا نَدِمَ مَن اسْتَخَارَ**»(١).

وَالـمُشَاوَرَةُ تَكُونُ لِصَاحِبِ الخِبْرَةِ، وَلِيَتَّقِ اللهَ - تَعَالَى - كُلُّ مَن اسْتَشَارَهُ غَيْرُهُ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ حَيَاتِهِ، فَهَذِهِ الـمُشَاوَرَةُ أَمَانَةٌ وَسَيُسْأَلُ عَنْهَا.

وَفِي السنَّةِ:أَنَّ امْرَأَةً أَتَتَ النبِيَّ ﷺ فَشَاوَرَتْهُ فِي أَمْرِ زَوَاجِهَا، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله خَطَبَنِي فُلانٌ وَفُلانٌ، فَأَيُّهُمَا أَخْتَارُ؟ فَقَالَ لَهَا النبِيُّ: ﷺ «**أَما هَذَا فَفَقِيرٌ لا مَالَ لَهُ، وَأَمَا هَذَا فَلا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ**- يَقْصُدُ بِذَلِكَ كَثِيرَ الأَسْفَارِ- **وَلَكِنْ انْكَحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ**»(٢)، فَكُلُّ مَنْ وُضِعَ مَوضِعَ الاسْتِشَارَةِ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِ اللهَ - تَعَالَى - فِيهَا.

وَكَانَ هَذَا دَأْبُهُ ﷺ؛ فَلَقَدْ شَاوَرَ فِي حَفْرِ الخَنْدَقِ فِي غَزْوَةِ الأَحْزَابِ، وَشَاوَرَ الصحَابَةَ فِي الخُرُوجِ لِمُلاقَاةِ الـمُشْرِكِينَ خَارِجَ الـمَدِينَةِ فِي غَزْوَةِ أُحُد، وَنَزَلَ عَلَى رَأْيِ أَصْحَابِهِ.

بَلْ وَشَاوَرَ النِّسَاءَ، ونَزَلَ عَلَى مَشُورَةِ أُمِّ المؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةِ وَذَلِكَ فِي صُلْحِ الـحُدَيْبِيَةِ.

وَهَذَا طَلبعُخَالفِ الـمَقُولَةَ الـمَشْهُورَةَ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ فِي أَمْرِ مُشَاوَرَةِ النِّسَاءِ وَهِيَ قَوْلُهُمْ: (شَاوِرُوهُمْ وَخَالِفُوهُمْ) فَهَذَا لا يَصِحُّ أَبَداً.

وَعَلَى نَهْجِ النبِيِّ ﷺ سَارَ الصحَابَةُ - رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمُ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٨٠) عن أنس ﷺ، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٥٠٥٦): «موضوع».

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠) عن فاطمة بنت قيس – رضي الله عنها – بلفظ: «**أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك ولا مال له، انكحي أسامة بن زيد**».

وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ لا يَقْطَعُونَ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ المسْلِمِينَ إلا بَعْدَ مُشَاوَرَةٍ وَمُبَاحَثَةٍ وَسُؤَالِ أَصْحَابِ الخِبْرَةِ، وَفِي مَوْقِفِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ الكِفَايَةُ، حَيْثُ جَاءَ فِي الأَثَرِ أَنْ عُمَرَ بْنَ الخَطَابِ كَانَ يَتَفَقَّدُ أَحْوالَ الرَّعِيَّةِ، فَسَمِعَ قَوْلَ المَرْأَةِ وهِيَ تَشْتَكِي بُعْدَ زَوْجِهَا عَنْهَا؛ لِأَنَّهُ يُجَاهِدُ فِي جَيْشِ المُسْلِمِينَ فِي بِلادِ الشَّامِ.

فَذَهَبَ عُمَرُ إِلَى ابْنَتِهِ حَفْصَةَ وَسَأَلَهَا: كَمْ تَصْبِرُ المَرْأَةُ عَلَى فِرَاقِ زَوْجِهَا؟ فَاسْتَحْيَتْ، وَأَشَارَتْ بِأَصَابِعِهَا هَكَذا- يَعْنِي أَرْبَعَةَ أَشْهُرَ. وَهُنَا صَارَتْ قَانُوناً بِأَنَّ المجَاهِدَ لا يَغِيبُ عَنْ بَيْتِهِ وَأَهْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهَرٍ أَو سِتَّةِ أَشْهُرٍ كَمَا فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى.

(١) الدَّواوِينُ عِنْدَنَا فِي الكُوَيْتِ فِي السَّابِقِ مُلْتَقًى لِتَبَادُلِ الخِبْرَاتِ وَالتَجَارِبِ، وَلَكِن اليَومَ بَدَأَتْ تَفْقِدُ دَوْرَهَا الثَّقَافِيَّ وَالفِكْرِيَّ وَالاجْتِمَاعِيَّ، وَأَصْبَحَتْ مَكَاناً لِقَتْلِ الوَقْتِ وقَدْ يَتَرَتَّبُ عَلَى الإِكْثَارِ مِنْهَا ضَيَاعُ حُقُوقِ البَيْتِ وَتَرْبِيَةِ الأَوْلادِ.

(٢) مِثْلَمَا نَسْتَفِيدُ مِنْ تَجَارِبِ الأَشْخَاصِ فَلْنَنْهَضْ بِبُلْدانِنَا بِالاسْتِفَادَةِ مِنْ تَجَارِبِ الأُمَمِ، فَالحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ.

(٣) إِنَّ التَّجَارِبَ تَخْتَصِرُ وَقْتَ التَّعَلُّمِ عِنْدَ الإِنْسَانِ، فَلْيَسْتَفِد الصِّغَارُ مِنْ تَجَارِبِ الكِبَارِ، الابْنُ مِنْ أَبِيهِ، وَالفَتَاةُ مِنْ أُمِّهَا، وَالتِّلْمِيذُ مِنْ مُعَلِّمِهِ، وَالمُوَظَّفُ مِنْ مُدِيرِهِ.

(٤) الأَمْثَالُ قَدْ تَكُونُ اخْتِصَارَ تَجَارِب وَحِكمٍ كَثِيرَةٍ، فَلابُدَّ مِن الانْتِبَاهِ إِلَيْهَا. **(اسْأَلْ مُجَرِبَ وَلا تَسْأَلْ طَبِيب).**

الحلقة (١٤)

تحطه على الجرح يبرى

نَقُولُ فِي الـمَثَلِ الكُويْتِيِّ: (**تحَطَّه عَلَى الجرْح يِبْرى**).

وَهَذَا مَثَلٌ أَوْ صِفَةٌ مِنْ أَرْوَعِ الصِّفَاتِ، فما أَجمَلَ أَنْ يوصَفَ إِنْسَانٌ بِأَنَّـهُ دَوَاءٌ لِلجِرَاحِ.

فَمُهِمَّةُ الإِصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ مُهِمَّةٌ عَظِيمَةٌ، لِأَنَّهَا مُهِمَّةُ الكِبَارِ مِـن النَّـاسِ، فَفِي حَدِيثِ مُسْلِم قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا تحَقِرَنَّ مِنَ المعْرُوفِ شَـيْئاً، وَلَـو أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»(١).

فَهَذَا الَّذِي يَكُونُ كَالبَلْسَمِ الَّذِي يُدَاوى بِـهِ جِـرَاحُ النَّـاسِ وَيُـدَارِي بِهِـم عُيُوبَهُمْ مِنَ النَّاسِ الـمَحْبُوبِينَ لما يَقُومُونَ بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَإِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ كَـمَا قَـالَ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(٢)، فَرُؤْيَةُ مِثْـلِ هَـؤُلاء الأَخْيـارِ تُـذَكِّرُكَ بِالجَنَّـةِ لِبَـشَاشَةِ وُجُوهِهِم وَحَلاوَةِ كَلامِهِم وَطِيبِ مَعْشَرِهِمْ وَصَفَاءِ وُدِّهِمْ.

فَهَؤُلاءِ النَّاس شِعَارُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾(٣).

وَهَذَا يَتَطَلَّبُ كَثِيراً مِنْ سعَةِ البَالِ وَهُدُوءِ النَّفْسِ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَى النَّاسِ، فَالَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَـيْرٌ مِـن الَّـذِي لا يُخَـالِطُ النَّـاسَ وَلا يَصْبرُ عَلَى أَذَاهُمْ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) عن أبي ذر ﷺ.

(٢) النساء: ١١٤.

(٣) هود: ٨٨.

فَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ إِذَا جَاءَتْ مِنْ قَلْبٍ مُحِبٍّ وَوَقَعَتْ فِي أَرْضٍ طَيِّبَةٍ أَنْبَتَتْ نَبَاتاً حَسَناً، وَكَانَ لِطَعْمِهَا مَذَاقٌ حُلْوٌ مِنْ حُسْنِ العِشْرَةِ وَطِيبِ التَّعَامُلِ. وهذا المحب نقول عنه: (مع حسها).

وَهَا هُوَ رَسُولُنَا الكَرِيمُ ﷺ يَكُونُ فِي حَاجَةِ النَّاسِ فيعَطُفُ عَلَى صَغِيرِهِم، ويُعِينُ ضَعِيفَهُم، وَيُسَاعِدُ كَبِيرَهُم، هَمُّهُ صَلاحُ أُمَّتِهِ، فَهُوَ الحَبِيبُ وَهُوَ الطَّبِيبُ، وَلِذَلِكَ نَرى أَنَّهُ عِنْدمَا اسْتُخْلِفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ وَطَلَبَ النُّصْحَ، قَالَ لَهُ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ الله: (اجْعَلْ النَّاسَ أَباً وَأَخاً وَابْناً، فَبرَّ أَبَاكَ، وَاحْفَظْ أَخَاكَ، وَارْحَم ابْنَكَ).

فِللَّهِ دُرُّ مُجْتَمَعٍ فِيهِ النَّاسُ إِمَّا أَبٌ أَو أُمٌّ أَو أَخٌ أَو أُخْتٌ أَو ابْنٌ أَوْ ابْنَةٌ.. كَمَا قَالَ أَهْلُ المَثَلِ: (اندب رجال ولا تندب مال)، وَلَوْ فَتَّشْنَا فِي يَومِيَّاتِنَا وَمِنْ حَوْلِنَا، لَوَجَدْنَا أُنَاساً هَذِهِ صِفَاتُهُم، تَجِدُهُم هَيِّنِينَ لَيِنِينَ، مُجَرَّدُ وُجُودهم يُضْفِي جَواً مِن السَّكِينَةِ وَالاسْتِقْرَارِ.

كَمَا أَنَّهُ فِي المُقَابِلِ هُنَاكَ شَخْصٌ آخَرُ يَصَاحِبُهُ شَيْطَان، فَكَأَنَّهُ زَيْتٌ يُصَبُّ عَلَى نَارٍ، مَا إِنْ يُوجَد فِي مَكَانٍ حَتَّى يُثِيرَ الضَّغَائِنَ وَيَنْشُرَ الحِقْدَ بَينَ الحَاضِرِينَ. وَهَذِهِ رِفْقَتُهُ تَابِعَةٌ لِلمَصْلَحَةِ، وَهُنَا يَقُولُ أَهْلُ المَثَلِ: (من صادقك على شيء عاداك على فقده).

وَلَدَيْنَا مَوقِفَانِ مِن السِّيرَةِ أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى النَّمُوذَجِ الأَوَّلِ الَّذِي نَحُطُّهُ عَلَى الجرْحِ وَيَطِيبُ كَمَا نَقُولُ، والآخَرُ الَّذِي لا يُثِيرُ إلا الضَّغَائِنَ.

بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ - صَلَواتُ الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحَابَتِهِ أَجْمَعِينَ- اجْتَمَعَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ مِن المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ فِي سَقِيفَةِ بَنِي ساعِدَةَ لِيَتَّفِقُوا عَلَى منَ سَيَخْلُفُ النَّبِيَّ ﷺ، فقَالَ الأَنْصارُنحَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ، وَقَالَ المهَاجِرونَ:

بل نحن أحق بذلك، وَقَالَ بَعْضُهُم: مِنَ الأَنْصَارِ أَمِيرٌ وَمِنَ الـمُهَاجِرِينَ أَمِيرٌ، وَعَلا صَوتُ النَّاسِ، وَكَادَتِ الفِتْنَةُ أَنْ تَفْتِكَ بِهِم جَمِيعاً، وَهُنَا جَاءَ دَوْرُ بَلْسَمِ الـجِرَاحِ، وَمُسَكِّنِ الآلَامِ، كَانَ بَيْنَ الـحَاضِرِينَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْن عَوف، وَهُوَ مِنَ الـمُبَشَّرِينَ بِالـجَنَّةِ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار... لَقَدْ كُنْتُم أَوَّلَ مَنْ نَصَرَ وَآزَرَ، فَلا تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ. وَحَقاً (حر ولا توصيه).

قَال الرَّاوِي: وَكَانَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ كَفِيلَةً بِأَنْ تَنْزِعَ فَتِيلَ الفِتْنَةِ وَتحرِقَ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَا هِيَ إلاقائق وَهَدَأَ الـجَمِيعُ، واتَّفَقُوا جَمِيعاً عَلى مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِيقِ رضي الله عنه.

أَمَّا الـمَوْقِفُ الثَّانِي: فَكَانَ بَعْدَ حَادِثِ الهِجْرَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ الهِجْرَةِ أَصْلَحَ بَيْنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا حَرْبٌ طَوِيلَةُ الأَمَدِ.

وَذَاتَ يَوْمٍ مَرَّ أَحَدُ اليَهُودِ عَلَى جَمْعٍ مِن المسْلِمِينَ مِن الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، فَسَاءَهُ وُجُودُهُم مُجْتَمِعِينَ يَداً وَاحِدَةً، فَهَدَاهُ فِكْرُهُ الشَّيْطَانِي إِلَى حِيلَةٍ، وَهِيَ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِم أَحَداً مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَجَلَسَ بَيْنَهُم، وَأَخَذَ يُذَكِّرُهُمْ بِمَا كَانَ بِيْنَهُم مِنْ قَبْلُ، أَي يومَ بُعَاث، وَهُنَا حَمِيتْ النفُوسُ، وَعَلَت الأَصْواتُ، وَتَنَادَى النَّاسُ وَحَمَلُوا السلاحَ، فَلما أُخْبِرَ النبيُّ ﷺ أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: «**أَتَفْعَلُونَ هَذَا وَأَنَا بَيْنَ ظَهْرَانيكُمْ، دَعُوهَا فَإِنهَا مُنْتِنَةٌ**»(١).

وَهَكَذَا، فَإِنَّ عَلَى الـمُصْلِحِ الذَّي يدُاَرِي جراحَ النَّاس أنَ يعطِفَ عَلَيْهِمْ وَيُرَاعِي ضَعْفَهُمْ، ويُفَرِّجَ كَرْبَهُمْ، وَيُعِينَهُمْ عَلَى الخَيْرِ؛ فَهُمْ أَهْلُ المُروءاتِ وَهُمْ أَهْلُ الطِّيبِ.

وَلَدَيْنَا فِي الكُوَيْتِ- بِحَمْدِ الله وَفَضْلِهِ- أَبْوابٌ وَاسِعَةٌ مَفْتُوحَةٌ لِلخَيْرِ،

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١١- ٢١٤)، ط/ دار الفكر.

وَجَبْرِ قُلُوبِ النَّاسِ الـمُنْكَسِرَةِ؛ سَوَاءٌ مُؤَسَّسَاتٌ رَسْمِيَّةٌ أَوْ لِجَانٌ شَعْبِيَّةٌ، كَمَا لَدَيْنَا رجالٌ كِبَار، كُلُّ هَمِّهِمْ أَنْ تَسِيرَ سَفِينَةُ الدِيرَةِ نَحْوَ بَرِّ الأَمَانِ.

فَالـحَمْدُ لله الَّذِي رَزَقَنَا هَذِهِ الفِئَةَ مِن النَّاسِ الَّتِي تَرْتَاحُ النُّفُوسُ لِرُؤْيَتِهَا، وَتَهْوَى القُلُوبُ لِلأُنْسِ بهَا، فَأَهْلُ الإِصْلاحِ مَعْرُوفون، وَكَمَا قِيلَ: (الخيل تعرف ركابها).

سَعَادَتُكُمْ بِوجُودِ الزَّوْجَةِ المَوَافِقَةِ وَالوَلَدِ الصَّالحِ والصَّدِيقِ الوَفِيِّ الوَدُودِ، فهَؤُلاءِ هُم الَّذِينَ تَضَعُهْم عَلَى الجرْح يطيب، فَإِذَا طَابَ المَسْكَنُ، وَصَلُحَ الوَلَدُ، وَكَانَ الودُّ وَالوَفَاءُ فِي دَاخِلِ خارِجِ البيتْ لِم يَتبَقَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلا نَعِيمُ الـجَنَّةِ، وَمَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلصَّالـحِينَ.

السَّابِقونَ مِنْ أَهْلِكُمْ يَقُولُونَ:

- الرَّفِيقُ قَبْلَ الطَّرِيقِ .
- وَالدِّرْهَمُ كَالـمَرْهَمِ.
- وَمَنْ صَادَقَكَ عَلَى شيء عَادَاكَ عَلَى فَقْدِهِ.

صَحِيح.. أَهَل المثَل اخْتَصَرُوا عَلَيْنَا الحدِيثَ (تحُطُّهُ الجرْحِ يَطِيبُ).

اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا تَكَرَّمْتَ وَتَفَضَّلْتَ به عَلَيْنَا مِنْ وَلَدٍ صَالِحٍ وَزَوْجَةٍ مُوافِقَةٍ وَصَدِيقٍ وَفِيٍّ، هُمْ مِنْ عَاجِلِ بُشْرَانَا، وَادَّخِرْ لَنَا الرِّضَا وَالرَّحْمَةَ حِينَ لُقْيَانَا عِنْدَ حَوْضِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَفِي ظِلِّ عَرْشِكَ يَا رَحْمَنُ.

الحلقة (١٥)

مال عمك ما يهمك

نَقُولُ فِي الـمَثَلِ الـمَشْهُورِ: **(مال عمَّك ما يهمّكَ).**

وَهَذَا الـمَثَل يُضْرَبُ فِيمَنْ لا يُحَافِظُ عَلَى مَا أؤتُمِنَ عَلَيْهِ، وَهُنَاكَ صِيغَةٌ أُخْرَى تَقُولُ: (جسم مو جسمَك جره على الشّوك)، وَحِفْظُ الأَمَانَاتِ شَيْءٌ فِي غَايَةِ الأَهَمِيةِ، وَعَلامَةُ إِيمَانٍ قَوِيةٌ.

قَالَ الله -تَعَالَى- فِي سُورَةِ المؤْمِنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[(١)]، ثُمَ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[(٢)].

ولِلإِسْلَامِ مَفْهُومٌ لِلأَمَانَةِ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ اتِّفَاقٍ بَيْنَ شَخْصَينِ عَلَى صِيَانَةِ شَيْءٍ مُعَيَّنٍ أَو حِمَايَتِهِ..؟! بَلْ الـحَيَاةُ كُلُّهَا بِمَا فِيهَا بِالنسْبَةِ لِلمُسْلِمِ أَمَانَةٌ مِن الأَمَانَاتِ، وَهُو مُطَالَبٌ بِأَنْ يُرَاعِيَ اللهَ -تَعَالَى- فِيهَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[(٣)].

وَمِنْ هُنَا فَبَيْتُكَ أَمَانَةٌ، وَأَهْلُكَ وَأَوْلَادُكَ وَعَمَلُكَ وَوَظِيفَتُكَ، كُلُّ هَذِهِ أَمَانَات، وَعَلَى الوَاحِدِ أَنْ يُرَاعِيَ اللهَ - تَعَالَى - فِيهَا.

وَفِي الـحَدِيثِ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالـمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخادِمُ فِي مَالِ سيده رَاعٍ**

(١) المؤمنون: ١، ٢.
(٢) المؤمنون: ٨.
(٣) الأحزاب: ٧٢.

وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[١].

فَالـمَسْؤُولِيَّةُ وَاسِعَةٌ وَشَامِلَةٌ.

(مال عمك ما يهمك) يُعَلِّمُ السَّلْبِيَّةَ وَالأَنَانِيَّةَ، وَهَذَا لاشَكَّ مُخَالِفٌ لما عَلَيْهِ مَنْهَجُ الإِسْلامِ، فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي الـحَدِيثِ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[٢].

فَشَرطُ الإِيمَانِ مُتَعَلِّقٌ بِأَنْ يُحِبَّ الوَاحِدُ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ. وَكَلِمَةُ أَخِيهِ هُنَا وَاسِعَةُ الدَّلالَةِ، وَلَيْسَتْ قَاصِرَةً عَلَى أُخُوَّةِ النَّسَبِ، بَلْ مُتَعَلِّقَةٌ بِأُخُوَّةِ الإِسلامِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ رَابِطَةٍ بَيْنَ الـمُسْلِمِينَ.

وَمِنْ الـمَوَاقِفِ الـجَمِيلَةِ الَّتِي يَتَجَلَّى فِيهَا مَعْنَى(**حبَّ لأَخِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**) مَا حَكَاهُ لِي أَحَدُ الأَشْخَاصِ أَنَّ تَاجِراً لِلتَّمْرِ اتَّصَلَ بِهِ صَدِيقُهُ لِكَي يشتَرِي مِنْهُ تَمْراً، فَاتَّفَقَا عَلَى السِّعْرِ، لَكِنَّ الـمُشْتَرِي لَمْ يَدْفَعْ بَعْدُ وَلَمْ يَرَ التَّمْرَ، وَلَكِنْ تَمَّتْ صِيغَةُ الإِيجَابِ وَالقَبُولِ، فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي اتِّصَالٍ هَاتِفِيٍّ، وَبَعْدَ فترَةٍ اتَّصَلَ التَّاجِرُ بصَدِيقِهِ، وَقَالَ لَهُ: لَقَدْ زَادَ سِعْرُ التَّمْرِ إِلَى الـضِّعْفِ، وَقَدْ بَعَثْتُ لَكَ الـمُشتَرَيْتَهُ أَنْتَ مِنِّي بِالـسِّعْرِ الَّـذِي تَـمَّ الاتِّفَاقُ عَلَيْهِ، فَتَعَجَّبَ الصَّدِيقُ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَتِم نَقْلُ البِضَاعَةِ، وَلَمْ يُدْفَع الثَّمَنُ أَوْ حَتَّى العُرْبُونَ، فَالأَمْرُ إِلَى السَّوم أَقْرَبُ مِنْهُ لِلبَيْعِ.

لَكِنَّهَا أَمَانَةُ التَّاجِرُ، الَّذي اعْتَبَرَ أَنَّ الكَلِمَةَ هِيَ العَقْدُ وَهِيَ قَبْضُ الـثَّمَنِ، واعْتَبَرَ ذَلِكَ أَمَانَةً وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْعَي تِلْكَ الأَمَانَةِ؛ (وَقِصَّةُ بَيْعِ الكبرِيتِ قبلَ الـحَربِ العَالميةِ الثَّانِيَةِ يُمْكِنُ الـحُصُولُ عَلَى تَفْصِيلِهَا مِن العَمِّ حمود الـجسار فِي دِيوانِهِ، فَهِيَ عَجِيبَةٌ وَمَرْوِيةٌ بِالسَّنَدِ وَالأَشْخَاصِ).

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) عن ابن عمر – رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (١٧٩) عن أنس بن مالك ﷺ.

وَمِنْ أَهَمِّ مجَالاتِ حِفْظِ الأَمَانَاتِ وَرِعَايَةِ المصَالِح حِفْظُ وَرِعَايَةُ المَالِ العَام الَّذِي هُو مِلْكٌ لِلجَمِيعِ، وَلِذَلِكَ نَقُولُ: هُوَ مَالٌ عَامٌّ.

فَالدَّولَةُ وَإِنْ كَانَتْ هِيَ المَسْؤُولَةُ الأُولَى، فَالشَّعْبُ بِكُلِّ أَفْرَادِهِ- أَيْضاً- مَسْؤُولٌ، لا فِي المَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ، بَلْ أَيْضاً فِي المَرْتَبَةِ الأُولَى، وَلا شَكَّ أَنَّ الوَاحِدَ مِنَّا حِينَمَا يُسَافِرُ فِي سَفَرِ الصَّيْفِ أَوْ فِي أَيِّ وَقْتٍ إِلَى دُوَلِ أُورُوبا أَوْ غَيْرِهَا يَتَفَاجَأُ بِحِرْصِ النَّاسِ عَلى المالِ العَام، وعَلَى صِيَانَةِ وَجَمَالِ شَوَارِعِهِم، وَيُفَاجَأُ بِالحِرْصِ الشَّعْبِيِّ العَامِّ وَثَقَافَةِ الاسْتِهْلَاكِ الجَمِيلَةِ التي يَتَّبِعُهَا هَؤلاءِ، مَعَ أَنَّ الدَّافِعَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ لَيْسَ بِدِينٍ وَلا بِقَانُونٍ، بَلْ هُوَ ذَوْقٌ عَامٌّ تَرَاهُمْ يحتَرِمُونَ المَالَ العَامَّ؛ لِأَنَّهُ مَالهُمْ؛ فلاَ إِسرَافَ وَلا تَبْذِيرَ.

فَمَا بَالُنَا نَحْنُ وَدِينُنَا يَأْمُرُنَا بِحُسْنِ الرِّعَايَةِ، وَبِحُسْنِ صِيَانَةِ المَالِ العَامِّ، وبِحَسُنْ الاستهْلاك والترشِيدِ، بِلا إِسْرَافٍ وَلا تَبْذِيرٍ. البَعْضُ قَدْ يَقُولُ: وَالله فِي بَيْتِي أَنَا حَرِيصٌ عَلَى أَنْ أُحْسِنَ اسْتِخْدَامَ مَوَارِدِ الدَّوْلَةِ مِثْلَ الكَهْرَبَاءِ وَالمَاءِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِن الخِدْمَاتِ، وَلَكِنَّنِي أَرَى النَّاسَ تُسِيءُ الاستخدام، وَهُنا نَقُولُ لِهَذَا الشَّخْصِ: إِنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَنْهَجًا فِي هَذَا فَهُو يَقُولُ فِي الحدِيثِ: «**لا تَكُونُوا إِمَّعَةً؛ تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاؤوا فَلا تَظْلِمُوا**»(١).

فَوَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ دَائِماً عَلَى الخَيْر.. فَمِن المحْزِن أَنَّ مُعَدَّلاتِ سُوءِ الاسْتِخْدَامِ لِمُمْتَلَكَاتِ الدَّوْلَةِ أَوْ المَالِ العَامِّ عَالِيَة جِداً فِي دُوَلِنَا العَرَبِيَّةِ الإِسْلَامِيَةِ، فَهَلْ هَذَا مَقْبُولٌ؟

وَهَلْ مَقْبُولٌ أَنْ تُطَالِعَنَا الجَرَائِدُ أَوْ الأَخْبَارُ بِأَنَّ فُلاناً اخْتَلَسَ مِن المَالِ العَامِ أَوْ فُلاناً أَسَاءَ اسْتِخْدَامَ المَالِ العَامِّ فِي مَصَالِحَ شَخْصِيَّةٍ؟

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٧) عن حذيفة ﷺ، وضعفه الألباني.

وَلِلأَسَفِ الشَّدِيدِ فَهَذِهِ الأَخْبَارُ صَارَتْ عَادِيةً جِداً، وَصَارَ سَمَاعُهَا مَأْلُوفاً، فهلَ هذَا يَليقُ بِنَا؟!

وَهُنَا لَنَا وَقْفَةٌ فِي هَذِهِ الـمَقُولَةِ: (مال عمك لا يهمك) وَهِيَ الشَّرْطُ الرَّابعُ فِي التَّوْبَةِ؛ فَحِينَمَا يَكُونُ الذَّنْبُ مُتَعَلِّقاً بِالآخَرِينَ فِي مَظْلَمَةٍ مَالِيَّةٍ أَوْ اجْتِمَاعِيَّةٍ أَوْ نَفْسِيَّةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَلابُدَّ مِن التَّوْبَةِ مِنْه، وَقَدْ جَاءَ عَن النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ فِي دَمٍ أَوْ مَالٍ فَلْيَتَحَلَّلْها اليوم قَبْلَ أَنْ يَأْتِي يَومٌ لَيْسَ فِيهِ دِرْهَمٌ وَلا دِينَارٌ، إلا الحسَنَات وَالسَيئات**»[1]؛ لأَنَّ الذَّنْبَ فِي حُقُوقِ الآخَرِينَ تَعَدٍّ عَلَى الـمُجْتَمَعِ، فَلا يُسْقَطُ إلا فِي إِحْلالِهِ مِنْهُ وَإِبْرَائِهِ، فِي مَذْهب الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ يُشْتَرَطُ الإِعْلامُ وَالتَحَلُّلُ، وَقَولٌ لِشَيْخِ الإِسْلامِ بِأَنْ يَذْكُرَ المغْتَابَ وَالمقْذُوفَ فِي مَواضِع غيبَتِهِ وَقَذْفِهِ بِضِدِّ مَا ذَكَرَهُ بِهِ مِن الغيبَةِ، فَيُبَدِّلَ غيبَتَهُ بِمَدْحِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَذِكْرِ محَاسِنِهِ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ بِقَدْرِ مَا اغْتَابَهُ. أَما ما يتعَلَّقُ بِالحُقُوقِ المَالِيَّةِ وَجِنَايَاتِ الأَبْدَانِ فَالأَمْرُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بِإِرْجَاعِهَا إِلَى أَصْحَابِهَا.

والخلاصة:

١- وَصَفٌ جَمِيلٌ مِنْ كَلامِ النبي ﷺ هو قوله: «**مَثَلُ المؤْمِنِينَ فِي تَوادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وتعاطفهم كمَثَلِ الجَسَدِ الواحد إِذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى**»[2].

٢- حُبُّ الوَطَنِ لَيْسَ مُجَرَّدَ شِعَارَاتٍ، بَلْ حُقُوقٌ وَوَاجِبَاتٌ.

٣- غَيْرُ لَطِيفٍ أَنْ تُخَطِّطَ الدَّوْلَةُ لِلأَجْيَالِ القَادِمَةِ، بَيْنَمَا الجِيلُ الحَالِيُّ يسَتَنْزِفُ مَوارِدَ الدَّوْلَةِ بِسُوءِ تَعَامُلِهِ مَعَ المَالِ العَامِّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٤)، والترمذي (٢٤١٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير – رضي الله عنهما.

٤- للْصَبِ تكْليفٌ لا تشَرْيفٌ، وَوَاجِبٌ مَطْلُوبٌ، لا بَقَرَةٌ حَلُوب.

٥- عَلَى الدَّوْلَةِ أَنْ تَضَعَ مِن القَوَانِينِ مَا يَحْفَظُ أَمْوَالَ الدَّوْلَةِ، وَتُحسِنَتَطْبِيْقَ العُقُوبَاتِ؛ لأَنَّ الإِهْمَالَ وَالمالَ السَّايِبَ يُعَلِّمُ عَلَى السَرِقَةِ. وَكَمَا قَالَ أَهْلُ المَثَلِ: (احْفَظْ دَارَكَ وَلا تَتَّهِمْ جارَكَ)، مَعَ أَنَّ الدَّوْلَةَ أَمَّنَتْ كُلَّ فَرْد عَلَى المَالِ العَامِّ، وَكَمَا قِيلَ: (مَنْ أَمَّنَكَ مَا خَوَّنَكَ).

٦- تَرْبِيَةُ الوَازِعِ الدَّاخِلِيِّ فِي نَفْسِ المُوَاطِنِ مِنْ أَهَمِّ الأَسْبَابِ المُسَاعِدَةِ عَلَى حِفْظِ أَمْوَالِ الدَّوْلَةِ.

الحلقة (١٦)

أكبر منك بيوم أعرف عنك بسنة

نَقُولُ فِي الـمَثَلِ: (**أكبر منك بيوم أعرف عنك بسنة**).

وَهَذَا الـمَثَل لا يَعْنِي التَّقْلِيلَ مِنْ قِيمَةِ الصَّغِيرِ، لَكِنَّهُ يَعْنِي احْتِرَامَ وَتَقْـدِيرَ الكَبِيرِ.

لأَنَّ الـحَيَاةَ مَدْرَسَةٌ تُعَلِّمُ الآدَابَ وَالأَخْلَاقَ؛ إما حَسَنَها، وَإِما سَيِّئَهَا.

وكَمْ مِنْ أُنَاسٍ لم يَعْرَفُوا طرِيقَ الـمَدَارِسِ أَو الجامِعَاتِ، لَكِنَّ عُقُولَهُمْ تَزِنُ عُقُولاً عَظِيمَةً، أَو كَمَا يَقُولُونَ: (عقلهُ يوزن بلَد)؛ لأَنَّـهُ تَعَلَّـمَ مِـنْ مُعَانَاتِـهِ فِي الـحَيَاةِ، كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الطِّيبِ: (كُلُّ طَراق بِتعلومَة).

واعْلَمُوا أَنَّ شَرِيعَةَ الإِسْلَامِ جَاءَتْ بِمَا يُقَوِّي الرَّوَابِطَ وَالأَوَاصِرَ بَيْنَ أَفْرَادِ الـمُجْتَمَعِ؛ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ، بيْنَ الغَنِيِّ وَالفَقِيرِ، بَينَ العَالِمِ والجاهلِ، حَتَّى يَكُونَ الـمُجْتَمَعُ الـمُسْلِمُ مُجْتَمَعاً قَوِياً مُتَمَاسِكاً وَأُمَّـةً وَاحِـدَةً لا تَتَفَـرَّقُ، كُـلُّ واحَدٍ فِيها يَعلَمُ مَا لَه مِنْ حَقٍّ وَمَا عَلَيْهِ مِـنْ وَاجِـبٍ، فَيَقُـوم بِواجِبِـهِ قَبْـلَ أَنْ يَطْلُبَ حَقَّهُ، واحْتِرَامُ الكَبِيرِ وَتَـوقِيرُهُ- حَتَّـى لَـوْ لَمْ يَكُـنْ صَـاحِبَ خِـبْرَةٍ أَوْ تَجَارِبَ- فَإِنَّهُ دَيْنٌ، فَمَنْ عَقَّ الكَبِيرَ عَقَّهُ الصِّغَارُ يَومَ كِبَرِهِ، وَمَنْ أَكْـرَمَ الكَبِـيرَ أَكرَمَهُ النَّاسُ فِي كِبَرِهِ.

وَلِهَذَا يَقُول النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُكْـرِمُ ذَا شَـيْبَةٍ إِلا قَـيَّضَ اللهُ لَـهُ مَـنْ يُكْرِمُهُ فِي سِنِّهِ**»(١).

فَإِذَا أَكْرَمْتَ ذَا الكِبَرِ لِسِنِّهِ قَيَّضَ اللهُ لَكَ فِي حَياتِكَ مَنْ يُجَازِيكَ بِمِثْـلِ مَـا عَمِلْتَ، فَيُكْرِمُكَ وَيُحْسِنُ إِلَيْكَ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٢٢) بنحوه، وضعفه الألباني.

وَالأَيامُ دُوَلٌ.. قَالَ اللهُ - تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(١).

بَلْ إِنَّ إِكْرَامَ الكَبِيرِ وَتَوْقِيرَهُ وَاحْتِرَامَهُ هُوَ مِنْ تَعْظِيمِنَا لِرَبِنا وَإِجْلالِنَا لَهُ؛ وَلِهَذا يُخْبِرُنَا النَّبِيُّ ﷺ فيَقُولُ: «**إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللهِ - تَعَالَى - إِكْرَامَ ذِي الشيبَةِ مِن الـمُسْلِمِينَ، وَحَامِل القُرْآنِ غَيْرَ الغَالي فِيهِ وَالجافِي عَنْهُ وَذي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ**»(٢).

فَمِنْ إِجْلالِ الله احْتِرَامُ وَإِكْرَامُ هَؤُلاءِ الثَّلاثَةِ: ذي الشيبَةِ، والحامِل لكِتَابِ الله تَعَالَى، وَذِي السُلْطَانِ، الـمُقْسِطِ بَيْنَ النَّاسِ.

ثُمَّ إِنَّ إِكْرَامَنَا مَعْنَاهُ اسْتِفَادَتُنَا مِنْ تَجَارِبِهِمْ وَخِبْرَاتِهِمْ فِي الحَياةِ، وَالـمَرْءُ مِنْ يَوْمِ أَنْ خَلَقَهُ اللهُ وَذِهْنُهُ يَسْتَقْبِلُ التَّجَارِبَ وَالأَحْدَاثَ وَالـمَوَاقِفَ وَالدُّرُوسَ، وَلِذَلِكَ قَالُوا:

(مَنْ يَعِشْ طَوِيلاً يَرَ كَثِيرا) وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ.

وَلَقَدْ تَرَبَّيْنَا عَلَى أَنْ لِلكِبَرِ آراءَ ومَوَاقِفَ تَنمُّ عَنْ خِبْرَةٍ فِي الحَيَاةِ تَكُونُ أَحْيَاناً - بَلْ غَالِباً - أَمْضَى مِنْ عَزِيمَةِ الشَّبَابِ، وَلِهَذا تَقُولُ عِنْدَ إِشَارَةِ الكَبِيرِ: (شُورِك وَهِدَاية الله).

وَبِرَأْيِ الشَّيخِ وَعَزِيمَةِ الشَّابِ تَتَكَامَلُ مَنْظُومَةُ العَطَاءِ، وَبِاحْتِرَامِ الكَبِيرِ وَتَوقِيرِ الصَغِيرِ، يَتَمَاسَكُ الـمُجْتَمَعُ؛ خَاصَّةً لَوْ كَانَ الكَبِيرُ مِن العُلَمَاءِ.

يَقُولُ الرَّبِيعُ - وَهُوَ مِنْ تَلامِذَةِ الإِمَامِ الشَّافِعِي: مَا اجْتَرَأْتُ أَنْ أَشْرَبَ الـمَاءَ وَالشَّافِعِيُّ يَنْظُرُ إِلَيَّ هَيْبَةً لَهُ.

وَعَنْ طَاووسَ بْنِ كِيسَانَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مِن السُّنَّةِ أَنْ يُوَقَّرَ أَرْبَعَةٌ: العَالِم، وَذُو الشيبَةِ، وَالسُّلْطَانُ، وَالوَالِدُ. وَمِنَ الجَفَاءِ أَنْ يَدْعُو الرَّجُلُ وَالِدَهُ بِاسْمِهِ.

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٤٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وحسنه الألباني.

وَفِي الحَدِيثِ يَقُولُ النبيُّ ﷺ: «**وَهَلْ تُنْصَرُونَ وترزقون إلا بِضُعَفَائِكُمْ**»[١] ومما يُرْوَى: «**لَوْلَا شيوخٌ رُكَّعٌ وَأَطْفَالٌ رُضَّعٌ وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ لَصُبَّ عَلَيْكُمُ العَذَابُ صَباً**»[٢].

فِي أُورُوبا يَعْتَبِرُونَ العَجَائِزَ عَالَةً عَلَى الـمُجْتَمَعِ، وَأَنَّهُمْ اليَدُ الـمُسْتَهْلِكَةُ لا اليَدُ العَامِلَةُ، لَكِنَّ الإِسْلامَ يَعْتَبِرُ أَنَّ الكِبَارَ هُمْ الـمُوَجِّهُ الرَّئِيسي لِدَفَّةِ الإنتاج، فَلَوْلَا قُوَّةُ الشَّبَابِ وَحِكْمَةُ الشيوخِ لما كَانَ هُنَاكَ إِنْتَاجٌ.

ثُمَّ إِنَّ احْتِرامَ الكَبِيرِ مَعْنَاهُ تَواصُلُ الأَجْيَالِ، وَانْتِقَالُ الخِبْرَاتِ وَالتَّجَارِبِ.

وَلا شَكَّ أَنَّ قَضِيَّةَ تَواصُلِ الأَجْيالِ قَضِيَّةٌ مُهِمَّةٌ، فَهِيَ لَيْسَتْ تَواصلاً عُمْرِياً، بَلْ تَواصُلُ قِيَمٍ وَعَادَاتٍ وَسُلُوكِيَاتٍ وَتَقَالِيدَ وَموروثاتٍ بُنِيَ عَلَى أَسَاسِهَا الـمُجْتَمَعُ.

وَكَفَى الـمُجْتَمَعُ انْفِصَالَ الأَجْيَالِ بِفَهْمِهَا وَتَقَالِيدِهَا بَعْضها عَنْ بَعْضٍ، حَتَّى صَارَتْ هُنَاكَ مُصْطَلَحَاتٌ خَاصَّةٌ بِالشَّبَابِ ومُصْطَلَحَاتٌ خَاصَّةٌ بِالشُّيَّابِ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا مَقْبُولاً، لَكِنْ لَيْسَ مِن الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَتَنَكَّرَ الشَّبَابُ مِنْ الشُّيَّابِ وَمِنْ لُغَتِهِمْ وَمُصْطَلَحَاتِهِمْ، فَالقَضِيَّةُ قَضِيَّةُ تَواصُلٍ لا قَضِيَّةُ تَدَابُرٍ أَوْ تَقَاطُعٍ.

فِي ذَات يَوْمٍ مِن الأَيَّام جَلَسَ عَمرو بن العَاصِ حَولَ الكَعْبَةِ بَعْدَ الطَّوافِ فَجَلَسَ إِلَى حَلَقَةٍ مِن الكِبَارِ، وَقَدْ أَبْعَدُوا الفِتْيَانَ عَنْ مَجْلِسِهِمْ، فَقَالَ لَهُم عَمْرو: لا تَفْعَلوا... أَوْسِعُوا لَهُم (يَعْنِي الشَّبَابِ)، وَأَدْنُوهُمْ، وَأَفْهِمُوهُمْ، فَإِنَّهُم اليَوْمَ صِغَارُ قَوْمٍ يُوشِكُ أَنْ يَكُونُوا كِبَارَ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَقَدْ كُنَّا صِغَارَ قَوْمٍ فَأَصْبَحْنَا كِبَارَ آخَرِينَ. (أَهْلُ الكُوَيْتِ فِي السَّابِقِ كانوا يَأْتُونَ بِأَوْلادِهِمْ إِلَى الدِّيوانِيَّاتِ، لِكَي يَتَعَلَّمُوا الأَدَبَ وَالسُّلُوكَ وَتَعَامُلَ الرِّجَالِ وَهُمْ صِغَارٌ).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٦) عن مصعب بن سعد ﷺ.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦٦٣٣) عن أبي هريرة ﷺ، وضعفه حسين سليم أسد.

فَمَا أَحْوجَنَا لِـمُجْتَمَعٍ مُتَواصِلٍ كِبَارُهُ بِصِغَارِهِا أَحَوْجَنَا لأنِ نَرَى خلُـقُ الاحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيرِ مِن الصِّغَارِ لِلكَبَارِ سِمَةً مِنْ سِمَاتِ مُجْتَمَعِنَا.

والخلاصة:

١ - مَنْظَرٌ مُؤْلِمٌ أَنْ لا تَتَّسِعَ بُيُوتُنَا الكَبِيرَةُ لِكِبَارِ السِّنِّ، وَيَكُونُ مَصِيرُهُم دَارَ العَجَزَةِ.

٢- الكَبِيرُ بَرَكَةُ البَيْتِ، وَكَمْ كَدَّ وَتَعِبَ مِنْ أَجْلِ أَوْلادِهِ.

٣- لَيْتَنَا نَعُودُ لمفْهُومِ البَيْتِ العَوْد. (مَشْرُوعُ البَيْتِ الكَبِيرِ رَأَيْتُهُ فِي المغْرِبِ).

٤- بَعْدَ أَنْ قَصَّ القُرْآنُ عَلَيْنَا قِصةَ يَوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلامُ - قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، فَالحياةُ تَجَارِب.

٥- مَدْرَسَةُ الـحَيَاةِ وَتَرَاكُمَاتِ الأَحْدَاثِ لا تَعْدِلُـهَا مَكْتَبَةٌ عِلْمِيَّةٌ كَامِلَةٌ.

---

(١) يوسف: ١١١.

الحلقة (١٧)

عَلَى قَد لِحَافَكَ مد رِيولَك

أَهْلُ الطِّيبِ يَقُولُونَ: (**على قَد لـحَافَك مد ريُولَك**)، وَهَذَا مَثَلٌ كُويْتِيٌّ وَعَرَبِيٌّ معَرْوُفٌ؛ لِيَعْلَمَ الإِنْسَانُ كَيْفَ يَكُونُ قَانِعاً بِرِزْقِهِ، لا مُبَذِّراً وَلا مُسْرِفاً، وَيَعْلَمَ أَيْضاً أَنَّ الـمَظَاهِرَ خَدَّاعَةٌ، وَلأَنَّهَا خَدَّاعَةٌ فَقَدْ طَغَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِن النَّاسِ، حَتَّى أَصْبَحَ هَمُّهُمْ هُوَ حُبُّ المظَاهِرِ وَالكَشْخَةِ، حَتَّى وَلَو عَلَى حِسَابِ الأَسَاسِياتِ وَالأَولَوياتِ التِي لا غِنَى عَنْهَا للإِنْسَانِ، وَأَصْبَحَ الكَلامُ عَن القَنَاعَةِ وَالرِّضَا بِقَسْمِ اللهِ- تَعَالَى- بَيْنَ النَّاسِ حَدِيثاً لا يُعَبِّرُ إِلا عَنِ الـمَاضِي وَحِكَايَاتٍ تُرْوَى عَن الزَّمَنِ القَدِيمِ الذي كان أهلهُ يقولون: (الثوب اللي أطول منك يعتك).

لَمْ نَعُدْ اليَوْمَ نَقُلْ: عَلَى قَدْ لِـحَافَكْ مِد ريُولَك، وَلِكِنْ صَارَ حَالُ الكَثِيرِ مِنَّا هُوَ (اصْرف مَا فِي الـجِيب يَأْتِيكَ مَا فِي الغِيب)، وَلَوْ أَحْبَبْنَا أَنْ نُدَلِّلَ عَلَى صِحَّةِ كَلامِنَا لأَسْعَفَتْنَا الأَدِلَّةُ مِنْ هُنَا وَهُنَاك.

مَثَلاً: تَذْكُرُ الإِحْصَائِيَّاتُ أَنَّ الدُّوَلَ العَرَبِيَّةَ هِيَ الأَكْثَرُ فِي العَالَمِ لاسْتِخْدَامِ التِّقَنِيَّاتِ الحدِيثَةِ مِنَ الهَوَاتِفِ الـمحمُولَة وَالإِلكترُونيَّاتِ، وَإِنْ ذَهَبْتَ لِتُفَتِّشَ عَنْ مَدَى اسْتِفَادَتِنَا مِنْ هَـذِهِ التِّقَنِيَّةِ فَسَتَجِدهَا فِي الأَغْلَبِ الأَعَمِّ لأَجْلِ المظْهَرِيَّةِ لَيْسَ إِلا، مع أن أهل المثل يقولون: (فك إكويسك وحلِّي اخريسك)، وَمَا قَالُوا (فك اكويس غيرِك) لأَنهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ (الدين عماة عين).

وَتَرَى النَّاسَ يَنْجَرِفُونَ بِفِعْلِ غُولِ الإِعْلانَاتِ نَحْوَ الرَّفَاهِيةِ وَالمظَاهِرِ، حَتَّى إِنَّ البَعْضَ يُغَيِّرُ هَاتِفَهُ الـمَحْمُولَ كَمَا يُغَيِّرُ مَلابِسَهُ.

القنَاعةَ والكفَافُ وَالرِّضا بِقَدَرِ اللهِ- تَعَالَى- وَمَقْسُومِهِ أَصْبَحَ مِنَ السُّلوكِيَّاتِ الغَرِيبَةِ عَلَى النَّاسِ حتى فِي الأيامِ التِي هيِ مَظَنَّةُ التُّربيَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالجسَدِيَّةِ.

فِي رمضَانَ مَثلاً تذَكرُ الإحصَائيات أننا نُنفقُ فِي هَذَا الشَّهْرِ مَا يُعَادِلُ إنْفَاقنَا فِي شَهْرَينِ أَو ثَلاثَةِ شُهُورٍ، وَرُبَّما يَزْدَادُ عِنْدَ بَعْضِ الأُسَرِ.

مع أَنْ رَمَضَانَ شَهرُ التربيةِ الرُّوحِيَّةِ وَالجَسَدِيَّةِ، وهُوَ الشَّهْرُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ فِيهِ المُسْلِمُ أَمْثَلَ طُرقِ الإِنْفَاقِ فلاَ إسرافَ وَلا تَبْذِيرَ، وَمَعَ ذَلِكَ نَقُولُ فِي مَثَلِنَا الشَّعْبِيِّ: (البخل عدو المرجلة) فَهُوَ مُوَازَنَة أَهْل الطِّيبِ، فالإِنْفَاق يكون بِلا إِسْرَافٍ، وَاعْتِدَالٌ بِلا بُخْلٍ. وهَذَا الإِنْفَاقُ الزَّائِدُ عَنِ الحَدِّ إِنْ لَمْ يَمْلِكْهُ المُنفِقُ فَمِنْ أَيْنَ سَيَأْتِي بِهِ؟! لا شَكَّ أَنَّ بَابَ الدُّيُونِ أَمَامَهُ هُوَ أَوْسَعُ الأَبْوَابِ. وَهُنَا نَدْخُلُ فِي نَفَقٍ مُظْلِمٍ كَمَا يَقُولُ أَصْحَابُ المَثَلِ: (غصبٍ على البِل تركب جاريات السفُن).

حقًّا الديونُ نفقٌ تَدْخُلُهُ وأَنْتَ مُبْصِرٌ وَمُدْرِكٌ، ثُمَّ تُصْبِحُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي حَيْصَ بَيْص، وَتُصْبِحُ وَكَأَنَّكَ مُسَلْسَلٌ فِي الأَغْلالِ.

أَعْرِفُ وَاحِداً اسْتَدَانَ دَيْناً كَبِيراً مِنْ أَجْلِ شراء سيَّارةٍ فَارِهَةٍ لابْنَتِهِ فِي الجَامِعَة، صَحِيح أنَ مِنْ حقِّ ابْنَتِهِ أَنْ تَمْلِكَ سَيَّارَةً نَظِيفَةً، لَكِنْ هَل السَّيَارَةُ الفَارِهَةُ بَاهِظَةُ الثَّمَنِ هِيَ السَّبَبُ الحقِيقِيُّ وَرَاءَ النَّجَاحِ؟ وَهَل السَّيَارَةُ الثَّمِينَةُ ضَرُورَةٌ مِن الضَّرُورِيَّاتِ؟

المالُ عَطِيَّةٌ رَبَّانِيَّة، ولا بدَّ أَنْ تُنْفَقَ فِي حَقِّهَا بِلا إِسْرَافٍ وَلا تَبْذِيرٍ، فَقَدْ قَالَ الله- تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾[1]، وَقَالَ- تَعَالَى- عَنِ الاعْتِدَالِ فِي الإِسْرَافِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[2].

وَلله درّ القَائِلِ:

رُبَّ قَوْمٍ غَدُوا فِي نِعْمَةٍ زَمَناً   وَالدَّهْرُ رَيَّانٌ غَدَق

---

(١) الإسراء: ٢٧.

(٢) الإسراء: ٢٩.

سَكَـتَ الدَّهْـرُ زَمَـاناً عَنْهُمُ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دماً حِينَ نَطَق

وَيَقُولُ أَحَدُ السَّلَفِ: (مَن اقْتَصَدَ فِي الغِنَـى وَالفَقْـرِ فَقَـدْ اسْـتَعَدَّ لِنَوَائِـبِ الدَّهْرِ).

إِنَّ الدَّيْنَ وَالاقْتِرَاض لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الدَّافِعُ مِنْ أَجْلِهِ قَوِيًّا تَحْتِمُهُ الظُّرُوفُ، وليَسْ لتحِقَيْق تِحسَيْنِات أِو زَيْادِة فِي الترَفِ فِيهِ.

وَعَلَيْنَا اسْتِشْعَارُ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: «**نَفْسُ المؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ**»[1]، وَقَوْله: «**يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلاَّ الدَّينَ**»[2].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[3].

فَلِمَاذَا نُعَسِّرُ عَلى أَنْفُسِنَا، ثُمَّ نَشْكُو قِلَّةَ الـحَالِ وَضِيقِ الرِّزْقِ.

هَذَا الكَلامُ يَدْعُونَا إِلى وَقْفَةٍ مَعَ النَّفْسَ فِي هَذَا الشَّهْرِ الفَضِيلِ، نُحَـاوِلُ أَنْ نَعِيشَ فِيهِ عيشَةَ الرِّضَا بِقَدَرِ الله، وَنَتَعَوَّدَ أَنْ نَنْظُرَ إِلى الآخَرِينَ فِي أُمُورِ الآخِرَةِ لا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، فَالدُّنْيَا وَشَهَوَاتُهَا وَمَلَـذَّاتُهَا خَدَّاعَـةٌ، وَلَـيْسَ مَعْنَـى هَـذَا أَنْ نَرْفُضَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَكِنْ لا نَنْسَى أَنَّ الغَايَـةَ العُظْمَـى هِـيَ إِرْضَـاءُ الله- تَعَالَى، وَالـجَنَّةُ وَعْدُ الله- تَعَالَى - لِلصَّابِرِينَ الصَّادِقِينَ.

١- لا تُحَمِّلُوا أَنْفُسَكُمْ مَا لاتُطِيقُ.

٢- لا يُفْهَمُ خَطَأً مِن المثَلِ أَنَّ الإِنْسَانَ لا يَكُونُ لَهُ طُمُوحٌ فِي الحيَاةِ وَسَعْي لِمَعَالِي الأُمُورِ وَلَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَبْذُلَ أَسْبَابَ النَّجَاحِ وَالغِنَى، فَكَمَا قَالَ ﷺ: «**اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنْ اليَد السُّفْلَى**»[4]، وَقَالَ: «**نِعْمَ المالُ الصَّالح لِلرَّجُلِ الصَّالح**»[5].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٧٨)، وابن ماجه (٢٤١٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٦) عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما.

(٣) البقرة: ١٨٥.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٥) عن حكيم بن حزام - رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٧)، وابن حبان (٣٢١٠) عن عمرو بن العاص ﷺ، وصححه الألباني.

٣- مِن القَواعِدِ الـمُرِيحَةِ لِلنَّفْسِ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَدْنَى مِنْكَ فِي الـدُّنْيَا، فَتَسْعَدَ بِمَا أَنْتَ فِيهِ مِن الخَيْرِ، وَتَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْـكَ فِي العَمَـلِ لِلآخِـرَةِ فَتَقْتَدِي بِه، وَتَزِيدَ مِن الطَّاعَاتِ.

٤- لا تَغْفَلْ عَنْ شُكْرِ النِّعَمِ.

٥- تَرْكُ الذُّنُوبِ بَابٌ مِنْ أَبْوابِ الرِّزْقِ كَمَا فِي الأَثَـرِ: (إِنَّ الرَّجُـلَ لَيُحْـرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ الَّذِي يُصِيبُهُ).

٦- الانْتِبَاهُ إِلَى قَضِيَّةِ الإِسْراف وَالَّتِي نَبَّـهَ عَلَيْهَـا القُـرْآنُ الكَـرِيمُ كَقَـضِيةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَإِيمَانِيَّةٍ فِي قَوْلِهِ - سُبْحَانَهُ -: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[1].

٧- هُنَا مُفَارَقَةٌ فِي عَلاقَةِ الاقْتِصَادِ وَالإِسْرَاعِ فِي الإِنْفَاقِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَفِي قَضِيَةِ الآخِرَةِ يَقُولُ اللهُ - تَعَالَى - عَنْ أَصْنَافِ النَّاسِ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[2].

فَبِلا شَك أَنَّ الـسَّبْقَ بـالخَيْرَاتِ وَالإِنْفَـاقِ وَكَثْـرَةِ الطَّاعَـاتِ أَفْـضَلُ مِـن الـمُقْتَصِرِ عَلَى الفَرَائِضِ وَالوَاجِبَاتِ، فَفِي أَمْرِ الآخِرَةِ نَبْذُلُ كُلَّ مَـا نَـسْتَطِيعُ؛ فَقِصَّةُ أَبِي بَكْرٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ العُسْرَةِ عِنْدَمَا قَـالَ لَـهُ النَّبِـيُّ ﷺ: «**مَـاذَا أَبْقَيْـتَ لأَهْلِكَ؟**»[3]، قَالَ: (أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُوله)، وَقِصَّةُ عُمَرَ بْنِ عَبْـدِ العَزِيـزِ فِي إِطْفَاءِ السِّرَاجِ عِنْدَ الـحَدِيثِ عَن الأُمُورِ الخَاصَّةِ، وَدَفْعُهُ لِعُبَيدِ الله بْنِ عَبْدِ الله ابْنِ مَسْعودَ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ دِينَارٍ حِينَ اسْتِشَارَتِهِ!

(على قَد لحَافَكْ مد ريُولَك)، فالشيص بالغِبَّة حلو.

---

(١) الإسراء: ٢٧.

(٢) فاطر: ٣٢.

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الحلقة (١٨)

أقلّ ما فيها يَكْفيها

(**أَقَل مَا فِيهَا يَكْفِيهَا**): مَثَلٌ كُويتِيٌ.. بَلْ مَثَلٌ إِنْسَانِيٌ نَسْمَعُهُ يُقَالُ بِكُلِّ اللهجاتِ فَيَقُولُونَ: (التَّعَلُّلُ خَيْرٌ مِن التَذَلُّلِ)، وَيَقُولُونَ: (خَيْرُ الغِنَى القَنُوعِ وَشَرُّ الفَقْرِ الخَضُوعِ)، لَكِنَّنَا لا نَكَادُ نَرَى لَهُ صُورَةً فِي الوَاقِعِ إِلا عِنْدَ أَهْلِ الطِّيبِ الَّذِينَ يَقْنَعُونَ بِمَا رَزَقَهُم اللهُ، وَلا يَأْخُذُهُمْ مَرْكِبُ الطَّمَعِ إِلَى الغَرَقِ.

أَهْلُ الطِّيبِ.. قَدْ مَلُّوا مِن الطُرُقِ الـمُلْتَوِيَةِ التِي تُتَّبَعُ هَـذِهِ الأَيـام؛ سَـواءً عَلَى شَاشَاتِ التِّلْفَازِ أَو عَلَى مَواقِعِ الإنترنت، فَهَذا إِعْلانٌ يَقُولُ: فُرْصَة العَمَلِ التِي لَنْ تَتَكَرَّر!! وَآخَرُ يَقُولُ اشترِ دَجَاجَةً وَارْبَحْ مَزْرَعَةً!! إِلى غِيْرِ ذَلِكَ مِن السُّلُوكِيَّاتِ وَالمظَاهِرِ التِي تُرْبِكُ النَّاسَ وَتُصِيبُ قِيَمَهُم وَعَادَاتِهِم بِالخَلَلِ.

فَنَرى النَّاسَ يَتَسَابَقُونَ لا لِتَحْقِيقِ الضَّرُورِياتِ، وَلا حَتَّى الـحَاجِيات، بَلْ لِتَحْقِيقِ الكَمَالِياتِ، وَلَيْتَهُمْ يُحَقِّقُونَ شَيْئاً! وَتَنَاسَوا مَثَلَهُمْ (ثَوبُ العَارِيَة مَا يدفِي).

عَجِيبٌ أَمْرُ النَّاسِ.. يَبْحَثُونَ عَنْ سَعَادَةِ النَّفْسِ فِي غَيْرِ مَكَانِهَا.

فَسَعَادَةُ النَّفْسِ، وَرَاحَةُ البَالِ، واسْتِقْرَارُ البُيُوتِ، وَجَنْيُ الطمَأْنِينَةِ وَالسَّكِينَةِ، لَنْ يَكُونَ أَبَداً بِمُجَرَّدِ الـحِرْصِ عَلَى جَمْعِ المَال، سَواءٌ كَانَ مِنْ حَلالٍ أو حَرَامٍ، ولن يكونَ بتركِ الأَوْلَوياتِ وَالبَحْثِ عَن المرَفِّهَاتِ، لَنْ يَكُونَ إِلا فِي ظِلِّ رِضَا الإِنْسَانِ بِمَا قَسَمَهُ لَهُ الرَّحْمَنُ.

فَفِي الـحَدِيثِ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضى اللهُ لَهُ**»[١].

وَفِي الأَثَرِ: «**إِن اللهَ- تَعَالَى - أَوْحَى إِلَى دَاودَ - عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا السَّلامُ: يَا**

(١) أخرجه الترمذي (٢١٥١) عن سعد ﷺ، وضعفه الألباني.

دَاودُ إِنَّكَ لَنْ تَلْقَانِي بِعَمَلٍ هُوَ أَرْضَى لِي عَنْكَ، وَلا أَحَطُّ لِوِزْرِكَ مِنْ الرِّضَا بِقَضائِي».

وَهَذَا الحَسَنُ البَصْرِيُّ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ رَضيَ بِمَا قَسَمَ اللهُ، وَسِعَهُ وَبَارَكَ اللهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ لَمْ يَسَعْهُ وَلَمْ يُبَارِكْ لَهُ فِيهِ).

وَالعَجِيبُ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَنَّنَا نَرَى كَثِيراً مِن النَّاسِ مُتَوَهِّجِينَ.. قَلِقِينَ.. حَيَارى.. مُضْطَرِبِينَ.. يَخَافُونَ المُسْتَقْبَلَ، وَيَخَافُونَ مِنْ تَقَلُّبِ الأَحْوَالِ.. وَيَخَافُونَ مِن الفَقْرِ بَعْدَ الغِنَى، وَيَخَافُونَ مِن الذُّلِّ بَعْدَ العِزِّ، وَحَالُهُمْ كَمَا فِي المَثَلِ: (تَمُوتُ الدَّجَاجَةُ وَعَيْنُهَا فِي السُّبُوسِ)، وَنَسُوا أَنَّ ذَلِكَ كُلهُ مَقْسُومٌ وَمُقَدَّرٌ كَمَا قَالَ الله- تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1]، وَيَقُولُ ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَن الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ إِلا قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ، وَجَفَّت الصُّحُفُ**»[2].

ويقول الشَّاعِرُ الجَاهِلِيُّ لَبيد بن ربيعة:

فاقْنَعْ بِمَا قَسَم المَلِيكُ فَإِنما قَسَمَ الخلائِقَ بَيْنَنَا عَلَّامُهَا

فَالَّذِي قَسَمَ الأَرْزَاقَ عَلَى الخَلائِقِ عَلامٌ، وَلا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي السَّمَاءِ وَلا فِي الأَرْضِ، يُعْطِي هَذَا بِمِقْدَارٍ، وَيُعْطِي هَذَا بِمِقْدَارٍ آخَرَ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلعَبِيدِ.

وَلِهَذا عِنْدَمَا سُئِلَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ: مَا بَالُ رَبِّنَا - سُبْحَانَهُ - يُعْطِي فُلاناً وَيُغْدِقُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَحْرِمُ آخَرَ؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ: (يُعْطِي هَذَا وَذَاكَ فَضْلُهُ، وَيَحْرِمُ هَذَا وَذَاكَ عَدْلُهُ).

---

(١) القمر: ٤٩.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني.

وَالعَجِيبُ أَنَّ مَنْ يَسْعَى لِتَحْقِيقِ لِلَّذَاتِ قد لا يحقق الرِّضَا وَالسَّعَادَةَ، لِأَنَّ السَّعَادَةَ وَالرِّضَا - كَمَا قُلْنَا - غَيْرُ مُرْتَبِطَيْنِ بِالمَالِ، وَانْظُرُوا - مَثَلاً - إِلَى الدُّولِ صَاحِبَةِ أَعْلَى مُسْتَوى مَعِيشَةٍ فِي العَالَمِ تَجِدُوهَا أَقَلَّ مُسْتَوى لِتَحْقِيقِ الطمَأْنِينَةِ وَالسَّكِينَةِ، مما يَدْفَعُ رِجَالَهَا وَشَبَابَهَا إلى الإِقْدَامِ عَلَى الانْتِحَارِ.

إِنَّ المُتَأَمِّلَ فِي أَسْرَارِ السَّعَادَةِ وَالقَنَاعَةِ يُدْرِكُ أَنَّ السَّعِيدَ لَا يَأْكُلُ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ، وَلا يَشْرَبُ أَكْثَرَ مِمَّا يَشْرَبُ النَّاسُ، وَلا يَلْبَسُ أَحْسَنَ مِمَّا يَلْبَسُ النَّاسُ، وَلَكِنَّهُ حَازَ القَنَاعَةَ؛ وَالتِي هِي صَفَاءٌ فِي النَّفْسِ، واسْتِقْرَارٌ فِي الوِجْدَانِ، وَرَاحَةٌ فِي الضَّمِيرِ، وَطمَأْنِينَةٌ فِي القَلْبِ، وهَذَا كُلُّهُ يَدْفَعُهُ إِيمَانٌ بِاللهِ - تَعَالَى.

فَمِن المُقَرَّرِ أَنَّ الرَّاحَةَ لَيْسَتْ بِكَثْرَةِ العَرَضِ، وَلا بِزِيَادَةِ الثَّرْوَةِ، وَإِنَّمَا الرَّاحَةُ بِالقَنَاعَةِ، وقَدْ قيلَ: أحسَنُ النَّاسِ حَظاً هو مَنْ يَصْبِرُ عَمَّا يَشْتَهِي. وأَنا أَقُولُ: أَحْسَنُ مِنْهُ مَنْ لا يَشْتَهِي إِلَّا مَا يَنْبَغِي. وَمَا أَجْمَلَ كلامَ عُمرَ بْنِ الخطابِ ﷺ حِينَ قَالَ لِنَفْسِهِ: أَوَ كُلَّمَا اشتهيْتَ اشتريْتَ يَا عمَرُ!!

نَفْسُكَ أَخِي الكَرِيمُ كَمَا فِي المَثَلِ: (عِزْهَا وَتِعزك).

وَمِمَّا يُرْوَى أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزام ﷺ جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ وَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ مَالاً. فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ مَرَةً ثَانِيَةً فَأَعْطَاهُ، ثُم سَأَلَهُ مَرَةً ثَالِثَةً فَأَعْطَاهُ.. لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يُعَلِّمَهُ دَرْساً فَقَالَ لَهُ: «**يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوةِ نَفْسٍ**[١] **بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِن اليَدِ السُّفْلَى**»[٢].

فَعَاهَدَ حَكِيم النَّبِيَّ ﷺ أَلا يَأْخُذَ شَيْئاً مِنْ أَحَدٍ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَداً، حَتَّى إِنَّ أَبَا بَكْر الصِّدِّيقَ ﷺ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُعْطِيَهُ نَصِيبَهُ مِنْ بَيْتِ المَالِ فَرَفَض، وَجَاءَ

(١) سخاوة نفس: أي بقناعة من غير طمع.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥) عن حكيم بن حزام ﷺ.

عُمَر لِيُعْطِيَهُ فَرَفَضَ.

وَهَكَذا ظَلَّ حَكِيم بْنُ حِزام قَانِعاً لا يَتَطَلَّعُ إِلى شَيْءٍ بَعْدَ وَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

إِنَّ الرِضَا بِالقَضَاءِ وَالـرِّزْقِ هُـوَ انْتِـصَارٌ عَـلَى شَـهَواتِ الـنَّفْسِ وَآفَاتِهَـا، وانْتِصَارٌ عَلَى إِلْفِ النِّعْمَةِ؛ لأَنَ إِلْفَ النِّعْمَـةِ وَنَزَعَـاتِ الـشيْطَانِ تُنْـسِي العَبْـدَ مَعْنى فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَّةِ أَلا وَهُوَ مَعْنَى الشُّكْر.

فَالسَّاخِط عَلَى حالِه ورِزْقِه كيفَ يَشْكُرُ؟!

وَهَذِهِ ثَغْرَةٌ يَدْخُلُ مِنْهَا الشَّيْطَانُ إِلَى نَفْسِ العَبْدِ، فَيَجْعَلُهُ سَاخِطاً عَلَى رِزْقِهِ وَحَالِهِ، عِنْدَهُ الكَثِيرُ لَكِنَّهُ غَيْرُ رَاضٍ، وَبِهَذَا يُحْرَمُ شُكْرَ النِّعْمَـةِ، وَاللهُ -تَعَـالَى- يَقُولُ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1].

وَهَذا شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ - رَحِمَهُ اللهُ- يَقُولُ:

وَجَدْتُ القَنَاعَةَ ثَوبَ الغِنَى ... فَصِرْتُ بِأَذْيَالِـهَا أَتَـمَسَّـكُ

فَـصِـرْتُ غَنِـياً بِلا دِرْهَـمٍ ... أَمُــرُّ عَــزِيزاً كَأَنـي مَلِـكُ

إِنَّمَا الغِنَى وَالفَقْر فِي القَنَاعَةِ والطَّمَعِ، فالقَانِعُ غَنِيٌّ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا، وَالطَّامِعُ فَقِيرٌ وَإِنْ كَانَ غَنِياً.

مَا أَسْرَعَ زَوَالَ الـمَالِ، لَكِنَّ القَنَاعَةَ لا تَزولُ، بَلْ تَزِيدُ القَلِيلَ.

طَيِّبُوا قُلُوبَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ بِالرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ - تَعَالَى.

---

(١) إبراهيم: ٧.

الحلقة (١٩)

حمامة مسجد

لَنَا فِي الكُوَيْتِ مُصْطَلَحَاتُنَا الـجَمِيلَةُ الخَاصَّةُ بنا وَالَّتِي لَهَا مَدْلُولاتٌ أَجْمَلُ، فَنَقُولُ عَن الرَّجُلِ الَّذِي يُـلازِمُ بَيْتَـهُ (**بَيْتُـوتِي**)، وَنَقُـولُ عَـن الرَّجَـلِ المـلازِمِ لِلمَسْجِدِ بِأَنَّهُ: (**حَمَامَةُ مَسْجِد**)، وَبِالتَّعْبِيرِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ نَقُولُ: «**قَلْبُـهُ مُعَلَّـقٌ بِالـمَسَاجِدِ**»، فَفِي الـحَدِيثِ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**سَبْعةٌ يُظِلُّهُم اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ.. وَرَجُل قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالـمَسَاجِدِ**»[(١)].

وتعَلَقُّ القَلْبِ بِالـمَسَاجِدِ مَعْنَاهُ شِدَّةُ حُـبِّ الإِنْـسَانِ لِعِبَـادَةِ اللهِ - تَعَـالَى - وَتَمَتُّعه بِهَا، فَتَصِير العِبَادةُ هِيَ الوَاحَةُ الفَوَّاحَـةُ فِي صَـحْرَاءِ الـدُّنْيَا وَمَتَاعِبِهَـا، وَصدَقَ النَّبِيُّ ﷺ لما قَالَ لِبِلال: «**أَرِحْنَا بِهَا**»[(٢)]، يَعْنِي الصَّلاة.

وَالتَّعَلُّقُ الـمَذْكُورُ فِي الحَدِيثِ: «**وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالـمَسَاجِدِ**» يَدُلُّ عَـلَى طَهَارَةِ القَلْبِ الَّذِي اخْتَارَ أَنْ تَكُونَ رَاحَتُـهُ وَطُمَأْنِينَتُـهُ وَسَـكِينَتُهُ فِي بَيْـتِ الله تَعَالَى، وَالـمَرْءُ تَبَعٌ لِقَلْبِه، وَلِذَلِكَ قِيلَ: (حَيْثُمَا وَجَدْتَ قَلْبَكَ فَخَـيِّمْ)، وَفَـرْقٌ بيْنَ مَنْ خَيمَ بِقَلْبِهِ فِي الـمَسْجِدِ الَّذِي هُوَ بَيْتُ الله - تَعَالَى، وَبَـيْنَ مَـنْ خَـيَّمَ فِي مَرَابع السُّوءِ وَدَرَكَاتِ الـمَعَاصِي.

إِنَّ المسأَلَةَ - أَحِبَّتِي فِي الله - لاتتعَلَقَّ بِقَضَاءِ وقتٍ فِي الـمَسْجِدِ فِي ذِكْرٍ أَوْ فِي صَلاةٍ، وَإِنَّمَا هِي مَسْأَلَةُ قَلْبٍ تَعَلَّق بِهَذَا الـمَكَانِ، لا يَكَادُ يَخْرُجُ مِنْهُ حَتَّى يَشْعُرَ بِالوَحْشَةِ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا كَانَ نَصُّ الـحَدِيثِ: «**وَرَجُلُ قَلْبُـهُ مُعَلَّـقٌ بِالـمَـسَاجِدِ**»، وَهَذَا الرَّجُلُ لَنْ يَصِيرَ الـمَسْجِدُ عِنْدَهُ مَكَاناً لِقَضَاءِ الصَّلاَةِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا مَكَـانُ الـحِبِ الذي تعلقَّ قَلْبُهُ بِهِ، فَرُبَّمَا وَجَدَ حَنَاناً إِلَيْهِ فَدَخَلَهُ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلاةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥) عن سالم بن أبي الجعد رضي الله عنه، وصححه الألباني.

أَحِبَّتِي فِي الله: إِنَّنَا- الآنَ- نَسْتَقْبِلُ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ، تِلْكَ الأَيَّامُ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْرِصُ عَلَى الاعْتِكَافِ فِيهَا، يترك الدُّنْيَا وَمَشَاغِلَهَا وَمَا فِيهَا، وَكَانَ كَمَا تَقُولُ السَّيِدَةُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ الأَوَاخِرُ مِنْ رَمَضَانَ أَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَشَدَّ المِئْزَرَ، وَأَحْيَا اللَّيْلَ)[١].

لَكِنْ هَلْ هَذَا المَسْلَكُ مِن الاجْتِهَادِ فِي الطَّاعِةِ وَالعِبَادَةِ خَاصٌّ بِهَذِهِ الأَيام؟

إِنَّ المُسْلِمَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كَيِّسٌ فَطِنٌ**»[٢]، لا يُضَيِّعُ فُرْصَةَ طَاعَةِ.

نَفْسُهُ كَنَفْسِ التَّاجِرِ الَّذِي يَبْحَثُ عَن الرِّبْحِ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا، وَلا يُضَيِّعُ فُرْصَةً أَبَداً يُمْكِنُ أَنْ يَرْبَح فيهَا فِلْساً إِلا لِفُرْصَةٍ أَحْسَنَ مِنْهَا.

وَالمُؤْمِنُ هَكَذَا وَأَشَدُّ، فَهُو يَغْتَنِمُ مَوَاسِمَ الطَّاعَاتِ وَأَوْقَاتَ العِبَادَاتِ، وَيُقْبِلُ عَلَى رَبِّهِ فِي وَقْت النَّفَحَاتِ الَّتِي يَعْرِضُهَا اللهُ - تَعَالَى - فِي العَام.

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيام دَهْرِكُمْ لَنَفَحَاتٍ، أَلا فَتَعَرَّضُوا لها، فَلَعَلَّهُ أَنْ تُصِيبَ أَحَدَكُمْ نَفْحَةٌ، فَلا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَداً**»[٣].

وَلَيْسَ عَجَباً أَن العَادَةَ الأُولَى مِنْ عَادَاتِ القَادَة الإِدَارِيِّينَ وَالَّتِي حَدَّدَهَا عُلَمَاءُ الإِدَارَةِ هِيَ: (كُنْ سَبَّاقاً وانْتَهِز الفُرْصَةَ)، وَلَكِنْ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَنْتَهِزُ الفُرْصَةَ لِلوَقِيعَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَللإِيقَاعِ بِالخُصُومِ فِي دَرَكَاتِ الخَسَارَةِ، وَبَيْنَ مَنْ يَنْتَهِزُ الفُرْصَةَ فِي طَاعَةٍ يُقْبِلُ بِهَا عَلَى الله- تَعَالَى - أَوْ يَنْتَهِزُ الفُرَصَ فِي مَوَاسِم الطَّاعَاتِ الَّتِي تَتَخَلَّلُ العَامَ؛ كَرَمَضَانَ وَالعَشْر الأَوائِل مِنْ ذِي الحجَّةِ، وَكَذَلِكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤) عن عائشة –رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الشهاب في مسنده (١٢٨)، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٥٩٠٤): «موضوع».

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٢٣٣) (١٦١٨٩) عن محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٩١٧).

الأَيَّام البِيض مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَأَيام الاثْنَينِ وَالخَمِيسِ، وَلَيْلَة الجُمْعَةِ وَيَوْمها.

كُلُّ هَذِهِ فُرَصٌ وَمِنَحٌ لا تَفُوتُ أَهْلَ الطِّيبِ.

قَالَ تَعالَى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[1]، وَيَقُولُ وُهَيْبُ بْنُ الوَرْد: إِذَا اسْتَطَعْتَ أَلا يَسْبِقَكَ إِلَى الله - تعالَى - أَحَدٌ مِن النَّاسِ فَافْعَلْ.

وَهَذَا مَا جَعَل أَبا مُسْلِم الخَوْلانِي وَهُوَ أَحَدُ التَّابِعِينَ يَقُولُ: (أَيَظُنُّ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَسْبِقُونَا؟ كَلا وَالله لَنُزَاحِمَنَّهُم عَلَى الخَيْرِ زَحْماً، حِتى يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ تَركُوا وَرَاءَهم رِجَالاً).

وَقِيلَ لِبَعْضِ المُجْتَهِدِينَ فِي الطَّاعَاتِ: لِمَ تُعَذِّبُ هَذَا الجَسَدَ؟ فَقَالَ: لا بَلْ كَرَامَتَهُ أُرِيدُ.

إِنَّهُ فِي عِبَادَتِهِ وَاجْتِهَادِهِ لا يُعَذِّبُ جَسَدَهُ، بَلْ يُرِيدُ كَرَامَتَهُ وَيُرِيدُ فَوْزَهُ.

وَلا عَجَبَ:

فَإِذَا كَانَت النُّفُوسُ كِبَاراً تَعِبَتْ فِي مرادها الأَجْسَادُ

إِنَّ أَصْحَابَ النُّفُوسِ الكِبَارِ لا يَرْضَوْنَ إِلا بِأَشْرَفِ المَنَازِلِ وَأَسْمَى الدَّرَجَاتِ.

تَجِدُ أحدهم لا يُفَوِّتُ فُرْصَةً أَبَداً فِي طَاعَةٍ، تُقْبِلُ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَيُقْبِلُ هُوَ عَلَى الآخِرَةِ، لَكِنَّهُ لا يَنْسَى نَصِيبَهُ مِن الدُّنْيَا.

قَالَ أَحَدُ السَّلَفِ: هَبْ أَن المُسِيءَ عُفِيَ عَنْهُ، أَلَيْسَ قَدْ فَاتَهُ ثَوابُ المُحْسِنِينَ؟

إِنَّ ثَوابَ المُحْسِنِينَ وَمَنَازِلَ القَانِتِينَ هِيَ مَا يَطْلُبُهَا أَهْلُ الطِّيبِ فِي تَعَلُّقِهِمْ بِالمَسَاجِدِ وَالأُنْسِ فِي سَوارِيهَا وَزَوايَاهَا.

---

(١) المطففين: ٢٦.

وَمِن العَجِيبِ- حَقاً- أَنَّنَا نَرَى البَعْضَ نشِيطا إِلَى أَبْعَدِ حَدٍّ فِي أُمُورِ الدُّنْيا، فَتَجِدُهُ يَسِيرُ عَلَى حَسَبِ جَدْوَلٍ مُعَدٍّ إِعَداداً جَيداً حَتَّى لا تَفُوتَهُ فُرْصَةُ اسْتِفَادَة، أما إِذَا ذَكَّرْتَهُ وَدَعَوْتَهُ لأَنْ تَجْلِسَ مَعَهُ سَاعَةً تَذْكُرُ اللهَ مَعَهُ فِي الـمَسْجِدِ تَجِدُهُ يَتكَاسَلُ وَيَتَمَارَضُ.

وَقَدْ ذَكَرَ الشافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّهُ رَأَى فِي الـمَدِينَةِ عَجَائِبَ، مِنْهَا: أَنَّهُ رَأَى شَيْخاً قَدْ أَتَى عَلَيْهِ تِسْعُونَ سَنَةً يَدُورُ نَهَارَهُ حَافِياً رَاجِلاً عَلَى القَينَاتِ يُعَلِّمُهُنَّ الغِنَاءَ، فَإِذَا أَتَى الصَّلاةَ صَلَّى قَاعِداً.

أَحِبَّتِي فِي الله: إِن الاجْتِهَادَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَالعَمَلَ فِيهَا لَيْس عَيْباً، بَلْ هُوَ مَطْلُوبٌ إِذَا كَانَ مِنْ أَجْلِ الآخِرَةِ، وَكَمَا يَقُولُ أَهْلُ الإِدَارَةِ: ابْدَأْ وَاجْتَهِدْ وَعَيْنُكَ عَلَى النِّهَايَةِ.

فَالاجْتِهَادُ وَالتَّخْطِيطُ فِي الدُّنْيَا مَطْلُوب، لَكِنْ أَلَيْسَ مَطْلُوبا- أَيْضاً- الاجْتِهَادُ وَالتَّخْطِيطُ مِنْ أَجْلِ طَاعَةِ الله تَعَالَى؟!

إِنَّ الفَلَّائِقَ الَّتِي تَمُرُّ لا تَعُودُ أَبَداً، فاغْتَنِمُوا الخَيْرَ وَالفَضْلَ فِي مَواسِمِ الخَيْرِ، وَمَا أَجْمَلَ هَذِهِ الأَيَّامَ.

اسْمَعُوا وَصِيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِه الخطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المكَارِه، وَكَثْرَةُ الـخُطَا إِلَى الـمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الـصَّلاةِ، فَذَالِكُم الرِّبَاطُ، فَذَالِكُم الرِّبَاطُ**»[(١)].

(١) أخرجه مسلم (٢٥١) عن أبي هريرة ﷺ.

الحلقة (٢٠)

لي حبتك عيني ما ضامك الدهر

يَقُولُ أَهَل الطِّيبِ : (لي حبتك عيني ما ضامك الدهر)، (وَيَا غَالِي وَالطَّلَب رخِيص).

وَمَعَ هَذَا نَقُولُ: إنَّ العَدْلَ مَفْهُومٌ مِنْ أَشْرَفِ المَفَاهِيمِ، وَمَعْنى مِـن المعَـانِي العَظِيمَةِ.

عَلَى العَدْلِ قَامَت السَّموَاتُ وَالأَرْضُ، وَبِالعَدْلِ تَسْتَقِيمُ، وَفِي مُقَابِلِ العَدْلِ الظُّلْمُ، وَالظُّلْمُ إِثْمٌ عَظِيمٌ وَظُلُمَات يَوْمَ القِيَامَةِ.

إِنَّ قَضِيَّةَ العَدْلِ جَعَلَهَا اللهُ- تَعَالَى- هَدَف الرِّسَالاتِ السَّمَاوِيَّةِ كُلِّهَا، يَقُولُ اللهُ- تَعـــــالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1].

وَالـمُرَادُ بِالعَدْلِ: (هُوَ أَنْ يُعْطَى كُلُّ ذِي حقٍّ حَقَّـهُ)، سَـواءً كَـانَ فَـرْداً أَو جَمَاعَةً، وَهَذَا الـحَقُّ يُعْطَى بِلا طُغْيَانٍ وَلا إِخْسَارٍ، فَلا يُبْخَسُ حَقُّـهُ وَلا يُجَـارُ علَى حقِّ غَيْرِهِ. وَلِذَلِكَ انْتَبِهُوا مِنْ مَثَلِكُمْ القَائِلِ: (فصِّل وَأَنَا أَلْبِسْ) فَهَذَا فِيـهِ طُغْيَانٌ فِي الـمَحَبَّةِ قَدْ تُخْرِجُ الإِنْسَانَ عَن العَدْلِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: قَالَ لِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ: صِفْ لِي العَـدْلَ يَـا ابْـنَ كَعْب؟ قُلْتُ: (بَـخٍ بَـخٍ، سَـأَلْتَ عَـنْ أَمْـرٍ عَظِـيمٍ، كُـنْ لِـصَغِيرِ النَّـاسِ أَبـاً، وَلِكَبِيرِهِمْ ابْناً، وَلِلمثْلِ مِنْهُمْ أَخاً، وَعَاقِب النَّـاسَ بِقَـدْرِ ذُنُـوبِهِمْ وَعَـلَى قَـدْرِ احْتِمَالِهِمْ، وَلا تَضْرِبْهُمْ لِغَضَبِكَ سَوْطاً وَاحِداً، فَتكُونَ مِنْ العَادِينَ).

وَالـمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِإِقَامَةِ العَدْلِ مَعَ مَنْ يُحِبُّ وَحَتَّى مَعَ مَنْ يُعَادِي.. قَـالَ -

---

(١) الحديد: ٢٥.

تعَـــالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾(١).

وَقالَ الله- تَعَالَى فِي حقِّ الخُصُومِ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٢).

وَفِي الأَثَرِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ لِرَجُلٍ: (يَا رَجُلُ إِنِّي لَأُبْغِضُكَ)، فَرَدَّ عَلَيْهِ قَائِلاً: هَلْ يَحْمِلُكَ هَذَا عَلَى أَنْ تَظْلِمَنِي؟ فَأَسْرَعَ عُمَرُ فِي الرَدِّ وَقَالَ: (اللَّهُمَّ لا. .) . فَقَالَ الرَّجُلُ: وَمَا يُضِيرُنِي عِنْدَئِذ (إِنَّمَا تَبْكِي عَلَى الحُبِّ النِّسَاءُ).

وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ مَوقِفُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ مَعَ عَمْرو بْن العَاصِ حِينَمَا اشْتَكَى أَحَدُ أَقْبَاطِ مِصْرَ مِن ابْنِ عَمْرو بْن العَاصِ، واسْتَدْعَى عُمَر الثَّلاثَـةَ: (القبْطِيَّ وَعَمْراً وَابْنَهُ) وَحكَمَ بَأَنْ يَضْرِبَ القِبْطِيُّ ابْنَ عَمْـرٍو، بَـلْ وَقَـالَ لَـهُ وَقْتَهَا: اضْرِب ابْنَ الأَكْرَمينَ.

وَقَالَ: مَتَى اسْتَعْبَدْتُم النَّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَاراً؟!

فَبُغْضُنَا أَوْ عَدَمُ قبُولِنَا بِوَاحِدٍ مِن النَّاسِ لا يَحْمِلُنَا أَبداً على ظُلْمِهِم أَوْ عَدَمِ مُوَافَاتِهِمْ حُقُوقَهُمْ.

هَذَا العَدْلُ نَحْنُ مَأْمُورُونَ بِهِ مَعَ الأَعْدَاءِ.. فَمَا البَالُ لَوْ كَانُوا أَصْدِقَاء وَأَهْلاً؟

إِنَّ العَدْلَ- أَيُّهَا الأَحِبَّةُ- كَادَ أَنْ يَغِيبَ فِي هَذَا الزَّمَنِ العَصِيبِ..! وكَـادَتْ أَنْ تَضِيعَ مَعَالِـمُهُ.. بَيْنَ الزَّوجِ وَزَوْجِهِ، بَيْنَ الأَبِ وَأَبْنَائِهِ، بَيْنَ الأَبْنَاءِ وَآبَائِهِمْ، وَبَيْنَ النَّاسِ فِي أَسْواقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَدِيوَانِيَّاتِهِمْ.

---

(١) النساء: ١٣٥.

(٢) المائدة: ٨.

وَمَا أَجْمَل وَثِيقَةَ الـحُقُوقِ التِي قَالَهَا سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ وَأَقَرَّهَا النَّبِيُّ ﷺ.

فَفِي الأَثَرِ أَنَّ سَلْمَانَ الفَارِسِيَّ زَارَ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَاشْتَكَتْ زَوْجَتُهُ إِلَى سَلْمَانَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ آخَى بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ. فَقَالَ سَلْمَانُ: إِنَّ لِبَدَنِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقاً، فَلَمَّا ذُكِرَ ذِلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قالَ: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**»[(١)]. وَهَذَا لا يَعْنِي عَدَمَ تَقْدِيرِ أَهْلِ الفَضْلِ كَمَا تَقُولُونَ: (مِنْ أَجلْ عِينْ تُكْرَمْ أَلْف عِينْ).

فَلَكُمْ حُقُوقٌ، وَعَلَيْكُمْ لِلآخَرِينَ وَاجِبَاتٌ، فَاجْعَلوا العَدْلَ أَسَاسَ التَّعَامُلِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ.

وَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ تَظَلَّ الأُمَمُ قَوِيَّةً مُتَمَاسِكَةً مَا أَقَامَت العَدْلَ بَيْنَ أَبْنَائِهَا حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مُسْلِمَةٍ، وَأَنْ تَتَقَهْقَرَ الأُمَمُ وتَنْزَوِي وَتُطْفَأ شُمُوعُهَا مَا دَامَتْ قَدْ نَحَّتِ العَدْلَ جَانِباً، وَقَامَ الظُّلْمُ وَالـجَورُ مَقَامَهُ، حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ أُمَّةً مُسْلِمَةً مُوَحِّدَةً .

وَلِهَذَا لـمَّا كَتَبَ عَامِلُ عُمَرَ بْن عَبْدَ العزيزِ قَائِلاً: (إِنَّ مَدِينَتَنَا قَدْ احتَاجَتْ إِلَى مَرَمَّة)، كَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: (حَصِّنْ مَدِينَتَكَ بِالعَدْلِ ونَقِّ طُرُقَهَا مِن المظَالِمِ).

هَذِهِ دَعْوَةٌ لِأَهْلِ الطِّيبِ.. فِي وَقْفَةٍ وَقْفَةً صَادِقَةً مَعَ أَنْفُسِنا، وَنَتَسَاءَلَ: هَلْ نَحْنُ نُقِيمُ العَدْلَ...؟

هَلْ نَحْنُ عَادِلُونَ مَعَ أَنْفُسِنَا وَمَعَ أَوْلادِنَا وَمَعَ زَوْجَاتِنَا؟

إِنْ لَمْ نَكُنْ نُقِيمُ العَدْلَ مَعَ هَؤُلاءِ فَمَاذَا نُقِيمُ؟ الظُّلْمَ.. وَالعِيَاذُ بِالله؟ يَقُولُ مُجَاهِد- رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ الـمُعَلِّمَ إِذَا لَمْ يَعْدِلْ بَيْنَ الصِّبْيَانِ كُتِبَ مِن الظَّلَمَةِ.

أَمَا وَاللهِ إِنَّ الظُّلْمَ لُؤْمٌ ... وَمَا زَالَ الـمُسِيءُ هُوَ الظَّلُومُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨) عن أبي جحيفة رضي الله عنه.

إِلَى دَيَّـانِ يَـوْم الـدِّينِ نَمْـضِي وَعِنْـدَ الله تَجْتَمـعُ الـخُـصُـومُ
سَـتَعْلَم فِي الـحِـسَابِ إِذَا التَقَيْنَـا غَـداً عِنْـدَ الإِلَـهِ مَـنِ الظَّلُـومُ

فـ :

(١) أَقِيمُوا العَدْلَ مَع أَنْفُسِكُمْ، وأَقِيمُوا العَدْلَ مَعَ أَبْنَائِكُمْ، وأَقِيمُوا العَدْلَ فِي أَزْوَاجِكُمُ، وأَقِيمُوا العَدْلَ مَعَ النَّاسِ.

(٢) إِيَّاكُمْ والغُلوَّ فِي الـمَحَبَّةِ وَالتَّعَصُب كَمَا قِيلَ:

أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوناً مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا.

(٣) عَدَمُ الـمُحَابَاةِ لِنَسَبٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ.

(٤) العَدْلُ لا يَكُونُ مَعَ أَبْنَاءِ وَطَنِنَا فَقَطْ أَوْ دِينِنَا فَقَطْ، بَلْ هُوَ قِيمَةٌ إِنْسَانِيةٌ لا تَتَجَزَّأ.

(٥) عَاقِبَةُ الظُّلْم مَرِيرَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

(٦) الإِسْلامُ أَولُ مَنْ دَعَا لِلعَدْلِ وَإِقْرَار حُقُوقِ الإِنْسَانِ.

(٧) الدَّوْلَةُ العَادِلَةُ تَبْقَى وَلَو كَانَتْ كَافِرَةً، وَالدَّوْلَةُ الظَّالـمَةُ تَـزُولُ وَلَـوْ كَانَتْ مُسْلِمَةً.

(٨) العَدْلُ مِيزَانُ الله فِي الأَرْضِ.

(٩) كُل يَوْم جُمْعَةٍ نَسْمَعُ الخَطِيبَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[1].

مِنْ حُبِّي لَكُمْ أَقُولُ مَثَلَكُمْ الشَّعْبِيَّ: (العَيْنُ أَوْسَعُ لَكَ مِن المكَانِ).

---

(١) النحل: ٩٠.

الحلقة (٢١)

على طريف

مِنْ كَلِماتِنَا الكُويتِيَّةِ الأَصِيلَةِ هِذِهِ الكَلِمَةُ التِي عَنْونا الحلَقَةَ بِهَا وَهي: (**على طريف**)، وَلَو كَانَتْ مَثَلاً لَضُرِبَتْ لِـمَنْ يَمْشِي وَتُعَرْقِلُهُ فِي سَيْرِهِ أَقَلُّ العَقَبَاتِ، تُضْرَبُ مَثَلاً لِلشَّخْصِ سَرِيعِ الوُقُوعِ فِي الخَطَأِ، وَكَأَنَّهُ بِلا حُرَّاس سَرِيعاً مَا يَقَعُ فَرِيسَةً فِي يَدِ اللُّصُوصِ، وَلَقَدْ حَكَى لَنَا القُرْآنُ الكَرِيمُ عَنْ صِنْفٍ مِن النَّـاسِ، يَعْبُدُ اللهَ – تَعَالَى – عَلَى حَرْفٍ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾[1].

وَهَذَا الشَّخْصُ لَيْسَ عِنْدَهُ مِن اليَقِينِ مَا يُثَبِّتُهُ عِنْدَ المِحَنِ، وَمَا أَكْثَـر مِـحَن الزَّمَنِ وَابْتِلاءَاتِهِ، بَلْ لَعَلَّ السِّرَّ وَرَاءَ الفِتَنِ وَالابْتِلاءَاتِ هُوَ مَعْرِفَةُ المؤْمِنِ مِـن الـمَنَافِقِ قَالَ تَعالَى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[2].

وَفِي حَادِثِ تَحْوِيلِ القِبْلَةِ – أَيْضاً – لهَذَا الهدَفُ كَمَا قَالَ اللهُ – تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[3].

لكِنَّ الوَاقِعَ يُبَيِّنُ صِنْفَينِ مِن النَّاسِ:

صِنْف: (عَلَى الطَّرِيفِ)، سَرِيعـاً ينْـساقُ خلْـفَ أَوَّلِ دِعَايَـة، تَتَقَاذَفُـهُ فُوَّهَاتُ الإِعْلام يَمِيناً وَيَسَاراً، يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ، يَطْمَئِنُّ إِلَى الخَيْرِ، لَكِنَّهُ عِنْدَ الفِتْنَةِ يَتَغَيَّرُ حَالُهُ، أَقَلُّ تَغيُّرٍ قَدْ يُزَلْزِلُهُ وَيَجْعَلُهُ يُغَيِّرُ مِنْ مَوَاقِفِهِ.

---

(١) الحج: ١١.
(٢) العنكبوت: ٢، ٣.
(٣) البقرة: ١٤٣.

وَهُنَالِكَ صِنْفٌ آخَرُ مِن النَّاسِ، تَرَاهُ فِي فِكْرِهِ وَعَقِيدَتِهِ وَمَنْهَجِهِ ثَابِتًا ثَبَاتَ الـجِبَالِ، تَقُومُ الدُّنْيَا وَتَقْعُدُ مِنْ حَوْلِه وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ ثَابِتٌ، قَالَ اللهُ- تَعالَى- فِي شَأْنِ الـصَّحَابَةِ- رِضْـوانُ الله عَلَـيْهِمْ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[1].

وَفِي غَزْوَةِ (أُحُدٍ) أَشَاعَ الـمُشْرِكُونَ نَبَأَ مَقْتَلِ النَّبِيِّ ﷺ كَيْ يَفُتَّ ذَلِكَ فِي عَضُدِ الصَّحَابَةِ، لَكِنْ نَادَى الـمُنَادِي: مُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ.

وَمما يُحْكَى عَن الفُضَيْلِ بْنِ عَياض- رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّهُ سَافَرَ فِي البَحْرِ مَعَ رِفْقَةٍ، وَذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُمْ فِي البَحْرِ قَامَتْ الرِّيحُ وَهَاجَ البَحْرُ وَعَلَت الأَمْـواجُ، فَأَخَذَ النَّاسُ يَجْأَرُونَ وَيَهْرَعُونَ، أَمَّا الفُضَيْلُ فَكَانَ هَادِئَ البَالِ، مُطْمَئِنَّ النَّفْسِ. فَتَعَجَّبُوا لِذَلِكَ وَقَالُوا لَهُ: أَمَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ، يَكَادُ يَبْلَعُنَا البَحْرُ بِأَمْواجِهِ؟ فَنَظَرَ إِلَيْهِم وَكَأَنَّهُ يَرْثِي حالَـهُمُ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: إِلهِي أَرَيْتَنَا قُوَّتكَ وَسَطْوَتَكَ، فَأَرِنَا رَحْمَتَكَ وَغُفْرَانَكَ. وَمَا مَرَّ إلا وَقْتٌ يَسِيرٌ حَتَّى هَدَأَ البَحْرُ وَاسْتَقَامَ طَرِيقُهُم.

إِنَّ أَصْحَابَ اليَقِينِ بِقَضَاءِ الله وَقَدَرِهِ وَتَصْرِيفِ الأُمُورِ مَمْدُوحُونَ فِي القُرْآنِ.

لَيْسَ عَجِيباً أَنْ تَرَى النَّاسَ فِي وَاقِعِنَا اليَومَ حَيَارَى شَارِدِينَ، فعَلَى قِمَّةِ الأَمْرَاضِ التِي تُصِيبُ المجْتَمَعَاتِ هَذِهِ الأَيامِ (القلق)، كَمَا تَذْكُرُ الإِحْصَائِيَّاتُ.

فَهَلْ من الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَتمَلَّكَ القلقُ وَالحِيرَةُ قُلُوباً دَخَلَهَا الإِيمَانُ بِالله- تَعَالَى؟

يقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: (إِنَّ الروحَ وَالفَرَجَ فِي اليَقِينِ وَالرِّضَا، وَإِنَّ الغَمَّ وَالحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسخطِ).

---

(١) الأحزاب: ٢٢.

ذَكَرَتْ بَعْضُ الصُّحُفِ فِي عَام ٢٠٠٥م بَعْضَ البَيانَاتِ عَنْ احْتِيَاطِي البِتْرُولِ فِي الكُوَيْتِ.

وظَلَّ حَدِيثُ النَّاس فِي تلكَ الفترة لا يَتَجاوَزُ الكَلامَ عَن البترولِ وَالـمُسْتَقْبَلِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، حَتَّى خَرَجَ مَسْؤُولٌ كَبِيرٌ وَقَالَ: اطْمَئِنُّوا فَاحْتِيَاطِي البِتْرُولِ فِي الكُوَيتِ يَتَجَاوَزُ الـ١٢٠ عَاماً.

أَيْنَ إِذَنْ اليَقِينُ بِالله الَّذِي يَمْلأُ قُلُوبَ الـمُؤْمِنِينَ؟

وَأَيْنَ إِذَنْ التَّوَكُّلُ الـحَقِيقِيُّ، لا التَّوَاكُلُ الـمُزَيَّفُ؟

كَانَ عَطَاءٌ الخُرَاسَانِيُّ لا يَقُومُ مِنْ مَجْلِسِهِ إِلا وَيَقُولُ هَذِهِ الكَلِمَاتِ: (اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا يَقِيناً بِكَ حَتَّى تَهُونَ عَلَيْنَا مَصَائِبُ الدُّنْيَا، وَحَتَّى نَعْلَمَ أَنَّهُ لا يُصِيبُنَا إِلا مَا كُتِبَ عَلَيْنَا، وَلا يَأْتِينَا مِنْ هَذَا الرِّزْقِ إِلا مَا قَسَمْتَ لَنَا بِهِ).

وَالقُرْآنُ الكَرِيمُ مَلِيء بِآياتِ اليَقِينِ وَمَوَاقِفِ الثَّبَاتِ.

وَلَنَا مَثَل فِي قِصَّةِ يوسفَ - عَلَيهِ السَّلام؛ فقَدْ رَمَاهُ إِخْوَتُهُ فِي الجُبِّ، وَأَتَـوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ، لكِنَّ أَبَاهُمْ الَّذِي امْتَلأَ قَلْبُهُ يَقِيناً بِالله قَالَ لَهُمْ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

وَلما أَضَاعُوا أَخَاهُم الآخر، قَالَ لَهُمْ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: إِنَّ العِلْمَ الـمَقْصُودَ هُنَا هُوَ اليَقِينُ بِالله- تَعَالَى.

وَلْيَعُدْ أَهْلُ الطِّيبِ إِلَى قُرْآنِهِمْ فِي الشَّهْرِ الفَضِيلِ، وَيُعِيدُوا قِرَاءَةَ السُّورَةِ، ويتَعَلَّمُوا كيفَ تَجَلَّى اليَقِينُ عَلَى يَعْقُوبَ وَصَبَرَ حَتَّى عادَ إِلَيْهِ وَلَدُهُ بَعْدَ ٤٠ سَنَةً.

(١) يوسف: ١٨.
(٢) يوسف: ٨٦.

وَفِي قِصَّةِ مُوسَى مَعَ فِرْعَونَ كَذَلِكَ، وَغَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ. فَلا تَكَادُ تَجِدُ قِصَّةً فِي القُرْآنِ إِلا وَهِيَ مَدْرَسَةٌ فِي اليَقِينِ، ثُمَّ لِنَنْظُرْ فِي السُّنَّةِ؛ حَيْثُ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ لِـمَنْ سَأَلَهُ الدُّعَاءَ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي مَكَّةَ قَبْـلَ الهِجْـرَةِ: «**والله لَيُـتِمَّنَّ اللهُ – عَـزَّ وَجَلَّ – هَذَا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنَ صنعاء إلى حَـضرمَوْتَ لا يَخَـافُ إِلا الله – تَعَالَى – وَالذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»(١).

وَفِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: «**فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الصَّخْرَةِ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْـبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ. وَالله إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورهَا الـحَمْرَاء الآنَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ أخْرَى وَقَالَ: بِسْمِ الله وَكَسَرَ ثُلُثًا آخَرَ، وَقَالَ: اللهُ أَكْبَر، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَالله إِنِّي لأُبْصِرُ قَصْرَ المَدَائِنِ الأَبْيَضَ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَة، وَقَـالَ: بِسْمِ الله، فَقَطَعَ الحجَرَ، وَقَالَ: اللهُ أَكْبر أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، وَالله إِنِّي لأُبْصِرُ بَابَ صَنْعَاءَ**»(٢).

فَـ :

١ – اليَقِينُ بِالله أَسَاسُ اطْمِئْنَانِ القَلْبِ، وَاطْمِئْنَانُ القَلْـبِ أَسَـاسُ الرِّضَـا وَالسَّعَادَةِ.

نَسْأَلُ اللهَ – تَعَالَى – حَلاوَةَ الإِيمَانِ وَبَردَ اليَقِينِ وَرَاحَةَ البَالِ.

٢ – الإِيمَانُ بِالمَبَادِئِ عُرْضَةٌ للامْتِحَانِ.

٣ – اللهُ يَبْتَلِي الـمُؤْمِنِينَ لِيعَرْفَ مِقْدَارَ إِيمَانِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ.

٤ – انْظُرْ فِيمَن ارْتَدَّ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى حَرْفٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢)، عن خباب بن الأرت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٣) وضعفه الأرناؤوط.

الحلقة (٢٢)

لا يغرك شراعه تراه سماري

(**سَمَارِي**) كَلِمَةٌ كُوَيْتِيةٌ يَعْرِفُهَا أَهْلُ البَحْرِ، وَيُعَبِّرُونَ بِهَا تارةً عَن الرِّيَاحِ التِي لا تَأْثِيرَ لَهَا، وَالتِي تَأْتِي وَلا تَزِيدُ فِي قُوَّةِ السَّفِينَةِ. وَيُقَالُ أَيْضاً عَن السَّفِينَةِ التِي تَسِيرُ بِلا وِجْهَةٍ مَعَ الرِّيَاحِ حَيْثُمَا سَارَتْ لا يَتَدَخَّلُ الرُّبَّانُ فِي وِجْهَتِهَا، وتُقَال هَذِهِ الكَلِمَةُ عَن الشَّخْصِ الَّذِي لا يَتَمَتَّعُ بِقُوَّةِ الشَّخْصِيَّةِ.. تَرَاهُ لا رَأْيَ لَهُ ولا هدَفَ وَلا وِجْهَةَ، وَإِنْ حَسِبْتَ وِجْهَتَهُ فَستَجِدهُ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلى هَؤُلاءِ، تَرَاهُ حَسَنَ الهَيئَةِ، لَكِنَّهُ مِن الدَّاخِلِ لا شَيْءَ تَغْتَرُّ بِشَكْلِهِ - أَحْيَاناً - وَبِمَظْهَرِهِ، كَمَا نَقُولُ فِي المَثَلِ الشَّعْبِيِّ: (لا يَغُرُّكَ شِرَاعُهُ تَرَاه سماري)، وَهَذِهِ صِفَةٌ لا نَقْبَلُهَا لِلمُسْلِمِ أَبَداً.

لَكن مَعَ التَّفْتِيشِ نَجِدُ البَعْضَ هَذِهِ حَالَتُهُم.

يَصْدُقُ عَلَيْهِم قَوْلُ: (سَمَّارِي) مُذَبْذبٌ، لا يُحْسِنُ اتخَاذَ القَرَارِ أَوْ التَّصَرُّفَ فِي وَقْتِ الأَزَمَاتِ، ويُمْكِنُ أَنْ يَصْدُقَ عَلَيْهِ قَوْلُ النَّبِيِّ: «**لا يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً، يَقُولُ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنْتُ وَإِنْ أَسَاؤوا أَسَأتُ، لَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاؤوا فَلا تَظْلِمُوا**»[1].

فَالمُؤْمِنُ قَوِيُّ الشَّخْصِيَّةِ، كَبِيرٌ فِي آمَالِهِ، كَبِيرٌ فِي مَوَاقِفِهِ، كَبِيرٌ حَتَّى فِي أَحْلامِهِ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سَمَّارِي.

وَلَعَلَّ السَّبَبَ وَرَاءَ تَكْوِينِ الشَّخْصِيَّةِ المُذَبْذَبَةِ أَوْ حَتَّى الشَّخْصِيَّةِ العَنِيفَةِ يَرْجِعُ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ إِلى أُسْلُوبِ التربِيَةِ.تأثِيرُ التربِيَةِ لا يَتَّضِحُ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بَلْ هُوَ حَصَادُ سَنَواتٍ مَضَتْ كَانَ لَهَا أَثَرٌ فِي تَكْوِينِ الشَّخْصِيَّةِ بِالسَّلْبِ أَو

---

(١) سبق تخريجه قريبا.

الإيجَابِ.

فَمَنْ يَتَعَرَّضُ لِأُسلُوبِ تَرْبِيَةٍ خَاطِئٍ، سَواءً مِنْ وَالِدَيْهِ أَوْ مِنْ قِبَلِ مُدَرِّسِيهِ أَوْ مُعَلِّمِيهِ، يُؤَثِّرُ لا شَكَّ فِي شَخْصِيَّتِهِ.

فَالدَّلَالُ الزَّائِدُ يَمْنَعُ الشَّخْصَ تَعَلُّمَ الاعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِهِ، وَالشِّدَّةُ الزَّائِدَةُ التِي لا يُمْكنهُ فِيهَا إِبْدَاءَ رَأْيِهِ وَتَوْضِيحَ مَا يَجُولُ فِي خَاطِرِهِ، تُؤَثِّرُ أَيْضاً فِي شَخْصِيَّتِهِ، وَتَجْعَلُهُ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّخْصِ الـمُنْهَزِمِ ضَعِيفِ الشَّخْصِيَّةِ.

وَأَهْلُ الطِّيبِ يَعْلَمُونَ أَنَّ التَّرْبِيَةَ- وَهَذِهِ نُقْطَةٌ مُهِمَّةٌ- لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَوْفِيرِ الـمَأْكَلِ وَالمشْرَبِ وَالمسْكَنِ وَالملْبَسِ.. لا التَّرْبِيَةُ أَوْسَعُ وَأَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ.

التَّرْبِيَةُ أَخْلاقٌ وقِيَمٌ وَسُلُوكِيَّاتٌ التَّرْبِيَةُ مُتَابَعَةٌ.. فِيهَا تَلْقِينٌ، وَفِيهَا تَحْفِيز.. فَيهَا تَرْغِيبٌ، وَفِيهَا تَرْهِيبٌ.. فِيهَا عِقَابٌ وَحِسَابٌ.. وَفِيهَا جَزَاءٌ وَعَطاءٌ.

وَهَذِهِ لا تَجْعَلُنَا نَعْتَبِرُ التَّرْبِيَةَ أَمْراً صَعْباً لا يُجِيدُهُ إِلا المتَعَلِّمُونَ الَّذِينَ تحصَلوُا علىَ دورَات فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّعَامُلِ مَعَ الأَبْنَاءِ!إِذنَ فْكَيفَ رَبَّانَا آبَاؤنَا وَأَجْدَادُنَا.

إِنَّ المسْأَلَةَ تَرْتَبِطُ بِمَعْنى آخَرَ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ- تَعَالَى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾(١).

المسْأَلَةُ تَرْتَبِطُ بِتَقْوَى اللهِ- عَزَّ وَجَلَّ- فِي تَرْبِيَةِ الأَبْنَاءِ، تَرْتَبِطُ فِي فَهْمِ العَبْدِ أَنَّ أَوْلادَهُ أَمَانَةٌ فِي عُنقِهِ وَسَيُسْأَلُ عَنْهُمْ يومَ القِيَامَةِ، فَلْيَتَّقِ اللهَ- تَعَالَى- فِيهِم.

البَعْضُ يَجْتَهِدُ فِي حَيَاتِهِ.. يَشْقَى فِي نَهَارِهِ وَلَيْلِهِ.. يَمْنَعُ نَفْسَهُ مِنْ طَيِّبَاتِ

---

(١) النساء: ٩.

الـحَيَاةِ.. لأَجْلِ أَنْ يُوَفِّرَ لِأَوْلَادِهِ حَيَاةً رَغْدَةً.. وعِيشَةً هَنِيَّةً.. لَكِنْ لَـيْسَ هَـذَا كُلَّ شَيْءٍ يُقَدِّمُهُ لَهُم.

إِنَّهُ سَمَّنَهُمْ وَغَذَّاهم.. لَكِنَّهُ لَمْ يُرَبِّهِمْ..!

أَحْيَاناً الوَاحِدُ يَغْضَبُ وَيَثُورُ إِذَا تَعَرَّضَ أَحَدٌ لِأَبْنَائِهِ بِسُوءٍ!الكَنِ كْيفَ َ هُوَ لَوْ عَلِمَ أَنَّ ابْنَهُ مَثَلاً لَمْ يُصَلِّ، أَوْ أَنَّهُ كَذَبَ، أَوْ أَنَّهُ تَطَاول عَلَىمعُلَمهِ؟ كيفَ َ هُوَ حِينهَا؟ أَظُنُّ أَنَّ الوَالِدَيْنِ يَتَحَمَّلانِ عِبْئاً كَبِيراً فِي تَكْوِينِ شَخْصِيَّةِ الأَوْلادِ.

وَهُنَاكَ مَسْأَلَةٌ فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَّةِ وَهِيَ: عَلَى قَدْرِ هِمَّتِـكَ وَنَـشَاطِكَ وَفَهْمِـكَ، سَيَكُونُ أَبْنَاؤكَ، وَلا عَجَبَ، فَالـمَثَلُ يَقُولُ: (مَنْ شَابَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ).

وَاسْمَعُوا إِلَى الشَّاعِرِ وَهُوَ يَصُوغُ هَذِهِ التَّجْربَة وَيَقُولُ:

مَشَى الطَّاووسُ يَوْماً بِاخْتَيَال فَـقَـلَّدَ شـكْلَ مِـشْـيَتِهِ بَنُـوهُ

فَقَالَ عَـلامَ تَخْتَالُـونَ؟ قَالُـوا بَـدَأْتَ بِـهِ وَنَـحْـنُ مُقَلِّـدُوهُ

أَمَا تَـدْرِي أَبَـانَا كُـلُّ فَـرْخٍ يُحَـاكِي فِي الخُطَـا مَـنْ أَدَّبُـوهُ

فَـقَوِّمْ خَـطْوكَ المِـعْوَجَّ وَاعْدَلْ فَإِنَّـا إِنْ عَـدَلْتَ مُعَـدِّلُـوهُ

وَيَنْـشَأُ نَاشِـئُ الفِتيَـانِ مِـنَّـا عَـلَى مَـا كَـانَ عَـوَّدَهُ أَبُـوهُ

وَهَذَا أَحَدُ الآبَاءِ يَقُولُ لابْنِهِ: يَا بُنَيَّ لما كَانَ نَابلْيُونُ فِي سِنِّكَ كَانَ الأَوَّلَ فِي الدِّرَاسَةِ فِي كُلِّ السَّنَواتِ. فَقَالَ لَهُ الابْنُ: وَلما كَانَ نَابلْيونُ فِي سِنِّكَ كَانَ زَعِـيمًا وَرَئِيسًا.

فَإِنْ كُنْتَ أَنْتَ أَيُّهَا الأَب قَوِيّ الشَّخْصِيَّةِ فِي حِلْمٍ، ذَكِيا فِي تَغَافُـلٍ سـَترَ َى أَبْنَاءَكَ صُورَةً مِنْكَ.

وَقَبْلَ ذلِكَ اتَّـقِ اللهَ- تَعَـالَى- فِي أَوْلادِكَ، فَالَّـذِينَ يَتَّقُـونَ اللهَ- تَعَـالَى- فِي

أَوْلَادِهِمْ يَحْفَظُهُمُ اللهُ- تَعَالَى - لَهُمْ وَيَرْعَاهُمْ بِعِنَايَتِهِ.

وَفِي الأَثَرِ أَنَّ أَحَدَ الزُّهَّادِ- واسمه مُقَاتِل- دَخَلَ عَلَى الخَلِيفَةِ المَنْصُورِ، فَقَالَ لَهُ الخَلِيفَةُ: عِظْنِي يا مُقَاتِل. فَقَالَ: أَعِظُكَ بِمَا سَمِعْتُ أَمْ بِمَا رَأَيْتُ؟ فَقَالَ لَهُ: لا.. بِمَا رَأَيْتَ. فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، هِشَامُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ تَرَكَ مِنَ الأَوْلادِ أحد عَشَرَ وَلَداً، وَتَرَكَ مِن الأَمْوَالِ أحد عشر ألف ألف ألف دِينَارٍ، كَانَ نَصِيبُ كُلِّ أحَد مِن أولاده ألف ألف دِينَارٍ. وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ تَرَكَ مِنَ الأَوْلادِ أحد عَشَر وَلَداً، وَتَرَكَ مِن الأَموالِ أحد عَشَر دِينَاراً.

وَالله يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لَقَدْ رَأَيْتُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ وَلَداً لِعُمَرَ بْن عَبْدِ العَزِيزِ يَتَبَرَّعُ بِمَائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ الله، وَأَحَدَ أَبْنَاءِ هَشَامٍ يَتَسَوَّلُ فِي السُّوقِ.

وَلا عَجَبَ، فَالحَافِظُ وَالمُرَبِّي هُوَ اللهُ- تَعَالَى - وَلَيْسَ المَال، وَإِنْ أَعْطَاكَ اللهُ المَالَ فَهَذِهِ نِعْمَةٌ.. فَاتَّقِ اللهَ فِيهَا.

فَـ :

١ - احْفَظُوا أَنْفُسَكُمُ يَحْفَظِ اللهُ -تَعَالَى - لَكُم أَبْنَاءَكُمْ.

٢- طَيِّبُوا أَنْفُسَكُمُ تَطِبْ لَكُم نُفُوسُ أَبْنَائِكُمْ.

٣- انْتَبِهُوا إِلَى خُطُورَةِ ضَعْفِ الشَّخْصِيَّةِ فِي تَرْبِيَتِكُمْ لأَبْنَائِكُمْ. وَلْنُرَبِّ أَبْنَاءَنَا عَلَى القُدواتِ الجَيِّدَةِ لا السَيِّئَة. وَاحْذَرْ من ترداد الكلمة الشعبية: (خله على يوشه).

٤- كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَامَلُ مَعَ صِغَارِ الصحَابَةِ تَعَامُلاً رُجُولِياً «**يَا أَبَا عُمَيرِ مَاذَا فَعَلَ النُّغَيْرِ**» وَيُكَلِّفُهُمْ بِمَسْؤُولِياتٍ تُنَاسِبُ قُدرَاتِهِمْ. وَقِصَّةُ تَولِيهِ أُسَامَةَ ابْن زَيْدٍ عَلَى رَأْسِ الجَيْشِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ.

الحلقة (٢٣)

من عيّب ابتلي

مَشْهُورٌ عَلَى الأَلْسِنَةِ هَذَا المثَلُ، وَهُوَ: (**من عيَّبَ ابْتُلِيَ**)، وَلَهُ صِيغَةٌ أُخْرَى يُقَالُ فِيهَا: (من عيب ابتلي والعيب ساس البلى).

وَهَو يُعَبِّرُ عَنْ مَوْقِفِ المسْتَهْزِئِ السَّاخِرِ مِن الآخَرِينَ، وَحَقِيقَة أَنَّ السُّخْرِيَّةَ زَادَتْ لِدَرَجَةِ أَنَّهَا فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ صَارَتْ ظَاهِرَةً مُجْتَمَعِيَّةً لا تُنَاسِبُ أَبَداً سُلُوكِيَّاتِنَا.

وَصَارَتْ عِنْدَ البَعْضِ الآخَرِ عَادَةً مُلَازِمَةً، فَلا يَتَكَلَّمُ مَعَ الآخَرِينَ إِلا بِلُغَةِ الاسْتِعْلاءِ وَالسُّخْرِيَةِ.

وَحَقِيقَةُ السُّخْرِيَةِ وَالاسْتِهْزَاءِ أَنَّهَا: حَالَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَتَوَلَّدُ عَن الشَّخْصِ فَتَجْعَلُهُ يَتَعَامَلُ مَعَ الآخَرِينَ؛ بِحَيْثُ يَرَاهُمْ أَقَلَّ مِنْهُ، فَيُعَامِلُهُمْ بِتَعَالٍ وَسُخْرِيَةٍ.

وَلماذَا يَسْخَرُ النَّاسُ مِنْ بَعْضِهِمُ البَعْضُ وَاللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - نَهَانَا عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ فِي مُحْكَمِ آيَاتِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٞ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرٗا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرٗا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

وَلله دُرُّ مَنْ قَالَ:

لا تَهْتكِنْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مُسْتَتِراً ... فَيَهْتِك اللهُ سِتْراً مِنْ مَسَاوِيكَا

وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا ... وَلا تَعِبْ أَحَداً مِنْهُم بِمَا فِيكَا

وَلِهَذَا يَقُولُ أَهْلُ الطِّيبِ فِي أَمْثَالِهِمْ: (العَيْبَ بَلا، وَمَنْ عَيَّبَ ابْتَلا)،

---

(١) الحجرات: ١١.

ويَقُولُونَ: (لا تَشْمَتْ بِأَخِيكَ فيُعَافِيه اللهُ ويَبْتَلِيكَ).

وَلماذا يَسْخَرُ أَحَدٌ مِنْ أَحَدٍ وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَنَا مِيزَانَ التَّفَاضُلِ بَيْنَ النَّاسِ فَقَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، فَهَذَا هُوَ المِيزَانُ الحَقِيقِيُّ الَّذِي يُظْهِرُ مَعَادِنَ النُّفُوسِ، وَيُعَبِّرُ عَنْ أَخْلاقٍ كَرِيمَةٍ تُوَلِّدُ حُباً وَأُلْفَةً بَينَ النَّاسِ.

أَمَّا السُّخْرِيَةُ فَتُوَلِّدُ كُرْهاً وَشَمَاتَةً، وَتُوَلِّدُ رَغْبَةً فِي الانْتِقَامِ، وَتُعْتَبَرُ مِنْ دَوافِعِ صِنَاعَةِ الأَعْدَاءِ.

والسَّاخِرُ مِنْ غَيْرِهِ مُتَكَبِّرٌ عَلَى عِبَادِ الله- تَعَالَى، شَخْصٌ اخْتَلَطَتْ عِنْدَهُ المَوَازِينُ.

وَقَدْ كَانَ عَادَةُ بَعْضِ الأَخْيارِ أَنَّهُ كُلَّمَا رَأَى أحداً ذَا عَاهَةٍ أَوْ عَيْبٍ قَالَ فِي نَفْسِهِ: يَا تُرَى بِمَاذَا فُضِّلَ عَلَيَّ هَذَا الشَّخْصُ؟ لأَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَيْسَ بِظَلامٍ لِلعَبِيدِ.

فَمُؤَكَّدٌ أَنَّ اللهَ -تَعَالَى -قَدْ مَيَّزَ أَصْحَابَ العَاهَاتِ وَالابْتِلاءِ بميزَاتٍ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ.

حَتَّى لو لَمْ يَمْيُزَوْا أو لَيسَ حقٌّ الاحْتِرَامِ والتَّقْدِيرِ مَكْفُولٌ لِلجَمِيعِ؟!

أَوَ لَيْسَتْ السُّخْرِيَةُ دَلِيلاً عَلَى ضَعْفِ ثِقَةٍ فِي النَّفْسِ؟

وَالنَّاسُ سَوَاسِيَةَ كَأَسْنَانِ المشْطِ، وَلا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلا لأَعْجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ إِلا بِالتَّقْوَى وَحُسْنِ الخُلُقِ.

وَمِنْ مَوَاقِفِ السُّخْرِيَةِ التِي قُوبِلَتْ بِرُدُودٍ مُفْحِمَةٍ هِيَ سُخْرِيَةُ المسْتَهزِئِينَ بِالفُضَيلِ بْنِ عَياض؛ حَيْثُ قَابَلَهُ يَهُودِيٌّ يوماً وَمَعَهُ كَلْبُهُ وَقَالَ لَهُ:

---

(١) الحجرات: ١٣.

لِـحْيَتُكَ أَطْيَبُ أَمْ ذَنَبُ هَذَا الكَلْبِ؟

فَنَظَرَ إِلَيْهِ الفُضَيْلُ وَقَالَ: وَالله إِنْ كَانَتْ لِـحيَتِي فِي الجَنَّةِ لَـهِيَ أَطْيَـبُ مِـنْ ذَنبِ كَلْبِكَ، وَإِنْ كَان مَصِيرُهَا النَّار إِذَنْ ذَنَبُ كَلْبِكَ أَطْيَبُ مِنْهَا.

وَهُنَا نَظَرَ اليَهُودِيُّ فِي عَجَبٍ شَدِيدٍ وَقَالَ: وَالله مَا هَذِهِ إِلا أَخْلاقُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله.

أَحِبَّتِي فِي الله:

إِنَّ السُّخْرِيَةَ بِالآخَرِينَ نَقْصٌ وَعَيْبٌ، وَلا يَنْبَغِي لِلمُسْلِمِ أَبَداً أَنْ يَسْخَرَ مِنْ أَحَدٍ مَهْمَا كَانَ، بَلْ يَنْظُرُ إِلَى غَيْرِهِ دَائِماً بِنَظْـرَةِ حُـسْنِ الظَّـنِّ فِي الفَـضْلِ وَالخَـيْرِ وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: لَعَلَّ فُلاناً هَذَا أَقْرَبُ إِلى الله- تَعَالَى- مِنِّـي. أَوَ لَعَلَّـهُ مِمَّـنْ لَـوْ أَقْسَمَ عَلَى الله- تَعَالَى- لَبَرَّ بِقَسَمِهِ، وَإِنْ كَانَـت الـسُّخْرِيَةُ عَلامـةَ نَقْـصٍ فَـإِنَّ احْتِرَامَ الآخَرِينَ وَتَقْدِيرِهِمْ عَلامَةُ كَرَمِ نَفْسٍ وَدَمَاثَةِ خُلُقٍ وَطِيبِ أَصْلٍ: (فَـلا يَعْرِفُ الفَضْل لِأَهْلِ الفَضْلِ إِلا أَهْلُ الفَضْلِ).

يَا أَهْلَ الفضلِ :

١- أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِالنَّاسِ، وَلا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَـيْراً مِنْهُمْ.

٢- انْتَبِهُوا إِلَى أَنَّ السُّخْرِيَةَ نَعْرَةٌ تُطِيحُ بِتَمَاسُكِ المجْتَمَعِ.

٣- مِن الدَّوَافِعِ المؤَدِّيَةِ لِلسُّخْرِيَةِ دَاءُ التَّكَبُّرِ وَالغُرُورِ، وَالاغْتِرَار بِـمَا أَنْعَـمَ اللهُ بِهِ عَلَى الإِنْسَانِ.

٤- الدُّنْيَا مُتَقَلِّبَةٌ، وَمَا تَسْخَرُ مِنْهُ قَدْ يُصِيبُكَ، وَكَمْ فِي الحَيَـاةِ مِـنْ قِـصَصٍ وَعِبَرٍ.

٥- السُّخْرِيَةُ مِنْ أَشْكَالِ النَّاسِ فِي حَقِيقَتِها سُخْرِيَةٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، وَاللهُ يَقُولُ:

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيماً مِن الرَّدَى ... وَدِينُكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَيِّنُ

فَلا يَنْطِقَنْ مِنْكَ اللِّسَانُ بِسَوْأَةٍ ... فَكُلُّكَ سَوْءَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَعْيُنُ

صَحِيح: (من عيَّبَ ابْتُلِيَ).

يَا مَنْ تَسْخَرُ مِن النَّاسِ أَهْلُ المَثَلِ يَقُولُونَ: (كَمَا تَدِينُ تُدَان) وَيَقُولُونَ: (شُوفْ عيبَكْ قبلَ ما تشُوفْ عُيوب النَّاس).

(١) لقمان: ١١.

الحلقة (٢٤)

امزهلق

الناس مخابر ما هي مناظر

مِنْ كَلِمَاتِنَا الكُوَيْتِيَّةِ ذَاتِ الدَّلالاتِ القَوِيَّةِ عِبَارَةُ (**امزهلق**) نَقُولهَا وَنَقْـصِدُ بِهَا الشَّخْصَ الَّذِي يُبَالِغُ فِي تَحْسِينِ مَظْهَـرِهِ، وَالَّـذِي يَحْـرِصُ عَـلَى أَنْ تَكُـونَ صُورَتُهُ الخَارِجِيَّةُ فِي أَبْهَى صُورَةٍ، وَرُبَما كَانَ دَاخِلُهُ مِـنْ أَسْـوَأ مَـا يَكُـونُ. وفي المثل: (**الناس مخابر لا مناظر**).

وَحَقِيقَةً، مُعَادَلَةُ العَلاقَةِ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ أَوْ بَيْنَ الجَسَدِ وَالـرُّوحِ مِـن المُعَادَلاتِ الصَّعْبَةِ، وَالَّتِي لا يُحْسِنُهَا إِلا الكِبَارُ.

صَحِيحٌ أَنَّهُ لَنَا الظَّاهِرُ وَلَيْسَ لَنَا البَاطِنُ، وَنَحْنُ مَأْمُورُونَ بِأَنْ نَتَعَامَـلَ مَـعَ النَّاسِ بِحَسَبِ ظَواهِرِهِمْ لا بِمَا يُبْطِنُونَ، لَكِنَّنَا نُوَجِّهُ كَلامَنَا هُنَا لِلشَّخْصِ ذَاتِهِ الَّذِي يَحْرِصُ عَلَى أَنْ يَبْنِيَ جَسَدًا ويترُكَ رُوحاً، وَيُحَسِّنَ مَظْهَراً وَيُخَرِّبَ بَاطِناً.

وَلَو سَأَلْنَا كُلَّ شَخْصٍ هَذَا السُّؤَالَ وَهُوَ: أَيُّهُمَا أَهَمُّ: المظْهَرُ أَمْ المخْبَرُ؟ لَقَالَ البَعْضُ: المخْبَرُ، وَقَالَ آخَرُونَ: الاثْنَانِ مَعاً، وَلَنْ يَقُـولَ أَحَـدٌ: إن المظْهَـرَ هُـوَ الأَهَمُّ. لَكِنْ هَلْ نَحْنُ حَرِيصُونَ بِالفِعْلِ عَلَى أَنْ نُزَيِّنَ البَاطِنَ كَمَا نُزَيِّنُ الظَّاهِرَ؟ وَكَمَا قَالَ أَهْلُ المثَلِ: (نص المال نظره)، وَفِي المثَلِ تَـوازُنٌ بَـيْنَ النَّظَـرِ وَالمظْهَـرِ، فَالأَشْيَاءُ تَتَضَاعَفُ ثَمَنُهَا إِذَا عُرِضَتْ بِطَرِيقَةٍ جَيِّدَةٍ.

يُحْكَى مِنْ نَوادِرِ جُحَا أَنَّهُ قَابَلَ يَوْماً أَحَدَ الأَغْنِيَاءِ، فَقَالَ لِـجُحَا: يَـا جُحَـا كَمْ أُسَاوِي فِي نَظَرِكَ؟ فَنَظَرَ إِلَيْهِ جُحَا بِـتَفَحُّصٍ وَتَمَعُّـنٍ وَقَـالَ: أَنْـتَ تُـسَاوِي عِنْدِي ١٠٠ دِينَارٍ.

فَتَعَجَّبَ الرَّجُلُ وَقَالَ: يَا جُحَا إِنَّ مَلابِسِي وَحْدَهَا تُسَاوِي هَذَا المبْلَغَ. فَقَالَ

لَهُ جُحَا: إِذَنْ لَقَدْ أَصَبْتُ أَنَا فِي تَقْدِيرِي.

إن الوَاحِدَ مِنَّا قَدْ يُقَابِلُ فِي حَيَاتِهِ أَشْخَاصاً لا يُسَاوونَ إلا الملابِسَ الَّتِي يَرْتَدُونَهَا، فَشَخْصِيَّاتُهُم، آرَاؤُهُمْ، مَوَاقِفُهُمْ، عَادَاتُهُمْ.. لا شَيْءَ، فَهَؤُلاءِ وَأَمْثَالُهُمْ يَكُونُونَ عِبْئاً عَلَى الحَيَاةِ.

لَكِنْ فِي الْمُقَابِلِ هُنَاكَ أُنَاسٌ الوَاحِدُ مِنْهُم بِأَلْفٍ. وَصَدَقَ مَنْ قَالَ:

النَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمُ بِواحِدٍ وَوَاحِدٌ كَالأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَى

فالشَّخْصُ يُعَدُّ بِمَوَاقِفِهِ وَآرَائِهِ وَإِنْجَازَاتِهِ، لا بِشَكْلِهِ وَلا بِجِسْمِهِ.

وَلِذَا عِنْدَمَا يَمُوتُ الكِبَارُ تَكُونُ المصِيبَةُ أَعْظَمَ مِنْ مَوتِ شَخْصٍ وَإِنَّمَا موتُ أخلاقٍ وقيمٍ ومَوَاقفَ. وَيَقُولُ أَهْلُ المثَلِ: (المرء يعرق لا ثوباه).

وَتَحْكِي السُّنَّةُ أَنَّهُ مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٌ: «**مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟**». فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَالله حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ. قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ. ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟**». فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَلا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَلا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَلا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِنْ مِثْلِ هَذَا**»[1].

لَكِنْ هَذَا لا يَعْنِي عَدَمَ الاهْتِمَامِ بِالظَّاهِرِ، بِالعَكْسِ فَالمسْلِمُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَكُونَ حَسَنَ المظْهَرِ، جَمِيلاً مُتَأَلِّقاً، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**»[2].

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَلْبِسُ أَحْسَنَ الثِّيَابِ وَيَتَعَطَّرُ، وَيَقُولُ فِي الحَدِيثِ: «**حُبِّبَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٧)، عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٩١) عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاثٌ: الطِّيبُ، وَالنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»[١].

وَلما جَاءَهُ رَجُلٌ مِن الصَّحَابَةِ وَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّنِي رَجُلٌ أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ نَعْلِي نَظِيفاً وَثَوْبِي نَظِيفاً، فَهَلْ هَذَا مِن الكِبْرِ؟ فَقَالَ النبيُّ ﷺ: «**لا، لَكِنَّ الكِبْرَ هُوَ بَطرُ الحقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[٢]، وقد ورد في الأثر: «**النَّظَافَةُ مِن الإِيمَان**».

فَالاهْتِمَامُ بِالمظهَرِ عِنْدَ المسْلِمِ مِن الأَسَاسِياتِ، لَكِنَّ المخْبَرَ أَيْضاً مِن الأَسَاسِياتِ، وَالنبِيُّ ﷺ عَلَّمَنا وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَى المِرْآةِ أَنْ نَقُولَ: «**اللَّهُمَّ كَمَا أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي**»[٣]، فالخلقُ والخُلُقُ في مِيزَانٍ وَاحِدٍ لا يَنْفَصِلانِ.

أَحِبَّتِي فِي الله: وَخِطَابُنا لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ عَلَى السَّوَاءِ، وَخَاصَّةً النِّسَاءَ.

إِنَّ جَوْلَةً فِي شَارِعٍ وَاحِدٍ مِنْ شَوَارِعِنَا تُمَكِّنُكَ مِنْ قِرَاءَةِ مَا يَزِيدُ عن ٢٠ أو ٣٠ محلا أَوْ صَالُونا لِتَجْمِيلِ النِّسَاءِ!!

صَارَ شُغْلُ بَعْضِ النِّسَاءِ الشَّاغل هُوَ الاهْتِمَامُ بِالمظْهَرِ وَالزِّينَةِ، وَنسِين أَن المخْبَرَ لا يَقِلُّ أَهمية أَبَداً عَن المظْهَرِ.

نَسِيَتْ بَعْضُ النِّسَاءِ أَن جَمَالَ المَوَاقِفِ، وَجَمَالَ الأَخْلاقِ، وَجَمَالَ النَّفْسِ وَالرُوحِ، هُوَ الَّذِي يَدُومُ وَيُدِيمُ الموَدَّةَ.

فَاعلموا:

(١) أَنَّ (الظَّاهِرَ وَالبَاطِنَ) مُعَادَلَةٌ نَسْأَلُ اللهَ أَنْ نُحْسِنَهَا، فَيَكُونُ ظَاهِرُنَا كَبَاطِنِنَا، نَظَافَةً فِي الدَّاخِلِ وَالخَارِجِ.

(٢) أَنَّ المظْهَرَ مُهِمٌّ، لا يَلِيقُ أَن تأتي بيت الله بما لا يليق مَثَلاً، وَلَكِنْ

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٤٩) عن أنس ﷺ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٩٢) عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٣)، وحسنه شعيب الأرناؤوط.

التَّوَازُنَ مَطْلُوبٌ.

(٣) سُؤَالٌ نَقُولُهُ لِأَنْفُسِنَاكَمْ نُنْفِقُ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَوْقَاتِ فِي تَحْسِينِ ظواهرنا؟ وكَمْ فِي المقابلِ ننفقُ مِن الأَوْقَاتِ لِتَحْسِينِ بَوَاطِنِنَا؟

(٤) وَسُؤالٌ آخَرُ: لماذَا هَذِهِ الهَجْمَةُ عَلَى عَمَلِيَّاتِ التَّجْمِيلِ؟ وَهَلْ هِيَ لإِخْفَاءِ ضَعْفِ البَاطِنِ وَخَوَائِهِ؟!

(٥) رُبَّمَا نَقْضِي أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ سَاعَةٍ فِي الوُقُوفِ أَمَامَ المِرْآةِ والحَلاقِ، وَلا نَتَحَمَّلُ نِصْفَ سَاعَةٍ فِي الوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ الله.

الحلقة (٢٥)

حَلِّ لِسَانَك كُل الناس تصير خِلانَك

نَقُولُ فِي المَثَلِ الكُويتِيِّ: (حَلِّ لِسَانَكَ كُل النَّاسْ تِصيرْ خِلانَكْ)، وَهَذَا مَثَلٌ يُضْرَبُ فِي الدَّعْوَةِ إِلى الكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ اللَّيِّنَةِ التِي تَجْمَعُ وَلا تُفَرِّقُ، وَالتِي تُيَسِّرُ وَلا تُعَسِّرُ، وَالتِي تَنْزِلُ عَلَى الجُرْحِ فَتُطَيِّبُهُ، لا أَنْ تَزِيدَهُ أَلَماً.

وَحَقِيقَةً أَنَّ لِلكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ وَاللِّسَانِ الهَيِّنِ اللَيِّنِ فِعْلَ السِّحْرِ فِي القُلُوبِ.

فَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ بَلْسَمُ الجِرَاحَاتِ، وَيَكْفِي تَصْويرُ القرآنِ الكريمِ لَهَا بَأَنَّهَا كَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[1].

وَلِهَذَا وُفِّقَ الشَّاعِرُ حينَ صَوَّرَ البِرَّ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ وَمِفْتَاحُ دُخُولِ الجَنَّةِ بِأَنَّهُ شَيْءٌ هَيِّنٌ بَسِيطٌ قَالَ:

أُخَيَّ إِنَّ البِرَّ شَيءٌ هَيِّنُ وَجهٌ طَلِيقٌ وَكَلامٌ لَيِّنُ

وَهَلْ يَخْسَرُ الإِنْسَانُ شَيْئاً إِنْ حَلَّى لِسَانَهُ، بَلْ عَلَى العَكْس كَمَا فِي هَذَا المَثَل. فَمَنْ حَلَّى لِسَانَهُ صَارَ كِلُّ النَّاسِ خِلَّانَه؛ لأَنَّهُمْ لَنْ يَذْكُرُوهُ فِي غِيابِهِ أَوْ فِي حُضُورِهِ إِلا بِحَلاوَةِ اللِّسَانِ وَلِينِ المَنْطِقِ. وَكَانَ الوَالِدُ - رَحِمَهُ اللهُ - يَقُولُ دَائِماً: كَثِّرْ مِن الصَدِيقِ تَرَى العَدُو أَكْثَر.

يَقُولُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: (والله لَولا أَنْ أُجَالِسَ إِخْوَةً لِي يَنْتَقُونَ أَطَايِبَ القَوْلِ كَمَا يُنْتَقَى أَطَايبَ الثَّمَرِ، لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَلْحَقَ بِالله).

وَاللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ لِنَبِيِّهِ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[2].

---

(١) إبراهيم: ٢٤، ٢٥.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

فَغِلْظَةُ القَلْبِ وَخُشُونَةُ الكَلاَمِ بِاللِّسَانِ سَبِيلٌ لانْفِضَاضِ النَّاسِ.

لَكِنَّ البَعْضَ قَدْ يَقُولُ: إِنَّ حَلاوَةَ اللِّسَانِ أَحْيَاناً تُعَدُّ مِنْ أَبْوابِ الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ؛ خَاصَّةً إِنْ كُنْتَ تُلِينُ الكَلاَمَ مَعْ مَنْ لا تُحِبُّ؟ كما يقول أهل المثل: (ذئب استَنجَعَ).

وَلَكِنْ أَقُولُ: حَلّ اللِّسَانَ بِجَمِيلِ الكَلامِ فِي الغيبَةِ وَفِي الحُضُورِ، وَحَاوِلْ أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُكَ مِثْلَ عَلانِيتِكَ، فَلا تُكَلِّمِ النَّاسَ بِلِسَانٍ طَيِّبٍ حُلْوٍ وَتَغْتَابُهُمْ وَتَنُمّ فِيهِمْ فِي غيبَتِهِمْ.

فَكَمْ مِنْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَمُعَامَلَةٍ حَسَنَةٍ كَانَتْ سَبَباً فِي دُخُولِ نَفْسٍ الإِسْلامَ.

وَقِصَّةُ مُصْعَبَ بن عُمَيْرٍ أَوَّلُ سَفِيرٍ فِي الإِسْلام خَيْرُ دَلِيلٍ، فَقَدْ حَكَت السِّيرَةُ أَنَّ مُصْعَبَ ذَهَبَ سَفِيراً إِلى المَدِينَةِ، وَذَلِكَ قَبْلَ الهِجْرَةِ، وَجَلَسَ يَدْعُو بِهَا إِلى الإِسْلامِ مَعْ أَسْعَدَ بن زُرَارَة. فَجَاءَهُ أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ، وَقَالَ لَهُ: يَا مُصْعَب إِنْ كُنْتَ فِي حَاجَة إِلى نَفْسِكَ فَاعْتَزِلْ دِيَارَنَاوكَفُ ّ عَنْ حَدِيثِكَ، وإلا فاعْتَبِرْ نَفْسَكَ مَقْتُولاً؛ فَمَا كَانَ مِنْ مُصْعَب إِلا أَنْ قَالَ لَهُ: (أَوَ تَجْلِس فَتَسْمَع، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرَنَا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ لَمْ تَرْضَهُ كَفَفْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَه)، فَقَالَ لَهُ: (لَقَدْ أَنْصَفْتَ).

وَجَلَسَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ حَتَّى بَانَتْ عَلامَاتُ الرِّضَا عَلَى وَجْهِهِ، وَأَصْبَحَ مُسْلِماً، وَأَسْلَمَ بِذَلِكَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ الَّذِي ذَهَبَ إِلى قَوْمِهِ، وَهُمْ بَنُو عَبْدِ الأَشْهَل، وَقَالَ لَهُمْ: يَا بَنِي عَبْدِ الأَشْهَل، إِنَّ كَلامَكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ، رِجَالكُمْ وَالنِّسَاء، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَتُصَدِّقُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ثُمَّ إِنَّ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُدْخِلَ السُّرُورَ عَلَى النَّاسِ، وَتُزِيلَ الهَمَّ مِن القُلُوبِ. وَلَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ- رِضْوانُ الله تَعَالَى عَلَيْهِم- حَرِيصِينَ عَلَى

هَذِهِ المسْأَلَةِ، وَلَيْسَ بِخَفِيٍّ فِي قِصَّةِ المخَلَّفِينَ الثَّلاثَةِ الَّذِينَ اعْتَزَلَهُم النَّبِيُّ ﷺ وَصَحَابَتُهُ بَعْدَ تَخَلُّفِهِمْ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوك، فَلَمَّا نَزَلَ الفَرَجُ وَتَوبَةُ الله- تَعَالَى- عَلَيْهِم أَسْرَعَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ إِلَى كَعْب بن مَالِك وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ: يَا كَعْبُ، أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ، نَعَمْ لَقَدْ كَانَ أَخُوهُ حَرِيصاً أَنْ يَرَى الابْتِسَامَةَ وَاضِحَةً عَلَى وَجْهِ أَخِيهِ. وَأَهْلُ المثَلِ يَقُولُونَ: (الزَّبِيبَةُ مَا تُشَبعْ وَلَكِنْ أَطْيَبُ لِلخَاطِرِ).

فَمَا حَالُنَا الآنَ ؟

أَحْيَاناً تَجِدُ مُشَاحَنَاتٍ وَمُشَاجَرَاتٍ وَمُشْكِلاتٍ عَظِيمَةً، وتَثُورُ ثَائِرَاتُ النَّاسِ، وَالبِدَايَةُ كَلامٌ يُمْكِنُ احْتِوَاؤُه، وَصَدَقَ مَنْ قَالَ: (وَالحَرْبُ مَبْدَؤُهَا كَلامٌ).

وَلَكِنَّ أَهْلَ الطِّيبِ مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُونَ فَضْلَ حُلْوِ الكَلاَمِ وَتَأْثِيره الَّذِي يَقَعُ عَلَى النُّفُوسِ كَالسِّحْرِ، فَيَنْتَزِعُ مِنْهَا الغَضَبَ.

وَتَحْكِي السِّيرَةُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَوْماً بَيْنَ أَصْحَابِهِ، وَإِذَا بِرجل ظَاهِراً عَلَى وَجْهِهِ آثَارُ الغَضَبِ الأَعْمَى، فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**إِني لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا هَذَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ، لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»[(١)].

فَأَكْثِرُوا مِنَ الذِّكْرِ، فَبِهِ يَتَعَوَّدُ اللِّسَانُ عَلَى الحَلاوَةِ، وَأَكْثِرُوا مِنْ قِرَاءَةِ القُرْآنِ، فَبِهِ يَتَذَوَّقُ اللِّسَانُ مَعْنَى الحَلاوَةِ.

إِنَّ حُلوَ الكَلامِ وَطِيبَ اللِّسَانِ دَلِيلٌ عَلَى طِيبِ الجَنَانِ وَهُوَ القَلْبُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠) عن سليمان بن صرد ﷺ.

فَـ:

١ - طَيِّبُوا أَلْسِنَتَكُمْ، وَحَلُّوا كَلامَكُمْ.

٢ - طُوبَى لمنْ أَدْخَلَ السُّرُورَ عَلَى قَلْبِ أَخِيهِ المسْلِمِ بِكَلِمَةٍ.

٣- الصَّمْتُ أَوْلَى مِن الكَلامِ بِلا مَعْنى وَلا فَائِدَةٍ.

٤ - مِنْ حَلاوَةِ اللِّسَانِ النَّصِيحَةُ الطَّيِّبَةُ الهَادِئَةُ.

٥ - لا تُكْثِرُوا مِن الجَدَلِ.

الحلقة (٢٦)

من طلع من داره قل مقداره

نَقُولُ فِي المَثَلِ الشَّعْبِيِّ: (**من طَلع من داره قل مقداره**)، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ، فَالدَّارُ رَمْزُ الأَمْنِ وَالأَمَانِ، ورَمْزُ السَّكِينَةِ وَالهُدُوءِ.

لِهَذَا سَمَّيْنَاها سَكَناً.

وَقَضِيَّةُ حُبِّ الوَطَنِ وَحُبِّ الدَّارِ قَضِيَّةٌ طبيعيةٌ عِنْدَ المسْلِمِ.

وَلَقَدْ ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْوَعَ المثَلِ فِي حُبِّ الأَوْطَانِ يَوْمَ خرج مِنْ بَلَدِهِ مَكَّةَ أَحَبّ البِلادِ إِلَى قَلْبِهِ، يَوْمَ الهِجْرَةِحيَثْ وقَفَ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَ قَالَ مُخَاطِباً مَكَّةَ: «**وَالله إِنَّكِ لَأَحَبُّ بِلادِ الله إِلَى الله، وَأَحَبُّ بِلادِ الله إِلَى قَلْبِي، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»(١).

وَمِنْ شِدَّةِ شَغَفِ النَّبِيِّ ﷺ ببَلَدِهِ مَكَّةَ كَانَ وَعدَ الله- تَعَالَى- لَهُ حِينَ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾(٢).

فَاللهُ - تَعَالَى - هُنَا يَعْلَمُ حُبَّ نَبِيِّهِ لِبَلَدِهِ وَمَدَى تَعَلُّقِهِ به، فَأَرَادَ أَنْ يُطَمْئِنَ قَلْبَهُ بِأَنَّهُ سَيُرْجِعُهُ إِلَيْه بلا شَكَّ. وَهَذا بِلالُ بْنُ رَبَاح ؓ بَعْدَ الهِجْرَةِ وَقَدْ أُصِيبَ بِالحُمَى في المدينة، فَأَنْشَدَ يَقولُ:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَن لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخرٌ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرِدنْ يوماً مِياهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ تبْدُوَن لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

فَحُبُّ موطنِ الصِّبَا غَلَبَ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى فِي وَقْتِ المرَضِ، فَجَعَلَهُ يَهْذِي بِكَلِمَاتٍ ذَكَرَ فِيهَا أَمَاكِنَ وَمَوَاضِعَ فِي مَكَّةَ كَانَ يَذْهَبُ إِلَيْهَا، وَيَجْلِسُ فِيهَا

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥)، وصححه الأرناؤوط على وهم في إسناده.
(٢) القصص: ٨٥.

وَالواحِدُ فِي وَقْتِ المَرَضِ وَوَقْتِ الحُمى بِالذَّاتْ أَحَياناً يَهْذِي بَـأَقْرَبِ الأَشْـيَاءِ وَأَحَبِّهَا إِلَى قَلْبِهِ. يَقُولُ أَحْمَد شَوقِي بَعْدَمَا عَادَ إِلَى بَلَدِهِ مِنْ رِحْلَةِ المَنْفَى:

وَيَا وَطَنِي لَقيتُكَ بَعْدَ هَجْرٍ كَأَنِّي قَدْ لَقِيتُ بِكَ الشَّبَابا

وَأَظُنُّ أَنَّ حُبَّ الوَطَنِ وَالأُنْسَ إِلَيْهِ وَأَلَمَ الغُرْبَةِ فِي البُعْـدِ عَنْـهُ، دَرْسٌ نَعِيـهِ جَيداً، وَإِحْسَاسٌ لا يُفَارِقُنَا؛ خَاصَّةً وَأننا قَدْ عِشْنَا آلامَ البُعْـدِ عَـنْ الأَوْطَـانِ، وفترَةُ الغَزْو، أَظْهَرَتْ مَكْنُونَ النُّفُوسِ، وبَيَّنَتْ كَيفَ كَـانَ حُـبُّ الـوَطَنِ هُـوَ المُسَيْطِرَ عَلَى مَشَاعِرِ النَّاسِ، وَجَعَلَهَا تَبْذُلُ الغَالِي وَالنَّفِيسَ، وَشُـهَدَاؤُنَا الَّـذِينَ مَاتُوا فِي الدِّفَاعِ عَنْ هَذَا البَلَدِ الغَالِي خَيْرُ دَلِيلٍ.

وكَيفَ لا وَقَدْ سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ مَنْ مَاتَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيد.

فَفِي الحَدِيثِ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُـوَ شَـهِيدٌ، وَمَـنْ قُتِـلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِـلَ دُونَ أَهْلِـهِ فَهُـوَ شَهِيدٌ**»(١).

فَحُبُّ الوَطَنِ رَكِيزَةٌ فِي النَّفْسِ السَّوِيَّةِ.

وَلله در القَائِلِ:

نَسْتَعْذِبُ الأَرْضَ الَّتِي لا هَوى بِهَا وَلا مَـاؤُهَا عَـذْبٌ وَلَكِنَّهَا وَطَـنْ

وكَيفَ لا نَسْتَعْذِبُ وَطَنَنَا وَنَحْنُ نَعِيشُ فِي ظِلِّهِ عيشَةَ الاسْـتِقْرَارِ وَالأَمْـنِ وَالأَمَانِ، وَهَذِهِ نِعْمَةٌ لا يُقَدِّرُهَا إِلا مَنْ فَقَدَهَا وَطُرِدَ مِـنْ وَطَنِـهِ وَأَهْلِـهِ، وَذَاقَ مَرَارَةَ البُعْدِ عَنْه.

إِنَّ لِلوَطَنِ فَضَائِلَ لا تُحْصَى عَدَداً، مِنْهَا أَنكَ فَيهِ تحـتَرَمُ وَتُـصَانُ كَرَامَتُـكَ، وتَجِدُ فِيهِ أَهْلَكَ وَعَشِيرَتَكَ، وَتَجِدُ فِيهِ أَحْبَابَكَ، وَتَجِدُ فِيهِ مَنْ يُعِينُكَ عَلَى الخَـيْرِ

(١) أخرجه البخاري (٢٤٨٠)، ومسلم (١٤١) عـن عبـد الله بـن عمـرو –رضي الله عـنهما، مختـصرا، واللفظ لأبي داود (٤٧٧٢)، والترمذي (١٤٢١)، والنسائي (٤١١٢) عن سعيد بن زيد ﷺ.

وَالبِرِّ، وَكَمَا قَالَ أَهْلُ المثَلِ: (ولـد بطنـي يعـرف رطنـي)، وَيَقُولُـونَ كَـذَلِكَ: (راعي البيت أخبر بما فيه).

فَهَلْ يَطِيبُ لَنَا أَنْ نُفَرِّطَ فِي الأَوْطَانِ؟ أَو هَـلْ يَطِيـبُ لَنَـا أَنْ نَعْتَـبِرَ وَطَنَنَـا سِلْعَةً تَقْبَلُ البَيْعَ وَالشِّرَاءَ؟ أَمْ يَكُـونُ لِحُبُّنَـا هـُوَ خَلُـقُ شُـكْر الله عَـلَى نِعْمَـةِ الوَطَنِ، وَنِعْمَةِ الأَمْنِ، وَنِعْمَةِ العَيْشِ الرَّغِيدِ؟

صور الشكر:

١- الإِخْلاصُ فِي العَمَلِ الوَظِيفِيِّ؛ فَالْمُوَظَّفُ الَّـذِي يُحَـافِظُ عَـلَى مَوَاعِيـدِ عَمَلِهِ وَعلَى إِنْتَاجِيَّتِه يُحَافِظُ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ عَلَى ازْدِهَارِ وَطَنِهِ، وَيُدَلِّلُ عَلَى حُبِّـهِ لِبَلَدِهِ خَيْرَ تَدْلِيلٍ.

٢- وَمِنْ صُوَرِهِ الحِفَاظُ عَلَى النَّظَافَةِ العَامَّةِ، وَهَذِهِ تُعْتَبَرُ مِن الأَسَاسِـياتِ؛ فَالمؤْمِنُ نَظِيفٌ ظَاهِراً وَبَاطِناً، وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى كُلَّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِهِ نَظِيفاً.

٣- وَمِـنْ صُـوَرِ الـشُّكْر عَـلَى نِعْمَـةِ الـوَطَنِ أيـضاً احْـتِرَامُ آدَابِ المـرُورِ وَسُلُوكِيَّاتِهِ وَمَا يَجِبُ فِيهِ وَمَا يُبَـاحُ، وَهَـذِهِ قَـضِيَّةٌ مُهِمَّـةٌ، وَأَظُـنُّ أَنَّ الالْتِـزَامَ بِآدَابِ المرُورِ وَأَخْلاقِيَّاتِ المسْلِمِ فِي السَّيْرِ سَـيُوَفِّرُ عَـلَى الدَّوْلَـةِ الملايِـينَ الَّتِـي تَرْصُدُهَا لِتَطْوِيرِ المرُورِ، وَسَيحلُّ مُشْكِلَةَ الازْدِحَامَـاتِ المرُورِيَّـةِ الَّتِـي تَـزْدَادُ تَعْقِيداً يَوْماً بَعْدَ يَومٍ، وَأَذْكُرُ دَوْلَةً مِن الدُولِ احْتِفَلَتْ بِمُرُورِ مَا يَزِيدُ على عَـامٍ وَلَيْسَ فِيهَا إِشَارَةُ مُرُورٍ وَاحِـدَة؛ لِأَنَّ النَّـاسَ تَلْتَـزِمُ بِالقَوَاعِـدِ الذَّوْقِيَّـةِ قَبْـلَ القَوَاعِدِ المرُورِيَّةِ.

٤- وَمِنْ صُوَرِ الشُّكْرِ عَلَى نِعْمَةِ الـوَطَنِ احْـتِرَامُ قَـوانِينِ البَلَـدِ، وَاحْـتِرَامُ سُلُطَاتِهِ.

٥- وَمِنْ صُوَرِهِ الإِسْهَامُ بِكُلِّ مَا نَسْتَطِيعُ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَرَى بَلَدَنَا شَامَةً بَيْنَ

بِلادِ الدُّنيَا.

فَـ:

(١) وَطَنُنَا عِزُّنَا وَشَرَفُنَا، وَكُل وَاحِد مِنَّايعَـرْفِ ُ الآخـر، كَـمَا يَقُـولُ أَهْـلُ الطِّيبِ: (إعيال أقريَّه كل يعرف أخيَّه).

(٢) الحِرْصُ عَلَى التَحْصِيلِ العِلْمِيِّ مِنْ قِبَلِ شَبَابِ الوَطَنِ.

(٣) الحِفَاظُ عَلَى هوِيَّةِ الوَطَنِ وَتَمَاسُكِ المجْتَمَعِ وَوِحْدَتِهِ.

(٤) عَدَمُ الإِسَاءَةِ لِسُمْعَةِ الوَطَنِ عِنْدَ السَّفَرِ إلى الخَارِجِ.

(٥) بَذْلُ الغَالِي وَالنَّفِيسِ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ، «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**».

(٦) إِحْيَاءُ مَفْهُوم الوَطَن بِالمفْهُومِ الإِسْلامِيِّ الكَبِيرِ.

(٧) نُحِبُّ كُلَّ أَوْطَانِنَا العَرَبِيَّةِ وَالإِسْلامِيَّةِ وَنُدَافِعُ عَنْهَا.

الحلقة (٢٧)

إِذا بَغيتْ صَاحبك دُومْ حاسبه كُل يُومْ

نَقُولُ فِي المَثَلِ الكُوَيْتِيِّ: (إِذَا بَغِيتْ صَاحِبَكَ دُومْ حَاسبهْ كُلّ يُومْ).

وَحَقِيقَةً إِنَّ مَسْأَلَةَ الصُّحْبَةِ وَالصَّدَاقَةِ أَمْرٌ مُهِمٌّ، وَتُرَادِفُهَا الأُخُوَّةُ.

وَلَقَدْ أَقَرَّ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الأُخُوَّةَ بَيْنَ المسْلِمِينَ، فَقَالَ فِي الحَدِيثِ: «**المسْلِمُ أَخُو المسْلِمِ**»[1].

وَالإِنْسَانُ- كَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ- اجْتِمَاعِيٌّ بِطَبْعِهِ، لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعِيشَ بِدُونِ رِفْقَةٍ أَوْ صُحْبَةٍ.

وَقَدْ تَتَعَدَّدُ أَقْوالُ النَّاس فِي الإِجَابَةِ عَلَى السُّؤَالِ الآتِي كَيفَ تُحَافِظُ عَلَى صَدِيقِكَ؟ وَهُنَا يَحْسُنُ بِنَا أَنْ نَقُولَ كَيفَ تَخْتَارَ صَدِيقَكَ؟

مَا هِيَ المَوَاصَفَات الَّتِي تَطْلُبُهَا فِي الشَّخْصِ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقَكَ؟

إِنَّ الصُّحْبَةَ وَالصَّدَاقَةَ بَيْنَ النَّاسِ تَعْتَمِدُ عَلَى اجْتِهَادِ الشَّخْصِ فِي اخْتِيَارِ رِفَاقِهِ وَإِخْوَانِهِ، لَكِنَّهَا أَيْضاً رِزْقٌ مِنَ الله تَعَالَى.

فَفِي الأَثَرِ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**المرءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِه، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[2].

وفِي المَثَلِ: (الطُّيُورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ).

حَتَّى إِنَّ أَحَدَ الأَشْخَاصِ وَجَدَ حَمَامَةً مَعَ غُرَابٍ فِي عِشٍّ وَاحِدٍ، فَتَعَجَّبَ!! وَقَالَ: مُسْتَحِيلٌ أَنْ تَتَفِقَ حَمَامَةٌ مَع غُرَابٍ!!

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨) عن أبي هريرة ﷺ، وحسنه الألباني.

فَذَهَبَ وَهَشَّ عَلَيْهِمَا، فَوَجَدَهُمَا أَعْـرَجَينِ !! فتَبَسَّمَ وَقَالَ: لأَجْلِ ذَلِكَ اتَّفَقَا. فَقَدْ جَمَعَهُمَا مَلٌ مُشْتَرَكٌ وَهُوَ المَرَضُ.

فَهَكَذَا الإِنْسَانُ، لا يَتَوَافَقُ إلا مَعَ مَثِيلِهِ وَشَاكِلَتِهِ فِي الطِّبَاعِ وَالأَخْلاقِ.

وَلِذَلِكَ قَالُوا:

عَنْ المَرْءِ لا تَسَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ

فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمقَارَنِ يَقْتَدِي

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْأَلَ عَنْ أَخْلاقِ أحدٍ مِنَ النَّاسِ فَاسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِهِ وَرِفَاقِهِ، فَسَيَكُونُ مِثْلَهُمْ فِي طِبَاعِهِم وَأَخْلاقِهِم.

وَيَقُولُ أَهْلُ الطِّيبِ فِي مَثَلِهِمْ:(مَنْ رَابَع المصَلِّينَ صَلَّى، وَمَن رَابَع المغنين غَنَّى).

وَهَذَا الكَلامُ يَدْعُو لأَنْ يُحْسِنَ المرْءُ اخْتِيَارَ أَصْحَابِهِ وَرِفَاقِهِ؛ لأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ عَلامَتَهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَهُنَاكَ لا شَكَّ أُسُسٌ كَثِيرَةٌ لاخْتِيَارِ الصَّدِيقِ، لَكِنْ نُجْمِلُهَا كُلَّهَا فِي هَذِهِ العِبَارَةِ:

(اخْتَرْ مَنْ يُقَرِّبُكَ إلى الله- تَعَالَى)

الصَّاحِبُ الَّذِي يُقَرِّبُكَ إلى الله- تَعَالَى - وَتَشْعُرُ مَعَهُ أَنَّكَ تَرْتَقِي فِي سلُوكياتِكَ وَفِي عبادَتكِ، فإنه الصاحب الكفء الَّذي ينْطَبِقُ عَلَيْهِ حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ: «**المرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدَكُمْ مَنْ يُخَالِل**»[1].

كما هو معروف : الصَّاحِب سَاحِب!!

وَاللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فَصَّلَ فِي القُرْآنِ مَصِيرَ الصَّاحِبِ الَّذِي لَمْ يُحْسِن اخْتِيَارَ صَاحِبِهِ فَقَالَ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا

(١) سبق تخريجه.

﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾[1].

وَهَذِهِ الآيَةُ- كَمَا يَقُولُ أَهْلُ التَّفْسِيرِ- نَزَلَتْ فِي عُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيْطٍ الَّذِي فِي بِدَايَةِ أَمْرِهِ كَانَ يُحْسِنُ مُعَامَلَةَ النَّبِيِّ ﷺ، مُتَّخِذاً إِيَّاهُ صَاحِباً، فَلَـمَّا عَلِـمَ بِـذَلِكَ أَصْحَابُهُ مِنْ قُرَيْش أَقْسَمُوا عَلَىٰ أَنْ يَتْرُكَ صُحْبَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَيَعُـودَ إِلى جَمْعِهِـمْ، فَفَعَلَ ذَلِكَ، فنَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الآيَةِ.

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ لا بُدَّ أَنْ يَجْتَهِدَ الوَاحِـدُ مِنَّـا لِكَـيْ يَكُـونَ خَـيْرَ صَـاحِبٍ لِصَاحِبِهِ.

فَكَمَا تطلبُ مِنْ صَاحِبِكَ أَنْ يُعِينَكَ عَلَى الخَيْرِ وَعَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ، فَكُنْ لَـهُ كَذلِكَ، وَعَامِلْهُ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يعَامِلَكَ بِهِ. وهنا يقول أَهْلَ المثلِ: (خذ حق واعط حق).

وَصَدَقَ الشَّافِعِيُّ حِينَ قَالَ:

إِنَّ أَخَاكَ الحـقَّ مَنْ كَانَ مَعَـكْ وَمَنْ يَضُـرُّ نَفْسَـهُ لِيَنْفَـعَـكْ
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَـدَّعَكْ شَتَّـتَ فِيكَ شَمْـلَهُ لِيَجْمَعَـك

صحيح : (الثوب ما ينشَق بين عاقل ومجنون).

فَقَبْلَ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ أَسْبَابِ دَوَامِ العِشْرَةِ مَعَ الـصَّاحِبِ ابْحَـثْ أَولاً عَـنْ الصَّاحِبِ الكفُ ْ ء:

وَلا تَصْحَبْ أَخَا الجهْلِ وَإِيَّـاكَ وَإِيَّـاهُ
فَكَمْ مِنْ جَـاهِـلٍ أَرْدَى حَلِيمـاً حِينَ آخَاهُ

يَقُولُ أَهْلُ المثَلِ: (المجنون مو مِنْ شقق هدومه، المجنون من طشر ربعه).

---

(١) الفرقان: ٢٧ – ٢٩.

وَالمؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ. ولَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنْ يَتَحَوَّلَ الوَاحِدُ مِنَّا إِلى مُجَرَّدِ مُفَتِّشٍ فِي عُيُوبِ النَّاسِ وَيَنْسَى عُيُوبَهُ وَأَخْطَاءَهُ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ خَالٍ مِنَ العِلَلِ، وَكَمَا يُقَالُ: (كَفَى المرْءِ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ).

وَهَذِهِ المحَاسَبَةُ تَعْمَلُ عَلَى دَوامِ صَفَاءِ النَّفْسِ تِجَاهَ الصَّدِيقِ. فَكُلَّمَا كَثُرَ المطْلُوبُ وَكَثُرَت التَّدَاخُّلَاتُ بَيْنَ الأَصْحَابِ- وَعَلَى الأَخَصِّ الأُمُورُ المتَعَلِّقَةُ بِالمَالِ- تَرَكَتْ جُرُوحاً فِي العَلاقَةِ بَيْنَ الأَصْحَابِ، وَأَصْبَحَتْ ذَرَائِعَ وَمَدَاخِلَ لِلشَّيْطَانِ لِيُفْسِدَ مَا يُمْكِنُ إِفْسَادُهُ بَيْنَ الأَصْحَابِ، أَمَّا تَصْفِيَةُ النُّفُوسِ أَولاً بِأَوَّلَ وَقَطْعُ حَبَائِلِ الشَّيْطَانِ، فَهَذَا يَعْمَلُ عَلَى دَوامِ المحَبَّةِ وَالأُلْفَةِ. وَقَالَ أَهْلُ الطِّيبِ: (تَعَامَلُوا كَالأَجَانِبِ، وَتَعَاشَروا كَالإِخْوانِ).

وَتَحْكِي السِّيرَةُ أَن النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي المسْجِدِ وَعِنْدَهُ أَزْوَاجُهُ، فَرُحْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ لِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَي: «**لا تَعْجَلِي حَتَّى أَنْصَرِفَ مَعَكِ**»، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا، فَلَقِيَهُ رَجُلانِ مِن الأَنْصَارِ، فَنَظَرَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَ أَجَازَا وَمَشيَا، فَنَادَاهُمَا النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «**تَعَالَيَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**»، فَقَالا: سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله!!- بِمَعْنَى: وَهَل نَظُنُّ بِكَ سُوءاً- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّم، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنَ يُلْقِي فِي أَنْفُسِكُمَا شَيْئاً**». وَفِي رِوَايَةٍ : «**وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُقْذَفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءاً**»(١).

معنى الحساب في المثل هنا:

١- تَصْفِيَةُ النُّفُوسِ أَوَّلاً بِأَوَّل، وَعَدَمُ تَرْكِ الضَّغَائِنِ وَسُوء الظَّنِّ تَتَرَاكَمُ حَتَّى تَصِلَ إِلَى القَطِيعَةِ.

٢- التِمَاسُ المعَاذِيرِ يُجَنِّبُ الزَّلَلَ وَيُقَوِّي الصُّحْبَةَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٥)، عن صفية بنت حيي – رضي الله عنها.

٣- اجْعَلْ صُحْبَتَكَ طَرِيقاً إِلَى الجَنَّةِ.

٤- أَصْحَابُ المصَالِحِ يَتفَرَّقُونَ عِنْدَما تَنْتَهِي مَصَالِحُهُمْ، وَأَصْحَابُ الشَّهَواتِ يَنْفَضُّون عَنْدما يحْصُدُونَ مرهُّا، وأصحاب الحقِّ والعدْلِ هُمُ البَاقُونَ، لا يُغَيِّرُهُمْ زَمَانٌ وَلا ينْهيهمُ كلانٌ عنْ حقِّ الصُّحْبَةِ وَوَاجِبَاتِهَا.

٥- لا تَقْبَلْ وِشَايَةَ الوَاشِي، وَأَحْسِن الظَّنَّ بِصَاحِبِكَ.

٦- الصَّاحِبُ الوَفِيُّ نِعْمَةٌ، وَفَضْلٌ مِن الله، فَلا تُفَرِّطْ فِيهِ.

يقُولُ أَهْلُ المثَلِ: (لِي صَفَا لِكْ القَمَرْ لا تبَالِي بِالنُّجُومْ).

الحلقة (٢٨)

عتيق الصوف

نَقُولُ فِي المَثَلِ عِنْدَ أَهَلِ الطِّيبِ: (**عَتِيقُ الصُّوف ولا جديد البريسيم**)، وَهَذَا المَثَلُ يُضْرَبُ فِي المسِنِّ القَوِيِّ بِخِبْرَتِهِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا خِلالَ حَيَاتِهِ، وَيُضْرَبُ أَيْضاً لِلمُقَارَنَةِ بَيْنَ أَصَالَةِ القَدِيمِ وجَمَالِ الجَدِيدِ. وَالنَّاسُ عَلَى طَرَفَينِ وَوَسَطٍ فِي هَذِهِ المَسَأَلَةِ طرَفٌ يَتَنَصَّلُ مِن الماضِي وَبِكُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِالماضِي، وطَرَفٌ آخَرُ مُتَمَسِّكٌ بِالماضِي وَبِعَادَاتِ الماضِي وَبِتَقَالِيدِ الماضِي، رَافِضاً كُلَّ جَدِيدٍ.

وَهَذَانِ الصِّنْفَانِ كِلاهُمَا قَدْ ابْتَعَدَ عَن الصَّوابِ.

فَالَّذِي يَرْفُضُ الماضِي بِعَادَاتِهِ وَتَقَالِيدِهِ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِشَجَرَةٍ مُزْهِرَةٍ جَمِيلَةٍ، لَكِنَّهَا تَتَنَكَّرُ لِأَصْلِهَا، وَتُرِيدُ أَنْ تَنْخَلِعَ مِنْهُ؛ لِتَنْعَمَ بِالحُرِّيَّةِ فِي ظِلِّ الهَوَاءِ الطَّلْقِ.

فَهَلْ هَذَا مَعْقُولٌ؟!

وَالشخْصُ الَّذِي يَتَمَسَّكُ بِالقَدِيمِ رَافِضاً كُلَّ جَدِيدٍ عَلَيْهِ، جَاعِلاً الماضِي وَتَقَالِيدَ الماضِي وَعَادَاتِ الماضِي هِيَ المَصْدَرَ الوَحِيدَ وَالفَرِيدَ، فَهُوَ أَيْضاً أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِشَجَرَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَعْلُوَ وَتكْبُرَ مِنْ جُذُورِهَا، لا مِنْ فُرُوعِهَا وَأَوْرَاقِهَا.

وَبَيْنَ هَذَيْنِ الطَّرَفَينِ طرَفٌ وَسَطٌ، وَهُوَ الَّذِي يَجْعَلُ مِنْ تَقَالِيدِ الماضِي العَرِيقِ أساساً له فِي مُسْتَقْبَلِهِ.

فَلِمُجْتَمَعِنَا عَادَاتُهُ وَتَقَالِيدُهُ: فِي المأْكَلِ وَالمشْرَبِ، فِي الزِّينَةِ وَالملْبَسِ، فِي النَّومِ وَاليَقَظَةِ، فِي السَّفَرِ وَالإِقَامَةِ، فِي الزَّمَالَةِ وَالعِشْرَةِ، فِي العَمَلِ وَالرَّاحَةِ، فِي العَلاقَةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ، فِي العَلاقَةِ بَيْنَ الآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ، فِي العَلاقَةِ بَيْنَ الجَارِ وَجَارِهِ، بَيْنَ المشْتَرِي وَالبَائِعِ، بَيْنَ الرَّئِيسِ وَالمرْؤُوسِ.

عَادَاتُنَا وَتَقَالِيدُنَا الَّتِي عَرَفْنَاهَا صَارَتْ عَلامَةً مُمَيِّزَةً لمجْتَمَعِنَا، هَذِهِ العَادَاتُ الَّتِي كَانَتْ فِي مُعْظَمِهَا تَسِيرُ مَع الفِطْرَةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَمَعَ إِسْلامِنَا فِي سَلامٍ وَوِئَامٍ.

هَذِهِ التَّقَالِيدُ وَهَذِهِ العَادَاتُ وَهَذِهِ الآدَابُ جَعَلَتْ لَنَا شَخْصِيَّةً مُتَمَيِّزَةَ الملامِحِ، وَاضِحَةَ المعَالِمِ، شَخْصِيَّةً مُتَمَاسِكَةً، غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلذَّوَبَانِ مَهْمَا تَغَيَّرَ عَلَيْهَا الزَّمَانُ.

وَمِنْ أَهَمِّ مَعَالِمِ هَذِهِ العَادَاتِ: البَسَاطَةُ، وَالاعْتِدَالُ، وَالقَصْدُ، واليُسْرُ، وَالبُعْدُ عَن التكَلُّفِ وَالتَعْقِيدِ فِي حَيَاتِنَا كُلِّهَا.

واسألوا آباءنا كيف كَانَتْ حَيَاتُهُمْ تَسِيرُ سَيْراً حَمِيداً لا إسراف ولا تَبْذِيرَ، لا ضيق ولا حَرَجَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ صُعُوبَةِ الحَيَاةِ وَشَظَفِ العَيْشِ.

صَحِيحٌ أَنَّ مُصْطَلَحَ (صُعُوبَةِ الحَيَاةِ) يَفْرِضُ نَفْسَهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، لَكِنْ حَتَّى صُعُوبَةُ الزَّمَانِ كَانَتْ صُعُوبَةً مَقْبُولَةً.

فِي أَيَّامِنَا حَلَّتْ التكْنُولُوجِيَا فِي كُلِّ بَيْتٍ، لَكِنَّهَا لِلأَسَفِ جَاءَتْ عَلَى حِسَابِ العَلاقَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالأُسَرِيَّةِ، وَحَتَّى عَلَى حِسَابِ صِحَّتِنَا نَفْسِهَا!

صَحِيحٌ أَنَّ التكْنُولُوجِيَا وَفَّرَتْ وَقتاً وَجُهْداً، لَكِنَّهَا فِي المقَابِلِ وَرَّثَتْ خُمُولاً وَتَكَاسُلاً.

جَمِيلٌ أَنْ نَتَحَلَّى بِعَادَاتِنَا وَقِيَمِنَا، وَأن تَكُونَ أَسَاساً فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا.

وَلابُدَّ أَنْ تَتَوَحَّدَ الرَّسَائِلُ الإِعْلامِيَّةُ فِي إِعَادَةِ بِنَاءِ هَذِهِ القِيَمِ، لا أَنْ تَهْدِمَهَا.

فَوَاجِبُ الإِعْلامِ وَاجِبٌ فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَّةِ، فَلَهُ نَصِيبُ الأَسَدِ فِي التَّأْثِيرِ، فَمَطْلُوبٌ منه أن يعمق جُذُورَ القِيَمِ وَالعَادَاتِ الأَصِيلَةِ، لا أَنْ يَأْتِي عَلَى جُذُورِهَا.

وَهُنَا نَوَدُّ أَنْ نُلْفِتَ النَّظَرَ إِلَى أَنَّ:

(١) لَيْسَ كُلُّ قَدِيمٍ مُقَدَّسًا وَمَقْبُولًا، وَلَيْسَ كُلُّ جَدِيدٍ مُدَنَّسًا وَمَرْفُوضًا.

(٢) لا نُرِيــدُ أَنْ يَكُــونَ شِــعَارُنَا ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

(٣) التَّقَدُّمُ وَالتَّطَوُّرُ لا يَعْنِي إِلْغَاءَ القِيَمِ وَتَجَاوُزَ الأَخْلاقِ وَالأَعْرَافِ.

(٤) لَيْسَ عَاراً أَوْ عَيْباً أَنْ يُطَوِّرَ الإِنْسَانُ حَيَاتَهُ وَيُجَدِّدَ فِيهَا مَا دَامَ مُحَافِظاً عَلَى قِيَمِهِ وَعَادَاتِهِ.

(٥) القَدِيمُ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ يَكُونَ بَالِياً، وَلا يَصْلُحُ كَأَسَاسٍ لِلتَّقَدُّمِ وَالرُّقِيِّ، وَإِلا لماذَا نُغَالِي فِي قِيمَةِ التُّحَفِ.

(٦) لا مَانِعَ مِن الاشْتِرَاكِ مَعَ أُمَمِ الأَرْضِ فِي القِيَمِ الإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي لا تَتَصَادَمُ مَعَ هويَّتِنَا.

(٧) وَرَدَ فِي صِيَغ أُخْرَى لِلمِثَلِ: (عَتِيج البريسيم ولا جديدُ الصُّوفِ)- وَعَلَى هَذَا فَالأَمْرُ مُتَعَلِّقٌ بالأُلْفَةِ وَالوَفَاءِ للقَدِيمِ، لا بِجَوْدَةِ القُمَاشِ الَّذِي مِن الصُّوفِ أَوْ البريسيم، وَالوَفَاءُ يُعْتَبَرُ مِنْ أَنْدَرِ الأَخْلاقِ، وَقَدْ أَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ زَمَنٍ سَيَأْتِي يُقَالُ: «**فِي بَنِي فُلانٍ رَجُلٌ أَمِينٌ**»[2]، وَهَكَذَا هِي الأَخْلاقُ الرَّاقِيَةُ فِي المجْتَمَعَاتِ عِنْدَمَا يَضِيعُ فِيهَا عَالَمُ القِيَمِ، انْظُرُوا إِلَى الرُّقِيِّ فِي الوَفَاءِ: البَعِيرُ الَّذِي اشْتَكَى- وَالجِذْعُ الَّذِي حَنَّ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَفِيًّا لَهُ بَعْدَ بِنَاءِ المِنْبَرِ الجَدِيدِ.

(٨) (عَتِيجُ الصُّوفِ وَلا جَدِيدُ البريسيم).

(٩) عَتِيجُ الصُّوف طَيب، وَجَدِيدُ البريسيم طَيب، وَالطَّيِّبُ فِي كُلِّ أَحْوالِهِ خَير وبركة كَمَا يَقُولُ أَهْلُ المثَلِ: (بتيل بن تمام شاحن فاضي بريالين).

---

(١) الزخرف: ٢٢.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٩٧)، ومسلم (١٤٣) عن حذيفة ﷺ.

الحلقة (٢٩)

درب العبادة طويل

(**طَرِيقُ العِبَادَةِ طَوِيلٌ**).. فَيَبْدَأُ مِنْ بِدَايَةِ التَّمْيِيزِ إِلَى البُلُوغِ وَالتَّكْلِيفِ ثُمَّ إِلَى المَوْتِ. فَالعِبَادَةُ هِيَ أَسَاسُ خَلْقِ الإِنْسِ وَالجِنِّ، قَالَ اللهُ- تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[١]، وَلِهَذَا جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[٢]، فَالعِبَادَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِالحَيَاةِ مِنْ بِدَايَتِهَا إِلَى نِهَايَتِهَا، لِيَكُونَ الحَصَادُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الحَيَاةِ الحَقِيقِيَّةِ ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[٣].

وَأَوَّلُ مَرَاحِلِ هَذِهِ الحَيَاةِ القَبْرُ، وَهُوَ إِما رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ، فَالمَسْأَلَةُ لَيْسَتْ نُزْهَةً لِمُدَّةٍ مُحَدَّدَةٍ وَتَنْتَهِي، بَلْ أَيَّامٌ تُطْوَى وشُهُورٌ وَسِنُون تَعْصِفُ، وَفِتَنٌ كَأَمْوَاجِ البِحَارِ، وَشَيَاطِينُ الجِنِّ والإِنْسِ تَشْتَغِلُ لِصَرْفِ الإِنْسَانِ عَن العِبَادَةِ وَالاسْتِمْرَارِ فِيهَا ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[٤].

فَالمَسْأَلَةُ تَحْتَاجُ إِلَى بَذْلٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٥].

وَقَدْ كَانَ سَلَفُنَا- رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم- يَخْشَونَ مِنْ أَنْ يُفْتَنُوا فِي عِبَادَتِهِمْ، حَتَّى فِي نَزعِهِمُ الأَخِيرِ، كَمَا جَاءَ فِي قِصَّةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ اللهُ - عِنْدَمَا كَانَ يُلَقِّنُهُ ابْنُهُ الشَّهَادَةَ وَهُوَ فِي النَّزْعِ الأَخِيرِ، فيَقُولُ: لا.. لا.. ويُغْشَى عَلَيْهِ. فَلَمَّا أَفَاقَ سُئِلَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: (لَسْتَ أَنْتَ أَعْنِي، بَلْ هَذَا الشَّيْطَانُ، جَاءَ وَهُوَ

---

(١) الذاريات: ٥٦ - ٥٨.
(٢) الحجر: ٩٩.
(٣) العنكبوت: ٢٢.
(٤) الأنعام: ٢٢.
(٥) العنكبوت: ٢٢.

عَاضٌّ عَلَى أُصْبَعِهِ يَقُولُ: فُتَّنِي يَا أَحْمَدُ. فَأَقُول: لا بعـد.. لا بعـد.. حَتَّـى أَطَـأَ بِقَدَمِي الجَنَّةَ).

وَهَذَا الطَّرِيقُ الطَّوِيلُ المحفُوفُ بِالمكَـارِهِ وَالفِـتَنِ كَـمَا وَرَدَ: «**حُفَّـت الجنَّـةُ بِالمكَارِهِ، وَحُفَّت النَّارُ بِالـشَّهَواتِ**»[1]، يَحْتَـاجُ إِلَى عَوَامِـلَ كَثِـيرَةٍ لِـمُوَاصَلَةِ الطَّرِيقِ إلى الله، وَخُصُوصاً أَنَّنَا بَدَأْنَا الطَّرِيقَ إِلَى اللهِ فِي شَـهْرِ الـصَّبْرِ وَالقُـرْآنِ وَالتَّهَجُّدِ، وَهَا قَدْ قَارَبَ شَهرُنَا عَلَى الوداعِ لِيترُكَنَا عَلَى طَرِيـقِ المجَاهَـدَةِ بَعْـدَ تَفَلُّتِ مَرَدَةِ الشَّيَاطِينِ مِنْ أَغْلالِهَا.

وَهُنَا يَحْسُنُ بِنَا أَنْ نَذْكُرَ بَعْضَ مَا يُعِينُ الإِنْسَانَ عَلَى مُوَاصَلَةِ طَرِيقِ العِبَـادَةِ الطَّوِيلِ:

أَوَّلاً: الرفْقَةُ الطَّيِّبَةُ:

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**المؤْمِنُ لِلمؤُمِنِ كَالبُنْيَانِ، يَـشُدُّ بَعْـضُهُ بَعْـضًا**»[2]، فَفِـي الأُخوَّةِ تَقْوِيَةٌ لِجُنُودِ القَلْبِ، وَاسْتِرَاحَةٌ لِلأَرْوَاحِ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْـلَى، وَكَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ: (إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ وداً مِنْ أَخِيهِ فَلْيَتَمَـسَّكْ بِـهِ، فَقَلَّمَا يُصِيبُ ذَلِكَ)، وَقَالَ ﷺ: (عَلَيْكَ بِإِخْوانِ الصِّدْقِ، فَهُمْ زِينَـةٌ فِي الرَّخَـاءِ وعِدَةٌ فِي البَلاءِ).

كَمَا يَقُولُونَ: الصَّاحِب سَاحِب.

ثَانِياً: البِيئَةُ الطَّيِّبَةُ:

انْظُرُوا فِي زَمَنِ عُمَرَ بْن عَبْدِ العَزِيزِ، الخَلِيفَـة العَابِـد المجَاهِـد، كَـانَ حَـدِيثُ النَّاسِ عَن العِبَادَةِ وَالصِّلَةِ بِالله- سُبْحَانَهُ- فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَسْأَلُ بَعْضاً: كَمْ قَـرَأْتَ مِن القُرْآنِ؟ كَمْ كَانَ وِرْدُكَ البَارِحَةَ؟ كَمْ صَلَّيْتَ؟ هَلْ تَصَدَّقْتَ اليَوْمَ؟

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٧) عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم (٢٨٢٢) عن أنس بن مالك ﷺ واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥) عن أبي هريرة ﷺ.

فِي زَمَنِ بَعْضِ الخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَفَنَّنُونَ فِي الملابِسِ وَالأَطْعِمَةِ كَانَ حَدِيثُ النَّاسِ عَنْ آخِرِ أَنْوَاعِ الأَطْعِمَةِ وَالحَلويَاتِ المغْرِبيَّةِ وَالشَّرْقِيَّةِ.

ثَالِثاً: الرِّفْقُ فِي كُلِّ شَيْءٍ:

قَالَ ﷺ: «**إن الرِّفْقُ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلا زَانَهُ، وَمَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إلا شَانَهُ**»[١]، وَهَذَا الَّذِي كَانَ عليه النبيُّ ﷺ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِي اللهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ فَقَالَ: «**مَنْ هَذِهِ؟**» قَالَتْ: فُلانَةٌ- تَذْكُرُ مِنْ صَلاتِهَا. قَالَ: «**مَه، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوالله لا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا**»[٢].

قَالَ الإِمَامُ النَّوويُّ - رَحِمَهُ اللهُ: (بِدَوامِ القَلِيلِ تَسْتَمِرُّ الطَّاعَةُ، بِخَلافِ الكَثِيرِ الشَّاقِّ المنْقَطِعِ).

رَابِعاً: اتِّبَاعُ السُّنَّةِ وَتَرْكُ البِدَعِ:

كلُّكُمْ سَمِعَ أَوْ قَرَأَ قِصَّةَ النَّفَرِ الثَّلاثَةِ الَّذِينَ سَأَلُوا عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: أَيْنَ نَحْنُ مِنْ رَسُولِ الله، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؛ فَذَكَرَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَصُومُ وَلا يُفْطِرُ، وَالآخَرُ يَقُومُ مِن اللَّيْلِ وَلا يَنَامُ، وَالآخَرُ لا يَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدما عرفَ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**أَنْتُم الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا. أَمَا وَالله إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِي**»[٣].

خَامِساً: الاسْتِفَادَةُ مِنْ إِقْبَالِ النَّفْسِ وَقْتَ إِقْبَالِهَا، وَالرِّفْقِ بِهَا وَقْتَ إِدْبَارِهَا، فَلِلنَّفْسِ إِقْبَالٌ وإِدْبَارٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤)، عن عائشة – رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥) عن عائشة – رضي الله عنها.
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) عن أنس بن مالك ﷺ.

سَادِساً: مَعْرِفَةُ جَوامِعِ الكَلِمِ النَّبَوِيِّ، فَهُوَ الطَّرِيقُ القَصِيرُ المُوَصِّلُ إِلَى الخَيْرِ:

فَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْد جُوَيْرِيَةَ بِنْت الحَارِثِ- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: مَا زِلْتِ عَلَى الحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ. فَقَالَ النبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَات، ثَلاث مَرات، لَو وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ اليَوْم لَوَزَنَتْهُنَ: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»[(١)].

هَذِهِ الدُّنْيَا مَعْبَرٌ إِلَى الدَّارِ الآخِرَةِ، وَمَسِيرٌ إِلَى دَارِ القَرَارِ: إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَة ﷺ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَنْ يُنْجِي أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»، قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**وَلا أَنَا، إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْء مِنْ الدُّلْجَةِ**»[(٢)].

وَعَنْ ابْنِ المبَارِكِ- مَرْفُوعاً- قَالَ: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ**»[(٣)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَن النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِينَ أَحَدٌ إِلا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِروا، وَاسْتَعِينُوا بِالغُدوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ**»[(٤)].

فَسَدِّدُوا: بِالتِزَامِ الصَّوابِ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ ولا تَفْرِيط.

وَقَارِبُوا: إِذَا لَمْ تَسْتَطِيعُوا الأَخْذَ بِالأَكْمَلِ، وَاعْمَلُوا بِمَا يُقَارِبُهُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٦) عن جويرية – رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨) عن أنس ﷺ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٤٦) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٩) عن أبي هريرة ﷺ.

وَأبشِرُوا: بِالثَّوابِ عَلَى العَمَلِ الدَّائِمِ وَإِنْ قَلَّ، فَالعَجْزُ عَن العَمَلِ بِالأَكْمَلِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ صَنِيعَةِ العَابِدِ فَهُو لا يَسْتَلْزِمُ نَقْصَ الأَجْرِ.

واسْتَعِينُوا بِالغُدوَةِ : وَهُوَ سَيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ.

وَالرَّوْحة: السَّيْرُ بَعْدَ الزَّوالِ.

وَالدُّلْـجَةُ: سَيْرُ آخِرِ اللَّيْلِ.

وَالمَرَادُ: الاسْتِعَانَةُ عَلَى مُدَاوَمَةِ العِبَادَةِ بِإِيقَاعِهَا فِي الأَوْقَاتِ المنَشِّطَةِ .

«**إنَّ المنبَتَّ لا أرضاً قَطَعَ، وَلا ظَهْراً أَبْقَى**».

الحلقة (٣٠)

إن خلاك البين ما خلاك الكبر

مِنْ أَمْثَالِنَا الكُوَيتِيَّةِ: (إن خلاك البين ما خلاك الكبر)، وَلِذَلِكَ نَقُولُ: (**يَا الله حسن الخاتمة**)، وَنَقُولُ: (الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا)، وَهَذِهِ- دَائِماً- مَا تُقَالُ فِي خِتَامِ الأَعْمَالِ وَالأَعْمَارِ.

وَهَا نَحْنُ اليَوْمَ نُوَدِّعُ شَهْراً عَزِيزاً غَالِياً، شَهْراً كَمْ نَتَمَنى أَنْ تَكُونَ السَّنَةُ كُلُّهَا مِثْلَهُ.

وَنَسْأَلُ اللهَ- عَزَّ وَجَلَ- أَنْ يَكُونَ حسنَ الخِتَامِ، وَأَنْ يَتَقَبَّلَهُ اللهُ مِنَّا، وَأَنْ يُحْسِنَ خَاتِمَتَنَا جَمِيعاً.

وَمِثْلَمَا تَثَاقَلَ البَعْضُ مِن الشَّهْرِ ومَضَى الشَّهْرُ، قَدْ يَتَثَاقَلُ آخَرونَ مِنَ العِبَادَةِ طُولَ العُمُرِ، حَتَّى يَمْضِيَ العُمْرُ!

وَحَقِيقَةً إِنَّ حُسْنَ الخَاتِمَةَ هُوَ الفَوْز الحِقِيقِي لِلمُؤْمِنِ.

مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلْيهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ، فَمَنْ مَاتَ وَهُوَ سَاجِدٌ- وَيَا لَهَا مِنْ خَاتِمَةٍ حَسَنَةٍ- بُعِثَ يَومَ القِيَامَةِ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَمَنْ مَاتَ وهُوَ مُقِيمٌ عَلى المَعَاصِي- نَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ- بُعِثَ عَلَى هَيْئَتِهِ.

كَمَا أَنَّ الشَهِيدَ يَأْتِي يَوْمَ القِيامَةِ عَلَى هَيْئَتِهِ!

وَمَسْأَلَةُ حُسْن الخَاتِمَةِ مَسْأَلَةٌ فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَّةِ، حَتَّى فِي عِلْمِ الإِدَارَةِ؛ فَعُلَمَاءُ الإِدَارَةِ يَقُولُونَ: (ابْدَأْ عَمَلَكَ وَعَيْنُكَ عَلَى الخَاتِمَةِ)، لماذَا؟!

لأَنَ اَلخاتمةِ عَنْدِ ذَلكِ ستكوُن هُيِ الهدفَ الَّذِي تَتَحَوَّلُ كُلُّ وَسِيلَةٍ إِلى تَحْقِيقِهِ، وتَجْعَلُ المسْلِمَ دَائِماً حَرِيصاً عَلَى أَنْ يُخْتَمَ لَهُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ.

وَلِيَقِينِ العَبْدِ أَنَّ الآجَالَ مَحْسُوبَةٌ وَالأَنْفَاسَ مَعْدُودَةٌ، وَهُوَ لا يَعْلَمُ السَّاعَةَ

التِي سَيُقْبَضُ فِيهَا. هَذَا يَجْعَلُهُ يَحْسِبُ أَنَّ كُلَّ لَحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ هِي الخَاتِمَةُ، فَلا يَطْمَئِنُّ إِلى الدُّنْيَا وَلا يَرْكَنُ، حَتَّى أَنَّهُ إِنْ قَارَفَ ذَنْباً- وَهذِه طَبِيعَةُ الإِنْسَانِ- فَإِنَّهُ سَيُسْرِعُ فِي التَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ.

فرُبَّ نفَسٍ خارجٍ لَيْسَ بعائِدٍ، وَاللَّحْظَةُ التِي تَمُرُّ لا تَعُودُ أَبَداً، وَرُبَّ شُرُوقٍ لَيْسَ بَعْدَهُ غُرُوب.

أَحِبَّتِي فِي الله: إِنَّ نَصِيبَ الإِنْسَانِ مِن الدُّنْيَا عُمْرُهُ، فَإِنْ أَحْسَنَ اسْتِغْلَالَهُ فِيمَا يَنْفَعُهُ فِي دَارِ القَرَارِ رَبِحَتْ تِجَارَتُهُ، وَأَمَّا إِنْ أَسَاءَ اسْتِغْلَالَهُ.. فَتَخَيَّلُوا أَنْتُمْ! تَاجِراً يُفَرِّطُ فِي رَأْسِ مَالِهِ.. مَاذَا يَكُونُ مَصِيرُهُ؟

لَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ- رِضْوَانُ الله تَعَالَى عَلَيهِم- يَخَافُونَ مِنْ سُوءِ الخَاتِمَةِ، وَهُمْ مَنْ هُمْ وَرَعاً وَتُقًى واتبَاعاً.

يَقُولُ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ الله التُّسْتَرِي: (خَوْفُ الصِّدِّيقِينَ مِنْ سُوءِ الخَاتِمَةِ عِنْدَ كُلِّ خُطْوَةٍ وَعِنْدَ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَهُم الَّذِينَ وَصَفَهُمُ الله- تَعَالَى - إذ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[1].

وَهَذَا أَنَس بْنُ مَالكٍ ﷺ يَقُولُ: (أَلا أُحَدِّثُكُم بِيَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ لَمْ تَسْمَع الخلائقُ بِمِثْلِهِنَّ؟ قَالُوا: بَلَى. فَقَالَ: أَولُ يَوْمٍ يَجِيئُكَ البَشِيرُ مِن الله إِمَّا بِرِضَاهُ وَإِمَّا بِسَخَطِهِ.

واليَومُ الثَّانِي: يَومٌ تُعْرَضُ فِيهِ عَلَى رَبِّكَ آخِذًا كِتَابَكَ، إِمَّا بِيَمِينِكَ وَإِمَّا بِشِمالِكَ.

وأَولُ لَيْلَةٍ: هِيَ لَيْلَةٌ تَبِيتُ فِيهَا فِي قَبْرِكَ.

وَاللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ : هِي لَيْلَةٌ صَبِيحَتُهَا يَوْم القِيَامَةِ).

---

(١) المؤمنون : ٦٠ .

يَا أَهْلَ حُسْنِ الخَاتِمَةِ – بِإِذْنِ الله– إِنَّ سَبَبَ شَقَاءِ كَثِيرٍ مِن النَّاسِ هُوَ خِدَاعُ الشَّيْطَانِ حِينَ يُصَوِّرُ لَهُ أَنَّ أَمَامَهُ عُمْراً طَوِيلاً وَسِنِينَ مُتَعَاقِبَةً، يَبْنِي فِيهَا آمَالاً شَامِخَةً، فَيَجْمَعُ هِمَّتَهُ لِـمُواجَهَةِ هَذِهِ السِّنِينَ لِبِنَاءِ هَذِهِ الآمَال، وَيَنْسَى الآخِرَةَ، وَيَنْسَى المَصِيرَ.

وَإِذَا ذُكِّرَ يوماً بِيَوْم الحِسَابِ وَالعِقَابِ اسْتَثْقَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يُنَغِّصُ عَلَيْه وَيُكَدِّرُ حَيَاتَهُ.. لَكِنَّهَا الحَقِيقَةُ فَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يُحَذِّر من اتِّبَاع الهَوى، وَطُول الأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الهَوى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الحقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَإِنَّهُ الحُبُّ لِلدُّنْيَا.

أَتَعْلَمُونَ أَنَّ الموْتَ المفَاجِئَ الآنَ، وَمَوتَ الحَوادِثِ، هُوَ مِنْ أَعْلَى نِسَبِ الوَفَاةِ فِي العَالَمِ.

وَمَوْتُ المفَاجَأَةِ هُوَ الموْتُ الَّذِي لا يَسْبِقُه مَرَضٌ مُمِيتٌ، بَلْ فَجْأَةً تَصْعَدُ الرُّوحُ إِلَى بَارِيهَا.

وَقِصَصُ حُسْنِ وَسُوءِ الخَاتِمَةِ مَشْهُورَةٌ:

فَهَذَا يَمُوتُ وَهُوَ يَتَلَفَّظُ بِالشَّهَادَةِ، وَهَذَا يَمُوتُ وَهُو سَاجِدٌ لِرَبِّهِ، وَهَذَا يَمُوتُ وَهُوَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، وَآخَرُ يَمُوتُ وَهُوَ مُتَلَبِّسٌ – وَالعِيَاذُ بِالله– بِالزِّنَا وَبِالمعْصِيَةِ.

فَيا الله.. نَسْأَلُكَ حُسْنَ الخَاتِمَةِ.

نَسْأَلُكَ عَمَلاً صَالحاً تَخْتِمُ بِه حَيَاتَنَا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَ – بِعَبْدٍ خَيْراً عَسَلَهُ**»، قِيلَ: وَمَا عَسَلَهُ يَا رَسُولَ الله؟ فقَالَ – عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**يَفْتَحُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ– لَهُ عَمَلاً صَالِحاً قَبْلَ مَوْتِهِ ثُمَ يَقْبِضهُ عَلَيْهِ**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٠) عن أبي عنبة ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧).

فَاسْأَلُوا اللهَ - تَعَالَى - دَائِماً وَأَبْداً حُسْنَ الخَاتِمَةِ.. واعْلَمُوا أَنَّـهُ- سُـبْحَانَهُ- كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا يَمَلُّ الله حَتَّى تَمَلُّوا**»(١).

نَحْنُ الآنَ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ، وَلله- تَعَـالَى- فِيهَـا عُتَقَـاءُ، فَمِنـا مَـنْ أَحْسَنَ فِي نَهَارِهِ وَلَيْلِهِ، فَفَازَ بِرِضْوَانِ الله- تَعَالَى، وَمِنا مَنْ أَسَاءَ وَقَصَّرَ - نَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ لِلجَمِيعِ.

وأعلموا أن : (المحْرُوم مَنْ حُرِمَ الخَيْرَ).

فَأَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلِكُلِّ القراء حُسْنَ الخَاتِمَةِ، وَنَعُوذُ بِالله- تَعَالَى- مِنْ سُوئِهَا.

---

(١) سبق تخريجه.

الحلقة (٣١)

سر الخَلْطَة

معَـرْوُف ٌ أَنَّ كَلِمَـةَ: (**سِر الخَلْطَـة**) مَـشْهُورَةٌ فِي عَـالَمِ الطَّعَـامِ وَفِي أَشْـهَى المأكُولاتِ.

وَكُلَّمَا كَانَت الخَلْطَةُ لَذِيذَةً حَرِصَ النَّاسُ عَلَى مَعْرِفَةِ سِرِّ هَذِهِ الخَلْطَةِ.

لَكِنْ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَسْحِبَ هَذَا المصْطَلَحُ عَلَى المجْتَمَعِ الخَلِيجِيِّ الكُوَيْتِيِّ؟ بِمعنى أَنْ نَقُولَ إنَّ هَذَا المجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ التَّجَانُسِ وَالتَّمَيُّزِ مَا يَجْعَلُ لَهُ سِراً يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ بَاقِي المجْتَمَعَاتِ؟

عُلَمَاءُ الاجْتِمَاعِ يَجْعَلُونَ لِكُلِّ مُجْتَمعٍ بَشَرِيٍّ- أَياً كَانَ- عَادَاتٍ وَتَقَاليدَ وَقِيمًا لهَا تَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهِ مِن المجْتَمَعَاتِ، فَلِلمُجْتَمَعَاتِ العَرَبِيَّةِ بِوَجْهٍ عَام عَـادَات وَتَقَالِيدُ، وَلِلمجتَمَعَاتِ الغَرْبِيَّةِ كَذَلِكَ عَادَات وَتَقَالِيدُ.

وَنَحْنُ فِي الخَلِيجِ لَنَا عَادَاتُنَا وَتَقَالِيدُنَا وَمِيزَاتُنَا التِي تُمَيِّزُنَـا عَـنْ غَيْرِنَـا مِـن المجْتَمَعَاتِ، وَحِفَاظُنَا عَلَى قِيَمِنَا وَعَادَاتِنَا وَتَقَالِيدِنَا هُوَ مَا يُمَيِّـزُ خَلْطَتَنَـا الَّتِـي يَبْدُو فِيهَا تَنَوُعٌ فِي الاتِّجَاهَاتِ، ولَكِنْ فِي النهَايَةِ هُنَاكَ لُحمةٌ مُجْتَمَعِيَّـةٌ لَهَـا طَعْـمٌ خاص اسمها أهلُ الكويتِ.. أهل الخليج!!

وَمِنْ مَبَادِئ عِلْمِ الاجْتِمَاعِ أَن العَادَاتِ وَالتَّقَالِيدَ لا تَنْمُو فَجْأَةً، وَكَذَلِكَ لا تَنْهَدِمُ فَجْأَةً؛ فَهِيَ تَنْمُو مَعَ الـزَّمَنِ. وَطَالَمَا أَنَّهَا لا تخَـالِفُ شَرْعَ الله- تَعَـالَى- فَفِيهَا البَرَكَةُ.

وَكَمَا يَقُولُ أَهْلُ الأُصُولِ: العَادَةُ مُحَكَّمَةٌ.

وَمِنْ أَهَمِّ مَا يُمَيِّزُ مُجْتَمَعَنَا هُو الوحْدَةُ رَغْمَ التَّنَوعِ، وَهَذِهِ حَقِيقَـةٌ يَلْحَظُهَـا الخَلِيجِيُّونَ عَلَى العُمُومِ والكُوَيْتِيِّونَ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ.

فِفِي أَشَدِّ المَوَاقِفِ والأَحْدَاثِ التِي مَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الكُوَيْتِ فِي زَمَن الغَـزْوِ الصَّدَّامِي ظَهر فيها كيفَ كَانَ الشَّعْبُ الكُوَيْتِيُّ مُتَمَاسِـكاً قَوِيـاً ويَـداً وَاحِـدَةً، وَالسِّرُّ هُنَا هُـوَ أَنَّ هَـذَا الـشَّعْبَ لَـهُ قِيَمُـهُ وَآدَابُـهُ التِـي تَحْفَظُـهُ مـن الخباتـة والانزلاق.

وَهَذِهِ القِيَمُ، وَهَذِهِ الآدَابُ، يُمْكِنُ أَنْ نَقُـولَ عَلَيْهَـا إنَّهَـا كَـوَابِح لِـمِحَنِ الزَّمَنِ.. وَكَمَا يُقَالُ: الفِتَنُ مُنبِّهَاتٌ حَضَارِيَّةٌ!!

فَطَبِيعَةُ أَيِّ مُجْتَمَعٍ تَفْرِضُ أَلا يَكُونَ جَمِيعُ أَفْرَادِهِ لَهُمْ نَفْـسُ طَبِيعَـةِ التَّفْكِـيرِ وَالتَوَجُّهَاتِ وَالأَحْلامِ وَالآمَالِ وَالطُّمُوحَاتِ وَالغَايَاتِ، فَهَـذَا الأَمْـرُ يُعطـي المجْتَمَعَ حَيَوِيَّةَ التَّنَوُّعِ، على أَنْ يُحَافِظَ عَلَى ثَوابِتِ ذَلِـكَ المجْتَمَـعِ الَّـذِي تَرَبَّـى عَلَيْهَا جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، وَلا عليهِ أَنْ يَقْلَقَ كَثِـيراً مِـنْ مَظَـاهِرِ الاخْـتِلافِ الَّتِـي تُصِيبُ الظَهْرَ ولا تصلُ إلى الجوهَرَ، فالاختلافُ مُرَحَّبٌ بِهِ، مَا دَامَ لا يَتَحَـوَّلُ إِلَى خِلافٍ يَعْمَلُ كَمِعْوَلِ هَدْمٍ فِي أُسُسِ الوِحْدَةِ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا هَذَا المجْتَمَـعُ. فالأَزَمَات وَالتَحَدِّيَات الدَّاخِلِيَّة وَالخَارِجِيَّة، مِنْ مَزَايَاهَا أَنَّهَا تُظْهِرُ قُدْرَةَ وَقُـوَّةَ هَـذَا المجْتَمَـعِ عَـلَى التَّعَامُـلِ مَعَهَـا وَصَـهْرِهَا وَتَـذْوِيبِهَا فِي هوِيَّـةِ المجْتَمَـعِ وَخُصُوصِيَّتِهِ.

وَمَهْمَا عَلت الأصواتُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ، فَإِنَّ هَذِهِ الأَصْوَاتَ تَنْطَلِقُ مِن الزَّاوِيَةِ الَّتِي تَرَى بِهَا المصْلَحَةَ العَامَّةَ، وَلا بَأْسَ مِن الاخْتِلافِ فِي تَقْيِيم هَذِهِ المصْلَحَة، كُلٌّ حسبَ خِبْرَتِهِ وَرُؤْيَتِهِ لِلأُمُورِ. وَلَكِنَّ هَذَا الاختِلافَ يَجِبُ أَنْ يَـتِمَّ بِطَرِيقَـةٍ رَاقِيَّةٍ وَنَاضِجَةٍ، لا نَزْرَعُ فِيهِ أَشْوَاكَ الهَدْمِ وَعِبَارَاتِ التَّجْرِيحِ، وَلَكِنْ نَزْرَعُ فِيهِ زُهُورَ التَّفَاهُمِ، وَوُرُودَ المَوَدَّةِ وَالبِنَاءِ وَالمحَبَّـةِ، وَيَكُـونُ دَيْـدَنُنَا دَائِـماً المـشُورَةَ وتَبَادُل الآرَاءِ وَتَنْضِيج الأَفْكَارِ.

وَجِمَاعُ ذَلِكَ كُلِّهِ قَوْلُ المصْطَفَى ﷺ فِي وَصْفِهِ لِلمُجْتَمَع: «**يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُم**»[1]، لا يُفرِّطونَ في اسْتِقْرَارِ مُجْتَمَعِهِم، وَلا يُقَدِّمُونَ مَصْلَحَةً خاصَّةً عَلَى مَصْلَحَةٍ عَامَّةٍ.

كيفَ لا، وَنَحْنُ لَمْ نَتَأَلَّفْ، وَنَحْنُ أُسْرَةٌ وَاحِدَةٌ.. هَذَا عَمٌّ، وَهَذا خَالٌ، وَهَذَا ابْنٌ، وَهَذَا جَارٌ.

وَنَحْنُ نَقُولُ أَيْضاً: إِن المجْتَمَعَ الَّذِي يَحْيَا بِلا قِيَم، وَيَحْيَا بِلا أَخْلاق هُوَ مُجْتَمَعٌ قَابِلٌ لِلانْهِيارِ وَالتَّفَكُّكِ، أَمَّا مُجْتَمَعُ الفَضِيلَةِ وَمُجْتَمَعُ العِفَّةِ فَهُوَ المجْتَمَعُ المُتَماسِكُ القَوِيُّ، هُوَ المجْتَمَعُ الَّذِي يَمْلِكُ مَا يُوَرِّثُهُ لأَبْنَائِهِ، وَأَظُنُّ أَنَّ لُغَةَ الأَرْقَام مِنْ أَقْرَبِ اللُّغَاتِ إِلَى الصِّدْقِ وَالإِقْنَاع.

اقْرَؤوا مَاذَا تَقُولُ مُعَدَّلاتُ وَنِسَبُ السَّرِقَةِ مَثَلاً أَوْ نِسَبُ الاغْتِصَابِ أَوْ الإِجْهَاضِ نَتِيجَةً لِلزِّنَا، أَوْ نِسَبُ التَّفَكُّكِ الأُسَرِيِّ فِي الغَرْبِ، فَسَتَجِدُونَ أَرْقَاماً مُخِيفَةً فِي كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ المجْتَمَعَاتِ، وَهَذِهِ الأَرْقَامُ فِي ازْدِيَادٍ مُسْتَمِرٍّ.

أَمَّا مُجْتَمَعَاتُنَا الإِسْلامِيَّةُ فَهِي لَيْسَتْ مُجْتَمَعَات مَلائِكِيَّةً.. كلا، لَكِنَّهَا مُجْتَمَعَاتٌ مُحَافِظَةٌ، مُجْتَمَعَاتٌ مُصَانَةٌ.. قَدْ نَجِدُ فِيهَا المنْكَرَ، لَكِنْ نَجِدُ أَيْضاً مَنْ يُغَيِّرُهُ، مُجْتَمَعَاتٌ قَدْ نَجِدُ فِيهَا مُفْرَدَاتِ الذَّنْبِ، لَكِنْ لا تَغِيبُ عَنْهُ لُغَةُ التَّوْبَةِ.

فَدِينُنَا وقِيَمُنَا وَعَادَاتُنَا هِي التِي تَعْصِمُنَا مِن الفِتَنِ.. هِي التِي تُحَافِظُ عَلَى نَكْهَتِنَا بيْنَ الأُمَم.

إِنَّ طَبِيعَةَ مُجْتَمَعَاتِنَا الإِسْلَامِيةِ أَنَّ الإِسْلَامَ فِيهَا لَيْسَ مُجَرَّدَ تَشْرِيعٍ وَقَانُونٍ، بَلْ هُوَ عَقِيدَة تُفَسِّرُ الوُجُودَ، وَعِبَادَةٌ تُربِّي الرُّوحَ وَالأَخْلَاقَ وَتُزَكِّي النَّفْسَ، وَمَفَاهِيمُ تُصَحِّحُ العَقْلَ، وَقِيَمٌ وَعَادَاتٌ وَمَبَادِئُ تَسْمُو بِالإِنْسَانِ وَتُجَمِّلُ الحَيَاةَ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٥١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده – رضي الله عنهم، والنسائي (٤٧٤٩) عن علي رضي الله عنه، وابن ماجه (٢٦٨٣)، وصححه الألباني.

وَإِنَّ مُهِمَتَنَا هِيَ أَنْ نَبُثَّ آدَابَ وَتَقَالِيدَ مُجْتَمَعِنَا بَيْنَ أَوْلادِنَا، وأنَّ نرَبِّيَهم عَلَيْهَا، لا سِيمَا وَأَنَّ أَيَادِي الهَدْمِ وَالتَّخْرِيبِ فِي المجْتَمَعِ المسْلِمِ فِي هَذَا العَصْرِ صَارَتْ عَدِيدَةً وَمُتَنَوِّعَةً. ولله دَرُّ القَائِل:

مَتَى يَبْلُغُ البُنْيَانُ يوماً تَمَامَهُ   إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ

فَسرُّ خَلْطَتِنَا فِي تَمَاسُكِنَا مَعَ بَعْضِنَا وَقِيَمِنَا وَأَخْلاقِنَا وَآدَابِنَا.



* كلمات وأمثال، قيم ومعانٍ، حرصنا على ذكرها وجعلها بين يدي المسلمين بطريقة محببة إليهم، وبأسلوب مشوِّق مع الربط ليومياتهم من خلال اختيار ثلاثية منتقاة من الأمثال الشعبية، وإرجاعها إلى أصولها عند العرب، وحرصنا على استنباط المعاني التربوية والقيم المجتمعية منها.

* وكذلك أيضًا اخترنا ثلاثية أخرى من الكلمات الشعبية الخليجية لنرجعها إلى أصولها العربية، ونستلهم من بين طياتها المعاني المجتمعية.

* وإتمامًا للموضوع نظرنا في كتب غريب الحديث لنأخذ ثلاثية أخرى مما صح في هذا الباب لنعمل أيضًا على إسقاطها على أرض الواقع في البناء المجتمعي التربوي.

فجاء الكتاب مفعمًا بالتوجيهات المجتمعية المبنية على الكتاب والسنة، والمدعمة بأقوال السلف، والمستفاد في بيانها مما ورد في كتب الأدب من المنثور والمنظوم.

* وهي دعوة لكل أب وأستاذ في الجامعة أن يجعل في مقدمة حديثه مع أبنائه أو طلابه مقدمة إيمانية تربوية مأخوذة من تلك الثلاثيات فهي كنز وافر مما كتب في كتب السلوك عند سلف هذه الأمة.

المؤلف



مؤسسة السماحة
للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت: ت/٩٩٥٥٧٤٧١ الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص. ب: ٦٦٥٢٠
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com